المنهج الموضوعي

لشرح أبيات الحماسة لأكابر البدعة

المجلد الرابع

تأليف:
الدكتور محمد رضا مجادري

وفق فتح الأستاذ الرائد
محمد واعظ زاده الخراساني

بسم الله الرحمن الرحيم

المنهج الموضوعي

لشرح ابن أبي الحديد لكتاب نهج البلاغة



المجلد الرابع

تأليف:
الدكتور محمد رضا بهادري

وفق نهج الأستاذ الراحل
محمد واعظ زاده الخراساني

بإشراف
محمد حسن مؤمن زاده

[شرح نهج البلاغه]
المنهج الموضوعي لشرح ابن ابي الحديد لكتاب نهج البلاغة/تأليف محمدرضا بهادري. بإشراف محمّدحسن مؤمن زاده. ـ مشهد: مجمع البحوث الإسلاميّة، ١٤٣٣ق. = ١٣٩٠ش.
ISBN 978-600-06-0276-5 (ج ۴)
ISBN set 978-964-971-505-6
فيپا.
١. علي بن ابي‌طالب عليه‌السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ۴٠ق. ـ خطبه‌ها. ٢. علي بن ابي‌طالب عليه‌السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ۴٠ق. ـ نامه‌ها ٣. علي بن ابي‌طالب عليه‌السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ۴٠ق. ـ كلمات قصار ۴. علي بن ابي‌طالب عليه‌السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ۴٠ق. ـ نهج البلاغه ـ نقد و تفسير ۵. علي بن ابي‌طالب عليه‌السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ۴٠ق. ـ شرح نهج البلاغه ـ نقد و تفسير الف. ابن ابي‌الحديد، عبدالحميد بن هبة الله، ۵٨۶ ـ ۶۵۵ ق. شرح نهج البلاغه ب. علي بن ابي‌طالب عليه‌السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ۴٠ق. ـ نهج البلاغه. شرح ج. بنياد پژوهشهاي اسلامي. د. عنوان.
١٣٩٢ ٢ الف / ٠۴٢٣ / ٣٨ BP ٢٩٧/٩۵١۵
كتابخانهٔ ملی جمهوری اسلامی ایران ٢۵٩٠۵٩٩

المنهج الموضوعي

لشرح ابن ابي الحديد لكتاب نهج البلاغة

المجلّد الرابع

تأليف: الدكتور محمدرضا بهادرى
بإشراف محمد حسن مؤمن زاده
مقوم: ابراهيم يعقوبيان

الطبعة الأولى: ١۴۴٠ق / ١٣٩٧ش
۵٠٠ نسخة ـ وزيري/ الثمن: ۵٧٠٠٠٠ ريال إيرانيّ
الطّباعة: مؤسّسة الطّبع والنشر التّابعة للآستانة الرضويّة المقدّسة
مجمع البحوث الإسلاميّة، ص.ب ٣۶۶-٩١٧٣۵
هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلاميّة: ٣٢٢٣٠٨٠٣
معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلاميّة، (مشهد) ٣٢٢٣٣٩٢٣، (قم)٣٧٧٣٣٠٢٩
www.islamic-rf.ir info@islamic-rf.ir

حقوق الطبع محفوظة للناشر

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين و الصّلاة و السّلام على نبيّنا محمّد خاتم النّبيّين و على آله الطّاهرين، و صَحبه المنتجبين.

و بعد، فهذه كلمة موجزة حول كتاب «المنهج الموضوعيّ لشرح ابن أبي الحديد» و كان المجلّد الأوّل منه حاوياً خمسة أبواب في المسائل الكلاميّة و الفقهيّة و غيرها، و المجلّد الثّاني بابًا واحدًا في المسائل الأخلاقيّة و العرفانيّة و نحوها، و المجلّد الثّالث خمسة أبواب في المسائل التّاريخيّة و العقائديّة.

و هذا هو المجلّد الرّابع في الخلفاء، و يضمّ قسمًا من الباب الثّاني عشر، و يحتوي نُبَذًا من سيرة الخلفاء: أبي بكر بن أبي قحافة، و عمر بن الخطّاب، و عثمان بن عفّان، و أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام و ما جرى في انتقال الخلافة إلى كلّ واحد منهم.

و يظهر في بعض مواضع من شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة ـ إضافةً إلى قصائده السّبع ـ أنّه ارتقى في حقّ عليّ عليه السلام فوق تفضيله على الصّحابة، و شارك الشّيعة في جميع ما اعتقدوه في فضائل عليّ عليه السلام، و لكن كانت له توجيهات متهرّبة في الخطبة الشّقشقيّة الّتي ابتدأ هذا المجلّد بها و في غيرها من الخطب حول مسألة الخلافة و الإمامة المختصّة بالشّيعة، و كلّها خلاف الظّاهر بل الصّريح، و هذا انحراف منه و تحريف. وقد أشرنا إلى بعض ذلك في محلّه.

و آخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين و سلام على المرسلين.

محمّد حسن مؤمن زاده
مدير قسم القرآن بمجمع البحوث الإسلاميّة
في الآستانة الرّضويّة المقدّسة
٢٣ ذي القعدة، عام ١٤٣٩ هـ ق

الباب الثّاني عشر: في الخلفاء

الفصل الأوّل: [في خلافة أبي بكر بن أبي قُحافة]

(الخطبة: ٣) ومن خطبة له وهي المعروفة بالشِّقْشِقِيَّة[1]:

أَمَا وَاللهِ، لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ[2]، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنْ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى؛ يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلاَ يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ. فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ[3] حَتّى يَلْقَى رَبَّهُ؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا، أَرَى تُرَاثِي نَهْبًا.

[نسب أبي بكر ونبذة من أخبار أبيه]

ابن أبي قحافة المشار إليه، هو أبو بكر، واسمه القديم عبد الكعبة، فسمّاه رسول الله ﷺ عبد الله. واختلفوا في «عَتيق»؛ فقيل: كان اسمه في الجاهليّة، وقيل: بل سمّاه به رسول الله ﷺ.

واسم أبي قُحافة عثمان، وهو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيم ابن مرّة بن كعب بن لُؤيّ بن غالب. وأُمّه ابنة عمّ أبيه، وهي أُمّ الخير بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد. أسلم أبو قحافة يوم الفتح، جاء به ابنُه أبو بكر إلى النّبيّ ﷺ، وهو شيخ كبير، رأسه كالثَّغامة[4] البيضاء، فأسلم، فقال رسول الله ﷺ:

١ـ مخطوطة النّهج: «الشّقشقيّة والمقمصة».

٢ـ مخطوطة النّهج: «فلان».

٣ـ مخطوطة النّهج: «المؤمن».

٤ـ أورد الخبر ابن الأثير في النّهاية (١: ١٢٩): «أُتي بأبي قحافة يوم الفتح وكأن رأسه ثَغامة». وقال: «هو نبتٌ أبيض الزّهر والثّمر، يشبّه به الشّيب. وقيل: هي شجرة تبيضّ كأنّها الثّلج».

«غَيّروا شَيبته».

و ولي ابنُه الخلافة وهو حيّ منقطع في بيته، مكفوف عاجز عن الحركة، فسمع ضوضاءَ النّاس، فقال: ما الخبر؟ فقالوا: ولي ابنُك الخلافة، فقال: رضيَتْ بنو عبد مناف بذلك؟ قالوا: نعم، قال: اللّهمّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطيَ لما منعتَ.

ولم يل الخلافة مَن أبوه حيّ إلّا أبو بكر، وأبو بكر عبد الكريم[1] الطّائع لله، ولي الأمرَ وأبوه المطيع حيّ، خلع نفسَه من الخلافة، وعهِد بها إلى ابنه. وكان المنصورُ يسمّي عبدَ الله بن الحسن بن الحسن[2] أبا قُحافة تهكّمًا به، لأنّ ابنَه[3] محمّدًا ادّعى الخلافة وأبوه حيّ.

ومات أبو بكر وأبو قُحافة حَيّ، فسمِع الأصوات فسأل، فقيل: مات ابنُك، فقال: رُزْء جليل. وتُوُفّي أبو قحافة في أيّام عُمَر في سنة أربع عشرة للهجرة، وعُمْره سبع وتسعون سنة، وهي السّنة الّتي تُوُفّي فيها نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب بن هاشم[4].

إن قيل: بيّنوا لنا ما عندكم في هذا الكلام! أ ليس صريحُه دالًّا على تظليم القوم ونسبتهم إلى اغتصاب الأمر! فما قولُكم في ذلك؟ إن حكمتُم عليهم بذلك فقد طعنتُم

١ـ أُصيب المطيع لله بالفالج، ولمّا قوي عليه وثقل لسانه، خلع نفسه وبويع لولده الطّائع. وكان ذلك في سنة ٣٦٤. الفخريّ: ٢٥٣.

٢ـ كان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، شيخ بني هاشم في وقته، والمقدّم فيهم. وانظر أخباره في مقاتل الطّالبيين: ١٧٩ـ ١٨٥.

٣ـ كان علماء آل أبي طالب يرون في محمّد بن عبد الله بن الحسن أنّه النّفس الزّكية؛ وكان أفضل أهل بيته في علمه بكتاب الله وحفظه له. مع فقهه في الدّين وشجاعته وجوده وبأسه وكلّ أمر يجمل بمثله. وانظر ترجمته وأخباره في مقاتل الطّالبيّين: ٢٣٢ـ ٢٩٩.

٤ـ هو ابن عمّ رسول الله ﷺ، له صحبة و كان أسنّ مَن أسلم مِن بني هاشم، حتّى من عمَّيْه حمزة والعبّاس. الإصابة ٦: ٢٥٨.

فيهم، وإن لم تحكموا عليهم بذلك، فقد طعنتم في المتظلّم المتكلّم عليهم!

قيل: أمّا الإماميّة من الشّيعة فتُجري هذه الألفاظ على ظواهرها، وتذهب إلى أنّ النّبيّ ﷺ نَصّ على أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّه غُصب حقّه.

وأمّا أصحابُنا رحمهم الله، فلهم أن يقولوا: إنّه لمّا كان أميرُ المؤمنين عليه السلام هو الأفضل والأحقّ، وعُدِل عنه إلى مَنْ لا يساويه في فضل، ولا يوازيه في جهاد وعِلم؛ ولا يماثله في سُؤدد وشرف ـ ساغَ إطلاقُ هذه الألفاظ، وإن كان مَن وُسِم بالخلافة قبله عَدْلًا تقيًّا، وكانت بيعتُه بيعة صحيحة. ألا ترى أنّ البلد قد يكون فيه فقيهان: أحدُهما أعلمُ من الآخر بطبقاتٍ كثيرة، فيَجعل السُّلطان الأنقصَ عِلمًا منهما قاضيًا، فيتوجَّد الأعلم[1] ويتألّم، وينفُث أحيانًا بالشّكوى، ولا يكون ذلك طعنًا في القاضي ولا تفسيقًا له، ولا حُكمًا منه بأنّه غير صالح، بل للعدول عن الأحقّ والأوْلى! وهذا أمر مركوز في طباع البشر، ومجبول في أصل الغريزة والفطرة. فأصحابُنا رحمهم الله، لمّا أحسنُوا الظّنّ بالصّحابة، وحمَلوا ما وقع منهم على وجه الصّواب، وأنّهم نظروا إلى مصلحة الإسلام، وخافوا فتنةً لا تقتصر على ذهاب الخلافة فقط، بل وتُفضي إلى ذهاب النّبوّة والملّة، فعدَلوا عن الأفضل الأشرف الأحقّ، إلى فاضلٍ آخر دونه، فعقدوا له ـ احتاجوا إلى تأويل هذه الألفاظ الصّادرة عمَّن يعتقدونه في الجلالة والرِّفعة قريبًا من منزلة النّبوّة، فتأوّلوها بهذا التّأويل، وحملوها على التّألّم، للعدول عن الأوْلى.

وليس هذا بأبْعَد من تأويل الإماميّة قولَه تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[2] وقولهم: معنى «عَصَىٰ» أنّه عَدَل عن الأوْلى، لأنّ الأمر بترك أكل الشّجرة كان أمرًا على سبيل النّدب، فلمّا تركه آدم، كان تاركًا للأفضل والأوْلى، فسمّي عاصيًا باعتبار مخالفة الأوْلى، وحملوا «غَوَىٰ» على «خاب» لا على الغواية بمعنى الضّلال. ومعلوم أنّ تأويلَ كلام أمير المؤمنين عليه السلام وحَمْلَه على أنّه شكا من تركهم الأوْلى أحسن من حَمْل

---

١ ـ ب: «الأعظم»، والأجود ما أثبته من ا.

٢ ـ طه / ١٢١.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾[١] على أنّه تَرَك الأوْلى.

إن قيل: لا تخلو الصّحابة إمّا أن تكون عدلت عن الأفضل لِعلّة ومانع في الأفضل أَو لا لمانع؛ فإن كان لا لمانع، كان ذلك عقدًا للمفضول بالهوى، فيكون باطلًا، وإن كان لمانع ـ وهو ما تذكرونه من خوف الفتنة، وكَوْن النّاس كانوا يبغضون عليًّا عليه السلام ويحسدونه ـ فقد كان يجب أن يَعْذِرهم أميرُ المؤمنين عليه السلام في العدول عنه، ويعلم أنّ العقد لغيره هو المصلحة للإسلام، فكيف حسُن منه أن يشكوهم بعد ذلك ويتوجّد عليهم! وأيضًا، فما معنى قوله: «فطفِقْت أرتئي بين أن أصول بيد جَذّاء» على ما تأوّلتم به كلامه؟ فإنّ تارك الأوْلى لا يُصال عليه بالحرب!

قيل: يجوز أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لم يغلِبْ على ظنّه ما غلَب على ظنون الصّحابة من السّغْب وثَوران الفتنة، والظّنونُ تختلف باختلاف الأمارات، فرُبّ إنسان يغلب على ظنّه أمر يغلب على ظنّ غيره خلافُه. وأمّا قوله: «أرتئي بين أنْ أصول» فيجوز أن يكون لم يَعْنِ به صِيالَ الحرب، بل صيال الجدَل والمناظرة؛ يبيّن ذلك أنّه لو كان جادلهم وأظهر ما في نفسه لهم، فربّما خَصموه بأن يقولوا له: قد غلب على ظُنوننا أنّ الفساد يعظُم ويتفاقم إن وَليت الأمر، ولا يجوز مع غَلَبة ظنوننا لذلك أن نسلِّم الأمر إليك، فهو عليه السلام قال: طفقت أرتئي بين أن أذكرَ لهم فضائلي عليهم وأحاجَّهم بها، فيجيبوني بهذا الضّرب من الجواب ـ الّذي تصير حُجّتي به جَذّاء مقطوعة، ولا قدرةَ لي على تشييدها ونصرتها ـ وبين أن أصبِرَ على ما مُنِيت به، ودُفِعْت إليه.

إن قيل: إذا كان عليه السلام لم يغلب على ظنّه وجودُ العلّة والمانع فيه، وقد استراب الصّحابةَ وشكاهم لعدُولهم عن الأفضل الّذي لا علّة فيه عنده فقد سلّمتُم أنّه ظَلَم الصّحابة ونسبهم إلى غصب حَقّه، فما الفرق بين ذلك وبين أن يستظلمَهم لمخالفة النّصّ؟ وكيف هربتم من نسبته لهم إلى الظّلم لدفع النّصّ، و وقعتم في نسبته لهم إلى الظّلم لخلاف الأوْلى من غير علّة في الأوْلى! ومعلوم أن مخالفة الأوْلى من غير علّة في

١ـ نفس المصدر.

الأوْلى كتارك النّصّ، لأنّ العقد في كلا الموضعين يكون فاسدًا!

قيل: الفرق بين الأمرين ظاهر، لأنّه عليه السلام لو نسَبهم إلى مخالفة النّصّ لوجب وجود النّصّ، ولو كان النّصّ موجودًا[1] لكانوا فُسّاقًا أو كفّارًا لمخالفته. وأمّا إذا نَسَبهم إلى ترك الأوْلى من غيرِ علّة في الأوْلى، فقد نسبهم إلى أمرٍ يَدّعون فيه خلافَ ما يَدّعي عليه السلام، وأحد الأمرين لازم؛ وهو إمّا أن يكون ظنّهم صحيحًا، أو غير صحيح، فإن كان ظنّهم هو الصّحيح فلا كلام في المسألة، وإن لم يكن ظنّهم صحيحًا كانوا كالمجتهد إذا ظنّ وأخطأ، فإنّه معذور. ومخالفةُ النّصّ خارج عن هذا الباب؛ لأنّ مخالفَه غير معذور بحال، فافترق المحملان. (١: ١٥٥ـ ١٥٩)

[أمر المهاجرين والأنصار بعد بيعة أبي بكر]

وروى الزّبير بن بكّار في «الموفقيّات» قال: لمّا بايع بشير بن سعد أبا بكر، وازدحَم النّاس على أبي بكر فبايعوه، مَرّ أبو سفيان بن حرب بالبيت الّذي فيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فوقف وأنشَد:

بَني هاشمٍ لا تطمِعُوا النّاس فيكم ... ولا سيَّما تَيم بن مرّة أو عديّ
فما الأمر إلّا فيكمُ وإليكمُ ... وليس لها إلّا أبو حسن عليّ
أبا حَسَنٍ فاشدُد بها كفّ حازم ... فإنّك بالأمر الّذي يرتجى مليّ
وأيّ امرئ يرمي قصيّا ورأيها ... منيع الحمى والنّاس من غالب قصيّ

فقال عليّ لأبي سفيان: إنّك تريدُ أمرًا لسْنَا من أصحابه، وقد عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهدًا فإنّا عليه؛ فتركه أبو سفيان وعدل إلى العبّاس بن عبد المطّلب في

(١) النّصّ موجود و هو حديث الغدير و المنزلة و غيرهما من الأحاديث الكثيرة الّتي ذكرها ابن أبي الحديد في تضاعيف كلامه.

منزله، فقال: يا أبا الفضْل[١]، أنت أحقّ بميراث ابن أخيك، امدد يدك لأُبايعك، فلا يختلف عليك النّاس بعد بيعتي إيّاك. فضحِك العبّاس وقال: يا أبا سفيان، يدفعها عليّ ويطلبُها العبّاس! فرجع أبو سفيان خائبًا [تقدّم هذا البحث بأكمله في المجلّد الثّالث، صفحة ٥٠٠ الى ٥٢٦]. (٦: ١٧ـ٤٥)

[ما روي من أمر فاطمة عليها السلام مع أبي بكر]

فأمّا ما رواه البخاري ومسلم في الصّحيحين[٢] من كيفيّة المبايعة لأبي بكر بهذا اللّفظ الّذي أورده عليك، والإسناد إلى عائشة أنّ فاطمة والعبّاس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من النّبيّ صلى الله عليه وآله، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدَك وسهمه من خيبر، فقال لهما أبو بكر: إنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّا معشر الأنبياء لا نُورّث، ما تركناه صدقة، إنّما يأكل آل محمّد من هذا المال»، وإنّي والله لا أدعُ أمرًا رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يصنعه إلّا صنعته. فهجرتْه فاطمةُ ولم تكلّمه في ذلك حتّى ماتت. فدفنها عليٌّ ليلًا، ولم يؤذِن بها أبا بكر، وكان لعليّ وجه[٣] من النّاس في حياة فاطمة. فلمّا تُوُفّيت فاطمة انصرفت وجوهُ النّاس عن عليّ[٤]، فمكثت فاطمة ستّة أشهر ثمّ تُوُفّيت.

فقال رجلٌ للزّهريّ وهو الرّاوي لهذا الخبر عن عائشة: فلم يبايعه عليّ ستّة أشهر! قال: ولا أحَد من بني هاشم حتّى بايعه عليّ. فلمّا رأى ذلك ضرَع إلى مبايعة أبي بكر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا، ولا يأت[٥] معك أحَد، وكره أن يأتيَه عمر لما عرف

١ـ كذا في ب،ج، وفي ا: «أنت لها».

٢ـ صحيح البخاري ٢: ١٨٦، ومسلم ٣: ١٣٨٠ مع اختلاف في لفظ الحديث.

٣ـ مسلم: «وجهة».

٤ـ مسلم: «استنكر على وجوه النّاس».

٥ـ مسلم: «ولا يأتنا».

من شدّته. فقال عمر: لا تأتهم وحدك، فقال أبو بكر: والله لآتينّهم وحدي، وما عسى أن يصنعوا بي؟ فانطلق أبو بكر حتّى دخل على عليّ، وقد جمَع بني هاشم عنده، فقام عليّ فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهلهُ، ثمّ قال: أمّا بعد، فإنّه لم يمنعْنا أنْ نبايعَك يا أبا بكر إنكارٌ لفضلك، ولا منافسةٌ لخيرٍ ساقه الله إليك[1]، ولكنّا كنّا نرى أنّ لنا في هذا الأمر حقًّا، فاستبددتم به علينا. وذكر قرابتَه من رسول الله ﷺ وحقَّه، فلم يزل عليّ يذكر ذلك حتّى بكى أبو بكر. فلمّا صمَت عليّ تَشَهّد أبو بكر، فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ قال: أمّا بعد، فوالله لقرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ أن أصلَها من قرابتي، وإنّي والله ما آلوكم من هذه الأموال الّتي كانت بيني وبينكم إلّا الخير؛ ولكنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نُورّث ما تركناه صدقة، وإنّما يأكل آل محمّد في هذا المال»، وإنّي والله لا أترك أمرًا صنَعه رسول الله ﷺ إلّا صنعتُه إن شاء الله. قال عليّ: موعدك العشيّة للبيعة. فلمّا صلّى أبو بكر الظّهر، أقبل على النّاس ثمّ عذَر عليًّا[2] ببعض ما اعتذر به، ثمّ قام عليّ فعظّم مِن حقّ أبي بكر، وذكر فضله وسابقته، ثمّ مضى إلى أبي بكر فبايعه، فأقبل النّاس إلى عليّ، فقالوا: أصبتَ وأحسنتَ. وكان عليّ قريبًا إلى النّاس حين قارب الأمر بالمعروف.

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز، قال: حدّثني أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدّثني إبراهيم بن المنذر، قال: حدّثنا ابن وهب، عن ابن لَهيعَة، عن أبي الأسود، قال: غَضِب رجال من المهاجرين في بيعة أبي بكر بغير مشورة، وغضب عليّ والزّبير، فدخلا بيت فاطمة، معهما السّلاح. فجاء عمر في عِصابة، فيهم أُسَيْد بن حُضَيْر،

---

(١) نسبة هذه الكلمات إلى أمير المؤمنين ﷺ غير صحيحة، لأنّه يخالف ما قاله في الخطبة الشِّقْشِقيّة: «أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَإِنَّه لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى ... وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءٍ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاء» (كما أشار اليه ابن أبي الحديد في بداية هذا الفصل) ومناقضٌ لِما ذكره عن أبي بكر أحمد بن عبد العزيز في سطور لاحقًا.

٢ ـ مسلم: «وذكر شأن عليّ وتخلّفه عن البيعة وعذره الّذي اعتذر إليه».

وسلمة بن سلامة بن قريش؛ وهما من بني عبد الأشهل، فاقتحما الدّار، فصاحت فاطمة وناشدتهما الله، فأخذوا سيفيْهما، فضربوا بهما الحجر حتّى كسروهما، فأخرَجهما عمر يسوقُهما حتّى بايعا. ثمّ قام أبو بكر، فخطب النّاس، فاعتذر إليهم، وقال: إنّ بيعتي كانت فَلْتة وقَى الله شَرّها، وخشيتُ الفتنة، وايمُ الله ما حرصتُ عليها يومًا قطّ، ولا سألتُها الله في سرٍّ ولا علانية قطّ، ولقد قُلّدتُ أمرًا عظيمًا ما لي به طاقة ولا يَدَان، ولقد وددتُ أنّ أقوى النّاس عليه مكاني. فقبِل المهاجرون وقال عليّ والزّبير: ما غضِبْنا إلّا في المشورة، وإنّا لنرى أبا بكر أحقَّ النّاس بها[1]، إنّه لصاحبُ الغار وثاني اثنين، وإنّا لنعرفُ له سِنَّه، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصّلاة وهو حيّ.

قال أبوبكر: وذكر ابنُ شهاب بن ثابت أنّ قيس بن شمّاس أخا بني الحارث من الخزرج، كان مع الجماعة الّذين دخلوا بيت فاطمة. قال: وروى سعد بن إبراهيم أنّ عبد الرّحمن بن عوف كان مع عمر ذلك اليوم، وأنّ محمّد بن مسلمة كان معهم، وأنّه هو الّذي كسر سيفَ الزّبير.

قال أبوبكر: وحدّثني أبو زيد عمر بن شبّة، عن رجاله، قال: جاء عمر إلى بيت فاطمة في رجالٍ من الأنصار ونفرٍ قليل من المهاجرين، فقال: والّذي نفسي بيده لتَخرجنّ إلى البيعة أو لأَحرقنّ البيت عليكم. فخرج إليه الزّبير مُصلِتًا بالسّيف، فاعتنقه زياد بن لَبيد الأنصاريّ ورجل آخر، فندَر[2] السّيفُ من يده، فضرب به عمر الحجر فكسره، ثمّ أخرجهم بتلابيبهم يساقون سَوقًا عنيفًا، حتّى بايعوا أبا بكر.

---

(١) نسبة هذه الكلمات إلى أمير المؤمنين عليه السلام غير صحيحة، لأنّها تُخالِف ما قاله في الخطبة الشِّقْشِقيّة: «أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَإِنَّه لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلَّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى ... فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَذا أَحْجَى، فَصَبَرْتُ وفِي الْعَيْنِ قَذًى وفِي الْحَلْقِ شَجًى، أَرَى تُرَاثِي نَهْبًا» (كما أشار اليه ابن أبي الحديد في بداية هذا الفصل)، وتُناقِض اجتماع بعض الصّحابة في بيت عليٍّ وفاطمة عليهما السلام اعتراضًا على هذه البيعة (كما رواه ابن أبي الحديد آنفًا).

٢ـ ندر: سقط.

قال أبو زيد: وروى النَّضر بن شُمَيِّل، قال: حُمِل سيف الزّبير لمّا ندَر من يده إلى أبي بكر وهو على المنبر يخطب، فقال: اضْربوا به الحجر، قال أبو عمرو بن حِماس: ولقد رأيت الحجر وفيه تلك الضّربة، والنّاس يقولون: هذا أثر ضربة سيف الزّبير.

قال أبو بكر: وأخبرني أبو بكر الباهليّ، عن إسماعيل بن مجالد، عن الشّعبيّ، قال: قال أبو بكر: يا عمر، أين خالد بن الوليد؟ قال: هو هذا، فقال: انطلِقا إليهما ـ يعني عليًّا والزّبير ـ فأتياني بهما. فانطلقا فدخل عمر ووقف خالد على الباب من خارج، فقال عمر للزّبير: ما هذا السّيف؟ قال: أعددته لأُبايع عليًّا، قال: وكان في البيت ناس كثير؛ منهم المقداد بن الأسود وجمهور الهاشميّين، فاخترط عمر السّيف فضرب به صخرة في البيت فكسَره، ثمّ أخذ بيد الزّبير، فأقامه ثمّ دفعه فأخرجه، وقال: يا خالد، دونك هذا، فأمسَكه خالد ـ وكان خارج[1] البيت مع خالد جمعٌ كثيرٌ من النّاس، أرسلهم أبو بكر ردءًا لهما، ثمّ دخل عمر فقال لعليّ: قم فبايع، فتلكّأ واحتبس[2] فأخذ بيده وقال: قم، فأبى أن يقومَ، فحمله ودفعه كما دفع الزّبير، ثمّ أمسكهما خالد، وساقهما عمر ومَن معه سَوقًا عنيفًا، واجتمع النّاس ينظرون، وامتلأت شوارع المدينة بالرّجال، ورأت فاطمة ما صنع عمر، فصرخت وولولت، واجتمع معها نساء كثير من الهاشميّات وغيرهنّ؛ فخرجت إلى باب حجرتها ونادت: يا أبا بكر، ما أسرع ما أَغَرْتُم على أهل بيت رسول الله! والله لا أُكلّم عمر حتّى ألقى الله. قال: فلمّا بايع عليّ والزّبير وهدأت تلك الفَوْرة، مشَى إليها أبو بكر بعد ذلك فشفَع لعمر، وطلب إليها فرضيتْ عنه[3].

١ـ ب: «في خارج البيت».

٢ـ احتبس: توقّف.

(٣) هذا معارضٌ لِما نقَله ابن أبي الحديد في الصّفحة ١٣ من هذا الكتاب عن البخاريّ ومسلم في الصّحيحيْن: «فهجرتْه فاطمةُ ولم تكلّمْه في ذلك حتّى ماتتْ»، ولِما قاله في الصّفحة ١٧ من هذا الكتاب: «والصّحيح عندي أنّها ماتتْ وهي واجدةٌ على أبي بكر وعمرَ، وأنّها أوصتْ ألّا يصلّيا عليها».

قال أبوبكر: وحدّثني المؤمل بن جعفر، قال: حدّثني محمّد بن ميمون، قال: حدّثني داود بن المبارك، قال: أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ونحن راجعون من الحجّ في جماعة، فسألناه عن مسائلَ، وكنتُ أحد مَن سأله، فسألتُه عن أبي بكر وعمر، فقال: أُجيبك بما أجاب به جَدّي عبد الله بن الحسن، فإنّه سئل عنهما فقال: كانت أُمّنا صِدّيقة ابنة نبيّ مرسل، وماتت وهي غضبَى على قوم، فنحن غِضاب لغضبها.

قلت: قد أخذ هذا المعنى بعض شعراء الطالبيّين من أهل الحجاز، أنشدنيه النَّقيب جلال الدين عبد الحميد بن محمّد بن عبد الحميد العلَويّ، قال: أنشدني هذا الشّاعر لنفسه ـ وذهب عنّي أنا اسمه ـ قال:

يا أبا حفص الهُوَيْنَى و ما كنـ ـتَ مليًّا بذاك لولا الحمامُ
أ تموتُ البتولُ غَضْبَى ونَرضَى ما كذا يصنعُ البنون الكرامُ

يخاطب عمر ويقول له: مهلًا ورويدًا[1] يا عمر، أى ارفُقْ واتَّئِدْ ولا تعنُفْ بنا. وما كنتَ مليًّا، أى وما كنتَ أهلًا لأن تخاطَب بهذا وتستعطف، ولا كنتَ قادرًا على ولوج دار[2] فاطمة على ذلك الوجه الّذي ولجتَها عليه، لولا أنّ أباها الّذي كان بيتها يحترم ويُصان لأجله مات، فطمع فيها من لم يكن يطمع. ثمّ قال: أ تموت أُمّنا وهي غضبَى ونرضَى نحن! إذًا لسنا بكرام؛ فإنّ الولد الكريم يرضى لرضى أبيه وأُمّه ويغضب لغضبهما.

والصّحيح عندي أنّها ماتت وهي واجدة على أبي بكر وعمرَ، وأنّها أوصتْ ألّا يصلّيا عليها، وذلك عند أصحابنا من الأُمور المغفورة لهما. وكان الأوْلى بهما إكرامَها واحترامَ منزلها لكنّهما خافا الفرقة وأشفقا من الفتنة، ففعلا ما هو الأصلحُ بحسب

١ـ ب: «رويدًا».

٢ـ ج: «بيت».

ظنّهما؛ وكانَا من الدِّين وقوّة اليقين بمكان مكين، لا شكّ في ذلك، والأُمور الماضية يتعذّر الوقوف على عِلَلها وأسبابها، ولا يَعلَم حقائقَها إلّا مَن قد شاهدها ولابسها، بل لعلّ الحاضرين المشاهدين لها لا يعلمون باطن الأمر؛ فلا يجوز العدولُ عن حسن الاعتقاد فيهما بما جرى. والله وليّ المغفرة والعفو. فإنّ هذا لو ثبت أنّه خطأ لم يكن كبيرة، بل كان من باب الصّغائر الّتي لا تقتضي التّبرّي، ولا توجب زوال التّولّي.

قال أبوبكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدّثنا محمّد بن حاتم، عن رجاله، عن ابن عبّاس، قال: مرّ عُمَر بعليّ، وأنا معه بفِناء داره فسلّم عليه، فقال له عليّ: أين تريد؟ قال: البقيع، قال: أ فلا تصل صاحبك[1]، ويقوم معك؟ قال: بلى، فقال لي عليّ: قم معه، فقمتُ فمشيتُ إلى جانبه، فشبّك أصابعه في أصابعي، ومشَيْنا قليلًا، حتّى إذا خلّفنا البقيع قال لي: يابن عبّاس، أما والله إنّ صاحبَك هذا لأوْلَى النّاس بالأمر بعد رسول الله ﷺ، إلّا أنّا خفناه على اثنين قال ابن عبّاس: فجاء بكلام لم أجد بُدًّا من مسألته عنه فقلت: ما هما يا أمير المؤمنين؟ قال: خِفْناه على حداثه سنِّه، وحبّه بني عبد المطّلب.

قال أبو بكر: وحدّثني أبو زيد، قال: حدّثني محمّد بن عباد، قال: حدّثني أخي سعيد بن عباد، عن اللّيث بن سعد، عن رجاله، عن أبي بكر الصّدّيق أنّه قال: ليتني لم أكشِفْ بيتَ فاطمة، ولو أعلن عليٌّ الحرب.

قال أبو بكر: وحدّثنا الحسن بن الربيع، عن عبد الرّزّاق، عن مَعْمر، عن الزُّهري، عن عليّ بن عبد الله بن العبّاس عن أبيه، قال: لمّا حضرتْ رسول الله ﷺ الوفاة، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطّاب، قال رسول الله ﷺ: ائتوني بدواةٍ وصحيفة أكتب لكم كتابًا لا تضلّون بعدي. فقال عمر كلمةً معناها أنّ الوَجَع قد غلَب على رسول الله ﷺ، ثمّ قال: عندنا القرآن، حسبُنا كتاب الله. فاختلف مَن في البيت واختصموا؛ فمِن قائل يقول: القول ما قال رسول الله ﷺ، ومِن قائل يقول: القول ما

١ـ ب: «نصل جناحك ونقوم معك».

قال عمر. فلمّا أكثرُوا اللّغط واللّغو والاختلاف، غضِب رسول الله فقال: «قوموا؛ إنّه لا ينبغي لنبيّ أن يختلف عنده هكذا»، فقاموا. فمات رسول الله ﷺ في ذلك اليوم. فكان ابن عبّاس يقول: إنّ الرّزيّة كلّ الرّزيّة ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله ﷺ ـ يعني الاختلاف واللّغط.

قلت: هذا الحديث قد خَرّجه الشّيخان محمّد بن إسماعيل البخاريّ، ومسلم بن الحجّاج القشيريّ في صحيحيهما[1]، واتّفق المحدّثون كافّة على روايته.

قال أبو بكر: وحدّثنا أبو زيد، عن رجاله، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: إن تولّوها أبا بكر تجدُوه ضعيفًا في بدَنه قويًّا في أمر الله، وإن تولّوها عمر تجدوه قويًّا في بدنه قويًّا في أمر الله، وإنْ تولّوها عليًّا ـ وما أراكم فاعلين ـ تجدوه هاديًا مهديًّا، يحملكم على المحجّة البيضاء والصّراط المستقيم.

قال أبو بكر: وحدّثنا أحمد بن إسحاق بن صالح، عن أحمد بن سيّار، عن سعيد ابن كثير الأنصاري، عن رجاله، عن عبد الله بن عبد الرّحمن، أنّ رسول الله ﷺ في مرض موتِه أمّر أُسامة بن زيد بن حارثة على جيش فيه جلّةُ المهاجرين والأنصار؛ منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجرّاح وعبد الرّحمن بن عوف وطلحة والزّبير، وأمرَه أن يُغير على مؤتة حيث قتل أبوه زيد، وأن يغزو واديَ فلسطين. فتثاقل أُسامة وتثاقل الجيش بتثاقُله، وجعل رسول الله ﷺ في مرضه يثقُل ويخِفّ، ويؤكّد القول في تنفيذ ذلك البعث، حتّى قال له أُسامة: بأبي أنت وأُمّي! أ تأذن لي أن أمكُث أيّامًا حتّى يَشفِيَك الله تعالى! فقال: اخْرج وسرْ على بركة الله، فقال: يا رسول الله، إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال خرجت وفي قلبي قَرْحة منك، فقال: سرْ على النّصر والعافية، فقال: يا رسول الله، إنّي أكره أن أسأل عنك الرُّكبان، فقال: انفذْ لما أمرتُك به. ثمّ أُغمِي على رسول الله ﷺ، وقام أُسامة فتجهّز للخروج، فلمّا أفاق رسول الله ﷺ سأل عن أُسامة والبعث، فأُخبِر أنّهم يتجهّزون، فجعل يقول: «أنفِذوا بعث أُسامة،

---

١ ـ صحيح مسلم: ١٢٥٩.

لعن الله مَن تخلّف عنه»، وكرّر[1] ذلك.

فخرج أُسامة واللّواء على رأسه والصّحابة بين يديه؛ حتّى إذا كان بالجُرْف نزل ومعه أبو بكر وعمر وأكثر المهاجرين، ومن الأنصار أُسَيْد بن حُضَيْر وبشير بن سعد وغيرهم من الوجوه، فجاءه رسولُ أُمّ أيمن يقول له: ادْخُل فإنّ رسول الله يموت، فقام من فوره، فدخَل المدينة واللّواء معه، فجاء به حتّى ركَزه بباب رسول الله، ورسول الله قد مات في تلك السّاعة. قال: فما كان أبو بكر وعمر يخاطبان أُسامة إلى أن ماتا إلّا بالأمير. (٦: ٤٦ـ٥٢)

[رسالة أبي بكر لعليّ عليه السلام في شأن الخلافة، رواية أبي حامد المَرْوَرّوذيّ]

وروى القاضي أبو حامد أحمد بن بشير المَرْوَرّوذيّ العامريّ فيما حكاه عنه أبو حيّان التّوحيديّ، قال أبو حيّان: سَمَرنا عند القاضي أبي حامد ليلةً ببغداد بدار ابن جيشان، في شارع الماذيان. فتَصرّف الحديث بنا كلّ متصرّف، وكان والله مِعَنًّا[2] مِزْيَلًا مِخْلَطًا[3] عزيزَ[4] الرّواية، لطيف الدّراية [له] في كلّ جوّ متنفّس، وفي كلّ نار مُقتَبس. فجرى حديث السّقيفة وتنازع القوم الخلافة؛ فركب كلٌّ مِنّا فنًّا وقال قولًا، وعرّض بشيء ونزع إلى مذهب.

فقال أبو حامد: هل فيكم مَن يحفَظ رسالة أبي بكر إلى عليّ، وجواب عليّ له ومبايعته إيّاه عَقيب تلك الرّسالة؟ فقالت الجماعة: لا والله. فقال: هي والله من دُرَر

١ـ ج: «وتكرّر».

٢ـ المعنّ: الخطيب المتصرّف.

٣ـ يقال رجل مِخلَط: أي فائق رائق.

٤ـ في صبح الأعشى: «غزير».

الحِقاق المصونة[١]، ومُخَبّآت الصّناديق في الخزائن المحوطة، ومنذ حفظتها ما رويتُها إلّا للمهلّبي[٢] في وزارته، فكتبها عنّي في خَلوة بيده. وقال: لا أعرف في الأرض رسالةً أعقل منها ولا أبين، وإنّها لتدلّ على عِلم وحُكْم وفصاحة وفقاهة، في دين ودَهاء، وبُعد غَوْر وشدّة غَوْص. فقال له واحدٌ من القوم: أيّها القاضي، فلو أتممت المنّة علينا بروايتها سمعناها وروَيناه عنك؛ فنحنُ أوْعَى لها من المهلّبيّ وأوجب ذِمامًا عليك.

فقال: هذه الرّسالة رواها عيسى بن دأب، عن صالح بن كيسان، عن هشام بن عُروة، عن أبيه عُروة بن الزّبير، عن أبي عبيدة بن الجرّاح.[٣] قال أبوعبيدة: لمّا استقامت الخِلافة لأبي بكر بين المهاجرين والأنصار، ولحَظ بعيْن الوقار والهيبة ـ بعد هَنَةٍ[٤] كادَ الشّيطان بها يسرّ فدفع الله شرّها، وأدحض عسرها، فركّد كَيدها، وتيسّر خيرها، وقصَم ظهر النّفاق والفسق بين أهلها ـ بلَغ أبا بكر عن عليّ عليه السلام تلكّؤٌ وشِماس وتهمْهُمٌ[٥] ونِفاس، فكَرِه أن يتمادى الحال وتبدُوَ له العورة، وتنفرجَ[٦] ذاتُ البين، ويصيرَ ذلك ذَريئَة لجاهل مغرور، أو عاقل ذي دَهاء، أو صاحب سلامة ضعيف القلب خوّار العنان؛ دعاني في خلوة فحضرته، وعنده عمر وحدَه ـ وكان عمر قبسًا له وظهيرًا معه، يستضيء بناره ويستملي من لسانه.

فقال لي: يا أبا عبيدة، ما أيْمَنَ ناصيتك، وأبيَنَ الخير بين عارضيْك! لقد كنتَ من

١ـ صبح الأعشى: «من بنات الحقائق»، والحقاق هنا: جمع حق- بالضّمّ- وهو الوعاء.

٢ـ صبح الأعشى: «لأبي محمد المهلّبيّ».

٣ـ في صبح الأعشى: «حدّثنا الخزاعيّ بمكّة، عن أبي ميسرة، قال: حدّثنا محمد بن أبي فليح، عن عيسى بن دأب المتاح، قال: سمعت مولاي أبا عبيدة يقول:».

٤ـ صبح الأعشى: «بعد فتنة».

٥ـ هَمْهَمَ الرّجل: تكلّم كلامًا خفيًّا. والنّفاس: مصدر نافس، أي: رغب في الشّيء. وفي نهاية الأرَب وصبح الأعشى: «تهمم».

٦ـ نهاية الأرَب: «وتفرق».

رسول الله ﷺ بالمكان المحوط، والمحلّ المغبُوط، ولقد قال فيك في يوم مشهود: «أبو عبيدة أمين هذه الأُمّة»، وطالَما أعزّ الله الإسلام بك، وأصلح ثَلْمه على يديك، ولم تزلْ للدّين ناصرًا وللمؤمنين رَوْحًا، ولأهلِك ركنًا، ولإخوانكَ مَردًّا! قد أردتُك لأمر له ما بعده، خطرُه[١] مخوف وصلاحه معروف. ولئن لم يندَمِل جرحُه بمسبارك[٢] ورِفقك، ولم تُجَبَّ حيّته[٣] بُرقيَتك، فقد وقع اليأس، وأعضل البأس، واحتيج بعدك إلى ما هو أمرّ من ذلك وأعلق، وأعسر منه وأغلق، والله أسأل تمامَه بك ونظامَه على[٤] يدك.

فتأَتَّ[٥] له يا أبا عبيدة، وتلطّفْ فيه، وانصحْ لله ولرسوله ولهذه العِصابة، غيرآلٍ جهدًا، ولا قالٍ حمدًا؛ والله كالئك وناصرك وهاديك ومبصّرك. امْضِ إلى عليٍّ، واخفضْ جناحَك له، واغضُضْ من صوتك عنده.

واعلم إنّه سُلالة أبي طالب، ومكانه ممّن فقدناه بالأمس مكانه. قل له: البحر مغرقة، والبرّ مفرقة، والجوّ أكْلَف، واللّيل أغْلَف، والسّماء جلواء، والأرض صلعاء، والصّعود متعذّر، والهبوط متعسّر، والحقّ عطوف رءوف، والباطل نَسوف عَصوف، والعُجب مقدَحة الشّرّ، والضِّغن رائد البوار، والتّعريض شِجار[٦] الفتنة، والقِحة مفتاح العداوة، والشّيطان متّكئٌ على شماله، باسط ليمينه، نافجٌ[٧] حِضنَيه لأهله، ينتظر

١ـ د: «خطره مخوف». صبح الأعشى: «لأمر خطر مخوف».

٢ـ المسبار: الميل الّذي يسبر به الجرح. وفي صبح الأعشى: «بيسارك».

٣ـ الجبّ: القطع عامّة.

٤ـ صبح الأعشى: «يديك».

٥ـ تأتّ: تهيّأ للأمر برفق وحسن حيلة، وفي ب: «تأنّ».

٦ـ الشّجار: مركب أصغر من الهودج، ضربه مثلًا.

٧ـ في اللّسان: «كلّ ما ارتفع فقد نفج وانتفج وتنتفج، ونفجه هو ... ونفجت الشّيء فانتفج، أي رفعته وعظمته ... وفي حديث عليّ: نافجًا حضنيه، كنّى به عن التّعاظم والتّكبر والخيلات». والحضن: الجنب؛ وهما حضنتان.

الشَّتات والفرقة، ويدبّ بين الأُمّة بالشّحناء العداوة، عنادًا لله ولرسوله ولدينه، يوسوِسُ بالفُجور[١]، ويدلِي بالغرور، ويمني أهلَ الشّرور، ويوحي إلى أوليائه بالباطل، دأبًا له منذ كان على عهد أبينا آدم، وعادةً منه منذ أهانه الله في سالف الدّهر؛ لا يُنْجَى[٢] منه إلّا بِعَضّ النّاجذ على الحقّ، وغَضّ الطّرف عن الباطل، و وَطْء هامّة عدوّ الله والدّين بالأشدّ فالأشدّ، والأجدّ فالأجدّ، وإسلام النّفس لله فيما حاز رضاه، وجنّب سخطه. ولا بدّ من قول ينفع إذ قد أضرَّ السُّكوت وخيفَ غِبُّه، ولقد أرشدك مَن أفاء ضالّتك، وصافاك مَن أحيا مودّته لك بعتابك، وأراد الخير بك مَن آثر البُقْيا معك.

ما هذا الّذي تسوّل لك نفسُك، ويَدوَى[٣] به قلبُك، ويلتوي عليه رأيُك، ويتخاوص[٤] دونه طرفك، ويستشري به ضغنك، ويترادُّ معه نَفَسُك، ويكثر لأجله صُعَداؤك، ولا يفيض به لسانُك! أ عُجْمةً بعد إفصاح؛ أ لَبْسًا بعد إيضاح! أ دينًا غير دين الله! أ خُلُقًا غير خُلُق القرآن! أ هَدْيًا غير هَدْي محمّد! أ مثلي يُمشى له الضَّراء ويدبّ له[٥] الخَمَر! أم مثلُك يَغضّ عليه الفضاء، ويكسَف في عينه القمر!

ما هذه القَعْقعة بالشِّنان[٦]، والوَعْوعة باللّسان! إنّك لجدّ عارف[٧] باستجابتنا لله ولرسوله، وخروجنا من أوطاننا وأولادنا وأحبّتنا، هجرةً إلى الله ونُصرةً لدينه، في زمان

١ـ صبح الأعشى: «عنادًا لله عزّوجلّ أوّلًا ولآدم ثانيًا ولنبيّه ﷺ و لدينه ثالثًا، يوسوس بالفجور».

٢ـ صبح الأعشى: «لا مَنجى».

٣ـ دوي الصّدر يدوى، من باب علم: ضغن.

٤ـ تخاوص: غضّ بصره عن الأمر شيئًا.

٥ـ مثلٌ يضرب للرّجل يختل صاحبه ويمكر به. ويقال: ما وارك من أرض فهو الضّراء، وما واراك من شجر فهو الخمر.

٦ـ يقال فلان لا يقعقع له بالشِّنان، أي لا يخدع ولا يروع، وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع.

٧ـ صبح الأعشى: «إنّك والله».

أنت منه في كِنّ الصِّبا وخِدْر الغَرارة، غافل، تُشبّب وتُربّب، لا تَعِي ما يُشاد ويراد، ولا تحصِّل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جارٍ عليه من أخلاق الصِّبيان أمثالك، وسجايا الفتيان أشكالك، حتّى بلغت إلى غايتك هذه الّتي إليها أُجريت[١]، وعندها حُطَّ رحلك، غير مجهولِ القَدْر ولا مجحود الفضل، ونحن في أثناء ذلك نُعاني أحوالًا تزيل الرَّواسي، ونُقاسي أهوالًا تُشيب النّواصي، خائضين غمارها، راكبين تيّارها، نتجرّع صابها، ونُشرِج[٢] عِيابها، ونُحكِم آساسها، ونُبرِم أمراسها، والعيون تحدّج[٣] بالحسد، والأنوف تعطس بالكِبْر، والصُّدُور تَستَعِر بالغَيظ، والأعناق تتطاول بالفخر، والأسنّة[٤] تشحَذ بالمكْر، والأرض تميد بالخوف، لا ننتظر عند المساء صباحًا، ولا عند الصباح مساءً، ولا ندفع في نَحْر أمرٍ إلّا بعد أن نحسُوَ الموت دونه، ولا نبلغ إلى شيء إلّا بعد تجرّع العذاب قبله، ولا نقوّم منادًا إلّا بعد اليأس من الحياة عنده، فأدِين في كلّ ذلك رسول الله ﷺ بالأب والأُمّ، والخال والعمّ، والمال والنّشب، والسّبد[٥] واللّبد، والهِلّة والبِلّة[٦]، بطيب أنفُس وقُرّة أعين، ورُحب أعطان، وثَبَات عزائم، وصحّة عُقول، وطلاقة أوجُه، وذلاقة ألسُن.

هذا إلى خبيئات أسرار، ومكنونات أخبار كنت عنها غافلًا، ولولا سنُّك لم تكُ عن

١ـ صبح الأعشى: «الّتي إليها عدل بك».

٢ـ أشرج العيبة: شدّ عراها.

٣ـ تحدّج: تحدّق.

٤ـ صبح الأعشى: «والشّفار».

٥ـ في اللّسان: «السَّبَد: الوَبَر، وقيل: الشَّعَر؛ والعرب تقول: «ما له سبدٌ ولا لَبَدٌ»، أي ما له ذو وبر ولا صوف متلبّد؛ يكنّى بهما عن الإبل والغنم، وقيل: يكنّى به عن المعز والضّأن ... وقال الأصمعيّ: ما له سبد ولا لبد، أي ما له قليل ولا كثير».

٦ـ في اللّسان: «ما جاء بهلّة ولا بلّة؛ الهلّة من الفرح والاستهلال، والبلّة: أدنى بلل من الخير، وحكاها كُراع جميعًا بالفتح. ويقال: ما أصاب عنده هلّة ولا بلّة، أي شيئًا».

شيء منها ناكلًا. كيف وفؤادك مشْهُوم[١] وعودك معجوم، وغيبك مخبور، والخير منك كثير! فالآن قد بلغ الله بك، وأرهصَ[٢] الخيرَ لك، [وجعل مرادك بين يديك[٣]]، فاسمعْ ما أقول لك[٤]، واقبلْ ما يعودُ قبوله عليك[٥]، ودعْ التّحبّس والتّعبّس[٦] لمن لا يضلع[٧] لك إذا خطأ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا، فالأمر غضّ، وفي النُّفوس مَضّ، وأنت أدِيمُ هذه الأُمّة فلا تَحلَم لجاجًا، وسيفها العضب فلا تنبُ اعوجاجًا، وماؤها العذْب فلا تَحْلُ أجاجًا.

والله لقد سألتُ رسول الله ﷺ عن هذا لمن هو؟ فقال: هو لمن يرغب عنه، لا لمن يجاحش[٨] عليه، ولمن يتضاءل له لا لمن يشمَخ[٩] إليه، وهو لمن يقال له: هو لك، لا لمن يقول: هو لي. ولقد شاورني رسولُ الله ﷺ في الصّهر، فذكر فتيانًا من قريش، فقلت له: أين أنت من عليّ! فقال: إنّي لأكره لفاطمة مَيْعة شبابه[١٠]، وحِدّةَ سنّه. فقلت: متى كنفتْه يدُك، ورعتْه عينُك، حفّتْ بهما البركة، وأُسبِغت عليهما النّعمة؛ مع كلام كثير

١ـ مشهوم، أي ذكيّ متوقّد.

٢ـ أرهص الخير لك: هيّأه، وجعله دانيًا منك.

٣ـ من صبح الأعشى.

٤ـ في صبح الأعشى: «وعن علم أقول ما تسمع».

٥ـ في صبح الأعشى: «فارتقبْ زمانك وقلّص أردانك».

٦ـ نهاية الأرَب: «التّقاعس».

٧ـ الضّلع: الاعوجاج، وفي صبح الأعشى ونهاية الأرَب: «يظلع».

٨ـ يجاحش، أي يدفع النّاس عنه ليختصّ به لنفسه.

٩ـ صبح الأعشى: «يتنفّج إليه». وفي نهاية الأرَب: «يتنفّج».

١٠ـ ميعة الشّباب: أوّله.

خطبتُ به رغبته فيك، وما كنتُ عرفت منك في ذلك حَوْجاء ولا لوْجاء[١]، ولكنّي قلت ما قلت، وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك، وكنتُ لك إذْ ذاك خيرًا منك الآن لي.

ولئن كان عرّض بك رسول الله ﷺ في هذا الأمر، فقد كنى عن غيرك[٢]، وإن قال فيك، فما سكت عن سواك، وإن اختلج في نفسك شيء، فهلمّ فالحكم مرضيّ، والصّواب مسموع، والحقُّ مُطاع. ولقد نقل رسول الله ﷺ إلى ما عند الله[٣] وهو عن هذه العِصابة راضٍ وعليها حَدِب، يسرّه ما سرّها، ويكيده ما كادها، ويُرضيه ما أرضاها، ويسخطه ما أسخطها.

أ لم تعلم[٤] أنّه لم يَدَعْ أحدًا من أصحابه وخُلطائه وأقاربه وسُجَرائه[٥]، إلّا أبانَه بفضيلة، وخصّه بمزيّة، وأفرده بحالة، لو أصفقت الأُمّة عليه لأجْلِها لكان عنده إيالتها وكَفالتها. أ تظنّ أنّه ﷺ تركَ الأُمّة سُدًى[٦] بَدَدًا عِدًا[٧] مباهلَ عباهلَ[٨] طلاحَى[٩] مفتونةً

١ـ في اللّسان: «الحوجاء: الحاجة، ويقال: ما في صدري به حوجاء ولا لوجاء، ولا شكّ ولا مرية بمعنى واحد».

٢ـ صبح الأعشى ونهاية الأرَب: «فلم يكن معرضًا عن غيرك».

٣ـ صبح الأعشى: «إلى عزّوجلّ».

٤ـ صبح الأعشى: «أمَا تعلم».

٥ـ السّجراء: جمع سجير، وهو الصّديق.

٦ـ سُدًى: مُهمَلون.

٧ـ بددًا: متفرّقون، وعِدًا: متباعدون.

٨ـ عباهل مباهل: مهملون أيضًا.

٩ـ الطّلاحَى: الإبل الّتي تشكو بطونًا من أكل الطّلح؛ أراد به ها هنا القوم الّذين لا راعي لهم يصدّهم عمّا يضرّهم.

بالباطل ملويّةً[١] عن الحقّ، لا ذائدَ ولا رائدَ ولا ضابطَ ولا خابطَ ولا رابطَ ولا ساقيَ ولا واقيَ، ولا حاديَ ولا هاديَ.

كلّا والله ما اشتاقَ إلى ربّه، ولا سأله المصيرإلى رضوانه، إلّا بعد أن أقام الصُّوى، وأوضح الهدى، وأمّن المهالك[٢] وحَمَى المطارح والمبارك، وإلّا بعد أن شَدَخَ يافوخ الشِّرْك بإذن الله، وشرم وجه النّفاق لوجه الله، وجدَع أنف الفتنة في دين الله، وتَفَل في عين الشَّيْطان بعون الله، وصدع بملء فيه ويده بأمرالله.

وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة جامعة، ودار واحدة، إن استقادوا لك[٣] وأشاروا بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائرإلى رأيهم فيك؛ وإن تكن الأُخرى، فادخلْ في صالح مادخل فيه المسلمون، وكنْ العون على مصالحهم، والفاتح لمغالِقِهم، والمرشد لضالّهم، والرّادع لغاويهم؛ فقد أمرالله بالتّعاون على البرّ وأهاب إلى التّناصرعلى الحقّ. ودَعْنا نقْضِ هذه الحياة الدُّنيا بصدور بريئة من الغلّ، ونلقى الله بقلوب سليمة من الضِّغن.

وإنّما النّاس[٤] ثُمامة[٥] فارْفُق بهم، واحْنُ عليهم، ولِنْ لهم، ولا تسوّلْ لك نفسُك فرقَهم واختلاف كلمتهم؛ واتركْ ناجمَ الشرّ حصيدًا، وطائرَ الحِقد واقعًا، وبابَ الفتنة مغلقًا، لا قال ولا قيل، ولا لومَ ولا تعنيف، ولا عتاب ولا تثريب، والله على ما أقول وكيل، وبما نحن عليه بصير.

قال أبوعبيدة: فلمّا تهيّأت للنُّهوض، قال لي عمر: كنْ على الباب هنيهةً فلي معك

١ـ صبح الأعشى: «مغبونة».

٢ـ صبح الأعشى: «وأمن المسالك».

٣ـ صبح الأعشى: «إن استقالوني لك، وأشاروا عندي بك».

٤ـ صبح الأعشى: «وبعد فإنّما النّاس».

٥ـ الثّمامة: واحد الثّمام، نبت ضعيف، يضرب به المثل لما هو هيّن.

ذَرْوٌ[١] من الكلام. فوقفت وما أدري ما كان بعدي، إلّا أنّه لحقني بوجه يَنْدَى تهلّلًا، وقال لي: قل لعليّ: الرّقاد محلمة، واللّجاج ملحمة، والهوى مقحمة، وما منّا أحدٌ إلّا له مقامٌ معلوم، وحقّ مشاع أو مقسوم، وبناء ظاهر أو مكتوم، وإنّ أكْيَس الكيْسَى مَنْ منح السّارد تألّفًا، وقارب البعيد تلطّفًا، و وزَن كلّ أمرٍ بميزانه، ولم يجعل خبره كعيانه، ولا قاس فتره بشبره، دينًا كان أو دنيا، وضلالًا كان أو هدى، ولا خير في علم معتمل[٢] في جهل، ولا في معرفة مشوبة بنكر، ولسنا كجلدة رُفْغِ البعير بين العجَان وبين الذَّنَب[٣]، وكلّ صالٍ فبناره يصلَى، وكلّ سيل فإلى قراره يجرَى، وما كان سكوت هذه العِصابة إلى هذه الغاية لعيّ وحَصر، ولا كلامها اليوم لفرَقٍ أو حَذَر.

فقد جدع الله بمحمّد ﷺ أنْفَ كلّ متكبّر، وقصم به ظهرَ كلّ جبّار، وسلّ لسان كلّ كذوب؛ فماذا بعد الحقّ إلّا الضّلال! ما هذه الخُنْزُوانة[٤] الّتي في فَراش رأسك؟ وما هذا السّجا المعترض في مدارج أنفاسك، وما هذه الوَحَرة[٥] الّتي أكلت شَرَاسِيفَك[٦]، والقَذَاة الّتي أعشَتْ ناظرك؟ وما هذا الدّحْس[٧] والدسّ اللّذان يدلّان على ضيق الباع، وخَوَر الطّباع! وما هذا الّذي لَبِسْت بسببه جِلْدَ النّمِر، واشتملت عليه بالشّحناء والنُّكَر!

لشدّ ما استسعيت لها، وسريت سُرَى ابن أنقد[٨] إليها، إنّ العوان لا تعلّم[٩] الخِمْرة.

١ـ ذرو من الكلام: طرف منه، وفي صبح الأعشى: «دور»، تحريف.

٢ـ صبح الأعشى ونهاية الأرَب: «مستعمل».

٣ـ الرّفغ: أُصول الفخذين من باطن.

٤ـ الخنزوانة: الكبر.

٥ـ الوحرة: العداوة، وأصلها دويبة يشبّه بها.

٦ـ الشّراسيف في الأصل: جمع شرسوف، وهو غضروف معلّق بكل ضلع، مثل غضروف الكتف.

٧ـ الدّحس: التّدسيس في الأمر.

٨ـ ابن أنقد: القنفذ.

٩ـ «إنّ العوان لا تعلّم الخِمرة» مثلٌ، والعوان: المرأة الّتي أسنّت ولمّا تهرم.

ما أحوج الفرعاء إلى فالية، وما أفقر الصَّلعاء إلى حالية، ولقد قُبِضَ رسولُ الله ﷺ والأمر معبَّد[1] مخيّسٌ، ليس لأحدٍ فيه ملمس، لم يسيّر فيك قولًا، ولم يستنزل لك قرآنًا، ولم يجزم في شأنك حكمًا، لسنا في كسرويَّة كِسْرى، ولا قيصريَّة قيصر؛ [تأمّل لإخوان فارس وأبناء الأصفر، قد جعلهم الله جَزَرًا لسيوفنا، ودريئةً لرماحنا، ومرمًى لطعاننا! بل[2]] نحن في نور نبوّة، وضياء رسالة، وثمرة حكمة، وأثر رحمة، وعنوان نعمة، وظلّ عصمة، بين أُمّة مهديّة بالحقّ والصّدق، مأمونة على الرّتق والفتق، لها من الله تعالى قلب أَبِيّ، وساعد قويّ، ويد ناصرة، وعين ناظرة.

أ تظنّ ظنًّا أنّ أبا بكر وثَب على هذا الأمر مُفتاتًا على الأُمّة، خادِعًا لها، ومتسلّطًا عليها! أ تراه امتلخ أحلامها[3]، وأزاغ أبصارها، وحلّ عقودها، وأحال عقولها، واستلّ من صدورها حميّتها، وانتكث رشاءها، وانتضب ماءها، وأضلّها عن هداها، وساقها إلى رداها، وجعل نهارها ليلًا، و وزنها كيلًا، ويقظتها رقادًا، وصلاحها فسادًا!

إن كان هكذا، إنّ سحرَه لمبين، وإنّ كيدَه لمتين. كلّا والله، بأيّ خيل ورجْل، وبأيّ سنان ونصل، وبأيّ مُنّة وقُوّة، وبأيّ مال وعُدّة، وبأيّ أيدٍ وشدّة، وبأيّ عشيرة وأسرة، وبأيّ قدرة ومُكنة، وبأيّ تدرّع وبسطة! لقد أصبح بما وسمتَه منيع الرّقبة، رفيع العتبة. لا والله لكن سَلَا عنها فولهتْ نحوه، وتطامن لها فالتفّت به، ومال عنها فمالت إليه، واشمأزّ[4] دونها فاشتملت عليه؛ حبوةٌ حباه الله بها، وغايةٌ بلّغه الله إليها، ونعمةٌ سربله جمالها، ويدٌ لله أوجب عليه شكرها، وأُمّةٌ نظر الله به لها[5].

وطالَما حلّقت فوقه في أيّام النّبيّ ﷺ وهو لا يلتفت لِفْتَها، ولا يرتصد وقتها، والله

١ـ المعبَّد: المذلّل، ومثله المخيّس.

٢ـ تكملة من صبح الأعشى.

٣ـ امتلخ أحلامها: اجتذبها؛ يريد أمال عقولها نحوه.

٤ـ اشمأزّ: انقبض.

٥ـ صبح الأعشى: «إليها».

أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخيَرة؛ وإنّك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النّبوّة، ومعدن الرّسالة، وكهف الحكمة، ولا يجحد حقّك فيما آتاك ربّك من العلم، ومنحك من الفقه في الدِّين. هذا إلى مزايا خُصِصْتَ بها، وفضائلَ اشتملتَ عليها؛ ولكن لك[١] مَنْ يزاحمك بمنكبٍ أضخمَ من مَنْكبك، وقُربى أمسَّ مِنْ قرباك، وسنّ أعلى من سنّك، وشَيْبة أروع من شيبتك، (وسيادة معروفة في الإسلام والجاهليّة)[٢] ومواقف ليس لك فيها جمَل ولا ناقة، ولا تذكَر فيها في مقدّمة ولا ساقة، ولا تضربُ فيها بذراعٍ ولا إصبع، ولا تعدُّ[٣] منها ببازل ولا هُبَع[٤].

إنّ أبا بكر كان حبّة قلب رسول الله ﷺ وعِلاقة[٥] همّه، وعَيْبة سرّه، ومثوى حزنه، وراحة باله، ومرْمَق طرفه[٦]، شهرته مغنِية عن الدّلالة عليه.[٧] ولعمري إنّك لأقرب منه إلى رسول الله ﷺ قرابة، ولكنّه أقرب منك قُرْبة، والقرابة لحم ودم، والقُرْبة رُوح ونفس، وهذا فَرقٌ يعرفه المؤمنون، ولذلك صاروا إليه أجمعون. ومهما شككْتَ فلا تشكّ في أنّ يدَ الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطّاعة، فادخلْ فيما هو خير لك اليوم وأنفع غدًا، والْفِظْ من فيك ما هو متعلّق[٨] بِلَهاتك، وانفُث سَخِيمة صدرك، فإن يكن في الأمد طُول، وفي الأجل فُسحة، فستأكله مريئًا أو غير مريء، وستشربه هنيئًا أو غير هنيء، حين لا رادّ لقولك إلّا مَن كان آيسًا منك، ولا تابع لك إلّا مَن كان

١ـ في الأُصول: «كلّ» وأثبت ما في صبح الأعشى.

٢ـ صبح الأعشى: «وسيادة لها أصل في الجاهليّة وفرع في الإسلام».

٣ـ صبح الأعشى: «ولا تخرج منها».

٤ـ البازل من الإبل: ما دخل في التّاسعة. والهبع: البعير ينتج في الصّيف؛ يريد لك فيها شيء.

٥ـ صبح الأعشى: «علاقة نفسه».

٦ـ بعدها في صبح الأعشى: «وذلك كلّه بمحضر الصّادر والوارد من المهاجرين والأنصار».

٧ـ صبح الأعشى: «الدّليل».

٨ـ صبح الأعشى: «يعلق».

طامعًا فيك، حين يمُضّ إهابَك، ويفْرِي أديمَك، ويزرِي على هَدْيك، هناك تَقْرَع السّنّ من ندم، وتشرب الماء ممزوجًا بدم، حين[1] تأسَّى على ما مضى من عمرك، وانقضى وانقرض من دارج قومك، وتودّ أن لو سُقِيتَ بالكأس الّتي سقيتَها غيرك، ورُدِدتَ إلى الحال الّتي كنتَ تكرهها في أمْسِك. ولله فينا وفيك أمرٌ هو بالغه، وعاقبةٌ هو المرجوّ لسرّائها وضَرّائها، وهو الوليّ الحميد الغفور الودود.

قال أبو عبيدة: فمشيت إلى عليّ مثبّطًا متباطئًا، كأنّما أخطو على أُمّ رأسي فَرَقًا من الفتنة، وإشفاقًا على الأُمّة، وحذرًا من الفرقة حتّى وصلت إليه في خلاءٍ فأبثثْتُه بثّي كلّه، وبرئت إليه منه، ودفعته له. فلمّا سمعها و وعاها، وسرت في أوصالِه حُمَيّاها قال: حلّت مُعلوِّطة، و ولّت مُخرَوِّطة[2]، ثمّ قال:

إحْـدَى لياليـكِ فهيسـي هِيسـيْ لا تنْعَمِـي اللَّيْلَـة بـالتَّعْرِيسِ[3]

يا أبا عبيدة، أ هذا كلّه في أنفس القوم يستبطنونه[4] ويضطغنون عليه! فقلت: لا جواب عندي، إنّما جئتُك قاضيًا حقَّ الدّين، وراتقًا فتْق الإسلام[5]، وسادًّا ثُلْمة الأُمّة؛ يعلم الله ذلك من جُلجُلان[6] قلبي، وقرارة نفسي.

فقال: ماكان قعودي في كِسْر هذا البيت قصدًا لخلاف، ولا إنكارًا لمعروف، ولا زِراية على مُسلم، بل لِما وَقَذَني به رسول الله ﷺ من فراقه، وأودعني من الحزن لفقده،

١ـ صبح الأعشى: «حينئذ».

٢ـ المعلوّطة: من الاعلوّاط؛ وهو ركوب الرّأس، والتّفحّم على الأُمور من غير رويّة، والمخروّطة: السّريعة.

٣ـ في اللّسان (٨: ١٣٩): «الهيس: السّير أيّ ضربٍ كان، وهاس يهيس هيسًا: سار أيّ سيرٍ كان؛ حكاه أبو عبيدة»، وروى البيت.

٤ـ صبح الأعشى: «ويحسّون به».

٥ـ صبح الأعشى: «المسلمين».

٦ـ الجُلجُلان: حبّة القلب.

فإنّي لم أشهد بعده مشهدًا إلّا جدّد عليّ حزنًا، وذكّرني شَجَنًا؛ وإنّ الشّوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطّمع في غيره، وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه وأجمع ما تفرّق منه، رجاء ثواب معدّ لمن أخلص لله عملَه وسلّم لعلمه ومشيئته أمرَه؛ على أنّي أعلم أنّ التّظاهر عليَّ واقع، ولي عن الحقّ الّذي سيق إليّ دافع، وإذ قد أُفْعِمَ الوادي لي، وحُشِد النّادي عليّ؛ فلا مرحبًا بما ساء أحدًا من المسلمين. وفي النّفس كلام لولا سابق قولٍ وسالف عهدٍ، لشفيتُ غيظي بخِنْصَري وبِنْصَري، وخُضْتُ لُجَّتَه بأخْمَصِي ومَفْرَقِي، ولكنّي ملجَم إلى أن ألقى الله تعالى، عنده أحتسب ما نزل بي، وأنا غادٍ إن شاء الله إلى جماعتكم، ومبايعٌ لصاحبكم، وصابرٌ على ما ساءني وسرّكم، ليقضيَ الله أمرًا كان مفعولًا، وكان الله على كلّ شيء شهيدًا.

قال أبو عبيدة: فعدتُ إلى أبي بكر وعمر، فقصَصْتُ القول علَى غَرّه، ولم أترك شيئًا من حُلوه ومُرّه. ذكرت[1] غُدُوّه إلى المسجد، فلمّا كان صباح يومئذ، وافَى عليٌّ فخرق الجماعة إلى أبي بكر وبايعه[2] وقال خيرًا و وصف جميلًا وجلس زُمَيْنًا[3] واستأذن للقيام ونهض، فتبعه عمر إكرامًا له وإجلالًا لموضعه وإستنباطًا[4] لما في نفسه، وقام أبو بكر فأخذ بيده وقال: إنّ عِصابة أنت منها يا أبا الحسن لمعصومة، وإنّ أُمّة أنت فيها لمرحومة، ولقد أصبحتَ عزيزًا علينا كريمًا لدينا، نخاف الله إذا سخطتَ، ونرجوه إذا رضيتَ، ولولا أنّي شُدِهتُ لما أجبتَ إلى ما دعيتَ إليه، ولكنّي خفت الفرقة واستئثار الأنصار بالأمر على قريش، وأعجِلتُ عن حضورك ومشاورتك، ولو كنتَ حاضرًا لبايعتك ولم أعدل بك، ولقد حطّ الله عن ظهرك ما أثقل كاهِلي به، وما أسعد[5] من

١ـ صبح الأعشى: «وبكرت».

٢ـ صبح الأعشى: «وإذا عليٌّ مخترق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنه، فبايعه».

٣ـ صبح الأعشى: «زميتًا»، أي حليمًا وقورًا.

٤ـ صبح الأعشى: «مستأثرًا لِما عنده».

٥ـ كذا في د، وفي ب: «أسد».

ينظر الله إليه بالكفاية! وإنّا إليك لمحتاجون، وبفضلك عالمون، وإلى رأيك وهَدْيك في جميع الأحوال راغبون، وعلَى حمايتك وحفيظتك معوّلون. ثمّ انصرف وتركه مع عمر.

فالتفت عليٌّ إلى عمر فقال: يا أبا حفص، والله ما قعدتُ عن صاحبك جزعًا علَى ما صار إليه، ولا أتيته خائفًا منه، ولا أقول ما أقول بعلّة[1]، وإنّي لأعرف مَسْمَى طرْفي ومِخَطِّيْ[2] قدمي، ومنزع قوسي، وموقع سهمي؛ ولكنّي تخلّفت إعذارًا إلى الله، وإلى من يعلم الأمر الّذي جعله لي رسول الله، وأتيت فبايعت، حفظًا للدّين، وخوفًا من انتشار أمر الله.

فقال له عمر: يا أبا الحسن، كَفْكِفْ من غَرْبك، ونَهْنِهْ[3] من شَرّتك، ودع العصا بلِحائها، والدَّلْو برِشائها، فإنّا مِنْ خَلْفها و ورائها. إنْ قَدَحْنا أُورِينا، وإن مَتَحْنا أُرْوِينا، وإن قَرَحْنا أُدْمِينا، وقد سمعتُ أمثالك الّتي ألغزتَ بها، صادرةً عن صدرٍ دَوٍ، وقلبٍ جَوٍ. زعمت أنّك قعدت في كِسْر بيتك لِما وَقَذَك به فراق رسول؛ أ فراق رسول الله صلّى الله عليه وَقَذك وحدك ولم يقِذْ سواك! إنّ مصابه لأعزّ وأعظم من ذاك، وإنّ من حقّ مصابه ألّا تَصدعَ شَمْل الجماعة بكلمة لا عِصام لها، فإنّك لَتَرى الأعراب حولَ المدينة لو تَدَاعَتْ علينا في صبح يوم لم نَلْتَقِ في ممساه، وزعمت أنّ الشّوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطّمع في غيره، فمِن الشّوق إليه نصرة دينه، وموازرة المسلمين عليه، ومعاونتهم فيه.

وزعَمت أنّك مكبٌّ على عهد الله تجمع ما تفرّق منه، فمن العُكوف على عهده النّصيحة لعباده، والرّأفة على خلقه، وأن تبذل من نفسك ما يصلُحون به ويجتمعون عليه. وزعمتَ أنّ التّظاهر عليك واقع؛ أيّ تظاهرٍ وقع عليك! وأيّ حقٍّ استُؤثر به

١ـ صبح الأعشى: «تعلّة».

٢ـ صبح الأعشى: «منتهى طرفي ومحطّ قدمي».

٣ـ صبح الأعشى: «واستوقف من سربك».

دونك! لقد علمتَ ما قالت الأنصارُ أمس سرًّا وجهرًا، وما تقلَّبتْ عليه ظهرًا وبطنًا، فهل ذكرتْك أو أشارتْ بك، أو طلبتْ رضاها من عندك!

وهؤلاء المهاجرون، مَن الّذي قال منهم إنّك صاحبُ هذا الأمر، أو أَومأ إليك، أو هَمْهم بك في نفسه! أ تظنّ أنّ النّاس ضلّوا من أجلك، أو عادوا كُفّارًا زهدًا فيك، أو باعوا الله تعالى بهواهم بغضًا لك! ولقد جاءني قوم من الأنصار فقالوا: إنّ عليًّا ينتظر الإمامة[1]، ويزعم أنّه أوْلَى بها من أبي بكر، فأنكَرتُ عليهم، ورددتُ القول في نُحورهم، حتّى قالوا: إنّه ينتظر الوحي ويتوكّف[2] مناجاةَ الملَك! فقلت: ذاك أمر طَواه الله بعد محمّد ﷺ.

ومن أعجب شأنك قولك: «لولا سابق قول لشفيت غيظي بِخِنْصِري وبِنْصِري»! وهل ترَك الدّين لأحدٍ أنْ يشفَى غيظه بيده أو لسانه! تلك جاهليّة استأصل الله شأفَتَها، واقتلع جُرثُومَتَها، ونوّر ليلها، وغوّر سيلها، وأبدل منها الرّوح والرّيحان والهدى والبرهان! وزعمت أنّك مُلجَم، فلعمري إنّ من اتّقى الله وآثر رضاه وطلب ما عنده، أمسك لسانه وأطبق فاه وغلب عقلُه ودينه على هواه.

وأمّا قولك: «إنّي لأعرف منزَع قوسي»، فإذا عرفتَ مَنْزَع قوسِك، عرف غيرُك مضرَب سيفه، ومطعَن رُمحه. وأمّا ما تزعمه من الأمر الّذي جعله رسول الله ﷺ لك، فتخلّفت إعذارًا إلى الله، وإلى العارفة من المسلمين، فلو عرفه المسلمون لَجَنحُوا إليه، وأصفقوا عليه، وما كان الله ليجمَعهم على العَمى، ولا ليضرَبهم بالضّلال بعد الهدى، ولو كان لرسول الله ﷺ فيك رأي وعليك عزم، ثمّ بعثه الله، فرَأى اجتماعَ أُمّته على أبي بكر، لَمَا سفّه آراءهم، ولا ضلّل أحلامهم ، ولا آثرك عليهم، ولا أرضاك بسخطهم، ولأمَرَك باتّباعهم والدُّخول معهم فيما ارتضوْه لدينهم.

١ـ صبح الأعشى: «لقد جاءني عقيل بن زياد الخزرجيّ في نفر من أصحابه، ومعهم شرحبيل بن يعقوب الخزرجيّ، و قالوا: إنّ عليًّا ينتظر الإمامة».

٢ـ يتوكّف: ينتظر.

فقال عليٌّ: مهلًا أبا حفص أرشدك الله! خفّضْ عليك، ما بذلتُ ما بذلتُ وأنا أُريد عنه حِوَلًا، وإنّ أخسرَ النّاس صفقةً عند الله مَنْ استبطن النّفاق واحتضن الشّقاق، و في الله خَلفٌ- عن كلّ فائت، وعِوَضٌ من كلّ ذاهب، وسَلْوةٌ عن كلّ حادث، وعليه التّوكّل في جميع الحوادث. إرجعْ أبا حفصٍ إلى مجلسك ناقعَ القلب، مبرود الغليل، فصيح اللّسان، رحب الصّدر، متهلّل الوجه، فليس وراء ما سمعته منّي إلّا ما يشدّ الأزْر، ويحبط الوِزْر، ويضع الإصْر، ويجمع الألفة، ويرفع الكلفة، إن شاء الله. فانصرف عمر إلى مجلسه.

قال أبو عبيدة: فلم أسمع ولم أر كلامًا ولا مجلسًا كان أصعبَ من ذلك الكلام والمجلس[1].

قلت:الّذي يغلب على ظنّي أنّ هذه المراسلات والمحاورات والكلام كلّه مصنوعٌ موضوعٌ، وأنّه من كلام أبي حيّان التّوحيديّ، لأنّه بكلامه ومذهبه في الخطابة والبلاغة أشبَه. وقد حفظْنا كلام عمر ورسائله وكلام أبي بكر وخُطبه، فلم نجدهما يذهبان هذا المذهب ولا يسلكان هذا السّبيل في كلامهما. وهذا كلام عليه أثر التّوليد ليس بخفيّ، وأين أبو بكر وعمر من البديع وصناعة المحدّثين!

ومَن تأمّل كلامَ أبي حيّان عرف أنّ هذا الكلام من ذلك المعدِن خرَج؛ ويدلّ عليه أنّه أسنده إلى القاضي أبي حامد المَرَوَرُّوذيّ[2]، وهذه عادته في كتاب «البصائر» يسند إلى القاضي أبي حامد كلّ ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه، إذا كان كارهًا لأن ينسب إليه. وإنّما ذكرناه نحن في هذا الكتاب، لأنّه وإن كان عندنا موضوعًا منحولًا، فإنّه صورة ما جرت عليه حال القوم، فهم وإن لم ينطقوا به بلسان المقال،

١ـ الخبر في صبح الأعشى ١: ٢٣٧ـ ٢٤٧، ونهاية الأرَب ٧: ٢١٣ـ ٢٢٩، ومحاضرة الأبرار ٢: ١٠٢ـ ١١٥، ونشره ابراهيم الكيلانيّ مع رسالتين لأبي حيّان في دمشق ١٩٥١.

٢ـ هو أحمد بن عامر بن بشر بن حامد أبو حامد المَرَوَرُّوذيّ، أحد فقهاء الشّافعية. ترجم له ابن خلّكان ١: ١٨ـ ١٩، تُوُفّي سنة ٣٦٢.

فقد نطقوا به بلسان الحال.

وممّا يوضّح لك أنّه مصنوع، أنّ المتكلّمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشّيعة والأشعريّة وأصحاب الحديث وكلّ مَن صنّف في علم الكلام والإمامة، لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية. ولقد كان المرتضى ﷺ يلتقِطُ من كلام أمير المؤمنين ﷺ اللّفظة الشّاذّة والكلمة المفردة الصّادرة عنه ﷺ في معرض التّألّم والتّظلّم، فيحتجّ بها ويعتمِد عليها، نحو قوله: «ما زلتُ مظلومًا مذ قُبِض رسول الله حتّى يوم النّاس هذا»، وقوله: «لقد ظُلمتُ عَدَد الحجر والمَدر»، وقوله: «إنّ لنا حقًّا إن نُعطَه نأخذه، وإن نُمنعْه نَركبْ أعجازَ الإبل وإن طال السُّرَى»، وقوله: «فصبرتُ وفي الحلْق شجًا، وفي العين قذًى»، وقوله: «اللّهمّ إنّي أستعديك على قريش فإنّهم ظلموني حقّي وغصبوني إرثي».

وكان المرتضى إذا ظفر بكلمة من هذه، فكأنّما ظفر بمُلْك الدّنيا ويودِعها كتبَه وتصانيفه، فأين كان المرتضى عن هذا الحديث! وهلّا ذُكِر في كتاب «الشّافي في الإمامة» كلام أمير المؤمنين ﷺ هذا، وكذلك مَن قبله مِن الإماميّة كابن النُّعمان وبني نوبخت وبني بابويه وغيرهم، وكذلك مَن جاء بعده مِن متأخّري متكلّمي الشّيعة وأصحاب الأخبار والحديث منهم إلى وقتنا هذا! وأين كان أصحابُنا عن كلام أبي بكر وعمر له ﷺ! وهلّا ذكره قاضي القضاة في «المغني» مع احتوائه على كلّ ما جرى بينهم، حتّى إنّه يمكن أن يجمع منه تاريخ كبير مفرد في أخبار السّقيفة! وهلّا ذكره مَن كان قبل قاضي القضاة من مشايخنا وأصحابنا ومَن جاء بعده من متكلّمينا ورجالنا! وكذلك القول في متكلّمي الأشعريّة وأصحاب الحديث كابن الباقلّانيّ وغيره، وكان ابنُ الباقلّانيّ شديدًا على الشّيعة، عظيم العصبيّة عَلَى أمير المؤمنين ﷺ، فلو ظفر بكلمة من كلام أبي بكر وعمر في هذا الحديث لَملأ الكتب والتّصانيف بها وجعلها هِجّيراه ودَأبه. والأمر فيما ذكرناه في وضع هذه القصّة ظاهرٌ لمَن عنده أدنى ذوق من علم البيان، ومعرفة كلام الرّجال، ولمَن عنده أدنى معرفة بعلم السِّيَر، وأقلّ أُنس بالتّواريخ. (١٠: ٢٧١ ـ ٢٨٧)

[استدلال قاضي القضاة على إمامة أبي بكر وردّ المرتضى عليه]

واعلم أنّ أصحابنا قد استدلّوا على صحّة إمامة أبي بكر بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[1]، ثمّ قال قاضي القضاة في المعنى: وهذا خبر من الله تعالى، ولا بدّ أن يكون كائنًا على ما أخبر به، والّذين قاتلوا المرتدّين هم أبو بكر وأصحابُه، فوجب أن يكونوا هم الّذين عَناهم الله سبحانه بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ وذلك يوجب أن يكونوا على صواب.

واعترض المرتضى رحمه الله على هذا الاحتجاج في «الشّافي» فقال: مِن أين قلت إنّ الآية نزلت في أبي بكر وأصحابه؟ فإن قال: لأنّهم الّذين قاتلوا المرتدّين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا أحدَ قاتلهم سواهم، قيل له: ومَن الّذي سلّم لَك ذلك؟ أ وليس أميرُ المؤمنين عليه السلام قد قاتل النّاكثين والقاسطين والمارقين بعد الرّسول صلى الله عليه وآله وهؤلاء عندنا مرتدّون عن الدّين؟ ويشهد بصحّة التّأويل زائدًا على احتمال القول له، ما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله يوم البصرة: والله ما قوتل أهلُ الآية حتّى اليوم، وتلاها وقد رُوي عن عمّار وحُذيفة وغيرهما مثل ذلك.

فإن قال: دليلي على أنّها في أبي بكر وأصحابه قولُ أهل التّفسير، قيل له: أ وكُلُّ أهل التّفسير قال ذلك؟ فإن قال: نعم، كابَر لأنّه قد رُوي عن جماعةٍ التّأويل الّذي ذكرناه، ولو لم يكن إلّا ما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام و وجوه أصحابه الّذين ذكرناهم لكفى. وإن قال: حجّتي قولُ بعض المفسّرين، قلنا: وأيّ حجّة في قول البعض! ولِمَ صار البعضُ الّذي قال ما ذكرت أوْلَى بالحقّ من البعض الّذي قال ما ذكرنا! ثمّ يقال له: قد وجدنا الله تعالى قد نعَت المذكورين في الآية بنُعوت يجب أن نراعيَها لنعلم أ في صاحبنا هي أم في صاحبك! وقد جعله الرّسول صلى الله عليه وآله في خَيبر حين فرّ مَن فرّ مِن

١ـ المائدة/ ٥٤.

القوم عن العدوّ صاحب هذه الأوصاف، فقال: لأُعطيَنّ الرّاية غدًا رجلًا يحبّ الله ورسولَه ويحبّه الله ورسولُه، كرّارًا غير فرّار، فدفعها إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

ثمّ قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يقتضي ما ذكرنا، لأنّه من المعلوم بلا خلاف حالُ أمير المؤمنين عليه السلام في التّخاشع والتّواضع وذمّ نفسه وقمع غضبه، وأنّه ما رُئي قطّ طائشًا ولا متطيّرًا في حالٍ من الأحوال، ومعلوم حال صاحبَيْكم في هذا الباب؛ أمّا أحدُهما فإنّه اعترف طوْعًا بأنّ له شيطانًا يعتريه عند غضبه، وأمّا الآخر فكان معروفًا بالجدّ والعجلة، مشهورًا بالفَظاظة والغِلظة. وأمّا العزّة على الكافرين، فإنّما تكون بقتالهم وجهادهم والانتقام منهم، وهذه حالٌ لم يسبق أميرَ المؤمنين عليه السلام إليها سابق ولا لحقه فيها لاحق.

ثمّ قال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ وهذا وصفُ أمير المؤمنين المستحقّ له بالإجماع، وهو منتفٍ عن أبي بكر وصاحبه إجماعًا، لأنّه لا قَتيل لهما في الإسلام، ولا جهاد بين يدي الرّسول صلى الله عليه وآله، وإذا كانت الأوصاف المراعاة في الآية حاصلة لأمير المؤمنين عليه السلام وغير حاصلة لمن ادّعيتم، لأنّها فيهم على ضربيْن: ضربٌ معلوم انتفاؤه كالجهاد، وضربٌ مختلَف فيه كالأوصاف الّتي هي غير الجهاد، وعلى مَن أثبتها لهم الدّلالة على حصولها، ولا بدّ أن يرجع في ذلك إلى غير ظاهر الآية، لم يبقَ في يده من الآية دليل.

هذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله، ولقد كان يمكنه التّخلّص من الاحتجاج بالآية على وجهٍ ألطف وأحسن وأصحّ ممّا ذكره، فيقول: المراد بها مَن ارتدّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في واقعة الأسود العنسيّ باليمن، فإنّ كثيرًا من المسلمين ضلّوا به وارتدّوا عن الإسلام وادّعوْا له النّبوّة واعتقدوا صدْقه. والقوم الّذين يحبّهم الله ويحبّونه: القوم الّذين كاتَبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأغراهم بقتله والفتك به، وهم فيروز الدّيلميّ وأصحابُه والقصّة مشهورة.

وقد كان له أيضًا أن يقول: لِم قلت: إنّ الّذين قاتلهم أبو بكر وأصحابُه كانوا مرتدّين! فإنّ المرتدّ مَن يُنكِر دينَ الإسلام بعد أن كان قد تديَّن به، والّذين منعوا

الزّكاة لم يُنكِروا أصلَ دين الإسلام، وإنّما تأوّلوا فأخطئوا؛ لأنّهم تأوّلوا قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوٰلِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[1] فقالوا: إنّما ندفع زكاة أموالنا إلى مَن صلاته سَكَنٌ لنا، ولم يبقَ بعد وفاة النّبيّ ﷺ مَن هو بهذه الصّفة، فسقط عنّا وجوب الزّكاة. ليس هذا من الرّدّة في شيء، وإنّما سمّاهم الصّحابة أهلَ ردّة على سبيل المجاز، إعظامًا لِما قالوه وتأوّلوه[2].

فإن قيل: إنّما الاعتمادُ على قتال أبي بكر وأصحابه لمسيلمة وطُلَيحة اللّذَيْن ادّعيا النّبوّة وارتدّ بطريقهما كثيرٌ من العرب، لا على قتال مانِعي الزّكاة!

قيل: إنّ مُسيلمة وطُلَيحة جاهدهما رسولُ الله ﷺ قبل موته بالكُتب والرُّسل، وأنفَذ لقتلهما جماعةً من المسلمين وأمَرهم أن يفتكوا بهما غِيلةً إن أمكنهم ذلك؛ واستنفر عليهما قبائلَ من العرب، وكلّ ذلك مفصّل مذكور في كتب السّيرة والتّواريخ، فلِمَ لا يجوز أن يكون أُولئك النّفر الّذين بعثهم رسولُ الله ﷺ للفتك بهما، هم المعنيّون بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ إلى آخر الآية! ولم يقل في الآية: «يجاهدون فيقتلون» وإنّما ذكر الجهاد فقط، وقد كان الجهاد من أُولئك النّفر حاصلًا وإن لم يَبلغوا الغرض، كما كان الجهاد حاصلًا عند حِصار الطّائف وإنْ لم يَبلغ فيه الغرض.

وقد كان له أيضًا أن يقول: سياقُ الآية لا يدلّ على ما ظنّه المستدِلّ بها، من أنّه

١ـ التّوبة/ ١٠٣.

(٢) حروب الرّدّة حدثت بين أعوام الحادي عشر والثّالث عشر في عهد الخليفة الأوّل. من أسبابها: وفاة الرّسول ﷺ، وظهور شخصيّات كاذبة تدّعي النّبوّة. يقول بعض المحقّقين: سمّي مانعوا الزّكاة اهلَ الرّدّة مع بقائهم على الإسلام، وهؤلاء ليسوا مرتدّين، ولكن كان امتناعهم سياسيًّا وليس عقائديًّا؛ ولهم موقف ضدّ الخليفة، والدّولة تعاملت معهم باعتبار مخالفتها مخالفة الدّين. منهم مالك بن نويرة صحابيٌّ جليل وجماعته، لم يبايعوا أبا بكر ولم يقبلوا بيعة السّقيفة. وهذا نوعٌ من المعارضة السّياسيّة وليس ارتدادًا عن الدّين. راجع تاريخ اليعقوبيّ، ج ٢، ص١٢٨؛ تاريخ الطّبريّ، ج ٢، ص ٢٢٩؛ تاريخ خلفا از رحلت پيامبرﷺ تا زوال أمويان (١١-١٣٢ ه)، ص ٣٥ -٤١.

مَن يرتدْ عن الدّين، فإنّ الله يأتي بقوم يحبّهم ويحبّونه، يحاربونه لأجل رِدّته، وإنّما الّذي يدلّ عليه سياق الآية أنّه مَن يرتدّ منكم عن دينه بترك الجهاد مع رسول الله ﷺ ـ وسمّاه ارتدادًا على سبيل المجاز ـ فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه، يجاهدون في سبيل الله معه عِوَضًا عنكم، وكذلك كان كلّ مَن خَذَل النّبيّ ﷺ وقَعَد عن النُّهوض معه في حروبه، أغناه الله تعالى عنه بطائفة أُخرى من المسلمين جاهدوا بين يديه!

وأمّا قول المرتضى رحمه الله: إنّها أُنزِلت في النّاكثين والقاسطين والمارقين الّذين حاربهم أميرُ المؤمنين عليه السلام فبعيد، لأنّهم لا يطلق عليهم لفظ «الرّدّة» عندنا، ولا عند المرتضى وأصحابه؛ أمّا اللّفظ فبالاتّفاق وإن سمّوهم كفّارًا، وأمّا المعنى فلأنّ في مذهبهم أنّ مَن ارتدّ ـ وكان قد وُلد على فطرة الإسلام ـ بانت امرأتُه منه، وقُسّم ماله بين ورثته، وكان على زوجته عدّة المتوفّى عنها زوجها، و معلوم أنّ أكثر محاربي أمير المؤمنين عليه السلام كانوا قد وُلِدوا في الإسلام، ولم يحكم فيهم بهذه الأحكام.

وقوله: «إنّ الصّفات غير متحقّقة في صاحبكم» فلَعمري إنّ حظّ أمير المؤمنين عليه السلام منها هو الحظّ الأوفَى، ولكنّ الآية ما خصّت الرّئيس بالصّفات المذكورة وإنّما أطلقها على المجاهدين، وهُم الّذين يباشرون الحرب. فهب أنّ أبا بكر وعمر ما كانا بهذه الصّفات، لِمَ لا يجوز أن يكون مدحًا لمَن جاهد بين أيديهما مِن المسلمين وباشر الحرب، وهم شجعان المهاجرين والأنصار الّذين فَتحوا الفتوح ونشروا الدّعوة وملكوا الأقاليم!

وقد استدلّ قاضي القضاة أيضًا عن صحّة إمامة أبي بكر ـ وأسند هذا الاستدلال إلى شيخنا أبي عليّ ـ بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِيَ

١ ـ الفتح / ١١.

عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾[2]، يعني قوله تعالى: ﴿لَن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾، ثمّ قال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3] فبيَّن أنّ الّذي يدعو هؤلاء المخلّفين من الأعراب إلى قتال قوم أُولي بأسٍ شديدٍ غير النّبيّ ﷺ، لأنّه تعالى قد بيّن أنّهم لا يخرجون معه ولا يقاتلون معه عدوًّا، بآية متقدّمة، ولم يدعُهم بعد النّبيّ ﷺ إلى قتال الكفّار إلّا أبو بكر وعمر وعثمان، لأنّ أهل التّأويل لم يقولوا في هذه الآية غير وجهين من التّأويل: فقال بعضهم: عنَى بقوله ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفة، وقال بعضهم: عنَى فارس والرّوم؛ وأبو بكر هو الّذي دعا إلى قتال بني حنيفة وقتال آل فارس والرّوم، ودعاهم بعده إلى قتال فارس والرّوم عُمر، فإذا كان الله تعالى قد بيَّن أنّهم بطاعتهم لهما يؤتهم أجرًا حسنًا، وإن تولّوا عن طاعتهما يعذّبهم عذابًا أليمًا، صحّ أنّهما على حقٍّ وأنّ طاعتهما طاعةٌ لله تعالى، وهذا يوجب صحّة إمامتهما.

فإن قيل إنّما أراد الله بذلك أهل الجمل وصِفّين! قيل: هذا فاسد من وجهين: أحدُهما قوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، والّذين حاربوا أمير المؤمنين كانوا على الإسلام، ولم يقاتلوا على الكفر. والوجه الثّاني: أنّا لا نعرف مِن الّذين عناهم الله تعالى بهذا مَن بقي إلى أيّام أمير المؤمنين عليه السلام، كما علمنا أنّهم كانوا باقين في أيّام أبي بكر.

اعترض المرتضى رحمه الله على هذا الكلام من وجهين:

١ـ التّوبة/ ٨٣.

٢ـ الفتح/ ١٥.

٣ـ الفتح/ ١٦.

أحدهما أنّه نازع في اقتضاء الآية، داعيًا يدعو هؤلاء المخلّفين غير النّبيّ ﷺ وذلك لأنّ قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَل ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾[1] إنّما أراد به سبحانه الّذين تخلّفوا عن الحُدَيبيّة بشهادة جميع أهل النّقل وإطباق المفسّرين.

ثمّ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]، وإنّما التمس هؤلاء المخلّفون أن يخرجُوا إلى غنيمة خيبر، فمنعهم الله تعالى من ذلك، وأمر نبيّه أن يقول لهم: لن تتّبعونا إلى هذه الغَزاة، لأنّ الله تعالى كان حكَم من قبل بأنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحُدَيبيّة، وأنّه لا حظّ لمن لم يشهدها، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

ثمّ قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾[3]، وإنّما أراد أنّ الرّسول سيدعُوكم فيما بعد إلى قتال قوم أولي بأسٍ شديدٍ، وقد دعاهم النّبيّ ﷺ بعد ذلك إلى غزوات كثيرة، إلى قومٍ أولي بأسٍ شديد، كمؤتة وحُنَين وتَبُوك وغيرها، فمِن أين يجب أن يكونَ الدّاعي لهؤلاء غير النّبيّ ﷺ، مع ما ذكرناه من الحروب الّتي كانت بعد خيبر!

وقوله: إنّ معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، إنّما أراد به ما بيّنه في

١ـ الفتح/ ١١ـ١٢.

٢ـ الفتح/ ١٥.

٣ـ الفتح/ ١٦.

قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾[1] بتبوك سنة تسع، وآية الفتح نزلت في سنة ستّ، فكيف يكون قبلها!

وليس يجب أن يقال في القرآن بالإرادة وبما يحتمل من الوجوه في كلّ موضع دون الرّجوع إلى تأريخ نزول الآي والأسباب الّتي وردت عليها وتعلّقت بها.

وممّا يبيّن لك أنّ هؤلاء المخلّفين غيرُ أُولئك لو لم نرجع في ذلك إلى نقل وتأريخ، قوله تعالى في هؤلاء: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّواْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2]، فلم يقطع منهم على طاعة ولا معصية، بل ذكر الوعد والوعيد على ما يفعلونه من طاعة أو معصية، وحكم المذكورين في آية سورة التّوبة بخلاف هذه، لأنّه تعالى بعد قوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ * وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾[3]، واختلاف أحكامهم وصفاتهم يدلّ على اختلافهم، وأنّ المذكورين في آيه سورة الفتح غيرُ المذكورين في آية سوره التّوبة.

وأمّا قوله: لأنّ أهل التّأويل لم يقولوا في هذه الآية غيروجهَين من التّأويل فذكْرهما باطل، لأنّ أهل التّأويل قد ذكروا شيئًا آخر لم يذكره، لأنّ المسيَّب روى عن أبي رَوْق عن الضّحّاك في قوله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ...﴾[4] الآية، قال: هم ثَقيف. وروى هُشَيم عن أبي يَسَر، عن سَعيد بن جُبير، قال: هم هَوازن يوم حُنين. وروى الواقديّ، عن مَعمر، عن قتادة، قال: هم هوازن وثَقيف. فكيف ذكَر من

١ـ التّوبة/ ٨٣.

٢ـ الفتح/ ١٦.

٣ـ التّوبة/ ٨٣ـ٨٥.

٤ـ الفتح/ ١٦.

أقوال المفسّرين ما يوافقُه مع اختلاف الرّواية عنهم! على أنّا لا نرجع في كلّ ما يحتمله تأويل القرآن إلى أقوال المفسّرين، فإنّهم ربما تركوا ممّا يحتمله القول وجهًا صحيحًا، وكم استخرج جماعة مِن أهل العدل في متشابة القرآن من الوجوه الصّحيحة الّتي ظاهر التّنزيل بها أشبه، ولها أشدّ احتمالًا ممّا لم يسبق إليه المفسّرون ولا دخل في جملة تفسيرهم وتأويلهم.

والوجه الثّاني سلّم فيه أنّ الدّاعي هؤلاء المخلَّفين غير النّبيّ ﷺ، وقال: لا يمتنع أن يعني بهذا الدّاعي أمير المؤمنين عليه السلام لأنّه قاتَل بعدَه النّاكثين والقاسطين والمارقين، وبشّره النّبيّ ﷺ بأنّه يقاتلهم، وقد كانوا أُولي بأس شديد بلا شبهة.

قال: فأمّا تعلّق صاحب الكتاب بقوله: ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ وأنّ الّذين حاربهم أمير المؤمنين عليه السلام كانوا مسلمين، فأوّل ما فيه: أنّهم غير مسلمين عنده وعند أصحابه لأنّ الكبائر تُخرِج من الإسلام عندهم كما تُخرِج عن الإيمان، إذ كان الإيمان هو الإسلام على مذهبهم. ثمّ إنّ مذهبنا في محاربي أمير المؤمنين عليه السلام معروفٌ، لأنّهم عندنا كانوا كفّارًا بمحاربته لوجوه:

الأوّل منها: أنّ مَن حاربه كان مستحلًّا لقتاله مظهرًا أنّه في ارتكابه على حقّ، ونحن نعلم أنّ مَن أظهر استحلال شرْب جُرعة خمرٍ هو كافر بالإجماع؛ واستحلال دماء المؤمنين فضلًا عن أفاضلهم وأكابرهم أعظم مِن شرْب الخمر واستحلاله فيجب أن يكونوا من هذا الوجه كفّارًا.

الثّاني: أنّه عليه السلام قال له بلا خلاف بين أهل النّقل: «حرْبك يا عليّ حرْبي، وسِلمك سِلمي» ونحن نعلم أنّه لم يرد إلّا التّشبيه بينهما في الأحكام، ومِن أحكام محاربي النّبيّ ﷺ الكفر بلا خلاف.

الثّالث: أنّ النّبيّ ﷺ قال له بلا خلاف أيضًا: «اللهمّ والِ مَن والاه، وعادِ مَن عاداه، وانصُرْ مَن نصره، واخذُلْ من خذله»، وقد ثبت عندنا أنّ العداوة من الله لا تكون إلّا للكفّار الّذين يعادونه دون فُسّاق أهل الملّة.

الرّابع قوله: إنّا لا نَعلم ببقاء هؤلاء المخلَّفين إلى أيّام أمير المؤمنين عليه السلام، فليس

بشيء، لأنّه إذا لم يكن ذلك معلومًا ومقطوعًا عليه، فهو مجوّز وغير معلوم خلافه، والجواز كافٍ لنا في هذا الموضع.

ولو قيل له: منْ أين علمتَ بقاء المخلَّفين المذكورين في الآية على سبيل القطع إلى أيّام أبي بكر؟ لكان يفزع إلى أن يقول: حكم الآية يقتضى بقاءَهم حتّى يتمّ كونُهم مدعوّين إلى قتال أُولي البأس الشّديد على وجه يلزمهم فيه الطّاعة، وهذا بعينه يمكن أن يقال له، ويعتمد في بقائهم إلى أيّام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يوجبه حكم الآية.

فإن قيل: كيف يكونُ أهل الجمل وصِفّين كفّارًا ولم يسِر أمير المؤمنين عليه السلام فيهم بسيرة الكفّار، لأنّه ما سباهم ولا غنِم أموالهم ولا تبع مُولّيهم!

قلنا: أحكام الكفر تختلف وإن شمِلهم اسمُ «الكفر»، لأنّ في الكفّار مَن يُقتَل ولا يستبقَى، وفيهم مَن يُؤخَذ منه الجزية ولا يحلّ قتله إلّا بسبب طارئ غير الكفر، ومنهم مَن لا يجوز نكاحه على مذهب أكثر المسلمين، فعلَى هذا يجوز أن يكون أكثر هؤلاء القوم كُفّارًا، وإن لم يسِر فيهم بجميع سيرة أهل الكفر، لأنّا قد بيّنّا اختلاف أحكام الكفّار، ويرجع في أنّ حكمهم مخالفٌ لأحكام الكفّار إلى فعله عليه السلام وسيرته فيهم. علَى أنّا لا نجدُ في الفُسّاق مَنْ حكْمه أن يقتل مقبِلًا، ولا يقتل مولّيًا، ولا يجهز على جريحه، إلى غير ذلك من الأحكام الّتي سيّرها في أهل البصرة وصِفّين.

فإذا قيل في جواب ذلك: أحكام الفسق مختلفة، وفعلُ أمير المؤمنين هو الحجّة في أنّ حكم أهل البصرة وصِفّين ما فعله.

قلنا: مثل ذلك حرفًا بحرف. ويمكن مع تسليم أنّ الدّاعي لهؤلاء المخلَّفين أبو بكر، أن يقال: ليس في الآية دلالةٌ على مدح الدّاعي ولا على إمامته، لأنّه قد يجوز أن يدعو إلى الحقّ والصّواب مَن ليس عليهما، فيلزم ذلك الفعل مِن حيث كان واجبًا في نفسه، لا لدعاء الدّاعي إليه، وأبو بكر إنّما دعا إلى دفع أهل الرّدّة عن الإسلام، وهذا يجب على المسلمين بلا دعاء داعٍ، والطّاعة فيه طاعة لله تعالى، فمِن أين له أنّ الدّاعي كان على حقّ وصواب! وليس في كون ما دعا إليه طاعةً ما يدلّ على ذلك.

ويمكن أيضًا أن يكون قوله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾، إنّما أراد به دعاء الله تعالى لهم بإيجاب القتال عليهم، لأنّه إذا دلّهم على وجُوب قتال المرتدّين، ورفعهم عن بيضة الإسلام، فقد دعاهم إلى القتال، و وجَبت عليهم الطّاعة، و وجب لهم الثّواب إن أطاعوا، وهذا أيضًا تحتمله الآية.

فهذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله في هذا الموضع، وأكثره جيّدٌ لا اعتراض عليه، وقد كان يمكنه أن يقول: لو سلّمنا بكلّ هذا لكان ليس في قوله: ﴿لَن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾[1] الآية ما يدلّ على أنّ النّبيّ ﷺ لا يكون هو الدّاعي لهم إلى القوم أُولي البأس الشّديد، لأنّه ليس فيها إلّا محض الإخبار عنهم بأنّهم لا يخرجون معه، ولا يقاتلون العدوّ معه، وليس في هذا ما ينفي كونه داعيًا لهم، كما أنّه عليه السلام قال: «أبو لهب لا يؤمن بي»، لم يكن هذا القول نافيًا لكونه يدعوه إلى الإسلام.

وقوله: ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ ليس بأمر على الحقيقة، وإنّما هو تهديد كقوله: ﴿ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[2] ولا بدّ للمرتضى ولقاضي القضاة جميعًا من أن يحملا صيغة «افعل» على هذا المحمل، لأنّه ليس لأحدهما بمسوّغ أن يحمل الأمر على حقيقته، لأنّ الشّارع لا يأمر بالقعود وترك الجهاد، مع القدرة عليه وكونه قد تعيّن وجوبه.

فإن قلت: لو قدّرنا أنّ هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أُنزلت بعد غزوة تبوك، وبعد نزول سورة «براءة» الّتي تتضمّن قوله تعالى: ﴿لَن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ وقدّرنا أنّ قوله تعالى: ﴿لَن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ ليس إخبارًا محضًا كما تأوّلتَه أنت وحملتَ الآية عليه، بل معناه لا أخرجكم معي ولا أُشهدكم حرب العدوّ، هل كان يتمّ الاستدلال؟

قلت: لا، لأنّ للإماميّة أن تقولَ: يجوز أن يكون الدّاعي إلى حرب القوم أُولي البأس الشّديد مع تسليم هذه المقدّمات كلّها هو رسول الله ﷺ، لأنّه دَعاهم إلى حرب

١ـ التوبة/ ٨٣.

٢ـ فصّلت/ ٤٠.

الرّوم في سَرِيّة أُسامة بن زيد في صفَر مِن سنة إحدى عشرة، لمّا سيّره إلى البَلْقاء، وقال له: سِرْ إلى الرُّوم مقتل أبيك، فأوطئهم الخيولَ، وحشَد معه أكثر المسلمين، فهذا الجيش قد دُعِي فيه المخلّفون من الأعراب الّذين قعدوا عن الجهاد في غَزاة تبوك إلى قوم أُولي بأس شديد، ولم يخرجوا مع رسول الله ﷺ ولا حاربوا معه عدوًّا.

فإن قلت: إذا خرجوا مع أُسامة فكأنّما خرجوا مع رسول الله، وإذا حاربوا مع أُسامة العدوّ فكأنّما حاربوا مع رسول الله ﷺ، وقد كان سبق أنّهم لا يخرُجون مع رسول الله ﷺ ولا يحاربون معه عدوًّا.

قلت: وإذا خرجوا مع خالد بن الوليد وغيره في أيّام أبي بكر، ومع أبي عُبيدة وسعد في أيّام عمر؛ فكأنّما خرجوا مع رسول الله ﷺ وحاربوا العدوّ معه أيضًا.

فإن اعتذرتَ بأنّه وإن شابه الخروج معه والحرب معه إلّا أنّه على الحقيقة ليس معه وإنّما هو مع امرئ من قِبَل خلفائه.

قيل لك: وكذلك خروجهم مع أُسامة ومحاربة العدوّ معه، وإن شابه الخروج مع النّبيّ ومحاربة العدوّ معه، إلّا أنّه على الحقيقة ليس معه، وإنّما هو مع بعض أُمرائه.

ويمكن أن يعتَرض الاستدلال بالآية، فيقال: لا يجوز حملُها على بني حنيفة، لأنّهم كانوا مسلمين وإنّما منعوا الزّكاة مع قولهم: «لا إله إلّا الله محمّد رسول الله ﷺ»، ومنْع الزّكاة لا يخرج به الإنسان عن الإسلام عند المرجئة، والإماميّة مرجئة؛ ولا يجوز حملها على فارس والرّوم، لأنّه تعالى أخبر أنّه لا واسطة بين قتالهم وإسلامهم، كما تقول: إمّا كذا وإمّا كذا، فيقتضي ذلك نفي الواسطة، وقتال فارس والرّوم بينه وبين إسلامهم واسطة، وهو دفع الجزية، وإنّما تنتفي هذه الواسطة في قتال العرب، لأنّ مشركي العرب لا تؤخذ منهم الجزية. فالآية إذنْ دالّة على أنّ المخلّفين سيُدعَون إلى قوم أُولي بأس شديد الحكم فيهم، إمّا قتالهم وإمّا إسلامهم، وهؤلاء هم مشركو العرب، ولم يحارب مشركي العرب، إلّا رسول الله ﷺ، فالدّاعي لهم إذًا هو رسول الله، وبطل الاستدلال بالآية. (١٣: ١٨٤ـ١٩٦)

[عهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطّاب]

(الخطبة: ٣) ... حتّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى ابْنِ الْخَطَّابِ بَعْدَهُ[1]:

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَ يَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَا عَجَباً! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ، إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ، لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا، وَالِاعْتِذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَ إِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ النَّاس لَعَمْرُاللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ، فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ.

... وابن الخطّاب هو أبو حفص عمر الفاروق، وأبوه الخطّاب بن نُفَيْل بن عبد العُزّى بن رياح بن عبد الله بن قُرط بن رَزاح بن عديّ بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب. وأُمّ عمر حَنْتَمه بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

لمّا احتضر أبو بكر، قال للكاتب اكتبْ: هذا ما عهد عبد الله بن عثمان[2]، آخِرَ عهده بالدّنيا وأوّل عهده بالآخرة، في السّاعة الّتي يبرّ فيها الفاجر، ويُسلِم فيها الكافر ثمّ أُغمِي عليه فكتب الكاتب: عمر بن الخطّاب، ثمّ أفاق أبو بكر فقال: اقرأ ما كتبت، فقرأ وذكر اسم عمر، فقال: أنّى لك هذا! قال: ما كنت لتعدوَه، فقال: أصبتَ، ثمّ قال: أتمَّ كتابك، قال: ماكنتُ أكتب؟ قال اكتبْ: وذلك حيث أجال رأيه وأعمل فكره، فرأى أنّ هذا الأمر لا يصلح آخِره إلّا بما به أوّله صلح[3]، ولا يحتمله إلّا أفضلُ العرب مقدرةً، وأملكُهم لنفسه وأشدّهم في حال الشّدّة وأسلسُهم في حال اللّين، وأعلمهم برأي ذوي الرّأي، لا يتشاغل بما لا يعنيه، ولا يحزن لما لم ينزل به، ولا يستحي من

١ـ في مخطوطة النهج: «ثمّ تمثّل بقول الأعشى»، وكذلك في حواشي ب.

٢ـ عثمان اسم أبي قحافة.

٣ـ ب: «لا يصلح آخره إلّا بما يصلح به أوّله».

التّعلّم، ولا يتحيّر عند البديهة. قويٌّ على الأُمور، لا يجوز بشيء منها حدّه عدوانًا ولا تقصيرًا، يرصدُ لما هو آتٍ عَتاده من الحذر.

فلمّا فرغ من الكتاب، دخل عليه قوم من الصّحابة، منهم طلحة، فقال له[1]: ما أنت قائل لربّك غدًا، وقد ولّيْتَ علينا فظًّا غليظًا، تفرَق منه النّفوس، وتنفضّ عنه القلوب! فقال أبو بكر: أسنِدوني ـ وكان مستلقيًا ـ فأسنَدوه، فقال لطلحة: أ بالله تخوّفني! إذا قال لي ذلك غدًا، قلت له: ولّيتُ عليهم خيرَ أهلك.

ويقال[2]: أصدقُ النّاس فِراسةً ثلاثةٌ: العزيز في قوله لامرأته عن يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[3]، وابنة شعيب حيث قالت لأبيها في موسى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾[4]، وأبو بكر في عمر.

وروى كثير من النّاس أنّ أبا بكر لمّا نَزل به الموت[5] دعا عبد الرّحمن بن عوف فقال: أخْبِرني عن عمر، فقال: إنّه أفضلُ مِن رأيك فيه إلّا أنّ فيه غلظة، فقال أبو بكر: ذاك لأنّه يراني رقيقًا، ولو قد أفضَى الأمرُ إليه لترك كثيرًا ممّا هو عليه، وقد رمقتُه إذا أنا غضبتُ على رجل أراني الرّضا عنه، وإذا ألنتُ له أراني الشّدّة عليه. ثمّ دعا عثمان بن عفّان، فقال: أخْبِرني عن عمر، فقال: سريرتُه خير[6] من علانيته، وليس فينا مثله، فقال لهما: لا تذكُرا ممّا قلتُ لكما شيئًا، ولو تركتُ عمر لما عدوتُك يا عثمان، والخيرة لك ألّا تلِيَ من أُمورهم شيئًا، ولوددتُ أنّي كنت من أُموركم خِلْوًا،

١ـ كلمة «له» ساقطة من ب.

٢ـ ا: «ويقال إنّه».

٣ـ يوسف/ ٢١.

٤ـ القصص/ ٢٦.

٥ـ ساقطة من ب.

٦ـ ا: «تقصر عن علانية».

وكنت فيمن مضى من سلفكم.

ودخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر، فقال: إنّه بلغني أنّك يا خليفة رسول الله، استخلفتَ على النّاس عمر، وقد رأيتَ ما يلقى النّاس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم، وأنت غدًا لاقٍ ربّك، فيسألك عن رعيّتك! فقال أبو بكر: أجْلسوني، ثمّ قال: أبالله تخوّفني! إذا لقيتُ ربّي فسألني، قلت: استخلفتُ عليهم خيرَ أهلك. فقال طلحة: أ عمر خيرُ النّاس يا خليفة رسول الله! فاشتدّ غضبه، وقال: إي والله، هو خيرهم وأنت شرّهم. أما والله لو ولّيتُك لجعلتَ أنفك في قَفاك، ولرفعتَ نفسك فوق قدرها، حتّى يكون الله هو الّذي يضعها! أتيتني وقد دَلَكتْ عينك، تريد أن تفتنني عن ديني، وتُزيلَني عن رأيي! قُمْ لا أقام الله رِجلَيك! أما والله لئن عِشتُ فُواق ناقة وبلغني أنّك غَمصتَه فيها أو ذكرتَه بسوء، لألحقنّك بمُحمضات قُنّة، حيث كنتم تُسقَون ولا تَروَون، وتَرعَون ولا تشبعون، وأنتم بذلك الحَجون راضون! فقام طلحة فخرج.

أحضر أبو بكر عثمان ـ وهو يجود بنفسه ـ فأمره أن يكتب عهدًا، وقال ـ اكتبْ: بسم الله الرّحمن الرّحيم، هذا ما عَهد عبد الله بن عثمان[1] إلى المسلمين، ثمّ أمّا بعد، ثمّ أُغمِي عليه، وكتب عثمان: قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطّاب، وأفاق أبو بكر فقال: اقْرأ فقرأه، فكبّر أبو بكر وسرّ، وقال: أراك خِفتَ أن يختلف النّاس إن متّ في غشيتي! قال: نعم. قال: جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأهله، ثمّ أتمّ العهد وأمر أن يُقرأ على النّاس فقُرئ عليهم. ثمّ أوصى عمر فقال له: إنّ لله حقًّا بالليل لا يقبَله في النّهار، وحقًّا في النّهار لا يقبَله بالليل، وإنّه لا يقبَل نافلة ما لم تؤدّ الفريضة، وإنّما ثقلت موازين مَن اتّبع الحقّ مع ثقله عليه، وإنّما خفّت موازين مَن اتّبع الباطل لخفّته عليه. إنّما أُنزِلت آية الرّخاء مع آية الشّدّة لئلّا يَرغب المؤمن رغبةً يتمنّى فيها على الله ما ليس له، ولئلّا يَرهب رهبةً يلقى فيها بيده، فإن حفظتَ وصيّتي، فلا يكن غائبٌ

١ـ في تاريخ الطّبريّ(٤: ٥٢): «أبو بكر بن أبي قحافة».

أحبّ إليك من الموت، ولستَ معجزَهُ. ثمّ تُوُفّي أبو بكر.

دعا أبو بكر عمر يوم موته بعد عهده إليه، فقال: إنّي لأرجو أن أموت في يومي هذا فلا تُمْسِينَّ حتّى تندب النّاس مع المثنّى بن حارثة، وإن تأخّرت إلى اللّيل فلا تصبِحَنَّ حتّى تندب النّاس معه، ولا تشغلنّكم مصيبة عن دينكم، وقد رأيتَني متوفّى رسول الله ﷺ كيف صنعت.

وتُوُفّي أبو بكر ليلة الثّلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة من سنة ثلاث عشرة ... . يقول أمير المؤمنين عليه السلام: شتّان بين يومي في الخلافة مع ما انتقض عليَّ من الأمر ومُنِيت به من انتشار الحبل واضطراب أركان الخلافة، وبين يوم عمر حيثُ وَليها على قاعدة ممهّدة، وأركان ثابتة، وسكون شامل، فانتظم أمرُه، واطّرد حاله، وسكنت أيّامه.

قوله عليه السلام: «فيا عجبا» أصله، فيا عجبي، كقولك: يا غلامي، ثمّ قلبوا الياء ألفًا فقالوا: يا عجبا، كقولهم: يا غلاما. فإن وقفت وقفت على هاء السّكت، فقلت: يا عجباه! ويا غلاماه! قال: العجب منه، وهو يستقيل المسلمين من الخلافة أيّام حياته، فيقول: أقيلوني، ثمّ يعقدها عند وفاته لآخَر، وهذا يناقض الزُّهد فيها والاستقالة منها. وقال شاعر من شعراء الشّيعة:

حَمَلوهـــا يـــومَ السَّـــقيفَةِ أوزا ... رًا تَخـــقُّ الجبـــال وَهِـــيَ ثِقَـــالُ

ثمّ جـــاءوا مـــن بَعْـــدِهَا يســـتقيلو ... نَ، وهيهـــاتَ عثـــرة لا تقـــالُ!

وقد اختلف الرُّواة في هذه اللّفظة، فكثير من النّاس رواها: «أقيلوني فلست بخيركم» ومن النّاس مَن أنكر هذه اللّفظة ولم يروها، وإنّما روى قوله: «وَليتُكم ولستُ بخيركم». واحتجَّ بذلك مَن لم يشترط الأفضليّة في الإمامة. ومن رواها اعتذر لأبي بكر فقال: إنّما قال: أقيلوني، ليُثَوِّرا[1] ما في نفوس النّاس من بيعته، ويَخْبُرا ما عندهم من

١ـ يثوّر: يبحث.

ولايته، فيعلم مريدهم وكارههم ومحبّهم ومبغضهم. فلمّا رأى النّفوسَ إليه ساكنة والقلوب لبيعته مذعنة، استمرّ على إمارته وحكَم حكْم الخلفاء في رعيّته، ولم يكن منكرًا منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته.

قالوا: وقد جرى مثلُ ذلك لعليّ عليه السلام، فإنّه قال للنّاس بعد قتل عثمان: دَعوني والتمسوا غيري فأنا لكم وزيرًا خير منّي لكم أميرًا، وقال لهم: اتْركوني، فأنا كأحدكم بل أنا أسْمَعُكم وأطْوَعُكم لمَن ولّيتموه أمركم، فأبَوْا عليه وبايعوه، فكرهها أوّلًا ثمّ عهد بها إلى الحسن عليه السلام عند موته.

قالت الإماميّة: هذا غير لازم، والفرق بين الموضعين ظاهر، لأنّ عليًّا عليه السلام لم يقل: إنّي لا أصلح، ولكنّه كره الفتنة، وأبو بكر قال كلامًا معناه: إنّي لا أصلح لها، لقوله: «لست بخيركم»، ومَن نفى عن نفسه صلاحيّتَه للإمامة، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره.

واعلم أنّ الكلام في هذا الموضع مبنيّ على أنّ الأفضليّة هل هي شرط في الإمامة أم لا؟ وقد تكلّمنا في شرح «الغرر» لشيخنا أبي الحسين[2] رحمه الله تعالى في هذا البحث بما لا يحتمله هذا الكتاب. (١: ١٦٣ـ ١٦٩)

١ـ ا: «قلوب».

٢ـ هو أبو الحسين محمّد بن عليّ بن الطّيّب المتكلّم المعتزليّ، تُوُفِّي سنة ٤٣٦، وكتابه «غرر الأدلّة»، ذكره ابن خلّكان ١: ٤٨٢.

الفصل الثّاني: [في خلافة عمر بن الخطّاب]

[طرف من أخبار عمر بن الخطّاب]

وكان عمر بن الخطّاب صعبًا، عظيم الهيْبة شديد السّياسة، لا يُحابِي أحدًا، ولا يراقب شريفًا ولا مشروفًا، وكان أكابر الصّحابة يتحامَوْن ويتفادَوْن من لقائه؛ كان أبو سفيان بن حرب في مجلس عمر، وهناك زياد بن سُميّة وكثير من الصّحابة، فتكلّم زياد فأحسن، وهو يومئذ غلام، فقال عليّ عليه السلام ـ وكان حاضرًا لأبي سفيان وهو إلى جانبه ـ لله هذا الغلام: لو كان قرشيًّا لساق العرب بعصاه. فقال له أبو سفيان: أما والله لو عرفتَ أباه لعرفت أنّه من خير أهلك، قال: ومَن أبوه؟ قال أنا وضعتُه والله في رَحِم أُمِّه، فقال عليّ عليه السلام: فما يمنُعك من استلحاقه! قال: أخاف هذا العَيْر[1] الجالس أن يخرّق عليّ إهابي!

وقيل لابن عبّاس لمّا أظهر قوله في العَوْل[2] بعد موت عمر ـ ولم يكن قبل يظهره ـ: هلّا قلت هذا وعمر حيٌّ؟ قال: هِبْته، وكان امرأً مهابًا[3].

واستَدعى عمر امرأةً ليسألها عن أمر وكانت حاملًا، فلشِدّة هيبته ألقتْ ما في بطنها، فأجهضت به جنينًا ميّتًا، فاستفتى عمر أكابرَ الصّحابة في ذلك، فقالوا: لا شيء عليكَ، إنّما أنت مؤدِّب، فقال له عليّ عليه السلام: إن كانوا راقَبوك فقد غَشُّوك، وإن كان هذا جُهْد رأيهم فقد أخطئوا عليك غَرّة - يعني عتق رقبة - فرجع عمرُ والصّحابة إلى قوله.

وعمر هو الّذي شيَّد بيعة أبي بكر، ورقَم المخالفين فيها فكسَر سيف الزّبير لمّا

---

١ ـ عيْر القوم: سيّدهم.

٢ ـ عوْل الفريضة، وهو أن تزيد سهامها، فيدخل النّقصان على أهل الفرائض.

٣ ـ كذا في ا، و في ب: «وكان أمرًا مهيبًا».

جرَّده، ودفع في صدر المقداد، و وَطِئ في السّقيفة سعد بن عبادة وقال: اقْتلوا سعدًا، قتل الله سعدًا، وحطَّم أنف الحباب بن المنذر الّذي قال يوم السّقيفة: أنا جُذَيلُها[1] المحكَّك وعُذَيقُها المرجَّب. وتوعَّد مَن لجأ إلى دار فاطمة عليها السلام من الهاشميّين، وأخرجهم منها ولولاه لم يثبت لأبي بكر أمرٌ، ولا قامت له قائمةٌ.

وهو الّذي ساس العمّال وأخذ أموالهم في خلافته، وذلك من أحسن السّياسات. وروى الزّبير بن بكّار، قال: لمّا قلّد عمر عمرو بن العاص مصرًا، بلَغه أنّه قد صار له مال عظيم من ناطق وصامت، فكتب إليه: أمّا بعد، فقد ظهَر لي مِن مالك ما لم يكن في رزقك، ولا كان لك مال قبل أن أستعمِلَك، فأنّى لك هذا! فو الله لو لم يهمّني في ذات الله إلّا مَن اختان في مال الله، لكثُر همّي وانتشر أمري، ولقد كان عندي من المهاجرين الأوّلين مَن هو خير منك، ولكنّي قلّدتك رجاء غنائك؛ فاكتبْ إليّ من أين لك هذا المال، وعجّلْ.

فكتب إليه عمرو: أمّا بعد، فقد فهمتُ كتاب أمير المؤمنين، فأمّا ما ظهر لي من مال، فإنّا قدِمْنا بلادًا رخيصةَ الأسعار كثيرة الغزو، فجعلنا ما أصابنا في الفضول الّتي اتّصل بأمير المؤمنين نبؤها، و والله لو كانت خيانتُك حلالًا ما خنتُك، وقد ائتمنتَني فإنّ لنا أحسابًا إذا رجعنا إليها أغنتْنا عن خيانتك. وذكرت أنّ عندك من المهاجرين الأوّلين مَن هو خير منّي فإذا كان ذاك فو الله ما دقّقتُ لك يا أمير المؤمنين بابًا، ولا فتحتُ لك قُفلًا.

فكتب إليه عمر: أمّا بعد، فإنّي لستُ من تسطيرك الكتاب وتشقيقك الكلام في

١ـ الفائق ١: ١٨٠، وبقيّة الخبر فيه: «منّا أمير ومنكم أمير». الجُذيل: تصغير الجذل، بالكسر، وهو في الأصل عود ينصب للجربي تحت به فتستشفي. والمحكّك: الّذي كثر به الاحتكاك حتّى صار مملسًا. والمرجّب: المدعوم بالرّجبة، وهي خشبة ذات شعبتين؛ قال الزّمخشري: «إنّي ذو رأي يشفي بالاستضاءة به كثيرًا في مثل هذه الحادثة، وأنا في كثرة التّجارب والعلم بموارد الأحوال فيها وفي أمثالها ومصادرها كالنّخلة الكثيرة الحمل».

شيء؛ ولكنّكم معشرَ الأُمراء، قعدتم على عيون الأموال، ولن تعدِموا عُذرًا، وإنّما تأكلون النّار، وتتعجّلون العار، وقد وجّهت إليك محمّد بن مسلمة، فسلِّم إليه شطر مالك. فلمّا قدم محمّد صنع له عمرو طعامًا ودعاه فلم يأكل، وقال: هذه تقدمة السّرّ، ولو جئتَني بطعام الضّيف لأكلت، فنحِّ عنّي طعامك وأحضِرْ لي مالك؛ فأحضره فأخذ شَطرَه. فلمّا رأى عمرو كثرةَ ما أخذ منه قال: لعن الله زمانًا صرتُ فيه عاملًا لعمر. والله لقد رأيتُ عمر وأباه على كلّ واحد منهما عباءة قَطَوانيّة[1] لا تجاوز مأبِض[2] ركبتيه، وعلى عنقه حُزْمة حَطب، والعاص بن وائل في مُزَرَّرات الدّيباج. فقال محمّد: إيهًا عنك يا عمرو! فعُمر والله خير منك، وأمّا أبوك وأبوه فإنّهما في النّار، ولولا الإسلام لألفيت معتلفًا شاة، يسرّك غزْرها، ويسوءك بُكوءها[3]، قال: صدقت فاكتمْ عليّ، قال أفعل.

قال الرّبيع بن زياد الحارثيّ: كنتُ[4] عاملا لأبي موسى الأشعريّ على البحرين فكتب إليه عمر بالقدوم عليه هو وعمّاله، وأن يستخلفوا جميعًا. فلمّا قدِمْنا المدينة أتيتُ يَرْفأ حاجب عمر، فقلت: يا يَرْفأ، مسترشد وابنُ سبيل! أيّ الهيآت أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يَرَى فيها عُمّاله؟ فأومأ إليّ بالخُشونة، فاتّخذت خُفَّيْن مُطارَقيْن[5]، ولبست جُبّة صوف، وَلُثْتُ عمامتي على رأسي، ثمّ دخلنا على عمر فصفّنا بين يديه، فصعّد بصره فينا وصوّب، فلم تأخذْ أحدًا غيري فدَعاني فقال: مَن أنت؟ قلت: الرّبيع بن زياد الحارثيّ، قال: وما تتولّى من أعمالنا؟ قلت: البحرين، قال: كم تُرزق؟ قلت: ألفًا، قال: كثير، فما تصنع به؟ قلت: أتقوّت منه شيئًا وأعود بباقيه على أقاربَ

١ـ قطوانيّة: منسوبة إلى قطوان، موضع بالكوفة، تنسب إليه الأكسية.

٢ـ المأبض: باطن الرّكبة.

٣ـ يقال: بكأت النّاقة بكوءًا، إذا قلّ لبنها.

٤ـ الخبر في الكامل: ٨٧ ـ ٨٨ (طبع أُوروبا).

٥ـ لبست خفّيْن مطارقيْن، أي مطبقيْن واحدًا فوق الآخر. يقال: أطرق النّعل وطارقها.

لي، فما فضَل منهم فعلى فقراء المسلمين، قال: لا بأس، ارجعْ إلى موضعك، فرجعت إلى موضعي مِن الصّفّ، فصعّد فينا وصوّب، فلم تقع عينُه إلّا عليَّ فدَعاني، فقال: كم سنُّك؟ قلت: خمس وأربعون، فقال: الآن حيث استحْكمت! ثمّ دعا بالطّعام، وأصحابي حديثٌ عهدهم بلين العيش، وقد تجوّعت له فأتى بخبزيابس وأكسار[1] بعير، فجعل أصحابي يعافُون ذلك، وجعلتُ آكُل فأجيد، وأنا أنظر إليه، وهو يلحَظني من بينهم. ثمّ سبقتْ منّي كلمة تمنّيت لها أنّي سُخْت في الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ النّاس يحتاجون إلى صلاحك، فلو عمدْت إلى طعام ألْيَنَ من هذا! فزجرني، ثمّ قال: كيف قلت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أن تنظرَ إلى قوتك من الطّحين فيخبز قبل إرادتك إيّاه بيوم ويُطبخ لك اللّحم كذلك، فتُؤْتَى بالخبز ليّنًا وباللّحم غريضًا. فسكَّن مِن غَرْبه وقال: أ هاهنا غُرْت[2]! قلت: نعم، فقال: يا ربيع، إنّا لو نشاء لملأْنا هذه الرِّحاب من صَلائق[3] وسبائك[4] وصِناب[5]، ولكنّي رأيتُ الله نعَى على قوم شهواتهم، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[6] ثمّ أمر أبا موسى بإقراري، وأن يستبدِل بأصحابي.

أسلم عمر بعد جماعة من النّاس، وكان سبب إسلامه أنّ أُخته وبعْلها أسلما سرًّا من عمر، فدخل إليهما خبّاب بن الأرَتّ، يعلّمهما الدّين خفيةً، فوشَى بهم واشٍ إلى عمر، فجاء دارَ أُخته، فتوارى خبّاب منه داخلَ البيت، فقال عمر: ما هذه الهَيْنَمة عندكم؟ قالت أُخته: ما عدا حديثًا تحدَّثناه بيننا. قال أراكما قد صَبَوْتما، قال خَتَنُه:

١ـ كسور الإبل، أي أعضاؤها، واحدها كسر، بالفتح والكسر.

٢ـ غرت: ذهبت، وفي الأُصول: «غرب» تحريف.

٣ـ الصّلائق: جمع صليقة، وهي الخبزة الرّقيقة والقطعة المشواة من اللّحم.

٤ـ السّبائك: ما سبك من الدّقيق ونخل فأخذ خالصة، يعني الحواري. وكانوا يسمّون الرّقاق السّبائك.

٥ـ الصّناب: صباغ يؤتدم.

٦ـ الأحقاف/ ٢٠.

أرأيت إن كان هو الحقّ! فوثَب عليه عمر فوطِئه وطئًا شديدًا، فجاءت أُخته فدفعته عنه فنفحها بيده فدَمِيَ وجهها ثمّ ندِم ورقّ وجلس واجمًا، فخرج إليه خبّاب فقال: أبشِرْ يا عمر، فإنّي أرجُو أن تكون دعوة رسول الله لك اللّيلة، فإنّه لم يزل يدعُو منذ اللّيلة: «اللّهمّ أعزّ الإسلام بعمر بن الخطّاب أو بعمرو بن هشام».

قال: فانطلق عمرُ متقلّدًا سيفَه حتّى أتى إلى الدّار الّتي فيها رسول الله ﷺ يومئذ وهي الدّار الّتي في أصل الصّفا، وعلى الباب حمزة وطلحة وناسٌ من المسلمين، فوجِل القوم من عمر إلّا حمزة فإنّه قال: قد جاءنا عمر، فإن يُرد الله به خيرًا يَهده، وإن يُرد غير ذلك كان قتْله علينا هيّنًا، والنّبيّ ﷺ داخل الدّار يوحَى إليه، فسمِع كلامهم، فخرج حتّى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه، وقال: «ما أنت بمُنتَهٍ يا عمر حتّى يُنزِل الله بك من الخِزي والنّكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة، اللّهمّ هذا عمر، اللّهمّ أَعِزّ الإسلام بعمر»، فقال عمر: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله.

مرّ يومًا عمر في بعض شوارع المدينة، فناداه إنسان: ما أراك إلّا تستعمل عمّالك، وتعهد إليهم العهود، وترى أنّ ذلك قد أجزأك! كلّا والله، إنّك المأخوذ بهم إن لم تتعهّدهم، قال: ما ذاك؟ قال عياض بن غَنْم، يلبس اللّين، ويأكل الطّيب، ويفعل كذا وكذا. قال: أ ساعٍ[1]؟ قال: بل مؤدٍّ ما عليه، فقال لمحمّد بن مسلمة: ألحقْ بعياض ابن غَنْم فأْتني به كما تجده. فمضى محمّد بن مسلمة حتّى أتى باب عياض، وهو أمير على حِمْص، وإذا عليه بوّاب. فقال له: قل لعياض: على بابك رجل يريد أن يلقاك. قال: ما تقول؟ قال: قل له ما أقول لك فقام كالمعجَب فأخبره، فعرف عياض أنّه أمرٌ حدَث، فخرج فإذا محمّد بن مسلمة، فأدخله فرأى على عياض قميصًا رقيقًا ورداء ليّنًا. فقال: إنّ أمير المؤمنين أمرني ألّا أُفارقَك حتّى آتيَه بك كما أجدُك. فأقدمه على عمر وأخبره أنّه وجده في عيش ناعم، فأمر له بعصا وكساء، وقال: اذْهب بهذه الغَنَم فأحْسن رعيَها، فقال: الموتُ أهْوَنُ من ذلك، فقال: كذبت، ولقد كان تركُ ما كنتَ

١ـ السّاعي هنا: الواشي.

عليه أهون عليك من ذلك. فساقَ الغنم بعصاه والكساء في عنقه. فلمّا بعُد ردَّه وقال: أرأيت إن رددتُك إلى عملك أ تصنع خيرًا؟ قال: نعم والله يا أمير المؤمنين، لا يبلغُك منّي بعدها ما تكرَه. فردّه إلى عمله فلم يبلغْه عنه بعدها ما ينقِمه عليه.

كان النّاس بعد وفاة رسول الله ﷺ يأتون الشّجرة الّتي كانت بيعةُ الرّضوان تحتَها فيصلّون عندها، فقال عمر: أراكم أيّها النّاس رجعتم إلى العُزّى! ألَا لا أُوتَى منذ اليوم بأحَدٍ عاد لمثلها إلّا قتلتُه بالسّيف كما يُقتل المرتدّ، ثمّ أمر بها فقُطِعت.

لمّا مات رسول الله ﷺ وشاع بين النّاس موْته، طاف عمر على النّاس قائلًا: إنّه لم يمتْ ولكنّه غاب عنّا كما غاب موسى عن قومه، وليرجعنّ فليقطّعنّ أيدي رجال وأرجلَهم يزعمون أنّه مات؟ فجعل لا يمرّ بأحد يقول إنّه مات إلّا ويخبطه ويتوعّده، حتّى جاء أبو بكر، فقال: أيّها النّاس، مَن كان يعبد محمّدًا فإنّ محمّدًا قد مات، ومَن كان يعبد ربّ محمّد فإنّه حيٌّ لم يمتْ، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُم﴾[1]. قالوا: فو الله لكأنّ النّاس ما سمعوا هذه الآية حتّى تلاها أبو بكر. وقال عمر: لمّا سمعته يتلوها هَوَيْتُ إلى الأرض، وعلمتُ أنّ رسول الله قد مات.

لمّا قَتل خالد مالكَ بن نويرة ونكح امرأته، كان في عسكره أبو قَتادة الأنصاريّ، فركب فرسه والتحقَ بأبي بكر وحلف ألّا يسيرَ في جيش تحت لواء خالد أبدًا، فقصّ على أبي بكر القصّة، فقال أبو بكر: لقد فتنت الغنائمُ العرب، وترك خالد ما أمرتُه، فقال عمر: إنّ عليك أن تَقيده بمالك، فسكت أبو بكر وقدم خالد فدخل المسجد وعليه ثياب قد صدئت من الحديد وفي عمامته ثلاثة أسهم. فلمّا رآه عمر قال: أ رياءً يا عدوّ الله! عدوْتَ على رجل من المسلمين فقتلتَه ونكحتَ امرأته. أما والله إن أمكنني الله منك لأرجمنّك، ثمّ تناول الأسهم من عمامته فكسرها، وخالد ساكت لا يردّ عليه ظنًّا أنّ ذلك عن أمر أبي بكر ورأيه. فلمّا دخل إلى أبي بكر وحدّثه، صدّقه فيما حكاه وقبِل عذره. فكان عمر يحرّض أبا بكر على خالد ويُشير عليه أن يقتصَّ

١ـ آل عمران/ ١٤٤.

منه بدم مالك، فقال أبو بكر: إيهًا يا عمر! ما هو بأوّل مَن أخطأ، فارْفع لسانَك عنه، ثمّ وَدَى مالكًا من بيت مال المسلمين.

لمّا صالح خالد أهلَ اليمامة وكتب بينه وبينهم كتاب الصّلح وتزوّج ابنة مُجّاعة ابن مُرَارة الحنفيّ، وصل إليه كتاب أبي بكر: لَعَمْري يا بن أُمّ خالد، إنّك لفارغ حتّى تزوّج النّساء، وحوْل حجرتك دماء المسلمين لم تجفّ بعد ... في كلام أغلَظَ له فيه. فقال خالد: هذا الكتاب ليس من عمل أبي بكر، هذا عمل الأعْيَس ـ يعني عمر. عزَل عمر خالدًا عن إمارة حِمص في سنة سبع عشرة وأقامه للنّاس وعقله بعمامته ونزع قلنسوته عن رأسه وقال: أعلِمْني من أين لك هذا المال؟ وذلك أنّه أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف درهم، فقال من الأنفال والسُّهمان؟ فقال: لا والله، لا تعمل لي عملًا بعد اليوم. وشاطَره ماله وكتب إلى الأمصار بعزله وقال: إنّ النّاس فُتنوا به، فخفت أن يُوكِلوا إليه وأحببت أنْ يعلموا أنّ الله هو الصّانع.

لمّا أُسِر الهُرْمزان حُمِل إلى عمر منْ تُسْتَر إلى المدينة، ومعه رجال من المسلمين، منهم الأحنف بن قيس، وأنس بن مالك، فأدخلوه المدينة في هيئته وتاجه وكُسْوته، فوجدوا عمر نائمًا في جانب المسجد، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهه، فقال الهُرْمزان: وأين عمر؟ قالوا: ها هو ذا، قال أين حَرَسُه؟ قالوا: لا حاجبَ له ولا حارس. قال: فينبغي أن يكون هذا نبيًّا. قالوا: إنّه يعمل بعمل الأنبياء. واستيقظ عمر، فقال الهرمز! فقالوا نعم. قال: لا أُكلِّمه أو لا يبقى عليه من حِليته شيء، فرمَوْا ما عليه، وألبسوه ثوبًا صفيقًا. فلمّا كلّمه عمر، أمر أبا طلحة أن ينتضِي سيفه ويقوم على رأسه، ففعل. ثمّ قال له: ما عذرُك في نقض الصّلح ونكث العهد! ـ وقد كان الهُرْمزان صالح أوّلًا ثمّ نقض وغدر ـ فقال: أُخبرك، قال: قل. قال: وأنا شديد العطش! فاسْقني ثمّ أُخبرك. فأُحضر له ماء، فلمّا تناوله جَعلتْ يده تُرعَد. قال: ما شأنُك؟ قال: أخاف أن أمدّ عنقي وأنا أشرب فيقتلَني سيفك؟ قال لا بأس عليك حتّى تشرب، فألقى الإناء عن يده، فقال: ما بالك؟ أعيدوا عليه الماء ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش. قال: إنّك قد أمَّنْتَني، قال: كذبت! قال: لم أكذب. قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قال:

ويحك يا أنس! أنا أُؤمّنُ قاتل مجزأة بن ثور والبَراء بن مالك! والله لَتأتينّي بالمخرج أو لأُعاقبنّك. قال: أنت يا أمير المؤمنين قلت: لا بأس عليك حتّى تشرب. وقال له ناس من المسلمين مثل قول أنس. فقال للهُرْمزان: ويحك! أ تخدعُني! والله لأقتلنّك إلّا أن تُسْلِم، ثمّ أوْمأ إلى أبي طلحة، فقال الهُرْمزان: أشهدأن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله. فأمّنه وأنزله المدينة.

سأل عمر عمرو بن معديكرب عن السّلاح فقال له: ما تقول في الرّمح؟ قال: أخوك وربما خانك. قال فالنَّبل؟ قال: رسل المنايا! تُخطِئ وتُصيب، قال فالدّرع؟ قال: مَشْغلة للفارِس، متعبة للرّاجل، وإنّها مع ذلك لحِصْن حصين، قال فالتُّرس؟ قال: هو المِجَنّ، وعليه تدور الدّوائر، قال: فالسّيف؟ قال: هناك قارعت أُمّك الهبل، قال: بل أُمّك، قال: بل أُمّي، والحِمَى أمرعني[1] لك.

وأوّل مَن ضرب عمر بالدِّرَّة أُمُّ فروة بنت أبي قُحافة؛ مات أبو بكر فناح النّساء عليه، وفيهنّ أُخته أُمّ فروة. فنهاهنّ عمر مرارًا وهنّ يعاوِدْن، فأخرج أُمّ فروة من بينهنّ، وعَلاها بالدِّرَّة فهرَبْن وتفرّقْن.

كان يقال: دِرَّة عمر أهيَبُ من سيف الحجّاج. وفي الصّحيح أنّ نسوةً كنّ عند رسول الله ﷺ قد كثر لَغَطُهنّ، فجاء عمر فهرَبْن هيبةً له، فقال لهنّ: يا عُديّات أنفسِهنّ! أ تَهَبْنَني ولا تهبْنَ رسول الله! قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظّ.

وكان عمر يُفتِي كثيرًا بالحُكم ثمّ ينقضه ويفتي بضدّه وخلافه؛ قضى في الجَدّ مع الإخوة قضايا كثيرة مختلفة، ثمّ خاف من الحُكم في هذه المسألة فقال: مَن أراد أن يتقحّم جراثيم جهنّم فليقُل في الجَدّ برأيه.

وقال مرّةً: لا يبلغني أنّ امرأةً تجاوَز صداقُها صداقَ نساء النّبيّ إلّا ارتجعت ذلك منها، فقالت له امرأة: ما جعل الله لك ذلك، إنّه تعالى قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا

١ـ ب: «أصرعتني»، وما أثبته من ا.

﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[١] فقال: كلّ النّاس أفقهُ من عُمر حتّى ربّات الحجال! ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابتْ، فاضَلَتْ إمامَكم ففضَلتُه!

ومرّيومًا بشابّ من فتيان الأنصار وهو ظمآن، فاستسقاه فجَدَح[٢] له ماء بعسَل فلم يشربه، وقال: إنّ الله تعالى يقول: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾، فقال له الفتى: يا أمير المؤمنين، إنّها ليست لك ولا لأحدٍ من هذه القبيلة، اقْرأ ما قبلها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[٣]، فقال عمر: كلّ النّاس أفقه من عمر!

وقيل: إنّ عمركان يَعُسّ باللّيل، فسَمع صوت رجل وامرأة في بيت، فارتاب فتسوَّر الحائط فوجد امرأة ورجلًا وعندهما زِقّ خمر، فقال: يا عدوّ الله، أكنت ترى أنّ الله يسترُك وأنت على معصيته! قال: يا أمير المؤمنين، إن كنت أخطأتُ في واحدة فقد أخطأتَ في ثلاث: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾[٤] وقد تجسّستَ، وقال: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[٥] وقد تسوّرتَ، وقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ﴾[٦] وما سلّمتَ!

وقال: متعتان كانَتا على عهد رسول الله وأنا محرّمهما ومعاقِب عليهما: متعة النّساء ومتعة الحجّ. وهذا الكلام وإن كان ظاهرُه منكرًا فله عندنا مخرج وتأويل، وقد ذكره أصحابنا الفقهاء في كتبهم.

وكان في أخلاق عمر وألفاظه جَفاء وعُنْجُهيّة ظاهرة، يحسبه السّامع لها أنّه أراد بها

١ـ النّساء/ ٢٠.

٢ـ جدح: خلط.

٣ـ الأحقاف/ ٢٠.

٤ـ الحجرات/ ١٢.

٥ـ البقرة/ ١٨٩.

٦ـ النّور/ ٦١.

ما لم يكن قد أراد، ويتوهَّم مَن تُحكَى له أنّه قصد بها ظاهرًا ما لم يقصده، فمنها الكلمة الّتي قالها في مرض رسول الله ﷺ. ومعاذ الله أن يقصد بها ظاهرها! ولكنّه أرسلها على مقتضى خشونة غريزته، ولم يتحفّظ منها. وكان الأحسنُ أن يقول: «مغمور» أو «مغلوب بالمرض»، وحاشاه أن يعني بها غيرذلك! ولجُفاة الأعراب من هذا الفنّ كثير، سمع سليمان بن عبد الملك أعرابيًّا يقول في سنة قَحْط:

رَبَّ العبادِ ما لَنا وما لَكا! قَدْ كُنْتَ تَسقينا فما بدَا لكا!

* أنْزِل علينا القَطْرَ لا أبا لكا! *

فقال سليمان: أشهد أنّه لا أبَ له ولا صاحبة ولا ولد، فأخرجه أحسن مخرَج[1].

وعلى نحو هذا يُحتمل كلامه في صلح الحديبيّة لمّا قال للنّبيّ ﷺ: ألم تَقُلْ لنا ستدخلونها، في ألفاظ نَكْرَهُ حكايتها، حتّى شكاه النّبيّ ﷺ إلى أبي بكر، وحتّى قال له أبو بكر: الزَمْ بِغَرْزه[2]، فو الله إنّه لَرسول الله.

وعمر هو الّذي أغلَظ على جَبَلة بن الأيهم حتّى اضطرّه إلى مفارقة دار الهجرة بل مفارقة دار الإسلام كلّها، وعاد مرتدًّا داخلًا في دين النّصرانيّة لأجل لطمة لُطِمها. وقال جَبَلة بعد ارتداده متندّمًا على ما فعل:

تَنَصَّرَتِ الأشرافُ مِنْ أَجْلِ لَطْمَةٍ وَمَا كانَ فِيهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرَرْ!

فَيَا لَيْتَ أُمِّي لم تَلِدْني وَلَيْتَنِي رَجَعْتُ إلى القولِ الّذي قاله عُمَرْ

(١: ١٧٣ـ١٨٤)

[ذكر ما ورد من الخبر عن إسلام عمر]

وأمّا إسلام عمر، فإنّه أسلم فكان تمام أربعين إنسانًا في أظهر الرّوايات، وذلك في السّنة السّادسة من النّبوّة، وسنّه إذ ذاك ستّ وعشرون سنة، وكان عمر ابنه عبد الله

١ـ الخبر في الكامل (٧: ١٤٥) بشرح المَرْصَفيّ.

٢ـ الغرز في الأصل: ركاب الرّحل، وفي الكلام استعارة، والمراد هنا: اتّبع قوله.

يومئذ ستّ سنين.

وأصحّ مارُوي في إسلامه رواية أنس بن مالك عنه، قال: خرجتُ متقلّدًا سيفي فلقيتُ رجلًا من بني زهرة فقال: أين تَعمِد؟ قلت: أقتل محمّدًا. قال: وكيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة؟ فقلت: ما أراك إلّا صَبوْت! قال: أ فلا أدُلّك على العجَب! إنّ أُختك وزوجها قد صَبَوَا. فمشى عمر فدخل عليهما ذامِرًا وعندهما رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: خَبّاب بن الأرتّ، فلمّا سمع خبّاب حِسّ عمر توارَى.

فقال عمر: ما هذه الهَينَمة[1] الّتي سمعتُها عندكم؟ وكانوا يقرءون «طه» على خبّاب. فقال: ما عندنا شيء، إنّما هو حديث كنّا نتحدّثه بيننا. قال: فلعلّكما قد صَبوْتما[2]، فقال له خَتَنه: أ رأيت يا عمر إن كان الحقّ في غير دينك! فوثَب عمر على خَتَنه فوطِئه وطئًا شديدًا، فجاءت أُخته فدفعتْه عن زوجها، فنفحها بيده فأدمى وجهها، فجاهرتْه فقالت: إنّ الحقّ في غير دينك، وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله. فاصنعْ ما بدا لك!

فلمّا يئس قال: أعطوني هذا الكتاب الّذي عندكم فأقرؤُه ـ وكان عمر يقرأ الخطّ ـ فقالت له أُخته: إنّك رجسٌ وإنّ هذا الكتاب لا يمسُّه إلّا المطهَّرون، فقمْ فتوضّأ؛ فقام فأصاب ماءً، ثمّ أخذ الكتاب فقرأ: ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[3] إلى قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[4] فقال عمر: دُلّوني على محمّد. فلمّا سمع خبّاب قول عمر ورأى منه الرّقّة خرج من البيت فقال: أبشِرْ يا عمر، فإنّي لأرجو أن تكون دعوةُ رسول الله ﷺ ليلة الخميس لك؛ سمعته يقول: «اللّهمّ أعزّ الإسلام بعمر بن الخطّاب أو بعمرو بن هشام» ـ

١ـ الهَينَمة: الصّوت الخفي.

٢ـ صبا، أي خرج عن دينه.

٣ـ طه / ١ـ ٣.

٤ـ طه / ١٤.

قال: ورسول الله ﷺ في الدّار الّتي في أصْل الصّفا ـ فانطلق عمر حتّى أتى الدّار، وعلى الباب حمزة بن عبد المطّلب وطلحة بن عبيد الله وناسٌ من أهل رسول الله ﷺ. فلمّا رأى النّاس عمر قد أقبَل، كأنّهم وُجِدوا وقالوا: قد جاء عمر، فقال حمزة: قد جاء عمر، فإن يُرِد الله به خيرًا يُسلِم، وإن يرد غير ذلك كان قتْله علينا هيّنًا.

قال: والنّبيّ ﷺ مِن داخل البيت يوحَى إليه، فسمع رسول الله ﷺ كلامَ القوم، فخرج مُسرعًا حتّى انتهى إلى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه، وقال: ما أنت منتهيًا يا عمر حتّى ينزل الله بك ـ يعني من الخزي والنّكال ـ ما أنزل بالوليد بن المغيرة! ثمّ قال: اللّهمّ هذا عمر، اللّهمّ أعزّ الإسلام بعمر! فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّك رسول الله. فكبّر أهل الدّار ومن كان على الباب تكبيرةً سمعها من كان في المسجد من المشركين.[1]

وقد روي أنّ عمر كان موعودًا ومبشّرًا بما وصل إليه من قبل أن يظهر أمر الإسلام. قرأت في كتاب من تصانيف أبي أحمد العسكريّ رحمه الله، أنّ عمر خرج عَسيفًا[2] مع الوليد ابن المغيره إلى الشّام في تجارة للوليد، وعمر يومئذ ابن ثماني عشرة سنة، فكان يرعى للوليد إبِلَه ويرفع أحماله ويحفظ متاعه، فلمّا كان بالبَلْقاء لقِيه رجل من علماء الرّوم، فجعل ينظر إليه ويُطيل النّظر لعمر، ثمّ قال: أظنّ اسمك يا غلام «عامرًا» أو «عمران» أو نحو ذلك؟ قال: اسمي «عمر». قال: اكشفْ عن فَخِذيك، فكشف فإذا على أحدهما شامّة سوداء في قَدْر راحة الكفّ. فسأله أن يكشف عن رأسه، فكشف فإذا هو أصْلَع. فسأله أن يعتمل بيده، فاعتمل فإذا أعسَر[3] أيسَر. فقال له: أنت ملك العرب، وحقّ مريم البتول! قال: فضحك عمر مستهزئًا. قال: أ وتضحك! وحقّ مريم البتول

---

١ ـ الرّياض النّضرة ١: ١٩١، ١٩٢.

٢ ـ العسيف: الأجير.

٣ ـ الأعسَر: الّذي يعمل بيده اليسرى، وفي النّهاية لابن الأثير (٤: ٢٦٥): «كان عمر أعسَر أيسَر»، هكذا يروى، والصّواب «أعسَر يسَر» وهو الّذي يعمل بيديه جميعًا، ويسمّى «الأضبط».

إنّك ملك العرب وملك الرّوم وملك الفرس! فتركه عمر وانصرف مستهينًا بكلامه، وكان عمر يحدّث بعد ذلك ويقول: تبعني ذلك الرّوميّ وهو راكبُ حمار، فلم يزل معي حتّى باع الوليد متاعه وابتاع بثمنه عِطرًا وثيابًا وقفَل إلى الحجاز والرّوميّ يتبعني، لا يسألني حاجة، ويقبّل يدي كلّ يوم إذا أصبحت كما تُقبّل يد الملك، حتّى خرجنا من حدود الشّام ودخلنا في أرض الحجاز راجعين إلى مكّة، فودّعني ورجع. وكان الوليد يسألني عنه فلا أُخبره. ولا أراه إلّا هلَك، ولو كان حيًّا لشخَص إلينا.

(١٢: ١٨٢ـ١٨٤)

[خبر عمر مع عمرو بن معديكرب]

وذكر أبو عبيدة مَعْمر بن المثنّى في كتاب «مقاتل الفرسان» أنّ سعد بن أبي وقّاص أوفَد عمرو بن معديكرب بعد فتح القادسيّة إلى عمر، فسأله عمر عن سعد: كيف تركتَه وكيف رضاء النّاس عنه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هو لهم كالأب يجمع لهم جمْع الذّرّة، أعرابيٌّ في نَمِرته[١]، أسدٌ في تامورته[٢]، نَبَطيٌّ في جِبايته، يقسِم بالسّويّة، ويعدل في القضيّة، وينفِر في السّريّة.

وكان سعد كتَب يُثني على عمرو، فقال عمر: لكأنّما تعاوَضتُما الثّناء! كتَب يُثني عليك وقدِمتَ تُثني عليه! فقال: لم أُثنِ إلّا بما رأيت. قال: دَعْ عنك سعدًا وأخبرْني عن مَذْحِج قومك. قال: في كلّ فضلٌ وخيرٌ. قال: ما قولُك في عُلَة بن خالد؟ قال: أُولئك فوارس أعراضنا، أحَثُّنا طلبًا وأقَلُّنا هرَبًا. قال: فسعد العشيرة؟ قال: أعظمُنا خَميسًا[٣] وأكبرُنا رئيسًا وأشَدُّنا شَريسًا[١]. قال: فالحارث بن كعب؟ قال: حَكَمَةٌ لا ترام

١ـ النّمرة: بردة من صوف يلبسها الأعراب.

٢ـ قال في اللّسان: «وسأل عمر بن الخطاب ﷺ عمرو بن معديكرب عن سعد فقال: أسد في تامورته، أي في عريته؛ وهو بيت الأسد الّذي يكون فيه، وهي في الأصل الصّومعة. فاستعارها للأسد».

٣ـ الخميس: الجيش.

قال: فمراد؟ قال: الأتقياء البرَرة والمساعير الفجَرة، ألزمُنا قرارًا وأبعدُنا آثارًا. قال: فأخبرْني عن الحرب. قال: مُرّة المَذاق إذا قلّصتْ عن ساق. مَن صبر فيها عرف، ومن ضعف عنها تلف. وإنّها لَكما قال الشّاعر:

الحَـرْبُ أوّل مَـا تَكُـونُ فَتِيَّـةً ... تَسْـعَى بزينَتِهـا لكـلّ جَهُـولِ[٢]

حـتّى إذا اسـتعرَتْ وشَـبّ ضِـرامها ... عـادتْ عجـوزًا غيـر ذاتِ حليـلِ

شَمْطـاء جَـزَّتْ رأسَـها وتنكّـرتْ ... مَكْرُوهَـةً للشّـمّ والتّقبيـلِ

قال: فأخبرْني عن السّلاح. قال: سلْ عمّا شئت منه. قال: الرُّمح؟ قال: أخوك وربّما خانك. قال النّبل؟ قال: منايا تُخطِئ وتصيب. قال التُّرس؟ قال: ذاك المِجنّ وعليه تدور الدّوائر. قال: الدّرع؟ قال: مشغَلةٌ للرّاكب[٣] متعَبةٌ للرّاجل، وإنّها لحِصْنٌ حصين. قال: السّيف؟ قال: هناك قارعتْ أُمّك الهَبَل. قال: بل أُمّك. قال: بل أُمّي والحُمّى أضْرَعَتْنِي[٤] لك[٥].

عرض سليمان بن ربيعة الباهليّ جنده بأرمينيّة، فكان لا يقبل من الخيل إلّا عتيقًا، فمرّ عمرو بن معديكرب بفرس غليظ، فردّه وقال: هذا هَجين! قال عمرو: إنّه ليس بهَجين، ولكنّه غليظ، قال: بل هو هَجين، فقال عمرو: إنّ الهَجين لَيَعرِف الهَجين. فكتب بكلمته إلى عمر، فكتب إليه: أمّا بعد يا بن معدِيكرب، فإنّك القائل لأميرك ما قلت. فإنّه بلَغني أنّ عندك سيفًا تُسمّيه الصَّمْصامة وأنّ عندي سيفًا أُسمّيه مصمِّمًا، وأُقسم بالله لئن وضعتُه بين أُذنيك لا يَقلَع حتّى يبلغ قِحفَك.

١ـ شريسًا، أي شراسة.

٢ـ تنسب هذه الأبيات لامرئ القيس، ديوانه ٣٥٣.

٣ـ في العقد: «مثقلة للرّاكب متعبة للفارس».

٤ـ أراد أنّ الإسلام قيّده، ولو كان في الجاهليّة ما استطاع عمر أن يكلّمه بهذا الكلام.

٥ـ الخبر في العقد ١: ٢١٠، عيون الأخبار ١: ١٣٠.

وكتب إلى سليمان بن ربيعة يَلومه في حِلمه عنه، فلمّا قرأ عمرو الكتاب قال: مَن ترونه يعني؟ قالوا: أنت أعلم. قال: هدّدني بعليٍّ والله، وقد كان صلِي بناره مَرّةً في حياة رسول الله ﷺ، وأفلَتَ مِن يده بجُرَيْعة[1] الذَّقَن، وذلك حين ارتدّت مَذحِج وكان رسول الله ﷺ أمّر عليها فَرْوة بن مسيك المراديّ، فأساء السِّيرة ونابذ عمرو بن معديكرب ففارقه في كثير من قبائل مَذحِج. فاستجاش فَرْوة عليه وعليهم رسول الله ﷺ فأرسل خالد بن سعيد بن العاص في سريّة وخالد بن الوليد بعده في سريّة ثانية، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام في سريّة ثالثة وكتب إليهم: كلّ واحد منكم أميرُ مَن معه، فإذا اجتمعتم فعليٌّ أميرٌ على الكلّ.

فاجتمعوا بموضع من أرض اليمن يقال له «كسر»، فاقتتلوا هناك. وصَمَد عمرو بن معديكرب لعليّ عليه السلام ـ وكان يظنّ أن لا يثبت له أحدٌ من شجعان العرب ـ فثبت له، فعلا عليه وعاين منه ما لم يكن يحتسبه، ففرّ من بين يديْه هاربًا ناجيًا بحُشاشة نفسه بعد أن كاد يقتله وفرَّ معه رؤساء مَذحِج وفرسانهم، وغنِم المسلمون أموالَهم، وسُبِيت ذلك اليوم ريحانة بنت معديكرب أُخت عمرو، فأدّى خالد بن سعيد بن العاص فِداءها من ماله، فأصابه عمرو أخوها الصّمْصامة، فلم يزل ينتقل في بني أُميّة ويتداولونه واحدًا بعد واحد حتّى صار إلى بني العبّاس في أيّام المهديّ محمّد بن المنصور أبي جعفر. (١٢: ١١٨ـ١٢٠)

[في غزواته]

[يوم القادسية]

(الخطبة: ١٤٦) ومن كلام له عليه السلام وقد استشاره عمربن الخطّاب في الشّخوص لقتال

١ـ أي وقرْب الموت منه كقرْب الجُريعة من الذّقن؛ ذلك إذا أشرف على التّلف ثمّ نجا، وهذا مثلٌ يضرب في إفلات الجبان.

الفرس بنفسه:

إِنَّ هذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خُذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ، وَهُوَ دِينُ اللهِ الَّذي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حتّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُما طَلَعَ، وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللهِ، وَاللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ. وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ، فَإِذَا انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَدًا.

وَالْعَرَبُ الْيَومَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا، فَهُمْ كَثِيرُونَ بَالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بَالْاِجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْبًا، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حتّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَدًا يَقُولُوا: هذا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ وَطَمَعِهِمْ فِيكَ.

فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ!

... واعلم! أنّ هذا الكلام قد اختلف في الحال الّتي قاله فيها لعمر، فقيل: قاله له في غَزاة القادسيّة، وقيل في غَزاة نَهاوَند.

وإلى هذا القول الأخير ذهب محمّد بن جرير الطّبريّ في «التّاريخ الكبير». وإلى القول الأوّل ذهب المدائنيّ في كتاب «الفتوح»، ونحن نشير إلى ما جرَى في هاتين الوقعتيْن إشارةً خفيفةً على مذهبنا في ذكر السِّيَر والأيّام.

فأمّا وقعة القادسيّة فكانت في سنة أربع عشرة للهجرة. استشار عمر المسلمين في أمر القادسيّة، فأشار عليه عليّ بن أبي طالب في رواية أبي الحسن عليّ بن محمّد بن سيف المدائنيّ ألّا يخرج بنفسه، وقال: إنّك إن تخرُج لا يكن للعجم هِمّة إلّا استئصالك، لعلْمهم أنّك قطبُ رحا العرب، فلا يكون للإسلام بعدها دوْلة. وأشار عليه غيره من النّاس أن يخرج بنفسه، فأخذ برأي عليّ عليه السلام.

وروَى غير المدائنيّ أنّ هذا الرّأي أشار به عبد الرّحمن بن عوف؛ قال أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ: لمّا بدا لعمر في المقام بعد أن كان عزَم على الشُّخوص بنفسه، أمّر سعدَ بن أبي وقّاص على المسلمين، وبعث يَزدَجِرد رستمَ الأرمنيّ أميرًا على الفرس. فأرسل سعدٌ النُّعمانَ بن مُقرّن رسولًا إلى يزدَجِرد، فدخل عليه وكلّمه بكلام غليظ، فقال يَزدَجِرد: لولا أنّ الرّسل لا تقتَل لقتلتُك. ثمّ حمَّله وَقرًا من تراب على رأسه، وساقه حتّى أخرجه من باب من أبواب المدائن، وقال: ارجعْ إلى صاحبك، فقد كتبتُ إلى رستم أن يَدفِنه وجنده من العرب في خندق القادسية، ثمّ لأشغلنّ العرب بعدها بأنفسهم، ولأُصيبنّهم بأشدّ ممّا أصابهم به سابور ذو الأكتاف. فرجع النّعمان إلى سعد فأخبره، فقال: لا تخفْ، فإنّ الله قد ملَّكنا أرضَهم تفاؤلًا بالتُّراب.

قال أبو جعفر: وتَثبّط رستم عن القتال وكرِهه، وآثر المسالمة، واستعجله يزدجرد مرارًا، واستحثّه على الحرب، وهو يدافع بها ويرى المطاولة. وكان عسكره مائةً وعشرين ألفًا وكان عسكر سعد بضعًا وثلاثين ألفًا. وأقام رستم بَريدًا من الرّجال، الواحد منهم إلى جانب الآخر، من القادسيّة إلى المدائن. كلّما تكلّم رستم كلمةً أدّاها بعضُهم إلى بعض حتّى تصل إلى سمع يَزدَجِردَ في وقتها. وشهد وقعة القادسيّة مع المسلمين طُلَيحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب والشَّمّاخ بن ضرار وعَبَدة بن الطّبيب الشّاعر وأوْس بن معن الشّاعر، وقاموا في النّاس يُنشِدونهم الشّعر ويُحرِّضونهم. وقرَن أهلُ فارس أنفسَهم بالسّلاسل لئلّا يهربوا، فكان المقرَّنون منهم نحو ثلاثين ألفًا.

والتَحم الفريقان في اليوم الأوّل، فحملت الفِيَلة الّتي مع رستم على الخيل فطحنتْها، وثبت لها جمع من الرَّجّالة. وكانت ثلاثة وثلاثين فيلًا، منها فيل المَلك، وكان أبيضَ عظيمًا، فضربت الرّجال خراطيم الفِيَلة بالسّيوف فقطعتْها، وارتفع عُواؤها وأُصيبَ في هذا اليوم ـ وهو اليوم الأوّل ـ خمسمائة من المسلمين، وألفان من الفرس.

و وصل في الثّاني أبو عبيدة بن الجرّاح من الشّام في عساكر من المسلمين، فكان مددًا لسعد، وكان هذا اليوم على الفرس أشدّ من اليوم الأوّل، قتل من المسلمين ألفان

ومن المشركين عشرة آلاف.

وأصبحوا في اليوم الثّالث على القتال وكان عظيمًا على العرب والعجم معًا، وصبر الفريقان وقامت الحرب ذلك اليوم. وتلك اللّيلة جمعاء لا ينطِقُون، كلامُهم الهَرير فسمّيت ليلة الهرير.

وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم، وانقطع سعد إلى الصّلاة والدّعاء والبكاء، وأصبح النّاس حَسرَى لم يغمضوا ليلتَهم كلّها. والحرب قائمةٌ بعد إلى وقت الظّهر، فأرسل الله تعالى ريحًا عاصفًا في اليوم الرّابع، أمالت الغبار والنّقْع على العجم، فانكسروا و وصلت العرب إلى سرير رستم، وقد قام عنه ليركب جملًا وعلى رأسه العلَم.

فضرب هلال بن علقمة الحِمْل الّذي رستم فوقه، فقطع حباله و وقع على هلال أحَد العِدلين فأزال فَقار ظَهره، ومضَى رستم نحو العتيق، فرمَى نفسه فيه واقتحم هلال عليه فأخذ برجله وخرج به يجرّه حتّى ألقاه تحت أرجُل الخيل، وقد قتله وصعد السّرير فنادى: أنا هلال، أنا قاتل رستم، فانهزمت الفرس وتهافتوا[1] في العقيق فقُتل منهم نحو ثلاثين ألفًا ونُهبت أموالهم وأسلابهم، وكانت عظيمة جدًّا.

وأخَذت العرب منهم كافورًا كثيرًا فلم يعبئوا به لأنّهم لم يعرفوه، وباعوه من قوم بمِلْح، كيلًا بكيل، وسُرّوا بذلك وقالوا: أَخذْنا منهم ملحًا طيّبًا ودفعنا إليهم ملحًا غير طيّب. وأصابوا من الجامات من الذّهب والفضّة مالا يقع عليه العدّ لكثرته. فكان الرّجل منهم يعرِض جاميْن من ذهبٍ على صاحبه ليأخذ منه جامًا واحدًا من فضّةٍ يُعجِبه بياضها ويقول: مَن يأخذ صَفْراويْن ببيضاء!

وبعث سعد بالأنفال والغنائم إلى عمر، فكتب إلى سعد: لا تتّبع الفرس وقِفْ مكانك واتّخذه منزلًا. فنزل موضع الكوفة اليوم واختطّ مسجدَها وبنَى فيها الخِطَط للعرب. (٩: ٩٦ـ٩٩)

١ـ تَهافَت على الشّيء: تَساقَط وتَتابَع، وأكثر استعماله في الشّر.

[يوم نهاوند]

فأمّا وقعة نَهاوند، فإنّ أبا جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ ذكر في كتاب التّاريخ[١]؛ أنّ عمر لمّا أراد أن يغزوَ العجم وجيوش كسرى وهي مجتمعة بنَهاوند، استشار الصّحابة.

فقام عثمان فتشهّد فقال: أرَى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشّام فيسيروا من شامهم، وتكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثمّ تسير أنت بأهل هذين الحرَميْن إلى المصريْن: البصرة والكوفة، فتلقَ جمْع المشركين بجمع المسلمين. فإنّك إذا سرتَ بمن معك ومن عندك، قلَّ في نفسك ما تكاثَر من عدد القوم وكنتَ أعزّ عزًّا وأكثر. إنّك لا تستبقي من نفسك بعد اليوم[٢] باقية، ولا تُمتَّع من الدّنيا بعزيز، ولا تكون منها في حرزٍ حريزٍ. إنّ هذا اليوم له ما بعده، فاشهَدْ بنفسك ورأيك وأعوانك، ولا تغِبْ عنه.

قال أبو جعفر: وقام طلحة فقال: أمّا بعد يا أمير المؤمنين، فقد أحكمتْك الأُمور وعجمتْك البلايا وحنّكتْك[٣] التّجارب، وأنت وشأنك، وأنت ورأيك، لا ننبو في يديك ولا نَكِلُ أمْرَنا إلّا إليك، فأمُرْنا نُجِبْ، وادْعُنا نُطِعْ، واحْمِلنا نركبْ، وقُدْنا ننقدْ، فإنّك وليّ هذا الأمر، وقد بلوْتَ وجرّبتَ واختبرتَ، فلم ينكشفْ شيء من عواقب الأُمور لك إلّا عن خيار.

فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أمّا بعد، فإنّ هذا الأمر لم يكن نصْره ولا خذلانه بكثرةٍ ولا قلّة، إنّما هو دين الله الّذي أظهَره، وجُنْده الّذي أعزّه وأمدّه بالملائكة، حتّى بلغ ما بلغ. فنحن على موعودٍ من الله، والله منجِزٌ وعده، وناصِرٌ جنده. وإنّ مكانك منهم مكانُ النّظام من الخرَز، يجمعه ويمسكه؛ فإن انحلّ، تفرّق ما فيه وذهب ثمّ لم

١ـ تاريخه ٤: ٢٣٧ وما بعدها (المطبعة الحسينيّة).

٢ـ الطّبريّ: «العرب».

٣ـ الطّبريّ: «واحتَنكتْك».

يجتمع بجَذافيره أبدًا. والعرب اليوم وإن كانوا قليلًا، فإنّهم كثيرٌ عزيزٌ بالإسلام؛ أقِمْ مكانك واكتبْ إلى أهل الكوفة فإنّهم أعلامُ العرب ورؤساؤهم، وليُشخِصْ منهم الثّلثان وليُقِمْ الثّلث. واكتُبْ إلى أهل البصرة أن يمدّوهم ببعض مَن عندهم، ولا تُشخِصْ الشّام ولا اليمن؛ إنّك إن أشخَصتَ أهل الشّام مِن شامهم سارت الرّوم إلى ذَراريّهم، وإن أشخَصتَ أهل اليمن مِن يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريّهم. ومتى شخصتَ من هذه الأرض انتقضتْ عليك العرب من أقطارها وأطرافها، حتّى يكون ما تدع وراءك أهمّ إليك ممّا بين يديك من العَوْرات والعيالات. إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غدًا قالوا: هذا أميرُ العرب وأصلهم، فكان ذلك أشدَّ لكَلَبِهم عليك. وأمّا ما ذكرتَ من مسير القوم، فإنّ الله هو أكرَهُ لسيرهم منك، وهو أقدَرُ على تغيير ما يكره. وأمّا ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنّما كنّا نقاتل بالصّبر والنّصر.

فقال عمر: أجلْ! هذا الرّأي وقد كنت أُحبّ أن أُتابع عليه، فأشيروا عليَّ برجل أُولّيه ذلك الثّغر. قالوا: أنت أفضل رأيًا، فقال: أشيروا عليَّ به واجعلوه عراقيًّا. قالوا: أنت أعلم بأهل العراق، وقد وَفَدُوا عليك فرأيتَهم وكلّمتهم. قال: أما والله لأُولّينّ أمْرهم رجلًا يكون عَمَدًا لأوّل الأسِنّة. قيل: ومَن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: النُّعمان بن مُقرِّن. قالوا: هو لها. وكان النّعمان يومئذ بالبصرة، فكتب إليه عمر فولّاه أمر الجيش.

قال أبو جعفر: كتب إليه عمر: سِر إلى نهاوند، فقد ولّيتُك حرب الفيروزان ـ وكان المقدّم على جيوش كسرى ـ فإن حدَث بك حدثٌ فعلى النّاس حذيفة بن اليمان، فإن حدث به حدث فعلى النّاس نعيم بن مُقرِّن، فإن فتح الله عليكم فاقسِمْ على النّاس ما أفاء الله عليهم ولا ترفع إليّ منه شيئًا، وإن نكث القوم فلا تراني ولا أراك. وقد جعلتُ معك طُلَيحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب، لعلْمهما بالحرب، فاستشرهما ولا تولّهما شيئًا.

قال أبو جعفر: فسار النّعمان بالعرب حتّى وافى نهاوند، وذلك في السّنة السّابعة من خلافة عمر. وتراءَى الجمعان، ونَشِب القتال، وحجَزهم المسلمون في خنادقهم،

واعتصموا بالحُصون والمُدن، وشُقَّ على المسلمين ذلك، فأشار طليحة عليه فقال: أرى أن تبعث خيلًا ببعض القوم وتُحمِّشهم[١]، فإذا استَحمشوا خرج بعضهم واختلطوا بكم فاستطرِدوا لهم، فإنّهم يطمعون بذلك، ثمّ تَعطِف عليهم حتّى يَقضي الله بيننا وبينهم بما يحبّ.

ففعل النّعمان ذلك، فكان كما ظنّ طليحة، وانقطع العجم عن حصونهم بعض الإنقطاع. فلمّا أمعنوا في الإنكشاف للمسلمين حمَل النّعمان بالنّاس، فاقتتلوا قتالًا شديدًا لم يسمع السّامعون مثله، وزلَق بالنّعمان فرسُه فصُرِع وأُصيب، وتناول الرّاية نعيم أخوه، فأتى حذيفة لها فدفعها إليه، وكتَم المسلمون مُصابَ أميرهم. واقتتلوا حتّى أظلم اللّيل، ورجعوا والمسلمون وراءهم، فعَمي عليهم قصدُهم فتركوه، وغَشيهم المسلمون بالسّيوف، فقتلوا منهم ما لا يُحصَى، وأدرك المسلمون الفيروزانَ وهو هاربٌ، وقد انتهى إلى ثنِيّة مشحونة[٢] ببغال مُوقَّرة عسلًا، فحبستْه على أَجَله فقُتل، فقال المسلمون: إنَّ لله جنودًا من عسل.

ودخل المسلمون نهاوند فاحتوَوْا على ما فيها، وكانت أنفالُ هذا اليوم عظيمة، فحُملت إلى عمر، فلمّا رآها بكى فقال له المسلمون: إنّ هذا اليوم يوم سرور وجذَل، فما بكاؤك؟ قال: ما أظنّ أنّ الله تعالى زَوَى[٣] هذا عن رسول الله ﷺ وعن أبي بكر إلّا لخيرٍ أراده بهما ولا أراه فتْحه عليّ إلّا لشرٍّ أُريدَ بي، إنّ هذا المال لا يَلبَث أن يَفتِن النّاس. ثمّ رفع يده إلى السّماء يدعو ويقول: اللّهمّ اعصِمْني ولا تكِلْني إلى نفسي، يقولها مرارًا. ثمّ قسّمه بين المسلمين عن آخره. (٩: ٩٩ـ١٠٢)

[غزوة فلسطين و فتح بيت المقدس]

(الخطبة: ١٣٤) ومن كلام له عليه السلام وقد شاوَره عمربن الخطّاب في الخروج إلى غزو الرّوم:

١ـ تُحمِّشهم: تُهيِّجهم.

٢ـ يقال: شحن المدينة بالخيل أو البغال، إذا ملأها.

٣ـ زوَى: منع وصرف.

وَقَدْ تَوَكَّلَ اللهُ لِأَهْلِ هَذا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ. وَالّذي نَصَرَهُمْ ـ وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَمْتَنِعُونَ ـ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ. إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ بِشَخْصِكَ فَتُنْكَبْ، لاَ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَهْفٌ دُونَ أَقْصَى بِلاَدِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَبًا، وَاحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلاَءِ وَالنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى، كُنْتَ رِدْءًا لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ.

... واعلم أنّ هذه الغَزاة هي غزاه فلسطين، الّتي فُتح فيها بيت المقدس. وقد ذكرها أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ في التّاريخ[1]، وقال: إنّ عليًّا عليه السلام هو كان المستخلَف على المدينة لمّا شخَص عمر إلى الشّام، وإنّ عليًّا عليه السلام قال له: لا تخرج بنفسك، إنّك تريد عدوًّا كَلِبًا، فقال عمر: إنّي أُبادر بجهاد العدوّ موت العبّاس بن عبد المطّلب، إنّكم لو فقدتم العبّاس لانتَقض بكم الشّرّ كما يَنتقض[2] الحبل. فمات العبّاس لستّ سنين خلت من إمارة عثمان وانتقض بالنّاس الشّرّ.

قال أبو جعفر: وقد كان الرّوم عرَفوا من كتبهم أنّ صاحب فتح مدينة إيلياء ـ وهي بيت المقدس ـ رجلٌ اسمه على ثلاثة أحرف، فكان مَن حضَر مِن أُمراء المسلمين يسألون عن اسمه فيعلمون أنّه ليس بصاحبهم. فلمّا طال عليهم الأمر في حرب الرّوم، استمدُّوا عمر وقالوا: إن لم تحضر بنفسك لم يُفتَح علينا. فكتب إليهم أن يلتقوه برأس الجابية ليوم سمّاه لهم، فلقوه وهو راكبٌ حمارًا.

وكان أوّلَ مَن لقيَه يزيد بن أبي سفيان ثمّ أبو عبيدة بن الجرّاح ثمّ خالد بن الوليد على الخيول وعليهم الدّيباج والحرير. فنزل عمر عن حِماره وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال: سَرْعان ما لُفِتُّم عن رأيكم. إيّاي تستقبلون في هذا الزّيّ! وإنّما سَبِعتم منذ

---

١ ـ تاريخ الطّبريّ ١: ٢٤٠٥ وما بعدها (طبع أُوروبا).

٢ ـ الطّبريّ: «كما ينتقص أوّل الحبل».

سنتين، سَرْع ما ترّثْ بكم[١] البِطْنة، وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم! فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنّما هي يَلامقةٌ وتحتها السّلاح[٢]، فقال: فنِعم إذًا!

قال أبو جعفر: فلمّا علم الرّوم مقدَم عمر نفسه سألوه الصّلح، فصالَحهم وكتب لهم كتابًا على أن يؤدّوا الجزية ثمّ سار إلى بيت المقدس، فقصّر فرسُه عن المشي، فأُتي ببِرذَونٍ فركبه، فهزّه وهَمْلَج تحته، فنزل عنه وضرب وجهه بردائه وقال: قبّح الله مَن علّمك هذا! ردُّوا عليَّ فرسي، فركبه وسار حتّى انتهى إلى بيت المقدس. قال: ولم يركبْ برِذَونًا قبلَه ولا بعده، وقال: أعوذ بالله من الخُيلاء!

قال أبو جعفر: ولَقيه معاوية وعليه ثياب ديباج وحوله جماعة من الغلمان والخَوَل، فدنا منه فقبّل يده، فقال: ما هذا يابن هند! وإنّك لعلى هذه الحال؛ مُترَفٌ صاحب لَبُوسٍ وتنعّمٍ، وقد بلغني أنّ ذوي الحاجات يقفون ببابك! فقال: يا أمير المؤمنين، أمّا اللّباس فإنّا ببلاد عدوّ، ونحبّ أن يَرى أثر نعمة الله علينا، وأمّا الحِجاب فإنّا نَخاف من البِذلَة جرأة الرّعيّة. فقال: ما سألتُك عن شيء إلّا تركتَني منه في أضيق من الرَّواجب[٣]، إن كنتَ صادقًا فإنّه رأيٌ لَبيبٌ، وإن كنت كاذبًا فإنّها خدعةٌ أَريبٌ.

وقد روى النّاس كلام معاوية لعمر على وجه آخر، قيل: لمّا قدِم عمر الشّام، قدِمها وهو راكبٌ حمارًا قريبًا من الأرض، ومعه عبد الرّحمن بن عوف راكب حمارٍ قريبٍ أيضًا، فتلقّاهما معاوية في كَوكَبةٍ خشناء[٤]، فثنَى وَرْكَه ونزل وسلّم بالخلافة فلمْ يرُدّ عليه.

فقال له عبد الرّحمن: أحصرتَ الفتى يا أمير المؤمنين، فلو كلّمته! قال: إنّك لَصاحِب الجيش الّذي أرى! قال: نعم. قال: مع شدّة احتجابك، و وقوف ذوي

١ـ التّارّ: الممتلئ البدَن، وفي الطّبريّ: «ندت».

٢ـ اليَلمَق: القباء المحشوّ وفي الطّبريّ: «إنّ علينا السّلاح».

٣ـ الرّواجب: ما بين عقد الأصابع.

٤ـ خشناء، أي كثيرة السّلاح.

الحاجات ببابك! قال: أجل. قال: لِمَ ويحك! قال: لأنّا ببلاد عدوّ كثير فيها جواسيسهم، فإن لم نتّخذ العُدّة والعَدَد استخفّ بنا وهجم على عوراتنا، وأنا بعد عاملُك فإن استنقصتَني نقصتُ، وإن استزدتَني زدتُ، وإن استوقفتَني وقفتُ. فقال: إن كنتَ كاذبًا إنّه لرأيُ أَريب، وإن كنتَ صادقًا إنّه لتدبير لَبيب، ما سألتك عن شيء قطّ إلّا تركتَني منه في أَضيق من رواجب الضِّرس، لا آمُرك ولا أنهاك. فلمّا انصرف قال عبد الرّحمن: لقد أحسن الفتى في إصدار ما أوردتَ عليه، فقال: لِحُسْن إيراده وإصداره جسّمناه ما جسّمناه.

قال أبو جعفر: شخَص عمر من المدينة إلى الشّام أربعَ مرّات، ودخلها مرّةً راكب فرسٍ، ومرّةً راكب بعير، ومرّةً راكب بغل، ومرّةً راكب حمار، وكان لا يُعرَف. وربما استخبره الواحد: أين أمير المؤمنين؟ فيسكُت أو يقول: سلْ النّاس. وكان يدخل الشّام وعليه سَحْقُ[1] فرْوٍ مقلوبٍ، وإذا حضر النّاس طعامه رأوْا أخشن الطّعام.

قال أبو جعفر: وقدِم الشّام في إحدى هذه المرّات الأربع، فصادف الطّاعون بها فاشيًا. فاستشار النّاس، فكلٌّ أشار عليه بالرّجوع وألّا يدخلها، إلّا أبا عبيدة بن الجرّاح، فإنّه قال: أ تفِرّ من قدَر الله؟ قال: نعم، أفِرّ من قدَر الله بقدَر الله إلى قدَر الله، لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! فما لبث أن جاء عبد الرّحمن بن عوف فروى لهم عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «إذا كنتم ببلاد الطّاعون فلا تخرجوا منها، وإذا قدمتم إلى بلاد الطّاعون فلا تدخلوها». فحمِد الله على موافقة الخبر لما كان في نفسه وما أشار به النّاس، وانصرف راجعًا إلى المدينة ومات أبو عبيدة في ذلك الطّاعون، وهو الطّاعون المعروف بطاعون عِمْواس وكان في سنة سبع عشرة من الهجرة.[2] (٨: ٢٩٨ـ٣٠٠)

١ـ السَّحق: الثّوب البالي.

٢ـ تاريخ الطّبريّ ١: ٢٤٠١.

[تاريخ موت عمر و الأخبار الواردة في ذلك]

فأمّا تاريخ موته، فإنّ أبا لؤلؤة طعَنه يوم الأربعاء، لأربع بَقِينَ من ذي الحجّة من سنة ثلاث وعشرين، ودُفن يوم الأحد صباح هلال المحرّم سنة أربع وعشرين، وكانت ولايته عشر سنين وستّة أشهر، وهو ابن ثلاث وستّين في أظهر الأقوال.

وقد كان قال على المنبر يوم جمعة، وقد ذكر رسول الله ﷺ وأبا بكر: إنّي قد رأيتُ رؤيا، أظنّها لحضور أجَلي؛ رأيت كأنّ ديكًا نقَرني نَقْرتين، فقصصتُها على أسماء بنت عُمَيس، فقالت: يقتلك رجلٌ من العجم. وإنّي أفكرتُ فيمن أستخلف، ثمّ رأيتُ أنّ الله لم يكن ليضيّع دينَه وخلافته الّتي بعث بها رسوله.

وروى ابنُ شهاب، قال: كان عمر لا يأذن لصبيّ قد احتلم في دخول المدينة، حتّى كتب المغيرة، وهو على الكوفة، يذكر له غلامًا صَنَعًا عنده ويستأذنه في دخول المدينة ويقول: إنّ عنده أعمالًا كثيرة فيها منافع للنّاس، إنّه حدّاد نقّاش نجّار. فأَذِن له أن يرسل به إلى المدينة، وضرَب عليه المغيرة مائة درهم في كلّ شهر. فجاء إلى عمر يومًا يشتكي إليه الخراج، فقال له عمر: ماذا تحسن من الأعمال؟ فعدّ له الأعمال الّتي يحسن، فقال له: ليس خراجُك بكثير في كُنْه عملك.

هذا هو الّذي رواه أكثر النّاس من قوله له. ومن النّاس مَن يقول: إنّه جهَر بكلام غليظ واتّفقوا كلّهم على أنّ العبد انصرف ساخطًا يتذمّر. فلبث أيّامًا ثمّ مرّ بعمر فدعاه فقال: قد حُدّثتُ أنّك تقول: لو أشاء لصنعتُ رحًا تطحَن بالرّيح، فالتفت العبد عابسًا ساخطًا إلى عمر، ومع عمر رهْط من النّاس، فقال: لأصنعنّ لك رحًا يتحدّث النّاس بها.

فلمّا ولّى أقبل عمر على الرّهْط، فقال: أ لا تسمعون إلى العبد! ما أظنّه إلّا أوعدني آنفًا! فلبث ليالي، ثمّ اشتمل أبو لؤلؤة على خِنجَر ذي رأسيْن، نصابه في وسَطه، فكمَنَ في زاوية من زوايا المسجد في غَلَس السّحَر، فلم يزل هنالك حتّى جاء عمر يوقِظ النّاس لصلاة الفجر، كما كان يفعل، فلمّا دنا منه وثَب عليه، فطعَنه ثلاثَ طعنات:

إحداهنّ تحت السُّرَّة قد خرقت الصِّفاق[١] ـ وهي الّتي قتلته ـ ثمّ انحاز إلى أهل المسجد، فطعن فيهم مَن يليه حتّى طعن أحد عشر رجلًا سوى عمر، ثمّ انتحر بخِنجَره.

فقال عمر حين أدركه النّزف: قولوا لعبد الرّحمن بن عوف فليصلّ بالنّاس، ثمّ غلبه النّزف فأُغمِي عليه، فاحتُمل حتّى أدخل بيته، ثمّ صلّى عبد الرّحمن بالنّاس.

قال ابن عبّاس: فلم أزلْ عند عمر وهو مَغميٌّ عليه لم يزل في غَشْيةٍ واحدة حتّى أسفر. فلمّا أسفر أفاق، فنظر في وجوه مَن حوله وقال: أ صلّى النّاس؟ فقيل: نعم، فقال: لا إسلام لمَن ترَك الصّلاة، ثمّ دعا بوضوء فتوضّأ وصلّى ثمّ قال: اخرجْ يا بن عبّاس فاسأَلْ مَن قتلني؟ فجئت حتّى فتحت باب الدّار، فإذا النّاس مجتمعون، فقلت: مَن طعَن أمير المؤمنين؟ قالوا: طعَنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة.

قال ابن عبّاس: فدخلتُ فإذا عمر ينظر إلى الباب يَستأني خبر ما بعثني له، فقلت: يا أمير المؤمنين، زعم النّاس أنّه عدوّ الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وأنّه طعَن رهطًا ثمّ قتل نفسه، فقال: الحمد لله الّذي لم يجعل قاتلي يحاجّني عند الله بسجدة سجَدها له قطّ، ما كانت العرب لتقتلَني.

ثمّ قال: أرسِلوا إلى طبيب ينظر جَرحِي، فأرسَلوا إلى طبيب من العرب، فسقاه نبيذًا فخرج من الجَرح، فاشتبه عليهم الدّم بالنّبيذ، ثمّ دَعوْا طبيبًا آخر فسقاه لبنًا، فخرج اللّبن من الطّعنة صَلدًا أبيض، فقال الطّبيب: اعْهَدْ يا أمير المؤمنين عهدَك، فقال: لقد صدقني ولو قال غير ذلك لكذب. فبكى عليه القوم حتّى أسمعوا مَن خارج الدّار، فقال: لا تبكوا علينا، ألا ومَن كان باكيًا فليخرجْ، فإن النّبيّ ﷺ قال: «إنّ الميّت ليُعذَّب ببكاء أهله عليه»[٢].

١ـ الصّفاق: الجلد الأسفل الّذي تحت الجلد الّذي عليه الشّعر.

(٢) اختلف علماء السّنّة في البكاء على الميّت. فقال مسلم في صحيحه:

«... قال ابن عبّاس: فلمّا مات عمر ذكرتُ ذلك [الرّواية] لعائشة، فقالت: يرحم الله عمر، لا والله ما حدّث رسول الله ﷺ: إنّ الله يعذّب المؤمن ببكاء أحد؛ ولكن قال: إنّ الله يزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه. قال:

وروي عن عبد الله بن عمر أنّه قال: سمعتُ أبي يقول: لقد طعَنني أبو لؤلؤة طعنتيْن وما أظنّه إلّا كلبًا حتّى طعَنني الثّالثة.

وروي أنّ عبد الرّحمن بن عوف طرح على أبي لؤلؤة بعدأن طعَن النّاس حَمِيصة[1] كانت عليه، فلمّا حصل فيها انتحر نفسه، فاحتزّ عبد الرّحمن رأسه واجتمع البدريّون وأعيان المهاجرين والأنصار بالباب، فقال عمر لابن عبّاس: اخرجْ إليهم فاسألْهم أ عن ملأٍ منكم كان هذا الّذي أصابني؟ فخرج يسألهم فقال القوم: لا والله، ولوددنا أنّ الله زاد في عمره من أعمارنا!

وروى عبد الله بن عمر، قال: كان أبي يكتبُ إلى أُمراء الجيوش: لا تجلِبوا إلينا من العُلوج أحدًا جرَتْ عليه المَواسي. فلمّا طعَنه أبو لؤلؤة، قال مَن بي؟ قالوا: غلام المغيرة قال: أ لم أقلْ لكم لا تجلبوا إلينا من العُلوج أحدًا، فغلبتموني!

وروى محمّد بن إسماعيل البخاريّ في صحيحه عن عمرو بن ميمون، قال: إنّي[2] لقائم ما بيني وبين عمر إلّا عبدُ الله بن عبّاس غداةَ أُصيب، وكان إذا مَرّ بين الصَّفّيْن

وقالت عائشة: حسبكم القرآن: ولا تزر وازرةٌ وزر أُخرى. ... عن هشام بن عروة عن أبيه قال: ذُكر عند عائشة قول ابن عمر «الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه». فقالت: رحم الله أبا عبد الرحمن، سمع شيئًا فلم يحفظه؛ إنّما مرّت على رسول الله ﷺ جنازةٌ يهوديّ وهم يبكون عليه، فقال: أنتم تبكون وإنّه ليعذّب». راجع صحيح مسلم، ج٣، ص٤٣-٤٤.

١ـ الحَميصة: كساء أسْود مُربّع له عَلَمان، فإن لم يكن مُعلَمًا فليس بحَميصة.

٢ـ صدر الحديث كما في البخاريّ: «رأيت عمربن الخطّاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيّام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف. قال: كيف فعلتما؟ أ تخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قالا: حملناها أمرًا هي له مطيقة، ما فيها كبير فضل. قال: انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قال: قالا: لا، فقال عمر: لئن سلّمني الله لأدعنّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبدًا. قال: فما أتت عليه رابعة حتّى أُصيب؛ قال: إنّي لقائم ...».

قال استوُوا، حتّى إذا لم يربيننا[١] خلَلًا تقدّم فكبّر. وربّما قرأ سورة يوسف أو النّحل في الرّكعة الأُولى [أو نحو ذلك في الرّكعة الثّانية][٢] حتّى يجتمع النّاس. فما هو إلّا أن كبّر، فسمعته يقول: قتلني ـ أو أكلني ـ الكلب؛ وذلك حين طعَنه العِلج بسكّين ذات طرفين، لا يمُرّ على أحد يمينًا ولا شمالًا إلّا طعنه، حتّى طعن ثلاثة عشر رجلًا مات منهم ستّة[٣].

فلمّا رأى ذلك رجل من المسلمين طرَح عليه بُرنُسًا، فلمّا ظنّ العِلج أنّه مأخوذٌ نحَر نفسه. وتناول عمر بيده عبد الرّحمن بن عوف فقدّمه، فمن يلي عمر فقد رأى الّذي رأى، وأمّا نواحي المسجد فإنّهم لا يدرون غير أنّهم فقدوا صوت عمر، فهم يقولون: سبحان الله! فصلّى عبد الرّحمن صلاةً خفيفةً.

فلمّا انصرفوا قال: يا بن عبّاس، انظرْ مَن قتلني؟ فجال ساعةً ثمّ جاء فقال: غلام المغيرة. قال: الصَّنَع! قال: نعم. قال قاتَله الله، لقد أمرتُ به معروفًا. الحمد لله الّذي لم يجعل مَنيّتي[٤] بيد رجل يَدّعي الإسلام، وقد كنت أنت وأبوك تحبّان أن يكثر العُلوج ـ وكان العبّاس أكثرهم رقيقًا ـ فقال: إن شئت فعلنا[٥]، أي قتلناهم. قال: كذبت بعد أن تكلّموا بلسانكم وصلّوا قبلتكم وحجّوا حجّكم!

فاحتُمل إلى بيته وانطلقنا معه، وكأنّ النّاس لم تصبْهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس عليه، وقائل يقول: أخاف عليه. فأُتي بنبيذ فشربه فخرج من جوْفه، ثمّ أُتي بلَبن فشربه فخرج من جوْفه، فعلموا أنّه ميّت. فدخل النّاس يثنون عليه.

١ـ البخاريّ: «فيهنّ».

٢ـ من رواية البخاريّ.

٣ـ البخاريّ: «سبعة».

٤ـ البخاريّ: «مِيتتي».

٥ـ البخاريّ: «فعلت».

وجاء [رجل[1]] شابٌّ فقال: أبشريا أمير المؤمنين ببشرى الله، لك صحبةٌ برسول الله وقدمٌ في الإسلام ما قد علمت، ثمّ وليت فعدلْت، ثمّ الشّهادة. فقال عمر: وددت أنّ ذلك كلّه كان كفافًا، لا عليّ ولا لي. فلمّا أدبر إذا رداؤه[2] يمسّ الأرض، فقال: ردُّوا عليّ الغلام، فردُّوه فقال: يا بن أخي، ارفعْ ثوبك فإنّه أبقَى لثوبك وأتقَى لربّك. يا عبد الله بن عمر، انظر ما عليّ من دَين، فحسبوه فوجدوه ستّه وثمانين ألفًا أو نحوه، فقال: إن وفَى به مال آل عمر فأدِّه من أموالهم وإلّا فسَلْ في بني عديّ بن كعب، فإن لم تَفِ به أموالهم فسَلْ في قريش ولا تعدُهم إلى غيرهم، وأدِّ عنّي هذا المال. انطلقْ إلى عائشة فقل لها: يقرأ عليك السّلام عمر ـ ولا تقل «أمير المؤمنين» فإنّي اليوم لستُ للمؤمنين أميرًا ـ وقل: يستأذن عمربن الخطّاب أن يُدفَن مع صاحبيْه.

فمضى وسلّم واستأذن ودخل عليها فوجدها قاعدةً تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر السّلام ويستأذن أن يُدفَن مع صاحبيْه، فقالت: كنت أُريده لنفسي ـ يعني الموضع ـ ولأُوثرنّه اليوم على نفسي.

فلمّا أقبَل قيل: هذا عبد الله قد جاء. قال: ارفعوني، فأسنَدوه إلى رجل منهم. قال: يا عبد الله ما لديك؟ قال: الّذي تحبّ يا أمير المؤمنين، قد أذنتْ. قال: الحمد لله، ما كان شيء أهمّ إليّ من ذلك. إذا أنا قُبِضت فاحملني ثمّ سلِّمْ عليها وقل: يستأذن عمربن الخطّاب، فإنْ أذنتْ لي فأَدخِلوني، وإن ردّتني فردُّوني إلى مقابر المسلمين وادفِنوني بين المسلمين.

وجاءت ابنتُه حفصة، والنِّساء معها، قال: فلمّا رأيناها قُمنا، فولجتْ عليه فبكتْ عنده ساعةً. واستأذن الرّجال فولجتْ بيتًا داخلًا لهم، فسمعنا بكاءها من البيت الدّاخل، فقالوا: أوصِ يا أمير المؤمنين واستخلِفْ، فقال: ما أجدُ أحقّ بهذا الأمر من هؤلاء النَّفر ـ أو قال: الرَّهط ـ الّذين تُوُفِّي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمَّى عليًّا

---

١ ـ من صحيح البخاريّ.

٢ ـ البخاريّ: «إزاره».

وعثمان والزّبير وطلحة وسعدًا وعبد الرّحمن، وقال: يَشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء ـ كهيئة التّعزية له ـ فإن أصابت الإمارة[1] سعدًا فهو أهلٌ لذلك، وإلّا فليستعِنْ به أيّكم أُمِّر، فإنّي لم أعزِلْه عن عجزٍ ولا عن خيانةٍ.

ثمّ قال: أُوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأوّلين، أن يعرف لهم حقّهم ويحفظ لهم حُرمتهم، وأُوصيه بالأنصار خيرًا، الّذين تبوّءوا الدّار والإيمان من قبلهم، أن يقبلَ من محسنهم وأن يعفوَ عن مسيئهم، وأُوصيه بأهْلِ الأمصار خيرًا، فإنّهم رِدْء الإسلام وجُباة الأموال وغَيظ العدوّ، ألّا يأخذ منهم إلّا فضلهم عن رضاهم، وأُوصيه بالأعراب خيرًا، فإنّهم أصل العرب ومادّة الإسلام، أن يؤخَذ من حواشي أموالهم ويردّ على فقرائهم، وأُوصيه بذمّة الله وذمّة رسوله أن يوفَى لهم بعهدهم وأن يقاتل مَن وراءهم، وألّا يكلّفوا إلّا طاقتهم. قال: فلمّا قُبض خرجنا به فانطلقنا نمشي، فسلّم عبد الله بن عمر وقال: يستأذن عمر بن الخطّاب، فقالت: أدخِلوه، فأُدخِل فوُضع هنالك مع صاحبيْه.[2]

وقال ابنُ عبّاس: أنا أوّل مَن أتى عمر حين طُعن، فقال: احفظْ عنّي ثلاثًا، فإنّي أخاف ألّا يدركَني النّاس؛ أمّا أنا فلم أقضِ في الكلالة، ولم أستخلف على النّاس،

١ـ البخاريّ: «الإمرة».

٢ـ صحيح البخاريّ ٢: ٢٩٧ ـ ٢٩٩، وبقيّة الحديث: «فلمّا فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرّهط، فقال عبد الرّحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم. فقال الزّبير: جعلت أمري إلى عليّ. فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان. وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرّحمن بن عوف. فقال عبد الرّحمن: أيّكما تبرّأ من هذا فنجعله إليه والله عليه، والإسلام لينظرنّ أفضلهم في نفسه؟ فأسكت الشّيخان. فقال عبد الرّحمن: أ فتجعلونه إليّ، والله عليّ ألّا آلوا عن أفضلكم؟ قالا: نعم. فأخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت. فالله عليك لئن أمرتُك لتعدلنّ! وإن أمرتُ عثمان لتسمعنّ ولتطيعنّ! ثمّ خلا بالآخر فقال مثل ذلك؛ فلما أخذ الميثاق قال: ارفعْ يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له عليٌّ، وولج أهل الدّار فبايعوه».

وكلّ مملوك لي عتيق. فقلت له: أبشر بالجنّة، صاحبتَ رسول الله ﷺ فأطلتَ صحبتَه، و وليتَ أمر المسلمين فقويتَ عليه، وأدّيتَ الأمانة. قال: أمّا تبشيرك لي بالجنّة، فو الله الّذي لا إله إلّا هو، لو أنّ لي الدّنيا بما فيها لافتديت به مِن هَول ما أمامي قبل أن أعلم ما الخبر. وأمّا ما ذكرتَ من أمر المسلمين فلوددتُ أنّ ذلك كان كَفافًا لا عليّ ولا لي. وأمّا ما ذكرتَ من صحبة رسول الله ﷺ فهو ذلك.

وروى مَعْمر، عن الزّهريّ، عن سالم عن عبد الله، قال: دخلتُ على أبي فقلت: سمعتُ النّاس يقولون مقالة، وآليتُ أن أقولها لك؛ زعموا أنّك غير مستخلِف، وأنّه لو كان لك راعي إبلٍ أو غنمٍ ثمّ جاءك وتركها، رأيتَ أنّه قد ضيّع، فرعاية النّاس أشدّ. فوضع رأسه ثمّ رفعه فقال: إنّ الله تعالى يحفظ دينَه. إن لم أستخلِف فإنّ رسول الله ﷺ لم يستخلِف، وإن استخلفتُ فإنّ أبا بكر قد استخلف. فو الله ما هو إلّا أنْ ذكَر رسول الله وأبا بكر، فعلمتُ أنّه لم يكن يعدِل برسول الله ﷺ أحدًا وأنّه غير مُستخلِف.

ورُوي أنّه قال، وقد أذنتْ له عائشة في أن يُدفَن في بيتها: إذا متُّ فاستأذِنوها مرّةً ثانيةً، فإن أذنتْ، وإلّا فاتركوها، فإنّي أخشى أن تكون أذنتْ لي لسلطاني. فاستأذَنوها بعد موته فأذنت.

وروى عمرو بن ميمون، قال: لمّا طُعن عمر، دخل عليه كعب الأحبار فقال: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[1] قد أنبأتك أنّك شهيد، فقال: من أين لي بالشّهادة وأنا بجزيرة العرب!

وروى ابن عبّاس، قال: لمّا طُعن عمر وجئته بخبر أبي لؤلؤة، أتيته والبيت ملآنٌ فكرهت أن أتخطّى رقابهم ـ وكنت حديث السّنّ ـ فجلست وهو مُسجًّى، وجاء كعب الأحبار وقال: لئن دعا أمير المؤمنين ليبقيَه الله لهذه الأُمّة حتّى يفعل فيها كذا وكذا! حتّى ذكر المنافقين فيمن ذكر، فقلت: أبلغه ما تقول. قال: ما قلت إلّا وأنا أُريد أن تبلغه، فتشجّعت وقمت فتخطّيت رقابَهم حتّى جلست عند رأسه وقلت: إنّك أرسلتني

---

١ ـ البقرة/ ١٤٧.

بكذا، إنّ عبد المغيرة قتَلك وأصاب معك ثلاثة عشر إنسانًا، وإنّ كعبًا هاهنا وهو يحلف بكذا، فقال: ادعو إليّ كعبًا، فدُعي فقال: ما تقول؟ قال: أقول كذا. قال: لا والله لا أدعو، ولكن شَقي عمر إن لم يغفر الله له.

وروى المِسْوَر بن مخرَمة أنّ عمر لمّا طُعن أُغمي عليه طويلًا، فقيل: إنّكم لم توقِظوه بشيء مثل الصّلاة إن كانت به حياةٌ! فقالوا: الصّلاة يا أمير المؤمنين، الصّلاة قد صُلّيت! فانتبَه فقال: الصّلاة، لاها اللهِ لا أتركها، لا حظّ في الإسلام لمَن ترك الصّلاة! فصلّى وإنّ جرْحه لينثعب[1] دمًا.

وروى المِسْور بن مخرَمة أيضًا، قال: لمّا طُعن عمر جعل يألَم ويجزَع، فقال ابن عبّاس: ولا كلّ ذلك يا أمير المؤمنين، لقد صحبتَ رسول الله ﷺ فأحسنتَ صحبته، ثمّ فارقتَه وهو عنك راضٍ، وصحبتَ أبا بكر وأحسنتَ صحبته، وفارقك وهو عنك راضٍ، ثمّ صحبتَ المسلمين فأحسنتَ إليهم وفارقتَهم وهم عنك راضون. قال: أمّا ما ذكرتَ من صحبة رسول الله ﷺ وأبي بكر، فذلك ممّا مَنّ الله به عليّ. وأمّا ما ترى من جزعي فوالله لو أنّ لي بما في الأرض ذهبًا لافتديتُ به من عذاب الله قبل أن أراه ـ وفي رواية لافتديت به من هوْل المُطّلَع. وفي رواية: المغرور مَن غررتموه! لو أنّ لي ما على ظهرها من صفراء وبيضاء لافتديتُ به من هوْل المُطّلَع. وفي رواية: في الإمارة علَيّ تثني يا بن عبّاس! قلتُ: وفي غيرها. قال: والّذي نفسي بيده لوددت أنّي خرجت منها كما دخلت فيها، لا حرَج ولا وزْر. وفي رواية: لو كان لي ما طلعت عليه الشّمس لافتديتُ به من كَرْب ساعة ـ يعني الموت ـ كيف ولم أرد النّاس بعد! وفي رواية: لو أنّ لي الدّنيا وما فيها لافتديتُ به من هوْل ما أمامي، قبل أن أعلم ما الخبر.

قال ابن عبّاس: فسمعنا صوت أُمّ كلثوم: وا عمَراه! وكان معها نسوةٌ يبكِين، فارتجّ البيت بكاءً، فقال عمر: وَيْلُمِّ عمر، إنّ الله لم يغفر له! فقلت: والله إنّي لأرجو ألّا

---

١ ـ ينثعب: يسيل.

تراها إلّا مقدار ما قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[١] إن كنتَ ـ ما علمنا ـ لأميرَ المؤمنين وسيّدَ المسلمين، تقضِي بالكتاب وتقسِم بالسّويّة. فأعجَبه قولي، فاستوى جالسًا فقال: أ تشهد لي بهذا يا بن عبّاس؟ فكَععتُ ـ أي جَبنتُ ـ فضرب عليّ عليه السلام بين كتفي، وقال: اشهدْ. وفي رواية لِمَ تجزع يا أمير المؤمنين؟ فوالله لقد كان إسلامك عزًّا وإمارتك فتحًا ولقد ملأت الأرض عدلًا ،فقال: أ تشهد لي بذلك يا بن عبّاس؟ قال: فكأنّه كَره الشّهادة فتوقّف، فقال له عليّ عليه السلام قل: نعم، وأنا معك، فقال: نعم.

وفي رواية أنّه قال: مسستُ جلده وهو مُلقًى، فقلت: جلدٌ لا تمسُّه النّار أبدًا، فنظر إليّ نظرةً جعلت أَرْثي له منها، قال: وما علمك بذلك؟ قلت: صحبتَ رسول الله صلى الله عليه وآله فأحسنتَ صحبته ... الحديث، فقال: لو أنّ لي ما في الأرض لافتديتُ به من عذاب الله قبل أن ألقاه أو أراه.

وفي رواية قال: فأنكرنا الصّوت، وإذا عبد الرّحمن بن عوف، وقيل: طُعِن أمير المؤمنين. فانصرف النّاس وهو في دمه مُسجًّى، لم يصلّ الفجر بعد، فقيل: يا أمير المؤمنين: الصّلاة! فرفع رأسَه وقال: لاها اللهِ إذنْ، لا حظّ لامرئٍ في الإسلام ضيّع صلاته، ثمّ وثَب ليقوم فانثعب جُرحه دمًا، فقال: هاتوا لي عمامة، فعصَب بها جُرحه، ثمّ صلّى وذكر، ثمّ التفت إلى ابنه عبد الله وقال: ضَعْ خَدّي إلى الأرض يا عبد الله. قال عبد الله: فلم أعُجْ بها، وظننتُ أنّها اختلاسٌ مِن عقله، فقالها مرّةً أُخرى: ضع خدّي إلى الأرض يا بنيّ، فلم أفعل، فقال الثّالثة: ضع خدّي إلى الأرض لا أُمّ لك! فعرفت أنّه مجتمع العقل ولم يمنعه أن يضعه هو إلّا ما به من الغَلبة، فوضعتُ خدّه إلى الأرض حتّى نظرتُ إلى أطراف شعر لحيته خارجةً من أضعاف التُّراب، وبكى حتّى نظرتُ إلى الطّين قد لصق بعينه، فأصغيتُ أُذني لأسمعَ ما يقول، فسمعتُه يقول: يا ويلَ عمر! و ويل أُمّ عمر، إن لم يتجاوز الله عنه.

وقد جاء في رواية: أنّ عليًّا عليه السلام جاء حتّى وقف عليه، فقال: ما أحدٌ أحبَّ إليّ أن

---

١ ـ مريم / ٧١.

ألقى الله بصحيفته من هذا المسجَّى! ورُوي عن حفصة أُمّ المؤمنين قالت: سمعتُ أبي يقول في دعائه: اللّهمّ قتلًا في سبيلك و وفاةً في بلد نبيّك! قلت: وأنّى يكون هذا؟ قال: يأتي به الله إذا شاء. ويُروى أنّ كعبًا كان يقول له: نجِدُك في كتبنا تموت شهيدًا، فيقول: كيف لي بالشّهادة وأنا في جزيرة العرب!

وروَى المقدام بن معديكرب، قال: لمّا أُصيب عمر دخلتْ عليه حفصة ابنتُه فنادتْ: يا صاحبَ رسول الله، ويا صهرَ رسول الله، ويا أميرَ المؤمنين! فقال لابنه عبد الله: أجلِسْني فلا صبْرَ لي على ما أسمع، فأسنده إلى صدره فقال لها: إنّي أُحرّج عليكِ بما لي عليكِ من الحقّ أن تندبيني بعد مجلسك هذا، فأمّا عينك فلنْ أملكَها، إنّه ليس من ميّتٍ يُندب عليه بما ليس فيه، إلّا الملائكة تَمقته!

وروَى الأحنف قال: سمعت عمر يقول: إنّ قريشًا رءوس النّاس، ليس أحد منهم يدخل من باب إلّا دخل معه طائفة من النّاس. فلمّا أُصيب عمر أمَر صُهيبًا أن يُصلّيَ بالنّاس ثلاثة أيّام ويُطعمَهم حتّى يجتمعوا على رجلٍ، فلمّا وُضعت الموائد كفَّ النّاس عن الطّعام، فقال العبّاس بن عبد المطّلب: أيّها النّاس إنّ رسول الله ﷺ مات فأكلْنا بعده، ومات أبو بكر فأكلْنا بعده، وإنّه لا بدّ للنّاس من الأكل، ثمّ مدّ يده فأكل من الطّعام، فعرفتُ قول عمر.

ويَروي كثيرٌ من النّاس الشّعر المذكور في الحماسة، ويزعم أنّ هاتفًا من الجنّ هتَف به وهو:

جُزِيتَ عن الإسلام خيرًا وباركتْ ... يدُ الله في ذاك الأديم الممزَّقِ[1]

فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحَيْ نعامةٍ ... ليدرك ما قدّمت بالأمس يُسْبَقِ

قضيتَ أُمورًا ثمّ غادرت بعدَها ... بوائق في أكمامها لم تُفَتّقِ[2]

١ـ ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقيّ ـ ٣: ١٠٩٠، ونسبها إلى الشّمّاخ.

٢ـ البوائق: الدّواهي العامّة.

أبعـد قتيـلٍ بالمدينـة أظلمـتْ ... لـه الأرض تهتـزّ العضـاه بأسـوُقِ![1]
ومـا كنـتُ أخشـى أن تكـون وفاتُـه ... بكَـفَّيْ سـبنتَي أزرق العـين مُطْـرِقِ[2]
تظـلّ الحَصـان البِكْـرُ يُلـقِي جنينَهـا ... نثـا خبـرٍ فـوق المطـيّ مُعلّـقِ

والأكثرون يروونها لمزرّد أخي الشّمّاخ، ومنهم مَن يرويها للشّمّاخ نفسه.

(١٢: ١٨٤ـ ١٩٤)

[قصّة الشّورى]

(الخطبة: ٣) ... حتّى إِذا مَضَى لِسَبِيلِهِ، جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَا للهِ وَلِلشُّورَى! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حتّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ! لكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا، فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ، وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ.

... وصورة هذه الواقعة أنّ عمر لمّا طعَنه أبو لؤلؤة، وعلم أنّه ميّتٌ، استشار فيمن يولّيه الأمر بعده، فأُشير عليه بابنه عبد الله، فقال: لاها الله إذا! لا يليها رجلان من وَلَد الخطّاب! حسْبُ عمر ما حُمّل! حسْبُ عمر ما احتقب، لاها الله! لا أتحمّلها حيًّا وميّتًا! ثمّ قال: إنّ رسول الله مات وهو راضٍ عن هذه السّتّة من قريش: عليّ، وعثمان، وطلحة، والزّبير، وسعد، وعبد الرّحمن بن عوف؛ وقد رأيتُ أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم.

ثمّ قال: إن أستَخلِفْ فقد استخلَف مَن هو خيرٌ منّي ـ يعني أبا بكر ـ وإن أترُكْ فقد ترَك مَن هو خيرٌ منّي ـ يعني رسول الله ﷺ ـ ثمّ قال: ادعُوهم لي، فدعوْهم، فدخلوا عليه وهو مُلْقًى على فراشه يجود بنفسه. فنظر إليهم فقال: أ كلّكم يطمعُ في الخلافة بعدي! فوَجَموا، فقال لهم ثانيةً، فأجابه الزّبير وقال: وما الّذي يُبعدنا منها! ولِيَتَها أنت

١ـ العِضاه: شجرٌ.

٢ـ السّبنتَي، أصله في النّمر، ويستعمل في الجَريء المُقدِم. والمُطرِق: الغيظ الجفْن الثّقيلة.

فقمتَ بها، ولسْنا دونَك في قريش ولا في السّابقة ولا في القرابة. ـ قال الشّيخ أبو عثمان الجاحظ: والله لولا عِلْمه أنّ عمر يموت في مجلسه ذلك لم يُقدم على أن يفوهَ مِن هذا الكلام بكلمة، ولا أن تنفّس منه بلفظه ـ فقال عمر: أ فلا أُخبِرُكم عن أنفُسكم! قال: قل، فإنّا لو استعفيناك لم تعُفنا. فقال: أمّا أنت يا زبير فوَعِقٌ لَقِسٌ[1]، مؤمن الرِّضا، كافر الغضب، يومًا إنسان ويومًا شيطان، ولعلّها لو أُفضتْ إليك ظَلْتَ يومَك تُلاطم بالبطحاء على مُدٍّ مِن شعير! أ فرأيتَ إن أُفضتْ إليك، فليت شِعري مَن يكون للنّاس يومَ تكون شيطانًا، ومَن يكون يومَ تغضب! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأُمّة، وأنت على هذه الصّفة.

ثمّ أقبل على طلحة ـ وكان له مُبغِضًا منذ قال لأبي بكر يوم وفاته ما قال في عمر ـ فقال له: أقولُ أم أسكتُ؟ قال: قل، فإنّك لا تقول من الخير شيئًا. قال: أمّا إنّي أعرفك منذ أصيبتْ إصبعك يوم أُحُد وائبًا[2] بالّذي حدث لك، ولقد مات رسول الله ﷺ ساخطًا عليك بالكلمة الّتي قلتَها يوم أُنزِلتْ آية الحجاب.

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله تعالى: الكلمة المذكورة أنّ طلحة لمّا أُنزِلتْ آية الحجاب قال بمحضر ممّن نقل عنه إلى رسول الله ﷺ: ما الّذي يَعنيه حجابهنّ اليوم، وسيموت غَدًا فننكِحُهنّ!

قال أبو عثمان أيضًا: لو قال لعمر قائل: أنت قلت: إنّ رسول الله ﷺ مات وهو راضٍ عن السّتّة، فكيف تقول الآن لطلحة إنّه مات ﷺ ساخطًا عليك للكلمة الّتي قلتَها ـ لكان قد رماه بمَشاقصه[3] ولكن مَن الّذي كان يجسر على عمر أن يقول له ما دون هذا، فكيف هذا!

---

١ ـ الوَعِق: الضّجر المتبرّم، واللّقِس: من لا يستقيم على وجه.

٢ ـ وائبًا: غاضبًا.

٣ ـ المَشاقص، جمع مِشقص؛ وهو نصل السّهم إذا كان طويلًا.

قال: ثمّ أقبل على سعد بن أبي وقّاص فقال: إنّما أنت صاحبُ مِقْنَب[١] من هذه المَقانب، تقاتل به، وصاحب قَنَص وقَوْس وأسهم، وما زُهْرة[٢] والخلافة وأُمور النّاس!

ثمّ أقبل على عبد الرّحمن بن عوف فقال: وأمّا أنت يا عبد الرّحمن، فلو وُزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجَح إيمانُك به، ولكن ليس يَصلح هذا الأمر لمَن فيه ضعفٌ كضعفك، وما زُهرة وهذا الأمر!

ثمّ أقبل على عليّ عليه السلام فقال: لله أنت لولا دُعابة فيك! أما والله لئن وليتَهم لتحملنّهم على الحقّ الواضح، والمحجّة البيضاء.

ثمّ أقبل على عثمان فقال: هيهًا إليك! كأنّي بك قد قلَدتْك قريش هذا الأمر لحبّها إيّاك، فحملتَ بني أُميّة وبني أبي مُعَيط على رقاب النّاس، وآثرتَهم بالفَيء، فسارتْ إليك عصابةٌ من ذُؤبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحًا. والله لئن فعلوا لتفعلنّ، ولئن فعلتَ ليفعلنّ. ثمّ أخذ بناصيته فقال: فإذا كان ذلك فاذكرْ قولي، فإنّه كائنٌ.

ذكر هذا الخبر كلّه شيخنا أبو عثمان في كتاب «السّفيانيّة» وذكره جماعة غيره في باب فراسة عمر، وذكر أبو عثمان في هذا الكتاب عقيب رواية هذا الخبر قال: وروَى معمر بن سليمان التّيميّ عن أبيه عن سعيد بن المسيّب عن ابن عبّاس، قال: سمعتُ عمر بن الخطّاب يقول لأهل الشّورى: إنّكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم، غلَبكم على هذا الأمر معاوية بن أبي سفيان؛ وكان معاوية حينئذٍ أمير الشّام.

ثمّ رجع بنا الكلام إلى تمام قصّة الشّورى. ثمّ قال: ادعوا إليّ أبا طلحة الأنصاريّ، فدعوْه له فقال: انظرْ يا أبا طلحة، إذا عُدتم من حُفرتي، فكن في خمسين رجلًا من الأنصار حاملي سيوفكم، فخذْ هؤلاء النّفر بإمضاء الأمر وتعجيله واجمعْهم في بيت وقفْ بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحدًا منهم؛ فإن اتّفق خمسة

١ـ المِقنَب: جماعة الخيل.

٢ـ زُهرة: قبيلة سعد بن أبي وقّاص.

وأبَى واحدٌ فاضربْ عنقه، وإن اتّفق أربعة وأبَى اثنان فاضربْ أعناقهما، وإن اتّفق ثلاثة وخالف ثلاثة، فانظر الثّلاثة الّتي فيها عبد الرّحمن، فارجعْ إلى ما قد اتّفقتْ عليه، فإن أصرّتْ الثّلاثة الأُخرى على خلافها فاضربْ أعناقها، وإن مضتْ ثلاثة أيّام ولم يتّفقوا على أمرٍ، فاضربْ أعناق السّتّة، ودعْ المسلمين يختاروا لأنفُسهم.

فلمّا دُفن عمر جمَعهم أبو طلحة و وقف على باب البيت بالسّيف في خمسين من الأنصار، حاملي سيوفهم. ثمّ تكلّم القوم وتنازعوا؛ فأوّل ما عمل طلحة أنّه أشهَدهم على نفسه أنّه قد وهب حقّه من الشّورى لعثمان، وذلك لعلْمه أنّ النّاس لا يعدِلون به عليًّا وعثمان، وأنّ الخلافة لا تخلُص له وهذان موجودان. فأراد تقويةَ أمر عثمان وإضعافَ جانب عليّ عليه السلام، بهبَة أمرٍ لا انتفاعَ له به ولا تمكُّن له منه.

فقال الزّبير في معارضته: وأنا أُشهدُكم على نفسي أنّي قد وهبتُ حقّي من الشّورى لعليّ، وإنّما فعل ذلك لأنّه لمّا رأى عليًّا قد ضعُف وانخزل بهبَة طلحة حقّه لعثمان، دخلَتْه حميّة النّسَب، لأنّه ابن عمّة أمير المؤمنين عليه السلام، وهي صفيّة بنت عبد المطّلب، وأبو طالب خالُه. وإنّما مال طلحةُ إلى عثمان لانحرافه عن عليّ عليه السلام، باعتبار أنّه تَيميٌّ، وابنُ عمّ أبي بكر الصّدّيق، وقد كان حصَل في نفوس بني هاشم من بني تَيم حَنَقٌ شديدٌ لأجل الخلافة، وكذلك صار في صدور تَيم على بني هاشم؛ وهذا أمرٌ مركوز في طبيعة البشَر، وخصوصًا طينةَ العرب وطباعها، والتّجربة إلى الآن تحقّق ذلك، فبقي من السّتّة أربعة.

فقال سعد بن أبي وقّاص: وأنا قد وهبتُ حقّي من الشّورى لابن عمّي عبد الرّحمن ـ وذلك لأنّهما من بني زُهرة، ولعلْم سعد أنّ الأمرَ لا يتمّ له ـ فلمّا لم يبقَ إلّا الثّلاثة، قال عبد الرّحمن لعليّ وعثمان: أيّكما يُخرج نفسَه من الخلافة ويكون إليه الاختيار في الاثنين الباقيين؟ فلم يتكلّم منهما أحدٌ. فقال عبد الرّحمن: أُشهِدُكم أنّني قد أخرجتُ نفسي من الخلافة على أنْ أختار أحدَهما، فأمسكا، فبدأ بعليّ عليه السلام وقال له: أُبايعك على كتاب الله وسنّة رسول الله وسيرة الشّيخين: أبي بكر وعمر. فقال: بل على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيي. فعدَل عنه إلى عثمان، فعرض ذلك عليه

فقال: نعم. فعاد إلى عليّ عليه السلام، فأعاد قوله. فعَل ذلك عبد الرّحمن ثلاثًا، فلمّا رأى أنّ عليًّا غير راجع عمّا قاله وأنّ عثمان يُنعِم له[1] بالإجابة، صفَّق على يد عثمان وقال: السّلام عليك يا أمير المؤمنين. فيقال: إنّ عليًّا عليه السلام قال له: والله ما فعلتَها إلّا لأنّك رجوتَ منه ما رجا صاحبُكما من صاحبه، دقّ الله بينكما عِطرَ مَنشِم[2]. قيل: ففسد بعد ذلك بين عثمان وعبد الرّحمن، فلم يكلِّم أحدُهما صاحبَه حتّى مات عبد الرّحمن.

ثمّ نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل. أمّا قوله عليه السلام: «فصغا رجل منهم لضِغْنه»، فإنّه يعني طلحة. وقال القطب الرّاونديّ: يعني سعدَ بن أبي وقّاص، لأنّ عليًّا عليه السلام قتَل أباه يوم بدر. وهذا خطأٌ فإنّ أباه أبو وقّاص، واسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب، مات في الجاهليّة حَتْف أنفِه.

وأمّا قوله: «ومال الآخرُ لصِهره» فإنّه يعني عبد الرّحمن مال إلى عثمان، لأنّ أُمّ كلثوم بنت عُقْبة بن أبي معيط كانت تحتَه، وأُمّ كلثوم هذه هي أُخت عثمان مِن أُمّه، أرْوَى بنت كُرَيز.

وروَى القطب الرّاونديّ أنّ عمر لمّا قال: كونوا مع الثّلاثة الّتي عبد الرّحمن فيها، قال ابن عبّاس لعليّ عليه السلام: ذهَب الأمر منّا، الرّجل يريد أن يكون الأمر في عثمان، فقال عليّ عليه السلام: وأنا أعلمُ ذلك، ولكنّي أدخل معهم في الشّورى، لأنّ عمر قد أهّلَني الآن للخلافة، وكان قبل ذلك[3] يقول: إنّ رسول الله صلّى الله عليه قال: إنّ النّبوّة والإمامة

١ـ أنعم له: إذا قال مجيبًا «نعم».

٢ـ قال الأصمعيّ: «مَنشِم، بكسر الشّين: اسم امرأة كانت بمكّة عطّارة، وكانت خُزاعة وجُرهم إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها، وكانوا إذا فعلوا ذلك كثُرت القتلى فيما بينهم، فكان يقال: أشأم من عِطر مَنشِم؛ فصار مثلًا». صحاح الجوهريّ ٥: ٢٠٤١.

٣ـ كلمة «ذلك» ساقطة من ب.

لا يجتمعان في بيت، فأنا[١] أدخل في ذلك لأُظهِر للنّاس مناقضةَ فعْله لروايته، الّذي ذكره[٢] الرّاونديّ غير معروف، ولم ينقُل عمر هذا عن رسول الله صلّى الله عليه، ولكنّه قال لعبد الله بن عبّاس يومًا: يا عبد الله، ما تقول في منع قومكم منكم؟ قال: لا أعلم يا أمير المؤمنين، قال: اللّهمّ غفرًا! إنّ قومكم كرِهوا أن تجتمع لكم النّبوّة والخلافة، فتذهبون في السّماء بُذَّخًا وشُمَّخًا، لعلّكم تقولون: إنّ أبا بكر أراد الإمْرَة عليكم وهضَمكم! كلّا، لكنّه حضره أمر لم يكن عنده أحزمَ ممّا فعل، ولولا رأيُ أبي بكر فيّ بعد موته لأعاد أمرَكم إليكم، ولو فعل ما هنأكم مع قومكم، إنّهم لينظرون إليكم نظر الثّوْر إلى جازِره.

فأمّا الرّواية الّتي جاءت بأنّ طلحة لم يكن حاضرًا يوم الشّورى، فإن صحّتْ فذُو الضِّغن هو سعد بن أبي وقّاص، لأنّ أُمّه حَمْنة بنت سفيان بن أُميّة بن عبد شمس، والضّغينة الّتي عنده على عليّ عليه السلام من قِبَل أخواله الّذين قتَل صناديدهم، وتقلّد دماءهم؛ ولم يُعرفْ أنّ عليًّا عليه السلام قتَل أحدًا من بني زُهْرة ليُنسَب الضِّغن إليه.

وهذه الرّواية هي الّتي اختارها أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ صاحب «التّاريخ» قال: لمّا طُعن عمر[٣] قيل له: لو استخلفتَ [يا أمير المؤمنين][٤]، فقال [مَن أستخلفُ!] لو كان أبو عبيدة حَيًّا لاستخلفتُه[٥] وقلت لربّي لو سألني: سمعتُ نبيّك يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأُمّة»[٦] ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حَيًّا استخلفتُه[٧]، وقلت لربّي

١ـ ا: «وأنا».

٢ـ ب: «رواه».

٣ـ تاريخ الرّسل والملوك ٥: ٣٣ وما بعدها، مع تصرّف واختصار.

٤ـ تكلمة من تاريخ الطّبريّ.

٥ـ الطّبريّ: «استخلفته».

٦ـ الطّبريّ: «إنه أمين هذه الأُمّة».

٧ـ الطّبريّ: «فإن سألني ربّي قلت ...».

إن سألني: سمعتُ نبيّك ﷺ يقول: «إنّ سالمًا شديدُ الحبّ لله»، فقال له رجل: وَلِّ[1] عبد الله بن عمر، فقال: قاتَلك الله! والله ما الله أردتَ بهذا الأمر! [ويحك!] كيف أستخلفُ رجلًا عجُز عن طلاق امرأته! لا أرَبَ لعمر في خلافتكم،[2] ما حمِدْتُها فأرغبَ فيها لأحدٍ من أهل بيتي؛ إن تَكُ خيرًا فقد أصبنا منه، وإن تَكُ شرًّا يُصرَف عنّا. حسبُ آلِ عمر أنْ يُحاسَب منهم [رجل] واحد، ويُسأَل عن أمر أُمّة محمّد.

فخرج النّاس من عنده، ثمّ راحوا إليه فقالوا له: لو عهدتَ عهدًا! قال: قد كنتُ أجمعت بعد مقالتي [لكم] أنْ أُولِّي أمرَكم رجلًا، هو أحراكم أن يحمِلكم على الحقّ ـ وأشار إلى عليّ ﷺ ـ فرهِقَتْني غشيةٌ، فرأيت رجلًا يدخل جنّة، فجعل يقطِف كلَّ غَضّةٍ ويانعةٍ، فيضمّها إليه ويصيرها تحته، فخفتُ أن أتحمّلَها حيًّا وميّتًا وعلمت أنّ الله غالبُ أمره عليكم بالرّهط الّذي قال رسول الله عنهم: إنّهم من أهل الجنّة، ثمّ ذكر خمسة: عليًّا، وعثمان، وعبد الرّحمن، والزّبير، وسعدًا.

قال: ولم يذكر في هذا المجلس طلحة، ولا كان طلحة يومئذ بالمدينة. ثمّ قال لهم: انهَضُوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا فيها، و وضع رأسَه وقد نزَفه الدّم. فقال العبّاس لعليّ ﷺ: لا تدخلْ معهم وارفعْ نفسَك عنهم. قال: إنّي أكره الخلاف، قال: إذنْ ترى ما تكره. فدخلوا الحجرة فتناجوْا حتّى ارتفعت أصواتهم، فقال عبد الله بن عمر: إنّ أمير المؤمنين لم يمُتْ بعد، ففيم هذا اللّغَط! وانتبه عمر وسمِع الأصوات، فقال: ليُصلِّ بالنّاس صُهيب، ولا يأتينّ اليوم الرّابع من يوم موتي إلّا وعليكم أمير، وليحضر عبدُ الله ابن عمر مشيرًا وليس له شيء من الأمر وطلحة بن عبيد الله شريككم في الأمر، فإن قدم إلى ثلاثة أيّام فأحضِروه أمرَكم، وإلّا فارضوْه، ومَن لي برضا طلحة! فقال سعد: أنا لك به، ولن يخالف إن شاء الله تعالى. ثمّ ذكر وصيّته لأبي طلحة الأنصاريّ وما خصّ به عبد الرّحمن بن عوف من كوْن الحقّ في الفئة الّتي هو فيها وأمَره بقتل مَن

١ـ الطبريّ: «أدلّك عليه عبد الله بن عمر».

٢ـ الطبريّ: «أُموركم».

يخالف. ثمّ خرج النّاس فقال عليّ عليه السلام لقوم معه من بني هاشم: إنْ أطيع فيكم قومكم من قريش لم تؤمَّروا أبدًا. وقال للعبّاس: عُدل بالأمر عنّي يا عمّ. قال: وما علمك؟ قال: قُرن بي عثمان. وقال عمر: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلًا ورجلان رجلًا، فكونوا مع الّذين فيهم عبد الرّحمن، فسعدٌ لا يخالِف ابنَ عمّه، وعبد الرّحمن صهْر عثمان لا يختلفان، فولّيها أحدهما الآخر، فلو كان الآخران معي لم يُغنيا شيئًا.

فقال العبّاس: لم أرفعْك إلى شيء إلّا رجعتَ إليّ مستأخِرًا بما أكره، أشرتُ عليك عند مرض رسول الله صلّى الله عليه أن تسأله عن هذا الأمر فيمن هو فأبيتَ، وأشرتُ عليك عند وفاته أنْ تعاجل البيعة[1] فأبيتَ، وقد أشرتُ عليك حين سمّاك عمر في الشّورى اليوم أن ترفع نفسك عنها ولا تدخل معهم فيها فأبيت، فاحفظ عنّي واحدة؛ كلّما عرض عليك القوم الأمر فقل: لا، إلّا أن يولّوك. واعلم! أنّ هؤلاء لا يبرحون يدفعونك عن هذا الأمر حتّى يقوم لك به غيرُك، وايم الله لا تناله إلّا بشرٍّ لا ينفع معه خير، فقال عليه السلام: أما إنّي أعلم أنّهم سيولّون عثمان، وليحدِثُنّ البِدع والأحداث، ولئن بقي لأذكرنّك، وإن قتل أو مات ليتداولنّها بنو أُميّة بينهم، وإن كنت حيًّا لتجدنّي حيث تكرهون، ثمّ تمثّل:

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ عَشِيّةً ... غَدَوْنَ خفافًا يبتدرْنَ المحصَّبَا[2]

ليجْتَلبن رهطُ ابن يعمر غدوةً ... نجيعًا بنو الشُّدَاخ وَرْدًا مُصلّبَا

قال: ثمّ التَفت فرأى أبا طلحة الأنصاريّ، فكَره مكانه، فقال أبو طلحة لا نزاع أبا حسن. فلمّا مات عمر ودُفن وخَلوْا بأنفسهم للمشاورة في الأمر، وقام أبو طلحة يحجُبهم بباب البيت، جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، فجلسا بالباب، فحصَبهما سعد وأقامهما وقال: إنّما تريدان أن تقولا حَضرْنا وكنّا في أصحاب الشّورى.

١ـ الطّبريّ: «الأمر».

٢ـ الطّبريّ: «فابتَدرنَ».

فتنافس القومُ في الأمر وكثُر بينهم الكلام، فقال أبو طلحة: أنا كنتُ لأنْ تدافعوها أخوفَ منّي عليكم أن تنافسوها! ألا والّذي ذهب بنفس عمر، لا أزيدُكم على الأيّام الثّلاثة الّتي وقفتْ لكم، فاصنعوا ما بدا لكم!

قال: ثمّ إنّ عبد الرّحمن قال لابن عمّه سعد بن أبي وقّاص: إنّي قد كرهتُها وسأخلَع نفسي منها، لأنّي رأيت اللّيلة روضةً خضراء كثيرة العُشْب، فدخل فَحْلٌ ما رأيت أكرم منه، فمرّ كأنّه سهمٌ لم يلتفت إلى شيء منها حتّى قطعها، لم يعرّج. ودخل بعيرٌ يتلوه تابع أثره، حتّى خرج منها. ثمّ دخل فَحْلٌ عبقريٌّ يجرّ خِطامه ومضى قصد الأوّلين. ثمّ دخل بعيرٌ رابعٌ فوقع في الرّوضة يرتَع ويخضَم، ولا والله لا أكون الرّابع، وإن أحدًا لا يقوم مقام أبي بكر وعمر فيرضى النّاس عنه.

ثمّ ذكر خَلْعَ عبد الرّحمن نفسَه من الأمر، على أن يولّيها أفضَلهم في نفسه، وأنّ عثمان أجاب إلى ذلك وأن عليًّا عليه السلام سكت، فلمّا رُوجع رضي عَلَى مَوثِقٍ أعطاه عبد الرّحمن، أن يؤثر الحقّ ولا يتّبع الهوى ولا يخصّ ذا رحم ولا يألو الأُمّةَ نُصحًا، وأنّ عبد الرّحمن ردّد القول بين عليّ وعثمان متلوّمًا، وأتّه خلا بسعدٍ تارةً، وبالمسوّر بن مخرمة الزُّهريّ تارةً أُخرى، وأجال فكرَه وأعمل نظرَه و وقف موقف الحائر بينهما.

قال: قال عليّ عليه السلام لسعد بن أبي وقّاص: يا سعد، اتّقوا الله الّذي تساءلون به والأرحام، أسألك برحِم ابني هذا من رسول الله صلّى الله عليه وبرحِم عمّي حمزة منك، ألّا تكون مع عبد الرّحمن لعثمان ظهيرًا ـ قلت: رحِمُ حمزة من سعد، هي أنّ أُمّ حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف ابن زُهرة، وهي أيضًا أُمّ المقوم، وحَجْل ـ واسمه المغيرة ـ والعوام أبناء عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف؛ هؤلاء الأربعة بنو عبد المطّلب من هالة، وهالة هذه هي عمّة سعد بن أبي وقّاص، فحمزة إذنْ ابن عمّة سعد؛ وسعد ابن خال حمزة ـ.

قال أبوجعفر: فلمّا أتى اليوم الثّالث، جمَعهم عبد الرّحمن واجتمع النّاس كافّةً، فقال عبد الرّحمن: أيّها النّاس، أشيروا عليّ في هذين الرّجلين! فقال عمّار بن ياسر: إن أردتَ ألّا يختلف النّاس، فبايعْ عليًّا عليه السلام. فقال المقداد: صدق عمّار، وإن بايعت

عليًّا سمعْنا وأطعْنا. فقال عبد الله بن أبي سَرْح: إن أردتَ ألّا يختلف قريش، فبايعْ عثمان. قال عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميّ: صدق، إن بايعت عثمان سمعْنا وأطعْنا. فشتم عمّارُ ابنَ أبي سَرْح وقال له: متى كنت تنصح الإسلام! فتكلّم بنو هاشم وبنو أُميّة، وقام عمّار فقال: أيّها النّاس، إنّ الله أكرَمكم بنبيّه، وأعزّكم بدينه، فإلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم! فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدَوتَ طورك يا بن سُميّة، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها! فقال سعد: يا عبد الرّحمن، افرُغْ من أمرك قبل أن يفتتِن النّاس.

فحينئذ عرَض عبد الرّحمن على عليّ عليه السلام العملَ بسيرة الشّيخين، فقال: بل أجتهد برأيي. فبايع عثمان بعد أن عرَض عليه، فقال: نعم، فقال عليّ عليه السلام: ليس هذا بأوّلِ يوم تَظاهرتُم فيه علينا، فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون؛ والله ما ولّيتَه الأمرَ إلّا ليردّه إليك، والله كلَّ يوم في شأن. فقال عبد الرّحمن: لا تجعلنّ على نفسك سبيلًا يا عليّ ـ يعني أمْر عمر أبا طلحة أن يضرب عُنُق المخالف ـ فقام عليّ عليه السلام فخرج وقال: سيبلغ الكتاب أجلَه. فقال عمّار: يا عبد الرّحمن، أما والله لقد تركتَه، وإنّه من الّذين يقضون بالحقّ وبه كانوا يعدلون. فقال المقدادُ: تالله ما رأيتُ مثلَ ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم، وا عجبا لقريش! لقد تركتْ رجلًا ما أقولُ ولا أعلمُ أنّ أحدًا أقضَى بالعدل ولا أعلَم ولا أتقَى منه! أما لو أجد أعوانًا! فقال عبد الرّحمن: اتّقِ الله يا مقداد، فإنّي خائف عليك الفتنة.

وقال عليّ عليه السلام: إنّي لأعلمُ ما في أنفسهم؛ إنّ النّاس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر في صلاح شأنها فتقول: إن وَلِي الأمرَ بنو هاشم لم يخرج منهم أبدًا، وما كان في غيرهم فهو متداولٌ في بطون قريش.

قال: وقدم طلحة في اليوم الّذي بويعَ فيه لعثمان فتَلكّأ ساعةً ثمّ بايع. وروى أبو جعفر روايةً أُخرى أطالها وذكر خطب أهل الشّورى وما قاله كلّ منهم وذكر كلامًا قاله عليّ عليه السلام في ذلك اليوم، وهو:

الحمدُ لله الّذي اختار محمّدًا منّا نبيًّا، وابتعثه إلينا رسولًا، فنحنُ أهل بيت النّبوّة

ومعدن الحكمة، أمانٌ لأهل الأرض، ونجاةٌ لمن طلب، إنّ لنا حقًّا إن نُعطَه نَأْخذْه، وإن نُمنَعْه نَركبْ أعجاز الإبل وإن طال السُّرَى، لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهدًا لأنفَذْنا عهده، ولو قال لنا قولًا لجالَدْنا عليه حتّى نموت، لن يُسرع أحدٌ قبلي إلى دعوة حقٍّ وصلة رحمٍ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم. اسمعوا كلامي، وعُوا منطقي، عسى أن تروْا هذا الأمر بعد هذا الجمع تُنتَضى فيه السّيوف، وتُخان فيه العهود، حتّى لا يكون لكم جماعة، وحتّى يكون بعضُكم أئمّة لأهل الضّلالة وشيعة لأهل الجهالة.

قلت: وقد ذكر الهرويّ[1] في كتاب «الجمع بين الغريبين» قوله: «وإن نُمنَعه نَركبْ أعجاز الإبل»، وفسّره على وجهين:

أحدهما: أنّ مَن ركب عَجُز البعير يعاني مشقّةً، ويقاسي جهدًا، فكأنّه قال: وإن نُمنَعه نَصبرْ على المشقّة، كما يصبر عليها راكب عجز البعير.

والوجه الثّاني أنّه أراد: نتّبع غيرَنا، كما أنّ راكب عجز البعير يكون رديفًا لمَن هو أمامه، فكأنّه قال: وإن نُمنَعه نتأخّر ونتّبع غيرنا، كما يتأخّر راكب البعير!

وقال أبو هلال العسكريّ في كتاب «الأوائل»: استُجيبتْ دعوة عليّ عليه السلام في عثمان وعبد الرّحمن، فما ماتا إلّا متهاجريْن متعادييْن. أرسَل عبد الرّحمن إلى عثمان يعاتِبه وقال لرسوله: قل له: لقد ولّيتُك ما ولّيتُك مِن أمر النّاس، وإنّ لي لأُمورًا ما هي لك، شهدتُ بدرًا وما شهدتَها، وشهدتُ بيعةَ الرّضوان وما شهدتَها، وفررتَ يوم أُحُد وصبرتُ. فقال عثمان لرسوله: قل له: أمّا يوم بدْر فإنّ رسول الله صلّى الله عليه رَدّني إلى ابنته لِما بها من المرض، وقد كنتُ خرجتُ للّذي خرجت له، ولقيتُه عند منصرفه، فبشّرني بأجرٍ مثل أُجوركم، وأعطاني سهمًا مثل سهامكم. وأمّا بيعة الرّضوان فإنّه صلّى الله عليه بعثني أستأذن قريشًا في دخوله إلى مكّة. فلمّا قيل له إنّي قُتلت، بايع المسلمين على الموت لِما سمعه عنّي وقال: إن كان حيًّا فأنا أُبايع عنه، وصفّق بإحدى يديه على الأُخرى، وقال: يساري خير من يمين عثمان، فيدُك أفضل

١ـ هو أبو عبيد أحمد بن محمّد الهرويّ، صنّف كتابه في الجمع بين غريبَي القرآن والحديث.

أم يد رسول الله صلّى الله عليه! وأمّا صبرُك يوم أُحُد وفِراري، فلقد كان ذلك فأنزل الله تعالى العفوَ عنّي في كتابه، فعيّرتَني بذنبٍ غفره الله لي، ونسيتَ مِن ذنوبك ما لا تَدري أ غفر لك أم لم يغفر.

لمّا بنى عثمان قصرَه طَمار والزَّوراء وصنع طعامًا كثيرًا ودعا النّاس إليه، كان فيهم عبد الرّحمن، وفلمّا نظر للبناء والطّعام قال: يا بن عفّان، لقد صدّقنا عليك، ما كنّا نكذّب فيك، وإنّي أستعيذ بالله من بيعتك. فغضب عثمان وقال: أخرِجْه عنّي يا غلام، فأخرَجوه. وأمر النّاس ألّا يجالسوه، فلم يكن يأتيه أحد إلّا ابنُ عبّاس، كان يأتيه فيتعلّم منه القرآن والفرائض. ومرض عبد الرّحمن فعاده عثمان وكلّمه فلم يكلّمه حتّى مات. (١: ١٨٥ـ١٩٦)

[من أخبار يوم الشّورى و تولية عثمان]

(الخطبة: ١٣٩) ومن كلام له عليه السلام في وقت الشُّورى:

لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ. فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي، عَسَى أَنْ تَرَوْا هذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هذَا الْيَوْمِ، تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ.

وقد ذكرنا من حديث الشّورى فيما تقدّم ما فيه كفاية؛ ونحن نذكرها هنا ما لم نذكره هناك، وهو من رواية عوانة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشّعبيّ في كتاب «الشّورى» و «مقتل عثمان»، وقد رواه أيضًا أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ في زيادات كتاب «السّقيفة» قال:

لمّا طُعن عمر جعَل الأمرَ شورى بين ستّة نفر: عليّ بن أبي طالب، وعثمان بن عفّان، وعبد الرّحمن بن عوف، والزّبير بن العوّام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن مالك، وكان طلحة يومئذ بالشّام، وقال عمر: إنّ رسول الله ﷺ قُبض وهو عن هؤلاء راضٍ؛ فهم أحقُّ بهذا الأمر من غيرهم، وأوصى صُهيب بن سنان، مولى عبد الله بن جُدْعان ـ ويقال: إنّ أصلَه مِن حيٍّ من ربيعة بن نزار، يقال لهم عَنزة ـ فأمره أن يصلّي

بالنّاس حتّى يرضَى هؤلاء القومُ رجلًا منهم، وكان عمر لا يشكّ أنّ هذا الأمر صائرٌ إلى أحد الرّجلين: عليٌّ وعثمان، وقال: إن قدِم طلحة فهو معهم، وإلّا فلْتختَرِ الخمسةُ واحدًا منها.

ورُوي أنّ عمر قبل موته أخرَج سعد بن مالك من أهل الشّورى، وقال: الأمر في هؤلاء الأربعة، ودعُوا سعدًا على حاله أميرًا بين يدَي الإمام. ثمّ قال: ولو كان أبو عبيدة بن الجرّاح حيًّا لما تَخالجَتْني فيه الشّكوك، فإن اجتمع ثلاثةٌ على واحدٍ، فكونوا مع الثّلاثة، وإن اختلفوا فكونوا مع الجانب الّذي فيه عبد الرّحمن.

وقال لأبي طلحة الأنصاريّ: يا أبا طلحة، فو الله لطَالمَا أعَزّ الله بكم الدّين ونصَر بكم الإسلام، اختَرْ مِن الإسلام خمسين رجلًا، فائت بهم هؤلاء القوم في كلّ يوم مرّةً، فاستحِثُّوهم حتّى يختاروا لأنفسهم وللأُمّة رجلًا منهم.

ثمّ جمَع قومًا من المهاجرين والأنصار، فأعلمهم ما أوصَى به وكتب في وصيّته أن يولّي الإمام سعدَ بن مالك الكوفة وأبا موسى الأشعريّ، لأنّه كان عزل سعدًا عن سَخْطةٍ فأحبّ أن يطلب ذلك إلى مَن يقوم بالأمر مِن بعده استرضاءً لسعد.

قال الشّعبيّ: فحدّثني مَن لا أتّهمه مِن الأنصار، وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ: هو سهل بن سعد الأنصاريّ، قال: مشَيتُ وراء عليّ بن أبي طالب حيثُ انصرف من عند عمر، والعبّاس بن عبد المطّلب يمشي في جانبه، فسمعتُه يقول للعبّاس: ذهبتْ منّا والله! فقال: كيف علمتَ؟ قال: ألا تسمعه يقول: كونوا في الجانب الّذي فيه عبد الرّحمن، لأنّه ابنُ عمّه، وعبد الرّحمن نظير عثمان وهو صهْره، فإذًا اجتمع هؤلاء! فلو أنّ الرّجلين الباقيَيْن كانا معي لم يغنيا عنّي شيئًا، مع أنّي لست أرجو إلّا أحدهما، ومع ذلك فقد أحَبّ عمر أن يعلمنا أنّ لعبد الرّحمن عنده فضلًا علينا. لعمْرُ الله ما جعل الله ذلك لهم علينا، كما لم يجعله لأولادهم على أولادنا. أما والله لئنْ عمر لم يمت لأذكرتُه ما أتى إلينا قديمًا، ولأعلمته سوء رأيه فينا، وما أتى إلينا حديثًا، ولئنْ ماتَ ــ وليموتَنّ ــ ليجتمعُنّ هؤلاء القوم على أن يصرِفوا هذا الأمر عنّا، ولئنْ فعلوها ــ وليفعلُنّ ــ ليرؤنني حيث يكرهون، والله ما بي رغبة في السّلطان، ولا

حبّ الدّنيا، ولكن لإظهار العدل والقيام بالكتاب والسّنّة.

قال: ثمّ التَفت فرآني وراءه فعرفتُ أنّه قد ساءه ذلك، فقلت: لا تُرَعْ أبا حسن! لا والله لا يستمع أحدٌ الّذي سمعتُ منك في الدّنيا ما اصطحبنا فيها. فوالله ما سمعه منّي مخلوق حتّى قبض الله عليًّا إلى رحمته.

قال عوانة: فحدّثنا إسماعيل، قال: حدّثني الشّعبيّ، قال: فلمّا مات عمر وأُدرِج في أكفانه ثمّ وُضِع ليصلّى عليه، تقدّم عليّ بن أبي طالب فقام عند رأسه، وتقدّم عثمان فقام عند رجليه، فقال عليّ عليه السلام: هكذا ينبغي أن تكون الصّلاة، فقال عثمان: بل هكذا، فقال عبد الرّحمن: ما أسرع ما اختلفتم! يا صُهَيْب، صلّ على عمر كما رضي أن تصلّى بهم المكتوبة، فتقدّم صُهيب فصلّى على عمر.

قال الشّعبيّ: وأدخل أهل الشّورى دارًا، فأقبلوا يتجادلون عليها، وكلّهم بها ضَنين وعليها حَريص، إمّا لدنيا وإمّا لآخرة. فلمّا طال ذلك قال عبد الرّحمن: مَن رجلٌ منكم يخرجُ نفسَه عن هذا الأمر، ويختار لهذه الأُمّة رجلًا منكم، فإنّي طيّبةٌ نفسي أن أخرُج منها وأختار لكم؟ قالوا: قد رضينا، إلّا عليّ بن أبي طالب فإنّه اتّهمه وقال: أنظرُ وأَرَى. فأقبل أبو طلحة عليه وقال: يا أبا الحسن، ارْضَ برأي عبد الرّحمن، كان الأمر لك أو لغيرك. فقال عليٌّ: أعطِني يا عبد الرّحمن مَوثِقًا من الله لتؤثرنّ الحقّ ولا تتّبع الهوى، ولا تَمِلْ إلى صِهْرٍ ولا ذي قَرابةٍ، ولا تعملْ إلّا لله، ولا تألُو هذه الأُمّةَ أن تختارَ لها خيرَها.

قال: فحلَف له عبد الرّحمن بالله الّذي لا إله إلّا هو، لأجتهدنّ لنفسي ولكم وللأُمّة، ولا أميلُ إلى هوًى ولا إلى صِهْرٍ ولا ذي قرابة.

قال: فخرج عبد الرّحمن، فمكث ثلاثة أيّام يشاوِر النّاس، ثمّ رجع واجتمع النّاس، وكثروا على الباب لا يشكّون أنّه يبايع عليّ بن أبي طالب، وكان هَوَى قريشٍ كافّةً ما عدا بني هاشم في عثمان، وهَوَى طائفةٍ من الأنصار مع عليٍّ، وهَوَى طائفةٍ أُخرى مع عثمان، وهي أقلّ الطّائفتيْن، وطائفةٌ لا يبالُون أيّهما بُويع.

قال: فأقبل المقداد بن عمرو، والنّاس مجتمعون، فقال: أيّها النّاس، اسمعوا ما

أقول، أنا المقداد بن عمرو؛ إنّكم إن بايعتم عليًّا سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا. فقام عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزوميّ فنادى: أيّها النّاس، إنّكم إن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عليًّا سمعنا وعصينا. فقال له المقداد: يا عدوّ الله وعدوّ رسوله وعدوّ كتابه، ومتى كان مثلك يسمع له الصّالحون! فقال له عبد الله: يابنَ الحَليف العَسيف[1]، ومتى كان مثلك يجترئ على الدّخول في أمر قريش!

فقال عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح: أيّها الملأ، إن أردتم ألّا تختلف قريش فيما بينها فبايعوا عثمان. فقال عمّار بن ياسر: إن أردتم ألّا يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا عليًّا. ثمّ أقبل على عبد الله بن سعد بن أبي سرح فقال: يا فاسق يا بن الفاسق، أ أنت مِمَّن يستنصِحه المسلمون أو يستشيرونه في أُمورهم! وارتفعتْ الأصوات، ونادى منادٍ لا يُدرَى مَن هو! ـ فقريش تزعم أنّه رجل من بني مخزوم، والأنصار تزعم أنّه رجل طُوال آدم مشرف علَى النّاس ـ لا يعرفه أحدٌ منهم: يا عبد الرّحمن، افرُغْ من أمرك، وامضِ علَى ما في نفسك فإنّه الصّواب.

قال الشّعبيّ: فأقبل عبد الرّحمن علَى عليّ بن أبي طالب فقال: عليك عهد الله وميثاقه، وأشدّ ما أخذ الله على النّبيّين من عهد وميثاق: إن بايعتُك لتعمَلنّ بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة أبي بكر وعمر! فقال عليّ عليه السلام: طاقتي ومبلغ علمي وجُهد رأيي، والنّاس يسمعون.

فأقبل علَى عثمان فقال له مثل ذلك، فقال: نعم لا أزولُ عنه ولا أدعُ شيئًا منه. ثمّ أقبل علَى عليّ فقال له ذلك ثلاث مرّات ولعثمان ثلاث مرّات، في كلّ ذلك يجيب عليٌّ مثل ما كان أجاب به، ويجيب عثمان بمثل ما كان أجاب به. فقال: ابسُطْ يدك يا عثمان، فبسط يده فبايعه، وقام القوم فخرجوا؛ وقد بايعوا إلّا عليّ بن أبي طالب، فإنّه لم يبايع.

قال: فخرج عثمان علَى النّاس و وجهه متهلّلٌ، وخرج عليٌّ وهو كاسِف البال

١ـ العسيف: المستهان به.

مظلِمٌ وهو يقول: يا بن عوف؛ ليس هذا بأوّل يوم تَظاهرتم علينا، مِن دفْعنا عن حقّنا والاستئثار علينا! وإنّها لسنّةٌ علينا، وطريقةٌ تركتموها.

فقال المغيرة بن شعبة لعثمان: أما والله لو بويع غيرك لما بايعناه. فقال عبد الرّحمن ابن عوف: كذبتَ، والله لو بويع غيره لبايعتَه، وما أنت وذاك يابن الدّبّاغة! والله لو وليَها غيره لقلتَ له مثل ما قلت الآن، تقرّبًا إليه وطمعًا في الدّنيا، فاذهبْ لا أبَا لك!. فقال المغيرة: لولا مكانُ أمير المؤمنين لأسمعتُك ما تكره، ومضيا.

قال الشّعبيّ: فلمّا دخل عثمان رَحْله دخل إليه بنو أُميّة حتّى امتلأتْ بهم الدّار، ثمّ أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حَرْب: أ عندكم أحدٌ من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يا بني أُميّة، تَلَقّفوها تلقُّف الكُرَة؛ فوالّذي يحلِف به أبو سفيان، ما من عذابٍ ولا حسابٍ، ولا جنّةٍ ولا نارٍ، ولا بعثٍ ولا قيامةٍ! قال: فانتهره عثمان وساءه بما قال وأمر بإخراجه.

قال الشّعبيّ: فدخل عبد الرّحمن بن عوف على عثمان فقال له: ما صنعتَ! فوالله ما وفقتَ حيث تدخل رحلك قبل أنْ تصعد المنبر، فتحمد الله وتُثني عليه وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتعِدُ النّاس خيرًا. قال: فخرج عثمان، فصعِد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: هذا مقامٌ لم نكن نقومه ولم نعدّ له من الكلام الّذي يقام به في مثله، وسأُهيّئ ذلك إن شاء الله، ولن آلو أُمّةَ محمّد خيرًا، والله المستعان. ثمّ نزل.

قال عوانة: فحدّثني يزيد بن جرير، عن الشّعبيّ، عن شقيق بن مسلمة، أنّ عليّ ابن أبي طالب لمّا انصرف إلى رحْله قال لبني أبيه: يا بني عبد المطّلب، إنّ قومكم عادوْكم بعد وفاة النّبيّ كعداوتهم النّبيّ في حياته، وإن يطِعْ قومُكم لا تؤمَّروا أبدًا، و والله لا ينيب هؤلاء إلى الحقّ إلّا بالسّيف.

قال: وعبد الله بن عمر بن الخطّاب داخلٌ إليهم، قد سمع الكلام كلّه، فدخل وقال: يا أبا الحسن، أ تريد أن تضرب بعضهم ببعض! فقال: اسكتْ ويحك! فوالله لولا أبوك وما ركب منّي قديمًا وحديثًا، ما نازعني ابنُ عفّان ولا ابنُ عوف. فقام

عبد الله فخرج.

قال: وأكثر النّاس في أمر الهُرْمزان وعبيدالله بن عمر، وقتله إيّاه، وبلغ ما قال فيه عليّ بن أبي طالب. فقام عثمان فصعد المنبر فحمِد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها النّاس، إنّه كان من قضاء الله أنّ عبيد الله بن عمربن الخطّاب أصاب الهرمزان، وهو رجلٌ من المسلمين، وليس له وارثٌ إلّا الله والمسلمون، وأنا إمامكم وقد عفوْتُ، أ فتعفُون عن عبيد الله ابن خليفتكم بالأمس؟ قالوا: نعم، فعفا عنه. فلمّا بلغ ذلك عليًّا تضاحك وقال: سبحان الله! لقد بدأ بها عثمان! أ يعفُو عن حقّ امرئٍ ليس بواليه! تالله إنّ هذا لهو العجَب! قالوا: فكان ذلك أوّل ما بدا من عثمان ممّا نقِم عليه.

قال الشّعبيّ: وخرج المقداد من الغد، فلَقِي عبد الرّحمن بن عوف، فأخذ بيده وقال: إن كنتَ أردت بما صنعت وجهَ الله، فأثابك الله ثواب الدّنيا والآخرة، وإن كنتَ إنّما أردت الدنيا فأكثر الله مالك. فقال عبد الرّحمن: اسمعْ، رحمك الله، اسمعْ! قال: لا أسمع والله؛ وجذب يده من يده، ومضى حتّى دخل على عليّ عليه السلام، فقال: قمْ فقاتلْ حتّى نقاتلَ معك، قال عليٌّ: فبمن أُقاتل رحمك الله! وأقبل عمّار بن ياسر ينادي:

يا ناعي الإسلام قم فانْعَهُ قد مات عرفٌ وبدا نُكْرُ

أما والله لو أنّ لي أعوانًا لقاتلتُهم، والله لئن قاتلهم واحدٌ لأكونَنّ له ثانيًا. فقال عليٌّ: يا أبا اليقظان، والله لا أجِدُ عليهم أعوانًا، ولا أُحبُّ أن أُعرِّضكم لِما لا تطيقون. وبقي عليه السلام في داره، وعنده نفرٌ من أهل بيته، وليس يدخل إليه أحدٌ مخافةَ عثمان.

قال الشّعبيّ: واجتمع أهل الشّورى على أن تكونَ كلمتُهم واحدةً على مَن لم يبايع، فقاموا إلى عليّ فقالوا: قم فبايعْ عثمان. قال: فإنْ لم أفعل. قالوا: نجاهدُك. قال: فمشى إلى عثمان حتّى بايَعه، وهو يقول: صدق الله ورسوله. فلمّا بايع أتاه عبد الرّحمن ابن عوف، فاعتذَر إليه وقال: إنّ عثمان أعطانا يَده ويمينه، ولم تفعل أنت. فأحببتُ أن أتوثّق للمسلمين، فجعلتُها فيه. فقال: إيهًا عنك! إنّما آثرتَه بها لتنالَها بعده، دقّ الله

بينكما عِطرَ مَنْشِم[١].

قال الشّعبيّ: وقدِم طلحة من الشّام بعد ما بويع عثمان، فقيل له: رُدّ هذا الأمر حتّى ترى فيه رأيَك؛ فقال: والله لو بايعتم شرّكم لرضيتُ، فكيف وقد بايعتم خيرَكم! قال: ثمّ عَدَا عليه بعد ذلك وصاحَبه حتّى قتلاه، ثمّ زعما أنّهما يطلبان بدمه.

قال الشّعبيّ: فأمّا ما يذكُره النّاس من المناشدة وقول عليّ عليه السلام لأهل الشّورى أ فيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله كذا، فإنّه لم يكن يوم البيعة وإنّما كان بعد ذلك بقليلٍ؛ دخل عليٌّ عليه السلام على عثمان وعنده جماعة من النّاس، منهم أهلُ الشّورى، وقد كان بلغه عنهم هَناتٌ وقَوارصُ، فقال لهم: أ فيكم أ فيكم! كلّ ذلك يقولون لا. قال: لكنّي أُخبركم عن أنفسكم: أمّا أنت يا عثمان، ففررتَ يوم حُنين، وتولّيت يوم التقى الجمعان. وأمّا أنت يا طلحة فقلت: إن مات محمّدٌ لنَركُضنّ بين خَلاخيل نسائه كما ركَض بين خَلاخيل نسائنا. وأمّا أنت يا عبد الرّحمن، فصاحب قَراريط. وأمّا أنت يا سعد، فتَدُقّ عن أن تذكر. قال: ثمّ خرج، فقال عثمان: أ ما كان فيكم أحدٌ يردّ عليه! قالوا: وما منعك من ذلك وأنت أمير المؤمنين! وتفرّقوا.

قال عوانة: قال إسماعيل: قال الشّعبيّ: فحدّثني عبد الرّحمن بن جندَب، عن أبيه جندب بن عبد الله الأزديّ، قال: كنت جالسًا بالمدينة حيث بويع عثمان، فجئت فجلست إلى المقداد بن عمرو فسمعته يقول: والله ما رأيت مثلَ ما أتى إلى أهل هذا البيت! وكان عبد الرّحمن بن عوف جالسًا فقال: وما أنت وذاك يا مقداد! قال المقداد: إنّي والله أُحبُّهم لحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وإنّي لأعجبُ من قريش وتطاوُلهم على النّاس بفضل رسول الله، ثمّ انتزاعهم سلطانه من أهله.

قال عبد الرّحمن: أما والله لقد أجهدتُ نفسي لكم. قال المقداد: أما والله لقد تركتَ رجلًا من الّذين يأمُرون بالحقّ وبه يعدلون! أما والله لو أنّ لي على قريش أعوانًا

١ـ مَنشِم: امرأةٌ عطّارةٌ من خزاعة؛ فتَحالف قومٌ فأدخلوا أيديهم في عِطرها على أن يقاتلوا حتّى تموتوا؛ فضرب ذلك مثلًا لشدّة الأمر.

لقاتلتُهم قتالي إيّاهم ببدر وأحُد. فقال عبد الرّحمن: ثكلتْك أُمّك، لا يسمعنّ هذا الكلامَ النّاس، فإنّي أخاف أن تكون صاحب فتنة وفُرقة.

قال المقداد: إنّ مَن دعا إلى الحقّ وأهله و ولاة الأمر، لا يكون صاحب فتنة. ولكنْ مَن أقحم النّاس في الباطل وآثر الهوى على الحقّ، فذلك صاحب الفتنة والفُرقة.

قال: فتَربَّد وجهُ عبد الرّحمن. ثمّ قال: لو أعلم أنّك إيّاي تعني، لكان لي ولك شأنٌ. قال المقداد: إيّاي تهدِّد يا بن أُمّ عبد الرّحمن! ثمّ قام عن عبد الرّحمن فانصرف.

قال جندب بن عبد الله: فاتّبعتُه وقلت له: يا عبد الله، أنا مِن أعوانك. فقال: رحمك الله! إنّ هذا الأمر لا يُغني فيه الرّجلان ولا الثّلاثة. قال: فدخلتُ من فَوري ذلك علَى عليّ عليه السلام. فلمّا جلست إليه قلت: يا أبا الحسن، والله ما أصاب قومُك بصرف هذا الأمر عنك. فقال: صَبْرٌ جميل والله المستعان.

فقلت: والله إنّك لصبورٌ! قال: فإن لم أصبِرْ فما ذا أصنع؟ قلت: إنّي جلست إلى المقداد بن عمرو آنفًا وعبد الرّحمن بن عوف، فقالا كذا وكذا، ثمّ قام المقداد فاتّبعتُه، فقلت له كذا، فقال لي كذا. فقال عليّ عليه السلام: لقد صدَق المقداد، فما أصنع؟ فقلت: تقومُ في النّاس فتدعوهم إلى نفسك، وتخبِرهم أنّك أوْلى بالنّبيّ صلى الله عليه وآله، وتسألهم النّصر على هؤلاء المظاهرين عليك؛ فإن أجابك عشرةٌ مِن مائة شدَدتَ بهم على الباقين، فإن دانوا لك فذاك، وإلّا قاتلتَهم وكنتَ أوْلى بالعذر؛ قُتلتَ أو بَقيتَ، وكنتَ أعْلى عند الله حجّةً.

فقال: أ ترجو يا جندب أن يبايعني من كلّ عشرة واحد؟ قلت: أرجو ذلك، قال: لكنّي لا أرجو ذلك، لا والله ولا من المائة واحدٌ، وسأُخبِرك؛ إنّ النّاس إنّما ينظرون إلى قريش فيقولون: هم قوم محمّدٍ وقبيلته. وأمّا قريش بينها فتقول: إنّ آل محمّد يرَوْن لهم على النّاس بنبوّته فضلًا، ويرَوْن أنّهم أولياء هذا الأمر دون قريش ودون غيرهم من النّاس، وهم إن وَلُوه لم يخرج السّلطان منهم إلى أحدٍ أبدًا، ومتى كان في غيرهم تداولتْه قريش بينها. لا والله لا يدفع النّاس إلينا هذا الأمر طائعين أبدًا!

فقلت: جُعلتُ فداك يا بن عمّ رسول الله! لقد صدعْتَ قلبي بهذا القول، أ فلا أرْجع إلى المصر، فأوذِنُ النّاس بمقالتك وأدعو النّاس إليك؟ فقال: يا جندب، ليس هذا زمان ذاك.

قال: فانصرفتُ إلى العراق، فكنت أذكر فضل عليّ على النّاس فلا أعدم رجلًا يقول لي ما أكره. وأحسن ما أسمعه قول مَن يقول: دعْ عنك هذا وخذْ فيما ينفعك، فأقول: إنّ هذا ممّا ينفعني وينفعك، فيقوم عَنّي ويدَعني.

وزاد أبوبكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ: حتّى رُفع ذلك من قولي إلى الوليد بن عُقْبة، أيام وَلِيَنا، فبعث إليّ فحبسني حتّى كُلّم فيّ، فخلّى سبيلي.

وروى الجوهريّ، قال: نادى عمّار بن ياسر ذلك اليوم: يا معشر المسلمين، إنّا قد كنّا وما كنّا نستطيع الكلام، قلّةً وذلّةً، فأعزّنا الله بدينه، وأكرمَنا برسوله، فالحمد لله ربّ العالمين. يا معشر قريش، إلى متى تصرفون هذا الأمرَ عن أهل بيت نبيّكم! تُحوّلونه هاهنا مرّةً، وهاهنا مرّةً! ما أنا آمَنُ أن ينزِعَه الله منكم ويضعَه في غيركم، كما نزعتموه من أهله و وضعتموه في غير أهله! فقال له هاشم بن الوليد بن المغيرة: يا بن سميّة، لقد عدَوتَ طوْرك وما عرفتَ قدْرك؛ ما أنت وما رأْتْ قريش لأنفسها! إنّك لستَ في شيءٍ من أمرها وإماراتها، فتَنَحّ عنها. وتكلّمت قريش بأجمعها، فصاحوا بعمّار وانتهروه، فقال: الحمد لله ربّ العالمين، ما زال أعوانُ الحقّ أذلّاء! ثمّ قام فانصرف. (٩: ٤٩ـ٥٨)

[من كلام له عليه السلام في وقت الشّورى]

(الخطبة: ١٧٣) وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الأمرِ يا بْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ، فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ لأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ. وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ؛ فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلإِ الْحَاضِرِينَ، هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لاَ يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!

الشّرح: هذا من خطبة يذكر فيها عليه السلام ما جرَى يوم الشّورى بعد مقتَل عمر. والّذي

قال له: «إنّك على هذا الأمر لحريص» سعد بن أبي وقّاص، مع روايته فيه: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى»، وهذا عجبٌ. فقال لهم: بل أنتم والله أحرصُ وأبعدُ ... الكلام المذكور. وقد رواه النّاس كافّةً.

وقالت الإماميّة: هذا الكلام يوم السّقيفة، والّذي قال له: إنّك على هذا الأمر لحريصٌ، أبو عبيدة بن الجرّاح، والرِّواية الأُولى أظهر وأشهر... . (٩: ٣٠٥)

الفصل الثّالث: [في خلافة عثمان بن عفّان]

[نُتَف من أخبار عثمان بن عفّان]

(الخطبة: ٣) ... إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ، نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنِ انْتَكَثَ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ.

... وثالث القوم هو عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، كُنْيته أبو عمرو، وأُمّه أرْوَى بنت كريزبن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس.

بايعه النّاس بعد انقضاء الشّورى واستقرار الأمر له، وصحّتْ فيه فِراسة عمر، فإنّه أوطأ بني أُميّة رقابَ النّاس و ولّاهم الولايات وأقطعهم القطائع، وافتُتحَتْ إفريقيّة في أيّامه، فأخذ الخُمس كلَّه فوهبه لمروان، فقال عبد الرّحمن بن حنبل الجمحيّ:

أحْلِفُ بالله رَبِّ الأنَام ... مَا تَرَكَ الله شَيْئًا سُدَى
ولكِن خلقت لنا فتنة ... لكي نبتلى بك أو تبتَلَى
فإنّ الأمِينَيْنِ قَدْ بَيَّنَا ... مَنَارَ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ الْهُدَى
فما أخذا درهمًا غِيلَةً ... ولا جَعَلَا درهمًا في هَوَى
وَأَعْطيْتَ مَرْوَانَ خُمْسَ الْبِلَادِ ... فَهَيْهَاتِ سَعْيُكَ مِمَّنْ سَعَى!

الأمينان: أبو بكر وعمر.

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسِيد صِلةً، فأعطاه أربعمائة ألف درهم. وأعاد الحكَم بن أبي العاص، بعد أن كان[1] رسول الله ﷺ قد سيَّره ثمّ لم يردّه أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم. وتصدّق رسول الله ﷺ بموضع سوق بالمدينة يُعرف بمهزور

١ـ كلمة «كان» ساقطة من ب.

على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

وأقطع مروان فَدَك[١]، وقد كانتْ فاطمة عليها السلام طلبتْها بعد وفاة أبيها صلوات الله عليه تارةً بالميراث وتارةً بالنِّحْلة فدُفِعت عنها.

وحمَى المراعي حول المدينة كلّها من مواشي المسلمين كلّهم إلّا عن بني أُميّة. وأعطى عبدَ الله بن أبي سَرْح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيّة بالمغرب؛ وهي من طرابلس الغرب إلى طَنْجة من غير أن يَشْرَكه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، في اليوم الّذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوّجه ابنته أُمّ أبان. فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال عثمان: أ تبكي أن وَصلتُ رحِمي! قال: لا، ولكن أبكي لأنّي أظنّك أنّك أخذتَ هذا المال عِوضًا عمّا كنتَ أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله. والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيرًا، فقال: ألقِ المفاتيح يا بن أرقم؛ فإنّا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة، فقسَّمها كلّها في بني أُميّة. وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضًا بعد صَرْفه زيد ابن أرقم عن خزنه.

وانضمّ إلى هذه الأُمور أُمورٌ أُخرى نقَمها عليه المسلمون، كتسيير أبي ذرّ رحمه الله تعالى إلى الرّبذة، وضرَب عبد الله بن مسعود حتّى كسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر في إقامة الحدود وردّ المظالم وكفّ الأيدي العادية

١ـ فَدَك: قريةٌ بالحجاز بينها وبين المدينة يومان. أفاءها الله على رسوله في سنة سبع صلحًا، وذلك أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله لمّا نزل خيبر وفتح حصونها ولم يبق إلّا ثلث واشتدّ بهم الحصار، راسلوا رسول الله صلى الله عليه وآله يسألونه أن ينزلهم على الجلاء، وفعل، وبلغ ذلك أهل فدك، فأرسلوا إلى رسول الله أن يصالحهم على النّصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك؛ فهي ممّا لم يوجف عليه بخَيلٍ ولا ركابٍ، فكانت خالصةً لرسول الله صلّى الله عليه. معجم البلدان ٦: ٣٤٣.

والانتصاب لسياسة الرّعيّة، وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين، واجتمع عليه كثير من أهل المدينة مع القوم الّذين وصلوا من مصر لتعديد أحداثه عليه فقتلوه.

وقد أجاب أصحابُنا عن المطاعن في عثمان بأجوبة مشهورة مذكورة في كتبهم. والّذي نقول نحن: إنّها وإن كانت أحداثًا، إلّا أنّها لم تبلغ المبلغ الّذي يستباح به دمه، وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة حيث لم يستصلحوه لها، ولا يعجَلوا بقتله، وأمير المؤمنين عليه السلام أبرأ النّاس مِن دمه، وقد صرّح بذلك في كثير من كلامه، من ذلك قوله عليه السلام: والله ما قتلتُ عثمان ولا مالأتُ على قتله؛ وصدق صلوات الله عليه.

(١: ١٩٨ـ٢٠٠)

[الإمام عليّ عليه السلام و بيعة عثمان]

(الخطبة: ٧٣) ومن كلام له عليه السلام لمّا عزموا على بيعة عثمان:

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَ وَاللهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُالْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِا جَوْرٌإِلّا عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاسًا لِأَجْرِذلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْدًا فِيمَا تَنافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ.

... يقول لأهل الشّورى: إنّكم تعلمون أنّي أحقّ بالخلافة مِن غيري وتعدلون عَنّي. ثمّ أقسَم لَيُسلِمنَّ ولَيترُكَنّ المخالفة لهم إذا كان في تسليمه ونزوله عن حقّه سلامةُ أمور المسلمين، ولم يكن الجوْرُ والحيْفُ إلّا عليه خاصةً؛ وهذا كلامٌ مَثلَه عليه السلام، لأنّه إذا علم أو غلَب على ظنّه أنّه إن نازَع وحارَب دخل على الإسلام وَهَنٌ وَثَلْمٌ لم يَختَرْله المنازعة، وإن كان يطلب بالمنازعة ما هو حقّ؛ وإن علم أو غلَب على ظنّه بالإمساك عن طلب حقّه أنّما يدخل الثّلْم والوَهَن عليه خاصّةً، ويسلم الإسلامُ من الفتنة، وَجَب عليه أنْ يُغضِي ويصبرعلى ما أتوْا إليه من أخذ حقّه وكفّ يده، حراسةً للإسلام من الفتنة.

فإن قلت: فهلّا سلَّم إلى معاوية وإلى أصحاب الجَمل، وأغضَى على اغتصاب حَقّه حفظًا للإسلام من الفتنة؟

قلت: إنّ الجوْر الدّاخل عليه من أصحاب الجمل ومن معاوية وأهل الشّام، لم يكن مقصورًا عليه خاصّةً؛ بل كان يعمّ الإسلام والمسلمين جميعًا، لأنّهم لم يكونوا عنده ممّن يصلُح لرياسة الأُمّة وتحمُّل أعباء الخلافة، فلم يكن الشّرط الّذي اشترطه متحقّقًا، وهو قوله: «ولم يكن فيه جوْر إلّا عليّ خاصّة».

وهذا الكلام يدلّ على أنّه عليه السلام لم يكن يذهب إلى أنّ خلافة عثمان كانت تتضمّن جوْرًا على المسلمين والإسلام، وإنّما كانت تتضمّن جوْرًا عليه خاصّة، وأنّها وقعت على جهة مخالفة الأوْلى، لا على جهة الفساد الكلّيّ والبطلان الأصليّ، وهذا محضُ مذهب أصحابنا. (٦: ١٦٦ـ ١٦٧)

[كلام لعليّ عليه السلام قبل المبايعة لعثمان]

ونحن نذكر في هذا الموضع ما استفاض في الرّوايات مِن مناشدته أصحابَ الشّورى وتعديده فضائلَه وخصائصَه الّتي بان بها منهم ومِن غيرهم. قد روَى النّاس ذلك فأكثروا.

والّذي صحّ عندنا أنّه لم يكن الأمر كما رُوي من تلك التّعديدات الطّويلة، ولكنّه قال لهم بعد أن بايع عبد الرّحمن والحاضرون عثمانَ وتَلكّأ هو عليه السلام عن البيعة: إنّ لنا حقًّا، إن نُعطَه نأخذْه، وإن نُمنَعْه نَركبْ أعجاز الإبل وإن طال السُّرَى؛ في كلام قد ذكره أهل السِّيرة، وقد أوردنا بعضَه فيما تقدّم.

ثمّ قال لهم: أنشُدُكم الله! أ فيكم أحدٌ آخَى رسولَ الله صلى الله عليه وآله بينه وبين نفسه؛ حيث آخَى بينَ بعض المسلمين وبعضٍ غيري؟ فقالوا: لا. فقال: أ فيكم أحدٌ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَن كنتُ مولاه فهذا مولاه» غيري؟ فقالوا: لا. فقال: أ فيكم أحدٌ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنتَ منّي بمنزلة هرون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي» غيري؟ قالوا: لا. قال: أ فيكم مَن اؤتُمِن على سورة براءة وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّه لا يؤدّي عَنّي إلّا أنا أو رجلٌ منّي» غيري؟ قالوا: لا. قال: أ لا تعلمون أنّ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وآله فَرّوا

عنه في مأقِط[1] الحرب في غير موطن، وما فررتُ قَطّ! قالوا: بلَى. قال: ألا تعلمون أنّي أوّل النّاس إسلامًا؟ قالوا: بلى. قال: فأيُّنا أقرب إلى رسول الله ﷺ نسبًا؟ قالوا: أنت.

فقطَع عليه عبد الرّحمن بن عوف كلامَه وقال: يا عليّ، قد أبَى النّاس إلّا علَى عُثمان، فلا تجعَلنّ علَى نفسك سبيلًا. ثمّ قال: يا أبا طلحة، ما الّذي أمَرك به عمر؟ قال: أن أقتُل مَن شقّ عصا الجماعة. فقال عبد الرّحمن لعليّ: بايعْ إذن، وإلّا كنت متّبعًا غيرَ سبيل المؤمنين وأنفذْنا فيك ما أُمِرْنا به. فقال: «لقد علمتم أنّي أحقُّ بها من غيري، والله لأسْلِمنّ ...» الفصل إلى آخره، ثمّ مدّ يده فبايَع. (٦: ١٦٧ـ١٦٨)

[كلام الإمام عليه السلام لعثمان]

(الخطبة: ١٦٥) ومن كلام له عليه السلام لعثمان بن عفّان. قالوا: لمّا اجتمع النّاس إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وشكوْا ما نقموه على عثمان وسألوه مخاطبتَه واستعتابَه لهم، فدخل عليه السلام على عثمان، فقال:

إِنَّ النّاسَ وَرَائِي وَقَدِ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ؛ وَ وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئًا تَجْهَلُهُ، وَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لاَ تَعْرِفُهُ!

إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ؛ مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شيءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلاَ خَلَوْنَا بِشيءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ؛ وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَمَا صَحِبْنَا. وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلاَ ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْخَيرِ[2] مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالاَ؛ فَاللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ وَاللهِ مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمًى، وَلاَ تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ؛ وَ إِنَّ الْطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَ إِنَّ أَعْلاَمَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ.

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ هُدِيَ وَهَدَى، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً،

١ـ المأقِط: موضع القتال.

٢ـ د: «الحق».

وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً؛ وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ؛ وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ؛ فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً! وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ، وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا.

وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللهَ أَن تَكُونَ إِمَامَ هذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولَ! فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجًا، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجًا. فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جِلَالِ السِّنِّ وَتَقَضِّي الْعُمُرِ.

فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ رضي الله عنه: كَلِّمِ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِن مَظَالِمِهِمْ. فَقَالَ ﷺ: مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ؛ وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ.

الشّرح: ... ثمّ قال له وأقسَم على ذلك: إنّه لا يَعلم ماذا يقول له! لأنّه لا يعرِف أمرًا يَجهله أي من هذه الأحداث خاصّة. وهذا حقّ، لأنّ عليًّا ﷺ لم يكن يعلم منها ما يجهله عثمان، بل كان أحداث الصّبيان، فضلًا عن العقلاء المميّزين، يعلمون وجهيْ الصّواب والخطأ فيها.

ثمّ شرع معه في مسْلَك الملاطفة والقول اللّين، فقال: ما سبقنا إلى الصّحْبة، ولا انفردْنا بالرّسول دونك، وأنت مثلنا ونحن مثلك.

ثمّ خرج إلى ذكر الشّيخيْن فقال قولًا معناه أنّهما ليسا خيرًا منك، فإنّك مخصوص دونهما بقرْب النّسَب، يعني المَنافيّة وبالصّهْر، وهذا كلامٌ هو موضع المثَل: «يُسِرُّ حَسْوًا في ارتغاء» ومراده تفضيل نفسه ﷺ عليهما، لأنّ العلّة الّتي باعتبارها فضَّل عثمان عليهما محقّقةٌ فيه وزيادةٌ؛ لأنّ له مع المَنافيّة الهاشميّة، فهو أقرب ... .

وقد ذكرنا من الأحداث الّتي نُقمت على عثمان فيما تقدّم ما فيه كفاية، وقد ذكر أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ رحمه الله في «التّاريخ الكبير»[1] هذا الكلام، فقال:

١ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ٩٦ـ ٩٧ (الحسينيّة).

إنّ نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ تكاتبوا، فكتب بعضُهم إلى بعض أن اقدموا، فإنّ الجهاد بالمدينة لا بالرّوم. واستطال النّاس على عثمان ونالوا منه. وذلك في سنة أربع وثلاثين، ولم يكن أحدٌ من الصّحابة يذبّ عنه ولا ينهى إلّا نفرٌ، منهم زيد بن ثابت وأبو أسيد السّاعديّ وكعب بن مالك وحسّان بن ثابت. فاجتمع النّاس، فكلّموا عليّ بن أبي طالب عليه السلام وسألوه أن يكلِّم عثمان، فدخل عليه وقال له: إنّ النّاس ... .

وروَى الكلام إلى آخره بألفاظه، فقال عثمان: وقد علمتُ أنّك لتقولنّ[1] ما قلتَ! أما والله لو كنتَ مكاني ما عنّفتُك، ولأعتبتُ عليك[2]، ولم آت منكرًا، إنّما وصلتُ رحِمًا، وسددتُ خَلّة، وآويتُ ضائعًا، و ولّيتُ شبيهًا بمَن كان عمر يولّيه؛ أنشُدك الله يا عليّ، ألَا تعلم[3] أنّ المغيرة بن شعبة ليس هناك! قال: بلى، قال: أ فلا تعلم أنّ عمر ولّاه! قال: بلى. قال فلِمَ تَلومني أنْ ولّيتُ ابن عامر في رحِمه وقرابته! فقال عليّ عليه السلام: إنّ عمر كان يطأ على صِماخ مَن يولّيه، ثمّ يبلغ منه إن أنكر منه إن أمرًا أقصى العقوبة، وأنت فلا تفعل؛ ضعفتَ ورققتَ على أقربائك. [قال عثمان: هم أقرباؤك أيضًا، فقال عليٌّ: لعمري إنّ رحِمهم منّي لقريبة، ولكنّ الفضل في غيرهم[4]].

فقال عثمان: أ فلا تعلم أنّ عمر ولّى معاوية! فقد ولّيته. قال عليٌّ: أنشُدك الله أ لا تعلم أنّ معاوية كان أخوفَ لعمر مِن يَرْفأ غلامه له؟ قال: بلى. قال: فإنّ معاوية يقطع الأُمور دونك ويقول للنّاس: هذا بأمر عثمان، وأنت تعلم ذلك فلا تغيّر عليه!

ثمّ قام عليٌّ، فخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر فخطب النّاس وقال: أمّا بعد، فإنّ لكلّ شيءٍ آفة، ولكلّ أمرٍ عاهة وإنّ آفة هذه الأُمّة وعاهة هذه النّعمة،

١ـ الطّبريّ: «قد والله علمتُ ليقولنّ الّذي قلت».

٢ـ الطّبريّ: «ما عنّفتك ولا أسلمتك».

٣ـ الطّبريّ: «هل تعلم».

٤ـ من الطّبريّ.

عَيّابون طعّانون، يُرُونكم ما تحبُّون ويُسرُّون عنكم ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون، أمثال النّعام يتبَع أوّلَ ناعق، أحبّ مواردها إليها البعيد، لا يشربون إلّا نَغصًا ولا يردُون إلّا عِكَرًا.

أما والله لقد عبْتم عليّ ما أقررتُم لابن الخطّاب بمثله، ولكنّه وطئكم برجْله، وضرَبكم بيده، وقمَعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم، ولِنتُ لكم، وأوطأتُكم كَتِفي، وكففتُ يدِي ولساني عنكم، فاجترأتم عليّ. أما والله لأنا أقربُ ناصرًا، وأعزّ نفرًا، وأكثر عددًا، وأحرى إن قلت: هلمّ أن يُجاب صوتي. ولقد أعددتُ لكم أقرانًا، وكشّرتُ لكم عن نابي، وأخرجتم منّي خُلقًا لم أكن أحسنه ومنطقًا لم أكن أنطق به. فكفّوا عنّي ألسنتكم وطعنكم وعيبكم علَى ولاتكم. فما الّذي تفقدون من حقّكم! والله ما قصّرتُ عن بلوغ مَن كان قبلي [يبلغ]، وما وجدتكم تختلفون عليه، فما بالكم!

فقام مروان بن الحكم فقال: وإن شئتم حكّمنا بيننا وبينكم السّيف.

فقال عثمان: اسكتْ لا سكتّ! دعني وأصحابي، ما منطقك في هذا! ألم أتقدّم[1] إليك ألّا تنطق! فسكت مروان ونزل عثمان. (٩: ٢٦١ـ٢٦٥)

(الخطبة: ١٥) ومن كلام له عليه السلام فيما ردّه على المسلمين من قطائع عثمان:

وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ وَمُلِكَ بِهِ الْإِمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ؛ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ!

الشّرح: القطائع: ما يُقطِعه الإمام بعضَ الرّعيّة من أرض بيت المال ذاتِ الخراج، و يُسقِط عنه خراجَه و يجعل عليه ضريبةً يسيرةً، عوضًا عن الخراج. وقد كان عثمان أقطَع كثيرًا من بني أُميّة وغيرهم من أوليائه وأصحابه قطائعَ من أرض الخراج على هذه الصّورة.

وقد كان عمر أقطَع قطائع؛ ولكن لأرباب العَناء في الحرب والآثار المشهورة في

١ـ تقدّم إليه: أمره.

الجهاد، فَعَلَ ذلك ثمنًا عمّا بذلوه من مُهَجِهم في طاعة الله سبحانه، وعثمان أقطَع القطائع صلةً لرحِمه وميلًا إلى أصحابه، عن غير عَناءٍ في الحرب ولا أثرٍ.

وهذه الخطبة ذكَرها الكلبيّ مرويّةً مرفوعةً إلى أبي صالح عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ عليًّا عليه السلام خطب في اليوم الثّاني من بيعته بالمدينة، فقال: ألا إنّ كلّ قطيعةٍ أقطَعها عثمان وكلّ مال أعطاه من مال الله، فهو مردودٌ في بيت المال، فإنّ الحقّ القديم لا يبطله شيءٌ. ولو وجدتُه وقد[1] تُزُوّج به النّساء وفُرّق في البلدان، لرددتُه إلى حاله[2]، فإنّ في العدل سعةً، ومَن ضاق عنه الحقّ فالجوْر عليه أضيق.

وتفسيرُ هذا الكلام أنّ الواليَ إذا ضاقتْ عليه تدبيرات أُموره في العدل، فهي في الجوْر أضيق عليه؛ لأنّ الجائر في مَظِنّة أن يُمْنع ويُصَدّ عن جوْره.

قال الكلبيّ: ثمّ أمَر عليه السلام بكلّ سلاح وُجِد لعثمان في داره، ممّا تقوّى به على المسلمين فقبض، وأمَر بقبْض نجائب كانت في داره من إبل الصّدقة، فقبضت، وأمَر بقبْض سيفه ودرعه، وأمَر ألّا يعرض لسلاح وُجد له لم يقاتل به المسلمون، وبالكفّ عن جميع أمواله الّتي وجدت في داره وفي غير داره، وأمَر أن تُرتَجع الأموال الّتي أجاز بها عثمان حيث أُصيبتْ أو أُصيب أصحابها.

فبلغ ذلك عمرو بن العاص، وكان بأيْلَة من أرض الشّام، أتاها حيث وثب النّاس على عثمان، فنزلها فكتب إلى معاوية: ما كنتَ صانعًا فاصنعْ، إذ قشَرك ابن أبي طالب مِن كلّ مالٍ تملكه كما تُقشَر عن العصا لِحاها.

وقال الوليد بن عُقبة ـ وهو أخو عثمان من أُمّه ـ يذكر قبض عليّ عليه السلام نجائبَ عثمان وسيفه وسلاحه[3]:

بَني هاشمٍ رُدُّوا سلاح ابنِ أُخْتِكُمْ ... وَلَا تَنْهَبُوهُ لَا تحِلُّ مَنَاهِبُهْ

١ـ ب: «قد».

٢ـ ب: «على حاله».

٣ـ الأبيات في المسعوديّ ٢: ٣٥٦، مع اختلاف في الرّواية وترتيب الأبيات.

بَـنِي هاشـمٍ كيـف الهـوادةُ بينَنـا ... وعِنْـدَ عـلـيّ دِرْعُـهُ وَنَجائِبُـهْ!
بَـنِي هاشـم كيـف التَّـودّدُ مِـنْكُم ... وَبَـزُّ ابـنِ أَرْوَى فـيكُمُ وحَرَائبُـهْ![1]
بـنـي هاشـم إلّا تـردُّوا فإنّنـا ... سـواء علينـا قـاتلاه وسـالبُهْ
بـني هاشـم إنّـا وَمـا كـان مِـنْكُمْ ... كصَدْع الصَّفَا لا يشعَب الصَّدْعَ شَاعِبُهْ
قَتَلْـتُمْ أخِـي كَيْمـا تَكُونُـوا مَكانَـهُ ... كمـا غَـدرت يومًـا بِكِسْـرَى مَرَازِبُـهْ[2]

فأجابه عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب بأبيات طويلة[3]، من جملتها:

فَـلَا تَسْـأَلُونا سَـيْفَكُمْ إنَّ سَـيْفَكُم ... أُضِـيعَ وألقـاهُ لَـدَى الـرَّوْع صَـاحِبُهْ
وَشَـبَّهْتَه كِسـرَى وقـد كـان مثلَـه ... شـبيهًا بكِسْـرَى هَدْيُـه وَضَـرَائِبُهْ

أي كان كافرًا كما كان كسرَى كافرًا.

وكان المنصور رحمه الله تعالى إذا أنشد هذا الشّعر[4] يقول: لعن الله الوليد! هو الّذي

١ـ البزّ: متاع البيت من الثّياب. والحرائب: جمع حَريبة؛ وهو مال الرّجل الّذي يقوم به أمره، ورواية البيت في المسعوديّ:

بَنِي هَاشِمٍ كَيْفَ الْهَوَادَةُ بَيْنَنَا ... وسَيْفُ ابْنِ أَرْوَى عِنْدَكُمْ وحرائبه

٢ـ رواية المسعوديّ:

غَدَرْتُمْ بِهِ كَيْمَا تَكُونُوا مَكَانَهُ

٣ـ نسَبها المسعوديّ إلى الفضل بن العبّاس بن عتبة بن أبي لهب، وذكر بعد البيت الأوّل:

سلُوا أَهْلَ مِصْرعَنْ سِلَاح ابْنِ أُخْتِنَا ... فَهُـمْ سَـلَبُوهُ سَـيْفَهُ وَحَرَائِبُـهْ
وَكَـانَ وَلِيَّ الْأَمْـرِبَعْـدَ مُحَمَّـدٍ ... عَـلِيٌّ وَفِي كُـلِّ الْمَـوَاطِنِ صَـاحِبُهْ
عَـلِيٌّ وَلِيّ اللهِ أَظْهَـرَدِينَـهُ ... وَأَنْـتَ مَـعَ الْأَشْـقَيْنِ فيمَـا تحارِبُـهْ
وَأَنْـتَ امْـرُؤٌ مِـنْ أَهْـلِ صَـفْوَاءَ نَـازِحٌ ... فَـا لَـكَ فينَـا مِـنْ حَمِـيمٍ تعاتِبُـهْ
وَقَـدْ أَنْـزَلَ الـرَّحْمَنُ أَنَّـكَ فاسِـقٌ ... فَـا لَـك في الإسـلام سَـهْمٌ تُطَالِبُـهْ

٤ـ ب: «البيت».

فَرّق بين بني عبد مناف بهذا الشّعر! (١: ٢٦٩ـ٢٧١)

[ذكر ما كان من أمر طلحة مع عثمان]

ذكر أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ في كتاب «التّاريخ» قال: حدّثني عمر بن شبّة، عن عليّ بن محمّد، عن عبد ربّه، عن نافع، عن إسماعيل بن أبي خالد[١]، عن حَكيم[٢] بن جابر، قال: قال عليّ عليه السلام لطلحة وعثمان محصورٌ: أنشُدك الله إلّا رددتَ النّاس عن عثمان! قال: لا، والله حتّى تُعطِي بنو أُميّة الحقَّ من أنفسها.

وروى الطّبريّ أنّ عثمان كان له على طلحة خمسون ألفًا، فخرج عثمان يومًا إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهيّأ مالُك فاقبِضْه، فقال: هو لك يا أبا محمّد معونةً لك على مروءتك.[٣] قال: فكان عثمان يقولُ وهو محصورٌ: جزاء سِنِمّارا!

وروى الطّبريّ أيضًا أنّ طلحة باع أرضًا له من عثمان بسبعمائة ألف، فحملها إليه، فقال طلحة: إنّ رجلًا يبيت[٤] وهذه عنده وفي بيته، لا يدري ما يطرُقه من أمر الله لغريرٌ بالله! فبات ورسله تختلف بها في سِكَك المدينة يقسِمُها حتّى أصبح؛ وما عنده منها درهم واحد.[٥] قال الطّبريّ: روى ذلك الحسن البصريّ، وكان إذا روَى ذلك يقول: ثمّ جاء إلينا يطلب الدّينار والدّرهم ـ أو قال: ـ والصّفراء والبَيضاء.

وروى الطّبريّ أيضًا، قال: قال ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: لمّا حَججْتُ بالنّاس نيابةً عن

١ـ في الأُصول: «أبو طالب»، تحريف وصوابه من تاريخ الطّبريّ.

٢ـ حَكيم بفتوحة وكسر الكاف؛ كذا ضُبط في التّقريب.

٣ـ تاريخ الطّبريّ ١: ٣٠٣٧، (طبع أُوروبا).

٤ـ في الطّبريّ: «تتسق».

٥ـ تاريخ الطّبريّ ١: ٣٠٣٧، ٣٠٣٨ (طبع أُوروبا).

عثمان وهو محصورٌ، مررت بعائشة بالصُّلصُل[١]، فقالت: يا بن عبّاس أنشُدك الله! فإنّك قد أعطيتَ لسانًا وعقلًا، أن تُخذِّل النّاس عن طلحة؛ فقد بانتْ لهم بصائرهم في عثمان وأنهجَتْ[٢]، ورفعتْ لهم المنار، وتحلّبوا من البلدان لأمرٍ قد حُمّ؛ وإنّ طلحة ـ فيما بلغني ـ قد اتّخذ رجالًا على بيوت الأموال وأخذ مفاتيح الخزائن وأظنُّه يسيرإن شاء الله بسيرة ابن عمّه أبي بكر، فقال: يا أُمّه، لو حدَث بالرّجل حدثٌ ما فزع النّاس إلّا إلى صاحبنا، فقالت: إيهًا عنك يا بن عبّاس؛ إنّي لستُ أُريد مكابَرتك ولا مجادَلتك.[٣]

وروى المدائنيّ في كتاب «مقتل عثمان» أنّ طلحة منَع من دفنه ثلاثة أيّام، وأنّ عليًّا عليه السلام لم يبايع النّاس إلّا بعد قتل عثمان بخمسة أيّام، وأنّ حَكيم بن حزام أحدَ بني أسد بن عبد العُزّى، وجُبير بن مطعِم بن الحارث بن نوفل استنجدَا بعليّ عليه السلام على دفنه، فأقعد طلحة لهم في الطّريق ناسًا بالحجارة، فخرج به نفرٌ يسير من أهله وهم يريدون به حائطًا بالمدينة يُعرف بحَشّ كَوْكب[٤] كانت اليهود تَدفِن فيه موتاهم، فلمّا صار هناك رجَم سريره وهمّوا بطرحه، فأرسل عليّ عليه السلام إلى النّاس يعزم عليهم ليكفُّوا عنه، فكفُّوا، فانطلقوا به حتّى دفنوه في حَشّ كوكب.

وروى الطّبريّ نحو ذلك، إلّا أنّه لم يذكر طلحة بعينه؛ وزاد فيه أنّ معاوية لمّا ظهَر

١ـ صُلصُل: موضعٌ بنواحي المدينة على سبعة أميال منها؛ نزل ﷺ يوم خرج من المدينة إلى مكّة عام الفتح.
قال عبد الله بن مصعب الزّبيريّ:

أَشْرف عَلَى ظَهْرِ الْقُدَيْمَةِ هَلْ تَرَى ... برقًا سَرَى في عارِضٍ متهلّل
نَصَح العَقِيقَ فَبَطْنَ طَيْبَةَ مَوْهِنًا ... ثُمَّ اسْتَمَرَّ يؤُمُّ قَصْدَ الصَّلْصَل

٢ـ أنهج الطريق: وضح.

٣ـ تاريخ الطّبريّ ١: ٣٠٤٠ (طبع أُوروبا).

٤ـ حَشّ كوكب: موضع عند بقيع الغَرقَد، ذكره ياقوت وقال: اشتراه عثمان بن عفّان وزاده في البقيع، ولمّا قُتل أُلقِي فيه، ثم دُفن في جنبه.

على النّاس، أمَر بذلك الحائط فهدم حتّى أفضَى به إلى البقيع، وأمَر النّاس أن يدفنوا موتاهم حول قبرِه حتّى اتّصل [ذلك[١]] بمقابر المسلمين.

وروى المدائنيّ في هذا الكتاب، قال: دُفن عثمان بين المغرب والعَتَمة، ولم يشهد جنازته إلّا مروان بن الحكَم وإبنه عثمان وثلاثةٌ من مواليه، فرفعت ابنتُه صوتها تندُبه؛ وقد جعل طلحة ناسًا هناك أكمنَهم كمينًا، فأخذتْهم الحجارة، وصاحوا: نَعثَل نعثل![٢] فقالوا: الحائط الحائط! فدفن في حائطٍ هناك.

وروى الواقديّ، قال: لمّا قُتل عثمان، تكلّموا في دفنه، فقال طلحة: يدفن بدير سَلْع - يعني مقابر اليهود.

وذكر الطّبريّ في تاريخه هذا إلّا أنّه روَى عن طلحة فقال: قال رجل: يُدفَن بدير سلْع، فقال حكيم بن حزام: والله لا يكون هذا أبدًا وأحدٌ من ولد قصيّ [حيّ[٣]]، حتّى كاد الشّرّ يلتحم؛ فقال ابن عُدَيْس البَلَويّ: أيّها الشّيخ، وما يضرّك أين دُفن! قال: لا يُدفَن إلّا ببقيع الغَرقَد؛[٤] حيث دُفن سَلَفه ورهطه؛ فخرج به حكيم بن حزام في اثني عشر رجلًا، منهم الزّبير بن العوّام، فمنعهم النّاس عن البقيع، فدفنوه بحَشّ كَوْكب.[٥]

وروى الطّبريّ في التّاريخ أنّ عثمان لمّا حُصر، كان عليّ عليه السلام بخيبر في أمواله، فلمّا قدم أرسل إليه يدعوه، فلمّا دخل عليه قال له: إنّ لي عليك حقوقًا: حقّ الإسلام وحقّ النّسب وحقّ ما لي عليك من العهد والميثاق؛ و والله أن لو لم يكنْ من هذا كلّه شيء وكنّا في جاهليّة، لكان عارًا على بني عبد مناف أن يبتزّهم أخو تَيمٍ مُلْكهم - يعني

١ـ من تاريخ الطّبريّ ١: ٣٠٤٦ (طبع أُوروبا).

٢ـ نَعثَل: رجل من أهل مصر، كان طويل اللّحية وكان شاتمو عثمان رضي الله عنه يسمّونه بذلك. اللّسان.

٣ـ من تاريخ الطّبريّ ١: ٣٠٤٦ (طبع أُوروبا).

٤ـ أصل البقيع في اللّغة، الموضع الّذي فيه أرُوم الشّجر، والغَرقَد كبار الشّجر المسمّى بالعوسج؛ وهو مقبرة أهل المدينة (ياقوت).

٥ـ تاريخ الطّبريّ ١: ٣٠٤٧.

طلحة ـ فقال له عليه السلام سيأتيك الخبر.

ثمّ قام فدخل المسجد، فرأى أُسامة بن زيد جالسًا، فدعاه فاعتمد على يدِه وخرج يمشي إلى طلحة، فدخل داره، وهي دِحَاسٌ من النّاس،[1] فقام عليه السلام فقال: يا طلحة، ماهذا الأمر الّذي وقعتَ فيه؟ فقال: يا أبا الحسن، أبعدَ ما مسَّ الحِزام الطُّبْيَين!

فانصرف عليّ عليه السلام ولم يُحِرْ إليه شيئًا حتّى أتى بيت المال، فنادى: افتحُوا هذا الباب، فلم يقدروا على فتحِه، فقال: اكسِرُوه، فكسر فقال: أخرِجوا هذا المال، فجعلوا يخرجونه وهو يعطي النّاس، وبلغ الّذين في دار طلحة ما صنع عليّ عليه السلام، فجعلوا يتسلّلون إليه حتّى بقي طلحة وحده.

وبلغ الخبرُ عثمان، فسرّ بذلك. ثمّ أقبل طلحة يمشي عامدًا إلى دار عثمان فاستأذن عليه، فلمّا دخل قال: يا أمير المؤمنين؛ أستغفر الله وأتوبُ إليه، لقد رُمتُ أمرًا حال الله بيني وبينه. فقال عثمان: إنّك والله ما جئتَ تائبًا ولكن جئتَ مغلوبًا، الله حسيبك يا طلحة![2] ثمّ قسّم عليه السلام مالَ طلحة.

فقال: لا يخلو إمّا أن يكون معتقِدًا حلّ دم عثمان أو حرمته أو يكون شاكًّا في الأمريْن؛ فإن كان يعتقد حلّه لم يجُزْ له أن ينقُض البَيعة لنصرة إنسان حلال الدّم، وإن كان يعتقد حرمته فقد كان يجب عليه أن يُنهنِهَ عنه النّاس، أي يكفّهم. وإن كان شاكًّا فقد كان يجب عليه أن يعتزل الأمر ويَركُد جانبًا ولم يعتزل وإنما صَلي بنار الفتنة وأصلاها غيره.

فإن قلت: يمكن أن يكون طلحة اعتَقد إباحة دم عثمان أوّلًا، ثمّ تبدّل ذلك الاعتقاد بعد قتْله، فاعتقد أنّ قتْله حرام وأنّه يجب أن يقتصّ مِن قاتليه.

قلت: لو اعترف بذلك لم يقسِّم عليّ عليه السلام هذا التّقسيم، وإنّما قسّمه لبقائه على

١ـ دِحاس من النّاس، أي ممتلئة.

٢ـ تاريخ الطّبريّ ١: ٣٠٧١ـ٣٠٧٢.

اعتقاد واحد؛ وهذا التّقسيم مع فرض بقائه على اعتقاد واحدٍ صحيح لا مطعن فيه، وكذا كان حال طلحة، فإنّه لم ينقل عنه أنّه قال: ندمتُ على ما فعلتُ بعثمان.

فإن قلت: كيف قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فما فعل واحدة من الثّلاث» وقد فعل واحدةً منها، لأنّه وازَر قاتليه حيث كان محصورًا!

قلت: مراده عليه السلام أنّه إن كان عثمان ظالمًا، وجب أن يوازر قاتليه بعد قتله؛ يحامي عنهم ويمنعهم ممّن يروم دماءهم؛ ومعلوم أنّه لم يفعل ذلك، وإنّما وازرهم وعثمان حيّ؛ وذلك غير داخل في التّقسيم. (١٠: ٥ـ ٩)

[ذكر ما أورده القاضي عبد الجبّار من دفع ما تعلّق به النّاس على عثمان من الأحداث]

يجب أن نذكر هاهنا أحداثه، وما يقوله أصحابنا في تأويلاتها، وما تكلّم به المرتضى في كتاب «الشّافي» في هذا المعنى، فنقول:

إنّ قاضي[1] القضاة رحمه الله تعالى، قال في «المغني» قبل الكلام في تفصيل هذه الأحداث كلامًا مجملًا، معناه أنّ كلّ مَن تثبت عدالته و وجب تَولّيه، إمّا على القطع وإمّا على الظّاهر، فغير جائزٍ أن يُعدَل فيه عن هذه الطّريقة إلّا بأمرٍ متيقَّنٍ يَقتضي العدولَ عنها. يبيّن ذلك أنّ مَن شاهدناه على ما يوجب الظّاهر تَولّيه وتعظيمه يجب أن يبقَى فيه على هذه الطّريقة، وإن غاب عَنّا. وقد عرفنا أنّ مع الغيبة يجوز أن يكون مستمرًّا على حالته ويجوز أن يكون منتقلًا، ولم يقدح هذا التّجويز في وجوب ما ذكرناه.

ثمّ قال: فالحدَث الّذي يُوجِب الانتقال عن التّعظيم والتّولّي إذا كان من بابٍ

١ـ هو عبد الجبّار بن أحمد بن عبد الجبّار الهمدانيّ، صاحب كتاب «المغني» في الجدل، وإمام أهل المعتزلة في زمانه، تُوُفّي سنة ٤١٥. طبقات الشّافعيّة ٣: ٢١٩.

محتمَل، لم يجز الانتقال لأجله. والأحوال المتقرّرة في النّفوس بالعادات والأحوال المعروفة فيمن نتولّاه أقوَى في باب الإمارة من الأُمور المتجدّدة؛ فإنّ مثْلَ فرقد السَّبَخيّ[1] ومالك بن دينار[2]، لو شوهدَا في دارٍ فيها منكَرٌ، لَقَوِيَ في الظّنّ حضورهما للتّغيير والإنكار أو على وجه الإكراه أو الغلط. ولو كان الحاضر هناك مَن عُلِم مِن حاله الاختلاط بالمنكر لجوّز حضوره للفساد، بل كان ذلك هو الظّاهر من حاله.

ثمّ قال: واعلمْ أنّ الكلام فيما يُدّعى من الحدَث والتّغيّر فيمن ثبت تولّيه، قد يكونُ من وجهين:

أحدُهما: هل عُلم بذلك أم لا؟ والثّاني: أنّه مع يقين حصوله، هل هو حدَثٌ يؤثّر في العدالة أم لا؟ ولا فرق بيْن تجويز ألّا يكون حادثٌ أصلًا، وبين أن يُعلم حدوثه، ويجوز ألّا يكون حدَثًا.

ثمّ قال: كلّ محتملٍ لو أخبَر الفاعل أنّه فعَله على أحد الوجهين، وكان يغلِب على الظّنّ صدْقه لوجب تصديقه؛ فإذا عرف من حاله المتقرّرة في النّفوس ما يطابق ذلك جرَى مجرى الإقرار، بل ربّما كان أقوى. ومتى لم نسلك هذه الطّريقة في الأُمور المشتبهة لم يصحّ في أكثر مَن نتولّاه ونعظّمه أن تسلم حاله عندنا. فإنّا لو رأينا من يُظنّ به الخير، يكلّم امرأةً حسناء في الطّريق، لكان ذلك من باب المحتمل؛ فإذا كان لو أخبر أنّها أُخته أو امرأته لوجب ألّا نحول عن تولّيه، فكذلك إذا كان قد تقدّم في النّفوس ستره وصلاحه، فالواجب أن نحمِله على هذا الوجه.

ثمّ قال: وقول الإمام له مزيّةٌ في هذا الباب لأنّه آكدُ من غيره، وأمّا ما ينقل عن رسول الله ﷺ فإنّه وإن لم يكن مقطوعًا به يؤثّر في هذا الباب، ويكون أقوَى ممّا تقدّم.

١ـ السَّبَخيّ، بفتح السّين والباء الموحّدة وفي آخرها خاء معجمة: منسوبٌ إلى السَّبَخة، موضعٌ بالبصرة، وهو أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السّبخيّ، مِن زهّاد البصرة، ومات سنة ١٣١. معجم البلدان ٥: ٢٧.

٢ـ هو أبو يحيى بن مالك بن دينار، وكان من كبار الزّهاد والوعّاظ، روَى عن أنس بن مالك وعن جماعة من كبار التّابعين كالحسن وابن سيرين، تُوُفّي سنة ١٣٠. صفة الصّفوة ٣: ١٩٧.

ثمّ قال: وقد طعن الطّاعنون فيه بأُمورٍ متنوّعةٍ مختلفةٍ، ونحن نقدّم على تلك المطاعن كلامًا مجملًا، يبيّن بطلانَها على الجملة، ثمّ نتكلّم عن تفصيلها.

قال: وذلك أنّ شيخنا أبا عليّ[1] رحمه الله تعالى قد قال: لو كانت هذه الأحداث ممّا تُوجِب طعنًا على الحقيقة، لوجب من الوقت الّذي ظهر ذلك مِن حاله أن يطلب المسلمون رجلًا يُنصَب للإمامة، وأن يكون ظهور ذلك عن عثمان كموته، فإنّه لا خلاف أنّه متى ظهر من الإمام ما يوجب خلْعه، أنّ الواجب على المسلمين إقامة إمام سواه. فلمّا علمْنا أنّ طلبَهم لإقامة إمام إنّما كان بعد قتْله، ولم يكن من قبلُ والتّمكُّن قائمٌ، علمْنا بطلانَ ما أُضيف إليه من الأحداث.

قال: وليس لأحدٍ أن يقول: إنّهم لم يتمكّنوا من ذلك، لأنّ المتعالَم من حالهم أنّهم حصروه ومنعوه من التّمكّن من نفسه ومن التّصرّف في سلطانه؛ خصوصًا والخصوم يدّعون أنّ الجميع كانوا على قولٍ واحدٍ في خلْعه والبراءة منه.

قال: ومعلومٌ من حال هذه الأحداث أنّها لم تحصل أجمع في الأيّام الّتي حُوصِر فيها وقُتِل، بل كانت تحصل من قبْل حالًا بعد حالٍ، فلو كان ذلك يُوجِب الخلع والبراءة لَما تأخّر من المسلمين الإنكارُ عليه، ولكان كبار الصّحابة المقيمون بالمدينة أَوْلى بذلك من الواردين من البلاد؛ لأنّ أهل العلم والفضل بإنكار ذلك أحقُّ من غيرهم.

قال: فقد كان يجبُ على طريقتهم أن تحصُل البراءة والخلْع من أوّل الوقت الّذي حصَل منه ما أوجب ذلك، وألّا ينتظر حصول غيره من الأحداث، لأنّه لو وجب انتظار ذلك لم ينتهِ إلى حدٍّ إلّا وينتظر غيره.

ثمّ ذكر أنّ إمساكهم عن ذلك إذا تيقّنوا الأحداث منه يُوجب نسبةَ الجميع إلى الخطأ والضّلال. ولا يمكنهم أن يقولوا: إنّ علْمهم بذلك إنّما حصل في الوقت الّذي حُصِر ومُنِع، لأنّ مِن جملة الأحداث الّتي يذكرونها ما تقدَّم عن هذه الحال، بل كلّها أو جلّها تقدّم هذا الوقت؛ وإنّما يمكِنهم أن يتعلّقوا فيما حدث في هذا الوقت بما يذكرونه

١ـ هو محمّد بن عبد الوهّاب الجبّائي، شيخ المعتزلة، تُوُفِّي سنة ٣٠٣. شذرات الذّهب ٢: ٤١٢.

من حديث الكتاب النّافذ إلى ابن أبي سَرْح بالقتل، وما أوجب كون ذلك حدَثًا يوجِب كونَ غيره حدَثًا، فكان يجب أن يفعلوا ذلك من قبل، واحتمالُ المتقدِّم للتّأويل كاحتمال المتأخّر.

ثمّ قال: وبعد، فليس يخلُو مِن أن يَدّعوا أنّ طلب الخلْع وقع من كلّ الأُمّة أو من بعضهم، فإن ادّعَوْا ذلك في بعض الأُمّة، فقد علمنا أنّ الإمامة إذا ثبتت بالإجماع لم يجزْ إبطالُها بلا خلاف، لأنّ الخطأ جائز على بعض الأُمّة. وإن ادّعَوْا في ذلك الإجماع، لم يصحّ؛ لأنّ مِن جملة أهل الإجماع عثمان ومَن كان ينصره، ولا يمكن إخراجه من الإجماع بأن يقال: إنّه كان علَى باطل؛ لأنّ بالإجماع يتوصّل إلى ذلك، ولم يثبت.

ثمّ قال: على أنّ الظّاهر من حال الصّحابة أنّها كانت بين فريقيْن؛ أمّا مَن ينصره، فقد رُوي عن زيد بن ثابت أنّه قال لعثمان ومَن معه مِن الأنصار: ائذنْ لنا بنصرك. ورُوي مثل ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة والمغيرة بن شعبة، والباقون ممتنعون انتظارًا لزوال العارض، إلّا أنّه لو ضُيّق عليهم الأمر في الدّفع ما قعدوا، بل المتعالَم من حالهم ذلك.

ثمّ ذكر ما رُوي من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام إليه وأنّه لمّا قُتل لامَهما عليهما السلام علَى وصول القوم إليه، ظنًّا منه أنّهما قصّرا. وذكر أنّ أصحاب الحديث يروون عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ستكونُ فتنةٌ واختلافٌ، وإنّ عثمان وأصحابَه يومئذ على الهدى». وما رُوي عن عائشة من قولها: «قُتِل والله مظلومًا».

قال: ولا يمتنع أن يتعلّق بأخبار الأحاديث في ذلك؛ لأنّه ليس هناك أمرٌ ظاهرٌ يدفعه، نحو دعواهم أنّ جميع الصّحابة كانوا عليه؛ لأنّ ذلك دعوى منهم، وإن كان فيه روايةٌ من جهة الآحاد، وإذا تعارضت الرّوايات سقطتْ، و وجب الرّجوع إلى ما ثبت من أحواله السّليمة و وجوب تولّيه.

قال: ولا يجوز أن يُعدَل عن تعظيمه وصحّة إمامته بأُمور محتمَلة، فلا شيء ممّا ذكروه إلّا ويحتمل الوجه الصّحيح. ثمّ ذكر أنّ للإمام أن يَجتهد برأيه في الأُمور المنوطة

به ويعمل فيها على غالب ظنّه، وقد يكون مصيبًا، وإنْ أفضتْ إلى عاقبةٍ مذمومةٍ.

فهذه جملة ما ذكره قاضي القضاة رحمه الله تعالى في «المغني» من الكلام إجمالًا في دفع ما يُتعلَّق به على عثمان من الأحداث[1]. (٢: ٣٢٤ـ٣٢٨)

[ردّ المرتضى على ما أورده القاضي عبد الجبّار من الدّفاع عن عثمان]

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى في «الشّافي»[2]، فقال:

أمّا قوله: «مَن تثبُت عدالته و وجَب تولّيه إمّا قطعًا أو على الظّاهر، فغير جائزٍ أن يُعدَل فيه عن هذه الطّريقة إلّا بأمرٍ متيقَّنٍ» فغير مسلّم؛ لأنّ مَن نتولّاه على الظّاهر وثبتتْ عدالتُه عندنا من جهة غالب الظّنّ، يجب أن نرجع عن ولايته بما يقتضي غالبَ الظنّ دون اليقين، ولهذا يؤثّر في جَرْح الشُّهود وسقوط عدالتهم أقوالُ الجارحين، وإن كانت مظنونةً غير معلومةٍ، وما يظهر من أنفسهم من الأفعال الّتي لها ظاهر يُظَنّ معه القبيح بهم حتّى نرجع عما كنّا عليه من القول بعدالتهم، وإن لم يكن كلّ ذلك متيقَّنًا. وإنّما يصحّ ما ذكره فيمن ثبتتْ عدالته على القطع و وجب تولّيه على الباطن؛ فلا يجوز أن يؤثِّر في حاله ما يقتضي الظّنّ، لأنّ الظنّ لا يقابل العلم، والدّلالة لا تقابل الأمارة.

فإن قال: لم أرِدْ بقولي «إلّا بأمرٍ متيقَّن» أنّ كونَه حدَثًا متيقّنٌ، وإنّما أردتُ تيقُّنَ وقوع الفعل نفسِه.

قلنا: الأمرَان سواء في تأثير غلَبة الظّنّ فيهما، ولهذا يؤثّر في عدالة مَن تقدَّمتْ عدالته عندنا على سبيل الظّنّ أقوالُ من يخبرنا عنه بارتكاب القبائح[3] إذا كانوا عدولًا، وإن كانتْ أقوالهم لا تقتضي اليقينَ، بل يحصل عندها غالبُ الظّنّ.

١ـ نقله المرتضى في الشّافي: ٢٦٤ مع تصرّف في العبارة.

٢ـ كتاب الشّافي في الإمامة والرّدّ على كتاب المغني، طبع في العجم سنة ١٣٠١.

٣ـ الشّافي: «قبيح».

وكيف لا نرجع عن ولاية مَن تَولّيناه على الظّاهر بوقوع أفعالٍ منه يقتضي ظاهرها خلافَ الولاية، ونحن إنّما قلنا بعدالته في الأصل على سبيل الظّاهر! ومع التّجويز لأنْ يكون ما وقع منه في الباطن قبيحًا لا يستحقّ به التّولّي والتّعظيم، ألا ترى أنّ مَن شاهدْناه يَلزَم مجالسَ العلم ويُكثِر تلاوة القرآن ويُدمِن الصّلاة والصّيام والحجّ، يجب أن نتولّاه ونعظّمه على الظّاهر! وإن جوّزْنا أن يكون جميعُ ما وقع منه مع خبْث باطنه، وأنّ غرضه في فعله القبيح فلم نتولّه إلّا على الظّاهر.

ومع التّجويز، فكيف لا نرجع عن ولايته بما يقابل هذه الطّريقة! فأمّا مَن غاب عنّا وتقدّمتْ له أحوال تقتضي الولاية، فيجب أن نستمرّ على ولايته، وإن جوّزْنا على الغيبة أن يكون منتقِلًا عن الأحوال الجميلة الّتي عهدناها منه، إلّا أنّ هذا تجويز محْض لا ظاهر معه يقابل ما تقدّم من الظّاهر الجميل، وهو بخلاف ما ذكرناه من مقابلة الظّاهر للظّاهر، وإن كان في كلّ واحد من الأمريْن تجويز.

قال: وقد أصاب في قوله: «إنّ ما يحتمل لا ينتقل[1] له عن التّعظيم والتّولّي» إن أراد بالاحتمال ما لا ظاهر له، وأمّا ما له ظاهرٌ ومع ذلك يجوز أن يكون الأمر فيه بخلاف ظاهره، فإنّه لا يسمّى محتملًا، وقد يكون مؤثِّرًا فيما ثبت من التّولّي على الظّاهر على ما ذكرناه.

قال: فأمّا قوله: «إنّ الأحوال المتقرّرة في النّفوس بالعادات فيمن نتولّاه تؤثّر ما لا يؤثّر غيرها، وتقتضي حمْل أفعاله على الصّحّة والتّأوّل له»، فلا شكّ أنّ ما ذكره مؤثِّرٌ وطريقٌ قويٌّ إلى غلبه الظّنّ، إلّا أنّه ليس يقتضي ما يتقرّر في نفوسنا لبعض مَن نتولّاه على الظّاهر أن نتأوّل كلّ ما يشاهَد منه من الأفعال الّتي لها ظاهرٌ قبيحٌ، ونحمِل الجميعَ على أجمل الوجوه، وإن كان بخلاف الظّاهر، بل ربما تبيّن الأمرُ فيما يقع[2] منه من الأفعال الّتي ظاهرُها القبيح إلى أن تؤثّر في أحواله المقرّرة، ونرجع بها عن ولايته.

١ـ الشّافي: «لا يجوز أن ينتقل له».

٢ـ الشّافي: «فيما يرجع منه».

ولهذا نجد كثيرًا من أهلِ العدالة المتقرّرة لهم في النّفوس، ينسلخون منها حتّى يلحقوا بمَن لا تثبت له في وقت من الأوقات عدالة، وإنّما يكون ذلك بما يَتوالى منهم ويَتكرّر من الأفعال القبيحة الظّاهرة.

قال: فأمّا ما استشهد به مِن أنّ مثل مالك بن دينار لو شاهدْناه في دارٍ فيها منكَر لقَويَ في الظّنّ حضورُه لأجل التّغيير والإنكار[1] أو على وجه الإكراه والغلط وأنّ غيره يخالفه في هذا الباب، فصحيحٌ لا يخالِف ما ذكرناه؛ لأنّ مثل مالك بن دينار، ممّن تناصرتْ أمارات عدالته وشواهد نزاهته حالًا بعد حال، لا يجوز أن يَقدَح فيه فعلٌ له ظاهرٌ قبيحٌ، بل يجب لما تقدّم مِن حاله أن نتأوّلَ فعله ونخرجَه عن ظاهره إلى أجمل وجوهه.

وإنّما وجب ذلك لأنّ الظّنون المتقدِّمة أقوى وأوْلى بالتّرجيح والغلبة، فنجعلُها قاضيةً على الفعل والفعلين. ولهذا متى توالتْ منه الأفعال القبيحة الظّاهرة وتكرّرتْ، قدحتْ في حاله وأثّرتْ في ولايته. كيف لا يكون كذلك وطريق ولايته في الأصل هو الظّنّ والظّاهر، ولا بدّ مِن قدح الظّاهر في الظّاهر، وتأثير الظّنّ في الظّنّ على بعض الوجوه.

قال: فأمّا قوله: «فإنّ كلّ محتملٍ لو أُخبرنا عنه، وهو ممّا يغلب على الظّنّ صدْقه أنّه فعَله على أحد الوجهين، وجب تصديقُه. فمتى عرف من حاله المتقرّرة في النّفوس ما يطابق ذلك جرَى مجرى الإخبار»،[2] فأوّل ما فيه أنّ «المحتمَل» هو ما لا ظاهر له من الأفعال، والّذي يكون جواز كونه قبيحًا كجواز كونه حسَنًا، ومثْل هذا الفعل لا يقتضي ولايةً ولا عداوةً، وإنّما يقتضي الولاية ما له من الأفعال ظاهرٌ جميلٌ، ويقتضي العداوة ما له ظاهرٌ قبيحٌ.

فإن قال: أردتُ بالمحتمل ما له ظاهرٌ، لكنّه يجوز أن يكونَ الأمر بخلاف ظاهره.

١ـ الشّافي: «التّنكير».

٢ـ الشّافي: «الإقرار».

قيل له: ما ذكرتَه لا يسمّى محتمَلًا، فإن كنتَ عنيتَه فقد وضعتَ العبارة في غير موضعها، ولا شكّ في أنّه إذا كان ممّن لو أُخبرنا بأنّه فعل الفعل على أحد الوجهين لوجب تصديقُه وحمْل الفعل على خلاف ظاهره؛ فإنّ الواجب لِما تقرّر له في النّفوس أن يُتأوَّل له ويُعدَل بفعله عن الوجه القبيح إلى الوجه الجميل، إلّا أنّه متى توالتْ منه الأفعال الّتي لها ظواهرُ قبيحة، فلا بدّ أن تكون مؤثّرةً في تصديقه، متَى خُبّرنا بأنّ غرضَه في الفعل خلاف ظاهره، كما تكون مانعةً من الابتداء بالتّأوّل.

وضرْبه المثل «بأنّ مَن نراه يكلّم امرأةً حسناء في الطّريق إذا أخبَرأنّها أُخته أو امرأته في أنّ تصديقه واجب، ولو لم يُخبِربذلك لحملْنا كلامه لها على أجمل الوجوه، لِما تقدّم له في النّفوس» صحيح، إلّا أنّه لا بدّ من مراعاة ما تقدّم ذكره، من أنّه قد يقوَى الأمر لقوّة الأمارات والظّواهرإلى حدٍّ لا يجوز معه تصديقه ولا التّأوّل له، ولولا أنّ الأمر قد ينتهي إلى ذلك لَما صحّ أن يخرج أحدٌ عندنا من الولاية إلى العداوة، ولا من العدالة إلى خلافها، لأنّه لا شيء ممّا يفعله الفسّاق المتهتّكون إلّا ويجوز أن يكون له باطنٌ بخلاف الظّاهر، ومع ذلك فلا يلتفت إلى هذا التّجويز.

يبيّن صحّة ما ذكرناه أنّا لو رأينا من يُظَنّ به الخيريُكلّم امرأةً حسناء في الطّريق ويُداعِبها ويُضاحِكها لظَنَنّا به الجميل مرّة ومرّات، ثمّ ينتهي الأمرإلى ألّا نظنّه. وكذلك لو شاهدْناه وبحضْرته المنكَر، لحملْنا حضوره على الغلط أو الإكراه أو غيرذلك من الوجوه الجميلة. ثمّ لا بدّ من انتهاء الأمرإلى أن نظنّ به القبيح ولا نُصدِّقه في كلامه.

قال: ثمّ نقول[1] له: أخبِرْنا عَمّن شاهدناه من بُعْدٍ وهو مفترِشٌ امرأةً نعلم أنّها ليست له بمحرَم وأنّ لها في الحال زوجًا غيره، وهو ممّن تقرّرت له في النّفوس عدالةٌ متقدّمة، ماذا يجب أن نظنّ به؟ وهل نرجع بهذا الفعل عن ولايته، أم نحمله على أنّه غالطٌ ومتوهِّمٌ أنّ المرأة زوجته، أو على أنّه مكرَهٌ على الفعل، أو غيرذلك من الوجوه

١ـ ب: «ثمّ يقال».

الجميلة!

فإن قال: نرجع عن الولاية، اعترف بخلاف ما قصَده في الكلام، وقيل له: أيّ فَرْق بين هذا الفعل وبين جميع ما عدّدناه من الأفعال وادَّعيتَ أنّ الواجب أن نَعدِل عن ظاهرها؟ وما جواز الجميل في ذلك إلّا كجواز الجميل في هذا الفعل.

وإن قال: لا أرجع بهذا الفعل عن ولايته،[1] بل نؤوّله على بعض الوجوه الجميلة. قيل له: أرأيت لو تكرَّر هذا الفعل وتوالَى هو وأمثاله حتّى نشاهدَه حاضرًا في دور القمار ومجالس اللّهو واللّعب ونراه يشرب الخمر بعينها، وكلّ هذا ممّا يجوز أن يكون عليه مكرَهًا وفي أنّه القبيح بعينه غالطًا، أكان يجب علينا الاستمرار على ولايته أم العدول عنها؟ فإن قال: نستمرّ ونتأوّل، ارتكب ما لا شبهة في فساده، وألزم ما قد قدّمْنا ذكرَه من أنّه لا طريق إلى الرّجوع عن ولاية أحدٍ ولو شاهدْنا منه أعظمَ المناكير. و وقف أيضًا على أنّ طريق الولاية المتقدِّمة إذا كان الظّنّ دون القطع، فكيف لا نرجع عنها لمثل هذا الطّريق، فلا بدّ إذنْ من الرّجوع إلى ما بيّناه وفصّلناه في هذا الباب.

قال: فأمّا قوله: «إنّ قول الإمام له مزيّةٌ، لأنّه آكدُ من غيره» فلا معنى له؛ لأنّ قول الإمام على مذهبنا يجب أن يكون له مزيّة من حيث كان معصومًا مأمون الباطن وعلى مذهبه إنّما تثبت ولايته بالظّاهر كما تثبت ولاية غيره من سائر المؤمنين. فأيّ مزيّة له في هذا الباب!

وقوله: «إنّ ما يُنقَل عن الرّسول وإن لم يكن مقطوعًا عليه يؤثِّر في هذا الباب، ويكون أقوى ممّا تقدَّم» غير صحيح على إطلاقه؛ لأنّ تأثير ما يُنقَل إذا كان يقتضي غلبة الظّنّ لا شبهة فيه؛ فأمّا تقويتُه على غيره فلا وجه له، وقد كان يجب أن يبيّن من أيّ الوجوه يكون أقوى. فهذه جملة ما اعترض به المرتضى على الفصل الأوّل من كلام قاضي القضاة رحمه الله تعالى. (٢: ٣٢٨ـ٣٣٣)

١ـ الشافي: «الولاية».

واعلم أنّ الّذي ذكره المرتضى رحمه الله تعالى وأورده على قاضي القضاة[١] جَيّدٌ ولازمٌ، متى ادّعى قاضي القضاة أنّ العدالة إذا ثبتتْ ظنًّا أو قطعًا لم يجُز العدول عنها والتّبرّي إلّا بما يوجِب القطع، ويُعْلَم به علمًا يقينيًّا زوالُها.

فأمّا إذا ادّعى أنّ المعلوم لا يزول إلّا بما يوجِب العلم، فلا يَرِدُ عليه ما ذكره المرتضى رحمه الله تعالى، وله أن يقول: قد ثبتتْ بالإجماع إمامةُ عثمان، والإجماع دليلٌ قطعيٌّ عند أصحابنا ، وكلّ مَنْ ثبتتْ إمامتُه ثبتتْ عدالتُه بالطّريق الّتي بها ثبتتْ إمامته، لأنّه لا يجوز أن تكون إمامته معلومةً وشرائطها مظنونةٌ؛ لأنّ الموقوف على المظنون مظنونٌ، فتكون إمامته مظنونةً، وقد فرضناها معلومةً، وهذا خُلْف ومُحال. وإذا كانت عدالته معلومةً لم يجُز القول بانتفائها وزوالها إلّا بأمر معلوم.

والأخبار الّتي رُويتْ في أحداثه أخبارُ آحاد لا تفيد العلْم، فلا يجوز العدولُ عن المعلوم بها، فهذا الكلامُ إذا رُتّب هذا التّرتيب اندفعَ به ما اعترض به المرتضَى رحمه الله تعالى.

[بقيّة ردّ المرتضى على ما أورده القاضي عبد الجبّار من الدّفاع عن عثمان]

فأمّا كلام المرتضى[٢] رحمه الله تعالى على الفصل الثّاني من كلام قاضي القضاة، وهو الفصل المحكّي عن شيخنا أبي عليّ رحمه الله تعالى، فنحن نورده. قال رحمه الله تعالى[٣]:

١ـ انظرْ صفحة ٢٤ من الجزء الثّاني وما بعدها.

٢ـ تابعْ لما في الجزء الثّاني صفحة ٣٢٨ وما بعدها.

٣ـ الشّافي: ٢٦٦ وما بعدها؛ وعبارته في أوّل هذا الفصل: «فأمّا عدّ الأحداث الّتي نقمت عليه، فنحن نتكلّم عليها وعلى ما أورده من المعاذير فيها بمشيئة الله تعالى عند ذكره لذلك؛ فأمّا ما حكاه عن أبي عليّ من قوله: لو كان ما ذكره من الأحداث قادحًا ...». وانظرْ صفحة ٣٦٢ من الجزء الثّاني.

أمّا قوله: «لو كان ما ذُكر من الأحداث قادِحًا لوجب من الوقت الّذي ظهرتْ الأحداث فيه أن يطلبوا رجلًا ينصِبونه في الإمامة، لأنّ ظهور الحدَث كموته، فلمّا رأيناهم طلبوا إمامًا بعد قتْله دلّ على بطلان ما أضافوه إليه من الأحداث» فليس بشيء معتمَد؛ لأنّ تلك الأحداث وإن كانت مُزيلةً عندهم لإمامته وفاسخةً لها ومقتضيةً لأنْ يعقدوا لغيره الإمامة، إلّا أنّهم لم يكونوا قادرين على أن يتّفقوا على نَصْب غيره[1]، مع تشبّثه بالأمر، خوفًا من الفتنة والتّنازع والتّجاذب، وأرادوا أن يخلع نفسَه حتّى تزولَ الشّبهة وينشَط مَن يصلُح للأمر لقبول العَقد والتّكفّل بالأمر.

وليس يَجري ذلك مجرَى موته، لأنّ موته يَحسِم الطّمع في استمرار ولايته، ولا تَبقى شبهةٌ في خلوّ الزّمان من إمام. وليس كذلك حَدَثه الّذي يَسُوغ فيه التّأويل على بُعْده، وتَبقى معه الشّبهة في استمرار أمره. وليس نقولُ: إنّهم لم يتمكّنوا من ذلك كما سأل نفسَه، بل الوجه في عدولهم ما ذكرناه من إرادتهم حَسْم[2] الموادّ وإزالة الشّبهة وقطع أسباب الفتنة.

قال: فأمّا قوله: «إنّه معلوم من حال هذه الأحداث أنّها لم تحصُل أجمع في الأيّام الّتي حُصر فيها وقُتل، بل كانت تقعُ حالًا بعد حال. فلو كانت توجِب الخلْع والبراءة، لَما تأخّر من المسلمين الإنكارُ عليه، ولكان المقيمون من الصّحابة بالمدينة أَوْلى بذلك من الواردين من البلاد» فلا شكّ أنّ الأحداث لم تحصُل في وقت واحد، إلّا أنّه غير منكَر أن يكون نكيرُهم إنّما تأخّر؛ لأنّهم تأوّلوا ما ورد عليهم من أفعاله على أجمل الوجوه، حتّى زاد الأمر وتفاقَم، وبعُد التّأويل وتعذّر التّخريج، ولم يبقَ للظّنّ الجميل طريقٌ، فحينئذ أنكروا.

وهذا مستمرّ على ما قدّمنا ذكره، من أنّ العدالة والطّريقة الجميلة يُتأوّل لها في الفعل والأفعال القليلة، بحسب ما تقدّم من حُسْن الظّن به، ثمّ ينتهي الأمر[بعد

١ـ كذا في ا، ج، وفي ب والشّافي: «فإنّهم لم يقدموا على نصب غيره ...».

٢ـ ا: «لِحَسْم».

ذلك[١]] إلى بُعْد التّأويل والعمل على الظّاهر القبيح.

قال: على أنّ الوجه الصّحيح في هذا الباب أنّ أهل الحقّ كانوا معتقدين بخلْعه من أوّل حدَثٍ، بل معتقدين أنّ إمامته لم تثبت وقتًا من الأوقات، وإنّما منعهم من إظهار ما في نفوسهم ما قدّمناه من أسباب الخوف والتّقيّة، لأنّ الاعتذار بالوجَل[٢] كان عامًّا، فلمّا تبيَّن أمرُه حالًا بعد حال، وأعرضتْ الوجوهُ عنه، وقلّ العاذرُله، قويتْ الكلمة في خلعه. وهذا إنّما كان في آخر الأمر دون أوّلِه، فليس يقتضي الإمساك عنه إلى الوقت الّذي وقع الكلام فيه نِسبةُ الخطأ إلى الجميع، على ما ظنَّه.

قال: فأمّا دفْعه بأن تكون الأُمّة أجمعتْ على خلعه بخروجه[٣] نفسه وخروج مَن كان في حَيّزه عن القوم، فليس بشيء؛ لأنّه إذا ثبت أنّ مَن عداه وعدا عبيده والرُّهَيط من فُجّار أهله وفُسّاقهم، كمروان ومَن جرى مجراه، كانوا مجمعين على خلعه، فلا شبهة في أنّ الحقّ في غير حَيّزه، لأنّه لا يجوز أن يكون هو المصيب، وجميع الأُمّة مبطِلٌ.

وإنّما يُدّعى أنّه على الحقّ لمَن ينازع في إجماع مَن عداه، فأمّا مع التّسليم لذلك، فليس يبقَى شبهة، وما نجد مخالفينا يعتبرون في باب الإجماع بإجماع الشُّذّاذ والنّفر القليل الخارجين من الإجماع. ألا ترى أنّهم لا يحفِلون[٤] بخلاف سعْدٍ[٥] وأهله وولده في بيعة أبي بكر لقلّتهم وكثرة مَن بإزائهم، ولذلك لا يعتدون بخلاف مَن امتنع من بيعة

١ـ من كتاب الشّافي.

٢ـ كذا في ج، وفي حاشيتها: «يعني أكثر النّاس يعتذرون بالخوف»، وفي ا، ب: «لأنّ الإعذار بالرّجل»، وفي الشّافي: «لأن الاغترار بالرّجل».

٣ـ ب: «بإخراجه».

٤ـ يقال: لم يحفِل بالأمر إذا لم يبال به.

٥ـ هو سعد بن عُبادَة الأنصاريّ، وانظرْ حديث السّقيفة في تاريخ الطّبريّ (حوادث السّنة الحادية عشرة).

أمير المؤمنين عليه السلام ويجعلونه شاذًّا لا تأثير بخلافة،[١] فكيف فارقوا هذه الطّريقة في خلْع عثمان! وهل هذا إلّا تقلّبٌ وَتلوّنٌ!

قلت: أمّا إذا احتجّ أصحابُنا على إمامة أبي بكر بالإجماع، فاعتراض حُجّتهم بخلاف سعد و ولده وأهله اعتراضٌ جيّدٌ، وليس يقول أصحابنا في جوابه: هؤلاء شُذّاذٌ فلا نخفِل بخلافهم، وإنّما المعتبر بالكثرة الّتي بإزائهم. وكيف يقولون هذا، وحجّتهم الإجماع ولا إجماعَ!

ولكنّهم يُجيبون عن ذلك بأنّ سعدًا مات في خلافة عمر، فلم يبق مَن يخالف في خلافة عمر، فانعقد الإجماع عليها، وبايَع ولد سعد وأهله مِن قبل؛ وإذا صَحّت خلافة عمر صَحّت خلافة أبي بكر؛ لأنّها فرعٌ عليها، ومحال أن يصحّ الفرع ويكون الأصلُ فاسدًا، فهكذا يجيب أصحابُنا عن الاعتراض بخلاف سعد، إذا احتجّوا بالإجماع.

فأمّا إذا احتجّوا بالاختيار فلا يتوجّه نحوهم الاعتراض بخلاف سعد وأهله و ولده؛ لأنّه ليس من شرط ثبوت الإمامة بالاختيار إجماعُ الأُمّة على الاختيار، وإنّما يكفي فيه بيعة خمسة من أهل الحلّ والعقد على التّرتيب الّذي يرتّب أصحابُنا الدّلالة عليه، وبهذا الطّريق يثبت عندهم إمامةُ عليّ عليه السلام ولم يُحفَل بخلاف معاوية وأهل الشّام فيها.

قال رحمه الله تعالى: فأمّا قوله «إنّ الصّحابة كانت بيْن فريقيْن: مَن نصره[٢] كزيد ابن ثابت وابن عمر وفلان وفلان، والباقون ممتنعون انتظارًا لزوال العارض، ولأنّه ما ضيق عليهم الأمر في الدّفع عنه» فعجيب، لأنّ الظّاهر أنّ أنصاره هم الّذين كانوا معه في الدّار، يقاتلون عنه[٣] ويدفعون الهاجمين عليه.

فأمّا مَن كان في منزله ما أغنى عنه فتيلًا، فلا يعدّ ناصرًا، وكيف يجوز ممّن أراد

١ـ ا، ج: «لا تأثير له».

٢ـ الشّافي: «من ينصره».

٣ـ ب: «يقاتلون غيره».

نُصْرته وكان معتقِدًا لصوابه وخطأ المطالبين له بالخلع، أن يتوقّف عن النّصرة طلبًا لزوال العارض! وهل تُراد النّصرة إلّا لدفع العارض! وبعد زواله لا حاجة إليها! وليس يحتاج في نصرته إلى أن يضيّق هو عليهم الأمر فيها، بل مَن كان معتقدًا لها لا يحتاج حمْله إلى إذنه فيها، ولا يَحفِل بنهيه عنها لأنّ المنكَر ممّا قد تقدّم، أمر الله تعالى بالنّهي عنه، فليس يحتاج في إنكاره إلى أمر غيره.

قال: فأمّا زيد بن ثابت، فقد رُوي ميلُه إلى عثمان، وما يغني ذلك وبإزائه جميعُ المهاجرين والأنصار! ولميله إليه سببٌ معروف، فإنّ الواقديّ روَى في «كتاب الدّار» أنّ مروان بن الحكم لمّا حُصر عثمان الحصْر الآخر، أتَى زيدَ بن ثابت فاستَصحبه إلى عائشة ليكلّمها في هذا الأمر، فمضيا إليها وهي عازمةٌ على الحجّ، فكلّماها في أن تُقيم وتَذُبّ عنه، فأقبلتْ على زيد بن ثابت فقالت: وما منعك يا بن ثابت ولك الأساويف قد اقتطعكها[1] عثمان، ولك كذا وكذا، وأعطاك عثمان من بيت المال عشرة آلاف دينارًا! قال زيد: فلم أرجعْ عليها حرفًا واحدًا، وأشارت إلى مروان بالقيام، فقام مروان وهو يقول:

حــرَّق قَــيْسٌ عَــلَيَّ البــلا دَ حــتّى إذا اضــطرمَتْ أجــذَما[2]

فنادتْه عائشة، وقد خرج من العتبة: يا بن الحكم، أ عليَّ تمثِّل الأشعار! قد والله سمعتُ ما قلتَ، أ تراني في شكٍّ من صاحبك! والّذي نفسي بيده، لوددت أنّه الآن في غِرارةٍ من غرائري مَخيطٍ عليه، فأُلقيه في البحر الأخضر. قال زيد بن ثابت: فخرجنا مِن عندها على اليأس منها[3].

١ـ الشّافي: «قد قطعها».

٢ـ الإجذام: الإقلاع، والبيت للرّبيع بن زياد، من أبيات في الحماسة ٢: ٤٨٤ـ ٤٨٧ بشرح المرزوقيّ. وفي الشّطر الأول من البيت زحاف بالخرم؛ وهو جائز في أوّل المتقارب والطّويل، ورواية اللّسان : «وحرق» بلا خرم. وقيس هو ابن زياد العبسيّ.

٣ـ الشّافي: «على النّاس».

وروى الواقديّ أنّ زيد بن ثابت اجتمع عليه عِصابة من الأنصار، وهو يدعوهم إلى نُصرة عثمان. فوقف عليه جَبَلة بن عمرو بن حَبّة المازنيّ، فقال له: وما يمنعُك يا زيدُ أن تذُبّ عنه؟ أعطاك عشرة آلاف دينار وحدائق من نخل لم تَرِثْ عن أبيك مثل حديقة منها.

فأمّا ابن عمر فإنّ الواقديّ روى أيضًا عنه أنّه قال: والله ما كان فينا إلّا خاذلٌ أو قاتلٌ. والأمر على هذا أوضحُ من أن يُخفى.

فأمّا ما ذكره من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام، فإنّما أنفذهما ـ إن كان أنفذَهما ـ ليمنعا من انتهاك حريمه وتعمُّد قتله ومنْع حَرَمِه[1] ونسائه من الطّعام والشّراب، ولم يُنفِذهما ليمنعا من مطالبته بالخَلع. وكيف وهو عليه السلام مصرّحٌ بأنّه يستحقّ بأحداثه الخلع، والقوم الّذين سعوْا في ذلك، إليه كانوا يغدُون ويروحون، ومعلوم منه ضرورةً أنّه كان مساعِدًا على خلعه ونقض أمره، لا سيّما في المرّة الأخيرة.

فأمّا ادّعاؤه أنّه عليه السلام لعَن قتلتَه، فهو يعلم ما في هذا من الرّوايات المختلفة الّتي هي أظهر من هذه الرّواية، وإن صحّتْ فيجوز أن تكون محمولةً على لعْن مَن قتله متعمِّدًا قتْله، قاصدًا إليه، فإنّ ذلك لم يكن لهم.

فأمّا ادّعاؤه أنّ طلحة رجَع لمّا ناشَده عثمان يوم الدّار، فظاهرُ البطلان وغير معروف في الرّواية. والظّاهر المعروف أنّه لم يكن على عثمان أشدَّ من طلحة ولا أغلظَ منه.

قال: ولو حكيْنا من كلامه فيه ما قد رُوي، لأفنينا قطعةً كثيرةً من هذا الكتاب. وقد رُوي أنّ عثمان كان يقول يوم الدّار: اللّهمّ اكفِني طلحة، ويكرّر ذلك عِلْمًا بأنّه أشدُّ القوم عليه. ورُوي أنّ طلحة كان عليه يومَ الدّار دِرْعٌ وهو يُرامي النّاس ولم ينزعْ عن القتال حتّى قتل الرّجل[2].

١ـ ب: «حَريمُه»، وما أثبته من ا، وكتاب الشّافي.

٢ـ ب: «الرّجال»، وما أثبته عن ا، ج، وكتاب الشّافي.

فأمّا ادّعاؤه الرّواية عن رسول الله ﷺ: «ستكون فتنةٌ، وإنّ عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى» فهو يعلم أنّ هذه الرّواية الشّاذّة لا تكون في مقابله المعلوم ضرورةً من إجماع الأُمّة على خَلعه وخَذله، وكلام وجوه المهاجرين والأنصار فيه، وبإزاء هذه الرّواية ما يملأ الطُّروس عن النّبيّ ﷺ وغيره، ممّا يتضمّن ما تضمّنَتْه.

ولو كانت هذه الرّواية معروفةً لكان عثمان أوْلى النّاس بالاحتجاج بها يوم الدّار، وقد احتَجّ عليهم بكلّ غثٍّ وسمينٍ. وقبْل ذلك لَما خُوصِم وطُولِب بأن يخلع نفسه، ولاحتَجّ بها عنه بعض أصحابه وأنصاره. وفي علْمنا بأنّ شيئًا من ذلك لم يكن، دلالةٌ على أنّها مصنوعةٌ موضوعةٌ.

فأمّا ما رواه عن عائشة من قولها: «قُتل والله مظلومًا» فأقوال عائشة فيه معروفة ومعلومة. وإخراجُها قميصَ رسول الله ﷺ وهي تقول: «هذا قميصه لم يَبْلَ، وقد أبْلَى عثمانُ سنّتَه» إلى غير ذلك ممّا لا يُحصى كثرةً. فأمّا مدحُها له وثناؤُها عليه، فإنّما كانا عَقيب علْمها بانتقال الأمر إلى مَن انتقل إليه، والسّبب فيه معروفٌ، وقد وقفت عليه، وقُوبل بين كلامها فيه متقدّمًا ومتأخّرًا.

فأمّا قوله: «لا يمتنع أن يتعلّق بأخبار الآحاد في ذلك لأنّها في مقابلة ما يدّعونه ممّا طريقه أيضًا الآحاد» فواضح البطلان؛ لأنّ إطباق الصّحابة وأهل المدينة ـ إلّا مَن كان في الدّار معه على خلافه؛ فإنّهم كانوا بين مجاهدٍ ومقاتلٍ مبارز، وبين متقاعدٍ خاذل ـ معلومٌ ضرورةً لكلّ مَن سمع الأخبار. وكيف يُدّعى أنّها من جهة الآحاد حتّى يعارض بأخبار شاذّة نادرة! وهل هذا إلّا مكابرة ظاهرة!

فأمّا قوله: «إنّا لا نَعدِل عن ولايته بأُمورٍ محتمَلة» فقد مضى الكلام في هذا المعنى وقلنا: إنّ المحتمل هو ما لا ظاهر له، ويتجاذبه أُمورٌ محتملة، فأمّا ما له ظاهرٌ فلا يسمّى محتملًا وإن سمّاه بهذه التّسمية، فقد بيّنّا أنّه ممّا يُعدَل من أجله عن الولاية وفصّلنا ذلك تفصيلًا بيّنًا.

وأمّا قوله: «إنّ للإمام أن يجتهد برأيه في الأُمور المنوطة به، ويكون مُصيبًا وإن أفضتْ إلى عاقبةٍ مذمومة»، فأوّل ما فيه أنّه ليس للإمام ولا غيره أن يجتهد في

الأحكام، ولا يجوز أن يعمل فيها إلّا على النّصّ، ثمّ إذا سلّمنا الاجتهاد فلا شكّ أنّ هاهنا أُمورًا لا يسوغ فيها الاجتهاد، حتّى يكون مَن خبّرنا عنه بأنّه اجتهد فيها غير مصوّب[١]، وتفصيل هذه الجملة يبيّن عند الكلام على ما تعاطاه من الأعذار عن أحدائه[٢] على جهة التّفصيل.

قلت: الكلام في هذا الموضع على سبيل الاستقصاء إنّما يكون في الكتب الكلاميّة المبسوطة في مسألة الإمامة، وليس هذا موضع ذاك. ولكن يكفي قاضي القضاة أن يقول: قد ثبت بالإجماع صحّة إمامة عثمان، فلا يجوز الرّجوع عن هذا الإجماع إلّا بإجماع معلوم على خَلعه وإباحة قتله. ولم يُجمِع المسلمون على ذلك، لأنّه قد كان بالمدينة مَن يُنكر ذلك وإن قَلّوا، وقد كان أهلُ الأمصار يُنكرون ذلك كالشّام والبصرة والحجاز واليمن ومكّة وخراسان وكثير من أهل الكوفة، وهؤلاء مُسلمون، فيجب أن تُعتبَر أقوالهم في الإجماع. فإذا لم يدخلوا فيمن أجْلَب عليه، لم ينعقد الإجماع على خلعه ولا على إباحة دمه، فوجب البقاءُ على ما اقتضاه الإجماع الأوّل. (٣: ٣ـ١١)

[إضطراب الأمر على عثمان ثمّ أخبار مقتله]

ويجب أن نذكر في هذا الموضع ابتداءَ اضطراب الأمر على عثمان إلى إن قُتل. وأصحّ ما ذُكر في ذلك ما أورده أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ في «التّاريخ»[٣].

وخلاصة ذلك أنّ عثمان أحدث أحداثًا مشهورة نَقِمها النّاس عليه، من تأمير بني أُميّة، ولا سيّما الفسّاقُ منهم وأربابُ السَّفَه وقلّة الدّين، وإخراجِ مال الفيء إليهم، وما جرى في أمر عَمّار وأبي ذرّ وعبد الله بن مسعود، وغير ذلك من الأُمور الّتي

١ـ كذا في الأُصول، وفي كتاب الشّافي: «غير مصدّق».

٢ـ الشّافي: «في أحدائه».

٣ـ في حوادث ٣٣ـ٣٥، مع تصرّف واختصار في جميع ما أورده في هذا الفصل.

جرتْ في أواخر خلافته.

ثمّ اتّفق أنّ الوليد بن عُقْبة لمّا كان عامله على الكوفة وشُهد عليه بشرْب الخمر، صرفه وولّى سعيد بن العاص مكانه. فقدم سعيد الكوفة، واستخلص من أهلها قومًا يسمُرون عنده.

فقال سعيد يومًا: إنّ السّواد بستانٌ لقريش وبني أُميّة. فقال الأشتر النّخعيّ: وتزعمُ أنّ السّواد الّذي أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستانٌ لك ولقومك! فقال صاحب شُرْطته: أ تردّ على الأمير مقالته! وأغلظ له.

فقال الأشتر لمَن كان حوله من النَّخَع وغيرهم من أشراف الكوفة: ألا تسمعون! فوثبوا عليه بحضرة سعيد فوطِئوه وطأً عنيفًا وجَرّوا برجْله، فغلُظ ذلك على سعيد وأبعد سُمّارَه فلم يأذن بعدُ لهم. فجعلوا يشتِمون سعيدًا في مجالسهم، ثمّ تعدّوا ذلك إلى شتم عثمان، واجتمع إليهم ناسٌ كثير، حتّى غلُظ أمرُهم. فكتبَ سعيد إلى عثمان في أمرهم، فكتب إليه أن يسيّرهم إلى الشّام، لئلّا يُفسِدوا أهل الكوفة. وكتب إلى معاوية وهو والي الشّام: إنّ نفرًا من أهل الكوفة قد همُّوا بإثارة الفتنة، وقد سيّرتُهم إليك، فانْهَهُم؛ فإن آنستَ منهم رشدًا فأحسنْ إليهم واردُدْهم إلى بلادهم.

فلمّا قَدِموا على معاوية ـ وكانوا: الأشتر، ومالك بن كعب الأرْحَبيّ، والأسود بن يزيد النّخعيّ، وعلقمة بن قيس النّخعيّ، وصعصعة بن صُوحان العبديّ، وغيرهم ـ جمعَهم يومًا وقال لهم: إنّكم قوم من العرب، ذوو أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفًا، وغلبتم الأُمم، وحوَيتم مواريثهم. وقد بلغني أنّكم ذممتم قريشًا، ونقِمتم على الولاة فيها. ولولا قريشٌ لكنتم أذِلّة، إنّ أئمّتكم لكم جُنّة، فلا تفرّقوا عن جُنّتكم، إنّ أئمّتكم ليصبرون لكم على الجوْر، ويحتملون منكم[1] العقاب، والله لتنتهُنّ أو ليبتليَنّكم الله بمَن يسومكم الخسف، ولا يحمَدكم على الصّبر، ثمّ تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرّعيّة في حياتكم وبعد وفاتكم.

١ـ كذا في ا، ج، وفي ب: «فيكم».

فقال له صعصعة بن صُوحان: أمّا قريش فإنّها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعَها في الجاهليّة، وإنّ غيرها من العرب لأكثرُ منها كان وأمنع.

فقال معاوية: إنّك لخطيب القوم، ولا أرى لك عقلًا، وقد عرفتُكم الآن وعلمتُ أنّ الّذي أغراكم قلّةُ العقول. أ عَظُمَ عليكم أمرُ الإسلام فتُذكّرني الجاهليّة! أخزَى الله قومًا عظّموا أمرَكم! افقهوا عنّي ولا أظنّكم تفقهون؛ إنّ قريشًا لم تعِزّ في جاهليّة ولا إسلام إلّا بالله وحده، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدّها، ولكنّهم كانوا أكرمَهم أحسابًا، وأمحضَهم[1] أنسابًا، وأكملَهم مروءةً، ولم يمتنعوا في الجاهليّة ـ والنّاس يأكل بعضهم بعضًا ـ إلّا بالله، فبوّأهم حرمًا آمنًا يُتخطّف النّاس مِن حولهم.

هل تعرفون عربًا أو عجمًا أو سودًا أو حمرًا إلّا وقد أصابهم الدّهر في بلدهم وحرمهم، إلّا ما كان مِن قريش؛ فإنّه لم يُرِدْهم أحدٌ من النّاس بكيد إلّا جعل الله خدّه الأسفل، حتّى أراد الله تعالى أن يستنقذ مَن أكرمه باتّباع دينه مِن هوان الدّنيا وسُوء مردّ الآخرة، فارتضى لذلك خيرَ خلقه، ثمّ ارتضى له أصحابًا وكان خيارُهم قريشًا.

ثمّ بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم، فلا يصلُح الأمر إلّا بهم، وقد كان الله يحُوطهم في الجاهليّة وهم على كفرهم. أ فتراه لا يحوطهم وهم على دينه! أفٍّ لك ولأصحابك!

أمّا أنت يا صعصعة، فإنّ قرْيتك شرُّ القرى! أنتَنُها نَبْتًا وأعمقُها واديًا وألأمُها جيرانًا وأعرفُها بالشّر، لم يسكنها شريفٌ قطّ ولا وضيعٌ إلّا سُبّ بها، نُزّاع الأُمم وعبيد فارس. وأنت شرّ قومك! أ حين أبرزك الإسلام وخلَطك بالنّاس، أقبلتَ تبغي دين الله عوجًا وتنزع إلى الغواية! إنّه لن يضرّ ذلك قريشًا ولا يضعهم ولا يمنعهم مِن تأدية ما عليهم. إنّ الشّيطان عنكم لَغير غافل، قد عرّفكم بالشّرّ فأغراكم بالنّاس وهو صارعكم، وإنّكم لا تُدرِكون بالشّرّ أمرًا إلّا فُتح عليكم شرٌّ منه وأخزى. قد أذنتُ لكم

١ـ يقال: عربيّ محض، أي خالص النّسب.

فاذهبوا حيث شئتم، لا ينفع الله بكم أحدًا أبدًا ولا يضرّه، ولستم برجال منفعة ولا مضرّة. فإن أردتم النّجاة فالزَموا جماعتَكم، ولا تُبطِرنّكم النّعمة فإنّ البَطَر لا يجرّ خيرًا. اذهبوا حيث شئتم فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

وكتب إلى عثمان: إنّه قَدِم عليّ قوم ليست لهم عقول ولا أديان. أضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء ولا يتكلّمون بحجّة. إنّما همّهم الفتنة، والله مبتليهم ثمّ فاضِحهم، وليسوا بالّذين نخاف نكايتَهم، وليسوا الأكثر ممّن له شَغَب ونكير. ثمّ أخرجهم من الشّام[١].

وروى أبو الحسن المدائنيّ: أنّه كان لهم مع معاوية بالشّام مجالس طالت فيها المحاورات والمخاطبات بينهم، وأنّ معاوية قال لهم في جملة ما قاله: إنّ قريشًا قد عرفتْ أنّ أبا سفيان كان أكرمها وابنَ أكرمها، إلّا ما جعل الله لنبيّه صلّى الله عليه، فإنّه انتجبه[٢] وأكرمه، ولو أنّ أبا سفيان ولَد النّاس كلّهم لكانوا حلماء[٣].

فقال له صعصعة بن صُوحان: كذبتَ! قد ولدهم خيرٌ من أبي سفيان! مَن خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا له، فكان فيهم البرّ والفاجر والكيّس والأحمق[٤].

قال: ومن المجالس الّتي دارت بينهم، أنّ معاوية قال لهم: أيّها القوم، ردُّوا خيرًا أو اسكتوا. وتفكّروا وانظروا فيما ينفعكم والمسلمين فاطلبوه وأطيعوني. فقال له صعصعة: لستَ بأهل ذلك! ولا كرامة لك أن تُطاع في معصية الله.

فقال: إنّ أوّل كلام ابتدأتُ به أنْ أمرتُكم بتقوى الله وطاعة رسوله وأن تعتصموا

١ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ٨٧ـ ٨٨.

٢ـ انتجبه: اصطفاه واختاره، وفي الطّبريّ: «انتخبه».

٣ـ عبارة الطّبريّ: «ولو ولد الناس لم يلد إلّا حازمًا».

٤ـ الطّبريّ ٥: ٨٩.

بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا[١]. فقالوا: بل أمرتَ بالفُرقة وخلاف ما جاء به النّبيّ ﷺ.

فقال: إن كنتُ فعلت فإنّي الآن أتوب، وآمرُكم بتقوى الله وطاعته ولزوم الجماعة، وأن توقِّروا أئمّتكم وتُطيعوهم. فقال صعصعة: إن كنتَ تُبْت فإنّا نأمرك أن تعتزِل عملك[٢]؛ فإنّ في المسلمين مَن هو أحقُّ به منك، ممّن كان أبوه أحسنَ أثرًا في الإسلام من أبيك، وهو أحسنُ قَدَمًا في الإسلام منك.

فقال معاوية: إنّ لي في الإسلام لقدمًا، وإن كان غيري أحسنَ قدمًا منّي. لكنّه ليس في زماني أحدٌ أقوى على ما أنا فيه منّي. ولقد رأى عمر بن الخطّاب ذلك، فلو كان غيري أقوى منّي لم يكن عند عمر هَوادةٌ لي ولا لغيري، ولم أحدِث[٣] ما ينبغي له أنْ أعتزِل عملي. فلو رأى ذلك أميرُ المؤمنين لكتب إليّ [بخطّ يده[٤]] فاعتزلت عمله. فمهلًا فإنّ في دون ما أنتم فيه ما يأمر فيه الشّيطان وينهى. ولعَمْري لو كانت الأُمور تُقضَى على رأيكم وأهوائكم ما استقام الأمر لأهل الإسلام يومًا ولا ليلةً؛ فعاودوا الخيرَ وقُولوه، فإنّ الله ذو سَطَوات. وإنّي خائف عليكم أن تَتَتابعوا إلى مطاوعة الشّيطان ومعصية الرّحمن، فيُحِلّكم ذلك دارَ الهون في العاجل والآجل.

فوثبوا على معاوية فأخذوا برأسه ولحيته، فقال: مه! إنّ هذه ليست بأرض الكوفة. والله لو رأى أهل الشّام ما صنعتم بي [وأنا إمامهم] ما ملكتُ أن أنهاهم عنكم حتّى يقتلوكم، فلعمري إنّ صنيعكم يُشبِه بعضُه بعضًا.

ثمّ قام من عندهم، وكتب إلى عثمان في أمرهم،[٥] فكتب إليه أنْ رُدّهم إلى سعيد

١ـ في الأُصول: «فقال»، وصوابه من الطّبريّ.

٢ـ كذا في ا، ج، وفي ب: «أمرك».

٣ـ ب. «ولا حدث».

٤ـ من الطّبريّ.

٥ـ ذكر الطّبريّ كتاب معاوية إلى عثمان، وهذا نصّه: «بسم الله الرّحمن الرّحيم. لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان. أمّا بعد، يا أمير المؤمنين! فإنّك بعثت إليّ أقوامًا يتكلّمون بألسنة الشّياطين وما

ابن العاص بالكوفة. فرَدّهم، فأطلقوا ألسنتهم في ذمّه وذمّ عثمان وعيبهما. فكتب إليه عثمان أن يسيّرهم إلى حِمْص، إلى عبد الرّحمن بن خالد بن الوليد، فسيّرهم إليها[1].

وروى الواقديّ، قال: لمّا سِيرَ بالنَّفر الّذين طردهم عثمان عن الكوفة إلى حِمْص ـ وهم: الأشتر، وثابت بن قيس الهَمْدانيّ، وكُمَيل بن زياد النّخعيّ، وزيد بن صُوحان، وأخوه صعصعة، وجندَب[2] بن زهير الغامديّ، وجندَب بن كعب الأزْدِيّ، وعروة بن الجَعْد، وعمرو بن الحمِق الخزاعيّ، وابن الكَوّاء ـ جمعهم عبد الرّحمن بن خالد بن الوليد، بعد أن أنزلهم أيّامًا وفرض لهم طعامًا، ثمّ قال لهم: يا بني الشّيطان، لا مرحبًا بكم ولا أهلًا. قد رجع الشّيطان محسورًا، وأنتم بَعْدُ في بساط ضلالكم وغَيّكم! جزى الله عبد الرّحمن إنْ لم يؤذِكم!

يا معشر مَن لا أدري أعربٌ هم أم عجم! أ تراكم تقولون لي ما قلتم لمعاوية! أنا ابن خالد بن الوليد! أنا ابن مَن عجَمتْه العاجمات، أنا ابن فاقئ عين الرِّدّة. والله يا ابن صُوحان لأَطيرنّ بك طَيْرَة بعيده المهوَى، إن بلَغني أنّ أحدًا ممّن معي دقّ أنفك فأقنعتَ[3] رأسك.

قال: فأقاموا عنده شهرًا. كلّما ركب أمشاهم معه، ويقول لصعصعة: يا بن

يُملون عليهم، ويأتون النّاس ـ زعموا ـ من قِبل القرآن، فيشبهون على النّاس، وليس كلّ النّاس يعلم ما يريدون، وإنّما يريدون فرقة ويقربون فتنة. قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكّنت رُقَى الشّيطان من قلوبهم. فقد أفسدوا كثيرًا من النّاس ممّن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولستُ آمن إن أقاموا وسط أهل الشّام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم؛ فاردُدْهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم في مصرهم الّذي نجم فيه نفاقهم. والسّلام».

١ـ الطّبريّ ٥: ٨٩ـ٩٠.

٢ـ ا، ج: «حبيب»، وما أثبته من ب والطّبريّ.

٣ـ أقنعتَ رأسك: رفعتها.

الخطيئة، إنّ مَن لم يصلحْه الخير أصلحه الشّرّ! ما لك لا تقول كما كنتَ تقول لسعيد ومعاوية! فيقولون: سنتوب إلى الله، أقِلْنا أقالك الله! فما زال ذاك دأبه ودأبهم حتّى قال: تاب الله عليكم. فكتب إلى عثمان يسترضيه عنهم ويسأله فيهم، فردّهم إلى الكوفة.[١]

قال أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ رحمه الله تعالى: ثمّ إنّ سعيد بن العاص قَدِم على عثمان سنة إحدى عشرة من خلافته. فلمّا دخل المدينة اجتمع قومٌ من الصّحابة، فذكروا سعيدًا وأعماله وذكروا قَرابات عثمان وما سوّغهم من مال المسلمين وعابوا أفعال عثمان. فأرسلوا إليه عامر بن عبد القيس ـ وكان متألّهًا[٢]، واسم أبيه عبد الله، وهو من تميم، ثمّ من بني العَنبَر ـ فدخل على عثمان، فقال له: إنّ ناسًا من الصّحابة اجتمعوا ونظروا في أعمالك، فوجدوك قد رَكِبتَ أُمورًا عِظامًا، فاتّق الله وتبْ إليه. فقال عثمان: انظروا إلى هذا! تزعم النّاس أنّه قارئ، ثمّ هو يجيء إليّ فيكلّمني فيما لا يعلمه! والله ما تدري أين الله! فقال عامر: بلَى والله إنّي لأدري أنّ الله لَبالمرصاد[٣].

فأخرجه عثمان، وأرسل إلى عبد الله بن سعْد بن أبي سَرْح وإلى معاوية وسعيد ابن العاص وعمرو بن العاص وعبد الله بن عامر ـ وكان قد استقدم الأُمراء من أعمالهم ـ فشاورهم وقال: إنّ لكلّ أميرٍ وزراء ونصحاء، وإنّكم وزرائي ونُصحائي وأهل ثقتي، وقد صنع النّاس ما قد رأيتم وطلَبوا إليّ أن أعزِل عُمّالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبّون، فاجتهِدُوا رأيَكم.

فقال عبد الله بن عامر: أَرى لك يا أمير المؤمنين أن تَشغَلهم عنك بالجهاد حتّى

١ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ٨٧ـ٩٠.

٢ـ المتألّه: المتعبّد المتنسّك.

٣ـ في الطّبريّ: «فإن ربّك بالمرصاد لك؛ فأرسل عثمان إلى معاوية بن سفيان ...».

يَذِلّوا لك، ولا تكون هِمّة أحدهم إلّا في نفسه وما هو فيه من دَبَر دابّته[١] وقَمَل فَرْوته.

وقال سعيد بن العاص: احسِمْ عنك الدّاء واقطَعْ عنك الّذي تخاف؛ إنّ لكلّ قوم قادة، مَتى يَهْلِكوا يتفرّقوا ولا يجتمع لهم أمرٌ. فقال عثمان: إنّ هذا لهو الرّأي لولا ما فيه.

وقال معاوية: أُشيرُ عليك أن تأمُر أُمراء الأجْناد، فيكفيَك كلّ رجل منهم ما قِبَله، فأنا أكفيك أهل الشّام.

وقال عبد الله بن سعد: إنّ النّاس أهلُ طمعٍ، فأعطِهم مِن هذا المال تعطِفْ عليك قلوبُهم.

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين؛ إنّك قد ركبت النّاس[٢] ببني أُميّة، فقلت وقالوا، وزغت وزاغوا، فاعتدلْ أو اعتزلْ، فإن أبيْتَ فاعزِمْ عزمًا، وامض قُدُمًا.

فقال له عثمان: ما لك قَبَّلَ فَرْوُك! أ هذا بجدٍّ[٣] منك! فسكت عمرو حتّى تفرّقوا، ثمّ قال: والله يا أمير المؤمنين، لأنت أكرمُ عليّ من ذلك؛ ولكنّي علمت أنّ بالباب مَن يبلّغ النّاس قول كلّ رجلٍ منّا، فأردت أن يبلُغَهم قولي فيثقوا بي، فأقود إليك خيرًا وأدفع عنك شرًّا.

فردّ عثمان عُمّاله إلى أعمالهم وأمرهم بتجهيز النّاس في البُعوث، وعزَم على أن يحرِمَهم أَعطياتهم ليُطيعوه.

ورَدّ سعيدَ بن العاص إلى الكوفة، فتلقّاه أهلها بالجَرَعة[٤] ـ وكانوا قد كرِهوا إمارته وذمّوا سيرته ـ فقالوا له: ارجعْ إلى صاحبك، فلا حاجة لنا فيك. فهمّ بأن يَمضي لوجهه ولا يرجع، فكثُر النّاس عليه، فقال له قائل: ما هذا! أ تردّ السّيلَ عن أدراجه!

١ـ الدَّبَرة، بالتّحريك: قرحة الدّابّة والبعير، وجمعها دبَرٌ، بفتحين.

٢ـ عبارة الطّبريّ: «قد ركبتَ النّاس بما يكرهون».

٣ـ الطّبريّ: «أ هذا الجدّ منك!».

٤ـ الجَرَعة، بالتّحريك، وقيل بسكون الرّاء: موضع قرْب الكوفة، بين النّجفة والحيرة.

والله لا يُسكِّن الغوغاء إلّا المَشرَفيَّة[١]، ويوشِك أن تُنتضَى بعد اليوم، ثمّ يتمنّوْن ما هم اليوم فيه، فلا يردّ عليهم. فارجعْ إلى المدينة، فإنّ الكوفة ليست لك بدارٍ.

فرجع إلى عثمان فأخبره بما فعلوا، فأنفذ أبا موسى الأشعريّ أميرًا على الكوفة وكتب إليهم: أمّا بعد، فقد أرسلتُ إليكم أبا موسى الأشعريّ أميرًا، وأعفيتُكم من سعيد. و والله لأُقوِّضنّكم عِرْضي، ولأبذلنّ لكم صبري، ولأستصلِحنّكم جَهْدي، فلا تَدَعُوا شيئًا أحببتموه لا يُعصى اللهُ فيه إلّا سألتموه، ولا شيئًا كرهتموه لا يُعصَى الله فيه إلّا استعفيتم منه، لأكون فيه عند ما أحببتُم وكرهتم؛ حتّى لا يكون لكم على الله حجّة. والله لَنصبِرنّ كما أُمِرْنا، وسيجزي الله الصّابرين[٢].

قال أبو جعفر: فلمّا دخلت سنةُ خمسٍ وثلاثين، تكاتَب أعداءُ عثمان وبني أُميّة في البلاد، وحرَّض بعضهم بعضًا على خَلع عثمان عن الخلافة وعَزل عُمّاله عن الأمصار، واتّصل ذلك بعثمان، فكتب إلى أهل الأمصار: أمّا بعد، فإنّه رُفع إليّ أنّ أقوامًا منكم يَشتِمهم عمّالي ويضربونهم، فمَن أصابه شيء من ذلك فليوافِ الموسمَ بمكّة، فليأخذْ بحقّه منّي أو من عمّالي فإنّي قد استقدمتُهم، أو تصدّقوا فإنّ الله يجزي المتصدّقين.

ثمّ كاتب عمّاله واستقدَمهم، فلمّا قَدِموا عليه جمَعهم وقال: ما شِكايةُ النّاس منكم؟ إنّي لخائفٌ أن تكونوا مصدوقًا عليكم، وما يُعْصَبُ هذا الأمرُ إلّا بي. فقالوا له: والله ما صدَق مَن رفَع إليك ولا برّ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلًا. فقال عثمان: فأشيروا عليّ.

فقال سعيد بن العاص: هذه أُمورٌ مصنوعة تُلقى في السّرّ، فيَتحدّث بها النّاس، ودواء ذلك السّيف. وقال عبد الله بن سعد: خذْ من النّاس الّذي عليهم، إذا أعطيتَهم الّذي لهم. وقال معاوية: الرّأي حسنُ الأدب. وقال عمرو بن العاص: أرى

١ـ المشرفيّة: السّيوف المنسوبة إلى مشارف، قرى قرْب حوران.

٢ـ الطّبريّ: ٥: ٩٤ـ٩٦.

لك أن تَلزَم طريق صاحبَيْك، فتلينَ [في] موضع اللّين، وتشتدّ [في][1] موضع الشّدّة.

فقال عثمان: قد سمعتُ ما قلتم. إنّ الأمر الّذي يُخاف على هذه الأُمّة كائنٌ لا بدّ منه، وإنّ بابه الّذي يُغلَق عليه لَيُفتَحنّ، فكفكِفوهم[2] باللّين والمداراة إلّا في حدود الله. فقد علِم الله أنّي لم آلُ النّاس خيرًا، وإنّ رَحَى الفتنة لدائرةٌ، فطُوبى لعثمان إن مات ولم يحرّكْها! سكّنوا النّاس و هَبوا لهم حقوقَهم[3]، فإذا تُعوطيت حقوقُ الله فلا تداهنوا فيها[4].

ثمّ نفَر فقدِم المدينة، فدعا عليًّا وطلحة والزّبير، فحضروا وعنده معاوية. فسكت عثمان ولم يتكلّم، وتكلّم معاوية فحمِد الله وقال: أنتم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه، وخِيرته مِن خلقه، و ولاةُ أمرِ هذه الأُمّة. لا يطمع فيه أحدٌ غيرُكم، اخترتم صاحبَكم عن غير غلَبة ولا طمع، وقد كَبِرْ و وَلّى عمرُه، فلو انتظرتُم به الهَرَم كان قريبًا؛ مع أنّي أرجو أن يكون أكرمَ على الله أن يبلِّغه ذلك، وقد فَشَتْ مقالةٌ خِفْتُها عليكم، فما عِبْتم فيه من شيء فهذه يدي لكم به رَهْنًا[5]. فلا تُطمِعوا النّاس في أمركم، فو الله إن أطمعتموهم لا رأيتُم أبدًا منها إلّا إدبارًا.

فقال عليّ عليه السلام: وما لَك وذاك لا أُمّ لك! فقال: دعْ أُمّي فإنّها ليست بشرّ أُمّهاتكم، قد أسلمتْ وبايعتْ النّبيّ صلّى الله عليه، وأجِبني عمّا أقول لك.

فقال عثمان: صدق ابنُ أخي، أنا أُخبركم عنّي وعمّا وَلِيت. إنّ صاحِبَيّ اللّذَيْن كانا قبلي ظلَما أنفسَهما ومَن كان منهما بسبيلٍ احتسابًا. وإنّ رسول الله صلّى الله

١ـ تكملة من الطّبريّ.

٢ـ كفكِفوهم: اصرفوهم.

٣ـ في الأُصول: «حقوقكم»، وما أثبته عن الطّبريّ.

٤ـ المداهنة: المصانعة، وفي الطّبريّ وج: «فلا تُدهِنوا»، والإدهان: المصانعة.

٥ـ الطّبريّ: «كبرتْ سنّه».

٦ـ كلمة «رهنًا» ساقطةٌ من الطّبريّ.

عليه كان يعطي قرابته، وأنا في رهطٍ أهل عَيْلة وقلّة معاش، فبسطتُ يدي في شيء من ذلك لمّا أقومُ به فيه؛ فإن رأيتم ذلك خطأً فرُدّوه، فأمري لأمركم تَبَع.

قالوا: أصبتَ وأحسنتَ؛ إنّك أعطيت عبد الله بن خالد بن أسِيد خمسين ألفًا وأعطيت مروان خمسة عشر ألفًا، فاستعِدْها منهما. فاستعادها، فخرجوا راضين.[١]

قال أبوجعفر: وقال معاوية لعثمان: اخرُجْ معي إلى الشّام، فإنّهم على الطّاعة قبل أن يهجُم عليك ما لا قِبَل لك به. فقال: لا أبيعُ جوارَ رسول الله صلّى الله عليه بشيء، وإن كان فيه [قطع][٢] خيْط عنقي. قال: فأبعثُ إليك جندًا من الشّام يُقيم معك لنائبةٍ إن نابت [المدينة أو إيّاك]. فقال: لا أُضيّقُ على جيران رسول الله صلّى الله عليه. فقال: والله لَتُغتالَنّ. فقال: حسبي الله ونعم الوكيل[٣].

قال أبوجعفر: وخرج معاوية من عند عثمان، فمرّ على نَفر من المهاجرين، فيهم عليّ عليه السلام وطلحة والزّبير، وعلَى معاويةَ ثياب سفره، وهو خارج إلى الشّام، فقام عليهم فقال: إنّكم تعلَمون أنّ هذا الأمر كان النّاس يتغالَبون عليه، حتّى بعث الله نبيّه، فتفاضلوا بالسّابقة والقُدْمة والجهاد. فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم والنّاس لهم تَبَع، وإن طلبوا الدّنيا بالتّغالُب سُلِبوا ذلك وردّه الله إلى غيرهم، وإنّ الله على البَدَل لقادر. وإنّي قد خلّفت فيكم شيخنا، فاستوصوا به خيرًا وكانفوه، تكونوا أسعد منه بذلك. ثمّ ودّعهم ومضى. فقال عليّ عليه السلام: كنتُ أرى في هذا خيرًا. فقال الزّبير: والله ما كان أعظَم قطّ في صدرك وصدورنا منه اليوم.

قلت: مِن هذا اليوم، أنسَب معاوية أظفاره في الخلافة، لأنّه غلب على ظنّه قتْل عثمان ورأى أنّ الشّام بيده وأنّ أهلها يطيعونه وأنّ له حجّة يَحتجّ بها عليهم ويَجعلها ذريعةً إلى غرضه، وهي قتْل عثمان إذا قُتل، وأنّه ليس في أُمراء عثمان أقوى منه ولا

١ـ الطّبريّ: ٥: ٩٩ـ١٠١.

٢ـ تكملةٌ من الطّبريّ.

٣ـ الطّبريّ: ٥: ١٠١.

أقدر على تدبير الجيوش واستمالة العرب، فبنَى أمْرَه من هذا اليوم على الطّمع في الخلافة.

ألا ترى إلى قوله لصعصعة من قبل: إنّه ليس أحدٌ أقوى منّي على الإمارة، وإنّ عمر استعمَلني ورَضي سيرتي! أ ولا ترى إلى قوله للمهاجرين الأوّلين: إن شرعتُم في أَخْذها بالتّغالب ومِلتم على هذا الشّيخ، أخرجها الله منكم إلى غيركم! وهو على الاستبدال قادر. وإنّما كان يعني نفسَه، وهو يَكني عنها، ولهذا تَربّص[1] بنصرة عثمان لمّا استنصره ولم يبعث إليه أحدًا.

وروى محمّد بن عمر الواقديّ رحمه الله تعالى، قال: لمّا أجلَب النّاس على عثمان وكثُرت القالة فيه، خرج ناسٌ من مِصر، منهم عبد الرّحمن بن عُدَيْس البلويّ، وكنانة ابن بِشْر اللّيثيّ، وسُودان بن حُمْران السَّكُونيّ، وقتيرة بن وهب السَّكْسَكِيّ وعليهم جميعًا أبو حرب الغافقيّ، وكانوا في ألفيْن. وخرج ناسٌ من الكوفة، منهم زيد بن صُوحان العبديّ، ومالك الأشتر النّخعيّ، وزياد بن النَّضْر الحارثيّ، وعبد الله بن الأصمّ الغامديّ، في ألفيْن. وخرج ناسٌ من أهل البصرة، منهم حُكَيم بن جَبَلة العبْديّ، وجماعة من أُمرائهم، وعليهم حُرقُوص بن زهير السّعديّ، وذلك في شوّال من سنة خمس وثلاثين، وأظهروا أنّهم يُريدون الحجّ.

فلمّا كانوا من المدينة على ثلاث، تقدّم أهل البصرة فنزلوا ذا خُشُب[2] ـ وكان هواهم في طلحة. وتقدّم أهل الكوفة فنزلوا الأعوَص[3] ـ وكان هواهم في الزّبير. وجاء أهل مصر فنزلوا المرْوة[4] ـ وكان هواهم في عليّ عليه السلام. ودخل ناسٌ منهم إلى المدينة يَخبرون ما في قلوب النّاس لعثمان، فلَقوا جماعةً من المهاجرين والأنصار ولَقوا أزواج النّبيّ صلى الله عليه وآله

١ـ تَربّص: قعد ولم ينصره.

٢ـ ذو خُشُب: وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة.

٣ـ أعوص: موضعٌ قرب المدينة على أميال منها.

٤ـ المرْوة: جبلٌ بمكّة ينتهي إليه السّعي من الصّفا.

وقالوا: إنّما نريد الحجّ ونستعفِي من عمّالنا.

ثمّ لَقِي جماعة من المصريّين عليًّا عليه السلام، وهو متقلّدٌ سيفَه عند أحجار الزَّيت[1]، فسلّموا عليه وعرَضوا عليه أمرَهم، فصاح بهم وطردهم وقال: لقد عَلم الصّالحون أنّ جيش المروة وذي خُشُب والأعوص، مَلعونون على لسانِ محمّد صلى الله عليه فانصرفوا عنه.

وأتى البصريّون طلحة، فقال لهم مثل ذلك. وأتى الكوفيّون الزّبير فقال لهم مثل ذلك، فتفرّقوا وخرجوا عن المدينة إلى أصحابهم. فلمّا أمِن أهل المدينة منهم واطمأنُّوا إلى رُجوعهم لم يشعروا إلّا والتّكبيرُ في نواحي المدينة، وقد نزلوها وأحاطوا بعثمان ونادى مناديهم: يا أهل المدينة، مَن كَفّ يده عن الحرب فهو آمنٌ. فحصَروه في منزله، إلّا أنّهم لم يمنعوا النّاس من كلامه ولقائه، فجاءهم جماعة من رؤساء المهاجرين وسألوهم: ما شأنُهم؟ فقالوا: لا حاجة لنا في هذا الرّجل، لِيَعتَزِلْنا لنُولّيَ غيرَه، لم يزيدوهم على ذلك.

فكتب عثمان إلى أهل الأمصار، يستنجدهم ويأمرهم بتعجيل السُّخوص إليه للمنع عنه، ويعرِّفهم ما النّاس فيه. فخرج أهل الأمصار على الصّعْب والذّلول، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهريّ، وبعث عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح معاوية بن حُدَيج، وخرج من الكوفة القَعْقاع بن عمرو، بعثه أبو موسى.

وقام بالكوفة نفرٌ يحرِّضون النّاس على نصر عثمان وإعانة أهل المدينة، منهم عُقْبة بن عمرو وعبد الله بن أبي أَوْفى وحنظلة الكاتب، وكلّ هؤلاء من الصّحابة، ومن التّابعين مَسروق والأسود وشُرَيح وغيرهم.

وقام بالبصرة عِمران بن الحُصين وأنس بن مالك وغيرهما من الصّحابة، ومن التّابعين كعب بن سُور[2] وهَرِم بن حَيّان وغيرهما. وقام بالشّام ومصر جماعة من

١ـ أحجار الزّيت: موضعٌ بالمدينة.

٢ـ في الأُصول: «شور»، وصوابه من الطّبريّ والقاموس.

الصّحابة والتّابعين.

وخرَج عثمان يوم الجمعة فصلّى بالنّاس وقام على المنبر فقال: يا هؤلاء، اللهَ اللهَ، فو الله إنّ أهل المدينة يَعلمون أنّكم ملعونون على لسان محمّد صلّى الله عليه، فامحوا الخطأ بالصّواب.

فقام محمّد بن مَسلَمة الأنصاريّ، فقال: نعم أنا أعلم ذلك، فأقعده حُكَيم بن جَبَلة. وقام زيد بن ثابت فأقعده قُتيرة بن وهب. وثار القوم فحصَبوا النّاس حتّى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتّى صُرِع عن المنبر مغشيًّا عليه، فأُدخِلَ دارَه. واستقتل نفرٌ من أهل المدينة مع عثمان، منهم سعد بن أبي وَقّاص والحسن ابن عليّ عليهما السلام وزيد بن ثابت وأبو هريرة، فأرسل إليهم عثمان: عزمتُ عليكم أن تنصرفوا، فانصرفوا.

وأقبَل عليّ وطلحة والزّبير، فدخلوا على عثمان يعودونه من صَرْعَته، ويشكون إليه ما يجدُون لأجله. وعند عثمان نفرٌ من بني أُميّة، منهم مروان بن الحكم، فقالوا لعليّ عليه السلام: أهلكتَنا وصنعت هذا الّذي صنعت! والله إن بلغتَ هذا الأمر الّذي تريده لتَمرَّنّ عليك الدّنيا، فقام مغضَبًا وخرج الجماعة الّذين حضروا معه إلى منازلهم[1].

وروى الواقديّ، قال: صلّى عثمان بعد ما وثبوا به في المسجد شهرًا كاملًا، ثمّ منعوه الصّلاة، وصلّى بالنّاس أميرُهم الغافقيّ.

وروى المدائنيّ، قال: كان عثمان محصورًا محاطًا به، وهو يصلّي بالنّاس في المسجد، وأهلُ مصر والكوفة والبصرة الحاضرون له يصلّون خَلفه، وهم أدقُّ في عينه من التّراب.

قال أبو جعفر في التّاريخ: ثمّ إنّ أهل المدينة تفرّقوا عنه ولزِموا بيوتهم، لا يخرج أحد منهم إلّا بسيفه يمتنع به، فكان حصاره أربعين يومًا.

وروى الكلبيّ والواقديّ والمدائنيّ: أنّ محمّد بن أبي بكر ومحمّد بن أبي حذيفة كانا

١ـ تاريخ الطّبريّ: ٥: ١٠٥ـ١٠٦.

بمصر يحرّضان النّاس على عثمان، فسار محمّد بن أبي بكر مع مَن سار إلى عثمان وأقام محمّد بن أبي حذيفة بمصر. ثمّ غلَب عليها لمّا سار عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح عامل عثمان عنها إلى المدينة في أثر المصريّين، بإذن عثمان له. فلمّا كان بأيْلة، بلغه أنّ المصريّين قد أحاطوا بعثمان وأنّه مقتول، وأنّ محمّد بن أبي حذيفة قد غلب على مصر. فعاد عبد الله إلى مصر، فمُنع عنها، فأتى فلسطين، فأقام بها حتّى قُتل عثمان[1].

وروى الكلبيّ، قال: بعث عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح رسولًا من مصر إلى عثمان يخبره بنهوض مَن نهض من مصر إليه، وأنّهم قد أظهروا العُمْرة وقصدُهم خَلعه أو قتله، فخطب عثمان النّاس وأعلمهم حالهم وقال: إنّهم قد أسرعوا إلى الفتنة واستطالوا عُمْري. والله إن فارقتُهم ليتمنَّيّنّ كلٌّ منهم أنّ عمري كان طال عليهم مكان كلّ يوم سنة، ممّا يرون من الدّماء المسفوكة والإحَن والأثَرة الظّاهرة والأحكام المغيّرة[2].

وروى أبو جعفر، قال: كان عمرو بن العاص ممّن يحرّض على عثمان ويُغري به، ولقد خطب عثمان يومًا في أواخر خلافته، فصاح به عمرو بن العاص: اتّق الله يا عثمان، فإنّك قد ركبت أمورًا وركبناها معك، فتبْ إلى الله نَتُبْ! فناداه عثمان! وإنّك هاهنا يا بن النّابغة! قَمِلَتْ والله جُبّتُك منذ نزعتُك عن العمل. فنودي من ناحية أُخرى: تبْ إلى الله، ونودي من أُخرى مثل ذلك، فرفع يديْه إلى السّماء وقال: اللّهمّ إنّي أوّل التّائبين! ثمّ نزل.

وروى أبو جعفر، قال: كان عمرو بن العاص شديد التّحريض والتّأليب على عثمان، وكان يقول: والله إن كنتُ لألقَى الرّاعي فأُحرّضه على عثمان، فضلًا عن الرّؤساء والوجوه. فلمّا سُعّر السّرّ بالمدينة، خرج إلى منزله بفلسطين، فبيْنا هو بقصره ومعه ابناه: عبد الله ومحمّد، وعندهم سَلامة بن روح الجُذاميّ، إذ مرّ بهم راكبٌ مِن

١ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ١٢٢.

٢ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ١٠٩.

المدينة فسألوه عن عثمان، فقال: محصور، فقال عمرو: أنا أبو عبد الله، العَيْر قد يضرِط والمكواة في النّار. ثمّ مرّ بهم راكبٌ آخر، فسألوه، فقال: قُتل عثمان، فقال عمرو: أنا أبو عبد الله، إذا نكأتُ قَرْحَةً أدميتُها، فقال سلامة بن روح: يا معشر قريش، إنّما كان بينكم وبين العرب باب فكَسرتموه، فقال: نعم أردنا أن يخرُج الحقّ من خَاصِرة الباطل، ليكون النّاس في الأمر شَرَعًا سواء[1].

وروى أبو جعفر، قال: لمّا نزل القوم ذا خُشُب يريدون قتْل عثمان إن لم ينزعْ عمّا يكرهون وعلم عثمان ذلك، جاء إلى منزل عليّ عليه السلام فدخل وقال: يا بن عَمّ، إنّ قرابتي قَريبة، ولي عليك حقٌّ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مُصَبِّحي، ولك عند النّاس قَدْر، وهم يسمعون منك، وأُحِبّ أنْ تركب إليهم فتردّهم عنّي، فإنّ في دخولهم عليّ وهْنًا لأمري وجُرْأَةً عليّ. فقال عليه السلام: على أيّ شيء أردّهم؟ قال: على أن أصيرَ إلى ما أشرتَ به ورأيتَه لي. فقال عليّ عليه السلام: إنّي قد كلّمتك مرّةً بعد أُخرى، فكلّ ذلك تخرج وتقول وتَعِد ثمّ ترجع! وهذا مِن فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد، فإنّك أطعتَهم وعصيتَني! قال عثمان: فإنّي أعصيهم و أُطيعُك.

فأمَر عليّ عليه السلام النّاس أن يركبوا معه، فركب ثلاثون رجلًا من المهاجرين والأنصار؛ منهم سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وأبو جَهْم العدويّ، وجُبير بن مُطعِم، وحَكِيم ابن حِزام، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وعبد الرّحمن بن عتّاب بن أسِيد. ومن الأنصار أبو أسَيْد السّاعديّ، وزيد بن ثابت، وحسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وغيرهم.

فأتوا المصريّين فكلّموهم، فكان[2] الّذي يكلّمهم عليٌّ ومحمّد بن مَسْلمة، فسمعوا منهما ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر. ورجع عليّ عليه السلام حتّى دخل على عثمان، فأشار

١ـ نفس المصدر.

٢ـ ا، ج: «وكان».

عليه أن يتكلّم بكلام يسمعه النّاس منه، ليسكنوا إلى ما يعدهم به من النُّزوع[١] وقال له: إنّ البلاد قد تمخّضتْ عليك، ولا آمنُ أنّه يجيء رَكْب من جهة أُخرى، فتقول لي: يا عليّ، اركبْ إليهم، فإن لم أفعلْ رأيتَني قد قطعتُ رحمك واستخففتُ بحقّك.

فخرج عثمان، فخطب الخطبة الّتي نزَع فيها، وأعطى النّاس من نفسه التّوبة وقال لهم: أنا أوّل مَن اتّعظ، وأستغفرالله عمّا فعلتُ وأتوب إليه، فمُثلى نزع وتاب. فإذا نزلتُ فلْيأتني أشرافُكم فلْيرُوْن رأيهم، ولْيذكّر كلّ واحد ظُلامته، لأكشفَها وحاجته لأقضيَها. فوالله لئن ردّني الحقّ عبدًا لأستنّ بسنّة العبيد، ولأذلّنّ ذُلّ العبيد، وما عن الله مذهب إلّا إليه، والله لأُعطيكم الرّضا، ولأُنحّينّ مروانَ وذويه، ولا أحتجب عنكم.

فرَقَّ النّاس له وبَكوْا حتّى خَضّلوا لَحاهم، وبكى هو أيضًا. فلمّا نزل وجد مروان وسعدًا ونفرًا من بني أُميّة في منزله قعودًا لم يكونوا شهدوا خطبته ولكنّها بلغتْهم. فلمّا جلس قال مروان: يا أمير المؤمنين، أ أتكلّم أم أسكتُ؟ فقالت نائلة ابنةُ الفَرافصة امرأة عثمان: لا بل تسكت، فأنتم والله قاتِلوه ومُيَتّموا أطفاله. إنّه قد قال مقاله لا ينبغي له أن ينزع عنها. فقال لها مروان: وما أنتِ وذاك! والله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضّأ! فقالتْ: مهلًا يا مروان عن ذكر أبي إلّا بخيرٍ؛ والله لولا أنّ أباك عمُّ عثمان وأنّه يناله غَمّه وعيبه، لأخبرتُك مِن أمره بما لا أكذب فيه عليه.

فأعرض عنه عثمان ثمّ عاد فقال: يا أمير المؤمنين، أ أتكلّم أم أسكتُ؟ فقال: تكلّمْ، فقال: بأبي أنت وأُمّي! والله لَوَدِدْتُ أنّ مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع، فكنتُ أوّلَ مَن رَضي بها وأعان عليها، ولكنّك قلتَ ما قلت، وقد بلغ الحِزَامُ الطُّبْيَين، وجاوز السّيلُ الزُّبَى،[٢] وحين أعطى الخُطّة الذّليلة الذّليل؛ والله لإقامةٌ على خَطيئة تُستغفر

١ـ نزَع عن الأمر نزوعًا: انتهى منه.

٢ـ «جاوز الحِزام الطُّبْيَين» مثَلٌ، يقال لمواضع الأخلاف من النّاقة أطْباء، واحدها طِبْي، بضمّ الطّاء وكسرها، فإذا بلغ الحزام الطّبيين فقد انتهى في المكروه. ومثله جاوز السَّيل الزُّبَى. والزّبى: جمع زُبية؛ وهي مصيدة الأسد؛ ولا تتّخذ إلّا في قلّة أو هضبة أو رابية.

الله منها، أجملُ من توبة تُخوّف عليها؛ ما زدتَ على أن جَرّأتَ عليك النّاس.

فقال عثمان: قد كان من قولي ما كان، وإنّ الفائِت لا يُرَدّ، ولم آلُ خيرًا. فقال مروان: إنّ النّاس قد اجتمعوا ببابك أمثالَ الجبال، قال: ما شأنُهم؟ قال: أنتَ دعوتهم إلى نفسك؛ فهذا يذكر مظلِمةً، وهذا يطلب مالًا، وهذا يسأل نزعَ عاملٍ من عُمّالك عنه، وهذا ما جَنيْتَ عَلَى خلافتك. ولو استمسكتَ وصبرتَ كان خيرًا لك. قال: فاخرُجْ أنت إلى النّاس فكلِّمْهم فإنّي أستحيي أن أُكلِّمهم وأردَّهم.

فخرج مروان إلى النّاس، وقد رَكِب بعضُهم بعضًا، فقال: ما شأنُكم؟ قد اجتمعتُم كأنّكم جئتم لنَهْب، شاهت الوجوه![1] أ تريدون أن تنزِعوا مُلْكًا من أيدينا! اعزُبوا عنّا، والله إن رُمْتُمونا لَنُمِرَّنَّ عليكم ما حلا، ولنُحِلَّنّ بكم ما لا يَسُرّكم، ولا تَحْمدوا فيه غِبّ[2] رأيكم. ارجِعوا إلى منازلكم، فإنّا والله غيرُ مغلوبين على ما في أيدينا.

فرجع النّاس خائبين يشتِمون عثمان ومروان، وأتى بعضُهم عليًّا عليه السلام فأخبره الخبر فأقبل عليّ عليه السلام على عبد الرّحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزّهريّ، فقال: أ حضرتَ خطبة عثمان؟ قال: نعم. قال: أ حضرتَ مقالة مروان للنّاس؟ قال: نعم. فقال: أي عبادَ الله، يا لله للمسلمين! إنّي إن قعدتُ في بيتي قال لي: تركتَني وخذلتني! وإن تكلّمتُ فبلّغتُ له ما يريد جاء مروان فتلعّب به حتّى قد صار سِيقةً[3] له، يسوقه حيث يشاء بعد كِبَر السّنّ وصحبته الرّسول صلّى الله عليه. وقام مُغضبًا من فَوْرِه حتّى دخل علَى عثمان، فقال له: أ ما يرضى مروان منك إلّا أن يحرِفك عن دينك وعقلك! فأنتَ معه كجمل الظَّعينة، يُقاد حيث يُسارُ به. والله ما مروان بذي رأيٍ في دينه ولا عقله، وإنّي لأراه يُوردِك ثمّ لا يُصدِرك. وما أنا عائدٌ بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أفسدتَ شرفَك وغُلبت علَى رأيك. ثمّ نَهَض.

١ـ شاهت الوجوه: قبحت.

٢ـ غبّ رأيكم، أي عاقبة رأيكم.

٣ـ سيقةً له، أي مسوقًا.

فدخلتْ نائلة بنت الفَرافصة، فقالت: قد سمعتَ قول عليٍّ لك، وإنّه ليس براجعٍ إليك ولا معاودٍ لك، وقد أطعتَ مروان يقودُك حيث يشاء. قال: فما أصنعُ؟ قالت: تَـتّقِي الله وتتّبع سنّة صاحبيْك. فإنّك متى أطعتَ مروان قتَلك، وليس لمروان عند النّاس قَدْر ولا هيْبة ولا محبّة، وإنّما تركَكَ النّاس لمكانه وإنّما رجع عنك أهلُ مصر لقول عليٍّ، فأرسِلْ إليه فاستصلِحْه، فإنّ له عند النّاس قَدَمًا، وإنّه لا يُعصَى.

فأرسَلَ إلى عليٍّ فلم يأته وقال: قد أعلمتُه أنّي غير عائد[1].

قال أبوجعفر: فجاء عثمانُ إلى عليٍّ بمنزله ليلًا، فاعتذر إليه و وعد من نفسه الجميل وقال: إنّي فاعل وإنّي غير فاعل. فقال له عليّ عليه السلام: أ بَعْد ما تكلّمتَ على منبر رسول الله صلّى الله عليه وأعطيتَ من نفسك ثمّ دخلتَ بيتك وخرج مروان إلى النّاس يشتِمهم على بابك! فخرج عثمان من عنده وهو يقول: خذلتَني يا أبا الحسن! وجَرّأت النّاس عليّ! فقال عليّ عليه السلام: والله إنّي لأكثرُ النّاس ذَبًّا عنك، ولكنّي كلّما جئت بشيء أظنّه لك رضًا، جاء مروان بغيره فسمعتَ قوله وتركتَ قولي.

ولم يغْدُ عليٌّ إلى نصر عثمان، إلى أن مُنع الماء لمّا اشتدّ الحِصار عليه، فغضب عليٌّ من ذلك غضبًا شديدًا وقال لطلحة: أدخِلوا عليه الرّوايا، فكره طلحة ذلك وساءه. فلم يزل عليّ عليه السلام حتّى أدخل الماء إليه[2].

وروى أبو جعفر أيضًا أنّ عليًّا عليه السلام كان في ماله بخيبر لمّا حُصر عثمان، فقَدِم المدينة والنّاس مجتمعون على طلحة، وكان لطلحةَ في حصار عثمان أثرٌ. فلمّا قَدِم عليّ عليه السلام أتاه عثمان وقال له: أمّا بعد؛ فإنّ لي حقَّ الإسلام وحقَّ الإخاء والقرابة والصِّهر، ولو لم يكن من ذلك شيء وكنّا في جاهليّة، لكان عارًا على بني عبد مناف أن يبتزَّ بنو تَيم أمْرهم ـ يعني طلحة ـ فقال له عليّ: أنا أكفيك، فاذهبْ أنت.

ثمّ خرج إلى المسجد فرأى أُسامة بن زيد، فتوكّأ على يده حتّى دخل دار طلحة

١ـ تاريخ الطبريّ ٥: ١١١ـ١١٢.

٢ـ تاريخ الطبريّ ٥: ١١٢.

وهي مملوءةٌ من النّاس، فقال له: يا طلحة، ما هذا الأمر الّذي صنعتَ بعثمان؟ فقال: يا أبا حسن، أ بعد أن مَسّ الحُزام الطُّبْيَين! فانصرف عليّ عليه السلام حتّى أتى بيت المال، فقال: افتحوه. فلم يجدوا المفاتيح، فكسَر الباب وفرّق ما فيه علَى النّاس. فانصرف النّاس من عند طلحة حتّى بَقِي وحده، وسُرّ عثمان بذلك. وجاء طلحة فدخل علَى عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي أردتُ أمرًا فحال الله بيني وبينه، وقد جئتك تائبًا. فقال: والله ما جئتَ تائبًا ولكن جئت مغلوبًا، الله حسيبُك يا طلحة!

قال أبوجعفر: كان عثمان مستضعفًا، طمع فيه النّاس، وأعان على نفسه بأفعاله وباستيلاء بني أُميّة عليه. وكان ابتداء الجرأة عليه أنّ إبلًا من إبل الصّدَقة قُدِم بها عليه، فوهبها لبعض ولد الحَكَم بن أبي العاص، فبلغ ذلك عبد الرّحمن بن عَوف، فأخذها وقسّمها بين النّاس وعثمان في داره، فكان ذلك أوّل وَهَنٍ دخل على خلافة عثمان.

وقيل: بل كان أوّل وَهَنٍ دخل عليه، أنّ عثمان مَرّ بجَبَلة بن عمرو السّاعديّ، وهو في نادي قومه، وفي يده جامعة، فسلّم فردّ القوم عليه. فقال جَبَلة: لِمَ تردُّون على رجلٍ فعل كذا وفعل كذا! ثمّ قال لعثمان: والله لأطرحنّ هذه الجامعة في عُنُقك أو لتتركنّ بِطانَتَك هذه الخبيثة: مروان، وابن عامر، وابن أبي سَرْح، فمنهم مَنْ نَزَل القرآن بذمّه، ومنهم من أباح رسول الله صلّى الله عليه دمه[1].

وقيل: أنّه خطَب يومًا وبيده عصا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وأبو بكر وعمر يخطبون عليها، فأخذها جَهْجَاه الغِفاريّ من يده وكسَرها على ركْبته. فلمّا تكاثرتْ أحداثه وتكاثَر طمع النّاس فيه، كتب جمعٌ من أهل المدينة من الصّحابة وغيرهم إلى مَن بالآفاق: إنّكم كنتم تُريدون الجهاد، فهلُمّوا إلينا؛ فإنّ دين محمّد قد أفسده خليفتُكم فاخلعوه. فاختلفتْ عليه القلوب، وجاء المصريّون وغيرهم إلى المدينة حتّى حدث ما حدث.

١ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ١١٤.

وروى الواقديّ والمدائنيّ وابن الكلبيّ وغيرهم، وذكره أبو جعفر في التّاريخ، وذكره غيره من جميع المؤرّخين: أنّ عليًّا عليه السلام لمّا ردّ المصريّين، رجَعوا بعد ثلاثة أيّام، فأخرَجوا صحيفة في أُنبُوبة رَصاص، وقالوا: وجدنا غلام عثمان بالموضع المعروف بالبُوَيْب[1] على بعير من إبل الصّدقة، ففتشنا متاعه لأنّا استربْنا أمره، فوجدنا فيه هذه الصّحيفة. ومضمونها أمْر عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح بجلْد عبد الرّحمن بن عُدَيس وعمرو بن الحمِق، وحلْق رؤوسهما ولحاهما وحبْسهما وصلْب قوم آخرين من أهل مصر.

وقيل: إنّ الّذي أُخِذتْ منه الصّحيفة أبو الأعور السّلميّ، وإنّهم لمّا رأوه وسألوه عن مسيره وهل معه كتاب؟ فقال: لا، فسألوه: في أيّ شيء هو؟ فتغيّر كلامه، فأخذوه وفتّشوه وأخذوا الكتاب منه وعادوا إلى المدينة. وجاء النّاس إلى عليّ عليه السلام وسألوه أن يدخل إلى عثمان فيسأله عن هذه الحال. فقام فجاء إليه فسأله، فأقسَم بالله ما كتبتُه ولا علمتُه ولا أمرتُ به. فقال محمّد بن مسلمة: صدَق، هذا مِن عمل مروان. فقال: لا أدري، وكان أهل مصر حضورًا.

فقالوا: أ فيجترئُ عليك ويبعث غلامَك على جمل من إبل الصّدقة، وينقُش على خاتمك، ويبعث إلى عاملك بهذه الأُمور العظيمة، وأنت لا تدري؟ قال: نعم. قالوا: إمّا صادق أو كاذب؛ فإن كنتَ كاذبًا فقد استحقَقْت الخلع لِما أمرتَ به من قتْلنا وعقوبتنا بغير حقّ. وإن كنتَ صادقًا فقد استحقَقْت الخلع لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخبث بِطانتك. ولا ينبغي لنا أن نتركَ هذا الأمر بيَد مَن تقطع الأُمور دونه لضعفه وغفلته، فاخلعْ نفسك منه. فقال: لا أنزِع قميصًا أَلبَسنيه الله، ولكنّي أتوب وأنزِع. قالوا: لو كان هذا أوّل ذنب تبتَ منه لقبلنا، ولكنّا رأيناك تتوب ثمّ تعود، ولسْنا بمنصرفين حتّى نخلعَك أو نقتلَك أو تلحقَ أرواحُنا بالله، وإن منعك أصحابُك وأهلك، قاتلناهم حتّى نخلص إليك. فقال: أمّا أنْ أبرأ من خلافة الله، فالقتلُ أحبُّ إليّ من

١ـ البُوَيب: مدخل أهل الحجاز إلى مصر.

ذلك! وأمّا قتالُكم مَن يمنعُ عَنّي، فإنّي لا آمرُ أحدًا بقتالكم، فمَن قاتَلكم فبغير أمري قاتَل. ولو أردتُ قتالكم لكتبتُ إلى الأجناد فقَدِموا عليّ، أو لحقتُ ببعض الأطراف. وكثرت الأصوات واللّغط، فقام عليٌّ فأخرج أهل مصر معه، وخرج إلى منزله.

قال أبوجعفر: وكتب عثمان إلى معاويةَ وابنِ عامر وأُمراء الأجناد، يستنجدهم ويأمر بالعَجَل والبِدار وإرسال الجنود إليه، فترتّبَص به معاوية، فقام في أهل الشّام يَزيد بن أسد القَسْرِي جدّ خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق، فتبِعه خَلْقٌ كثير، فسار بهم إلى عثمان، فلمّا كانوا بوادي القُرَى بلَغهم قتْل عثمان، فرجعوا.

وقيل: بل أشخص معاوية من الشّام حبيبَ بن مسلمة الفِهريّ، وسار من البصرة مُجاشع بن مسعود السّلميّ. فلمّا وصلوا الرَّبذة[1] ونزلت مقدّمتهم الموضع المسمّى صِرارًا[2] بناحية المدينة أتاهم قتْل عثمان، فرجعوا.

وكان عثمان قد استشار نُصحاءه في أمره، فأشاروا أن يرسل إلى عليّ عليه السلام يطلب إليه أن يردّ النّاس ويعطيَهم ما يرضيهم ليطاولهم حتّى تأتيه الأمداد، فقال: إنّهم لا يقبلون التّعليل، وقد كان منّي في المرّة الأُولى ما كان. فقال مروان: أعطِهم ما سألوك وطاوِلهم ما طاوَلوك، فإنّهم قوم قد بغَوْا عليك ولا عهدَ لهم.

فدعا عليًّا عليه السلام وقال له: قد تَرى ما كان من النّاس، ولستُ آمنُهم على دمي، فاردُدْهم عَنّي، فإنّي أُعْطِيهم ما يُريدون من الحقّ من نفسي ومن غيري. فقال عليٌّ: إنّ النّاس إلى عَدْلك أحوجُ منهم إلى قتلك، وإنّهم لا يرضوْن إلّا بالرّضا، وقد كنتَ أعطيتَهم مِن قبلُ عهدًا فلم تفِ به، فلا تغرّر في هذه المرّة، فإنّي معطيهم عنك الحقّ. قال: أعطِهم فو الله لأفِيَنّ لهم.

فخرج عليّ عليه السلام إلى النّاس، فقال: إنّكم إنّما تطلبون الحقّ، وقد أُعطِيتموه، وإنّه مُنصِفكم من نفسه. فسأله النّاس أن يستوثقَ لهم وقالوا: إنّا لا نَرضَى بقول دون

١ـ الرَّبذة: من قرى المدينة على ثلاثة أميال منها، بها قبر أبي ذرّ الغفاريّ.

٢ـ صِرار: موضعٌ قريبٌ من المدينة، على طريق العراق.

فعل. فدخل عليه فأعلمه، فقال: اضربْ بيني وبين النّاس أجلًا، فإنّي لا أقدر على تبديل ما كرهوا في يوم واحد. فقال عليّ عليه السلام: أمّا ما كان بالمدينة فلا أجلَ فيه، وأمّا ما غاب فأجلُه وصولُ أمرك. قال: نعم، فأجّلْني فيما بالمدينة ثلاثة أيّام. فأجابه إلى ذلك، وكتب بينه وبين النّاس كتابًا على ردّ كلّ مظلِمة، وعزْل كلّ عامل كرهوه. فكفّ النّاس عنه، وجعل يتأهّب سرًّا للقتال ويستعدّ بالسّلاح واتّخذ جُندًا. فلمّا مضت الأيّام الثّلاثة ولم يغيّر شيئًا، ثار به النّاس وخرج قوم إلى مَن بذي خُشُب من المصريّين، فأعلموهم الحال، فقَدِموا المدينة، وتكاثَر النّاس عليه، وطلبوا منه عزْل عمّاله وردّ مظالمهم، فكان جوابُه لهم: إنّي إن كنت أستعمِل مَن تريدون لا مَن أُريد، فلستُ إذنْ في شيء من الخلافة، والأمر أمرُكم. فقالوا: والله لتَفعلنّ أو لتُخلعنّ أو لنَقتلنّك: فأبَى عليهم وقال: لا أنزع سِربالًا سَربَلنيه الله. فحصروه وضيّقوا الحصار عليه.

وروى أبو جعفر: لمّا اشتدّ على عثمان الحصار، أشرَف على النّاس فقال: يا أهل المدينة، أستودِعكم الله وأسأله أن يُحسِن عليكم الخلافة من بعدي. ثمّ قال: أنشُدكم الله! هل تعلمون أنّكم دعوْتم الله عند مصاب عُمَر أن يختارَ لكم ويُجمعَكم على خيركم! أ فتقولون: إنّ الله لم يستجِبْ لكم وهُنْتم عليه، وأنتم أهل حَقّه وأنصار نبيّه[1]، أم تقولون: هانَ على الله دينُه، فلم يبالِ مَن وَلّى، والدِّين لم يتفرَّق أهله بعد! أم تقولون: لم يكنْ أخَذ عن مشورة، إنّما كان مكابرة فوكّل الله الأُمّة ـ إذ عَصَتْه ولم يتشاوروا في الإمامة ـ إلى أنفسها! أم تقولون: إنّ الله لم يَعلم عاقبة أمري! فمهلًا مهلًا! لا تقتلوني، وإنّه لا يحلّ إلّا قتْل ثلاثة: زانٍ بعد إحصان، أو كافر بعد إيمان، أو قاتل نفس بغير حقّ. أمّا إنّكم إن قتلتُموني وضعتُم السّيف على رقابكم ثمّ لا يرفعه الله عنكم أبدًا.

فقالوا: أمّا ما ذكرت من استخارة النّاس بعد عمر، فإنّ كلّ ما يصنعه الله الخِيرة.

---

١ ـ ب: «دينه».

ولكنّ اللهَ جعلَك بليّةً ابتَلى بها عبادَه، ولقد كانت لك قدمٌ وسابقةٌ وكنتَ أهلًا للولاية. ولكن أحدثتَ ما تعلُمه، ولا نترك اليوم إقامةَ الحقّ عليك مخافة الفتنة عامًا قابلًا. وأمّا قولك: لا يحلّ دمٌ إلّا بإحدى ثلاث: فإنّا نجد في كتاب الله إباحة دم غير الثّلاثة: دمِ مَن سعَى في الأرض بالفساد، ودَمِ مَن بغَى ثمّ قاتَل على بغيه، ودَمِ مَن حال دون شيء من الحقّ ومنَعه وقاتَل دونه. وقد بغيتَ ومنعتَ الحقّ وحُلْتَ دونه وكابرتَ عليه، ولم تَقُدْ من نفسك مَن ظلمتَه ولا مِن عُمّالك، وقد تمسّكتَ بالإمارة علينا. والّذين يقومون دونك ويمنعونك، إنّما يمنعونك ويقاتلوننا لتسميتك بالإمارة، فلو خلعتَ نفسك لانصرفوا عن القتال معك.

فسكت عثمان ولزم الدّار وأمر أهلَ المدينة بالرّجوع وأقسم عليهم فرجعوا، إلّا الحسن بن عليّ ومحمّد بن طلحة وعبد الله بن الزّبير وأشباهًا لهم، وكانت مدّة الحصار أربعين يومًا[1].

قال أبوجعفر: ثمّ إنّ محاصِري عثمان أشفَقوا مِن وصول أجْناد من الشّام والبصرة تمنعه، فحالوا بين عثمان وبين النّاس، ومنَعوه كلّ شيء حتّى الماء. فأرسل عثمان سِرًّا إلى عليّ عليه السلام وإلى أزواج النّبيّ صلّى الله عليه أنّهم قد منعونا الماء، فإنْ قدرتم أن تُرسِلوا إلينا ماءً فافعلوا. فجاء عليّ عليه السلام في الغَلَس وأمّ حبيبة بنتُ أبي سفيان.

فوقف عليّ عليه السلام علَى النّاس فوعظهم وقال: أيّها النّاس، إنّ الّذي تفعلون لا يشبِهُ أمرَ المؤمنين ولا أمرَ الكافرين؛ إنّ فارس والرّوم لَتأسِر فتُطعِم وتَسقِي؛ فالله الله! لا تقطعُوا الماء عن الرّجل. فأغلَظوا له وقالوا: لا نَعَم ولا نُعْمَة عين[2]. فلمّا رأى منهم الجِدّ نزَع عمامته عن رأسه ورمَى بها إلى دار عثمان، يُعلِمه أنّه قد نهض وعاد.

وأمّا أمّ حبيبة وكانت مشتملةً على إداوة فضَربوا وجه بَغْلَتها، فقالت: إنّ وصايا أيتام بني أُميّة عند هذا الرّجل، فأحببتُ أن أسأله عنها لئلّا تَهلِك أموالُ اليتامى.

١ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ١٣٣.

٢ـ نعمة العين: قرّتها.

فشتموها وقالوا: أنتِ كاذبة، وقطعوا حبل[١] البغلة بالسّيف، فنفَرتْ وكادتْ تسقط عنها، فتلقاها النّاس فحملوها إلى منزلها.

وروى أبو جعفر، قال: أشرَف عثمان عليهم يومًا، فقال: أنشُدكم الله، هل تعلمون أنّي اشتريتُ بئر رومة[٢] بمالي، أستعذب بها وجعلت رِشائي فيها كرجل من المسلمين! قالوا: نعم. قال: فَلِم تمنعونني أن أشربَ منها حتّى أفْطِرَ على ماء البحر! ثمّ قال: أنشُدكم الله، هل تَعلمون أنّي اشتريتُ أرضَ كذا فزدتُها في المسجد؟ قالوا: نعم. قال: فهل علمتُم أنّ أحدًا مُنع أن يُصلّي فيه قبلي![٣]

وروى أبو جعفر عن عبد الله بن عَيّاش بن أبي رَبيعة المخزوميّ، قال: دخلتُ على عثمان، فأخذ بيدي فأسمعني كلامَ مَن على بابه من النّاس؛ فمنهم مَن يقول: ما تنتظرون به! ومنهم مَن يقول: لا تعجَلوا، فعسَاه ينزِع ويراجع. فبينا نحن إذ مرّ طلحة، فقام إليه ابن عُدَيْس البَلَويّ، فناجاه ثمّ رجع ابن عديس فقال لأصحابه: لا تتركوا أحدًا يدخل إلى عثمان ولا يخرج من عنده. قال لي عثمان: هذا ما أمَر به طلحة. اللّهمّ اكفِني طلحة، فإنّه حمَل هؤلا القوم وألّبَهم عليّ. والله إنّي لأرجو أن يكون منها صِفْرًا وأن يُسفَك دمه! قال: فأردتُ أن أخرج، فمنعوني حتّى أمرهم محمّد بن أبي بكر، فتركوني أخرج[٤].

قال أبوجعفر: فلمّا طال الأمرُ وعلم المصريّون أنّهم قد أجرموا إليه جرمًا كجُرم

١ـ الحبل للدّابة: رَسَنها.

٢ـ بئر رومة في عقيق المدينة. رُوي عن بشير الأسلمي، قال: لمّا قَدِم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكان لرجلٍ من بني غفار بئرٌ يقال لها بئر رومة، كان يبيع منها القربة بالمدّ، فقال له رسول الله ﷺ: بِعْنيها بعينٍ في الجنّة، فقال: يا رسول الله، ليس لي ولا لعيالي غيرها، لا أستطيع ذلك. فبلغ ذلك عثمان، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم ... وتصدّق بها كلّها. (معجم البلدان ١: ٤).

٣ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ١٢٥ بتصرّف.

٤ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ١٢٢.

القتل وأنّه لا فرقَ بين قتْله وبين ما أتوْا إليه وخافوا على نفوسهم مِن ترْكه حَيًّا، راموا الدّخولَ عليه من باب داره، فأُغلِقت الباب، ومانَعهم الحسنُ بن عليّ وعبد الله بن الزّبير ومحمّد بن طلحة ومروان وسعيد بن العاص وجماعةٌ معهم مِن أبناء الأنصار، فزجَرهم عثمان وقال: أنتم في حِلٍّ من نُصرتي، فأبوْا ولم يرجعوا[١].

وقام رجل من أسْلَم يقال له نِيَار بن عياض ـ وكان من الصّحابة ـ فنادى عثمان وأمره أن يخلَع نفسه. فبَيْنا هو يُناشِده ويسومُه خلْع نفسه، رماه كَثير بن الصَّلْت الكِنْديّ ـ وكان من أصحاب عثمان من أهل الدّار ـ بسهْم فقتله. فصاح المصريّون وغيرهم عند ذلك: ادفعوا إلينا قاتِل ابن عياض لنقتله به، فقال عثمان: لم أكن لأدفَعَ إليكم رجلًا نصَرني وأنتم تريدون قتلي! فثاروا إلى الباب، فأُغلِق دونهم، فجاءوا بنارٍ فأحرقوه وأحرقوا السّقيفة الّتي عليه. فقال لمَن عنده مِن أنصاره: إنّ رسول الله صلّى الله عليه عَهد إليّ عهدًا فأنا صابر عليهِ، فأخرج على رجل يقاتل دوني! ثمّ قال للحسن: إنّ أباك الآن لَفي أمر عظيم مِن أجلك، فاخرجْ إليه. أقسمتُ عليك لمّا خرجتَ إليه! فلم يفعل و وقف محاميًا عنه.

وخرج مروان بسيفه يجالد النّاس، فضرَبه رجل من بني لَيْث على رقبته، فأثبته[٢] وقطع إحدى عِلْباويْه[٣]، فعاش مروان بعد ذلك أوْقَص[٤]، وقام إليه عُبَيد بن رفاعة الزُّرَقيّ ليُذَفِّف عليه[٥]، فقامت دونه فاطمة أُمّ إبراهيم بن عديّ ـ وكانت أرضعت مروان وأرضعت له ـ فقالت له: إن كنتَ تريد قتله فقد قُتل، وإن إثمًا كنت تريد أن تتلعَّب بلحمه فأقبِح بذلك! فتركه فخَلّصته وأدخلته بيتها، فعرف لها بنوه ذلك بعد،

١ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ١٢٨.

٢ـ أثبَته: جعله ثابتًا في مكانه لا يتحرّك من أثر الجراحة.

٣ـ عِلباوان: مثنّى علباء؛ وهي عصب العنق.

٤ـ الوَقَص: قِصَر العنق.

٥ـ يذفِّف عليه: يُجهِز.

واستعملوا ابنها إبراهيم، وكان له منهم خاصّة[١].

وقُتل المغيرة بن الأخنس بن شَرِيق، وهو يحامي عن عثمان بالسّيف. واقتحَم القومُ الدّار ودخل كثير منهم الدُّور المجاورة لها، وتسوّروا من دار عمرو بن حزم إليها حتّى ملئوها وغلب النّاس على عثمان، وندَبوا رجلًا لقتله، فدخل إليه البيت فقال له: اخلعها ونَدَعُك. فقال: ويحك! والله ما كشفتُ عن امرأةٍ في جاهليّة ولا إسلام، ولا تعنّيتُ[٢] ولا تمنّيتُ، ولا وضعت يميني على عَورتي مذ بايعتُ رسول الله، ولستُ بخالعٍ قميصًا كَسانيه الله، حتّى يكرم أهل السّعادة ويهين أهل الشّقاوة. فخرج عنه فقالوا له: ما صنعتَ؟ قال: إنّي لم أستحلّ قتله.

فأدخَلوا إليه رجلًا من الصّحابة، فقال له: لست بصاحبي؛ إنّ النّبيّ صلّى الله عليه دَعا لك أن يحفَظك يوم كذا ولن تَضِيع، فرجع عنه. فأدخلوا إليه رجلًا من قريش، فقال له: إنّ رسول الله صلّى الله عليه استغفَر لك يوم كذا فلن تُقارِف دمًا حرامًا، فرجع عنه.

فدخل عليه محمّد بن أبي بكر، فقال له عثمان: ويحك! أ على الله تغضب! هل لي إليك جُرْم إلّا أنّي أخذت حقّ الله منك؟ فأخذ محمّد بلحيته وقال: أخزاك الله يا نعثل![٣] قال: لستُ بنعثل ولكنّي عثمان وأمير المؤمنين. فقال: ما أغنَى عنك معاوية وفلان وفلان! فقال عثمان: يا بن أخي، دَعْها مِن يدك، فما كان أبوك ليقبِض عليها. فقال: لو عملتَ ما عملت في حياة أبي لقبض عليها، والّذي أُريد بك أشدُّ من قبضي عليها. فقال: أستنصر الله عليك وأستعين به، فتركه وخرج.

١ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ١٢٤، والخاصّة: من تخصّه بنفسك.

٢ـ تعنّى الرّجل: تأنّى ليصيب شيئًا بعينه.

٣ـ نَعثَل: رجل من أهل مصر كان طويل اللّحية؛ قيل إنه كان يشبه عثمان، قال أبو عبيد: وشاتمو عثمان ﷺ يسمّونه نعثلًا (اللّسان).

وقيل: بل طعَن جبينه بمِشْقَصٍ[١] كان في يده، فثار سُودان بن حُمران وأبو حرب الغافقيّ وقُتيرة بن وهب السَّكْسَكِيّ؛ فضربه الغافقيّ بعمود كان في يده، وضرب المصحف برجله، وكان في حِجره، فنزل بين يديه وسال عليه الدّم. وجاء سُودان ليضربه بالسّيف، فأكبّتْ عليه امرأته نائلة بنت الفَرافصة[٢] الكلْبيّة، واتّقت السّيف بيدها وهي تَصْرخ، فنفح أصابعها فأطَنَّها[٣] فولّت، فغمز بعضُهم أوراكها وقال: إنّها لكبيرة العُجز، وضرب سُودان عثمان فقتله.

وقيل: بل قتَله كنانة بن بشر التُّجِيبيّ، وقيل: بل قُتيرة بن وهب. ودخل غلمان عثمان ومواليه، فضرَب أحدهم عنقَ سودان فقتله، فوثب قتيرة بن وهب على ذلك الغلام فقتله، فوثب غلام آخر على قتيرة فقتله. ونهبت دار عثمان وأخذ ما على نسائه وما كان في بيت المال، وكان فيه غِرارتان دراهم. و وثب عمرو بن الحمِق على صدر عثمان، وبه رَمقٌ، فطعَنه تِسْع طعنات وقال: أمّا ثلاثٌ منها، فإنّي طعنتُهنّ لله تعالى، وأمّا سِتّ منها فلِما كان في صدري عليه. وأرادُوا قطْع رأسه، فوقعتْ عليه زوجتاه: نائلة بنت الفَرافصة وأمّ البنين، ابنة عُيينة بن حِصْن الفَزاريّ، فصِحْن وضربْن الوجوه، فقال ابن عُدَيس: اتركُوه. وأقبل عمير بن ضابئ البُرجُميّ فوثب عليه، فكسر ضلعيْن من أضلاعه وقال له: سجنتَ أبي حتّى مات في السّجن. وكان قتله يوم الثّامن عشر من ذي الحجّة من سنة خمس وثلاثين، وقيل: بل في أيّام التّشريق، وكان عمره ستًّا وثمانين سنة.

قال أبوجعفر: وبَقي عثمان ثلاثة أيّام لا يُدفن. ثمّ إنّ حَكِيم بن حزام وجُبَير بن

١ـ المِشقَص، كمنبر: نَصْلٌ عريض.

٢ـ الفَرافصة: قال في اللّسان: ليس في العرب مَن يسمّى الفرافصة بالألف واللام غيره، ونقل ابن برّيّ عن القالي عن ابن الأنباريّ عن أبيه عن شيوخه، قال: كلّ ما في العرب فرافصة، بضمّ الفاء إلّا فرافصة أبا نائلة امرأة عثمان رضي الله عنه، بفتح الفاء لا غير. تاج العروس ٤: ٤١٥.

٣ـ أطَنّها: قطعها.

مُطْعِم كَلّما عليًّا عليه السلام في أن يأذن في دفنه ففعل. فلمّا سمع النّاس بذلك قعَد له قوم في الطّريق بالحجارة، وخرج به ناسٌ يسير من أهله، ومعهم الحسن بن عليّ وابن الزّبير وأبو جَهم بن حُذيفة بين المغرب والعشاء، فأتوْا به حائطًا من حيطان المدينة، يعرف حَشّ كوكب[1] وهو خارج البَقيع، فصلّوا عليه.

وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصّلاة عليه، فأرسل عليّ عليه السلام، فمَنَع مَن رجم سريره وكَفّ الّذين راموا منْع الصّلاة عليه، ودُفن في حَشّ كوكب. فلمّا ظهر معاوية على الأمر، أمر بذلك الحائط فهُدم وأُدخل في البقيع، وأمر النّاس أن يدفِنوا موتاهم حول قبره حتّى اتّصل بمقابر المسلمين بالبقيع. وقيل: إنّ عثمان لم يُغسَّل، وإنّه كُفِّن في ثيابه الّتي قتل فيها.

قال أبوجعفر: ورُوي عن عامر الشّعبيّ أنّه قال: ما قُتل عمر بن الخطّاب حتّى ملّتْه قريش واستطالتْ خلافته، وقد كان يعلم فتنتَهم فحصرهم في المدينة وقال لهم: إنّ أخوَف ما أخاف على هذه الأُمّة إنتشارُكم في البلاد. وإن كان الرّجل ليستأذنه في الغزو، فيقول: إنّ لك في غزوك مع رسول الله صلّى الله عليه ما يكفيك، وهو خيرٌ لك من غزوك اليوم، وخيرٌ لك من الغزو ألّا ترى الدّنيا ولا تراك. فكان يفعل هذا بالمهاجرين من قريش، ولم يكن يفعله بغيرهم من أهل مكّة، فلمّا وَلي عثمان الخلافة خلّى عنهم، فانتشَروا في البلاد وخالطهم النّاس وأفضى الأمر إلى ما أفضى إليه، وكان عثمان أحبَّ إلى الرّعيّة من عمر.

قال أبوجعفر: وكان أوّل منكَرٍ ظهر بالمدينة في خلافة عثمان حين فاضت الدّنيا على العرب والمسلمين، طيرانُ الحمام والمسابقة بها والرّمي عن الجُلاهقات ـ وهي قَسيّ البُنْدُق ـ فاستعمل عثمان عليها رجلًا من بني ليث في سنة ثمان من خلافته، فقصّ الطّيور وكسر الجُلاهِقات.

وروى أبو جعفر، قال: سأل رجل سعيدَ بن المسيّب عن محمّد بن أبي حُذيفة: ما

١ـ حشّ كوكب: موضع بجانب البقيع، اشتراه عثمان وزاد فيه (مراصد الاطّلاع).

دعاه إلى الخروج على عثمان؟ فقال: كان يتيمًا في حِجر عثمان، وكان والَى أيتام أهل ومحتمل كَلِّهم، فسأل عثمانَ العمل، فقال: يا بنيّ لو كنتَ رِضًا لاستعملتُك، قال: فَأذَنْ لي فأخرج فأطلب الرّزق[1]. قال: اذهبْ حيث شئت، وجهّزه من عنده وحمله وأعطاه. فلمّا وقع إلى مصر كان فيمن أعان عليه لأنّه منعه الإمارة. فقيل له: فعمّار بن ياسر؟ قال: كان بينه وبين العبّاس بن عُتْبة بن أبي لهب كلام فضرَبهما عثمان، فأورث ذلك تعاديًا بين عمّار وعثمان: وقد كانا تَقاذَفا قبل ذلك[2]. (٢: ١٢٩ـ١٦١)

١ـ عبارة الطّبريّ: «يا بنيّ، لو كنت رضًا ثم سألتني العمل لاستعملك، ولكن لست هناك، قال: فأذنْ لي، فلأخرج فلأطلب ما يقوتني».

٢ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ١٣٥.

الفصل الرّابع: في خلافة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام

[بيعة عليّ عليه السلام وأمر المتخلّفين عنها]

(الخطبة: ٥٣) ومن كلام له عليه السلام في ذكر البيعة:

فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا، وقَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ. وَقَدْ قَلَّبْتُ هذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلَّا قِتَالُهُم أَو الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله؛ فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ، وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الآخِرَةِ.

اختلف النّاس في بيعة أمير المؤمنين عليه السلام. فالّذي عليه أكثر النّاس وجمهورُ أرباب السِّيَر أنّ طلحة والزّبير بايعاه طائعيْن غير مكرهيْن، ثمّ تغيَّرتْ عزائمهما وفسدتْ نيّاتهما وغدرَا به.

وقال الزّبيريّون، منهم عبد الله بن مصعب والزّبير بن بكّار وشيعتهم ومَن وافق قولَهم مِن بني تَيْم بن مُرّة، أرباب العصبيّة لطلحة: إنّهما بايعَا مكرهيْن، وإنّ الزّبير كان يقول: بايعتُ واللُّجّ علَى قَفَيّ. واللُّجّ سيف الأشتر، وقَفَيّ لغةٌ هُذَليّة، إذا أضافوا المقصور إلى أنفسهم قلّبوا الألف ياءً وأدغموا إحدى الياءين في الأُخرى فيقولون: قد وافَق ذلك هَوَيَّ، أي هَوَايَ، وهذه عَصيَّ، أي عَصايَ.

وذكر صاحبُ كتاب «الاوائل» أنّ الأشتر جاء إلى عليّ عليه السلام حين قُتل عثمان، فقال: قمْ فبايع النّاس، فقد اجتمعوا لك ورغِبُوا فيك، والله لئن نَكَلْتَ عنها لتعصِرَنّ عليها عينيك مرّةً رابعةً. فجاء حتّى دخل بئر سكن، واجتمع النّاس وحضر طلحة والزّبير، لا يشكّان أنّ الأمر شورى.

فقال الأشتر: أ تنتظرون أحدًا! قمْ يا طلحة فبايعْ، فتَقاعَس. فقال: قمْ يا بن الصَّعْبة ـ وسَلّ سيْفه ـ فقام طلحة يجرّ رجْله، حتّى بايع. فقال قائل: أوّلُ مَن بايَعه أشلّ لا يتمّ أمره، ثمّ لا يتمّ. قال: قمْ يا زبير، والله لا ينازع أحدٌ إلّا وضربتُ قُرْطَه بهذا السّيف، فقام الزّبير فبايَع، ثمّ انثال النّاس عليه فبايعوا ... .

وقد ذكرنا نحن في شرح الفصل[1] الّذي فيه أنّ الزّبير أقَرّ بالبيعة وادّعى الوليجة: أنّ بيعة أمير المؤمنين لم تقع إلّا عن رضا جميع أهل المدينة، أوّلُهم طلحة والزّبير، وذكرنا في ذلك ما يبطل رواية الزّبير.

وذكر أبو مِخْنف في كتاب «الجمل» أنّ الأنصار والمهاجرين اجتمعوا في مسجد رسول الله ﷺ لينظروا مَن يولّونه أمرَهم، حتّى غَصّ المسجدُ بأهله. فاتّفق رأيُ عمّار وأبي الهيثم بن التَّيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن عجلان وأبي أيّوب خالد بن يزيد، على إقعاد أمير المؤمنين عليه السلام في الخلافة.

وكان أشدّهم تهالكًا عليه عمّار، فقال لهم: أيّها الأنصار، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه، وأنتم على شَرَفٍ من الوقوع في مثله إن لم تنظروا لأنفسكم، وإنّ عليًّا أوْلَى النّاس بهذا الأمر لفضْله وسابقته، فقالوا: رضينا به حينئذ.

وقالوا بأجمعهم لبقيّة النّاس من الأنصار والمهاجرين: أيّها النّاس، إنّا لن نألوَكم خيرًا وأنفسَنا إن شاء الله، وإنّ عليًّا مَن قد علمتم، وما نعرف مكانَ أحد أحْمَل لهذا الأمر منه، ولا أوْلَى به. فقال النّاس بأجمعهم: قد رَضينا، وهو عندنا ما ذكرتم وأفضل. وقاموا كلّهم، فأتوْا عليًّا عليه السلام فاستخرجوه من داره وسألوه بَسْط يده، فقَبضها فتداكُّوا عليه تداكَّ الإبل الهِيم على وِرْدها، حتّى كاد بعضُهم يقتل بعضًا.

فلمّا رأى منهم ما رأى، سألهم أن تكونَ بيعتُه في المسجد ظاهرةً للنّاس وقال: إن كرِهَني رجلٌ واحدٌ من النّاس لم أدخلْ في هذا الأمر. فنهض النّاس معه حتّى دخل المسجد، فكان أوّل مَن بايعه طلحة. فقال قَبيصة بن ذُؤيب الأسديّ: تخوّفتُ ألّا يتمّ

---

١ ـ الجزء الأوّل: ٢٣٠، الوليجة: الأمر يسرّ ويكتم.

له أمرُه، لأنّ أوّل يدٍ بايعتْه شَلّاء. ثمّ بايعه الزّبير وبايعه المسلمون بالمدينة إلّا محمّد ابن مسلمة وعبد الله بن عمر وأُسامة بن زيد وسعد بن أبي وقّاص وكعب بن مالك وحسّان بن ثابت وعبد الله بن سلَام.

فأمر بإحضار عبد الله بن عمر فقال له: بايعْ، قال: لا أُبايع حتّى يبايعَ جميعُ النّاس، فقال له عليّ عليه السلام: فأعطني جَمِيلًا ألّا تبرح، قال: ولا أُعطيك جَمِيلًا. فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين: إنّ هذا قد أمِنَ سوطك وسيفك فدعْني أضرب عنقَه، فقال: لستُ أُريد ذلك منه على كُرْهٍ، خلّوا سبيله. فلمّا انصرف قال أمير المؤمنين: لقد كان صغيرًا وهو سيّئ الخلق، وهو في كِبَره أسوأ خُلُقًا.

ثمّ أتي بسعد بن أبي وقّاص فقال له: بايعْ، فقال: يا أبا الحسن خَلِّني، فإذا لم يبقَ غيري بايعتُك، فوالله لا يأتيك مِن قِبَلي أمرٌ تكرهه أبدًا، فقال: صدق، خلّوا سبيلَه.

ثمّ بعث إلى محمّد بن مسلمة، فلمّا أتاه قال له: بايعْ، قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمَرني إذا اختلف النّاس وصاروا هكذا ـ وشبّك بين أصابعه ـ أن أخرجَ بسيفي فأضربَ به عُرض أحدٍ فإذا تقطّع أتيتُ منزلي، فكنتُ فيه لا أبرحه حتّى تأتيَني يدٌ خاطية أو منيّةٌ قاضية. فقال له عليه السلام: فانطلقْ إذًا، فكنْ كما أُمِرْتَ به.

ثمّ بعث إلى أُسامة بن زيد، فلمّا جاء قال له: بايعْ، فقال: إنّي مولاك ولا خلاف منّي عليك وستأتيك بيعتي إذا سكن النّاس، فأمره بالانصراف، ولم يبعث إلى أحد غيره.

وقيل له: ألا تبعث إلى حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن سلَام! فقال: لا حاجة لنا فيمن لا حاجة له فينا.

فأمّا أصحابنا فإنّهم يذكرون في كتبهم أنّ هؤلاء الرّهط إنّما اعتذروا بما اعتذروا به لمّا ندبهم إلى الشُّخوص معه لحرب أصحاب الجمل، وأنّهم لم يتخلّفوا عن البيعة وإنّما تخلّفوا عن الحرب.

وروى شيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى في كتاب «الغرر» أنّهم لمّا اعتذروا إليه بهذه الأعذار، قال لهم: ما كلّ مفتونٍ يعاتَب، أعندكم شكٌّ في بيعتي؟ قالوا: لا، قال: فإذا بايعتم فقد قاتلتم، وأعفاهم من حضور الحرب.

فإن قيل: رويتم أنّه قال: إن كَرِهني رجلٌ واحد من النّاس، لم أدخُلْ في هذا الأمر. ثمّ رويتم أنّ جماعة من أعيان المسلمين كرهوا ولم يقفْ مع كراهتهم.

قيل: إنّما مراده عليه السلام أنّه متى وقع الاختلاف قبل البيعة نفضتُ يدي عن الأمر ولم أدخل فيه، فأمّا إذا بويع ثمّ خالَف ناسٌ بعد البيعة فلا يجوز له أن يرجع عن الأمر ويتركه، لأنّ الإمامة تثبت بالبيعة وإذا ثبتت لم يجزله تركها.

وروى أبو مخنف عن ابن عبّاس، قال: لمّا دخل عليّ عليه السلام المسجد وجاء النّاس ليبايعوه، خِفْتُ أن يتكلّم بعض أهل الشّنآن لعليّ عليه السلام ممّن قتَل أباه أو أخاه أو ذا قرابته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، فيزهد عليٌّ في الأمر ويتركه. فكنتُ أرصُد ذلك وأتخوّفُه، فلم يتكلّم أحدٌ حتّى بايَعه النّاس كلّهم راضين مسلمين غيرَ مكرهين.

لمّا بايع النّاس عليًّا عليه السلام وتخلّف عبد الله بن عمر وكلّمه عليّ عليه السلام في البيعة فامتنع عليه، أتاه في اليوم الثّاني فقال: إنّي لك ناصحٌ؛ إنّ بيعتك لم يرضَ بها كلُّهم، فلو نظرتَ لدينك وردَدتَ الأمر شورى بين المسلمين! فقال عليّ عليه السلام: ويحك! وهل ما كان عن طلبٍ منّي له! ألم يبلغْك صَنيعهم؟ قمْ عنّي يا أحمق، ما أنت وهذا الكلام!

فلمّا خرج أتى عليًّا في اليوم الثّالث آتٍ فقال: إنّ ابن عمر قد خرج إلى مكّة يفسد النّاس عليك. فأمَر بالبعث في أثره، فجاءتْ أُمّ كلثوم ابنته فسألتْه وضرِعتْ إليه فيه وقالت: يا أمير المؤمنين، إنّما خرج إلى مكّة ليقيم بها، وإنّه ليس بصاحب سلطان ولا هو من رجال هذا الشّأن. وطلبتْ إليه أن يقبل شفاعَتها في أمره لأنّه ابنُ بعلها، فأجابها وكفّ عن البَعثة إليه وقال: دَعوه وما أراده. (٤: ٧ـ١١)

(الخطبة: ١٣٦) ومن كلام له عليه السلام:

لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا، إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلّٰهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لأَنْفُسِكُمْ. أَيُّهَا النَّاس، أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ. وَايْمُ اللهِ لأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ

ظَالِمِهِ، وَلأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهًا.

الشّرح: الفلتة: الأمر يقع عن غير تدبّر ولا رويّة، وفي الكلام تعريض ببيعة أبي بكر، وقد تقدّم لنا في معنى قول عمر: «كانت بيعة أبي بكر فلتةً وقَى الله شرّها» كلامٌ ....

«وأعينوني على أنفسكم»: خُذوها بالعدل، واقْمَعوها عن اتّباع الهوى، وارْدَعوها بعقولكم عن المسالك الّتي تُرْدِيها وتوبقُها. فإنّكم إذا فعلتم ذلك أَعَنْتُموني عليها، لأنّي أعظُكم وآمُركم بالمعروف وأنهاكم عن المنكر؛ فإذا كبحْتُم أنفسكم بلجام العقل الدّاعي إلى ما أدعو إليه فقد أعنتموني عليها.

فإن قلت: ما معنى قوله: «أُريدكم لله وتريدونني لأنفسكم»؟

قلت: لأنّه لا يريد من طاعتهم له إلّا نصرة دين الله والقيام بحدوده وحقوقه ولا يريدهم لحظّ نفسه، وأمّا هم فإنّهم يريدونه لحُظُوظ أنفسهم من العطاء والتّقريب والأسباب الموصّلة إلى منافع الدّنيا.

وهذا الخطاب منه عليه السلام لجمهور أصحابه، فأمّا الخواصّ منهم فإنّهم كانوا يريدونه للأمر الّذي يريدهم له من إقامة شرائع الدّين وإحياء معالمه. (٩: ٣١ـ٣٢)

[فصل في أنّ جعفرًا وحمزة لو كان حَيّين لبايعا عليًّا عليه السلام]

وسألتُ النّقيب أبا جعفر يحيى بن محمّد بن أبي يزيد رحمه الله، قلت له: أ تقول إنّ حمزة وجعفرًا لو كانا حَيّيْن يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله، أكانا يبايعانه بالخلافة؟ فقال: نعم، كانا أسرعَ إلى بيعته مِن النّار في يَبَس العَرْفج.

فقلت له: أظنّ أنّ جعفرًا كان يبايعه ويتابعه، وما أظنّ حمزة كذلك وأراه جَبّارًا قويّ النّفس، شديدَ الشّكيمة، ذاهبًا بنفسه، شجاعًا بُهْمَةً، وهو العمّ والأعلى سِنًّا، وآثاره في الجهاد معروفة، وأظنّه كان يطلب الخلافة لنفسه.

فقال: الأمر في أخلاقه وسجاياه كما ذكرتَ، ولكنّه كان صاحب دينٍ متين وتصديقٍ خالص لرسول الله صلى الله عليه وآله. ولو عاش لَرأى مِن أحوال عليّ عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله

ما يوجب أن يكسر له نخوتَه وأن يقيم له صَعَره وأن يقدِّمه على نفسه وأن يتوخَّى رضا الله ورضا رسوله فيه، وإن كان بخلاف إيثاره.

ثمّ قال: أين خُلُق حمزة السَّبُعيّ من خُلُق عليّ الرّوحانيّ اللّطيف، الّذي جمع بينه وبين خُلُق حمزة، فاتّصفت بهما نفسٌ واحدة! وأين هَيُولانيّة نفس حمزة وخلوّها من العلوم من نفس عليّ القُدْسيّة الّتي أدركت بالفطرة لا بالقوّة التّعليميّة ما لم تدركه نفوس مدقّقي الفلاسفة الإلهيّين! لو أنّ حمزة حيٌّ حتّى رأى مِن عليٍّ ما رآه غيره، لَكان أتبعَ له مِن ظلّه وأطوعَ له مِن أبي ذرّ والمقداد!

أمّا قولك: هو العمّ والأعلى سِنًّا، فقد كان العبّاس العمّ والأعلى سنًّا وقد عرفت ما بذله له وندبه إليه. وكان أبو سفيان كالعمّ وكان أعلى سنًّا وقد عرفت ما عرضه عليه.

ثمّ قال: ما زالت الأعمام تخدُم أبناء الإخوة وتكون أتباعًا لهم. ألستَ ترى داود ابن عليّ وعبد الله بن عليّ وصالح بن عليّ وسليمان بن عليّ وعيسى بن عليّ وإسماعيل بن عليّ وعبد الصّمد بن عليّ خَدموا ابن أخيهم ـ وهو عبد الله السّفّاح ابن محمّد بن عليّ ـ وبايعوه وتابعوه وكانوا أُمراءَ جيوشِه وأنصاره وأعوانه! ألستَ ترى حمزة والعبّاس اتّبعا ابن أخيهما صلوات الله عليه وأطاعاه ورضيا برياسته وصدَّقا دعوته!

ألستَ تعلم أنّ أبا طالب كان رئيس بني هاشم وشيخَهم والمطاع فيهم، وكان محمّد رسول الله ﷺ يتيمه ومكفوله وجاريًا مجرى أحد أولاده عنده، ثمّ خضع له واعترف بصدقه ودان لأمره، حتّى مدحه بالشّعر كما يمدح الأدنى الأعلى، فقال فيه:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بوجْهِهِ ثِمَالُ اليتَامَى عصمةٌ للأرامِلِ

يُطِيفُ به الهلّاك من آل هاشمٍ فهُمْ عندَه في نعمةٍ وفواضِلِ

وإن سرًّا اختصّ به محمّد ﷺ حتّى أقام أبا طالب ـ وحاله معه حاله ـ مقام المادح له لسرٍّ عظيم وخاصيّةٍ شريفة وإنّ في هذا لِمُعْتَبِرٍ عِبْرَةً أن يكون هذا الإنسان الفقير الّذي لا أنصار له ولا أعوان معه ولا يستطيع الدّفاع عن نفسه، فضلًا عن أن يقهر غيره، تعمل دعوته وأقواله في الأنفس ما تعمله الخمْر في الأبدان المعتدلةِ المزاج، حتّى

تطيعه أعمامُه ويعظّمه مربّيه وكافلُه ومَن هو إلى آخر عمره القيّم بنفقته وغذاء بدنه وكسوة جسده، حتّى يمدحه بالشّعر كما يمدح الشّعراءُ الملوكَ والرّؤساء! وهذا في باب المعجزات عند المنصِف أعظمُ مِن انشقاق القمر وانقلاب العصا ومن إنباء القوم بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم.

ثمّ قال رحمه الله: كيف قلتَ: أظنّ أنّ جعفرًا كان يبايعه ويتابعه ولا أظنّ في حمزة ذلك! إنْ كنت قلت ذلك لأنّه أخوه، فإنّه أعلى منه سنًّا، هو أكبر من عليّ بعشر سنين، وقد كانت له خصائصُ ومناقب كثيرة، وقال فيه النّبيّ صلى الله عليه وآله قولاً شريفًا اتّفق عليه المحدّثون؛ قال له لمّا افتخر هو وعليٌّ وزيد بن حارثة، وتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: «أشبهتَ خَلْقي وخُلقي» فخجل فرحًا، ثمّ قال لزيد: «أنت مولانا وصاحبنا» فخجل أيضًا، ثمّ قال لعليّ: «أنت أخي وخالصتي»، قالوا: فلم يخجل. قالوا: كأنّ ترادُف التّعظيم له وتكرُّره عليه لم يجعل عنده للقول ذلك الموضع، وكان غيره إذا عُظِّم عُظِّم نادرًا، فيحسن موقعه عنده. واختلف النّاس في أيّ المدحتيْن أعظم.

فقلت له: قد وقفتُ لأبي حيّان التّوحيديّ في كتاب «البصائر» على فصل عجيب يمازج ما نحن فيه. قال في الجزء الخامس من هذا الكتاب: سمعتُ قاضيَ القضاة أبا سعد بشر بن الحسين ـ وما رأيتُ رجلًا أقوى منه في الجدل ـ في مناظرة جرتْ بينه وبين أبي عبد الله الطّبريّ وقد جرى حديثُ جعفر بن أبي طالب وحديث إسلامه والتّفاضل بينه وبين أخيه عليّ.

فقال القاضي أبو سعد: إذا أُنعِم النّظَر عُلم أنّ إسلام جعفر كان بعد بلوغ، وإسلامُ البالغ لا يكون إلّا بعد استبصارٍ وتبيّنٍ ومعرفةٍ بقبْح ما يخرج منه وحسْن ما يدخل فيه. وإنّ إسلام عليّ مختلفٌ في حاله، وذلك أنّه قد ظُنّ أنّه كان عن تلقينٍ لا تبيين إلى حين بلوغه وأوان تعقّبه ونظره. وقد عُلم أيضًا أنّهما قُتلَا وإنّ قَتْلة جعفر شهادة بالإجماع وقتلة عليّ فيها أشدّ الاختلاف.

ثمّ خصّ الله جعفرًا بأنْ قبَضه إلى الجنّة قبل ظهور التّباين واضطراب الحبل وكثرة الهرْج، وعلى أنّه لو انعقد الإجماع وتظاهَر جميع النّاس على أنّ القتلتيْن شهادة،

لكانت الحال في الّذي رُفع إليها جعفر أغلظ وأعظم، وذلك أنّه قُتل مقبِلًا غيرَ مدبِر. وأمّا عليٌّ فإنّه اغتيل اغتيالًا وقُصد من حيث لا يعلم.

وشتّان ما بين مَن فوجئ بالموت وبين مَن عاين مخايل الموت وتلقّاه بالنَّحر والصَّدر وعجَّل إلى الله بالإيمان والصّدق! ألا تعلم أنّ جعفرًا قُطعتْ يمناه فأمسك اللّواء بيسراه، وقُطعتْ يسراه فضمّ اللّواء إلى حَشاه، ثمّ قاتِلُه ظاهر الشّرك بالله وقاتِلُ عليّ ممّن صلّى إلى القبلة و شهد الشّهادة وأقدم عليه بتأويل، وقاتِلُ جعفر كافرٌ بالنّصّ الّذي لا خلاف فيه! أما تعلم أنّ جعفرًا ذو الجناحيْن وذو الهجرتيْن إلى الحبشة والمدينة.

قال النّقيب ﷺ: اعلمْ ـ فِداك شيخك ـ أنّ أبا حيّان رجلٌ ملحدٌ زنديق، يحبّ التّلاعب بالدّين ويُخرج ما في نفسه فيعزوه إلى قومٍ لمْ يقولوه. وأُقسِم بالله أنّ القاضي أبا سعد لم يقلْ مِن هذا الكلام لفظةً واحدة، ولكنّها من موضوعات أبي حيّان وأكاذيبه وترّهاته، كما يُسنِد إلى القاضي أبي حامد المَرْوَرّوذيّ كلّ منكَرٍ ويَروى عنه كلّ فاقرةٍ.

ثمّ قال: يا أبا حيّان! مقصودُك أن تجعلَها مسألة خلافٍ تُثير بها فتنةً بين الطّالبيّين لتجعل بأُسهم بينهم! وكيف تقلّبت الأحوال فالفخر لهم لم يخرج عنهم! ثمّ ضحك ﷺ حتّى استَلقى ومدّ رجليْه وقال: هذا كلامٌ يُستغنَى عن الإطالة في إبطاله بإجماع المسلمين، فإنّه لا خلاف بين المسلمين في أنّ عليًّا أفضلُ من جعفر، وإنّما سرق أبو حيّان هذا المعنى الّذي أشار إليه من رسالة المنصور أبي جعفر إلى محمّد بن عبد الله النّفس الزّكيّة. قال له: وكانت بنو أُميّة يلعنون أباك في أدبار الصّلوات المكتوبات، كما تلعن الكفرة، فعنّفْناهم وكفّرناهم وبيّنّا فضله وأشدْنا بذكره، فاتّخذتَ ذلك علينا حجّةً، وظننت أنّه لمّا ذكرناه من فضله أنّا قدّمناه على حمزة والعبّاس وجعفر، أولئك مضوْا سالمين مسلمين منهم، وابتُلي أبوك بالدّماء!

فقلتُ له رحمه الله: وإذًا لا إجماع في المسألة لأنّ المنصور لم يقلْ بتفضيله عليهم وأنت ادّعيت الإجماع. فقال: إنّ الإجماع قد سبق هذا القائل، وكلّ قولٍ قد سبقه الإجماع لا يُعتدّ به.

فلمّا خرجتُ من عند النّقيب أبي جعفر بحثتُ في ذلك اليوم في هذا الموضوع مع أحمد بن جعفر الواسطيّ رحمه الله - وكان ذا فضل وعقل، وكان إماميّ المذهب - فقال لي: صدق النَّقيب فيما قال! أ لست تعلم أنّ أصحابكم المعتزلة على قولَيْن: أحدهما أنّ أكثر المسلمين ثوابًا أبو بكر، والآخر أنّ أكثرَهم ثوابًا عليٌّ. وأصحابنا يقولون: إنّ أكثرَ المسلمين ثوابًا عليٌّ وكذلك الزّيديّة. وأمّا الأشعريّة والكرّاميّة وأهل الحديث فيقولون: أكثر المسلمين ثوابًا أبو بكر. فقد خلَص من مجموع هذه الأقوال أنّ ثواب حمزة وجعفر دون ثواب عليّ عليه السلام.

أمّا علَى قول الإماميّة والزّيديّة والبغداديّين كافّةً وكثيرٍ من البصريّين من المعتزلة فالأمر ظاهرٌ، وأمّا الباقون فعندهم أنّ اكثرَ المسلمين ثوابًا أبو بكر ثمّ عمر ثمّ عثمان ثم عليٌّ، ولمْ يذهب ذاهبٌ إلى أنّ ثواب حمزة وجعفر أكثرُ من ثواب عليٍّ من جميع الفِرَق.

فقد ثبت الإجماع الّذي ذكره النّقيب، إذا فسّرنا الأفضليّة بالأكثريّة ثوابًا، وهو التّفسير الّذي يقع الحِجاج والجدال في إثباته لأحد الرّجلَيْن. وأمّا إذا فسّرنا الأفضليّة بزيادة المناقب والخصائص وكثرة النّصوص الدّالّة على التّعظيم، فمعلوم أنّ أحدًا من النّاس لا يقارب عليًّا عليه السلام في ذلك، لا جعفر ولا حمزة ولا غيرهما.

ثمّ وقع بيدي بعد ذلك كتابٌ لشيخنا أبي جعفر الإسكافيّ، ذكر فيه أنّ مذهب بِشر ابن المعتمر وأبي موسى وجعفر بن مبشر وسائر قدماء البغداديّين أنّ أفضل المسلمين عليّ بن أبي طالب ثمّ ابنه الحسن ثمّ ابنه الحسين ثمّ حمزة بن عبد المطّلب ثمّ جعفر ابن أبي طالب ثمّ أبو بكر بن أبي قحافة ثمّ عمر بن الخطّاب ثمّ عثمان بن عفّان. قال: والمراد بالأفضل أكرمهم عند الله وأكثرهم ثوابًا وأرفعهم في دار الجزاء منزلةً.

ثمّ وقفتُ بعد ذلك على كتاب لشيخنا أبي عبد الله البصريّ يذكر فيه هذه المقالة ويُنسِبها إلى البغداديّين وقال: إنّ الشّيخ أبا القاسم البلخيّ كان يقول بها، وقَبِله

الشّيخ أبو الحسين الخيّاط، وهو شيخ المتأخّرين من البغداديّين، قالوا كلّهم بها، فأعجبني هذا المذهب وسررتُ بأنْ ذهب الكثير من شيوخنا إليه ونظمتُه في الأُرجوزة الّتي شرحت فيها عقيدة المعتزلة، فقلت:

وخيـر خلْـق الله بعـد المصـطفَى ... أعظمهـم يـوم الفخـار شَـرَفَا
السّـيد المعظّـم الـوصيّ ... بَعْـلُ البتـول المرتضَـى عـليّ
وابنـاه ثمّ حمـزةٌ وجعفـرُ ... ثمَّ عتيـق بعـدهم لا ينكَـرُ
المخلـص الصّـدّيق ثمّ عمـرُ ... فـاروق ديـن الله ذاك القَسْـوَرُ
وبعـده عثمـان ذو النُّـورينِ ... هـذا هـوَ الحـقّ بغيـر مَـيْن

(١١: ١١٥ـ ١٢٠)

[من أخبار طلحة والزّبير]

(الخطبة: ١٩٨) ومن كلام له عليه السلام كلّم به طلحة والزّبير بعد بيعته بالخلافة، وقد عتَبَا عليه من ترك مشورتهما والاستعانة في الأُمور بهما:

لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيرًا وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا. أَلَا تُخْبِرَانِي أَيُّ شَيْءٍ[1] كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ! أَمْ أَيُّ قَسْمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ! أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ أَمْ جَهِلْتُهُ أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!

وَاللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا. فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَنَّ[2] النَّبِيُّ ﷺ فَاقْتَدَيْتُهُ. فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى رَأْيِكُمَا وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلَوْ كَانَ ذلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا.

١ـ ساقطة من مخطوطة النّهج.

٢ـ مخطوطة النّهج: «استسنّ».

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الأُسْوَةِ، فَإِنَّ ذلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي وَلا وَلِيتُهُ هَوًى مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُما مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَغَ اللهُ مِنْ قَسْمِهِ وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ. فَلَيْسَ لَكُمَا وَاللهِ عِنْدِي وَلا لِغَيْرِكُمَا فِي هذَا عُتْبَى.

أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ!

ثم قال عليه السلام: رَحِمَ اللهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ.

الشّرح: ... وليس هذا اعترافًا بأنّ ما نقَماه موضع الطّعن والعيْب ولكنّه على جهة الجدَل والاحتجاج، كما تقول لمَن يَطعن في بيتٍ مِن شعر شاعر مشهور: لقد ظلمتَه إذ تتعلّق عليه بهذا البيت وتنسى ما له من المحاسن الكثيرة في غيره!

ثمّ ذكر وجوه العتاب والاستِرادة[1] وهي أقسام: إمّا أن يكون لهما حقٌّ يدفعهما عنه، أو استأثر عليهما في قَسْم، أو ضَعُف عن السّياسة، أو جَهِل حكمًا من أحكام الشّريعة، أو أخطأ بابه.

فإن قلت: أيّ فرقٍ بين الأوّل والثّاني؟

قلت: أمّا دفْعهما عن حقّهما فمنعهما عنه، سواء صار إليه عليه السلام أو إلى غيره أو لم يصِرْ إلى أحدٍ، بل بَقي بحاله في بيت المال. وأمّا القسم الثّاني فهو أن يأخذ حقّهما لنفسه. وبيْن القسمين فرقٌ ظاهر، والثّاني أفحش من الأوّل.

فإن قلت: فأيّ فرقٍ بين قوله: «أم جهلتُه» أو «أخطأتُ بابه»؟

قلت: جهْل الحكم أن يكون الله تعالى قد حكَم بحرمة شيء، فأحلّه الإمام أو المفتي. وكونه يخطئ بابه، هو أن يصيب في الحكم ويخطئ في الاستدلال عليه.

ثمّ أقسم أنّه لم يكن له في الخلافة رغبةٌ ولا إرْبةٌ، بكسر الهمزة، وهي الحاجة. وصدَق عليه السلام! فهكذا نقَل أصحاب التّواريخ وأرباب علم السِّيَر كلّهم.

١ـ الاسترداد: طلب الرّجوع واللّين والانقياد. ومنه الحديث فاسترد لأمر الله، أي رجع ولان وانقاد (اللّسان).

وروى الطّبريّ في التّاريخ ورواه غيره أيضًا أنّ النّاس غَشُوه وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته، وهو يأبى ذلك ويقول: دَعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمرًا له وجوهٌ وألوانٌ، لا تثبت عليه العقول ولا تقوم له القلوب. قالوا: نَنشُدك الله! ألا ترى الفتنة! ألا ترى إلى ما حدث في الإسلام! ألا تخاف الله! فقال: قد أجبتُكم لِما أرى منكم، واعلموا أنّي إنْ أجبتُكم ركبتُ بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنّما أنا كأحدِكم، بل أنا أسمعُكم وأطوعُكم لمن ولّيتموه أمرَكم إليه. فقالوا: ما نحن بمفارقيك حتّى نبايعَك. قال: إن كان لا بدّ مِن ذلك ففي المسجد، فإنّ بيعتي لا تكون خَفْيًا ولا تكون إلّا عن رضَا المسلمين وفي ملأٍ وجماعة. فقام والنّاس حوله فدخل المسجد وانثال عليه المسلمون فبايعوه، وفيهم طلحة والزّبير[1].

قلت قوله: «إنّ بيعتي لا تكون خَفْيًا ولا تكون إلّا في المسجد بمحضَرٍ من جمهور النّاس» يشابه قوله بعد وفاة رسول الله ﷺ للعبّاس لمّا سامَه مدّ يدِه للبيعة: إنّي أُحبُّ أن أُصحِربها[2] وأكره أنْ أُبايع من وراء رِتاج.

ثمّ ذكر عليه السلام أنّه لمّا بويع عَمِل بكتاب الله وسنّة رسوله ولم يحتجْ إلى رأيهما ولا رأي غيرِهما ولم يقع حُكْم يجهله فيستشيرهما، ولو وقع ذلك لاستشارهما وغيرهما ولم يأنَفْ من ذلك.

ثم تكلّم في معنى التّنفيل في العطاء، فقال: إنّي عملت بسنّة رسول الله ﷺ في ذلك. وصدَق عليه السلام! فإنّ رسول الله ﷺ سوّى في العطاء بين النّاس، وهو مذهب أبي بكر.

قد تقدّم منّا ذكْر ما عتب به طلحة والزّبير على أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّهما قالا: ما نراه يستشيرنا في أمرٍ ولا يفاوضنا في رأي ويقطع الأمرَ دوننا ويستبدّ بالحكم عنّا! وكانا يرجوان غير ذلك، وأراد طلحةُ أن يولّيَه البصرة وأراد الزّبير أن يولّيَه الكوفة.

١ـ تاريخ الطّبريّ ٥: ١٥٢ (المطبعة الحسينيّة)، مع تصرّف.

٢ـ أصحر: من قولهم: أصحر الأمر وبه، إذا أظهره.

فلمّا شاهدَا صلابتَه في الدِّين، وقوّته في العزم، وهَجْره الإدْهان والمراقبة، ورفْضه المدالسة والمواربة، وسلوكه في جميع مسالكه منهج الكتاب والسّنّة، وقد كانا يعلمان ذلك قديمًا من طبعه وسجيّته، وكان عمرو قال لهما ولغيرهما: إنّ الأجْلح[1] إن وَلِيها ليحملنّكم على المحجّة البيضاء والصّراط المستقيم. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله من قبل قال: «وإنْ تولّوها عليًّا تجدوه هاديًا مهديًّا» إلّا أنّه ليس الخبرُ كالعيان، ولا القول كالفعل، ولا الوعد كالإنجاز.

وحالَا عنه وتنكّرَا له و وقعَا فيه وعابَاه وغمَصَاه[2] وتطلّبَا له العلل والتّأويلات، وتنقّمَا عليه الاستبداد وترك المشاورة، وانتقلَا من ذلك إلى الوقيعة فيه بمساواة النّاس في قسمة المال، وأثنيَا على عمرو حمِدَا سيرته وصوّبَا رأيه وقالا: إنّه كان يفضّل أهلَ السّوابق. وضلّلَا عليًّا عليه السلام فيما رآه وقالا: إنّه أخطأ وإنّه خالف سيرة عمرو هي السّيرة المحمودة الّتي لم تفضحها النّبوّة، مع قرب عهدنا منها واتّصالها بها.

واستنجدَا عليه بالرّؤساء من المسلمين كان عمر يفضّلهم وينقّلهم[3] في القَسْم على غيرهم ـ والنّاس أبناءُ الدّنيا ويحبّون المال حُبًّا جمًّا ـ فتنكّرتْ على أمير المؤمنين عليه السلام بتنكُّرهما قلوبٌ كثيرة ونَغِلت[4] عليه نيّاتٌ كانت من قبل سليمة.

ولقد كان عمر موفّقًا حيث منع قريشًا والمهاجرين وذوي السّوابق من الخروج من المدينة، ونهاهم عن مخالطة النّاس ونهى النّاس عن مخالطتهم، ورأى أنّ ذلك أُسّ الفساد في الأرض وأنّ الفتوح والغنائم قد أبطرتْ المسلمين، ومتى بَعُد الرّءوس والكبراء منهم عن دار الهجرة وانفردوا بأنفسهم وخالَطهم النّاس في البلاد البعيدة لم يأمن أن يحسِنُوا لهم الوثوب وطلب الإمْرة ومفارقة الجماعة وحلّ نظام الأُلفة.

١ـ الأجلح: من الجلح؛ وهو ذهاب الشّعر من مقدّم الرّأس، وكان صلى الله عليه وآله كذلك.

٢ـ غمصَاه: تهاونَا بحقّه.

٣ـ ينقّلهم: يُعطيهم النّفل.

٤ـ نَغِلت: فسدت.

ولكنّه ﷺ نقَض هذا الرّأي السّديد بما فعله بعد طعن أبي لؤلؤة له من أمر الشّورى، فإنّ ذلك كان سبب كلّ فتنة وقعت وتقع إلى أن تنقضي الدّنيا. وقد قدّمنا ذكر ذلك وشرحنا ما أدّى إليه أمرُ الشّورى من الفساد بما حصل في نفس كلّ من السّتّة من ترشيحه للخلافة.

وروى أبو جعفر الطّبريّ في تاريخه، قال: كان عمر قد حجَر على أعلام قريش من المهاجرين الخروجَ في البلدان إلّا بإذنٍ وأجَلٍ، فشكوْه فبلغه فقام فخطب فقال: ألا إنّي قد سننتُ الإسلام سنّ البعير، يبدأ فيكون جذَعًا ثمّ ثنيًّا[1]، ثمّ يكون رَباعيًّا[2] ثمّ سَدِيسًا ثمّ بازلًا[3]. ألا فهل يُنتَظر بالبازل إلّا النّقصان! ألا وإنّ الإسلام قد صار بازلًا، وإنّ قريشًا يريدون أن يتّخذوا مال الله معوناتٍ على ما في أنفسهم. ألا إنّ في قريش مَن يُضمِر الفرقة ويروم خَلْع الرِّبْقة. أمّا وابنُ الخطّاب حيٌّ فلا، إنّي قائمٌ دون شِعْب الحرّة، آخذٌ بحلاقيم قريش وحُجَزها أن يتهافتوا في النّار.

وقال أبو جعفر الطّبريّ في التّاريخ أيضًا: فلمّا ولّى عثمان لم يأخذْهم بالّذي كان عمر يأخذهم به، فخرجوا إلى البلاد. فلمّا نزلوها ورأوا الدّنيا ورآهم النّاس، حَمَل مَن لم يكن له طَوْلٌ ولا قدمٌ في الإسلام، ونَبُه أصحاب السّوابق والفضل، فانقطع إليهم النّاس وصاروا أوزاعًا معهم وأمّلوهم وتقرّبوا إليهم وقالوا: يملكون فيكون لنا في مُلْكهم حظوة، فكان ذلك أوّل وَهَنٍ على الإسلام وأوّل فتنة كانت في العامّة.

وروى أبو جعفر الطّبريّ ،عن الشّعبيّ، قال: لم يمت عمر حتّى ملّئه قريش، وقد كان حصَرهم بالمدينة وسألوه أن يأذَنَ لهم في الخروج إلى البلاد، فامتنع عليهم وقال: إنّ أخوَف ما أخافُ على هذه الأُمّة انتشاركم في البلاد، حتّى إنّ الرّجل كان يستأذنه في غزْو الرّوم أو الفرس، وهو ممّن حبسه بالمدينة من قريش، ولا سيّما من المهاجرين

١ـ الثّنيّ: الّذي يلقي ثنيّتَه.

٢ـ الرّباعيّ: هو الّذي ألقى رباعيّتَه، والرّباعيّة: السّنّ الّتي بين الثّنيّة والنّاب.

٣ـ البازل: البعير فطر نابه وانشقّ، ويكون ذلك في السّنة التّاسعة.

فيقول له: إنّ لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وآله ما يكفيك ويبلغك ويُحسِبك[١]، وهو خيرٌ لك من الغزو اليوم، وإنّ خيرًا لك ألّا ترى الدّنيا ولا تراك.

فلمّا مات عمر وَلِي عثمان خلّى عنهم، فانتشروا في البلاد واضطربوا وانقطع إليهم النّاس وخالطوهم، فلذلك كان عثمان أحبَّ إلى قريش من عمر. فقد بان لك حسْن رأي عمر في منْع المهاجرين وأهل السّابقة من قريش من مخالطة النّاس والخروج من المدينة، وبان لك أنّ عثمان أرخَى لهم في الطِّوَل[٢]. فخالطهم النّاس وأفسدوهم وحبّبوا إليهم الملك والإمرة والرِّئاسة، لا سيّما مع الثّروة العظيمة الّتي حصلت لهم، والثّراء مفسدة وأيّ مفسدة!

وحصل لطلحة والزّبير مِن ذلك ما لم يحصل لغيرهما ثروةً ويسارًا وقدمًا في الإسلام، وصار لهما لفيفٌ عظيمٌ من المسلمين يمنّونهما الخلافة ويحسِّنون لهما طلب الإمرة، لا سيّما وقد رشّحهما عمر لها وأقامهما مقام نفسه في تحمّلها. وأيّ امرئٍ منَّى بها قطّ نفسَه ففارقها حتّى يغيَّب في اللّحد! ولا سيّما طلحة قد كان يحدِّث بها نفسه وأبو بكر حيٌّ ويروم أن يجعلها فيه بشبهة أنّه ابنُ عمّه، وسخط خلافة عمر وقال لأبي بكر: ما تقول لربّك وقد ولّيتَ علينا فظًّا غليظًا!

وكان له في أيّام عمر قوم يجلسون إليه ويحادثونه سرًّا في معنى الخلافة ويقولون له: لو مات عمر لبايعناك بَغْتةً، جلب الدّهرُ علينا ما جلب! وبلغ ذلك عمر فخطب النّاس بالكلام المشهور، إنّ قومًا يقولون: إنّ بيعة أبي بكر كانت فَلْتةً وإنّه لو مات عمر لفعلنا وفعلنا. أما إنّ بيعة أبي بكر كانت فَلْتةً إلّا أنّ الله وقَى شرّها، وليس فيكم من تقطع إليه الرِّقاب كأبي بكر. فأيّ امرئٍ بايَع امرأً من غير مشورة من المسلمين، فإنّهما بغرّة أن يقتلَا.

١ـ يقال: أحسبه إذا أرضاه أو أعطاه ما يرضيه وكفاه.

٢ـ الطّول: الحبل، يريد أنّه لان وترك لهم الحبل على الغارب، حتّى فعلوا ما فعلوا.

فلمّا صارت إلى عثمان سخطها طلحة بعد أنْ كان رضيها، وأظهر ما في نفسه وألّب عليه حتّى قُتل، ولم يشكّ أنّ الأمر له. فلمّا صارت إلى عليٍّ عليه السلام حدَث منه ما حدَث، وآخر الدّواء الكَيّ.

وأمّا الزّبير فلم يكن إلّا عَلَويّ الرّأي، شديد الوَلاء، جاريًا من الرّجل مجرى نفسه. ويقال: إنّه عليه السلام لمّا استنجد بالمسلمين عَقيب يوم السّقيفة وما جرى فيه، وكان يحمل فاطمة عليها السلام ليلًا على حمار، وابناها بين يدي الحمار وهو عليه السلام يسوقه، فيطرُق بيوتَ الأنصار وغيرهم ويسألهم النّصرة والمعونة، أجابه أربعون رجلًا فبايعهم على الموت وأمرهم أن يصبحوا بكرةً محلِّقي رءوسهم ومعهم سلاحهم، فأصبح لم يُوافِه منهم إلّا أربعة: الزّبير والمقداد وأبو ذَرّ وسلمان. ثمّ أتاهم من اللّيل فناشدهم فقالوا: نصبّحك غُدوةً. فما جاءه منهم إلّا الأربعة، وكذلك في اللّيلة الثّالثة. وكان الزّبير أشدَّهم له نُصرةً وأنفذهم في طاعته بصيرةً، حلَق رأسه وجاء مرارًا وفي عنقه سيفه. وكذلك الثّلاثة الباقون، إلّا أنّ الزّبير هو كان الرّأس فيهم.

وقد نقل النّاس خبر الزّبير لمّا هجَم عليه ببيت فاطمة عليها السلام وكسر سيفه في صخرة ضربت به، ونقلوا اختصاصه بعليّ عليه السلام وخلواته به. ولم يزل مواليًا له متمسِّكًا بحبّه ومودّته حتّى نشأ ابنُه عبد الله وشبّ، فنزع به عِرْقٌ من الأُمّ ومال إلى تلك الجهة وانحرف عن هذه، ومحبّة الوالد للولد معروفةٌ فانحرف الزّبير لانحرافه.

على أنّه قد كانت جرت بين عليّ عليه السلام والزّبير هَناتٌ في أيّام عمر كدّرت القلوب بعض التّكدير، وكان سببها قصّة موالي صفيّة ومنازعة عليٍّ للزّبير في الميراث، فقضى عمر للزّبير، فأذعن عليّ عليه السلام لقضائه بحكم سلطانه، لا رجوعًا عمّا كان يذهب إليه من حكم الشّرع في هذه المسألة وبقيت في نفس الزّبير.

على أنّ شيخنا أبا جعفر الإسكافيّ رحمه الله ذكر في كتاب «نقض العثمانيّة» عن الزّبير كلامًا إنْ صحّ، فإنّه يدلّ على انحرافٍ شديد ورجوعٍ عن موالاة أمير المؤمنين عليه السلام.

قال تفاخَر عليّ عليه السلام والزّبير، فقال الزّبير: أسلمتُ بالغًا وأسلمتَ طفلًا، وكنتُ أوّل مَن سلّ سيفًا في سبيل الله بمكّة وأنت مستخفٍ في الشِّعب[1] يكفُلك الرّجال ويَمونك الأقارب من بني هاشم، وكنتُ فارسًا وكنتَ راجلًا، وفي هيئتي نزلت الملائكة وأنا حواريّ رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال شيخنا أبو جعفر: وهذا الخبر مفتعلٌ مكذوب، ولم يجرِ بين عليٍّ والزّبير شيءٌ من هذا الكلام، ولكنّه مِن وضع العثمانيّة ولم يُسمَع به في أحاديث الحشويّة ولا في كتب أصحاب السّيرة.

ولعليّ عليه السلام أن يقول: طفلٌ مسلم خيرٌ من بالغ كافر. وأمّا سلُّ السّيف بمكّة فلم يكنْ في موضعه، وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ...﴾[2] الآية، وأنا على منهاج الرّسول في الكفّ والإقدام. وليس كفالة الرّجال والأقارب بالشِّعب عارًا عَلَيّ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله في الشّعب يكفُله الرّجال والأقارب.

وأمّا حربك فارسًا وحربي راجلًا، فهلّا أغنتْ فروسيّتُك يوم عمرو بن عبد وَدّ في الخندق! وهلّا أغنتْ فروسيّتك يوم طلحة بن أبي طلحة في أُحُد! وهلّا أغنتْ فروسيّتك يوم مرحب بخيبر! ما كانتْ فرسُك الّتي تحارب عليها في هذه الأيّام إلّا أذلّ من العَنْز الجرْباء. ومَن سلّمتْ عليه الملائكة أفضل ممّن نزلتْ في هيئته، وقد نزلت الملائكة في صورة دِحْية الكلبيّ، أ فيجب من ذلك أن يكون دحْية أفضلَ منّي! وأمّا كونك حواريّ رسول الله صلى الله عليه وآله، فلو عددتَ خصائصي في مقابلة هذه اللّفظة الواحدة لك، لاستغرقت الوقت وأفنيْت الزّمان، ورُبّ صمتٍ أبلغُ مِن نطق[3].

١ـ هو شِعب أبي يوسف بمكّة. وانظر معجم البلدان ٥: ٢٧٠.

٢ـ النّساء/ ٧٧.

٣ـ انظر رسالة العثمانيّة: ٢٢٤ وما بعدها.

ثمّ نرجع إلى الحديث الأوّل، فنقول: إنّ طلحة والزّبير لمّا أَيِسَا من جهة عليّ عليه السلام ومن حصول الدّنيا من قِبَله، قلَبَا له ظهْر المِجنّ فكاشفاه وعاتباه قبل المفارقة عتابًا لاذعًا.

روى شيخنا أبو عثمان، قال: أرسل طلحةُ والزّبير إلى عليّ عليه السلام قبل خروجهما إلى مكّة مع محمّد بن طلحة، وقالا: لا تقل له «يا أمير المؤمنين»، ولكن قل له: «يا أبا الحسن» لقد فالَ فيك رأيُنا وخاب ظنُّنا. أصلَحْنا لك الأمر و وطّدْنا لك الإمْرة وأجلبْنا على عثمان حتّى قُتل، فلمّا طلبك النّاس لأمرهم أسرعنا إليك وبايعناك، وقُدْنا إليك أعناقَ العرب، و وطئ المهاجرون والأنصار أعقابنا في بيعتك، حتّى إذا ملكْتَ عنانك استبدَدْت برأيك عنّا ورفضتَنا رفض التّريكة[1] وأذلْتَنا إذالة[2] الإماء وملّكت أمرَك الأشتر وحُكَيم بن جَبَلة وغيرهما من الأعراب ونُزّاع الأمصار، فكنّا فيما رجوناه منك وأمّلْناه من ناحيتك، كما قال الأوّل:

فكُنْتَ كمُهْريق الّذي في سقائه ... لرَقْراقِ آلٍ فوقَ رابِيَةٍ صَلْدِ

فلمّا جاء محمّد بن طلحة أبلَغه ذاك، فقال: اذهبْ إليهما فقل لهما: فما الّذي يرضيكما؟ فذهب وجاءه فقال: إنّهما يقولان: وَلِّ أحدَنا البصرة والآخر الكوفة! فقال: لاها الله! إذَنْ يحلُم الأديم ويستشري الفساد وتنتقض عليّ البلاد من أقطارها. والله إنّي لا آمَنُهما وهما عندي بالمدينة، فكيف آمنُهما وقد ولّيتُهما العراقيْن! اذهبْ إليهما فقل: أيّها الشّيخان، احذرَا من سَطْوة الله ونقْمته ولا تبغيَا للمسلمين غائلةً وكيدًا، وقد سمعتما قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

١ـ التَّريكة: «الّتي تتركه فلا يتزوّجها أحدٌ».

٢ـ الإذالة: الإهانة.

٣ـ القصص/ ٨٣.

فقام محمّد بن طلحة فأتاهما ولم يعُدْ إليه وتأخّرَا عنه أيّامًا، ثمّ جاءاه فاستأذناه في الخروج إلى مكّة للعمرة، فأذِن لهما بعد أن أحلَفَهما ألّا ينقضا بيعتَه ولا يغدِرا به ولا يشقّا عصا المسلمين ولا يُوقِعا الفرقة بينهم وأن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالمدينة، فحلفَا على ذلك كلّه، ثمّ خرجَا ففعلَا ما فعلَا.

وروى شيخنا أبو عثمان، قال: لمّا خرج طلحة والزّبير إلى مكّة وأوْهَمَا النّاس أنّهما خرجَا للعمرة، قال عليّ عليه السلام لأصحابه: والله ما يريدان العمرة وإنّما يريدان الغَدْرة ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

وروى الطّبريّ في التّاريخ، قال: لمّا بايع طلحة والزّبير عليًّا عليه السلام سألاه أن يؤمّرهما على الكوفة والبصرة، فقال: بل تكونان عندي أتجمّل بكما، فإنّني أستوحش لفراقكما.

قال الطّبريّ: وقد كان قال لهما قبل بيعتهما له: إن أحببتما أن تبايعاني، وإن أحببتما بايعتُكما، فقالا: لا، بل نبايعك. ثمّ قالا بعد ذلك: إنّما بايعناه خشيةً على أنفسنا، وقد عرفنا أنّه لم يكن ليبايعنا. ثمّ ظهرَا إلى مكّة، وذلك بعد قتل عثمان بأربعة أشهر.

وروى الطّبريّ أيضًا في التّاريخ قال: لمّا بايع النّاس عليًّا وتمّ له الأمر، قال طلحة للزّبير: ما أرى أنّ لنا من هذا الأمر إلّا كحِسّة[2] أنف الكلب.

وروى الطّبريّ أيضًا في التّاريخ، قال: لمّا بايع النّاس عليًّا عليه السلام بعد قتل عثمان، جاء عليٌّ إلى الزّبير فاستأذن عليه. قال أبو حبيبة مولى الزّبير: فأعلمتُه به، فسلّ السّيفَ و وضعه تحت فراشه وقال: ائذنْ له. فأذنتُ له فدخل فسلّم علَى الزّبير وهو واقفٌ ثمّ خرج. فقال الزّبير: لقد دخل لأمرٍ ما قضاه؛ قمْ مقامه وانظرْ هل ترى من السّيف شيئًا! فقمتُ في مقامه فرأيت ذُباب السّيف فأخبرتُه وقلت: إنّ ذباب السّيف لَيظهر لمن قام في هذا الموضع، فقال: ذاك أعجَل الرّجل.

١ـ الفتح / ١٠.

٢ـ كذا في تاريخ الطّبريّ ١: ٣٠٦٩ (طبع أُوروبا)، والكلمة غير واضحةٍ في الأُصول.

وروى شيخنا أبو عثمان، قال: كتب مُصْعب بن الزّبير إلى عبد الملك: مِن مصعب ابن الزّبير إلى عبد الملك بن مروان: سلام عليك، فإنّي أحمَد إليك الله الّذي لا إله إلّا هو، أمّا بعد:

سَتَعْلَمُ يا فَتَى الزَّرْقَاء أنِّي ... سأهتِك عن حلائلك الحِجَابَا

وأترك بلدةً أصبحت فيها ... تَهوّر من جَوانبها خَرَابَا

أما إنّ لله عليّ الوفاء بذلك إلّا أن تتراجع أو تتوب! ولعمري ما أنت كعبد الله بن الزّبير ولا مروان كالزّبير بن العوّام، حواريّ رسول الله ﷺ وابن عمّته. فسَلِّم الأمر إلى أهله فإنّ نجاتك بنفسك أعظم الغنيمتيْن. والسّلام.

فكتب إليه عبد الملك: من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، إلى الذّلول الّذي أخطأ مَن سمّاه المُصْعب: سلام عليك، فإنّي أحمَد إليك الله الّذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد:

أَتُوعِدُني وَلَمْ أَرَ مِثْلَ يومِي ... خَشاش الطّير يوعِدن الْعُقَابَا

مَتَى تَلْقَ العُقاب خَشَاشَ طيرٍ ... يهتِّك عن مقاتِلها الحِجَابَا

أتوعد بالذّئاب أُسودَ غابٍ ... وأُسْدُ الغاب تَلتَهِم الذّئَابَا!

أمّا ما ذكرت من وفائك، فلعمري لقد وفّى أبوك لتيْم وعديّ بعَداء قريش وزعانفها، حتّى إذا صارت الأُمور إلى صاحبها عثمان، الشّريف النّسب، الكريم الحسب، بغاه الغوائل وأعدّ له المخاتل حتّى نال منه حاجته. ثمّ دعا النّاس إلى عليّ وبايعه، فلمّا دانت له أُمور الأُمّة وأجمعت له الكلمة وأدركه الحسد القديم لبني عبد مناف، فنقض عهدَه ونكث بيعتَه بعد توكيدها، فـ ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[1] وتمزّقت لحمه الضّباع بوادي السّباع.

١ـ المدّثر/ ١٨- ١٩.

ولعمري إنّك تعلم يا أخا بني عبد العُزّى بن قصيّ أنّا بنو عبد مناف لم نزل سادتَكم وقادتكم في الجاهليّة والإسلام، ولكنّ الحسد دعاك إلى ما ذكرت، ولم ترِثْ ذلك عن كلالة بل عن أبيك، ولا أظنّ حسدك وحسد أخيك يؤول بكما إلّا إلى ما آل إليه حسدُ أبيكما مِن قبل، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[1]، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2].

وروى أبو عثمان أيضًا، قال: دخل الحسن بن عليّ عليهما السلام على معاوية، وعنده عبد الله بن الزّبير ـ وكان معاوية يحبّ أن يغري بين قريش ـ فقال: يا أبا محمّد، أيّهما كان أكبرَ سنًّا، عليٌّ أم الزّبير؟ فقال الحسن: ما أقرب ما بينهما وعليٌّ أسنّ من الزّبير! رحم الله عليًّا! فقال ابن الزّبير: رحم الله الزّبير.

وهناك أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب، فقال: يا عبد الله، وما يهيجك من أن يترحّم الرّجل على أبيه! قال: وأنا أيضًا ترحّمتُ على أبي! قال: أ تظنّه نِدًّا له وكفؤًا؟ قال: وما يعدل به عن ذلك! كلاهما من قريش وكلاهما دعا إلى نفسه ولم يتمّ له. قال: دعْ ذاك عنك يا عبد الله؛ إنّ عليًّا من قريش ومن الرّسول صلى الله عليه وآله حيث تعلم، ولمّا دعا إلى نفسه أتبع فيه وكان رأسًا، ودعا الزّبير إلى أمرٍ كان الرّأس فيه امرأة. ولمّا تراءت الفئتان نكَص على عَقِبيْه وولّى مدبرًا قبل أن يظهر الحقّ فيأخذه، أو يدحض الباطل فيتركه. فأدركه رجلٌ لو قيسَ ببعض أعضائه لكان أصغَر، فضرب عنقه وأخذ سَلَبه وجاء برأسه، ومضى عليٌّ قُدُمًا كعادته مع ابن عمّه، رحم الله عليًّا!

فقال ابن الزّبير: أما لو أنّ غيرك تكلّم بهذا يا أبا سعيد، لعلم! فقال: إنّ الّذي تعرّض به يرغب عنك. وكفّه معاوية فسكتوا.

١ـ فاطر/ ٤٣.

٢ـ الشعراء/ ٢٢٧.

وأُخبِرتْ عائشة بمقالتهم ومرّ أبو سعيد بفِنائها، فنادتْه: يا أبا سعيد، أنت القائل لابن أُختي كذا؟ فالتفت أبو سعيد فلم يرشيئًا فقال: إنّ الشّيطان يراك ولا تراه! فضحكت عائشة وقالت: لله أبوك! ما أذلق لسانك! (١١: ٧ـ٢٠)

(كتابه: ٥٤) ومن كتاب له عليه السلام إلى طلحة والزّبير مع عمران بن الحصين الخزاعيّ، وذكر هذا الكتاب أبو جعفر الإسكافيّ في كتاب «المقامات»:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتُمَا ـ وَإِنْ كَتَمْتُمَا ـ أَنِّي لَمْ أُرِدِ النّاس حَتَّى أَرَادُونِي وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي، وَإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي، وَإِنَّ العَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ وَلا لِحرْصٍ حَاضِرٍ. فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعَيْنِ فارْجِعَا وَتُوبَا إِلَى اللهِ مِنْ قَرِيبٍ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ.

وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقِّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمانِ، وَإِنَّ دَفْعَكُمَا هذَا الْأَمْرَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلاَ فِيهِ كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ. وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمانَ، فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ.

فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا، فَإِنَّ الْآنَ أَعْظَمُ أَمْرِكُمَا الْعَارُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ الْعَارُ وَالنَّارُ. والسَّلام.

... قوله عليه السلام: «لم أُرِد النّاس»، أي لم أُرِد الولايةَ عليهم حتّى أرادوا هم منّي ذلك. قال: «ولم أبايعْهم حتّى بايَعوني»، أي لم أمدُدْ يدي إليهم مدّ الطّلب والحرْص على الأمر، ولم أمدُدها إلّا بعد أن خاطَبوني بالإمرَة والخلافة وقالوا بألسنتهم: قد بايعناك، فحينئذ مددتُ يدي إليهم.

قال: ولم يبايعني العامّة والمسلمون لسلطانٍ غصَبهم وقهَرهم على ذلك، ولا لحرصٍ حاضر، أي مال موجود فرّقتُه عليهم.

ثمّ قسَم عليهما الكلام فقال: إن كنتما بايَعتُماني طوعًا عن رضًا فقد وجب عليكما الرّجوع لأنّه لا وجه لانتقاض تلك البيعة. وإن كنتما بايَعتُماني مُكرَهيْن عليها

فالإكراه له صورةٌ، وهي أن يجرّد السّيف ويمدّ العنق، ولم يكن قد وقع ذلك ولا يمكنكما أن تدّعياه.

وإن كنتما بايَعتُماني لا عن رضًا ولا مكرهيْن بل كارهيْن، وبين المُكرَه والكاره فرقٌ بيّنٌ، فالأُمور الشّرعيّة إنّما تُبنى على الظّاهر، وقد جعلتما لي على أنفسكما السّبيل بإظهاركما الطّاعة والدّخول فيما دخل فيه النّاس، ولا اعتبار بما أسررْتما من كراهيّة ذلك. على أنّه لو كان عندي ما يكرهه المسلمون لكان المهاجرون في كراهيّة ذلك سواء؛ فما الّذي جعلكما أحقَّ المهاجرين كلّهم بالكتمان والتّقيّة!

ثمّ قال: وقد كان امتناعكما عن البيعه في مبدأ الأمر أجمل من دخولكما فيها ثمّ نكثها. قال: وقد زعمتما أنّ الشّبهة الّتي دخلت عليكما في أمري أنّي قتلتُ عثمان، وقد جعلتُ الحكَم بيني وبينكما مَن تخلّف عنّي وعنكما من أهل المدينة، أي الجماعة الّتي لم تَنصُر عليًّا ولا طلحة، كمحمّد بن مسلمة وأُسامة بن زيد وعبد الله بن عمر وغيرهم، يعني أنّهم غيرُ متَّهمين عليه ولا على طلحة والزّبير، فإذا حكموا لزم كلّ امرئٍ منّا بقدر ما تقتضيه الشّهادات. ولا شبهة أنّهم لو حكموا وشهدوا بصورة الحال لحكموا ببراءة عليّ عليه السلام مِن دم عثمان، وبأنّ طلحة كان هو الجملة والتّفصيل في أمره وحصره وقتله، وكان الزّبير مساعدًا له على ذلك وإن لم يكن مكاشفًا مكاشفة طلحة.

ثمّ نهاهما عن الإصرار على الخطيئة وقال لهما: إنّكما إنّما تخافان العار في رجوعكما وانصرافكما عن الحرب، فإن لم ترجعا اجتمع عليكما العار والنّار؛ أمّا العار فلأنّكما تهزمان وتفرّان عند اللّقاء فتعيّران بذلك، وأيضًا سيُكشف للنّاس أنّكما كنتما على باطلٍ فتعيّران بذلك. وأمّا النّار فإليها مصير العُصاة إذا ماتوا على غير توبة، واحتمال العار وحده أهوَنُ من احتماله واحتمال النّار معه. (١٧: ١٣٣ـ١٣٤)

[فصل فيما كان من أمر طلحة والزّبير عند قسم المال في ذلك]

ونحن نذكرها هاهنا في هذه القصّة ما ذكره شيخنا أبو جعفر الإسكافيّ[١] في كتابه الّذي نقض فيه كتاب «العثمانيّة» لشيخنا أبي عثمان، فإنّ الّذي ذكره لم نورده نحن فيما تقدّم.

قال أبو جعفر: لمّا اجتمعت الصّحابة في مسجد رسول الله ﷺ بعد قتْل عثمان للنّظر في أمر الإمامة، أشار[٢] أبو الهيثم بن التَّيِّهان ورفاعة بن رافع و مالك بن العجلان وأبو أيّوب الأنصاريّ وعمّار بن ياسر، بعليٍّ عليه السلام وذكروا فضله وسابقته وجهاده وقرابته، فأجابهم النّاس إليه. فقام كلّ واحد منهم خطيبًا يذكر فضل عليّ عليه السلام، فمنهم مَن فضَّله على أهل عصره خاصّةً ومنهم من فضَّله على المسلمين كلّهم كافّةً.

ثمّ بويع وصعد المنبر في اليوم الثّاني من يوم البيعة، وهو يوم السّبت لإحدى عشرة ليلة بَقينَ من ذي الحجّة، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر محمّدًا فصلّى عليه، ثمّ ذكر نعمة الله على أهل الإسلام، ثمّ ذكر الدّنيا فزهَّدهم فيها وذكر الآخرة فرغَّبهم إليها، ثمّ قال:

أمّا بعد، فإنّه لمّا قُبض رسول الله صلّى الله عليه استخلف النّاس أبا بكر، ثمّ استخلف أبو بكر عمر فعمِل بطريقه، ثمّ جعلها شورى بين ستّة فأفضى الأمر منهم إلى عثمان فعمِل ما أنكرتم فعرفتم[٣]، ثمّ حُصر وقُتل، ثمّ جئتموني طائعين فطلبتم إليّ.

١ـ هو محمّد بن عبدالله، أبو جعفر المعروف بالإسكافيّ، أحد المتكلّمين من معتزلة البغداديّين. قال الخطيب في تاريخه (٥: ٤١٦): «له تصانيف معروفة، وكان الحسين بن عليّ الكرابيسيّ يتكلّم معه ويناظره، وبلغني أنّه مات في سنة أربعين ومائتين».

٢ـ أشاروا بفضله، أي عرّفوا النّاس به.

٣ـ د: «وعرفتم».

وإنّما أنا رجلٌ منكم، لي ما لكم وعليّ ما عليكم. وقد فتح الله الباب بينكم وبين أهل القِبْلة، وأقبلت الفِتن كقطع اللّيل المظلِم ولا يحمِل هذا الأمرَ إلّا أهلُ الصّبر والبصر والعلم بمواقع الأمر. وإنّي حاملُكم على منهج نبيّكم صلى الله عليه وآله ومنفِذٌ فيكم ما أمرتُ به إن استقمتم لي وبالله المستعان.

ألا إنّ موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته كموضعي منه أيّام حياته، فامضُوا لِما تُؤمرون به وقِفُوا عند ما تنهوْن عنه ولا تعجلوا في أمرٍ حتّى نبيّنه لكم، فإنّ لنا عن كلّ أمر تنكرونه عذرًا.

ألا وإنّ الله عالمٌ من فوق سمائه وعرشه أنّي كنت كارهًا للولاية على أُمّة محمّد، حتّى اجتمع رأيُكم على ذلك، لأنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «أيّما والٍ وَلِيَ الأمر من بعدي، أُقيمَ على حدّ الصّراط ونشرتْ الملائكة صحيفته؛ فإنْ كان عادلًا أنجاه الله بعدله وإن كان جائرًا انتفض به الصّراط حتّى تتزايل مفاصله ثمّ يَهوي إلى النّار، فيكون أوّل ما يتّقِيها به أنفه وحرّ وجهه»، ولكنّي لمّا اجتمع رأيُكم لم يسعْني تركُكم.

ثمّ التفتَ عليه السلام يمينًا وشمالاً فقال: ألا لا يقولنّ رجال منكم غدًا قد غمرتْهم الدّنيا فاتّخذوا العَقار وفجّروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة واتّخذوا الوَصائف الرُّوقة[1]، فصار ذلك عليهم عارًا وشَنارًا، إذا ما منعتُهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتُهم إلى حقوقهم الّتي يعلمون، فينقِمون ذلك ويستنكرون ويقولون: حرمَنا ابنُ أبي طالب حقوقنا!

ألا وأيّما رجلٍ من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يرَى أنّ الفضل له على مَن سواه لصحْبته، فإنّ الفضل النّيّر غدًا عند الله، وثوابه وأجره على الله. وأيّما رجلٍ استجاب لله وللرّسول فصدّق ملّتنا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده.

فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسَّم بينكم بالسّويّة، لا فضلَ فيه لأحدٍ على أحدٍ، وللمتّقين عند الله غدًا أحسنُ الجزاء وأفضلُ الثّواب، لم يجعل الله الدّنيا

١ـ الرُّوقة: الحِسان.

للمتّقين أجرًا ولا ثوابًا، وما عند الله خيرٌ للأبرار. وإذا كان غدًا إن شاء الله فاغدُوا علينا، فإنّ عندنا مالًا نقسِمه فيكم، ولا يتخلّفنّ أحدٌ منكم، عربيٌّ ولا عجميٌّ، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلّا حضَر إذا كان مسلِمًا حُرًّا. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ثمّ نزل.

قال شيخنا أبو جعفر: وكان[1] هذا أوّلَ ما أنكروه من كلامه عليه السلام وأورثهم الضِّغن عليه وكرهوا إعطاءه وقَسْمه بالسّويّة. فلمّا كان من الغد، غدَا وغدَا النّاس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: ابدَأْ بالمهاجرين فنادِهم وأعطِ كلّ رجل ممّن حضر ثلاثة دنانير، ثمّ ثَنِّ بالأنصار فافْعل معهم مثل ذلك، ومن يحضر من النّاس كلّهم الأحمر والأسود فاصنعْ به مثل ذلك.

فقال سهل بن حَنِيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس وقد أعتقتُه اليوم، فقال: نعطيه كما نعطيك. فأعطَى كلّ واحد منهما ثلاثة دنانير ولم يفضِّل أحدًا على أحدٍ. وتخلّف عن هذا القَسْم يومئذ طلحة والزّبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ورجالٌ من قريش وغيرها.

قال: وسمع عبيدُ الله بن أبي رافع عبدَ الله بن الزّبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد: ما خَفِي علينا أمسِ من كلام عليّ ما يريد. فقال سعيد بن العاص ـ والتفت إلى زيد بن ثابت: إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة. فقال عبيد الله بن أبي رافع لسعيد وعبد الله بن الزّبير: إنّ الله يقول في كتابه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[2].

ثمّ إنّ عبيد الله بن أبي رافع أخبَر عليًّا عليه السلام بذلك، فقال: والله إنْ بقيتُ وسلِمت لهم لأُقيمنّهم على المحجّة البيضاء والطّريق الواضح، قاتل الله ابنَ العاص! لقد عرَف من كلامي ونظري إليه أمسِ أنّي أُريده وأصحابه ممّن هلَك فيمن هلَك.

---

١ ـ د: فكان.

٢ ـ الزّخرف/ ٧٨.

قال: فبينا النّاس في المسجد بعد الصّبح إذ طلع الزّبير وطلحة فجلسَا ناحية عن عليّ عليه السلام، ثمّ طلع مروان وسعيد وعبد الله بن الزّبير فجلسوا إليهما، ثمّ جاء قومٌ من قريش فانضمُّوا إليهم فتحدّثوا نجيًّا ساعةً، ثمّ قام الوليد بن عُقبة بن أبي معيط فجاء إلى عليّ عليه السلام فقال: يا أبا الحسن، إنّك قد وَتَرْتَنا جميعًا؛ أمّا أنا فقتلتَ أبي يوم بدْر صَبْرًا، وخذلتَ أخي يوم الدّار بالأمس. وأمّا سعيد فقتلتَ أباه يوم بدْر في الحرب ـ وكان ثورَ قريش ـ. وأمّا مروان فسخّفتَ أباه عند عثمان إذ ضمّه إليه، ونحن إخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضعَ عنّا ما أصبناه من المال في أيّام عثمان، وأن تقتل قتلَته. وإنّا إن خفناك تركناك فالتحقنا بالشّام.

فقال: أمّا ما ذكرتم من وِتري إيّاكم فالحقّ وتَركم. وأمّا وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حقَّ الله عنكم ولا عن غيركم. وأمّا قتلي قتلَة عثمان فلو لزِمَني قتْلُهم اليوم لقتلْتُهم أمس، ولكنْ لكم عليّ إن خفتموني أن أؤمِّنَكم وإن خفتُكم أنْ أُسيّرَكم.

فقام الوليد إلى أصحابه فحدّثهم، وافترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف. فلمّا ظهر ذلك من أمرهم، قال عمّار بن ياسر لأصحابه: قوموا بنا إلى هؤلاء النَّفَر من إخوانكم، فإنّه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكرهُ من الخلاف والطّعْن على إمامهم، وقد دخل أهلُ الجفاء بينهم وبين الزّبير والأعسر العاقّ ـ يعني طلحة.

فقام أبو الهيثم وعمّار وأبو أيّوب وسهل بن حَنيف وجماعة معهم، فدخلوا على عليّ عليه السلام فقالوا: يا أمير المؤمنين، انظرْ في أمرِك وعاتِبْ قومك، هذا الحيّ من قريش، فإنّهم قد نقَضوا عهدَك وأخلفوا وعدَك، وقد دعونا في السّرّ إلى رفضك، هداك الله لرشدك! وذاك لأنّهم كرِهوا الأُسوة وفقدوا الأثرة. ولمّا آسيتَ بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستشاروا عدوّك وعظّموه وأظهروا الطّلب بدم عثمان، فرقةً للجماعة وتألّفًا لأهل الضّلالة. فرأيك!

فخرج عليّ عليه السلام فدخل المسجد وصعد المنبر مرتديًا بطاقٍ، مؤتزرًا ببُرْدٍ قَطَريّ، متقلّدًا سيفًا، متوكّئًا على قوسٍ، فقال: أمّا بعد، فإنّا نحمد الله ربَّنا وإلهنا ووليّنا وولِيَّ

النِّعم علينا، الّذي أصبحتْ نِعمه علينا ظاهرةً وباطنةً، امتنانًا منه بغير حَوْلٍ منّا ولا قوّة، ليبلُوَنا أ نشكر أم نكفر، فمَن شكَر زاده ومَن كفَر عذّبه. فأفضلُ النّاس عند الله منزلةً وأقربهم من الله وسيلةً، أطوعُهم لأمره وأعملُهم بطاعته وأتبعُهم لسنّة رسوله وأحياهم لكتابه، ليس لأحدٍ عندنا فضلٌ إلّا بطاعة الله وطاعة الرّسول.

هذا كتاب الله بين أظهُرِنا، وعهد رسول الله وسيرته فينا، لا يجهل ذلك إلّا جاهلٌ عانِدٌ عن الحقّ، منكرٌ. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

ثمّ صاح بأعلى صوته أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول، فإن تَولّيتم فإنّ الله لا يحبّ الكافرين. ثمّ قال: يا معشر المهاجرين والأنصار، أ تمنّون على الله ورسوله بإسلامكم، بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين.

ثمّ قال: أنا أبو الحسن ـ وكان يقولها إذا غضب ـ ثمّ قال: ألا إنّ هذه الدّنيا الّتي أصبحتم تَمنّونها وترغبون فيها وأصبحتْ تغضِبكم وترضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الّذي خُلقتم له، فلا تغرّنّكم فقد حذرتموها. واستَتِمّوا نِعم الله عليكم بالصّبر لأنفسكم على طاعة الله والذّلّ لحكمه جلّ ثناؤه. فأمّا هذا الفيء فليس لأحدٍ على أحد فيه أثَرة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله، به أقررنا وله أسلمنا، وعهدُ نبيّنا بين أظهُرِنا، فمَن لم يَرض به فليتَولّ كيف شاء، فإنّ العاملَ بطاعة الله والحاكمَ بحكم الله لا وحشة عليه.

ثمّ نزل عن المنبر فصلّى ركعتين، ثمّ بعث بعمّار بن ياسر وعبد الرّحمن بن حنبل القرشيّ إلى طلحة والزّبير، وهما في ناحية المسجد فأتَياهما فدعَواهما، فقاما حتّى جلسا إليه عليه السلام، فقال لهما: نشدتُكما الله، هل جئتماني طائعيْن للبيعة ودعوتماني إليها وأنا كارهٌ لها! قالا: نعم، فقال: غيرَ مجْبَريْن ولا مقسوريْن، فأسلمتما لي بيعتكما وأعطيتماني عهدكما! قالا: نعم. قال: فما دعاكما بعدُ إلى ما أرى؟ قالا: أعطيناك

١ـ الحجرات/ ١٣.

بيعتَنا على ألّا تقضي الأُمور ولا تقطعها دوننا، وأن تستشيرنا في كلّ أمر ولا تستبدّ بذلك علينا، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت، فأنتَ تقسم القَسْم وتقطع الأمر، وتمضي الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا. فقال: لقد نقَمتما يسيرًا وأرجأتما كثيرًا، فاستغفرَا الله يغفر لكما. ألا تخبراني أدفعتُكما عن حقٍّ وجب لكما فظلمتكما إيّاه؟ قالا: معاذ الله! قال: فهل استأثرتُ من هذا المال لنفسي بشيء؟ قالا: معاذ الله! قال: أ فوقع حكمٌ أو حقٌّ لأحد من المسلمين فجهلتُه أو ضعفتُ عنه؟ قالا: معاذ الله! قال: فما الّذي كرهتما من أمري حتّى رأيتما خلافي؟ قالا: خلافك عمر بن الخطّاب في القَسم؛ أنّك جعلت حقّنا في القَسم كحقّ غيرنا وسوّيتَ بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا وأوجَفْنا[1] عليه بخيلنا ورَجلنا وظهرتْ عليه دعوتنا وأخذناه قسرًا قهرًا ممّن لا يرى الإسلام إلّا كَرْهًا.

فقال: فأمّا ما ذكرتماه من الاستشارة بكما، فو الله ما كانت لي في الولاية رغبة ولكنّكم دعوتموني إليها وجعلتموني عليها، فخفتُ أن أردّكم فتختلف الأُمّة. فلمّا أفضتْ إليّ نظرتُ في كتاب الله وسنّة رسوله فأمضيت ما دلّاني عليه وأتبعته، ولم أحتجْ إلى آرائكما فيه ولا رأي غيركما. ولو وقع حكمٌ ليس في كتاب الله بيانُه ولا في السنّة برهانه واحتيج إلى المشاورة فيه، لشاورتُكما فيه.

وأمّا القَسم والأُسوة، فإنّ ذلك أمرٌ لم أحكُم فيه بادئ بدء! قد وجدتُ أنا وأنتما رسولَ الله صلى الله عليه وآله يحكم بذلك، وكتاب الله ناطقٌ به، وهو الكتاب الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

وأمّا قولكما: جعلتَ فيئنا وما أفأتْه سيوفنا ورماحنا سواءً بيننا وبين غيرنا، فقديمًا سبق إلى الإسلام قومٌ ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلم يفضِّلهم رسول الله صلى الله عليه وآله في القَسم ولا آثرهم بالسّبْق. والله سبحانه مُوفٍ السّابقَ والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلّا هذا. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحقّ

١ـ ما أوجفنا: ما أعملنا.

وألهمَنا وإيّاكم الصّبر. ثمّ قال: رحم الله امرأً رأى حقًّا فأعان عليه ورأى جَوْرًا فردّه وكان عونًا للحقّ على مَن خالفه.

قال شيخنا أبو جعفر: وقد رُوي أنّهما قالا له وقت البيعة: نُبايعك على أنّا شركاؤك في هذا الأمر، فقال لهما: لا، ولكنّكما شريكاي في الفيء، لا أستأثر عليكما ولا على عبد حبشيّ مُجدَّع بدرهم فما دونه، لا أنا ولا وَلَداي هذان. فإن أبيتما إلّا لفظ الشّركة، فأنتما عَوْنان لي عند العجز والفاقة، لا عند القوّة والاستقامة. قال أبو جعفر: فاشترطا ما لا يجوز في عَقْد الأمانة وشرط عليه السلام لهما ما يجب في الدّين والشّريعة.

قال رحمه الله تعالى: وقد رُوي أيضًا أنّ الزّبير قال في ملأٍ من النّاس: هذا جزاؤنا مِن عليّ! قمنا له في أمر عثمان حتّى قُتِل، فلمّا بلغ بنا ما أراد، جعل فوقنا مَن كنّا فوقه. وقال طلحة: ما اللّوم إلّا علينا؛ كنّا معه أهل الشّورى ثلاثة، فكرهه أحدنا ـ يعني سعدًا ـ وبايعناه، فأعطيناه ما في أيدينا ومنعَنا ما في يده. فأصبحنا قد أخطأنا اليوم ما رجوْناه أمس، ولا نرجو غدًا ما أخطأنا اليوم.

فإن قلت: فإنّ أبا بكر قسَّم بالسّواء كما قسّمه أمير المؤمنين عليه السلام، ولم ينكروا ذلك كما أنكروه أيّام أمير المؤمنين عليه السلام، فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إنّ أبا بكر قسّم محتذيًا لقَسْم[1] رسول الله صلى الله عليه وآله، فلمّا وَلي عمر الخلافة وفضَّل قومًا على قوم أَلِفوا ذلك ونسُوا تلك القسمة الأُولى وطالت أيّام عمر وأُشرِبَتْ قلوبُهم حُبّ المال وكثرة العطاء. وأمّا الّذين اهتضَموا فقنعوا ومَرَنوا على القناعة، ولم يخطر لأحدٍ من الفريقين له أنّ هذه الحال تنتقض أو تتغيّر بوجهٍ ما. فلمّا وَلي عثمان أجرَى الأمر على ما كان عمر يُجريه، فازداد وثوقُ القوم بذلك، ومن أَلِفَ أمرًا أشقّ عليه فراقه وتغيير العادة فيه.

فلمّا وَلِي أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يردّ الأمر إلى ما كان في أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر، وقد نسي ذلك ورفض وتخلّل بين الزّمانين اثنتان وعشرون سَنة، فشقّ

---

١ ـ د: «محتذيًا بالقَسْم رسول الله».

ذلك عليهم وأنكروه وأكبروه حتّى حدَث ما حدث من نقض البيعة ومفارقة الطّاعة، ولله أمرٌ هو بالغه! (٧: ٣٥ ـ ٤٣)

[أمر طلحة والزّبير مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعد بيعتهما له]

(الخطبة: ٨) ومن كلام له عليه السلام يعني به الزّبير في حالٍ اقتضت ذلك:

يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ، فَقَدْ أَقَرَّ بِالبَيْعَةِ وَادَّعَى الْوَلِيجَةَ؛ فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ، وَإِلَّا فَلْيَدخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ.

لمّا بويع عليٌّ عليه السلام كتب إلى معاوية: أمّا بعدُ، فإنّ النّاس قتلوا عثمان عَن غير مشورة منّي، وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع، فإذا أتاك كتابي فبايعْ لي وأوفِدْ إليّ أشرافَ أهل الشّام قبلك. فلمّا قَدِم رسولُه على معاوية وقرأ كتابه، بعث رجلًا من بني عُمَيْس وكتب معه كتابًا إلى الزّبير بن العوّام، وفيه:

بسم الله الرّحمن الرّحيم، لعبد الله الزّبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان: سلام عليك. أمّا بعد، فإنّي قد بايعتُ لك أهل الشّام، فأجابوا واستوسقوا[1] كما يستوسق الْجَلَب. فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنّه لا شيء بعد هذين المِصْرين. وقد بايعتُ لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظْهِرَا الطّلب بدم عثمان وادْعُوَا النّاس إلى ذلك، وليَكُنْ منكما الجِدّ والتّشمير، أظفركما الله وخذل مناوِئكما!

فلمّا وصل هذا الكتاب إلى الزّبير سُرّ به وأعلم به طلحة وأقرأه إيّاه، فلم يشكّا في النّصح لهما من قِبَل معاوية وأجمعا عند ذلك على خلاف عليّ عليه السلام.

جاء الزّبير وطلحة إلى عليّ عليه السلام بعد البيعة بأيّام فقالا له: يا أمير المؤمنين، قد رأيتَ ما كنّا فيه من الجَفْوة في ولاية عثمان كلّها وعلمتَ رأيَ عثمان كان في بني أُميّة، وقد ولّاك الله الخلافة مِن بعده، فولِّنا بعضَ أعمالك. فقال لهما: ارضيا بقسْم الله لكما

---

١ ـ استَوسَقوا: استجمعوا وانضمّوا. وفي نهاية ابن الأثير: «ومنه حديث أُحُد: استوسقوا كما يستوسق جرب الغنم، أي استجمعوا».

حتّى أرى رأيي، واعلما أنّي لا أشرك في أمانتي إلّا مَن أرضى بدينه وأمانته مِن أصحابي ومَن قد عرفتُ دخيلتَه. فانصرفا عنه وقد دخَلهما اليأس، فاستأذَناه في العمرة.

طلب طلحة والزّبير من عليّ عليه السلام أن يولّيهما المِصريْن: البصرة والكوفة، فقال: حتّى أنظُر. ثمّ استشار المغيرة بن شعبة، فقال له: أرى أن تولّيهما إلى أن يستقيم لك أمر النّاس. فخلَا بابن عبّاس وقال: ما تَرى؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنّ الكوفة والبصرة عَيْن الخلافة، وبهما كنوز الرّجال، ومكان طلحة والزّبير من الإسلام ما قد علمتَ، ولستُ آمنُهما إن ولّيتَهما أنْ يُحدِثا أمرًا. فأخذ عليّ عليه السلام برأي ابن عبّاس.

وقد كان استشار المغيرة أيضًا في أمر معاوية، فقال له: أرى إقرارَه على الشّام وأن تبعثَ إليه بعهده إلى أن يسكنَ شغبُ النّاس ولك بعدُ رأيُك، فلم يأخذْ برأيه، فقال المغيرة بعد ذلك: والله ما نصحتُه قبلها ولا أنصحه بعدها ما بقيت.

دخل الزّبير وطلحة على عليّ عليه السلام فاستأذناه في العمرة، فقال: ما العمرةَ تريدان. فحلفَا له بالله أنّهما ما يريدان غير العمرة. فقال لهما: ما العمرةَ تريدان وإنّما تريدان الغَدْرة ونكْث البَيْعة. فحلفَا بالله ما الخلاف عليه ولا نكْث بيعةٍ يريدان وما رأيُهما غير العمرة. قال لهما: فأعِيدا البيعة لي ثانيةً، فأعاداها بأشدِّ ما يكون من الإيمان والمواثيق، فأذِنَ لهما. فلمّا خرجَا من عنده، قال لمَن كان حاضرًا: والله لا ترَوْنهما إلّا في فتنةٍ يقتتلان فيها. قالوا: يا أمير المؤمنين، فمُرْ بردّهما عليك. قال: لِيَقضِيَ الله أمرًا كان مفعولاً.

لمّا خرج الزّبير وطلحة من المدينة إلى مكّة لم يلقيَا أحدًا إلّا وقالا له: ليس لعليّ في أعناقنا بيعة، وإنّما بايعناه مكرَهين. فبلغ عليًّا عليه السلام قولهما فقال: أبعدَهما الله وأغربَ[1] دارهما. أما والله لقد علمتُ أنّهما سيقتُلان أنفسَهما أخبث مقتلٍ ويأتيان مَن وردَا عليه بأشأم يومٍ. والله ما العمرةَ يريدان، ولقد أتياني بوجهَيْ فاجريْن ورجعَا بوجْهَيْ

١ـ يقال: أغربُ دارٍ، أبعدها.

غادريْن ناكثيْن. والله لا يلقيانني بعد اليوم إلّا في كَتيبة خشناء، يقتُلان فيها أنفسهما، فبُعْدًا لهما وسحقًا. (١: ٢٣٠ـ ٢٣٣)

(الخطبة: ١٩٨) وقَالَ عليه السلام، وقَدْ قَالَ لَهُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ: نُبَايِعُكَ عَلَى أَنَّا شُرَكَاؤُكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فقال: [لا][1] ولَكِنَّكُمَا شَرِيكَانِ فِي الْقُوَّةِ وَالِاسْتِعَانَةِ وَعَوْنَانِ عَلَى الْعَجْزِ وَالْأَوَدِ.

الشّرح: قد ذكرْنا هذا فيما تقدّم حيث شرحنا بيعة المسلمين لعليّ عليه السلام كيف وقعتْ بعدَ مقتل عثمان. ولقد أحسن فيما قال لهما لمّا سألاه أن يُشركاه في الأمر، فقال: أمّا المشاركة في الخلافة فكيف يكون ذلك؟ وهل يصحّ أن يدبّر أمر الرّعيّة إمامان!

* وهل يُجْمَع السَّيفَان ويحك في غمْد *[2]

وإنّما تُشركاني في القوّة والاستعانة، أي إذا قَوِي أمري وأمر الإسلام بي قَويتما أنتما أيضًا، وإذا عجزتُ عن أمرٍ أو تأوّد عليَّ أمرٌ ـ أي اعوَجَّ ـ كنتما عَوْنين لي ومساعِدَين على إصلاحه. (١٩: ٢٢)

[بيعة جَرير بن عبد الله البَجَليّ لعليّ عليه السلام]

فأمّا خبر جرير بن عبد الله البجليّ وبعْث أمير المؤمنين عليه السلام إيّاه إلى معاوية، فنحن نذكره نقلًا من «كتاب صِفّين» لنصر بن مُزاحم بن بَشّار المِنْقريّ، ونذكر حالَ أمير المؤمنين عليه السلام منذ قَدِم الكوفة بعد وقعة الجمل، ومراسلته معاوية وغيره ومراسلة معاوية له ولغيره، وما كان من ذلك في مبدأ حالتهما إلى أن سار عليّ عليه السلام إلى صِفّين.

١ـ تكملة من «د».

٢ـ عجز بيت لأبي ذؤيب الهذليّ، وصدره:

* تريدين كَيْمَا تَجْمعِيني وَخَالدًا *

ديوان الهذليّين ١: ١٥٩.

قال نصر: حدّثني[١] محمّد بن عُبيد الله، عن الجرجانيّ، قال: لمّا قَدِم عليّ عليه السلام الكوفة بعد انقضاء أمرِ الجمل، كاتَب العمّال فكتب إلى جرير بن عبد الله البجليّ مع زَحْر بن قيس الجُعْفيّ ـ وكان جرير عاملًا لعثمان على ثغر هَمَذان[٢]:

أمّا بعد، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[٣]. وإنّي أُخبِرُك عن نبإ[٤] مَن سِرنا إليه من جُموع طلحة والزّبير عند نَكْثهم بيعتي[٥] وما صنعوا بعاملي عثمان بن حُنَيْف، وأنّي نهضتُ من المدينة بالمهاجرين والأنصار حتّى إذا كنت بالعُذَيْب[٦] بعثتُ إلى أهل الكوفة الحسنَ بن عليّ وعبد الله بن عبّاس وعمّار بن ياسر وقيس بن عبادة، فاستنفرتُهم فأجابوا، فسِرْتُ بهم حتّى نزلتُ بظهر البصرة فأعذرتُ في الدّعاء وأقَلْتُ العَثْرة وناشدتُهم عَهْد بيعتهم، فأبوْا إلّا قتالي، فاستعنتُ الله عليهم، فقُتل مَن قتل و ولّوا مدبِرين إلى مصرهم و سألوني ما كنتُ دعوتهم إليه قبل اللِّقاء، فقبِلت العافية ورفعتُ السّيف و استعملتُ عليهم عبدَ الله بن العبّاس وسرتُ إلى الكوفة وقد بعثت إليك زَحْر بن قيس، فاسأله عمّا بدا لك. والسّلام.

قال: فلمّا قرأ جريرٌ الكتاب، قام فقال: أيّها النّاس، هذا كتاب أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب عليه السلام وهو المأمون على الدّين والدّنيا، وقد كان مِن أمْره وأمر عدوّه ما نَحمَد الله عليه، وقد بايعه النّاس الأوّلون من المهاجرين والأنصار والتّابعين بإحسان. ولو جُعل هذا الأمر شورى بين المسلمين، كان أحقَّهم بها. ألا وإنّ البَقاء في الجماعة،

١ـ وقعة صفّين للمنقريّ: ١٩ وما بعدها.

٢ـ هَمَذان أو همذان، بالإعجام والإهمال: مدينة ببلاد الجبال من فارس.

٣ـ الرّعد/ ١١.

٤ـ ب: «أنبأ».

٥ـ كتاب صِفّين: «ببيعتهم».

٦ـ العُذَيب: ماءٌ عن يمين القادسيّة لبني تميم، بينه وبين القادسيّة أربعة أميال (مراصد الإطّلاع).

والفَناء في الفُرقة، وإنّ عليًّا حاملُكم على الحقّ ما استقمتُم؛ فإنْ مِلتم أقام ميْلَكم. فقال النّاس: سمعًا وطاعةً، رضينا رضينا. فكتب جرير إلى عليّ عليه السلام جواب كتابه بالطّاعة. قال نصر: وكان مع عليٍّ رجلٌ من طيئ، ابن أُختٍ لجرير، فحمّل زحْر بن قيس شعرًا له إلى خاله جرير، وهو:

جَريرَ بنَ عبدِ الله لا تردُدِ الهدَى ... بايعْ عليًّا إنّني لك ناصِحُ
فإنّ عليًّا خيرُ مَن وطِئَ الحَصَا ... سوى أحمدٍ، والموت غادٍ ورائحُ
ودَعْ عنك قولَ النّاكثين فإنّما ... أُولاك أبا عَمْرٍو كلابٌ نوابحُ[1]
وبايعْ إذا بايعتَه بنصيحةٍ ... ولا يَكُ مِنْها في ضَميرك قَادِحُ
فإنّك إنْ تطلُبْ بها الدّينَ تُعْطَهُ ... وإن تطلب الدُّنيا فإنّك رَابِحُ[2]
وإن قلتَ عثمان بن عفّان حَقّه ... عليَّ عظيمٌ والشّكُورُ مُنَاصِحُ
فحقّ عَليّ إذ وَليكَ كَحَقّهِ ... وشكرك ما أوْلَيْتَ في النّاس صَالِحُ
وإن قلت لا أرضى عليًّا إمَامَنا ... فدعْ عنك بحرًا ضلَّ فيه السّوابحُ
أبَى الله إلّا أنّهُ خيرُ دَهْرِهِ ... وأفضل مَنْ ضُمّتْ عَلَيْهِ الأباطِحُ[3]

قال نصر: ثمّ إنّ جريرًا أقام في أهل هَمَذان خطيبًا فقال: الحمد لله الّذي اختار لنفسه الحمد وتولّاه دون خَلْقه، لا شريك له في الحمد ولا نظير له في المجْد ولا إله إلّا الله وحده، الدّائم القائم، إله السّماء والأرض. وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله، أرسله بالنّور الواضح والحقّ النّاطق، داعيًا إلى الخير وقائدًا إلى الهدى.

ثمّ قال: أيّها النّاس، إنّ عليًّا قد كتب إليكم كتابًا لا يقال بعده إلّا رجيعٌ من القول، ولكنْ لا بدّ من ردّ الكلام. إنّ النّاس بايعوا عليًّا بالمدينة عن غيرِ محاباة له

١ـ أبو عمرو، كنية جَرير بن عبد الله البجليّ.

٢ـ وقعة صِفّين: «فبيْعك رابحُ».

٣ـ يريد بهم قريش البِطاح؛ وهم الّذين ينزلون بين أخشبيْ مكّة. والأخشبان جبلان بها.

ببيعتهم لعلْمه بكتاب الله وسنن الحقّ، وإنّ طلحة والزّبير نقضَا بيعتَه على غير محاباة حدّثتْ[1] وألّبَا عليه النّاس، ثمّ لم يرضيا حتّى نصبَا له الحرب وأخرجا أُمَّ المؤمنين، فلقيهما فأعذر في الدّعاء وأحسن في البقيّة وحمَل النّاس على ما يعرفون. فهذا عِيان ما غاب عنكم وإن سألتم الزّيادة زدناكم، ولا قوّة إلّا بالله، ثمّ قال:

أَتَانَا كِتَابُ عَلِيّ فَلَمْ ... نَرُدَّ الكتاب بِأَرْضِ الْعَجَمْ
ولَمْ نَعْصِ مَا فيهِ لمّا أَتَى ... ولَمّا نُذَمَّ ولَمّا نُلَمْ
ونَحْنُ ولاةٌ عَلَى ثَغْرِنَا ... نَضِيمُ العزيزَ ونَحْمِي الذِّمَمْ
نُساقِيهمُ الموتَ عِنْد اللِّقاء ... بكأسِ المنايا ونَشْفِي القَرَمْ
فصلّى الإلهُ على أحمدٍ ... رسول المليك تمام النِّعَمْ[2]
رسول المليك ومِنْ بعده ... خليفتنا القائم المُدَّعَمْ
عَلِيًّا عنيْتُ وصيَّ النّبيّ ... نجالدُ عنه غُواةَ الأُمَمْ
له الفَضْلُ والسَّبْقُ والمَكرُماتُ ... وبيت النّبوّة لا يُهْتَضَمْ

قال نصر: فسُرَّ النّاس بخطبة جرير وشعره. وقال ابن الأزور القَسْرِيّ في جرير يمدحه بذلك:

لَعَمْرُ أبيكَ والأنباء تَنْمِي ... لَقَدْ جَلّى بخطبتِهِ جَرِيرُ
وقَالَ مقالة جَدَعَتْ رِجَالًا ... من الحَيَّيْنِ خطبهمُ كَبِيرُ

١ـ ب: «على غير حدثٍ».

٢ـ لم يذكر هذا البيت في كتاب صفّين، وذكر موضعه:

طَحَنَاهُمُ طَحْنَةً بالْقَنَا ... وَضَرْبِ سُيوفٍ تُطِيرُ اللِّمَمْ
مَضَيْنَا يقينًا على ديننا ... ودينِ النّبيّ مُجَلّي الظُّلَمْ
أمينِ الإلهِ وبُرْهَانِه ... خليفتِنَا القائمِ المُدَّعَمْ

بـــدا بـــك قبـــل أُمّتـــه عـــليٌّ ... ومُخُّـــكَ إنْ رَدَدْتَ الحـــقّ رِيـــرُ[1]
أتـــاك بـــأمْرِهِ زَحْـــربـــن قَـــيْس ... وزَحْـــرٌبِـــالّتي حَـــدَثَتْ خَبِيـــرُ
فكنـــتَ لِمـــا أتـــاك بـــه سميعًـــا ... وكـــدتَ إليـــه مـــن فَـــرَح تطيـــرُ
فأنـــت بمـــا ســـعدتَ بـــه وليّ ... وأنـــت لِمـــا تعـــدّ لـــه نصِـــيرُ
وأحـــرزتَ الثَّـــواب ورُبّ حـــادٍ ... حَـــدَا بالرَّكْـــب لـــيس لـــه بعيـــرُ[2]

(٣: ٧٠ـ ٧٣)

[مفارقة جرير بن عبد الله البجليّ لعليّ عليه السلام]

قد أتينا على ما أردنا ذكره من حال أمير المؤمنين عليه السلام مذ قَدِم من حرب البصرة إلى الكوفة، وما جرَى بينه وبين معاوية من المراسلات، وما جرى بين معاوية وبين غيره من الصّحابة من الاستنجاد والاستصراخ وما أجابوه به. ونحن نذكر الآن ما جرى لجرير بن عبد الله عند عَوْده إلى أمير المؤمنين من تهمة الشّيعة له بمالأة معاوية عليهم ومفارقته جنبةَ أمير المؤمنين.

قال نصر بن مزاحم[3]: حدّثنا صالح بن صدقة بإسناده، قال: قال لمّا رجع جريرٌ إلى عليّ عليه السلام كثُر قول النّاس في التّهمة لجرير في أمر معاوية، فاجتمع جرير والأشتر عند عليّ عليه السلام، فقال الأشتر: أما والله يا أمير المؤمنين، أنْ لو كنتَ أرسلتَني إلى معاوية لكنتُ خيرًا لك من هذا الّذي أرخَى خِنَاقه وأقام عنده، حتّى لم يدعْ بابًا يرجو فتحه إلّا فتَحه ولا بابًا يخاف أمره إلّا سدّه.

١ـ يقال: مُخٌّ رير، إذا كان فاسدًا.

٢ـ بعده في كتاب صِفّين:

لِيَهْنِـــكَ مَـــا سَـــبَقْتَ بـــهِ رِجـــالاً ... مِـــن العليـــاء والفضْـــل الكبيـــر

٣ـ كتاب صِفّين: ٦٦ـ ٦٨.

فقال جرير: لو كنتَ والله أتيتَهم لقتلوك ـ وخوّفه بعمرو، وذي الكَلاع، وحَوْشب ـ وقال: إنّهم يزعمون أنّك من قتَلة عثمان.

فقال الأشتر: والله لو أتيتُهم يا جرير لم يُعيني جوابها ولم يثقل عليّ مَحْملها ولحملتُ معاوية على خُطّة أعجلُه فيها عن الفِكْر. قال: فائْتِهم إذنْ. قال: الآن وقد أفسدتهم و وقَع بينهم الشّرّ!

وروى نصر، عن نُمير بن وعلة، عن الشّعبيّ قال[1]: اجتمع جرير والأشتر عند عليّ عليه السلام، فقال الأشتر: أ ليس قد نهيتُك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريرًا وأخبرتُك بعداوته وغشّه! وأقبل الأشتر يشتِمه ويقول: يا أخا بَجيلة، إنّ عثمان اشترى منك دينَك بهَمَذان، والله ما أنت بأهلٍ أن تترُك تمشي فوق الأرض؛ إنّما أتيتَهم لتتّخِذَ عندهم يدًا بمسيرك إليهم، ثمّ رجعتَ إلينا من عندهم تهدّدنا بهم، وأنت والله منهم ولا أرى سعيَك إلّا لهم؛ لئن أطاعني فيك أمير المؤمنين لَيحبسنّك وأشباهك في حبس لا تخرجون منه حتّى تَستَتِمّ هذه الأُمور ويُهلِك الله الظّالمين. قال جرير: وددتُ والله أنْ لو كنتَ مكاني، بُعثتَ إذنْ والله لم ترجع.

قال: فلمّا سمع جرير مثل ذلك من قوله، فارَق عليًّا عليه السلام فلحِق بقَرْقِيسا[2] ولحق به ناسٌ مِن قَسْر[3] من قومه، فلم يشهد صِفّين مِن قَسْر غير تسعة عشر رجلًا ولكن شهدها مِن أحمَس[4] سبعمائة رجل.

قال نصر: وقال الأشتر فيما كان من تخويف من جرير إيّاه بعمرو وحَوْشب [وذي الكَلاع][5]:

١ـ نفس المصدر.

٢ـ قَرقيسياء: بلدٌ بالخابور عند مصبّه.

٣ـ قَسْر: رهط جرير بن عبد الله البجليّ.

٤ـ أحمَس: بطنٌ في بَجيلة.

٥ـ من كتاب صِفّين.

لعمرُك يا جريرُ لقول عَمْرو ... وصاحبه معاويَ بالشّام
وذي كَلَع وحَوْشبَ ذي ظُلَيْمٍ ... أخفُّ عَليَّ من رِيشِ النّعام[1]
إذَا اجتمعوا عَليَّ فخلِّ عنهم ... وعن بازٍ مخالبه دوامي
ولَسْتُ بخائفٍ ما خوَّفوني ... وكيف أخاف أحلام النِّيام!
وهَمُّهم الّذي حامُوا عليهِ ... من الدّنيا، وهَمّي من أمامي[2]
فإنْ أسْلَمْ أعمّهُمُ بحرْبٍ ... يشيبُ لهوْلها رأس الغلام
وإنْ أهْلِك فقد قدّمْتُ أمرًا ... أفوز بفَلْجِه يَوْمَ الخِصام[3]
و قد زادُوا عَليَّ وأوْعَدني ... ومَن ذا مات مِن خوف الكلام

(٣: ١١٥ـ ١١٧)

[دعوة عليّ عليه السلام معاويةَ إلى البيعة والطّاعة، وردّ معاوية عليه]

قال نصر[4]: فلمّا أراد عليّ عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً، قال له جرير: ابعثني يا أمير المؤمنين إليه، فإنّه لم يزلْ لي مُسْتخِصًّا[5] و وُدًّا[6]، آتيه[7] فأدعوه على أنْ يسلّم لك هذا الأمر ويجامعك على الحقّ، على أن يكون أميرًا من أُمرائك وعاملًا من عُمّالك، ما

١ـ صِفّين: « من زفّ النّعام»، والزّفّ: صغار ريش النّعام.

٢ـ صِفّين: « ما أمامي».

٣ـ الفلج: الفوز والانتصار.

٤ـ وقعة صِفّين للمنقريّ: ٣٢ وما بعدها.

٥ـ كذا في الأُصول، وفي صِفّين: «مستنصحًا».

٦ـ وُدًّا، بضمّ الواو، أي ذا ودّ، على حذف المضاف.

٧ـ كتاب صِفّين: «نأتيه».

عَمِل بطاعة الله واتّبع ما في كتاب الله، و أدعو أهلَ الشّام إلى طاعتك و ولايتك، فجُلّهم قومي وأهلُ بلادي وقد رجوتُ ألّا يعصوني.

فقال له الأشتر: لا تبعثْه ولا تصدِّقه، فو الله إنّي لأظنّ هواه هواهم و نيّته نيّتهم. فقال له عليّ عليه السلام: دعْه حتّى ننظر ما يرجع به إلينا. فبعثه عليّ عليه السلام وقال له عليه السلام حين أراد أن يبعثه: إنّ حولي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من أهل الرّأي والدِّين مَن قد رأيتَ، وقد اخترتُك عليهم لقول رسول الله فيك: «إنّك مِن خيرذي يَمَن»[1]، ائت معاوية بكتابي، فإنْ دخل فيما دخل فيه المسلمون، وإلّا فانْبِذْ[2] إليه وأعلِمْه أنّي لا أرضى به أميرًا، وأنّ العامّة لا ترضى به خليفةً.

فانطلق جرير حتّى أتى الشّام ونزل بمعاوية. فلمّا دخل عليه حَمِد الله وأثنَى عليه وقال: أمّا بعد يا معاوية، فإنّه قد اجتمع لابن عمّك أهلُ الحرمَيْن وأهل المصريْن وأهل الحجاز وأهل اليمن وأهل مِصْر وأهل العَروض ـ والعروض عُمان ـ وأهل البحرين واليمامة؛ فلم يبق إلّا هذه الحصون الّتي أنت فيها، لو سال عليها سيلٌ من أوديته غرَّقها. وقد أتيتُك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرّجل. ودفَع إليه كتابَ عليّ عليه السلام وفيه:

أمّا بعد، فإنّ بيعتي بالمدينة لزمتْك وأنت بالشّام، لأنّه بايَعني القوم الّذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه، فلم يكن للشّاهد أن يختار ولا للغائب أن يَرُدّ. وإنّما الشّورى للمهاجرين والأنصار، إذا اجتمعوا علَى رجلٍ فسمَّوْه[3] إمامًا كان

١ـ أي من خير أهل اليمن.

٢ـ فانبِذْ إليه، في اللّسان: «المنابذة: أن يكون بين فريقيْن مختلفين عهدٌ وهدنةٌ بعد القتال، ثمّ أرادا نقض ذلك العهد، فينبذ كلّ فريقٍ منهما إلى صاحبه العهد الّذي تهادنا عليه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ الأنفال / ٥٨.

٣ـ ب: «وسمّوه».

ذلك لله رضًا؛ فإن خرج مِن أمرهم خارجٌ بطعْنٍ أو رغبةٍ ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أَبَى قاتلوه على اتّباع سبيل المؤمنين و ولّاه الله ما تولّى ويُصليه جهنّم وساءت مصيرًا.

وإنّ طلحة والزّبير بايعاني ثمّ نقضَا بيعتي، فكان نقْضهما كردّتهما، فجاهدتُهما على ذلك حتّى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون. فادخُلْ فيما دخل فيه المسلمون، فإنّ أحبّ الأُمور إليّ فيك العافية إلّا أن تتعرّض للبلاء، فإن تعرّضتَ له قاتلتُك واستعنتُ بالله عليك.

وقد أكثرتَ في قتلة عثمان، فادخُلْ فيما دخل فيه النّاس، ثمّ حاكِم القوم إليّ، أحملك وإيّاهم على كتاب الله. فأمّا تلك الّتي تريدها فخُدْعة الصّبيّ عن اللّبن. ولعمري لئن نظرتَ بعقلك دون هواك، لتجدنّي أبرأ قريش مِن دم عثمان.

واعلمْ أنّك من الطُّلَقاء[1] الّذين لا يحلّ لهم الخلافة ولا تعرَض فيهم الشّورى. وقد أرسلتُ إليك [وإلى مَن قِبَلك][2] جرير بن عبد الله البجليّ، وهو من أهل الايمان والهجرة، فبايعْ ولا قوّة إلّا بالله.

فلمّا قرأ الكتاب، قام جريرٌ فخطب فقال: الحمد لله المحمود بالعوائد، والمأمول منه الزّوائد، المرتجَى منه الثّواب، المستعان على النّوائب. أحمده وأستعينه في الأُمور الّتي تحيّر دونها الألباب [وتضمحلّ عندها الأسباب]، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، كلّ شيء هالكٌ إلّا وجهه، له الحُكم وإليه تُرجعون. وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله، أرسله بعد فترةٍ من الرّسل الماضية والقرون الخالية [والأبدان البالية والجبلّة الطّاغية]، فبلّغ الرّسالة ونصَح للأُمّة وأدّى الحقّ الّذي استودعه الله وأمَره بأدائه إلى أُمّته صلى الله عليه وآله، من رسولٍ ومبتَعث ومنتجب[3] وعلى آله.

١ـ الطّلقاء، جمع طليق؛ وهم الأُسارى الّذين أطلقهم الرّسول صلى الله عليه وآله يوم فتح مكّة ولم يسترقّهم.

٢ـ تكملة من كتاب صِفّين.

٣ـ المنتجب: المصطفى المختار.

أيّها النّاس، إنّ أمْر عثمان قد أعيا مَن شهده، فكيف بمَن غاب عنه! وإنّ النّاس بايَعوا عليًّا غيرَ واترٍ ولا موتور، وكان طلحة والزّبير ممّن بايعاه ثمّ نكثَا بيعته على غير حَدَث. ألا وإنّ هذا الدّين لا يحتمل الفِتَن [ألا وإنّ العرب لا تحتمل الفتن]، وقد كانتْ بالبصرة أمس روعةٌ ملحمة أنْ يَشفَع البلاء بمثلها، فلا بقاء للنّاس.

وقد بايعت الأُمّة[1] عليًّا، ولو ملّكنا والله الأُمور[2] لم نخترْ لها غيره. فادخُلْ يا معاوية فيما دخل فيه النّاس. فإن قلت: استَعملَني عثمان ثمّ لم يعزِلْني؛ فإنّ هذا قول لو جاز لم يقمْ لله دينٌ، وكان لكلّ امرئٍ ما في يديه. ولكنّ الله جعل للآخر من الولاة حقّ الأوّل وجعل الأُمورَ موطأة ينسَخ بعضُها بعضًا ثم قعد.

قال نصر: فقال معاوية: أنظُرُ وتنظر، وأستطلع رأيَ أهل الشّام. فمضت أيّامٌ، وأمَر معاوية مناديًا ينادي: الصّلاة جامعةً! فلمّا اجتمع النّاس صَعِد المنبر ثمّ قال: الحمد لله الّذي جعل الدّعائم للإسلام أركانًا والشّرائع للإيمان برهانًا. يتوقّد قَبَسُه في الأرض المقدّسة، جعلها الله محلّ الأنبياء والصّالحين من عباده، فأحلّهم أرضَ الشّام[3] ورَضِيهم لها ورضيها لهم، لِما سبق في مكنون علمه مِن طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه والقوّام بأمره والذّابين عن دينه وحرُماته، ثمّ جعلهم لهذه الأُمّة نظامًا وفي سبيل الخيرات أعلامًا؛ يردع الله بهم النّاكثين ويجمع بهم أُلْفة المؤمنين، والله نستعين على ما تشعَّب من أمر المسلمين بعد الالتئام، وتباعَد بعد القرب.

اللّهم انصرْنا على أقوامٍ يوقظون نائمَنا ويُخيفون آمننا ويرُيدون إراقة[4] دمائنا وإخافة سبُلنا. وقد علم الله أنّا لا نريد لهم[5] عقابًا ولا نهتِك لهم حجابًا ولا نوطئهم

١ـ صِفّين: «العامّة».

٢ـ صفّين: «أُمورنا».

٣ـ صفّين: «فأحلّها أهل الشّام».

٤ـ صفّين: «هراقة دمائنا»، وهما بمعنًى.

٥ـ صفّين: «لم نُرِدْ بهم عقابًا».

زلَقًا، غير أنّ الله الحميد كَسانَا من الكرامة ثوبًا لن ننزِعه طوعًا، ما جاوَب الصَّدَى وسقَط النّدى وعُرف الهدَى. حملهم على ذلك البغيُ والحسد، فنستعين الله عليهم.

أيّها النّاس، قد علمتم أنّي خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفّان عليكم، وأنّي لم أقمْ رجلًا منكم على خَزايةٍ[1] قطّ، وأنّي وليُّ عثمان وقد قُتل مظلومًا، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾[2]، وأنا أُحبّ أن تُعلِموني ذاتَ أنفسكم في قتل عثمان.

فقام أهل الشّام بأجمعهم فأجابوا إلى الطّلب بدم عثمان وبايعوه على ذلك وأوثقوا له على أن يبذُلوا بين يديْه أموالهم وأنفسهم حتّى يدركوا بثأره أو تلتحق أرواحهم بالله.

قال نصر: فلمّا أمسى معاوية اغتمّ بما هو فيه، وجَنّه اللّيل وعنده أهل بيته فقال:

تَطاوَلَ لَيْلِي واعْتَرَتْنِي وَساوِسِي ... لِآتٍ أتى بالتُّرَّهاتِ الْبَسابِسِ[3]

أتاني جريرٌ والحوادث جَمّةٌ ... بتلك الّتي فيها اجتداعُ المعاطِسِ

أكايدُه والسَّيفُ بيني وبينَه ... ولستُ لأثوابِ الدَّنيء بلَابِسِ

إنِ الشّامُ أعطتْ طاعةً يمنيّةً ... تَواصَفَها أشْياخُها في الْمَجالِسِ

فإنْ يَفْعلُوا أصْدِمْ عليًّا بجبْهَةٍ ... تفتُّ عليه كلّ رطبٍ ويابِسِ

وإنّي لأرجو خيرما نال نائلٌ ... وما أنا مِن مُلْكِ العراق بآيِسِ

قلت: الجَبهة هاهنا: الخيل، ومنه قول النّبيّ صلى الله عليه وآله: «لَيْسَ فِي الْجَبْهَةِ صَدَقَةٌ»، أي زكاة.

١ـ على الخَزاية، أي حمْلهم على أمر يُستحيَى منه.

٢ـ الإسراء/ ٣٣.

٣ـ البَسابس: الأُمور الباطلة. والأبيات والخبر في الكامل: ١٨٤ (طبع أُوروبا).

قال نصر: فاستحثّه[١] جرير بالبيعة، فقال: يا جرير، إنّها ليست بخِلسة، وإنّه أمرٌ له ما بعده، فأبلِغْني ريقي [حتّى أنظر][٢]. ودعا ثقاته، فأشار عليه أخوه بعمرو بن العاص وقال له: إنّه مَن قد عرفتَ، وقد اعتزل عثمانَ في حياته، وهو لأمرِك أشدّ اعتزالاً إلّا أن يُثمَّن له دينُه[٣].

وقد ذكرنا فيما تقدّم خبر استدعائه عمرًا وما شرَط له من ولاية مصر، و استقدامِه شُرَحبيل بن السِّمط رئيس اليمنيّة وشيخها والمقدّم عليها، وتدسيس الرّجال إليه يُغرونه بعليّ عليه السلام ويشهدون عنده أنّه قتَل عثمان، حتّى ملئوا صدرَه وقلبه حقْدًا وتِرَةً وإحْنةً على عليّ عليه السلام وأصحابِه بما لا حاجة إلى إعادته[٤].

قال نصر: فحدّثني محمّد بن عُبيد الله عن الجرجانيّ، قال[٥]: جاء شُرَحبيل إلى حُصَين بن نُمير، فقال: ابعثْ إلى جرير فليأتنا، فبعث حُصين بن نمير إلى جرير أن زُرْنا

١ـ وقعة صِفّين: ٢٤٩.

٢ـ من كتاب وقعة صفّين.

٣ـ وقعة صفّين: «فقال له عتبة بن أبي سفيان ـ وكان نظيره ـ: اجتمعنّ على هذا الأمر بعمرو بن العاص، وأُثمّن له بدينه؛ فإنّه مَن قد عرفتَ، وقد اعتزل أمر عثمان في حياته، وهو لأمرك أشدّ اعتزالاً إلّا أن يرى فرصةً».

٤ـ الجزء الثّاني: ٦١ وما بعدها.

٥ـ صدْر هذا الخبر كما ورد في كتاب وقعة صفّين ٥٢: «لمّا قَدِم شرحبيل على معاوية تلقاه النّاس فأعظموه، ودخل على معاوية. فتكلّم معاوية فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: يا شرحبيل، إنّ جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة عليّ، وعليٌّ خير النّاس لولا أنّه قتَل عثمان بن عفّان، وقد حبستُ نفسي عليك، وإنّما أنا رجلٌ من أهل الشّام، أرضَى ما رضوا وأكرهُ ماكرهوا. فقال شرحبيل: أخرُج فأنظُر؛ فخرج فلقيه هؤلاء النّفر الموطّئون له، فكلّهم يُخبِره بأنّ عليًّا قتَل عثمان بن عفّان. فخرج مغضبًا إلى معاوية فقال: يا معاوية، أبى النّاس إلّا أنّ عليًّا قتَل عثمان، و والله لئن بايعتَ لنخرجنّك من الشّام أو لنقتلنّك. قال معاوية: ما كنتُ لأُخالف عليكم؛ وما أنا إلّا رجل أهل الشّام. قال: فردّ هذا الرّجل إلى صاحبه إذًا. قال: فعرَف معاوية أنّ

فعندنا شُرَحبيل، فاجتمعا عند حصين، فتكلّم شرحبيل فقال: يا جرير، أتيتَنا بأمر مُلَقَّفٍ[١] لتُلقِيَنا في لَهَوات الأسْد، وأردتَ أن تخلِط الشّام بالعراق، وأطْريت[٢] عليًّا وهو قاتِل عثمان. والله سائِلُك عمّا قلتَ يوم القيامة.

فأقبل عليه جريرٌ وقال: يا شرحبيل، أمّا قولك: إنّي جئتُ بأمر ملقَّف، فكيف يكون ملقَّفًا وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار، وقوتِل علَى ردّه طلحة والزّبير! وأمّا قولك: إنّي ألقِيك في لَهَوات الأسْد، ففي لَهَواها ألقيتَ نفسك. وأمّا خلطُ أهل الشّام بأهل العراق، فخلْطهما على حقٍّ خيرٌ مِن فُرقتهما على باطلٍ. وأمّا قولك: إنّ عليًّا قتَل عثمان، فوالله ما في يديك من ذلك إلّا القذْف بالغيب مِن مكان بعيد، ولكنّك مِلتَ إلى الدّنيا، وشيء كان في نفسك على زمن سعد بن أبي وقّاص! فبلَغ ما قالاه إلى معاوية، فبعث إلى جرير فزجَره.

قال نصر: وكُتب إلى شرحبيل كتاب لا يعرف كاتبه[٣] فيه:

شُرَحْبيل يا بنَ السِّمْط لا تَتْبَع الهوَى ... فما لَك فِي الدُّنْيَا مِن الدّين مِنْ بدَلْ

ولاَ تَـكُ كـالْمُجْرَى إلى شَـرِّ غايَـةٍ ... فَقَدْ خُرِّقَ السِّرْبالُ واسْتَنْوَقَ الجمَلْ

وقُلْ لابن حَرْب ما لك اليومَ خُلَّةٌ ... تـرومُ بهـا مـا رُمْـتَ واقْطَع لَـهُ الأمَـلْ[٤]

شُـرَحْبيل إنّ الحـقّ قَـدْ جَـدَّ جِـدُّهُ ... فكُـنْ فيـه مـأمونَ الأديم مـن النَّغَـلْ

وأَرْوِدْ ولا تُفْـرِطْ بشـيء نخافُـهُ ... عَلَيْكَ، ولا تَعْجَلْ فلا خَيْرَ فِي الْعجَلْ

شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق، وأنّ الشّام كلّه مع شرحبيل؛ فخرج شرحبيل فأتى حُصَين بن نمير...». وقد نقله المؤلّف مختصرًا فيما سبق في الجزء الثّاني: ٥٢ـ٥٣.

١ـ مُلَقَّف: غير محكم.

٢ـ صفّين: «أطرأتَ»؛ وهما بمعنى: «مدحتَ».

٣ـ وقعة صفّين: «وكتب جرير إلى شرحبيل».

٤ـ وقعة صفّين: «ما لك اليوم حرمةٌ ... واقطَعْ».

وقال ابنُ هندٍ في عليّ عَضيهةً ... ولله في صَدْرِ ابن أبي طالبٍ أجَلْ[١]

ومَا مِنْ عليّ في ابن عفّان سَقْطَةٌ ... بقولٍ، ولا مَالَا عليه ولا قتَلْ[٢]

ومَا كَانَ إلّا لازمًا قَعْرَ بَيْتِهِ ... إلى أن أتى عثمانَ في داره الأجَلْ

فَمَنْ قَال قَوْلاً غيرَ هذا فحسبُه ... من الزُّور والبهتان بعضُ الّذي احْتَمَلْ

وصيّ رسول الله مِن دونِ أهلِه ... ومَن باسمِه في فَضْلِه يُضْرَبُ المَثَلْ[٣]

قال نصر: فلمّا قرأ شرحبيل الكتاب ذُعِر وفكّر وقال: هذه نصيحةٌ لي في ديني، ولا والله لا أُعجّل في هذا الأمر بشيء، [وفي نفسي منه حاجة][٤]، وكاد يحول عن نصر معاوية ويتوقّف[٥]، فلقّى[٦] له معاوية الرّجال يدخلُون إليه ويخرجون، ويعظّمون عنده قتلَ عثمان ويرمُون به عليًّا ويقيمون الشّهادة الباطلة والكتبَ المختلقة، حتّى أعادوا رأيَه وشحَذوا عزمه[٧].

١ـ العَضيهة: الإفك والبُهتان.

٢ـ مَالَا عليه، أصله: «مالَأ» بالهمز، والممالأة: المعاونة. وفي صفّين: «ولا جلب عليه».

٣ـ في صفّين:

* من الزّورِ وَالْبُهْتَانِ قَوْلُ الّذي احْتَمَلْ *

٤ـ من كتاب وقعة صفّين.

٥ـ في وقعة صفّين: «واستترله القوم».

٦ـ كذا في ج، وفي ا، ب، «فلقوله» تصحيف، وفي صفّين: «فلقّف».

٧ـ بقيّة الخبر فيما نقل عن كتاب وقعة صفّين: «وبلغ ذلك قومه، فبعث ابن أُختٍ له مِن بارق ـ وكان يرى رأي عليّ بن أبي طالب ـ فبايعه بعد، وكان ممّن لحق من أهل الشّام، وكان ناسكًا، فقال:

لعمرُ أبي الأشق ابن هِندٍ لقد رَمَى ... شَرَحْبيلَ بالسَّهم الّذي هو قاتِلُهْ

ولَفَّ قومًا يَسْحَبُونَ ذيولَهُمْ ... جميعًا وأوْلَى النّاس بالذَّنبِ فاعِلُهْ

فَألْقَى يمانيًّا ضعيفًا نخَاعُهُ ... إلى كلّ مايَهْوَوْنَ تُحْدَى رواحِلُهْ

فَظاظًا لَهَا لمّا رَمَوْه بِثِقْلِهَا ... ولا يرزقُ التّقوى مِنَ اللهِ خاذِلُهْ

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد بإسناده قال[١]: بعث معاوية إلى شرحبيل بن السِّمْط: إنّه قد كان من إجابتك إلى الحقّ وما وقع فيه أجرُك على الله، وقَبِله عنك صُلَحاء النّاس ما علمت، وإنّ هذا الأمر الّذي نحن فيه لا يتمّ إلّا برضا العامّة، فسِرْ في مدائن الشّام ونادِ فيهم بأنّ عليًّا قتَل عثمان وأنّه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه.

فسار شرحبيل فبدأ بأهل حِمْص فقام فيهم خطيبًا ـ وكان مأمونًا في أهل الشّام ناسكًا مُتألِّهًا، فقال: أيّها النّاس، إنّ عليًّا قتل عثمان، فغضِب له قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه، فلقيَهم فهزم الجمع وقتل صلحاءهم وغلب على الأرض فلم يبق إلّا الشّام، وهو واضعٌ سيفه على عاتقه، ثمّ خائض غمرات[٢] الموت، حتّى يأتيَكم أو يُحدِث الله أمرًا، ولا نجد أحدًا أقوى على قتاله من معاوية، فجدّوا وانهضوا.

فأجابه النّاس كلّهم إلّا نُسّاكًا من أهل حِمْص، فإنّهم قالوا له: بيوتُنا قبورنا ومساجدنا، وأنت أعلم بما ترى.

ليأكل دنيا لابن هندٍ بدينهِ ... ألا وابنُ هندٍ قبلَ ذلكَ آكلُهْ

وقالوا عليّ في ابن عفّان خدعةً ... ودَبّتْ إليه بالسِّنانِ غوائلُهْ

ولا والّذي أرسَى ثبيرًا مكانَهُ ... لَقَدْ كُفّ عنهُ كَفُّهُ ووسائلُهْ

ومَا كانَ إلّا من صحابِ محمّدٍ ... وَكُلّهُم تغلِي عَلَيْهِ مراجِلُه

فلمّا بلغ شرحبيل هذا القول قال: «هذا بعيث الشّيطان، الآن امتحن الله قلبي. والله لأسيرنّ صاحب هذا الشّعر أو ليفوتنّني» فهرب الفتى إلى الكوفة ـ وكان أصله منها ـ وكاد أهل الشّام أن يرتابوا.

١ـ في صفّين: «محمّد بن عبيدالله وعمر بن سعد بإسناده، قال».

٢ـ صفّين: «غِمار الموت».

قال: وجعل شُرَحبيل يستنهض مدائن الشّام حتّى استفرغها، لا يأتي على قوم إلّا قَبِلوا ما أتاهم به، فبعث إليه النّجاشيّ بن الحارث[1] ـ وكان له صديقًا:

شُرَحْبِيلُ ما للدِّين فارقتَ ديننا[2] ولكِنْ لبغْض المالكيّ جريرِ
وشَحْنَاء دَبَّتْ بين سعدٍ وبَيْنَهُ فأصبحتَ كالحادِي بغيرِ بَعيرِ
[ومَا أنت، إذ كانت بجيلة عاتبتْ قريْشًا فيا للهِ بُعْد نصيرِ][3]
أ تفصِل أمرًا غِبْتَ عنه بشُبهةٍ وقد حَارَ فيه عقلُ كلّ بَصيرِ
بِقَوْلِ رجالٍ لم يكونوا أئمّةً ولا للَّتي لَقّوْكَهَا بحضُورِ
[وما قولُ قَوم غائبين تقاذفوا من الغيب ما دَلاّهمُ بغرورِ]
وتترك أنّ النّاس أعطَوْا عهودهَمُ عليًّا على أنسٍ به وسرورِ
إذا قيل هاتُوا واحدًا يقتدى به[4] نظيرًا له لم يُفصِحُوا بنظيرِ
لعلَّك أن تشقى الغداة بحربِه فليس الّذي قد جئته بصغيرِ

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن نُمَيْر بن وعلة، عن الشَّعبيّ، أن شرحبيل بن السِّمْط بن الأسود بن جَبَلة [الكنديّ] دخل على معاوية، فقال له: أنت عاملُ أمير المؤمنين وابن عمّه ونحن المؤمنون، فإن كنتَ رجلًا تُجاهِد عليًّا وقتلة عثمان حتّى ندرِك ثأرنا أو تذهب أرواحُنا استعملناك علينا، وإلّا عزلْناك واستعملنا غيرَك ممّن نريد، ثمّ جاهَدْنا معه حتّى ندرك بدم عثمان أو نهلِك.

١ـ في حواشي صفّين: «والمعروف في شعرائهم النّجاشيّ الحارثيّ، واسمه قيس بن عمرو بن مالك من بني الحارث بن كعب؛ وهو ممّن حدّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب لشربه الخمر».

٢ـ وقعة صفّين: «أمْرَنا».

٣ـ من كتاب وقعة صفّين.

٤ـ وقعة صفّين: «تقتدونه».

فقال جرير بن عبد الله ـ وكان حاضرًا: مهلًا يا شرحبيل، فإنّ الله قد حقَن الدّماء ولَمّ الشّعث وجمَع أمر الأُمّة ودنَا من هذه الأُمّة سكون، فإيّاك أنْ تُفسِد بين النّاس وأمسِكْ عن هذا القول قبل أن يشيعَ ويظهر عنك قولٌ لا تستطيع رَدّه، فقال: لا والله لا أسرّه أبدًا. ثمّ قام فتكلّم به، فقال النّاس: صدق صدق! القولُ ما قال والرّأي ما رأى. فأيس جرير عند ذلك من معاوية ومن عوامّ أهل الشّام.

قال نصر[1]: وحدّثني محمّد بن عبيد الله، عن الحجرانيّ، قال: كان معاوية قد أتى جريرًا قبل ذلك في منزله فقال له: يا جرير، إنّي قد رأيت رأيًا. قال: هاته. قال: اكتبْ إلى صاحبك يجعل لي الشّام ومصر جباية، فإذا حضرتْه الوفاة لم يجعل لأحدٍ بعده في عنقي بيعة، وأُسلِّم له هذا الأمر وأكتب إليه بالخلافة. فقال جرير: اكتبْ ما أردت أكتبُ معك[2].

فكتب معاوية بذلك إلى عليّ، فكتب عليّ عليه السلام إلى جرير: أمّا بعد، فإنّما أراد معاوية ألّا يكون لي في عنقه بيعة وأن يختار مِن أمره ما أحبَّ، وأراد أن يُرِيَك ويُبْطِئك حتّى يذوقَ أهل الشّام، وإنّ المغيرة بن شعبة قد كان أشار عليّ أن أستعملَ معاوية على الشّام وأنا حينئذٍ بالمدينة، فأبيتُ ذلك عليه ولم يكن الله ليراني أتّخذ المضلّين عَضُدًا، فإنْ بايَعك الرّجل، وإلّا فأقبِلْ. والسّلام.

قال نصر: وفشا كتابُ معاوية في العرب، فبعث إليه[3] الوليد بن عُقْبة:

معاويَ إنّ الشّامَ شامُك فاعتصِمْ ... بشامِك لا تُدْخِلْ عليكَ الأفاعِيَا
وحامِ عليها بالصّوَارم والقَنَا ... ولا تكُ مَوهونَ الذِّراعين وَانِيَا[4]
وإنَّ عليًّا ناظرٌ ما تجيبُه ... فَأهْدِ له حَرْبًا تُشِيب النَّواصِيَا

١ـ وقعة صفّين: ٥٨.

٢ـ صفّين: «اكتبْ بما أردتَ وأكتبُ معك».

٣ـ كلمة «إليه» ساقطةٌ من ا.

٤ـ صفّين: «بالقنابل ... محشوش الذّراعيْن».

وإلّا فسلِّم إنّ في السِّلم راحةً ... لمَن لا يريدُ الحربَ فاخْتَرْ معاويَا
وإنّ كتابًا يا بنَ حرب كتبتَه ... على طمع، يُزْجى إليك الدَّواهيَا
سألتَ عليًّا فيهِ مَا لَنْ تنالَه ... ولَوْ نلتَه لم يَبْقَ إلّا لَياليَا
وسَوْفَ تَرَى منه الّتي ليس بعدها ... بقاءٌ، فلا تكثر عليك الأمانيَا
أ مِثْلَ عَليّ تعتريه بخُذْعَةٍ ... وقد كان ما جَرَّبْتَ من قبل كافيَا!

قال: وكتب الوليد بن عُقْبة إلى معاوية أيضًا يوقظه ويشير عليه بالحرب، وألّا يكتب جواب جرير:

معاويَ إنّ المُلْك قد جُبَّ غاربُهْ ... وأنت بما في كفِّك اليومَ صاحِبُهْ
أتاك كتابٌ مِن عَليّ بخُطّةٍ ... هي الفصْلُ فاخْتَرْ سِلْمَه أو تُحَارِبُهْ
فلا ترجُ عند الواترينَ مَوَدَّةً ... ولا تأمَن اليومَ الّذي أنت رَاهِبُهْ
وحاربْه إن حاربْتَ حرب ابنِ حُرَّةٍ ... وإلّا فَسِلْمٌ لا تدبّ عَقَارِبُهْ[1]
فإنَّ عليًّا غيرُ ساحب ذَيْلِهِ ... عَلَى خُدعةٍ ما سوَّغ الماءَ شَارِبُهْ
[ولاَ قابلٍ ما لا يريدُ وهذهِ ... يقوم بها يومًا عليه نوادِبُهْ][2]
فلا تَدَعَنَّ الملكَ والأمرُ مُقبلٌ ... وتطلبَ ما أعيتْ عليك مذاهبُهْ
فإنْ كنتَ تَنْوي أنْ تُجيب كِتابَه ... فَقُبِّحَ مُمْليه وَقُبِّحَ كاتِبُهْ
وإن كنتَ تَنْوي أن تردّ كِتَابهُ ... وأنت بأمْرٍ لا محالةَ رَاكِبُهْ
فألْقِ إلى الحيّ اليمانينَ كِلْمَةً ... تنالُ بها الأمرَ الّذي أنتَ طالِبُهْ
تقول: أميرُ المؤمنين أصابَهُ ... عدوٌّ ومالأهم عليه أَقَارِبُهْ

١ـ ب: «حرّابن حرّة»، والصّواب ما أثبته من ا، ج و كتاب صفّين.

٢ـ من كتاب صفّين.

أفـانِينُ مِـنْهُمْ قائِـلٌ وَمُحَـرِّضٌ ... بِـلا تِـرَةٍ كانَـتْ، وآخَـرُ سـالِبُهْ
وكنـتُ أميـرًا قَبْـلُ بالشَّـام فـيكمُ ... فحسبي وإيّاكم من الحقّ واجِبُهْ
فجيئـوا، ومَـنْ أرسَى ثَبِيـرًا مكانَـه ... تُـدافِع بحـرًا لا تُـرَدّ غوارِبُـهْ[1]
فأقِلِلْ وأكثِرْ ما لها اليوم صاحبٌ ... سواك فصرِّحْ لستُ ممَّنْ تُوارِبُهْ

قال نصر: وخرج جرير يومًا يتجسّس الأخبار، فإذا هو بغلام يتغنّى على قَعود له، هو يقول:

حُكَـيْمٌ وَعَمّـارُ الشَّـجا ومحمّـدٌ ... كذا الأشتر والمكْشُوح جَرُّوا الدَّواهِيَا[2]
وَقَـدْ كَـانَ فيهـا للزُّبيـرِ عَجاجَـةٌ ... وصـاحبُه الأدنى أثـاروا الـدَّواهِيَا[3]
فأمّـا عـليّ فاسـتجارَ ببيتـه ... فـلا آمـرٌ فيهـا ولم يَـكُ ناهِيَـا
فَقُلْ في جَمِيع النّاس مَا شِئْتَ بَعْدَهُ ... فلو قلتَ أخطأ النّاس لم تَكُ خَاطِيَا
وإن قلـتَ عُـمّ القـومُ فيـهِ بِفِتْنَـةٍ ... فحسْبُكَ مِنْ ذاك الّذي كانَ كافِيَا
فقـولا لأصـحابِ النّـبيّ محمّـدٍ ... وَخُصّـا الرِّجـالَ الأقـرَبِين الأدَانِيَـا
أ يُقْتَـلُ عثمـان بـن عفّـان بَيْـنَكُمْ ... عَـلَى غَيْـرِ شيء لـيس إلّا تعامِيَـا
فـلا نـومَ حـتّى نستبيحَ حَـرِيمَكُمْ ... ونخضِـبَ من أهلِ الشَّـنَانِ الْعَوالِيَا

فقال جرير: يا بن أخي، مَن أنت؟ فقال: غلامٌ من قريش، وأصلي من ثَقيف، أنا ابن المغيرة بن الأخنس بن شُرَيق، قُتل أبي مع عثمان يوم الدّار. فعجب جريرٌ من شعره وقوله، و كتب بذلك إلى عليّ عليه السلام، فقال عليّ: والله ما أخطأ الغلام شيئًا.

١ـ كذا في ج، وصفّين، وفي ا، ب: «تجيئوا»، والغوارب: أعالي الموج.

٢ـ حُكَيم بن جَبَلة بن حصن العبديّ، كان عثمان بعثه إلى السّند، ثمّ نزل البصرة وقتل بها يوم الجمل. وعمّار بن ياسر، ومحمّد بن أبي بكر الصّدّيق، والأشتر: مالك بن الحارث، والمكشوح: المراديّ، واسمه هبيرة ابن هلال، ونسبه في بجيلة.

٣ـ صفّين: «أشاب النّواصِيَا».

قال نصر[١]: وفي حديث صالح بن صَدقة، قال: أبطأ جريرٌ عند معاوية حتّى اتّهمه النّاس، وقال عليّ عليه السلام: قد وقّتُّ لجرير وقتًا لا يُقيم بعده إلّا مخدوعًا أو عاصيًا، وأبطأ علَى عليّ حتّى أيِس منه.

قال: وفي حديث محمّد وصالح بن صدقة، قالا: فكتب عليّ عليه السلام إلى جرير بعد ذلك: إذا أتاك كتابي هذا فاحملْ معاوية عَلَى الفَصْل ثمّ خيّرْه وخذْه بالجواب بين حربٍ مُخزِيَة[٢] أو سلمٍ مُخزِيَة، فإن اختارَ الحرب فانبذْ إليه وإن اختار السّلم فخذْه ببيعته. والسّلام.

قال: فلمّا انتهى الكتابُ إلى جرير أتى معاوية، فأقرأه الكتاب وقال له: يا معاوية، إنّه لا يُطبَع على قلبٍ إلّا بذنب، ولا يُشرَح صدرٌ إلّا بتوبة، ولا أظنّ قلبَك إلّا مطبوعًا عليه، أراك قد وقفتَ بين الحقّ والباطل، كأنّك تنتظر شيئًا في يد غيرك.

فقال معاوية: ألقاك بالفَصْل[٣] في أوّل مجلس إن شاء الله. فلمّا بايع معاوية أهلَ الشّام بعد أن ذاقهم، قال: يا جرير الحقْ بصاحبك، وكتب إليه بالحرب، وكتب في أسفل الكتاب شعر كعب بن جُعَيل:

أَرَى الشّامَ تَكْرَهُ أهلَ العراقِ ... وَأَهْلَ العِراقِ لهم كارِهونَا

وقد ذكرنا هذا الشّعر فيما تقدّم.

وقال أبو العبّاس محمّد بن يزيد المبرّد في كتاب «الكامل»[٤]: إنّ عليًّا عليه السلام لمّا أراد أن يبعث جريرًا إلى معاوية، قال: والله يا أمير المؤمنين، ما أدّخِرُك من نُصْرتي شيئًا وما أطمع لك في معاوية. فقال عليّ عليه السلام: إنّما قصدي حُجّةٌ أُقيمها [عليه][٥].

١ـ وقعة صفّين: ٦١.

٢ـ صفّين: «مُجلِبة».

٣ـ صفّين: «بالفيصل».

٤ـ الكامل ٣: ٢٠٩ وما بعدها ـ بشرح المَرْصَفي ـ مع تصرّف في الخبر.

٥ـ من كتاب الكامل.

فلمّا أتى جرير معاويةَ دافعه بالبيعة، فقال له جرير: إنّ المنافق لا يصلّي حتّى لا يجدَ مِن الصّلاة بُدًّا. فقال معاوية: إنّها ليست بخُدعة الصّبيّ عن اللّبن، فأبلغْني ريقي[1]، إنّه أمرٌ له ما بعده.

قال: وكتب مع جرير إلى عليّ عليه السلام جوابًا عن كتابه إليه: من معاوية بن صَخْر إلى عليّ بن أبي طالب. أمّا بعد، فلعمري لو بايَعك القومُ الّذين بايَعوك وأنت بريءٌ من دم عثمان، كنتَ كأبي بكر وعمر وعثمان. ولكنّك أغريتَ بعثمان المهاجرين وخذّلتَ عنه الأنصار، فأطاعَك الجاهلُ وقَوِي بك الضّعيف. وقد أبى أهلُ الشّام إلّا قتالك حتّى تدفَع إليهم قتَلة عثمان، فإن فعلتَ كانت شورى بين المسلمين.

ولعمري ليس حُجَجُك عليَّ كحججك على طلحة[2] والزّبير، لأنّهما بايعاك ولم أُبايعْك، وما حجّتك على أهل الشّام كحجّتك على أهل البصرة، لأنّ أهل البصرة أطاعوك ولم يُطِعْك أهل الشّام. فأمّا شرفُك في الإسلام وقرابتُك من النّبيّ صلى الله عليه وموضِعُك من قريش، فلستُ أدفعُه.

ثمّ كتب في آخر الكتاب شعرَ كعب بن جعيل الّذي أوّله:

أَرَى الشّامَ تَكْرَهُ أهلَ العراقِ وَأَهْلَ العِراق لهمْ كارهونَا

قال أبو العبّاس المبرّد[3] رحمه الله تعالى: فكتب إليه عليّ عليه السلام جوابًا عن كتابه هذا: من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب[4]: أمّا بعد، فإنّه أتاني منك كتابُ امرئ ليس له بَصَرٌ يهديه ولا قائدٌ يرشده، دعاه الهوى فأجابه وقاده الضّلال فاتّبعه. زعمتَ أنّك إنّما أفْسَد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان، ولعمري ما

١ـ أي أنظِرْني بمقدار ما أبلغُ ريقي.

٢ـ الكامل: «ما حجّتك على طلحة ...».

٣ـ في الكامل ٣: ٢٢٤ـ بشرح المَرْصَفيّ ـ وذكره المنقريّ في كتاب صفّين ٦٤ـ٦٥.

٤ـ في الكامل: «فكتب إليه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام جواب هذه الرّسالة: «بسم الله الرّحمن الرّحيم. من عليّ بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر».

كنتُ إلّا رجلًا من المهاجرين، أوردتُ كما أوردوا وأصدرتُ كما أصدروا، وما كان الله لِيجمَعهم علَى الضّلال ولا ليضربَهم بالعمَى.

وبعد، فما أنت وعثمان! إنّما أنت رجلٌ من بني أُميّة، وبنو عثمان أَوْلى بمطالبة دَمه. فإن زعمتَ أنّك أقوى علَى ذلك، فادخُلْ فيما دخل فيه المسلمون، ثمّ حاكِمْ القومَ إليّ. وأمّا تمييزك بينكَ وبين طلحة والزّبير وبين أهل الشّام وأهل البصرة، فلعمري ما الأمرُ فيما هناك إلّا سواء لأنّها بيعةٌ شاملة لا يُستثنَى فيها الخيار ولا يستأنف فيها النّظر. وأمّا شَرَفي في الإسلام وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وموضعي من قريش، فلعمري لو استطعتَ دفْعه لدفعتَه.

قال: ثمّ دعا النّجاشيّ، أحد بني الحارث بن كعب، فقال له: إنّ ابن جُعَيل شاعرُ أهل الشّام وأنت شاعر أهل العراق، فأجِب الرّجل. فقال: يا أمير المؤمنين، أسمِعني قوله، قال: إذنْ أسمَعُك شِعر شاعر، ثمّ أسمَعَه، فقال النّجاشيّ يجيبه:

دَعًا يا مُعاويَ ما لن يكونَا ... فَقَدْ حَقّق الله ما تحذرونَا

أتاكم عليٌّ بأهلِ العراقِ ... وأهلِ الحجاز فما تصنعونَا[1]

عَلَى كل جَرْدَاء خَيْفَانَةٍ ... وَأَشْعَثَ نَهْدٍ يَسُرّ الْعُيونَا[2]

عَلَيْهَا فَوارِسُ مخشيّةٌ ... كأُسْد الْعَرِين حَمَيْنَ الْعَرِينَا

يَرَوْنَ الطِّعَانَ خِلال الْعَجَاج ... وَضَرْبَ الفوارسِ في النَّقْع دِينَا[3]

هُمُ هَزَمُوا الجمعَ جَمْعَ الزّبير ... وَطَلْحَةَ والْمَعْشَرِ النَّاكِثِينَا

وآلوا يمينًا عَلَى حَلْفَةٍ ... لتُهْدِي إلى الشّام حَرْبًا زبونَا[4]

١ـ لم يذكر في الكامل سوى هذين البيتين، وقال: «وبعد هذا ما نمسك عنه».

٢ـ الجَرْداء: الفرس القصيرة الشّعر. والخيفانة: الخفيفة الوثّابة. والنّهد من الخيل: الجسيم المشرف.

٣ـ النَّقْع: التّراب.

٤ـ صفّين: «قالوا». والإيلاء: الحلف.

تُشِيبُ النَّواهِدَ قَبْلَ المشِيبِ ... وتُلْقِي الحوامِلُ مِنْهَا الجنِينَا[1]
فإن تكرهوا المُلْكَ مُلْكَ العِرَاقِ ... فَقَدْ رَضِيَ القَوْمُ ما تكْرَهُونَا
فَقُلْ لِلْمُضِلِّ مِن وَائِلٍ ... وَمَنْ جَعَلَ الْغَثَّ يوْمًا سَمِينَا
جَعَلْتُمْ عَلِيًّا وَأَشْيَاعَهُ ... نَظِيرَ ابْنِ هِنْدٍ، أَمَا تَسْتَحُونَا!
إلى أفضلِ النّاس بعد الرَّسُول ... وصِنْوِ الرَّسُولِ مِنَ العَالَمِينَا
وصِهْرِ الرَّسول ومَنْ مِثْلُه ... إذا كانَ يومٌ يُشِيب القُرُونَا!

قلت: أبيات كعب بن جُعيل خيرٌ من هذه الأبيات وأخبث مقصدًا وأدهى وأحسن.

وزاد نصر بن مزاحم في هذه الرّسالة بعد قوله: «ولا ليضربهم بالعمى»: «وما أَلَبْتُ[2] فتلزمني خطيئة الآمر، ولا قتلتُ فيجب عليَّ القصاص. وأمّا قولك إنّ أهل الشّام هم الحكّام عَلَى أهل الحجاز، فهاتِ رجلًا من أهل الشّام يقبل في الشّورى أو تحلّ له الخلافة، فإنْ زعمتَ ذلك كذّبك المهاجرون والأنصار، وإلّا أتيتُك به مِن قريش الحجاز. وأمّا وَلُوعك بي في أمر عثمان، فما قلتَ ذلك عن حقّ العيان ولا يقين الخُبر[3].

وهذه الزّيادة الّتي ذكرها نصر بن مزاحم، تقتضي أنّه كان في كتاب معاوية إليه عليه السلام أنّ أهل الشّام هم الحُكّام علَى أهل الحجاز، وما وجدنا هذا الكلام في كتابه.

(٣: ٧٤ـ٩١)

[خُطَبه عليه السلام في أوّل خلافته وبعدها]

(الخطبة: ١٦) من كلام له عليه السلام لمّا بويع بالمدينة:

ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ. إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ العِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

١ـ صفّين: «تُشيب النَّواهد».

٢ـ ما ألَبتُ، أي ما حرّضتُ. وفي صفّين: «وما أمرتُ».

٣ـ الخُبر: العلم.

المَثُلاتِ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ. أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ. وَالَّذي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ، حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاكُمْ وَأَعْلاكُمْ أَسْفَلَكُمْ، وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا. وَاللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً وَلا كَذَبْتُ كِذْبَةً وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهذَا الْمَقَامِ وَهذَا الْيَوْمِ.

أَلَا وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ.

أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ.

حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَلِكُلٍّ أَهْلٌ؛ فَلَئِنْ أَمِرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ.

شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَهُ. سَاعٍ سَرِيعٌ نَجَا، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى.

الْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ، عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ وَآثَارُ النُّبوَّةِ، وَمِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ. هَلَكَ مَنِ ادَّعَى وَخَابَ مَنِ افْتَرَى. مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ. وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ.

لايَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ، وَلايَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ؛ فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ، وَلايَحْمَدْ حَامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ وَلايَلُمْ لائِمٌ إِلَّا نَفْسَهُ.

... وهذه الخطبة من جلائل خطبه عليه السلام ومن مشهوراتها، قد رواها النّاس كلّهم. وفيها زيادات حذفها الرّضيّ إمّا اختصارًا أو خوفًا من إيحاش السّامعين، وقد ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب «البيان والتّبيين» على وجهها[1] ورواها عن أبي عُبيدة مَعْمر بن المُثنّى.

١ـ البيان والتّبيين ٢: ٥٠ـ٥٢، ورواها أيضًا ابن قتيبة في عيون الأخبار: ٢: ٢٣٦.

قال: أوّلُ خطبة خطبها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بالمدينة في خلافته [حَمد الله وأثنى عليه وصلّى على النّبيّ صلى الله عليه وآله][1] ثمّ قال: ألَا لا يُرْعِيَنَّ[2] مُرْعٍ إلّا على نفسه. شُغِل مَن الجنّةُ والنّارُ أمامه[3]. ساعٍ مجتهدٌ [يَنجو][4] وطالبٌ يرجو ومقصِّرٌ في النّار[5]، ثلاثة. واثنان: مَلَكٌ طار بجَناحَيْه ونبيٌّ أخذ الله بيده[6]، لا سادس.

هلَك مَن ادَّعَى ورَدِيَ مَن اقتحم[7]. اليمين والشّمال مَضَلّة والوسْطَى الجادّة[8]؛ منهجٌ عليه باقي الكتاب والسُّنّة وآثار النّبوّة. إنّ الله داوَى هذه الأُمّة بدواءيْن: السّوْط والسّيف، لا هَوَادة عند الإمام فيهما. اسْتَتِرُوا في بُيوتكم[9] وأصْلِحُوا ذات بينكم[10]، والتّوْبةُ مِن ورائكم. مَن أبْدَى صفحتَه للحقّ هلَك.

قد كانتْ [لكم] أُمور [مِلْتُمْ فيها عَلَيّ مَيْلَةً[11]] لم تكونوا عندي فيها محمودين[12] [ولا مُصيبين]. أما إنّي لو أشاء لقلتُ؛ عفا الله عمّا سلف، سبق الرّجلان وقام الثّالث كالغراب، هِمّته بطْنه. ويحَه[1] لو قُصَّ جَناحاه وقُطع رأسه لكان خيرًا له!

١ـ البيان: «أنّه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه».

٢ـ البيان: «أمّا بعد، فلا يرعينّ».

٣ـ في البيان: «فإنّ من أرعى على غير نفسه شُغل عن الجنّة والنّار أمامه».

٤ـ تكملة من البيان والتّبيين.

٥ـ عند ابن قتيبة في العيون: «ساعٍ سريعٌ نجا، وطالبٌ بطيءٌ رجا، ومقصّرٌ في النّار هوَى».

٦ـ البيان والعيون: «بيديه».

٧ـ البيان: «فإنّ اليمين».

٨ـ الطّريق الواضح.

٩ـ البيان: «استتروا بيوتكم»، والعيون: «فاستتروا بيوتكم».

١٠ـ البيان: «وأصلحوا فيما بينكم».

١١ـ تكملة من البيان والتّبيين.

١٢ـ البيان: «بمحمودين».

انظروا فإنْ أنكَرْتم فأنكِروا وإنْ عرفتم فآزِروا. حقٌّ وباطلٌ، ولكلٍّ أهل. ولئن أَمِرَ الباطلُ لقديمًا فَعَل، وإنْ [٢] قلّ الحقّ لَرُبّما ولَعَلّ، وَقلَّما أدبر شيء فأقبل [٣]. ولئن إليكم أمورُكم إنّكم لسُعداء، وإنّي لأخشَى أن تكونوا في فَتْرةٍ، وما علينا إلّا الاجتهاد.

قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى: وقال أبو عبيدة وزاد [فيها في رواية جعفر ابن محمّد عليهما السلام عن آبائه عليهم السلام [٤]]: ألا إنّ أبرار عترتي وأطايبَ أَرُومَتي، أحلمُ النّاس صغارًا وأعلمُ النّاس كبارًا. ألا وإنّا أهل بيتٍ مِن علْم الله علمْنا وبحُكْم الله حُكمْنا ومِن قولٍ صادق سَمعْنا؛ فإن تَتَّبِعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا وإنْ لم تفعلوا يُهْلِكْكم الله بأيدينا. ومعَنا راية الحقّ؛ مَن تبعها لَحِق ومَن تأخّر عنها غَرِق. ألا وبنا يُدرَك تِرَةُ كلّ مؤمنٍ وبنا تخلع رِبْقة الذّلّ عن أعناقكم [٥] وبنا فُتِح [٦] لا بِكم ومنّا يُختَم لا بِكم ... .

وقوله: «شُغِلَ مَن الجنّة والنّار أمامه»، يريد به أنّ مَن كانت هاتان الدّاران أمامه لَفِي شُغلٍ عن أُمور الدّنيا إن كان رشيدًا.

وقوله: «ساعٍ مجتهدٌ» إلى قوله: «لا سادس» كلام تقديره: المكلَّفون على خمسة أقسام: ساعٍ مجتهدٌ، وطالبٌ راجٍ، ومقصّرٌ هالكٌ. ثمّ قال: «ثلاثة»، أي فهؤلاء ثلاثة أقسام. وهذا ينظر إلى قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [٧]. ثمّ ذكر القسمين: الرّابع والخامس، فقال: هما مَلَكٌ طار بجناحيْه، ونبيٌّ أخذ الله بيده. يريد عصمة

١ـ البيان: «يا ويْحه».

٢ـ البيان: «ولئن قلّ».

٣ـ البيان: «ما أدبر شيء فأقبل».

٤ـ البيان: «وروى فيهما جعفر بن محمّد».

٥ـ البيان: «من أعناقكم».

٦ـ ا، والبيان: «فتح الله».

٧ـ فاطر/ ٣٢.

هـذين النّـوعين مـن القبـيح. ثمّ قـال: «لا سـادس»، أي لم يبـقَ في المكلّفـين قسـم سادس.

وهذا يقتضـي أنّ العصمة ليست إلّا للأنبياء والملائكة، ولو كان الإمام يجب أن يكون معصومًا لكان قسمًا سادسًا، فإذًا قد شهد هذا الكلام بصحّة ما تقوله المعتزلة في نفي اشتراط العصمة في الإمامة. اللّهمّ إلّا أنْ يُجعل الإمام المعصوم داخلًا في القسم الأوّل، وهو السّاعي المجتهد، وفيه بُعدٌ وضعفٌ.

وقوله: «هلَك مَن ادّعى ورَدِيَ مَن اقتَحم»، يريد هلَك مَن ادّعى وكذب. لا بدّ من تقدير ذلك، لأنّ الدّعوى تعمّ الصّدق والكذب، وكأنّه يقول: هلَك مَن ادّعى الإمامة ورَدِي مَن اقتَحمها و ولَجها عن غير استحقاقٍ، لأنّ كلامه عليه السلام في هذه الخطبة كلّه كنايات عن الإمامة لا عن غيرها.

وقولـه: «اليمـين والشّـمال» مثـالٌ، لأنّ السّـالكَ الطّريـقَ المَـنهج اللّاحـب نـاجٍ، والعادلَ عنها يمينًا وشمالًا مُعرَّضٌ للخطر. ونحو هذا الكلام ما رُوي عن عمر، أنّه لمّا صدر عن مِنى في السَّنة الّتي قُتل فيها، كوَّم كَوْمةً من البَطْحَاء[1] فقام عليها فخطب النّاس فقال: أيّها النّاس، قد سُنّتْ لكم السّنن وفُرضتْ لكم الفرائض وتُركتم على الواضحة، إلّا أن تميلوا بالنّاس يمينًا وشمالًا، ثمّ قرأ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[2] ثمّ قال: ألا إنّهما نَجْدا الخير والشّرّ، فما جعل نجْدَ الشّرّ أحبَّ إليكم من نجْد الخير... .

وأمّا قوله: «قد كانتْ أُمورٌ لم تكونوا عندي فيها محمودين» فمراده أمرُ عثمان وتقديمه في الخلافة عليه. ومن النّاس مَن يحمل ذلك على خلافة الشّيخين أيضًا. ويبعد عندي أن يكون أراده، لأنّ المدّة قد كانت طالتْ ولم يبقَ مَن يعاتبه ليقول: قد

١ـ البطحاء: التّراب السّهل ممّا جرتْه السّيول.

٢ـ البلد/ ٨ـ١٠.

كانت أُمورٌ لم تكونوا عندي فيها محمودين. فإنّ هذا الكلام يُشعر بمعاتبة قوم على أمر كان أنكره منهم.

وأمّا بيعة عثمان ثمّ ما جرى بينه وبين عثمان من منازعاتٍ طويلة، وغضبٍ تارةً وصُلْحٍ أُخرى، ومراسلاتٍ خشنة ولطيفة، وكون النّاس بالمدينة كانوا حزبيْن وفئتين: إحداهما معه عليه السلام والأُخرى مع عثمان؛ فإنّ صرْف الكلام إلى ما قلناه بهذا الاعتبار أليق.

ولسنا نمنع من أن يكون في كلامه عليه السلام الكثير من التّوجّد والتّألّم لصرْف الخلافة بعد وفاة الرّسول صلى الله عليه وآله عنه، وإنّما كلامنا الآن في هذه اللّفظات الّتي في هذه الخطبة. على أنّ قوله عليه السلام: «سبق الرّجُلان» والاقتصار على ذلك فيه كفايةٌ في انحرافه عنهما.

وأمّا قوله: «حقٌّ وباطلٌ» إلى آخر الفصل، فمعناه كلّ أمر فهو إمّا حقّ وإمّا باطل، ولكلّ واحدٍ من هذيْن أهلٌ، وما زال أهل الباطل أكثرَ من أهل الحقّ، ولئن كان الحقّ قليلًا فربّما كثُر، ولعلّه ينتصر أهلُه.

ثمّ قال على سبيل التّضجّر بنفسه: «وقلّما أدبَر شيءٌ فأقبل». استبعد عليه السلام أن تعود دولة قوم بعد زوالها عنهم، وإلى هذا المعنى ذهب الشّاعر في قوله:

وقالوا يَعُودُ الماءُ في النّهر بعد ما ذوي نبت جَنْبَيْهِ وجَفَّ المشارعُ
فقلتُ إلى أن يرجع النَّهرُ جاريًا وتعشّب جَنْبَاهُ يموتُ الضّفادِعُ

ثمّ قال: «ولئن رجعتْ عليكم أُمورُكم» أي إن ساعدني الوقت وتمكّنتُ من أن أحكُم فيكم بحكم الله تعالى ورسوله، وعادتْ إليكم أيّام شبيهة بأيّام رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرةٌ مماثلة لسيرته في أصحابه، «إنّكم لَسُعداء».

ثمّ قال: «وإنّي لأخشَى أن تكونوا في فَتْرة»، الفترة هي الأزمنة الّتي بين الأنبياء إذا انقطعت الرّسل فيها، كالفترة الّتي بين عيسى عليه السلام ومحمّد صلى الله عليه وآله لأنّه لم يكن بينهما نبيٌّ، بخلاف المدّة الّتي كانت بين موسى وعيسى عليهما السلام لأنّه بُعث فيها أنبياء كثيرون، فيقول عليه السلام: إنّي لأخشَى ألّا أتمكّن من الحكم بكتاب الله تعالى فيكم، فتكونوا كالأُمم

الّذين في أزمنة الفَترة لا يرجعون إلى نبيٍّ يشافههم بالشّرائع والأحكام، وكأنّه عليه السلام قد كان يعلم أنّ الأمر سيضطرب عليه.

ثمّ قال: «وما علينا إلّا الاجتهاد». يقول: أنا أعمل ما يجب عليّ [من الاجتهاد[1]] في القيام بالشّريعة وعزل ولاة السّوء وأُمراء الفساد عن المسلمين؛ فإنْ تمّ ما أُريده فذاك، وإلّا كنت قد أعْذَرتُ.

وأمّا التّتمّة المرويّة عن جعفر بن محمّد عليهما السلام فواضحة الألفاظ. وقوله في آخرها: «وبنا تُختَم لا بِكم» إشارة إلى المهديّ الّذي يظهر في آخر الزّمان. وأكثر المحدّثين على أنّه مِن ولد فاطمة عليها السلام، وأصحابنا المعتزلة لا ينكرونه وقد صرّحوا بذكره في كتبهم واعترف به شيوخهم، إلّا أنّه عندنا لم يُخلَق بعد وسيُخلق. وإلى هذا المذهب يذهب أصحاب الحديث أيضًا.

وروى قاضي القضاة رحمه الله تعالى عن كافي الكفاة أبي القاسم إسماعيل بن عَبّاد رحمه الله بإسناد متّصل بعليّ عليه السلام أنّه ذكر المهديّ وقال: إنّه مِن ولد الحسين عليه السلام، وذكر حِليتَه[2]، فقال: رجل أجلَى الجبين، أقنَى الأنف، ضَخم البطن، أزيَل[3] الفَخِذيْن، أبلج الثّنايا، بفخذه اليمنى شامّة .... وذكر هذا الحديث بعينه عبد الله بن قتيبة في كتاب «غريب الحديث». (١: ٢٧٢ـ٢٨٢)

(الخطبة: ١٦٨) ومن خطبة له عليه السلام في أوّل خلافته:

إِنَّ اللهَ تَعَالَى سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيَّنَ فيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا.

الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَى اللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللهَ حَرَّمَ حَرَامًا غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلاَلًا غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ

١ـ ساقط من ب.

٢ـ الحِلْية هنا: الصِفة.

٣ـ الزَيَل، محرّكة: تباعُدُ ما بين الفخذيْن؛ وهو أزْيَل.

وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا. فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ.

بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاس أَمَامَكُمْ وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ. تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ.

اتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ. أَطِيعُوا اللهَ وَلا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

الشّرح: ... ثمّ أمَر بلزوم الفرائض من العبادات والمحافظة عليها، كالصّلاة والزّكاة. وانتصب ذلك على الإغراء.

ثمّ ذكر أنّ الحرام غيرُ مجهول للمكلّف بل معلومٌ، والحلال غير مدخول، أي لا عيب ولا نقص فيه، وأنّ حرمة المسلم أفضلُ من جميع الحرُمات. وهذا لفظ الخبر النّبويّ: «حرمة المسلم فوق كلّ حرمةٍ، دمه وعرضه وماله».

قال ﷺ: «وشَدَّ بالإخلاص والتّوحيد حقوقَ المسلمين في معاقدها» لأنّ الإخلاص والتّوحيد داعيان إلى المحافظة على حقوق المسلمين، صارفان عن انتهاك محارمهم.

قال: «فالمسلمُ مَن سَلِم النّاس» هذا لفظ الخبر النّبويّ بعينه.

قوله: «ولا يَحِلّ أذَى المسلم إلّا بما يجب»، أي إلّا بحقٍّ، وهو الكلام الأوّل وإنّما أعاده تأكيدًا.

ثمّ أمَر بمبادرة الموت وسمّاه الواقعة العامّة لأنّه يعمّ الحيوان كلّه، ثمّ سمّاه خاصّةَ أحدكم لأنّه وإن كان عامًّا إلّا أنّ له مع كلّ إنسان بعينه خصوصيّة زائدة على ذلك العموم.

قوله: «فإنّ النّاس أمامكم»، أي قد سبقوكم والسّاعة تسوقُكم من خَلْفكم.

ثمّ أمَر بالتّخفّف، وهو القَناعة من الدّنيا باليسير وترك الحرص عليها، فإنّ المسافر الخفيف أحرَى بالنّجاة ولحاقِ أصحابه وبلوغ المنزل مِن الثّقيل.

وقوله: «فإنّما يُنتظر بأوّلكم آخرُكم»، أي إنّما ينتظر ببعث الموتَى المتقدّمين أن يموت الأواخر أيضًا، فيبعث الكلّ جميعًا في وقت واحد.

ثمّ ذكر أنّهم مسؤولون عن كلّ شيء حتّى عن البِقاع؛ لِمَ استوطنتم هذه وزهدتم في هذه؟ ولِمَ أخربتم هذه الدّار وعمرتم هذه الدّار؟ وحتّى عن البهائم؛ لِمَ ضربتُموها؟ لِمَ أجعتموها؟

ورُوي: «فإنّ الْبأس[1] أمامكم» يعني الفتنة، والرّواية الأُولى أظهر. وقد ورد في الأخبار النّبويّة: «ليُنتصَفَنّ للجمّاء من القَرْناء» وجاء في الخبر الصّحيح: «إنّ الله تعالى عذّب إنسانًا بهِرّ حبَسه في بيت وأجاعه حتّى هلك». (٩: ٢٨٨ـ٢٩٠)

(الخطبة: ١٥) ومن كلام له عليه السلام فيما ردّه على المسلمين من قطائع عثمان:

وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ لَرَدَدْتُهُ؛ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ.

الشّرح: القطائع ما يُقطِعه الإمام بعضَ الرّعيّة من أرض بيت المال ذاتِ الخراج ويُسقِط عنه خراجَه ويجعل عليه ضريبةً يسيرة عوضًا عن الخراج. وقد كان عثمان أقطع كثيرًا من بني أُميّة وغيرهم من أوليائه وأصحابه قطائعَ من أرض الخراج على هذه الصّورة. وقد كان عمرُ أقطع قطائع ولكن لأربابِ العَناء في الحرب والآثار المشهورة في الجهاد؛ فعَل ذلك ثَمَنًا عمّا بذلوه من مُهَجِهم في طاعة الله سبحانه. وعثمان أقطع القطائع صلةً لرَحِمه وميلًا إلى أصحابه، عن غير عناء في الحرب ولا أثر.

وهذه الخطبة ذكَرها الكلبيّ مرويّةً مرفوعةً إلى أبي صالح عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ عليًّا عليه السلام خطب في اليوم الثّاني من بيعته بالمدينة، فقال: ألَا إنّ كلّ قطيعةٍ أقطعَها عُثْمان وكلّ مالٍ أعطاه من مال الله، فهو مردودٌ في بيت المال؛ فإنّ الحقّ القديم لا يُبطله شيء. ولو وجدتُه وقد تُزُوّج به النّساء وفُرِّق في البلدان، لرددتُه إلى حاله؛ فإنّ في العدل سعةً ومَن ضاق عنه الحقّ فالجور عليه أضيق.

وتفسير هذا الكلام أنّ الوالي إذا ضاقت عليه تدبيرات أُموره في العدل، فهي في الجوْر أضيق عليه؛ لأنّ الجائر في مَظِنّة أن يُمْنع ويُصَدّ عن جوره.

١ـ ب: «النّاس» تحريف، وما أثبته من باقي الأُصول.

قال الكلبيّ: ثمّ أمر عليه السلام بكلّ سلاح وُجد لعثمان في داره ممّا تقوّى به على المسلمين فقبض، وأمر بقبض نجائبَ كانت في داره من إبل الصّدقة فقبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه، وأمر ألّا يعرض لسلاحٍ وُجد له لم يقاتلْ به المسلمين، وبالكفّ عن جميع أمواله الّتي وجدت في داره وفي غير داره، وأمر أن تُرتجع الأموال الّتي أجاز بها عثمان حيث أُصيبت أو أُصيب أصحابها.

فبلغ ذلك عمرو بن العاص وكان بأيْلَة من أرض الشّام، أتاها حيث وثب النّاس على عثمان، فنزلها فكتب إلى معاوية: ما كنتَ صانعًا فاصنعْ، إذ قشَرك ابن أبي طالب مِن كلّ مالٍ تملكه كما تُقشَر عن العصا لِحاها.

وقال الوليد بن عُقْبة ـ وهو أخو عثمان من أُمّه ـ يذكر قبضَ عليٍّ عليه السلام نجائبَ عثمان وسيفه وسلاحه[1]:

بَنِي هاشِمٍ رُدُّوا سلاح ابنِ أُخْتِكُمْ ... وَلا تَنْهَبُوهُ لا تَحِلُّ مَنَاهِبُهْ

بَنِي هاشمٍ كيف الهوادة بيننَا ... وعِنْدَ عليّ دِرْعُهُ وَنَجَائِبُهْ!

بَنِي هاشمٍ كيف التَّودّدُ مِنْكُمُ ... وَبَزُّ ابنِ أَرْوَى فيكُمُ وحَرَائبُهْ![2]

بني هاشمٍ إلّا تردُّوا فإنّنا ... سواء علينا قاتلاه وسالبُهْ

بني هاشمٍ إنّا ومَا كان مِنْكُم ... كصَدْع الصَّفا لا يشعَب الصَّدْعَ شَاعِبُهْ

قَتَلْتُمْ أخِي كَيْمَا تَكُونُوا مَكانَهُ ... كما غَدرت يومًا بِكِسْرَى مَرَازِبُهْ[3]

١ـ الأبيات في المسعوديّ ٢: ٣٥٦، مع اختلاف في الرّواية وترتيب الأبيات.

٢ـ البَزّ: متاع البيت من الثّياب. والحرائب: جمع حريبة، وهو مال الرّجل الّذي يقوم به أمره. ورواية البيت في المسعوديّ:

بَنِي هَاشِمٍ كَيْفَ الْمَوَادَةُ بَيْنَنَا ... وَ سَيْفُ ابْنِ أَرْوَى عِنْدَكُمْ وَحَرَائِبُهْ

٣ـ رواية المسعوديّ:

* غَدَرْتُمْ بِهِ كَيْمَا تَكُونُوا مَكَانَهُ *

فأجابه عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب بأبيات طويلة[1]، من جملتها:

فَـلا تَسْـأَلُونا سَـيْفَكُمْ إنَّ سَـيْفَكُمْ ... أُضِـيعَ وألقـاهُ لَـدَى الـرَّوْع صَـاحِبُهْ

وَشَـبَّهْتَه كِسـرَى وقـد كـان مثلَـه ... شـبيهًا بكِسْـرى هَدْيُـه وَضَـرَائِبُهْ

أي كان كافرًا كما كان كسرَى كافرًا.

وكان المنصور رحمه الله تعالى إذا أنشد هذا الشّعر يقول: لعن الله الوليد! هو الّذي فرّق بين بني عبد مناف بهذا الشّعر! (١: ٢٦٩ـ٢٧١)

(الخطبة: ١٧٧) ... الْعَمَلَ الْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ وَالْاِسْتَقَامَةَ الْاِسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ!

إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نِهَايَتِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَمًا فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلاَمِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى غَايَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَى اللهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ.

أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ وَحَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ. أَلَا وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ ... .

الشّرح: ... أمَرهم بلزوم العمل ثم أمَرهم بمراعاة العاقبة والخاتمة، وعبّر عنها بالنّهاية، وهي آخر أحوال المكلّف الّتي يفارق الدّنيا عليها، إمّا مؤمنًا أو كافرًا أو فاسقًا. والفعل المقدّر هاهنا: راعُوا وأحسِنوا وأصلِحوا ونحو ذلك. ثمّ أمَرهم بالاستقامة وأنْ يلزموها، وهي أداء الفرائض. ثمّ أمَرهم بالصّبر عليها وملازمته وبملازمة الورع.

١ـ نسبها المسعوديّ إلي الفضل بن العبّاس بن عتبة بن أبي لهب، و ذكر بعد البيت الأوّل:

سلُوا أهْلَ مِصْرٍ عَنْ سِلاحِ ابْنِ أُخْتِنَا ... فَهُـمْ سَـلَبُوهُ سَـيْفَهُ وَحَرَائِبُـهْ

وَكَـانَ وَلِيَّ الأَمْـرِ بَعْـدَ مُحَمَّـدٍ ... عـلِيٌّ وَفي كُـلِّ المَـوَاطِنِ صـاحِبُهْ

عَـلِيٌّ وَلِيُّ اللهِ أظْهَـرَ دينَـهُ ... وَأنْـتَ مَـعَ الأَشْـقَيْنِ فيمَـا تحارِبُـهْ

وَأنْـتَ امْـرُؤٌ مِـنْ أهْـلِ صَـفْوَاءَ نـازِحٌ ... فَـما لَـكَ فينَـا مـن حَمِـيمٍ تعاتِبُـهْ

وَقَـدْ أنْـزَلَ الـرَّحْمَنُ أنَّـكَ فاسِـقٌ ... فَـما لَـكَ فِي الإسـلامِ سَـهْمٌ تُطَالِبُـهْ

ثمّ شرع بعد هذا الكلام المجمل في تفصيله فقال: «إنّ لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم»، وهذا لفظ رسول الله ﷺ: «أيها النّاس، إنّ لكم معالمَ فانتهوا إلى معالمكم، وإنّ لكم غايةً فانتهوا إلى غايتكم». والمراد بالنّهاية والغاية أن يموت الانسان على توبةٍ من فعل القبيح والإخلال بالواجب.

ثمّ أمَرهم بالاهتداء بالعلَم المنصوب لهم، وإنّما يعني نفسه عليه السلام. ثمّ ذكر أنّ للاسلام غايةً وأمَرهم بالانتهاء إليها، وهي أداء الواجبات واجتناب المقبحات. ثمّ أوضح ذلك بقوله: «واخرُجُوا إلى الله ممّا افترض عليكم مِن حقّه وبيَّن لكم مِن وظائفه»، فكشف بهذا الكلام معنى الغاية الّتي أجملها أوّلًا. ثم ذكر أنّه شاهدٌ لهم ومحاجٌّ يوم القيامة عنهم. وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾[1].

وحجيج «فعيل» بمعنى «فاعل»، وإنّما سمّى نفسه حجيجًا عنهم، وإن لم يكن ذلك الموقف موقف مخاصمة[2]، لأنّه إذا شهد لهم فكأنّه أثبت لهم الحجّة، فصار محاجًّا عنهم. قوله عليه السلام: «ألَا وإنّ القَدَر السّابق قد وقع» يشير به إلى خلافته.

وهذه الخطبة من أوائل الخطب الّتي خطب بها أيّام بويع بعد قتل عثمان. وفي هذا إشارة إلى أنّ رسول الله ﷺ قد أخبره أنّ الأمر سيُفضي إليه منتهى عمره وعند انقضاء أجله. (١٠: ٢٥ـ٢٦)

(الخطبة: ١٧٩) ... أَيُّهَا النّاس، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَهَا وَالْمُخلِدَ إِلَيْهَا، وَلاتَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا.

وَايْمُ اللهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا لِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

وَلَوْ أَنَّ النّاس حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ.

١ـ الإسراء/ ٧١.

٢ـ د: «محاجّة».

وَ إِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ، وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتمْ فِيهَا مَيْلَةً، كُنْتُمْ فِيهَا عِندِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ.

وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ!

الشّرح: المُخلِد: المائل إليها، قال تعالى ﴿وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[1]. «و لا تَنفَسُ بمَن نافَسَ فيها»: لا تضنّ به، أي مَن نافَس في الدّنيا فإنّ الدّنيا تهينه و لا تضنّ به كما يضنّ بالعلق النّفيس.

ثمّ قال «و تَغلِبُ مَن غلَب عليها»، أي مَن غلب على الدّنيا مقاهرةً فسوف تغلبه الدّنيا و تهلكه. ثمّ أقسم أنّه ما كان قومٌ في غضّ نعمةٍ، أي في نعمةٍ غضّة، أي طريّةٍ ناضرة، فزالت عنهم إلّا بذنوب اجترحوها أي اكتسبوها.

و هذا يكاد يُشعِر بمذهب أهل التّناسخ و مَن قال: إنّ الألم لا يحسن أن يفعله الحكيم سبحانه و تعالى بالحيوانات إلّا مستحقًّا. فأمّا مذهب أصحابنا فلا يتخرّج هذا الكلام عليه، لأنّه يجوز عندهم أن تزول النّعم عن النّاس لضرْب من اللّطف، مضاف إلى عوضٍ يعوّضهم الله تعالى به في الآخرة، فيجب أن يُحمَل هذا الكلام لا على عمومه، بل على الأكثر و الأغلب.

ثمّ قال عليه السلام: لو أنّ النّاس عند حلول النّقم بهم و زوال النّعم عنهم يلتجئون إلى الله تعالى تائبين مِن ذنوبهم، لرفَع عنهم النّقمة و أعاد إليهم النّعمة. و الوَلَه كالتّحيّر يحدث عند الخوف أو الوجد. و الشّارد: الذّاهب. قوله: «و إنّي لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة»، أي في أمر جاهليّة لغلَبة الضّلال و الجهل على الأكثرين منهم.

وهذه خطبة خطب بها عليه السلام بعد قتل عثمان في أوّل خلافته عليه السلام، وقد تقدّم ذكر بعضها والأُمور الّتي مالوا فيها عليه اختيارهم عثمان وعدولهم عنه يوم الشّورى.

وقال: «لئن رُدّ عليكم أمرُكم»، أي أحوالكم الّتي كانت أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله مِن صلاح القلوب والنّيّات إنّكم سعداء. والجُهد بالضّمّ: الطّاقة. ثمّ قال: لو أشاء أن

١ـ الأعراف/ ١٧٦.

أقول لقلتُ، أي لو شئتُ لذكرت سبب التّحامل عليّ وتأخّري عن غيري، ولكنّي لا أشاء ذلك ولا أستصلح ذكره.

ثمّ قال: «عفا الله عمّا سلَف» لفظٌ مأخوذ من الكتاب العزيز: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[1].

وهذا الكلام يدلّ على مذهب أصحابنا في أنّ ما جرى من عبد الرّحمن[2] وغيره في يوم الشّورى، وإن كان لم يقع على الوجه الأفضل، فإنّه معفوٌّ عنه مغفورٌ لفاعله، لأنّه لو كان فسقًا غير مغفور لم يقلْ أمير المؤمنين عليه السلام: «عفا الله عمّا سلَف». (١٠: ٦٢ـ ٦٣)

(الخطبة: ٩٩) الْحَمْدُ لِلّهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلـهَ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعًا وَبِذِكْرِهِ نَاطِقًا، فَأَدَّى أَمِينًا وَمَضَى رَشِيدًا، وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ؛ مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ. دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلاَمِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَلْنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللهُ حَتَّى يُطْلِعَ اللهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ، فَلا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَى أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَى قَائِمَتَيْهِ، وَتَثْبُتَ الْأُخْرَى فَتَرْجِعَا حَتَّى تَثْبُتَا جَمِيعًا.

أَلاَ إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ؛ إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللهِ فِيكُمُ الصَّنَائِعُ وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ.

... واعلم أنّ هذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام في الجمعة الثّالثة من خلافته. وكنّى فيها عن حال نفسه، وأعلمَهم فيها أنّهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه وطاعتهم له. وهكذا وقع الأمر، فإنّه نُقل أنّ أهل العراق لم يكونوا أشدَّ اجتماعًا عليه من الشّهر الّذي قُتل فيه عليه السلام.

١ـ المائدة/ ٩٥.

٢ـ هو عبد الرّحمن بن عوف.

وجاء في الأخبار أنّه عقَد للحسن إبنه عليه السلام على عَشَرة آلاف ولأبي أيّوب الأنصاريّ على عشرة آلاف ولفلان وفلان، حتّى اجتمع له مائة ألف سيفٍ وأخرج مقدّمته أمامه يريد الشّام فضربه اللّعينُ ابن ملجم، وكان من أمره ما كان وانفضّت تلك الجموع وكانت كالغنم فقدتْ راعيها.

ومعنى قوله: «ألنتم له رقابَكم» أطعتموه. ومعنى «أشرتم إليه بأصابعكم» أعظمتموه وأجللتموه، كالملك الّذى يشار إليه بالإصبع ولا يخاطب باللّسان. ثمّ أخبرهم أنّهم يلبثون بعده ما شاء الله، ولم يحدّد ذلك بوقت معيّنٍ. ثمّ يُطلِع الله لهم مَن يجمعهم ويضمّهم، يعني من أهل البيت عليهم السلام، وهذا إشارة إلى المهديّ الّذي يظهر في آخر الوقت. وعند أصحابنا أنّه غير موجود الآن وسيوجد، وعند الإماميّة أنّه موجود الآن.

قوله عليه السلام: «فلا تَطمَعوا في غير مُقبِلٍ ولا تيئسوا مِن مدبِرٍ»؛ ظاهر هذا الكلام متناقضٌ، وتأويله أنّه نهاهم عن أن يَطمعوا في صلاح أُمورهم على يد رئيس غير مُستأنف الرّياسة، وهو معنى مُقبِل، أي قادم. تقول: سوف أفعل كذا في الشّهر المقبل وفي السّنَة المقبلة، أي القادمة. يقول: كلّ الرّئاسات الّتي تشاهدونها فلا تطمعوا في صلاح أُموركم بشيء منها، وإنّما تنصلح أُموركم على يد رئيس يقدم عليكم، مستأنف الرّياسة خامل الذّكر، ليس أبوه بخليفة، ولا كان هو ولا أبوه مشهوريْن بينكم برياسة، بل يتّبع ويعلو أمره، ولم يكن قبلُ معروفًا هو ولا أهله الأدنون. وهذه صفة المهديّ الموعود به.

ومعنى قوله: «ولا تيئسوا مِن مُدبِرٍ»، أي وإذا مات هذا المهديّ وخلّفه بنوه بعده، فاضطرب أمر أحدهم فلا تيئسوا وتتشكّكوا وتقولوا: لعلّنا أخطأنا في اتّباع هؤلاء، فإنّ المضطرب الأمر منّا ستثبت دعائمه وتنتظم أُموره، وإذا زلّت إحدى رجليْه ثبتتْ الأُخرى فثبتت الأُولى أيضًا. ويُروى: «فلا تطعنوا في عينٍ مُقبِلٍ»، أي لا تُحاربوا أحدًا منّا ولا تيأسوا مِن إقبال مَن يُدبِر أمره منّا.

ثمّ ذكر عليه السلام أنّهم كنجوم السّماء، كلّما خوَى نجمٌ طلَع نجمٌ. خوَى: مال للمغيب. ثمّ وعَدهم بقرب الفرج فقال: إنّ تكاملَ صنائع الله عندكم ورؤيةَ ما تأمُلونه أمرٌ قد قرُب

وقته، وكأتكم به وقد حضروكان. وهذا على نمط المواعيد الإلهيّة بقيام السّاعة، فإنّ الكتب المنزلة كلّها صرّحت بقربها وإن كانت بعيدةً عندنا، لأنّ البعيد في معلوم الله قريب، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[1]. (٧: ٩٣ـ٩٥)

(الخطبة: ١٦٩) ومن كلام له عليه السلام بعد ما بويع بالخلافة وقد قال له قوم من الصّحابة: لو عاقبتَ قومًا ممّن أجلب على عثمان! فقال عليه السلام:

يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ يَمْلِكُونَنَا وَلاَ نَمْلِكُهُمْ! وهَا هُمْ هٰؤُلاَءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عبْدَانُكُمْ وَالْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلاَلَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاؤُوا، وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعًا لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ!

إِنَّ هَذَا الأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهٰؤُلاَءِ الْقَوْمِ مَادَّةً. إِنَّ النّاسَ مِنْ هَذَا الأَمْرِ إِذَا حُرِّكَ عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى لَا هذَا وَلَا هذَا. فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النّاس وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً.

فَاهْدَءُوا عَنِّي، وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً وَتُسْقِطُ مُنَّةً وَتُورِثُ وَهَنًا وَذِلَّةً. وَسَأُمْسِكُ الأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ، وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدًّا فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ.

واعلمْ أنّ هذا الكلام يدلّ على أنّه عليه السلام كان في نفسه عقاب الّذين حصروا عثمان والاقتصاص ممّن قتله، إن كان بَقي ممّن باشَر قتْله أحدٌ، ولهذا قال: «إنّي لستُ أجهلُ ما تَعلمون»، فاعترف بأنّه عالمٌ بوجوب ذلك، واعتذر بعدَم التّمكّن كما ينبغي. وصدق عليه السلام؛ فإنّ أكثر أهل المدينة أجلبوا عليه، وكان من أهل مصرومن الكوفة عالَمٌ عظيمٌ حضروا مِن بلادهم وطوَوْا المسالك البعيدة لذلك، وانضمّ إليهم أعرابٌ أجلافٌ من البادية، وكان الأمر أمرَ جاهليّةٍ.

كما قال عليه السلام: ولو حرَّك ساكنًا لَاختلف النّاس واضطربوا؛ فقومٌ يقولون: أصاب، وقومٌ يقولون: أخطأ، وقومٌ لا يحكمون بصواب ولا خطأٍ بل يتوقّفون. ولا يأمن ـ لو

١ـ المعارج/ ٦- ٧.

شرع في عقوبة النّاس والقبض عليهم ـ مِن تجدّد فتنةٍ أُخرى كالأُولى وأعظم، فكان الأصوب في التّدبير، والّذي يوجبه الشّرع والعقل الإمساك إلى حين سكون الفتنة وتفرّقِ تلك الشّعوب وعودِ كلّ قوم إلى بلادهم.

وكان عليه السلام يؤمّل أن يطيعه معاوية وغيره، وأن يحضر بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم ويعينون قومًا بأعيانهم، بعضهم للقتل وبعضهم للحصار وبعضهم للتّسوّر، كما جرتْ عادة المتظلّمين إلى الإمام والقاضي. فحينئذ يتمكّن من العمل بحكم الله تعالى. فلم يقع الأمر بموجب ذلك، وعصى معاوية وأهل الشّام، والتجأ ورثة عثمان إليه وفارقوا حوزة أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يطلبوا القصاص طلبًا شرعيًّا وإنّما طلبوه مغالبةً، وجعلها معاوية عصبيّة الجاهليّة، ولم يأتِ أحدٌ منهم الأمر من بابه. وقبل ذلك ما كان من أمر طلحة والزّبير ونقْضهما البيعة ونهْبهما أموال المسلمين بالبصرة وقتْلهما الصّالحين من أهلها.

وجرتْ أُمورٌ كلّها تمنع الإمام عن التّصدّي للقصاص واعتماد ما يجب اعتماده لو كان الأمر وقع على القاعدة الصّحيحة من المطالبة بذلك على وجه السّكون والحكومة.

وقد قال هو عليه السلام لمعاوية: «فأمّا طلبُك قتلة عثمان، فادخُلْ في الطّاعة وحاكِم القوم إليّ، أحملْك وإيّاهم على كتاب الله وسُنّة رسوله». قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله: وهذا عين الحقّ ومحض الصّواب، لأنّه يجب دخول النّاس في طاعة الإمام، ثمّ تقع المحاكمة إليه؛ فإنْ حكَم بالحقّ استُديمتْ إمامته، وإنْ حكَم بالجوْر انتقض أمره وتعيّن خلعه.

فإن قلت: فما معنى قوله: «وسأمسِكُ الأمر ما استَمسك، فإذا لم أجد بُدًّا فآخر الدّواء الكيّ».

قلت: ليس معناه: وسأصبر عن معاقبة هؤلاء ما أمكن الصّبر فإذا لم أجد بُدًّا عاقبتُهم، ولكنّه كلامٌ قاله أوّلَ مسير طلحة والزّبير إلى البصرة، فإنّه حينئذ أشار عليه قوم بمعاقبة المجلِبين، فاعتذر بما قد ذكر. ثمّ قال: «وسأمسِكُ الأمر ما استَمسك»، أي

أمسكُ نفسي عن محاربة هؤلاء النّاكثين للبيعة ما أمكنني، وأدفعُ الأيّام بمراسلتهم وتخويفهم وإنذارهم، وأجتهدُ في ردّهم إلى الطّاعة بالتّرغيب والتّرهيب، فإذا لم أجد بُدًّا من الحرب، فآخر الدّاء الكَيّ، أي الحرب، لأنّها الغاية الّتي ينتهي أمر العصاة إليها.
(٩: ٢٩٣ـ٢٩٤)

(الخطبة: ٢٢٤) ومن كلام له عليه السلام في وصف بيعته بالخلافة، وقد تقدّم مثله بألفاظ مختلفة:

وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَّ الإِبِلِ الْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا، حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ وَسَقَطَ الرِّدَاءُ وَوُطِئَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النّاس بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ.

الشّرح: التّداكّ: الازدحام الشّديد. والإبل الهيم: العِطاش. وهدَج إليها الكبير: مشَى مشيًا ضعيفًا مرتعشًا، والمضارع يهدِج، بالكسر. وتَحامَل نحوَها العليلُ: تكلّف المشي على مشقّةٍ. وحسَرتْ إليها الكَعاب: كشفتْ عن وجهها حرصًا على حضور البيعة. والكَعاب: الجارية الّتي قد نهَد ثديُها، كعَبت تكعُب، بالضّمّ.

قوله: «حتّى انقطع النّعل وسقط الرّداء» شبيهٌ بقوله في الخطبة الشّقشقيّة: «حتّى لقد وُطِئ الحسنان وشُقَّ عَطفاي». وقد تقدّم ذكر بيعته عليه السلام بعد قتْل عثمان وإطباق النّاس عليها وكيفيّة الحال فيها، وشرح شرحًا يُستغنَى عن إعادته. (١٣: ٣ـ٤)

(الخطبة: ٩١) ومن كلام له عليه السلام لمّا أراده النّاس على البيعة بعد قتل عثمان رضي الله عنه:

دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي؛ فإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ وَلا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الْآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ.

وَاعْلَمُوا[1] أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ،

١ـ كذا في ا، ج، و في ب و مخطوطة التّهج: «وأعلم».

وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا!

الشّرح: في أكثر النّسخ: «لمّا أراده النّاس على البيعة»، ووجدتُ في بعضها: «أداره النّاس على البيعة»؛ فمَن روَى الأوّل جعل «على» متعلّقةً بمحذوف، وتقديره «موافقًا»، ومَن روَى الثّاني جعلها متعلّقةً بالفعل الظّاهر نفسه، وهو «أداره»، تقول: أدرتُ فلانًا على كذا، وداورتُ فلانًا على كذا، أي عالجتُه.

ولا تقوم له القلوب، أي لا تصبر. وأغامتْ الآفاق: غطّاها الغيم، أغامتْ وغامتْ وأُغيمتْ وتغيّمتْ، كلّه بمعنىً. والمحجّة: الطّريق. وتنكّرتْ: جهلتْ فلم تُعرَف. و وزيرًا و أميرًا: منصوبان على الحال.

هذا الكلام يحمِلُه أصحابنا على ظاهره و يقولون: إنّه عليه السلام لم يكنْ منصوصًا عليه بالإمامة من جهة الرّسول صلى الله عليه وآله، وإن كان أوْلى النّاس بها وأحقّهم بمنزلتها، لأنّه لو كان منصوصًا عليه بالإمامة من جهة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام لَما جاز له أن يقول: «دعوني والتمسوا غيري»، ولا أن يقول: «ولَعَلِّي أسمعكم وأطوعكم لمَن ولّيتموه أمركم»، ولا أن يقول: «وأنا لكم وزيرًا خيرٌ منّي لكم أميرًا».

وتحمله الإماميّة على وجه آخر فيقولون: إنّ الّذين أرادوه على البيعة هم كانوا العاقدين بيعة الخلفاء من قبل، وقد كان عثمان منَعهم أو منَع كثيرًا منهم عن حقّه من العطاء، لأنّ بني أُميّة استأصلوا الأموال في أيّام عثمان، فلمّا قُتل قالوا لعليّ عليه السلام: نبايعك على أن تسير فينا سيرة أبي بكر وعمر لأنّهما كانا لا يستأثران بالمال لأنفسهما ولا لأهلهما، فطلبوا من عليّ عليه السلام البيعة، على أنْ يقسم عليهم بيوت الأموال قسمة أبي بكر وعمر، فاستعفاهم وسألهم أن يطلبوا غيره ممّن يسير بسيرتهما، وقال لهم كلامًا تحته رمز، وهو قوله: «إنّا مستقبلون أمرًا له وجوهٌ وألوانٌ، لا تَقُوم له القلوب ولا تَثبُت عليه العقول. وإنّ الآفاق قد أغامتْ والمحجّة قد تنكّرتْ». (٧: ٣٣ـ٣٤)

(الحكمة: ٤٧٦) وقال عليه السلام في كلام له: وَوَلِيَهُمْ وَالٍ فَأَقَامَ وَ اسْتَقَامَ حَتَّى ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ.

الشّرح: وهذا الكلام من خطبةٍ خطبها في أيّام خلافته طويلةٍ، يذكر فيها قربَه من

النّبيّ ﷺ واختصاصَه له وإفضاءَه بأسراره إليه، حتّى قال فيها:

فاختار المسلمون بعده بآرائهم رجلًا منهم، فقارَب وسدَّد حَسَب استطاعته على ضَعْفٍ وحدٍّ كانا فيه. وليهم بعده والٍ فأقام واستقام حتّى ضرَب الدِّينُ بجرانه، على عَسْفٍ وعَجْرَفيّةٍ كانا فيه. ثمّ اختلفوا ثالثًا لم يكن يملك من أمر نفسه شيئًا، غلَب عليه أهلُه فقادوه إلى أهوائهم كما تقود الوليدةُ البعير المخْطوم. فلم يزل الأمرُ بينه وبين النّاس يبعُد تارةً ويقرُب أُخرى حتّى نزَوْا عليه فقتَلوه. ثمّ جاءوا بي مَدَبّ الدَّبا، يريدون بيعتي.

وتمام الخطبة معروف، فليطلبْ مِن الكتب الموضوعة لهذا الفنّ. (٢٠: ٢١٨)

[كُتُب الإمام عليه السلام و وصاياه إلى الولاة و الأُمراء و القضاة]

(كتابه: ٤) ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض أُمراء جيشه:

فَإِنْ عَادُوا إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَاكَ الَّذي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوَافَتْ الْأُمُورُبِالْقَوْمِ إِلَى الشِّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ، وَاسْتَغْنِ بِمَنِ انْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ؛ فَإِنَّ الْمُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌمِنْ مَشْهَدِهِ وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ.

الشّرح: انهَدْ أي انهَضْ، و تَقاعَس أي أبطَأ و تأخَّر، و المُتكارِه الّذي يخرج إلى الجهاد مِن غير نيّة و بصيرة و إنّما يخرج كارهًا مرتابًا، و مثل قوله عليه السلام: «فإنّ المُتكارِه مَغيبُه خيرٌ مِن مشهده و قعودُه أغنَى مِن نهوضه» قوله تعالى: ﴿لَوْخَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾[1]. (١٤: ٣٢)

(كتابه: ٥) ومن كتاب له عليه السلام إلى أشعث بن قيس، وهو عامل آذربيجان:

وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ، وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعًى لِمَنْ فَوْقَكَ. لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ وَلَاتُخَاطِرَإِلّا بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ،

١ـ التّوبة/ ٤٧.

وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلّا أَكُونَ شَرَّ وُلَاتِكَ لَكَ. وَالسَّلَامُ.

... وأوّل هذا الكتاب: «من عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين إلى الأشعث بن قيس. أمّا بعد، فلولا هَناتٌ وهَناتٌ كانت منك، كنتُ المُقْدِم في هذا الأمر قبل النّاس، ولعلّ أمرًا كان يَحمِل بعضه بعضًا إن اتّقيتَ الله عزّ وجلّ، وقد كان مِن بيعة النّاس إيّاي ما قد علمتَ، وكان مِن أمر طلحة والزّبير ما قد بلَغك، فخرجتُ إليهما فأبلغتُ في الدّعاء وأحسنتُ في البقيّة، وإنّ عملك ليس لك بطعمة ...»، إلى آخر الكلام، وهذا الكتاب كتَبه إلى الأشعث بن قيس بعد انقضاء الجمل. (١٤: ٣٤)

(كتابه: ٣) ومن كتاب له عليه السلام لشُرَيح بن الحارث قاضيه:

ورُوي أنّ شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنين عليه السلام اشترى علَى عهده داراً بثمانين ديناراً، فبلغه ذلك فاستدعَى شريحاً وقال له: بَلَغَني أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَارًا بِثَمانِينَ دِينَارًا، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَابًا، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُودًا، فقال له شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فنظَر إليه نظرَ المُغضِب، ثمّ قال له:

يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ وَلا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصًا وَيُسْلِمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصًا. فَانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لا تَكُونُ ابْتَعْتَ هذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ فَإِذًا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ.

أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ، لَكَتَبْتُ لَكَ كِتابًا عَلَى هذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هذِهِ الدَّارِ بِالدِّرْهَمِ[1] فَمَا فَوْقُ. والنُّسْخَةُ هذه: «هذَا مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ. اشْتَرَى مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْفَانِينَ وَخِطَّةِ الْهَالِكِينَ.

وَتَجْمَعُ هذِهِ الدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْآفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمُصِيباتِ، وَالْحَدُّ الثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدِي، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ

١ـ مخطوطة النهج: «بدرهم».

يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هذِهِ الدَّارِ.

اشْتَرَى هذَا الْمُغْتَرُّ بِالْأَمَلِ مِنْ هذَا الْمُزْعَجِ بِالْأَجَلِ هذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ وَالدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ؛ فَمَا أَدْرَكَ هذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا اشْتَرَى مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ فَعَلَى مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفَرَاعِنَةِ مِثْلِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَتُبَّعٍ وَحِمْيَرَ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ فَأَكْثَرَ، وَمَنْ بَنَى وَشَيَّدَ، وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَادَّخَرَ وَاعْتَقَدَ، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ، إِشْخَاصُهُمْ جَمِيعًا إِلَى مَوْقِفِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَمَوْضِعِ إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

شَهِدَ عَلَى ذلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى وَسَلِمَ مِنْ عَلَائِقِ الدُّنْيَا».

... موضع الإستحسان من هذا الفصل ـ وإن كان كلّه حسنًا ـ أمران:

أحدهما: أنّه عليه السلام نظَر إليه نظرَ مُغضِبٍ إنكارًا لابتياعه دارًا بثمانين دينارًا. وهذا يدلّ على زهدٍ شديد في الدّنيا واستكثارٍ للقليل منها، ونسَبه هذا المشتري إلى الإسراف، وخوّف مِن أن يكون ابتاعَها بمالٍ حرام.

الثّاني: أنّه أملَى عليه كتابًا زهديًّا وَعْظيًّا مماثلًا لكتب الشّروط الّتي تُكتَب في ابتياع الأملاك، فإنّهم يكتبون «هذا ما اشترَى فلانٌ مِن فلان، اشترَى منه دارًا مِن شارع كذا وخطّة كذا، ويجمع هذه الدّار حدود أربعة؛ فحدٌّ منها ينتهي إلى دار فلان، وحدٌّ آخر ينتهي إلى ملك فلان، وحدٌّ آخر ينتهي إلى ما كان يُعرَف بفلان، وهو الآن معروفٌ بفلان، وحدٌّ آخر ينتهي الى كذا. ومنه شروع باب هذه الدّار.» وطريقها: «اشترَى هذا المشتري المذكور مِن البائع المذكورِ جميعَ الدّار المذكورة بثمنٍ مبلغُه كذا وكذا دينارًا أو درهمًا، فما أدرَك المشتري المذكور مِن دَرَكٍ فمرجوعٌ به على مَن يُوجب الشّرعُ الرّجوعَ به عليه».

ثم تُكتَب الشّهود في آخر الكتاب؛ شَهِد فلانُ بن فلان بذلك، وشهد فلان بن فلان به أيضًا. وهذا يدلّ على أنّ الشّروط المكتوبة الآن قد كانت في زمن الصّحابة

تُكتَب مثلها أو نحوها، إلّا أنّا ما سمعنا عن أحدٍ منهم نقل صيغة الشّرط الفقهيّ إلى معنًى آخر كما قد نظمه هو عليه السلام، ولا غرْوَ فما زال سبّاقًا إلى العجائب والغرائب.

فإن قلت: لِمَ جعَل الشّيطان المُغوي في الحدّ الرّابع؟

قلت: ليقول: وفيه يُشرَع باب هذه الدّار، لأنّه إذا كان الحدّ إليه ينتهي كان أسهل لدخوله إليها، ودخول أتباعه وأوليائه مِن أهل الشّيطنة والضّلال. (١٤: ٢٧ـ٣١)

(كتابه: ١١) ومن وصيّة له عليه السلام وصّى بها جيشاً بعَثه إلى العدوّ:

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ، فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ أَوْ أَثْنَاءِ الْأَنْهَارِ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءًا وَدُونَكُمْ مَرَدًّا. وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ. اجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ وَمَنَاكِبِ الْهِضَابِ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ؛ وَعُيُونُ الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ. وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ، فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعًا، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعًا، وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً، وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَارًا أَوْ مَضْمَضَةً.

... ثمّ نهاهم عن النّوم إلّا غرارًا أو مضمضةً، وكِلَا اللّفظتيْن ما قلّ مِن النّوم. وقال شبيب الخارجيّ: اللّيلُ يَكفيك الجَبان ويصف الشّجاع. وكان إذا أمسى قال لأصحابه: أتاكم المدد، يعني اللّيل. قيل لبعض الملوك بيّتْ عدوَّك. قال: أكرَه أن أجعَل غلبتي سَرِقة.

ولمّا فصَل قُحْطبة من خراسان وفي جُملته خالد بن برمك، بينا هو على سطح بيتٍ في قرية نزلاها وهم يتغدّوْن، نظر إلى الصّحراء فرأى أقاطيعَ ظِباء قد أقبلتْ من جهة الصّحاري حتّى كادت تخالط العسكر. فقال خالد لقحطبة: أيّها الأمير، نادِ في النّاس: يا خيل الله اركبي فإنّ العدوّ قد قرُب منك. وعامّة أصحابك لن يُسرِجوا ويُلجِموا حتّى يَروْا سَرَعان الخيل.

فقام قحطبة مذعورًا فلم يرَ شيئًا يَروعُه ولم يعاينْ غبارًا، فقال لخالد: ما هذا الرّأي؟ فقال: أيّها الأمير! لا تتشاغل بي ونادِ في النّاس. أ ما ترى أقاطيع الوحوش قد

أقبلتْ وفارقتْ مواضعَها حتّى خالطتْ النّاس! وإنّ وراءها لَجمعًا كثيفًا. قال: فو الله ما أسرَجوا ولا ألجَموا حتّى رأوا النّقْع وساطَع الغبار، فسلَّموا، ولولا ذلك لكان الجيش قد أصطلم. (١٥: ٨٩ـ٩١)

(كتابه: ١٢) ومن وصيّة له عليه السلام وصَّى بها معقِل بن قَيس الرّياحيّ حين أنفذه إلى الشّام في ثلاثة آلاف مقدّمةً له:

اتَّقِ اللهَ الّذي لا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلامُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ، وَلاتُقَاتِلَنَّ إلّا مَنْ قَاتَلَكَ، وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ، وغَوِّرْبِالنّاس، وَرَفِّهْ فِي السَّيْرِ. وَلاتَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَناً وَقَدَّرَهُ مُقَامًا لاَ ظَعْنًا، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُالْفَجْرُ، فَسِرْعَلَى بَرَكَةِ اللهِ. فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطًا، وَلا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ، وَلاتَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي. وَلايَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ.

... قوله عليه السلام: «ولا تَسِرْ أوّل اللّيل»، قد ورد في ذلك خبرٌ مرفوع، وفي الخبر أنّه حين تَنتشر الشّياطين . وقد علّل أمير المؤمنين عليه السلام النّهي بقوله: «فإنّ الله تعالى جعَله سكَنًا، وقدَّره مُقامًا لا ظعنًا»، يقول لمّا امتنّ الله تعالى على عباده بأن جعل لهم اللّيل ليسكنوا فيه، كَرِه أن يخالفوا ذلك. ولكن لقائلٍ أن يقول: فكيف لمْ يكره السّير والحركة في آخره، وهو من جملة اللّيل أيضًا! ويمكن أن يكون فَهِم مِن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ اللّيل الّذي جُعِل سكنًا للبشر إنّما هو من أوّله إلى وقت السّحر... .

ثمّ أمره عليه السلام إذا لقي العدوّ أن يقف بين أصحابه وسطًا لأنّه الرّئيس، والواجب أن يكون الرّئيس في قلب الجيش، كما أنّ قلب الإنسان في وسط جسده، ولأنّه إذا كان وسطًا كانت نسبته إلى كلّ الجوانب واحدةً، وإذا كان في أحد الطّرفين بُعْد من الطّرف الآخر، فربما يختلّ نظامه ويضطرب.

ثمّ نهاه عليه السلام أن يدنو مِن العدوّ دنوّ مَن يريد أن يُنشِب الحرب، ونهاه أن يبعد منهم بُعد مَن يَهابُ الحرب، وهي البأس. قال الله تعالى: ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[1]، أي حين الحرب، بل يكون على حال متوسّطة بين هذين حتّى يأتيه الأمر من أمير المؤمنين عليه السلام لأنّه أعرف بما تقتضيه المصلحة.

ثمّ قال له: لا يحملنّكم بُغْضكم لهم على أن تبدؤوهم بالقتال قبل أن تدعوهم الى الطّاعة وتعتذروا إليهم أي تصيروا ذوي عذر في حربهم. (١٥: ٩٣ـ٩٥)

(كتابه: ١٣) ومن كتاب له عليه السلام إلى أميريْن من أُمراء جيشه:

وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلى مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا، واجْعَلَاه-دِرْعًا وَمِجَنًّا، فَإِنّهُ مِمَّنْ لَا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ، وَلا بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ.

... وقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام من أصناف الثّناء والمدح ما فرّقه هؤلاء في كلماتهم بكلمة واحدة قالها في الأشتر، وهي قوله: «لا يُخاف بُطْؤه عمّا الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البُطء عنه أمثل». (١٥: ١٠٣)

(كتابه: ١٨) ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العبّاس وهو عامله على البصرة:

وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ، فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ.

وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلا إِسْلامٍ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً وَقَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهَا.

فَارْبَعْ أَبَا العبّاس رَحِمَكَ اللهُ فِيمَا جَرَى عَلَى يَدِكَ وَلِسَانِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذلِكَ، وكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ. وَالسَّلامُ.

١ـ البقرة/ ١٧٧.

قوله عليه السلام: مَهْبط إبليس: موضع هبوطه. ومغرس الفتن: موضع غرسها، ويروَى «ومُغرِس الفتن»، وهو الموضع الّذي ينزِل فيه القومُ آخر اللّيل للاستراحة، يقال غرسوا و أغرسوا. وقوله عليه السلام: «فحَادِثْ أهلها»، أي تعهّدْهم بالإحسان، من قولك: حادثتُ السّيف بالصِّقال.

والتّنمّر للقوم: الغلظة عليهم، والمعاملة لهم بأخلاق النّمر، من الجرأة و الوثوب، وسنذكر تصديق قوله عليه السلام «لم يَغِبْ لهم نجمٌ إلّا طلَع لهم آخر». والوَغم: التِّرَة، والأوغام: التِّرات، أي لم يُهدَر لهم دمٌ في جاهليّة ولا إسلام، يصفهم بالشّجاعة والحميّة. ومأزورون، كان أصله «موزورون»، ولكنّه جاء بالألِف ليُحاذي به ألفَ «مأجورون» وقد قال النّبيّ صلى الله عليه وآله مثل ذلك.

قوله عليه السلام: «فارْبَعْ أبا العبّاس»، أي قفْ وتثبّتْ في جميع ما تعتمده فعلًا وقولًا من خير وشرّ ولا تعجل به، فإنّي شريكك فيه إذ أنت عاملي والنّائب عنّي. ويعني بالشّرّ هاهنا الضّرر فقط لا الظّلم والفعل القبيح. قوله عليه السلام «وكنْ عند صالح ظنّي فيك»، أي كنْ واقفًا عنده كأنّك تشاهِدُه فتمنعك مشاهدته عن فعل ما لا يجوز. (١٥: ١٢٥ـ١٢٦)

(كتابه: ١٩) ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عمّاله:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً وَاحْتِقَارًا وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَابًا مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ وَالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

الشّرح: الدّهاقين: الزّعماء أربابُ الأملاك بالسّواد، واحدهم دِهقان بكسر الدّال، ولفظه معرّب. وداول بينهم، أي مرّةً هكذا ومرّةً هكذا، أمره أن يَسلك معهم منهجًا متوسّطًا، لا يُدنيهم كلّ الدّنو لأنّهم مشركون، ولا يُقصيهم كلّ الإقصاء لأنّهم معاهِدون، فوجب أن يعامِلهم معاملةً آخذةً مِن كلّ واحد مِن القسمين بنصيب. (١٥: ١٣٧)

(كتابه: ٢٠) ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه وهو خليفةُ عاملِه عبد الله بن العبّاس

على البصرة ـ وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليه السلام يومئذ عليها وعلَى كُوَر الأهواز وفارس وكرمان وغيرها:

وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَمًا صَادِقًا، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ ثَقِيلَ الظَّهْرِ ضَئِيلَ الْأَمْرِ. وَالسَّلَامُ.

الشّرح: سيأتي ذكرُ نسبِ زياد وكيفيّة استلحاق معاوية له فيما بعد إن شاء الله تعالى. قوله عليه السلام «لأَشُدّنّ عليك شدّةً» مثل قوله «لأحملنّ عليك حملَةً»، والمراد تهديده بالأخذ واستصفاء المال. ثمّ وصف تلك الشّدّة فقال: إنّها تتركك قليلَ الوَفْر، أي أُفقِرك بأخذ ما احتجتَ من بيت مال المسلمين. وثقيل الظّهْر، أي مسكينٌ لا تَقدِر علَى مَؤونة عيالك. وضَئيل الأمر، أي حقيرٌ لأنّك إنّما كنت نَبيهًا بين النّاس بالغِنَى والثّروة، فإذا افتقرتَ صغرتَ عندهم واقتحمتْك أعينُهم. (١٥: ١٣٨)

(كتابه: ٢١) ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد أيضاً:

فَدَعِ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِدًا، وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَدًا، وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ، أَتَرْجُوا أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ، وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ! وَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ أَنْ تَمْنَعَهُ الضَّعِيفَ وَالْأَرْمَلَةَ، وَأَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ، وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ. وَالسَّلَامُ.

الشّرح: المُتمرّغ في النّعيم: المتقلّب فيه. ونهاه عن الإسراف وهو التّبذير في الإنفاق، وأمَره أن يُمسِك مِن المال ما تَدعو إليه الضّرورة، وأن يقدّم فضول أمواله وما ليس له إليه حاجةٌ ضروريّة في الصّدقة فيدّخره ليوم حاجته، وهو يوم البعث والنّشور.

قلت: قبّح الله زيادًا! فإنّه كافأ إنعام عليّ عليه السلام وإحسانَه إليه واصطناعه له بما لا حاجة إلى شرحه من أعماله القبيحة بشيعته ومحبّيه والإسراف في لعنه وتهجين أفعاله والمبالغة في ذلك بما قد كان معاوية يَرضَى باليسير منه، ولم يكن يفعل ذلك لطلب رضا معاوية، كلّا، بل يفعله بطبعه، ويُعاديه بباطنه وظاهره، وأبَى الله إلّا أن يرجع إلى أُمّه، ويصحّح نسبه، وكلُّ إناء يَنضَح بما فيه. ثم جاء ابنه بعدُ فختَم تلك الأعمال السّيّئة بما ختم، وإلى الله ترجع الأُمور! (١٥: ١٣٩)

(كتابه: ٢٢) ومن كتاب له عليه السلام إلى عبدالله بن العبّاس رحمه الله تعالى، وكان ابن عبّاس يقول: ما انتفعتُ بكلام بعدَ كلام رسول الله صلى الله عليه وآله كانتفاعي بهذا الكلام:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوءُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحًا، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

الشّرح: يقول: إنّ كلّ شيء يصيب الإنسانَ في الدّنيا من نفعٍ وضَرٍّ فبقضاءٍ من الله وقدَره تعالى. لكنّ النّاس لا ينظرون حقّ النّظر في ذلك، فيُسَرّ الواحد منهم بما يصيبه من النّفع، ويُساء بفوت ما يفوته منه، غيرُ عالم بأنّ ذلك النّفع الّذي أصابه، كان لا بدّ أن يصيبه، وأنّ ما فاته منه كان لا بدّ أن يفوته. ولو عرَف ذلك حقّ المعرفة لم يفرح ولم يحزن.

ولقائلٍ أن يقول: هَبْ أنّ الأُمور كلّها بقضاء وقدرٍ، فلِمَ لا ينبغي للإنسان أن يَفرح بالنّفع وإن وقع بالقدَر، ويَساء بفوته أو بالضّرر وإن وقعَا بقدرٍ! أليس العريان يَساء بقدوم الشّتاء وإن كان لا بدّ من قدومه، والمحمومُ غِبًّا يساء بتجدّد نَوْبة الحُمَّى وإن كان لا بدّ من تجدّدها! فليس سبب الاختيار في الأفعال ممّا يوجب أن لا يُسَرّ الإنسان ولا يُساء بشيء منها.

والجواب: ينبغي أن يُحمَل هذا الكلام على أنّ الإنسان ينبغي أن لا يعتقد في الرّزق أنّه أتاه بسعيه وحركته فيَفرَح معجبًا بنفسه، مُعتقدًا أنّ ذلك الرّزق ثمرةُ حركته واجتهاده. وكذلك ينبغي ألّا يَساء بفوات ما يفوته من المنافع لائمًا نفسه في ذلك ناسبًا لها إلى التّقصير وفساد الحيلة والاجتهاد، لأنّ الرّزق هو من الله تعالى لا أثر للحركة فيه، وإن وقع عندها. وعلى هذا التّأويل ينبغي أن يُحمَل قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ

ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[1].

من النّظم الجيّد الرّوحانيّ في صفة الدّنيا والتّحذير منها والوصاة بترك الاغترار بها والعمل لِما بعدها، ما أورده أبو حيّان في كتاب «الإشارات الإلهيّة» ولمْ يُسمِّ قائله:

دار الفجـــائع والهمـــوم ودا ... ر البـــثّ والأحـــزان و البلـــوَى
مُـرُّ المذاقـة غـبّ مـا احتلبـتْ ... منهـــا يَـــداك وَبيَّـــةُ المرعَـــى
بينـــا الفَـــتى منهـــا بمنزلـــةٍ ... إذ صـــار تحـــت تُرابهـــا مُلـــقَى
تَقْفـــو مســـاوِيها محاســـنُها ... لا شيء بـــين النَّعْـــي والبُشْـــرَى
ولقَـــلَّ يـــومٌ ذَرَّ شـــارِقُه ... إلّا سمعـــتَ بهالـــكٍ يُنعَـــى
لا تَعتـــبنَّ عـــلى الزّمـــان لِمـــا ... يـــأتي بـــه فلقلّمـــا يَـــرضَى
للمـــرء رزقٌ لا يفـــوت ولـــو ... جَهَـــد الخلائـــقُ دونَ أن يَفـــنَى
يـــا عـــامرَ الـــدّنيا المعـــدّ لهـــا ... مـــاذا عَمِلـــتَ لـــدارك الأُخـــرَى!
وممهّـــد الفُـــرُش الوطيئـــة لا ... تُغفِـــلْ فِـــراشَ الرَّقْـــدة الكبـــرَى
لـــو قـــد دُعِيـــتَ لقـــد أجبـــتَ لِمـــا ... تُـــدْعى لـــه فـــانظرْ مـــتَى تـــدعَى!
أ تـــراك تُحصِـــي كـــم رأيـــتَ مِـــن الـــ ... أحيـــاء ثمّ رأيـــتَهم مَـــوتَى
مَـــنْ أصـــبحتْ دنيـــاه همّتَـــه ... فمـــتى ينـــالُ الغايـــةَ القُصْـــوَى!
ســـبحانَ مـــن لا شيء يَعدِلُـــه ... كـــم مـــن بصـــير قلبُـــه أعمَـــى!
والمـــوتُ لا يخـــفَى عـــلى أحـــد ... ممَّـــن أرَى وكأنَّـــه يَخـــفَى
واللّيـــل يَـــذهبُ والنّهـــارُ بأحـــ ... ـــبابي، و لـــيس عليهمـــا عـــدوَى

(١٥: ١٤٠ـ ١٤٢)

١ـ الحديد/ ٢٢ـ ٢٣.

(كتابه: ٣٣) ومن كتاب له عليه السلام إلى قُثَم بن العبّاس، وهو عامله على مكّة:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، الْعُمْيِ الْقُلُوبِ، الصُّمِّ الْأَسْمَاعِ، الْكُمْهِ الْأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ؛ وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ، وَلَا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ.

فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ، التَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ.

وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِرًا وَلَا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلًا. وَالسَّلَامُ.

الشَّرح: كان معاويه قد بعث إلى مكّة دُعاةً في السّرّ يَدعُون إلى طاعته ويثبّطون العرب عن نصرة أمير المؤمنين ويوقعون في أنفسهم أنّه إمّا قاتِلٌ لعثمان أو خاذلٌ، وإنّ الخلافة لا تصلح فيمن قَتل أو خَذل، وينشرون عندهم محاسن معاويه بزعمهم وأخلاقه وسيرته.

فكتب أمير المؤمنين عليه السلام هذا الكتاب إلى عامله بمكّة، ينبّهه على ذلك ليعتمد فيه بما تقتضيه السّياسة، ولم يصرّح في هذا الكتاب بماذا يأمره أن يفعل إذا ظفر بهم.

قوله: «عيني بالمغرب» أي أصحاب أخباره عند معاوية وسمّى الشّامَ مغربًا لأنّه من الأقاليم المغربيّة. والموسم: الأيّام الّتي يقام فيها بالحجّ. وقوله: «يَحتلِبون الدّنيا دَرَّهَا بالدّين» دلالةٌ على ما قلنا: إنّهم كانوا دعاةً يظهرون سَمْت الدّين وناموس العبادة.

وفيه إبطال قول مَن ظنّ أنّ المراد بذلك السّرايا الّتي كان معاوية يبعثها، فتُغِيرُ على أعمال عليّ عليه السلام. ودَرَّهَا منصوبٌ بالبدل من «الدّنيا»، ورُوي: «الّذين يلتمسون الحقّ بالباطل»، أي يطلبونه، أي يتّبعون معاوية وهو على الباطل التماسًا وطلبًا للحقّ، ولا يعلمون أنّهم قد ضلّوا.

قوله: «وإيّاك وما يُعتذر منه» من الكلمات الشّريفة الجليلة الموقع، وقد رُويتْ مرفوعةً، وكان يقال: ما شيء أشدّ على الإنسان مِن حمل المروءة، والمروءة ألّا يعمل الإنسان في غيبة صاحبه ما يُعتذر منه عند حضوره.

قوله: «ولا تكن عند النّعماء بَطِرًا، ولا عند البأساء فَشِلًا» معنًى مستعمل، قال الشّاعر:

فلستُ بمفراح إذا الدّهر سرّني ... ولا جازعٌ من صرْفه المتقلّب
ولا أتمنّى الشّرّ والشّرّ تاركي ... ولكن متى أحمَل على الشّرّ أركب

(١٦: ١٣٨ـ ١٣٩)

(كتابه: ٣٨) ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر، لمّا ولّى عليهم الأشتر:

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقَومِ الّذينَ غَضِبُوا لله حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّوَالْفَاجِرِوَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ، فَلا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ، وَلا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِاللهِ، لا يَنَامُ أَيّامَ الخَوْفِ، وَلا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ، أَشَدَّ عَلَى الْفُجّارِ مِنْ حَرَيقِ النّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ، فَاسْمَعُوا لَهُ وأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ، لا كَلِيلُ الظُّبَةِ وَلا نَابِي الضَّرِيبَةِ؛ فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا، فَإِنَّهُ لا يُقْدِمُ وَلا يُحْجِمُ وَلا يُؤَخِّرُوَلا يُقَدِّمُ إِلّا عَنْ أَمْرِي، وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ.

الشّرح: هذا الفصل يُشكِل عليَّ تأويله، لأنّ أهل مصرهم الّذين قتلوا عثمان، وإذا شهد أميرُ المؤمنين عليه السلام أنّهم غَضبوا لله حين عُصي في الأرض، فهذه شهادةٌ قاطعة علَى عثمان بالعصيان وإتيان المنكر.

ويمكن أن يقال وإن كان متعسّفًا: إنّ الله تعالى عُصي في الأرض لا مِن عثمان، بل مِن ولاته وأُمرائه وأهله، وذهب بينهم بحقّ الله وضرَب الجوْر سُرادقه بولايتهم، وأمَرهم على البرّ والفاجر والمقيم والظّاعن، فشاع المنكر وفقد المعروف .... .

ثم أمَرهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به ممّا يطابق الحقّ، وهذا من شدّة دينه وصلابته عليه السلام، لم يسامحْ نفسه في حقِّ أحبِّ الخلق إليه أن يهمل هذا القيد، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق» .... .

قوله: «فإنّه سيفٌ مِن سيوف الله»، هذا لقب خالد بن الوليد، واختُلف فيمن لقّبه به، فقيل: لقّبه به رسول الله ﷺ، والصّحيح أنّه لقّبه به أبو بكر، لقتاله أهل الرّدّة وقتلِه مُسيلمة ... .

ثمّ أمَرهم بأن يطيعوه في جميع ما يأمرهم به مِن الإقدام والإحجام، وقال: إنّه لا يقدِم ولا يؤخِر إلّا عن أمري، وهذا إن كان قاله مع أنّه قد سنَح له أن يعمل برأيه في أُمور الحرب من غير مراجعته فهو عظيمٌ جدًّا، لأنّه يكون قد أقامه مقام نفسه.

وجاز أن يقول: إنّه لا يفعل شيئًا إلّا عن أمري، وإن كان لا يراجعه في الجزئيّات على عادة العرب في مثل ذلك، لأنّهم يقولون فيمن يَثِقون به نحو ذلك.

وقد ذهب كثيرٌ من الأُصوليّين إلى أنّ الله تعالى قال لمحمّد ﷺ: احكمْ بما شئتَ في الشّريعة، فإنّك لا تحكم إلّا بالحقّ، وأنّه كان يحكم مِن غير مراجعته لجبرائيل، وإنّ الله تعالى قد قال في حقّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1]، وإن كان عليه السلام قال هذا القول عن الأشتر، لأنّه قد قرّر معه بينه وبينه ألّا يعملَ شيئًا قليلًا ولا كثيرًا إلّا بعد مراجعته، فيجوز ولكنّ هذا بعيدٌ، لأنّ المسافة طويلة بين العراق ومصر، وكانت الأُمور هناك تقف وتفسد.

ثم ذكر أنّه آثرَهم به على نفسه، وهكذا قال عمر لمّا أنفذ عبد الله بن مسعود إلى الكوفه في كتابه إليهم: قد آثرتُكم به على نفسي، وذلك أنّ عمر كان يستفتيه في الأحكام، وعليّ عليه السلام كان يصول على الأعداء بالأشتر، ويقوّي أنفس جيوشه بمقامه بينهم، فلمّا بعثه إلى مصر كان مؤثِرًا لأهل مصر به على نفسه. (١٦: ١٥٦ـ ١٥٩)

(كتابه: ٤٠) ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عمّاله:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النّاس. وَالسَّلامُ.

١ـ النّجم/ ٣ـ ٤.

الشّرح: أخزيتَ أمانتك: أذللتَها و أهنتَها، وجرَّدتَ الأرض: قشَرتَها؛ والمعنى أنّه نسَبه إلى الخيانة في المال وإلى إخراب الضّياع.

وفي حكمة أبرويزَ أنّه قال لخازن بيت المال: إنّي لا أحتملك على خيانة درهمٍ، ولا أحمَدك على حفظ عشرة آلاف ألف درهمٍ، لأنّك إنّما تَحقِن بذلك دمك وتعمُر به أمانتك، وإنّك إن خنتَ قليلًا خنتَ كثيرًا فاحترِسْ من خصلتيْن: من النّقصان فيما تأخذ، ومن الزّيادة فيما تُعطي. واعلمْ أنّي لم اجعلْك على ذخائر الملك وعمارة المملكة والعدّة على العدوّ إلّا وأنت أمينٌ عندي من الموضع الّذي هي فيه، ومِن خواتمها الّتي هي عليها، فحقّقْ ظنّي في اختياري إيّاك أُحقِّقْ ظنّك في رجائك لي، ولا تتعوّض بخيرٍ شرًّا ولا برفعةٍ ضعةً ولا بسلامةٍ ندامةً ولا بأمانةٍ خيانةً.

وفي الحديث المرفوع: «مَن وَلِي لنا عملًا فليتزوّج وليتّخذْ مسكنًا ومركبًا وخادمًا، فمَن اتّخذ سوى ذلك جاء يوم القيامة عادلًا غالًا سارقًا» ... . (١٦: ١٦٤ـ١٦٥)

(كتابه: ٤١) ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عمّاله:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ؛ فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ، وَالعَدُوُّ قَدْ حَرِبَ، وَأَمَانَةَ النّاس قَدْ خَزِيَتْ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فُتِكَتْ وَ شَغَرَتْ، قَلَبْتَ لابنِ عَمِّكَ ظَهْرَ المِجَنِّ، فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلا ابنَ عَمِّكَ آسَيْتَ وَلا الْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ.

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ، فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ الشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ، أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ وَعَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِم الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ، اخْتِطَافَ الذِّئْبِ الْأَزَلِّ دَامِيَةَ الْمِعْزَى الْكَسِيرَةَ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِه غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ ـ لَا أَبَا لِغَيْرِكَ ـ حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ.

فَسُبْحَانَ اللهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ! أَوَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ! أَيُّهَا الْمَعْدُودُ كَانَ

عِنْدَنَا مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسِيغُ شَرَابًا وَطَعَامًا، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا وَتَشْرَبُ حَرَامًا وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ، الَّذِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ هذِهِ الْأَمْوَالَ وَأَحْرَزَبِهِمْ هذِهِ الْبِلَادَ!

فَاتَّقِ اللهَ وَارْدُدْ إِلَى هؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْكَ لَأُعْذِرَنَّ إِلَى اللهِ فِيكَ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ.

وَ وَاللهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ، وَلَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا. وَأُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثًا لِمَنْ بَعْدِي، فَضَحَّ رُوَيْداً. فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ الرَّجْعَةَ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ! وَالسَّلَامُ.

... وقد اختلف النّاس في المكتوب إليه هذا الكتاب، فقال الأكثرون: إنّه عبد الله ابن عبّاس رحمه الله، وروَوْا في ذلك روايات واستدلّوا عليه بألفاظ مِن ألفاظ الكتاب كقوله: «أشركتُك في أمانتي وجعلتُك بطانتي وشعاري، وأنّه لم يكن في أهلي رجلٌ أوثق منك»، وقوله: «علَى ابن عمّك قد كَلِب»، ثمّ قال ثانيًا: «قلَبتَ لابن عمّك ظَهْرَ المِجَنّ» ثمّ قال ثالثًا: «ولا ابن عمّك آسيتَ»، وقوله: «لا أبَا لغيرك»، وهذه كلمةٌ لا تقال إلّا لمثله، فأمّا غيره مِن أفناء النّاس، فإنّ عليًّا عليه السلام كان يقول: لا أبَا لك. وقوله: «أيّها المعدود كان عندنا مِن أولي الألباب». وقوله: «لو أنّ الحسن والحسين عليهما السلام»، وهذا يدلّ على أنّ المكتوب إليه هذا الكتاب قريبٌ مِن أن يجري مجراهما عنده.

وقد روَى أرباب هذا القول أنّ عبد الله بن عبّاس كتب إلى عليّ عليه السلام جوابًا من هذا الكتاب. قالوا: وكان جوابه: أمّا بعد، فقد أتاني كتابك تعظم علَيَّ ما أصبتُ من بيت مال البصرة، ولعمري إنّ حقّي في بيت المال أكثر ممّا أخذتُ. والسّلام.

قالوا: فكتب إليه عليّ عليه السلام: أمّا بعد، فإنّ مِن العجب أن تزيّن لك نفسُك أنّ لك في بيت مال المسلمين من الحقّ أكثر ممّا لرجل واحدٍ من المسلمين، فقد أفلحتَ إن كان تمنّيك الباطل وادّعاؤك ما لا يكون يُنجيك من المأثم ويُحِلّ لك المحرَّم، إنّك

لأنت المهتدي السّعيد إذًا! وقد بلغني أنّك اتّخذت مكّة وطنًا وضربتَ بها عَطنًا، تشتري بها مولّدات مكّة والمدينة والطّائف، تختارهنّ علَى عينك وتُعطي فيهنّ مال غيرك، فارجعْ هداك الله إلى رشدك وتُبْ إلى الله ربّك وأخرجْ إلى المسلمين من أموالهم، فعمّا قليلٍ تفارق مَن ألّفتَ وتترك ما جمعتَ وتغيب في صَدَع من الأرض غير موسَّدٍ ولا ممهَّد، قد فارقتَ الأحباب وسكنتَ التّراب و واجهتَ الحساب، غنيًّا عمّا خلفتَ، فقيرًا إلى ما قدّمتَ. والسّلام.

قالوا: فكتب إليه ابن عبّاس: أمّا بعد، فإنّك قد أكثرتَ عليَّ، و والله لَأن ألقى اللهَ قد احتويتُ على كنوز الأرض كلّها وذهبها وعِقيانها ولُجَينها، أحبُّ إليَّ مِن أن ألقاه بدم امرئٍ مسلم. والسّلام.

وقال آخرون وهم الأقلّون: هذا لم يكن، ولا فارَق عبد الله بن عبّاس عليًّا عليه السلام ولا بايَنه ولا خالَفه، ولم يزلْ أميرًا على البصرة إلى أن قُتل عليّ عليه السلام. قالوا: ويدلّ على ذلك ما رواه أبو الفرج عليّ بن الحسين الإصفهانيّ من كتابه الّذي كتبه إلى معاوية من البصرة لمّا قُتل عليّ عليه السلام، وقد ذكرناه من قبل. قالوا: وكيف يكون ذلك ولم يخدعه معاوية ويجرّه إلى جهته. فقد علمتم كيف اختدع كثيرًا من عمّال أمير المؤمنين عليه السلام واستَمالهم إليه بالأموال، فمالوا وتركوا أمير المؤمنين عليه السلام، فما باله وقد علم النَّبْوَة الّتي حدثت بينهما، لم يَستمِل ابنَ عبّاس ولا اجتذبه إلى نفسه.

وكلّ مَن قرأ السِّير وعرَف التّواريخ يعرف مشاقّة ابن عبّاس لمعاوية بعد وفاة عليّ عليه السلام وما كان يلقاه به مِن قوارع الكلام وشديد الخصام، وما كان يثني به على أمير المؤمنين عليه السلام ويذكر خصائصه وفضائله، ويصدع به من مناقبه ومآثره. فلو كان بينهما غبارٌ أو كَدر لَما كان الأمر كذلك، بل كانت الحال تكون بالضّدّ لِما اشتهر من أمرهما. وهذا عندي هو الأمثل والأصوب.

وقد قال الرّاونديّ: المكتوب إليه هذا الكتاب هو عبيد الله بن العبّاس لا عبد الله، وليس ذلك بصحيح؛ فإنّ عبيد الله كان عامل عليّ عليه السلام على اليمن، وقد ذكرت قصّته مع بُسر بن أرطاة فيما تقدّم، ولم ينقل عنه أنّه أخذ مالًا ولا فارق طاعةً.

وقد أُشكل عليَّ أمر هذا الكتاب، فإن أنا كذَّبتُ النّقل وقلت: هذا كلامٌ موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام خالفتُ الرّواة، فإنّهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه، وقد ذُكِر في أكثر كُتب السِّير. وإن صرفتُه إلى عبد الله بن عبّاس صدّني عنه ما أعلمُه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وبعد وفاته. وإن صرفتُه إلى غيره لم أعلمْ إلى مَن أصرفُه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام، والكلام يُشعِر بأنّ الرّجل المخاطَب من أهله وبني عمّه، فأنا في هذا الموضع من المتوقّفين! (١٦: ١٦٩ـ ١٧٢)

(كتابه: ٤٣) ومن كتاب له عليه السلام إلى مَصْقَلة بن هُبَيرة الشّيبانيّ وكان عامله على أردَشيرخُرّة:

بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلٰهَكَ وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ؛ إِنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ الْمُسْلِمِينَ ـ الّذي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ ـ فِيمَنِ اعْتَامَكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ. فَوَالّذي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَئِنْ كَانَ ذٰلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَانًا وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَانًا، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا.

أَلَا وَ إِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هٰذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ؛ يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ.

الشّرح: قد تقدّم ذكر نسب مَصقَلة بن هُبيرة. وأردَشيرخُرّة: كورةٌ من كُوَر فارس. واعتامك: اختارك من بين النّاس، أصله من العِيمة بالكسر، وهي خيار المال. اعتام المصَّدِّق إذا أخذ العيمة، وقد رُوي: «فيمن اعتماك»[1] بالقلب، والصّحيح المشهور الأوّل. ورُوي: «ولتجدنّ بك عندي هوانًا» بالباء، ومعناها اللّام؛ ولتجدنّ بسبب فعلك هوانك عندي، والباء تَرِد للسّببيّة، كقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[2].

١ـ ب: «اعتامك»؛ والصّواب ما أثبته من ا.

٢ـ النّساء/ ١٦٠.

والمَحق: الإهلاك. والمعنى أنّه نَهى مصقلة عن أن يقسم الفيءَ على أعراب قومه الّذين اتّخذوه سيّدًا ورئيسًا، ويَحرِم المسلمين الّذين حازوه بأنفسهم وسلاحهم. وهذا هو الأمر الّذي كان يُنكِره على عثمان، وهو إيثار أهله وأقاربه بمال الفيء، وقد سبق شرحُ مثل ذلك مستوفًى. (١٦: ١٧٥ـ١٧٦)

[ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف]

(كتابه: ٤٥) ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حُنَيف الأنصاريّ ـ وكان عامله على البصرة، وقد بلغه أنّه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها ـ قوله:

أَمَّا بَعْدُ، يَا بْنَ حُنَيْف فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَة فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ. وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ. أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلَا وَإِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى ذلِكَ، وَلكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَع وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ. فَوَاللهِ[1] مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْرًا، وَلَادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْرًا، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْرًا، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ، وَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَهْوَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ.

الشّرح: عثمان بن حُنَيف ونسبه. هو عثمان بن حنيف ـ بضمّ الحاء ـ بن واهب ابن العكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاريّ ثمّ الأوسيّ أخو سهل بن حنيف، يكنّى أبا عمرو ـ وقيل: أبا عبد الله ـ عَمِل لعمر ثمّ لعليّ عليه السلام، وولّاه عمر مساحة الأرض وجبايتها بالعراق، وضرّب الخراج والجزية على أهلها وولّاه عليّ عليه السلام على البصرة، فأخرجه طلحة

---

١ ـ ب: «اللّهمّ».

والزّبير منها حين قَدِماها. وسكن عثمان الكوفة بعد وفاة عليّ عليه السلام ومات بها في زمن معاوية.

قوله: «مِن فتية البصرة»، أي من فتيانها، أي من شبابها أو من أسخيائها. يقال للسّخيّ: هذا فتًى، والجمع فِتْية وفتيان وفُتُوّ. ويُروَى: «أنّ رجلًا من قُطّان البصرة»، أي سكّانها.

والمأدُبة، بضمّ الدّال: الطّعام يُدعَى إليه القوم. وقد جاءت بفتح الدّال أيضًا ويقال: أدَب فلانٌ القومَ يأدِبهم بالكسر، أي دعاهم إلى طعامه. والآدِب: الدّاعي إليه، قال طَرَفة:

نحن في المَشْتَاة نَدعُو الجَفَلَى لا تَرَى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ[1]

ويقال أيضًا: آدَبَهم إلى طعامه يُؤْدِبهم إيدابًا.

ويُروَى: «وكثُرتْ عليك الجِفان فكَرِعتَ وأكلتَ أكل ذئبٍ نَهِم أو ضبُعٍ قِرِم». ورُوي: «وما حَسِبتك تأكل طعامَ قومٍ». ثمّ ذمّ أهل البصرة فقال: «عائِلُهم مَجْفُوٌّ وغنيُّهم مَدْعُوٌّ»، والعائل: الفقير، وهذا كقول الشّاعر:

فإن تُمِلِقْ فأنت لنا عدوٌّ فإن تثرفأنت لنا صديقُ

ثمّ أمَره بأن يترك ما فيه شبهةٌ إلى ما لا شبهة فيه، وسمَّى ذلك قضمًا ومقضمًا وإن كان ممّا لا يَقضِم لاحتقاره له وازدرائه إيّاه، وأنّه عنده ليس ممّا يستحقّ أنْ يُسمَّى بأسماء المرغوب فيه، المتنافس عليه؛ وذلك لأنّ القضم يطلق على معنيين: أحدهما على أكل الشّيء اليابس، والثّاني على ما يؤكل ببعض الفم، وكلاهما يدلّان على أنّ ذلك المقضم المرغوب عنه، لا فيه.

ثمّ ذكر عليه السلام حالَ نفسه فقال: إنّ إمامَكم قد قنَع من الدّنيا بطِمريه، والطِّمر: الثّوب

١ـ ديوانه ٧٩. المَشْتَاة: زمن الشّتاء. والجَفَلَى: أن يعمّ المرء بدعوته إلى الطّعام ولا يخصّ أحدًا دون الآخر. والانتقار: أن يدعو النَّقَرَى، وهي أن يخصّ بدعوته ولا يعمّها.

الخَلَق البالي، وإنّما جعلهما اثنيْن لأنّهما إزارٌ ورداءٌ لا بدّ منهما أي للجسد والرّأس. قال: «ومِن طُعْمه بقُرْصَيه»، أي قرصان يفطر عليهما لا ثالث لهما. ورُوي: «قد اكتَفى من الدّنيا بطمريْه وسدّ فورةَ جوعه بقرصيْه، لا يطعم الفِلْذة في حوليْه إلّا في يوم أضحيّة».

ثمّ قال إنّكم لن تَقدِروا على ما أقدِرُ عليه، ولكنّي أسألكم أن تُعينوني بالورع والاجتهاد. ثمّ أقسم أنّه ما كنَز ذهبًا ولا ادّخر مالًا ولا أعدّ ثوبًا باليًا سَمَلًا لبالي ثوبيْه فضلًا عن أن يُعِدّ ثوبًا قشيبًا كما يفعله النّاس في إعداد ثوبٍ جديد ليلبسوه عوض الأسمال الّتي ينزعونها. ولا حاز من أرضها شِبْرًا، والضّمير في «أرضها» يرجع إلى «دنياكم»، ولا أخذ منها إلّا كقوتِ أتانٍ دَبِرَةٍ، وهي الّتي عقر ظهرُها فقلّ أكلها.

ثمّ قال: «ولَهِيَ في عيني أهون مِن عَفْصَة مَقِرَة»، أي مُرّة. مَقِر الشّيء بالكسر، أي صار مُرًّا، وأمقره بالهمز أيضًا. قال لبيد:

مُمقِرٌ مُرٌّ عَلَى أعدائه ... وعَلَى الأدْنَيْن حُلْوٌ كالعَسَل

الأصل:

بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِن كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءِ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ. وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أُرَوِّضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ.

الشّرح: الجَدَث: القبر، وأضْغَطَها الحَجَر: جعلها ضاغطةً، والهمزة للتّعدية، ويُروَى: «وأضغطها». وقوله: «مَظانُّها في غَدٍ جَدَثٌ»، المَظانّ: جمع مَظِنّة، وهو موضع الشّيء ومَألفه الّذي يكون فيه، قال:

فإنْ يَكُ عامرٌ قد قال جهلًا ... فإنّ مَظِنّة الجهلِ الشّبابُ[1]

١ـ للنابغة الذّبياني، ديوانه ١٤.

يقول: لا مال لي ولا اقتنيتُ فيما مضى مالًا، وإنّما كانت في أيدينا فَدَكٌ، فشَحَّتْ عليها نفوسُ قوم، أي بخلتْ، وسَخَتْ عنها نفوسُ آخرين، أي سامحتْ وأغْضَتْ. وليس يعني هاهنا بالسّخاء إلّا هذا، لا السّخاء الحقيقيّ، لأنّه عليه السلام وأهله لم يسمحوا بفدكٍ إلّا غصبًا وقَسْرًا؛ وقد قال هذه الألفاظ في موضع آخر فيما تقدّم، وهو يعني الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثمّ قال: «ونِعْم الحَكَم اللهُ»، الحَكَم: الحاكم، وهذا الكلام كلامُ شاكٍ متظلّمٍ. ثمّ ذكر مالَ الإنسان وأنّه لا ينبغي أن يَكْترث بالقَيْنات والأموال، فإنّه يصير عن قريبٍ إلى دار البِلَى ومنازل الموتى.

ثمّ ذكر أنّ الحفرة ضيّقةٌ وأنّه لو وسّعها الحافِر لألجأها الحَجَر المتداعِي والمَدَر المتهافِت، إلى أن تُضغِط الميّت وتزحمه. وهذا كلام محمولٌ على ظاهره لأنّه خطابٌ للعامّة، وإلّا فأيّ فرقٍ بين سِعة الحفرة وضيقها على الميّت! اللّهمّ إلّا أن يقول قائلٌ: إنّ الميّت يحسّ في قبره، فإذا قيل ذلك فالجاعل له حِساسًا بعد عدم الحسّ هو الّذي يوسّع الحفرة، وإن كان الحافر قد جعلها ضيّقةً، فإذنْ هذا الكلام جيّدٌ لخطاب العرب خاصّةً ومَن يَحمل الأُمور على ظواهرها.

ثمّ قال: «وإنّما هي نفسي أروضُها بالتّقوى»، يقول: تقلّلي واقتصاري مِن المَطعَم والمَلبَس على الجَشِب والخَشِن رياضةٌ لنفسي، لأنّ ذلك إنّما أعملُه خوفًا من الله أن أنْغَمِس في الدّنيا، فالرّياضة بذلك هي رياضة في الحقيقة بالتّقوى، لا بنفس التّقلّل والتّقشّف، لِتَأتيَ نفسي آمنةً يوم الفزع الأكبر، وتثبتَ في مداحض الزّلَق.

الأصل:

وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيق إِلَى مُصَفَّى هَذَا العَسَلِ ولُبَابِ هَذَا القَمْحِ ونَسَائِجِ هَذَا القَزِّ، ولَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ويَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ ـ ولَعَلَّ بالحِجَازِ وباليَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ ولَا عَهْدَ لَهُ بالشَّبَعِ ـ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَانًا وحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَ أَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أُشَارِكُهُم فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوْ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدًى أَوْ أُهْمَلَ عَابِثًا أَوْ أُجَرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ!

الشّرح: قد رُوي: «ولَوْ شِئتُ لَاهْتديتُ إلى هذا العَسَل المُصَفَّى ولُبَاب هذا البُرّ المُنَقّى؛ فضَربتُ هذا بذاك، حتّى ينضج وقودًا ويستحكم معقودًا». ورُوي: «ولَعَلَّ بالمدينة يتيمًا تَرِبًا يتضوّر سَغَبًا، أ أبيتُ مِبْطانًا وحولي بُطونٌ غَرْثَى، إذنْ يَحضُرني يوم القيامة، وهُمْ مِن ذكرٍ وأُنثى». ورُوي: «بُطونُ غَرْثَى» بإضافة «بطون» إلى «غَرثَى».

والقَمْح: الحِنطة. والجَشَع: أشدّ الحرص. والمِبْطان: الّذي لا يزال عظيم البطن مِن كثرة الأكل، فأمّا المُبَطِّن: فالضّامِر البطْن، وأمّا البَطِين: فالعظيم البطْن لا مِن الأكل، وأما البَطِن: فهو الّذي لا يهمّه إلّا بطنُه، وأمّا المبطون: فالعليل البطْن، وبُطونٌ غَرْثَى: جائعة، والبِطْنة: الكِظّة؛ وذلك أن يمتلئ الإنسان مِن الطّعام امتلاءً شديدًا، وكان يقال: ينبغي للإنسان أن يجعل وِعاء بطنه أثلاثًا: فثلثٌ للطّعام وثلثٌ للشّراب وثلثٌ للنَّفَس.

والتّقمُّم: أكل الشّاة ما بين يديْها بِمَقَمَّتِها أي بشفتها، وكلّ ذي ظِلْفٍ كالثّور وغيره فهو ذو مِقَمَّة. وتَكْتَرِشُ مِن أعلافها: تملأ كَرِشها من العلف. قوله: «أو أُجَرَّ حبْل الضّلالة» منصوبٌ بالعطف على «يَشْغَلَني»، وكذلك «أُتْرَكَ». ويقال: أجررتُه رَسَنَه، إذا أهملتُه.

والاعتساف: السّلوك في غير طريق واضح. والمَتَاهَة: الأرض يُتاه فيها أي يتحيّر. وفي قوله: «لو شئتُ لاهتديتُ» شَبَهٌ مِن قول عمر: لو نشاء لَملأنا هذا الرّحاب مِن صَلائق وصِناب. وقد ذكرناه فيما تقدّم. وهذا البيت من أبيات منسوبة إلى حاتم بن عبد الله الطّائيّ الجواد وأوّلُها:

أيَـا ابنـةَ عبـد الله وابنـةَ مالـكٍ ... ويَا ابنةَ ذي الجدّيْن والفَرَس الوَرْدِ[١]

إذا مـا صـنعتِ الـزّادَ فالتمِسـي لـه ... أكـيلًا فـإنّي لسـتُ آكِلَـه وحـدِي

قَصِـيًّا بَعيـدًا أو قَريبًـا فـإنّني ... أخافُ مَذمّات الأحاديث مِن بعدِي[٢]

كـفَى بـك عـارًا أن تَبيـتَ بِبِطْنـةٍ ... وحولـك أكْبَـادٌ تَحِـنُّ إلى القِـدّ[٣]

وإنّي لَعبـدُ الضّـيف مـا دام نـازلًا ... ومَا مِـن خِـلالي غيرها شِيمة العبْدِ

الأصل:

وكَأنّي بِقَائِلِكُم يَقُول: إذَا كَانَ هَذَا قُوتَ ابْنَ أبي طَالِبٍ، فقَدْ قَعَدَ بِهِ الضّعْفُ عَن قِتَالِ الْأقْرَانِ ومُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ. ألَا و إنّ الشَّجَرَةَ[٤] الْبَرِّيّةَ أصْلَبُ عُودًا، والرَّوَاتِعَ[٥] الْخَضِرَةَ أرَقُّ جُلُودًا، والنّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أقْوَى وَقُودًا وأبْطَأُ خُمُودًا.

وأنَا مِنْ رَسُولِ الله كالضَّوْءِ مِن الضَّوْءِ والذِّرَاعِ مِن العَضُدِ. واللهِ لوْ تَظَاهَرَت الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، ولَوْ أمْكَنَت الْفُرَصُ[٦] مِن رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إلَيْهَا، وسَأجْهَدُ في أنْ أُطَهِّرَ الْأرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكوسِ والْجِسْمِ الْمَرْكوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِن بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ.

الشّرح: الشّجرة البرّيّة: الّتي تنبُت في البرّ الّذي لا ماءَ فيه، فهي أصلبُ عودًا مِن الشّجرة الّتي تنبت في الأرض النّديّة، وإليه وقعتْ الإشارة بقوله: «والرّواتع الخَضِرة

١ـ ديوان الحماسة بشرح المرزوقيّ ٤: ١٦٦٨.

٢ـ الحماسة:

* أخًا طارقًا أو جار بيتٍ فإنّني *

٣ـ لم يرد في رواية الحماسة.

٤ـ في د: «التَّربَة».

٥ـ في د: «والمَراتع».

٦ـ في ا ، د: «الفرصة».

أرقّ جلودًا».

ثمّ قال: «والنّابتات العِذْيَة» الّتي تنبت عِذيًا، والعِذْي، بسكون الذّال: الزّرع لا يسقيه إلّا ماء المطر، وهو يكون أقلّ أخذًا مِن الماء مِن النّبت سقيًا. قال عليه السلام: إنّها تكون أقوى وَقودًا ممّا يشرب الماء السّائح أو ماء النّاضح، وأبطأ خمودًا؛ وذلك لصلابة جِرْمها.

ثمّ قال: «وأنا مِن رسول الله صلى الله عليه وآله كالضّوء مِن الضّوء والذّراع من العضد»؛ وذلك لأنّ الضّوء الأوّل يكون علّةً في الضّوء الثّاني، ألا ترى أنّ الهواء المقابل للشّمس يصير مُضيئًا من الشّمس! فهذا الضّوء هو الضّوء الأوّل. ثمّ إنّه يقابل وجه الأرض فيضيء وجهُ الأرض منه، فالضّوء الّذي على وجه الأرض هو الضّوء الثّاني، وما دام الضّوء الأوّل ضعيفًا فالضّوء الثّاني ضعيفٌ؛ فإذا ازداد الجوّ إضاءةً ازداد وجه الأرض إضاءةً، لأنّ المعلول يتْبع العلّة.

فشبّه عليه السلام نفسَه بالضّوء الثّاني وشبّه رسولَ الله صلى الله عليه وآله بالضّوء الأوّل وشبّه منبعَ الأضواء والأنوار، سبحانه وجلّتْ أسماؤه، بالشّمس الّتي توجب الضّوء الأوّل ثمّ الضّوء الأوّل يوجب الضّوء الثّاني.

وهاهنا نكتةٌ، وهي أنّ الضّوء الثّاني يكون أيضًا علّةً لضوءٍ ثالث؛ وذلك أنّ الضّوء الحاصل على وجه الأرض ـ وهو الضّوء الثّاني ـ إذا أشرق على جدار مقابل ذلك الجدار قريبًا منه مكان مُظلِم، فإنّ ذلك المكان يصير مضيئًا بعد أن كان مظلمًا، وإن كان لذلك المكان المظلم بابٌ، وكان داخل البيت مقابل ذلك الباب جدارٌ كان ذلك الجدار أشدَّ إضاءةً مِن باقي البيت. ثمّ ذلك الجدار إن كان فيه ثُقبٌ إلى موضع آخر، كان ما يحاذي ذلك البيت أشدّ إضاءةً ممّا حواليه، وهكذا لا تزال الأضواء[1] يوجب بعضها بعضًا على وجه الانعكاس بطريق العلّيّة وبشرط المقابلة، ولا تزال تضعف درجةً درجةً إلى أن تضمحلّ ويعود الأمر إلى الظّلمة؛ وهكذا عالم العلوم، والحِكَم

١ـ كذا في د؛ ا، ب: «لا يزال الضّوء».

المأخوذة مِن أمير المؤمنين عليه السلام لا تزال تضعف كما انتقلتْ مِن قوم إلى قوم إلى أن يعود الإسلام غريبًا كما بدأ بموجب الخبر النّبويّ الوارد في الصّحاح.

وأمّا قوله: «والذِّراع مِن العَضُد»، فلأنّ الذّراع فرعٌ علَى العَضُد، والعضد أصلٌ. ألا ترى أنّه لا يمكن أن يكون ذراعٌ إلّا إذا كان عضدٌ، ويمكن أن يكون عضدٌ لا ذراعَ له، ولهذا قال الرّاجز لولده:

يـا بِكْـرِيْ بِكْـرِيْن ويـا خِلْـب الكَبِـدْ أصـبحتَ مـنّي كـذِراع مِـن عَضُـدْ

فشبّه عليه السلام نفسَه بالنّسبة الى رسول الله صلى الله عليه وآله بالذّراع الّذي العضدُ أصلُه وأسّه. والمراد من هذا التّشبيه الإبانة عن شدّة الامتزاج والاتّحاد والقرب بينهما؛ فإنّ الضّوء الثّاني شبيهٌ بالضّوء الأوّل، والذّراع متّصلٌ بالعضد اتّصالًا بيّنًا.

وهذه المنزلة قد أعطاه إيّاها رسول الله صلى الله عليه وآله في مقامات كثيرة نحو قوله في قصّة براءة: «قد أُمِرتُ أن لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي»، وقوله: «لتنتهُنّ يا بني وَلِيعة، أو لأبعثَنّ إليكم رجلًا منّي»، أو قال: «عديل نفسي». وقد سمّاه الكتاب العزيز «نفسَه» فقال: ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُم وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[1] وقد قال له: «لحمك مختلطٌ بلحمي، ودمك مَسُوطٌ بدمي، وشِبرك وشبري واحد».

فإن قلت: أمّا قوله: لو تظاهرت العرب عليَّ لَمَا ولّيتُ عنها، فمعلومٌ، فما الفائدة في قوله: ولو أمكنت الفُرْصة مِن رِقابها لَسارعتُ[2] إليها؟ وهل هذا ممّا يفخر به الرّؤساء ويعدّونه منقبةً؟ وإنّما المنقبة أنْ لو أمكنتْه الفرصة تجاوز وعفا!

قلت: غرضه أن يقرّر في نفوس أصحابه وغيرهم من العرب أنّه يحارب على حقّ، وأنّ حربه لأهل الشّام كالجهاد أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّ مَن يجاهد الكفّارَ يجب عليه أن يُغلِظ عليهم ويستأصل شأفَتهم. ألا ترى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا جاهد بني قُريظة وظفِر لم يبقِ ولم يَعْف، وحصد في يومٍ واحد رقابَ ألف أنسان صَبْرًا في مقام واحد،

١ـ آل عمران / ٦١.

٢ـ د: «لأسرعتُ».

لِما علم في ذلك مِن إعزاز الدّين وإذلال المشركين. فالعفو له مقامٌ والانتقام له مقامٌ.

قوله: «وسَأجْهَدُ في أنْ أُطَهِّرَ الأرضَ»، الإشارة في هذا إلى معاوية، سمّاه شخصًا معكوسًا وجسمًا مركوسًا، والمراد انعكاس عقيدته وأنّها ليست عقيدة هدًى، بل هي معاكَسةٌ للحقّ والصّواب، وسمّاه مركوسًا مِن قولهم: ارتكَس في الضّلال، والرَّكْس: ردّ الشّيء مقلوبًا، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا۟﴾[1]، أي قلَبهم وردّهم إلى كفرهم، فلمّا كان تاركًا للفطرة الّتي كلُّ مولود يولد عليها، كان مرتكسًا في ضلاله.

وأصحاب التّناسخ يفسّرون هذا بتفسيرٍ آخر، قالوا: الحيوان على ضربيْن: منتصِبٌ ومُنحَنٍ؛ فالمنتصب الإنسان، والمنحني ما كان رأسه منكوسًا إلى جهة الأرض كالبهائم والسّباع. قالوا: وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]. قالوا: فأصحاب الشّقاوة تنتقل أنفسهم عند الموت إلى الحيوان المكبوب وأصحاب السّعادة تنتقل أنفسهم إلى الحيوان المنتصِب. ولمّا كان معاوية عنده عليه السلام مِن أهل الشّقاوة سمّاه معكوسًا ومركوسًا، رمزًا إلى هذا المعنى.

قوله: «حتّى تَخرُجَ المَدَرَةُ مِن بين حَبِّ الحَصيد»، أي حتّى يتطهّر الدّين وأهله منه، وذلك لأنّ الزُّرّاع يجتهدون في إخراج المدَر والحجَر والشّوْك والعَوْسج ونحو ذلك من بين الزّرع كي تفسد منابته. فيفسد الحَبّ الّذي يخرج منه، فشبّه معاوية بالمدر ونحوه مِن مفسدات الحبّ وشبّه الدّين بالحبّ الّذي هو ثمرة الزّرع.

الأصل: ومِن هذا الكتاب وهو آخره:

إلَيْكَ عَنّي يَا دُنْيَا، فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ، قَدْ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ، وأفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ، واجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ في مَدَاحِضِكِ. أيْنَ الْقُرُونُ الّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ! أيْنَ الْأُمَمُ الّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ! فَها هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ ومَضَامِينُ اللُّحُودِ.

١ـ النساء/ ٨٨.

٢ـ الملك/ ٢٢.

واللهِ لَوْ كُنْتَ شَخْصًا مَرْئِيًّا وقَالِبًا حِسِّيًّا، لَأُقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودُ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِيِّ، وأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي، ومُلُوكٍ أَسْلَمْتَهُمْ إِلَى التَّلَفِ وأَوْرَدْتَهُمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ، إِذْ لَا وِرْدَ ولَا صَدَرَ!

هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ، ومَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، ومَنْ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، والسَّالِمُ مِنْكِ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، والدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلَاخُهُ.

الشّرح: إليك عنّي، أي ابعدي. وحبْلك على غاربك، كنايةٌ من كنايات الطّلاق، أي اذهبي حيث شئتِ، لأنّ النّاقة إذا أُلقِي حبلُها على غاربها فقد فسح لها أن ترعى حيث شاءتْ وتذهب أين شاءتْ لأنّه إنّما يردّها زمامها، فإذا أُلقِي حبلُها على غاربها فقد أهملتْ. والغارب: ما بين السّنام والعنق. والمداحض: المزالق.

وقيل: إنّ في النّسخة الّتي بخطّ الرّضيّ ﷺ «غَررتيهم» بالياء، وكذلك «فَتنتيهم» و «ألقيتيهم» و «أسلمتيهم» و «أوردتيهم»، والأحسن حذف الياء، وإذا كانت الرّواية وردت بها فهي من إشباع الكسرة كقوله:

أ لم يأتيك والأنباء تَنمِي ... بما فعلتْ لَبُونُ بني زيادِ

ومضامين اللّحود، أي الّذين تَضمّنهم، وفي الحديث نُهي عن بيع المضامين والملاقيح، وهي ما في أصلاب الفحول وبطون الإناث.

ثمّ قال: لو كنتِ أيّتها الدّنيا إنسانًا محسوسًا، كالواحد من البشر، لأقمتُ عليكِ الحدّ كما فعلتُ بالنّاس. ثمّ شرح أفعالَها فقال: منهم مَن غررتِ، ومنهم مَن ألقيتِ في مَهاوي الضّلال والكفر، ومنهم مَن أتلفتِ وأهلكتِ. ثمّ قال: ومَن وَطِئَ دَحْضَك زَلِقَ مكانٌ دحْض، أي مزلّة.

ثمّ قال: لا يبالي مَن سَلِم منك إن ضاق مناخه، لا يبالي بالفقر ولا بالمرض ولا بالحبوس والسّجون وغير ذلك من أنواع المحن! لأنّ هذا كلّه حقيرٌ لا اعتدادَ به في جنب السّلامة مِن فتنة الدّنيا. قال: والدّنيا عند مَن قد سلم منها كيومٍ قرُب انقضاؤه وفناؤه.

الأصل:

اعْزُبِي عَنّي! فَوَاللهِ لا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلّيني، ولا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِيني. وايْمُ اللهِ يَمِينًا أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ، لَأُرِوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهَشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُومًا وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُومًا، ولَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعُهَا.

أَتَمْتَلِئُ السّائِمَةُ مِنْ رَعْيِهَا فَتَبْرُكَ، وتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ، ويَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ! قَرَّتْ إِذًا عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينِ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ والسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ!

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا وعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا وهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غَمْضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا وتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا. فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ وتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ وهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ وتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ، ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]. فَاتَّقِ اللهَ يَا بْنَ حُنَيْفٍ وَلْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ لِيَكُونَ مِنَ النّارِ خَلَاصُكَ.

الشّرح: أُعْزُبي: أُبْعُدي، يقال عزَب الرّجل بالفتح، أي بعُد. ولا أسلَسُ لكِ بفتح اللّام، أي لا أنقادُ لكِ، سَلِس الرّجل بالكسر يَسلَس فهو بيّنُ السَّلِس، أي سَهُل قِيادُه.

ثمّ حلف واستثنى بالمشيئة أدبًا، كما أدّب الله تعالى رسولَه صلى الله عليه وآله، لَيروضنّ نفسَه، أي يُدرّبها بالجوع، والجوع هو أصل الرّياضة عند الحكماء وأرباب الطّريقة. قال: حتّى أَهَشّ إلى القُرص، أي إلى الرّغيف وأقنع مِن الإدام بالملح. ونضَب مَعينَها: فَنِي ماؤها.

ثمّ أنكر على نفسه فقال: أ تشبع السّائمة مِن رِعْيها ـ بكسر الرّاء وهو الكَلأ ـ والرّبيضة ـ جماعةٌ مِن الغنم أو البقر ـ تَربِض في أماكنها. وأنا أيضًا مثلها أشبعُ وأنامُ!

١ـ المجادلة / ٢٢.

لقدْ قرّتْ عيني إذًا حيث[1] أُشابِهُ البهائم بعد الجهاد والسّبق والعبادة والعلم والجدّ في السّنين المتطاولة.

قوله: «وعرَكتْ بجَنْبها بُؤْسَها»، أي صبرتْ على بؤسها والمشقّة الّتي تناها. يقال: قد عرَك فلانٌ بجنبه الأذى، أي أغضَى عنه وصبر عليه. قوله: «افترَشتْ أرضَها»، أي لم يكن لها فراشٌ إلّا الأرض. «وتوسّدتْ كَفَّها»، لم يكن لها وسادةٌ إلّا الكفّ. «وتَجافتْ عن مضاجعهم جُنوبُهم» لفظ الكتاب العزيز: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾[2]. وهَمْهَمتْ: تكلّمتْ كلامًا خفيًّا. وتَقشّعتْ ذُنوبُهم: زالتْ وذهبتْ كما يتقشّع السّحاب.

قوله: «وَلْتَكفُفْ أقْراصُك» إنّما هو نهيٌ لابن حنيف أن يكفّ عن الأقراص، وإن كان اللّفظ يقتضي أن تكفّ الأقراص عن ابن حنيف. وقد رواها قومٌ بالنّصب، قالوا: «فاتّقِ اللهَ يا بنَ حنيف وَلْتكفُفْ أقراصَك، لِتَرجو بها مِن النّار خلاصك»، والتّاء هاهنا للأمر عوض الياء، وهي لغةٌ لا بأسَ بها، وقد قيل: إنّ رسول الله ﷺ قرأ «فَبِذَٰلِكَ فَلْتَفْرَحُواْ»[3] بالتّاء. (١٦: ٢٠٥ـ٢٩٦)

(كتابه: ٤٦) ومن كتاب له ﷺ إلى بعض عمّاله:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُبِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الْأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ. فَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ، وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لاَ تُغْنِي عَنْكَ إِلّا الشِّدَّةُ، وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسِطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ. وَالسَّلاَمُ.

١ـ في د «إذا».

٢ـ السّجدة/ ١٦.

٣ـ يونس/ ٥٨.

الشّرح: قد أخذ الشّاعر معنى قوله: «وآسِ بينهم في اللّحظة والنّظرة»، فقال:

اقسم اللّحظَ بيننا إنّ في اللّحـ ـظِ لَعنوانُ ما تُجِنُّ الصّدورُ
إنّما البرّ روضةٌ فإذا ما كان بشرٌ فروضةٌ وغديرُ

قوله: «وآسِ بينهم في اللّحظة»، أي اجعلْهم أُسوةً، ورُوي: «وسَاوِ بينهم في اللّحظة»، والمعنى واحدٌ. وأستظهِرُ به: أجعلُه كالظّهر. والنّخوة: الكبرياء. والأثيم: المخطِئ المذنِب.

وقوله: «وأسُدُّ به لَهَاةَ الثَّغْر» استعارةٌ حسنة.

والضّغث في الأصل: قبضة حشيشٍ مختلِطٌ يابسها بشيء من الرّطْب، ومنه «أضغاث الأحلام» للرّؤيا المختلطة الّتي لا يصحّ تأويلها، فاستعار اللّفظة هاهنا. والمراد امزُج[1] السّدّةَ بشيء مِن اللّين [فاجعلْهما كالضّغث، وقال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾[2]][3].

قوله: «فاعتزِمْ بالسّدّة»، أي إذا جدّ بك الجِدّ فدعْ اللّين، فإنّ في حال السّدّة لا تُغني إلّا السّدّة، قال الفِنْد الزّمّانيّ[4]:

فلمّا صرّح الشّرّ فأمسَى وهو عُريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا نِ دنّاهم كما دانُوا

قوله: «حتى لا يطمع العظماء في حيْفك»، أي حتّى لا يطمع العظماء في أن تُمالِئهم على حَيْف الضّعفاء، وقد تقدّم مثل هذا فيما سبق. (١٧: ٣ـ٤)

١ـ د: «مزج».

٢ـ ص: ٤٤.

٣ـ ساقطٌ من د.

٤ـ ديوان الحماسة ١: ٢٣ـ بشرح التّبريزيّ، من شعرٍ قاله في حرب البَسوس.

(كتابه: ٥٠) ومن كتاب له عليه السلام إلى أُمرائه على الجيوش:

مِنْ عَبْدِاللهِ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِالْمُؤْمِنِينَ رفَعه إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَى الْوَالِي أَلّا يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ وَلَاطَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ وَعَطْفًا عَلَى إِخْوَانِهِ.

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلّا أَحْتَجِزَدُونَكُمْ سِرًّا إِلّا فِي حَرْبٍ، وَلَا أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْرًا إِلّا فِي حُكْمٍ، وَلَا أُؤَخِّرَلَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ، وَلا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ، وَأَنْ تُكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً؛ فَإِذَا فَعَلْتُ ذلِكَ وَجَبَتْ لله عَلَيْكُم النِّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ، وَأَلّا تَنْكِصُوا عَنْ دَعْوَةٍ، وَلاتُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ. فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذلِكَ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّن اعْوَجَّ مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلايَجِدُ عِنْدِي فِيها رُخْصَةً.

فَخُذُوا هذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِ أَمْرَكُمْ. والسَّلامُ.

الشّرح: أصحاب المَسالح: جماعات تكون بالثّغر يحمون البَيْضة، والمَسْلحة هي الثّغر، كالمرغبة، وفي الحديث: «كان أدنى مسالح فارس إلى العرب العُذَيب».

قال: يجب على الوالي ألّا يتطاولَ على الرّعيّة بولايته، وما خُصّ به عليهم من الطّول وهو الفضل، وأن تكون تلك الزّيادة الّتي أُعطِيها سببًا لزيادة دنوّه من الرّعيّة وحنوّه عليهم.

ثمّ قال: «لكم عندي ألّا أحتجزَ دونكم بسرٍّ»، أي لا أستترَ. قال: «إلّا في حرب»، وذلك لأنّ الحرب يحمَد فيها طيّ الأسرار، والحرب خُدعة.

ثمّ قال: «ولا أطوي دونكم أمرًا إلّا في حكمٍ»، أي أُظهرُكم على كلّ ما نفسي ممّا يحسن أن أُظهرَكم عليه؛ فأمّا أحكام الشّريعة والقضاء على أحد الخصمَيْن فإنّي لا أعلمُكم به قبل وقوعه، كيلا تفسد القضيّة بأن يحتال ذلك الشّخص لصرْف الحكم عنه.

ثمّ ذكر أنّه لا يؤخّرهم حقًّا عن محلّه ـ يعني العطاء ـ وأنّه لا يقف دون مقطعه، والحقّ هاهنا غير العطاء، بل الحكم، قال زُهير:

فـــإنّ الحـــقّ مقطعـــه ثـــلاثٌ يمـــينٌ أو نِفـــارٌ أو جِـــلاء

أي متى تعيّن الحكم حكمتُ به وقطعتُ ولا أقفُ ولا أتحبّس.

ولمّا استوفى ما شرط لهم قال: فإذا أنا وفيتُ بما شرطتُ على نفسي وجبتْ لله عليكم النّعمة ولي عليكم الطّاعة.

ثمّ أخذ في الاشتراط عليهم كما شرط لهم، فقال: ولي عليكم ألّا تَنكِصوا عن دعوةٍ، أي لا تَتقاعَسوا عن الجهاد إذا دعوتُكم إليه، ولا تفرّطوا في صلاح، أي إذا أمكنتْكم فرصةٌ أو رأيتم مصلحةً في حرب العدوّ أو حماية الثّغر، فلا تفرّطوا فيها فتفوتَ. وأن تخوضوا الغمراتِ إلى الحقّ، أي تَكابَدوا المشاقّ العظيمة، ولا يهوّلنّكم خوضها إلى الحقّ.

ثمّ توعّدهم إن لم يفعلوا ذلك، ثمّ قال: فخذوا هذا من أُمرائكم، ليس يعني به أنّ على هؤلاء أصحاب المَسالح أُمراء من قِبَله عليه السلام كالواسطة بينهم وبينه، بل مِن أُمرائكم، يعني منّي وممّن يقوم في الخلافة مقامي بعدي، لأنّه لو كان الغرض هو الأوّل لَما كان محلّهم عنده أن يقول: «ألّا أحتجزَ دونكم بسرٍّ ولا أطوي دونكم أمرًا» لأنّ محلّ مَن كان بتلك الصّفة دون هذا. (١٧: ١٦ـ ١٨)

(كتابه: ٥١) ومن كتاب له عليه السلام إلى عمّاله على الخراج:

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْخَرَاجِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْمَا هُوَ سَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ يَسِيرٌوَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ، وَلَوْلَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ، لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَا عُذْرَفِي تَرْكِ طَلَبِهِ.

فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ وَسُفَرَاءُ الأئمّة. وَلاتُحْشِمُوا أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ، وَلاتَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ، وَلاتَبِيعنَّ النَّاسَ فِي الْخَرَاجِ كُسْوَةَ شِتَاءٍ وَلاصَيْفٍ، وَلادَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا، وَلاعَبدًا، وَلاتَضْرِبُنَّ أَحَدًا سَوْطًا لِمَكَانِ دِرْهَمٍ، وَلاتَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلٍّ وَلامُعَاهَدٍ، إِلّا أَنْ تَجِدُوا فَرَسًا أَوْ سِلَاحًا يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذلِكَ فِي أَيْدِي

أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ.

وَلَاتَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلَاالْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ، وَلَاالرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلَادِينَ اللهِ قُوَّةً. وَأَبْلُوا فِي سَبِيلِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

الشّرح: يقول: لو قدّرنا أنّ القبائح العقليّة كالظّلم والبغي لا عقاب على فعلها بل في تركها ثوابٌ فقط، لم يكن الإنسان معذورًا إذا فرّط في ذلك التّرك، لأنّه يكون قد حرَّم نفسَه نفعًا هو قادرٌ على إيصاله إليها ... .

ثمّ نهاهم أن يبيعوا لأرباب الخراج ما هو من ضروريّاتهم كثياب أبدانهم وكدابّةٍ يَعتمِلون عليها، نحو بقر الفلاحة وكعبدٍ لا بدّ للإنسان منه يخدمه ويسعى بين يديه. ثمّ نهاهم عن ضرب الأبشار لاستيفاء الخراج.

وكتب عديّ بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه في عذاب العمّال، فكتب إليه: كأنّي لك جُنّة من عذاب الله، وكأنّ رضاي ينجيك مِن سخط الله! مَن قامتْ عليه بيّنةٌ أو أقرّ بما لم يكن مضطهدًا مضطرًّا إلى الإقرار به، فخُذْه بأدائه، فإن كان قادرًا عليه فاستأدِ، وإن أبَى فاحبسْه، وإن لم يقدرْ فخلِّ سبيلَه بعد أن تحلِّفه بالله أنّه لا يقدر على شيء، فلأنْ يلقوا الله بجناياتهم أحبُّ إليَّ من أن ألقاه بدمائهم.

ثمّ نهاهم أن يُعرِضوا لمال أحدٍ من المسلمين أو من المعاهَدين. المعاهَد هاهنا: هو الذّميّ أو مَن يدخل دار الإسلام من بلاد الشّرك على عهد، إمّا لأداء رسالةٍ أو لتجارةٍ ونحو ذلك ثمّ يعود الى بلاده. ثمّ نهاهم عن الظّلم وأخْذ أموال النّاس على طريق المصادرة والتّأويل الباطل. قال: إلّا أن تخافوا غائلةَ المعاهَدين، بأن تجدوا عندهم خيولًا أو سلاحًا وتظنّوا منهم وثبةً على بلد من بلاد المسلمين، فإنّه لا يجوز الإغضاء عن ذلك حينئذ ... . (١٧: ٢٠ـ٢١)

(كتابه: ٥٢) ومن كتاب له عليه السلام إلى أُمراء البلاد في معنى الصّلاة:

أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ الْعَنْزِ، وَصَلُّوا بِهِمِ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيَّةٌ فِي عِضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرْسَخَانِ، وَصَلُّوا بِهِمِ

الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَى مِنًى، وصَلُّوا بِهِم الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ، وصَلُّوا بِهِم الْغَدَاةَ والرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وصَلُّوا بِهِمْ صَلاَةَ أَضْعَفِهِمْ، وَلاتَكُونُوا فَتَّانِينَ.

... فأمّا قوله عليه السلام: «والرّجل يعرِف وجهَ صاحبه» فمعناه الإسفار، وقد ذكرناه. وقوله عليه السلام: «وصلّوا بهم صلاة أضعفِهم»، أي لا تطيلوا بالقراءة الكثيرة والدّعوات الطّويلة.

ثمّ قال: «ولا تكونوا فتّانين»، أي لا تفتِنوا النّاس بإتعابهم وإدخال المشقّة عليهم بإطالة الصّلاة وإفساد صلاة المأمومين بما يفعلونه من أفعال مخصوصة، نحو أن يُحدِث الإمام فيستخلف فيصلّي النّاس خلف خليفته، فإنّ ذلك لا يجوز على أحد قولَي الشّافعيّ، ونحو أن يطيل الإمام الرّكوعَ والسّجود فيظنّ المأمومون أنّه قد رفع فيرفعون أو يسبقونه بأركان كثيرة، ونحو ذلك من مسائل يذكرها الفقهاء في كتبهم.

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنّما بدأ بصلاة الظّهر، لأنّها أوّل فريضةٍ افترضتْ على المكلّفين من الصّلاة على ما كان يذهب إليه عليه السلام. وإلى ذلك تذهب الإماميّة وينصر قولهم تسميتها بالأُولى، ولهذا بدأ أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النّعمان بذكرها قبل غيرها. فأمّا مَن عدا هؤلاء فأوّل الصّلاة المفروضة عندهم الصّبح، وهي أوّل النّهار.

وأيضًا يتفرّع على هذا البحث القولُ في الصّلاة الوُسطَى، ما هي؟ فذهب جمهور النّاس إلى أنّها العصر لأنّها بين صلاتيْ نهار وصلاتيْ ليل، وقد روَوْا أيضًا في ذلك روايات بعضها في الصّحاح. وقياس مذهب الإماميّة أنّها المغرب، لأنّ الظّهر إذا كانت الأُولى كانت المغرب الوُسطى، إلّا أنّهم يروون عن أئمّتهم عليهم السلام أنّها الظّهر، ويفسّرون

الوُسطى بمعنى الفُضلى لأنّ الوسط في اللّغة هو خيار كل شيء[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[٢]، وقد ذهب إلى أنّها المغرب قومٌ من الفقهاء أيضًا.

وقال كثيرٌ من النّاس إنّها الصّبح لأنّها أيضًا بين صلاتيْ ليل وصلاتيْ نهار، و رَوَوْا أيضًا فيها روايات وهو مذهب الشّافعيّ. ومن النّاس مَن قال إنّها الظّهر كقول الإماميّة ولم يُسمَع عن أحدٍ معتبرًا أنّها العشاء إلّا قولًا شاذًّا ذكره بعضهم.

وقال لأنّها بين صلاتيْن لا تُقصَران. (١٧: ٢٨ـ ٢٩)

(كتابه: ٥٩) ومن كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قُطْبَة صاحب جند حُلْوان:

أَمَّا بَعْدُ، فإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ، مَنَعَهُ ذلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْعَدْلِ. فَلْيَكُنْ أَمْرُ النّاس عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ. فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ، وَابْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ، رَاجِيًا ثَوَابَهُ وَمُتَخَوِّفًا عِقَابَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلّا كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وإِنَّهُ لَنْ يُغْنِيَكَ عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ أَبَدًا، وَمِنَ الْحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ وَالْاحْتِسَابُ عَلَى الرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ، فَإِنَّ الّذي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الّذي يَصِلُ بِكَ. والسَّلَامُ.

... قوله عليه السلام: إذا اختلف هَوَى الوالي منَعه كثيرًا من الحقّ، قولٌ صدْق؛ لأنّه متى لم يكن الخصمان عند الوالي سواءً في الحقّ جارَ وظلَم. ثمّ قال له: فإنّه ليس في الجور عوضٌ من العدل، وهذا أيضًا حقٌّ، وفي العدل كلّ العوض من الجور. ثمّ أمَره باجتناب ما يُنكَر مثله مِن غيره، وقد تقدّم نحو هذا.

---

(١) في صلاة الوسطى اختلافٌ: هل أنّه صلاة الظّهر أو العصر. راجع الرّوايات في تفسير نور الثّقلين، ج ١، ص ٢٣٦ و البرهان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٤٩٦.

٢ـ البقرة/ ١٤٣.

وقوله: «إلّا كانت فَرْغَتُه» كلمةٌ فصيحة، وهي المرّة الواحدة من الفَراغ. وقد رُوي عن النّبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّ الله يُبغِض الصّحيحَ الفارغ لا في شُغل الدّنيا ولا في شغل الآخرة»، ومراد أمير المؤمنين عليه السلام هاهنا الفراغ مِن عمل الآخرة خاصّةً.

قوله: «فإنّ الّذي يَصِل إليك مِن ذلك أفضلُ مِن الّذي يصل بك»، معناه: فإنّ الّذي يصل إليك من ثواب الاحتساب على الرّعيّة وحفْظ نفسك من مظالمهم والحيف عليهم، أفضلُ مِن الّذي يصل بك من حراسة دمائهم وأعراضهم وأموالهم؛ ولا شبهة في ذلك، لأنّ إحدى المنفعتيْن دائمةٌ والأُخرى منقطعةٌ، والنّفع الدّائم أفضل من المنقطع. (١٧: ١٤٦)

(كتابه: ٦٠) ومن كتاب له عليه السلام إلى العمّال الّذين يطأ عملهم الجيوش[1]:

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ إِلَى مَنْ مَرَّ بِهِ الْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ الْخَرَاجِ وَعُمَّالِ الْبِلَادِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُودًا هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ، وقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ بِمَا يَجِبُ لله عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ الْأَذَى وصَرْفِ الشَّذَى.

وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ وَ إِلَى ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْش، إِلّا مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِّلا يَجِدُ عَنْهَا مَذْهَبًا إِلَى شِبَعِهِ[2]، فَنَكِّلُوا مَنْ تَنَاوَلَ مِنْهُمْ شَيْئًا ظُلْمًا عَنْ ظُلْمِهِمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَ سُفَهَائِكُمْ عَنْ مُضَادَّتِهِمْ وَالتَّعَرُّضِ لَهُمْ فِيما اسْتَثْنَيْنَاهُ مِنْهُمْ. وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِ الْجَيْشِ، فَارْفَعُوا إِلَيَّ مَظَالِمَكُمْ. وَمَا عَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلاتُطِيقُونَ دَفْعَهُ إلّا بِاللهِ[3] وبِي، أُغَيِّرْهُ بِمَعُونَةِ اللهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

الشّرح: رُوي «عن مضارّتهم» بالرّاء المشدّدة. وجُباة الخَراج: الّذين يَجمَعونه، جَبيتُ الماء في الحوض، أي جمعتُه. والشَّذَى: الضّرب والشّرّ، تقول لقد أشذَيْت

١ـ د: «عملهم الجيش».

٢ـ مخطوطة النّهج: «إلّا إلى شِبَعه».

٣ـ د: «بإذن الله».

وآذَيْت. وإلى ذمّتكم، أي إلى اليهود والنّصارى الّذين بينكم[1]، قال ﷺ: «مَن آذَى ذمّيًّا فكأنّما[2] آذاني».

وقال: إنّما بذلوا الجِزْية لتكون دماؤُهم كدمائنا وأموالُهم كأموالنا، ويسمَّى هؤلاء ذِمّة، أي أهل ذِمّة، بحذف المضاف. والمَعرّة: المَضرّة، قال: الجيش ممنوعٌ مِن أذى مَن يمُرّ به من المسلمين وأهل الذّمّة إلّا من سدّ جَوْعة المضطرّ منهم خاصّةً لأنّ المضطرّ تُباح له الميتة فضلًا عن غيرها.

ثمّ قال: فنكِّلوا مَن تَناوَل، ورُوي «بمَن تناول» بالباء، أي عاقِبوه. و«عن» في قوله: «عن ظلمهم» يتعلّق بنَكِّلُوا، لأنّها في معنى «اردعوا» لأنّ النّكال يوجب الرّدع. ثمّ أمَرهم أن يكفّوا أيدي أحداثِهم وسفهائِهم عن منازعة الجيش ومصادمته والتّعرّض لمنْعه عمّا استثناه، وهو سدّ الجوعة عند الاضطرار، فإنّ ذلك لا يجوز في الشّرع، وأيضًا فإنّه يُفضي إلى فتنة وهرج.

ثمّ قال: «وأنا بين أظهُر الجيش»، أي أنا قريبٌ منكم وسائرٌ على إثْر الجيش، فارفعوا إليَّ مظالمَكم وما عراكم منهم على وجه الغَلَبة والقهر، فإنّي مغيِّرٌ ذلك ومنتصفٌ لكم منهم. (١٧: ١٤٧ـ ١٤٨)

(كتابه: ٦١) ومن كتاب له ﷺ إلى كميل بن زياد النّخعيّ، وهو عامله على هَيْت، يُنكر عليه تركه دفع مَن يجتاز به مِن جيش العدوّ طالبًا للغارة:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ تَضْيِيعَ الْمَرْءِ مَا وُلِّيَ وَتَكَلُّفَهُ مَا كُفِيَ، لَعَجْزٌ حَاضِرٌ وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ. وَإِنَّ تَعَاطِيَكَ الْغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قِرْقِيسِيَا وَتَعْطِيلَكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَّيْنَاكَ ـ لَيْسَ لَهَا مَنْ يَمْنَعُهَا، وَلَا يَرُدُّ الْجَيْشَ عَنْهَا ـ لَرَأْيٌ شَعَاعٌ. فَقَدْ صِرْتَ جِسْرًا لِمَنْ أَرَادَ الْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ، غَيْرَ شَدِيدِ الْمَنْكِبِ وَلَا مَهِيبِ الْجَانِبِ، وَلَا سَادٍّ ثُغْرَةً، وَلَا كَاسِرٍ لِعَدُوٍّ

١ـ د: «بذمّتكم».

٢ـ د: «فقد».

شَوْكَةً، وَلا مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ[١]، وَلا مُجْزِعَنْ أَمِيرِهِ.

... والمتبَّر: الهالِك، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾[٢]. والمَسالح: جمع مَسْلحة، وهي المواضع الّتي يقام فيها طائفةٌ من الجند لحمايتها. ورأيٌ شَعاع بالفتح، أي متفرّقٌ. ثمّ قال له: «قد صرتَ جسرًا»، أي يَعبُر عليك العدوّ كما يعبر النّاس على الجُسور، وكما أنّ الجسر لا يمنع مَن يعبر به ويمرّ عليه فكذاك أنت. والثُّغْرة: الثُّلْمة. ومُجْزِ: كافٍ ومُغْنٍ، والأصل «مُجزِئٌ» بالهمز فخفّف. (١٧: ١٥٠)

(كتابه: ٦٢) ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر، مع مالك الأشتر لمّا ولّاه إمارتَها:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَمُهَيْمِنًا عَلَى الْمُرْسَلِينَ. فلمَّا مَضَى صلى الله عليه وآله تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَوَاللهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي وَلا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صلى الله عليه وآله عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ. فَمَا رَاعَنِي إِلّا انْثِيَالُ النّاس عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ بِيَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النّاس قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَام، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله.

فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْمًا أَوْ هَدْمًا تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، وَكَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ ....

الشّرح: المُهيمِن: الشّاهد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾[٣]، أي تَشهد بإيمان مَن آمَن وكفْر مَن كفَر. وقيل: تشهد بصحّة نبوّة الأنبياء قبلك. وقوله: «على المرسلين» يؤكّد صحّة هذا التّفسير الثّاني، وأصل اللّفظة مِن «آمَنَ غيرَه من الخوف»، لأنّ الشّاهد يؤمّن غيرَه من الخوف بشهادته، ثم تصرّفوا فيها فأبدلوا إحدى

١ـ في د: «النّصرة».

٢ـ الأعراف/ ١٣٩.

٣ـ الأحزاب/ ٤٥؛ الفتح/ ٨.

همزتيْ «مؤامن» ياءً فصار «مؤيمن»، ثمّ قلَبوا الهمزةَ هاءً كأرَقْت وهرَقْت فصار «مهيمن». والرُّوع: الخَلد، وفي الحديث: «أنّ رُوح القُدْس نفَث في رُوعي».

قال: ما يخطر لي ببالٍ أنّ العرب تَعدِل بالأمر بعد وفاة محمّد ﷺ عن بني هاشم، ثمّ من بني هاشم عنّي، لأنّه كان المتيقّن بحكم الحال الحاضرة. وهذا الكلام [**وَلا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ﷺ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ**] يدلّ على بطلان دعوى الإماميّة النّصّ وخصوصًا الجليّ[1].

قال: «فما راعني إلّا انثيال النّاس»، تقول للشّيء يَفجَؤك بغتةً: ما راعني إلّا كذا، والرَّوْع بالفتح: الفَزَع، كأنّه يقول ما أفزعني شيء بعد ذلك السّكون الّذي كان عندي وتلك الثّقة الّتي اطمأننتُ إليها إلّا وقوع ما وقع مِن انثيال النّاس ـ أي انصبابهم من كلّ وجهٍ كما ينثاب التّراب ـ على أبي بكر، وهكذا لفظ الكتاب الّذي كتبه للأشتر، وإنّما النّاس يكتبونه الآن «إلى فلانٍ» تذمّمًا مِن ذكر الاسم، كما يكتبون في أوّل الشّقشقيّة: «أمَا والله لقد تَقمَّصها فلانٌ» واللّفظ «أمَا والله لقد تَقمَّصها ابن أبي قحافة».

قوله: «فأمسكتُ بيدي»، أي امتنعتُ عن بيعته، حتّى رأيتُ راجعة النّاس، يعني أهل الرّدّة كمُسيلمة وسَجاح وطُليحة بن خويلد ومانعي الزّكاة، وإن كان مانِعوا الزّكاة قد اختُلف في أنّهم أهل ردّة أم لا.

ومحْق الدّين: إبطاله. وزهَق: خرَج وزال. تَنَهْنَهَ: سكَن، وأصله الكفّ، تقول: نهنهتُ السّبعُ فتَنهنَه، أي كَفّ عن حركته وإقدامه، فكأنّ الدّين كان متحرّكًا مضطربًا فسكن وكفّ عن ذلك الاضطراب ... . (١٧: ١٥١ـ١٥٣)

(كتابه: ٦٧) ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى قُثَم بن العبّاس وهو عامله على مكّة:

أَمَّا بَعْدُ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ وَاجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ، فَأَفْتِ

---

(١) هاهنا تكلّف عن ابن أبي الحديد في بطلان دعوى الإماميّة، لِكثرة وصايا النّبيّ ﷺ في ولايته عليه السلام، ولِعود الضّمير في لفظ «بعده» على النّبيّ ﷺ دون أهل بيته.

الْمُسْتَفْتِيَ وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ وَذَاكِرَ[1] الْعَالِمَ. وَلايَكُنْ لَكَ إِلَى النّاس سَفِيرٌإِلّا لِسَانَكَ وَلا حَاجِبٌ إِلّا وَجْهَكَ. وَلا تَحْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ في أَوَّلِ وِرْدِهَا، لَمْ تُحْمَدْ فِيمَا بَعْدُ عَلَى قَضَائِهَا.

وَانْظُرْ إِلَى مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ اللهِ، فَاصْرِفْهُ إِلَى مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ وَالْمَجَاعَةِ، مُصِيبًا بِهِ مَوَاضِعَ الْفَاقَةِ وَالْخَلّاتِ، وَمَا فَضَلَ عَنْ ذلِكَ فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قِبَلَنَا. وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلّا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْرًا، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾[2] فَالْعَاكِفُ: الْمُقِيمُ بِهِ، وَالْبَادِي: الّذي يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ. وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَحَابِّهِ. والسَّلَامُ.

الشّرح: قد تقدّم ذكر قُثَم ونسبه. أمَره أن يُقيم للنّاس حجّهم وأن يُذكّرهم بأيّام الله، وهي أيّام الأنعام وأيّام الانتقام، لتحصل الرّغبة والرّهبة.

واجلسْ لهم العصريْن: الغداة والعشيّ. ثمّ قسّم له ثمرةَ جلوسه لهم ثلاثة أقسام: إمّا أن يفتي مستفتيًا من العامّة في بعض الأحكام، وإمّا أن يعلّم متعلّمًا يطلب الفقه، وإمّا أن يذاكر عالمًا ويباحثه ويفاوضه. ولمْ يذكر السّياسة والأُمور السّلطانيّة لأنّ غرضه متعلّقٌ بالحجيج، وهم أضيافه، يقيمون ليالي يسيرةً ويقفلون. وإنّما يذكر السّياسة وما يتعلّق بها فيما يرجع إلى أهل مكّة ومَن يدخل تحت ولايته دائمًا.

ثمّ نهاه عن توسّط السّفراء والحجاب بينه وبينهم، بل ينبغي أن يكون سفيره لسانَه، وحاجبه وجهَه. ورُوي: «ولا يكن إلّا لسانُك سفيرًا لك إلى النّاس» بجعل «لسانك» اسم كان، مثل قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾[3]. والرّواية الأُولى هي المشهورة، وهو أن يكون «سفيرًا» إسم كان، و«لك» خبرها. ولا يصحّ ما قاله الرّاونديّ: إنّ خبرها «إلى النّاس»، لأنّ «إلى» هاهنا متعلّقة بنفس «سفير»، فلا يجوز

١ـ في د: «وذكّر».

٢ـ الحجّ/ ٢٥.

٣ـ النّمل/ ٥٦.

أن تكون الخبر عن «سفير»، تقول: سفرتُ إلى بني فلانٍ في الصّلح، وإذا تعلّق حرف الجرّ بالكلمة صار كالشّيء الواحد.

ثمّ قال: فإنّها إن ذِيدَتْ، أي طُردتْ ودُفعتْ. كان أبو عَبّاد ثابتُ بن يحيى كاتبُ المأمون إذا سئل الحاجةَ يشتم السّائلَ ويسطو عليه ويُخجِله ويُبكّته ساعةً ثمّ يأمر له بها، فيقوم وقد صارت إليه، وهو يذمّه ويلعنه. الشّاعر:

لعن الله أبا عبّا ... د لعنًا يتوالَى
يوسع السّائل شتمًا ... ثمّ يُعطيه السّؤالَا

وكان النّاس يقفون لأبي عَبّاد وقت ركوبه، فيتقدّم الواحد منهم إليه بقصّته لينا ولَه إيّاها، فيركُله برِجْله بالرّكاب ويضربه بسوْطه ويطير غضبًا، ثمّ لا ينزل عن فرسه حتّى يقضي حاجته ويأمر له بطلبته، فينصرف الرّجل بها وهو ذامٌّ له ساخطٌ عليه، فقال فيه دعبل:

أوْلَى الأُمور بضَيْعةٍ وفساد ... مُلكٌ يدبّره أبو عَبّادِ
متعمّدٌ بدواته جُلساءَه ... فمضرَّجٌ ومخضَّبٌ بمدادِ
وكأنّه مِن دَيْر هِزْقَل مُفلتٌ ... حرب يَجُرُّ سَلاسِل الأقيادِ
فاشدُدْ أميرَ المؤمنين صِفادَه ... بأشدّ منه في يدِ الحدّادِ

وقال فيه بعض الشّعراء:

قل للخليفة يا بن عمّ محمّدٍ ... قَيِّدْ وزيرَك إنّه رَكّالُ
فلسوْطه بين الرّؤوس مَسالكٌ ... ولرِجْله بين الصّدور مجالُ

(١٨: ٣١ ـ ٣٢)

(كتابه: ٧٠) ومن كتاب له عليه السلام إلى سَهل بن حُنَيف الأنصاريّ، وهو عامله على المدينة، في معنى قوم مِن أهلها لحقوا بمعاوية:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ، فَكَفَى لَهُمْ غَيًّا ولَكَ مِنْهُمْ شَافِيًا فِرَارُهُمْ

مِنَ الْهُدَى والْحَقِّ و إِيضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ.

فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا، قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ وَسَمِعُوهُ ووَعَوْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ النّاس عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أُسْوَةٌ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ، فَبُعْدًا لَهُمْ وَسُحْقًا؛ إِنَّهُمْ واللهِ لَمْ يَفِرُّوا مِنْ جَوْرٍ وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ، و إِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ اللهُ لَنَا صَعْبَهُ ويُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ، إِنْ شَاءَ اللهُ. والسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

الشّرح: قد تقدَّم نسب سَهل بن حُنَيف وأخيه عثمانَ فيما مضى. ويَتسلَّلون: يَخرُجون إلى معاوية هارِبين في خِفيةٍ واستتار. قال: «فلا تأسفْ»، أي لا تَحزنْ. والغيّ: الضّلال. قال: «ولك منهم شافيًا»، أي يكفيك في الانتقام منهم وشفاء النّفس مِن عقوبتهم أنّهم يتسلّلون إلى معاوية. قال: ارْضَ لمَن غاب عنك غيبته، فذاك ذنبٌ عقابه فيه. والإيضاع: الإسراع. وضَع البعيرُ، أي أسرَع وأوضَعه صاحبُه، قال:

رَأى برْقًا فأوضَع فوقَ بَكْرٍ ... فلا يَكُ ما أسالَ ولا أعَامَا

ومُهطِعون: مُسرعون أيضًا. والأثَرة: الاستئثار، يقول: قد عرَفوا أنّي لا أُقسِم إلّا بالسّويّة، وأنّي لا أُنفِّل قومًا على قوم ولا أُعطي على الأحْساب والأنْساب كما فعل غيري، فتركوني وهرَبوا إلى مَن يستأثِر ويُؤْثِر.

قال: فبُعدًا لهم وسُحقًا، دعاءٌ عليهم بالبُعْد والهلاك. ورُوي أنّهم «لم ينفروا» بالنّون، مِن نَفَرَ. ثمّ ذكر أنّه راجٍ من الله أن يُذلِّل له صَعْب هذا الأمر ويُسهِّل له حَزْنه، والحَزن: ما غلُظ من الأرض، وضدّه السّهْل. (١٨: ٥٢ـ٥٣)

(كتابه: ٧١) ومن كتاب له عليه السلام إلى المُنذِر بن الجارود العبديّ وقد كان استعمله على بعض النّواحي، فخان الأمانة في بعض ما ولّاه من أعماله:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ. فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدَعُ لِهَوَاكَ انْقِيَادًا، وَلَا تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عَتَادًا، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ؛ وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقًّا، لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ. وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ، أَوْ يُنَفَّذَ بِهِ أَمْرٌ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى جِبَايَةٍ، فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ

إِلَيْكَ كِتَابِي هذَا إِنْ شَاءَ اللهُ.

قال الرّضيّ رحمه الله: والمنذر [بن الجارود][1] هذا هو الّذي قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام: إنّه لَنَظّارٌ في عِطْفَيْهِ، مُخْتالٌ في بُرْدَيْهِ، تَفّالٌ في شِرَاكَيْهِ.

الشّرح: هو المُنذِر بن الجارود. واسم الجارود بِشْر بن خُنَيس بن المعلّى، وهو الحارث بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة بن جَذيمة بن عوْف بن أنمار بن عمرو ابن وديعة بن لُكَيز بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دُعْمِيّ بن جَدِيلة بن أسَد ابن رَبيعة بن نزار بن مَعَدّ بن عَدْنان. بيتُهم بيتُ الشّرف في عبد القيس، وإنّما سُمّي الجارود لبَيْتٍ قاله بعض الشّعراء فيه في آخره:

* كما جَرَدَ الجارودُ بكرَ بنَ وائلٍ[2] *

ووَفَدَ الجارود على النّبيّ صلى الله عليه وآله في سِنة تسع، وقيل: في سنة عشر. وذكَر أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب»[3] أنّه كان نصرانيًّا فأسلَم وحسُن إسلامه، وكان قد وفَد مع المنذر بن ساوَى في جماعةٍ من عبد القيس، وقال:

شهدتُ بأنّ الله حقٌّ وسامَحتْ ... بناتُ فؤادي بالشّهادة والنَّهْضِ

فأبلِغْ رسولَ الله منّي رسالةً ... بأنّي حَنيفٌ حيث كنتُ من الأرْضِ

قال: وقد اختُلف في نسبه اختلافًا كثيرًا، فقيل: بِشْر بن المعلّى بن خُنَيس، وقيل: بشر بن خنيس بن المعلّى، وقيل: بشر بن عمرو بن العَلاء، وقيل: بشر بن عمرو بن المعلّى، وكنيته أبو عتّاب، ويُكنّى أيضًا أبا المُنذِر.

١ـ في ا.

٢ـ صدره:

* ودُسْنَاهُم بالخَيْل مِن كلِّ جانِب *

٣ـ الاستيعاب (نهضة مصر) ٢٦٢ـ٢٦٤.

وسكَن الجارود البصرة وقُتل بأرض فارس، وقيل: بل قُتل بنهاوند مع النّعمان بن مُقرّن. وقيل: إنّ عثمان بن العاص بعَث الجارود في بعثٍ نحو ساحل فارس، فقُتل بموضعٍ يُعرَف بعَقَبة الجارود، وكان قبل ذلك يُعرَف بعقبة الطّين، فلمّا قُتل الجارود فيه عرّفه النّاس بعقبة الجارود، وذلك في سِنة إحدى وعشرين.

وقد روَى عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أحاديث ورُوي عنه. وأُمّه دريكة بنت رُوَيم الشّيبانيّة. وقال أبو عبيدة مَعْمر بن المثنّى في كتاب «التّاج»: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أكرم الجارود وعبد القيس حين وفدَا إليه، وقال للأنصار: «قوموا إلى إخوانكم و أشبه النّاس بكم». قال: لأنّهم أصحاب نخل، كما أنّ الأوس والخزرج أصحاب نخل، ومسكنهم البحرين واليمامة. قال أبو عبيدة: وقال عمر بن الخطّاب: لولا أنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ هذا الأمر لا يكون إلّا في قريش لَما عدلتُ بالخلافة عن الجارود بن بِشر بن المعلّى، ولا تُخالجني في ذلك الأُمور ... .

فأمّا المنذر بن الجارود فكان شريفًا وابنه الحَكَم بن المنذر يتلوه في الشّرف. والمنذر غير معدود في الصّحابة ولا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ولا وُلِد له في أيّامه، وكان تائهًا مُعجَبًا بنفسه. وفي الحَكَم ابنه يقول الرّاجز:

* سُرادق المجدِ عليك ممدود *

وكان يقال: أطوَعُ النّاس في قومه الجارود بن بِشر بن المعلّى. لمّا قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله فارتدّت العرب، خطَب قومه فقال: أيّها النّاس، إن كان محمّدٌ قد مات فإنّ الله حيٌّ لا يموت، فاستمسِكوا بدينكم، ومَن ذهب له في هذه الفتنة دينارٌ أو درهمٌ أو بقرةٌ أو شاةٌ فعليَّ مثلاه. فما خالَفه مِن عبد القيس أحدٌ.

قوله عليه السلام: «إنّ صلاح أبيك غرّني منك»، قد ذكرْنا حال الجارود وصحبته وصلاحه، وكثيرًا ما يغترّ الإنسان بحال الآباء فيظنّ أنّ الأبناء على منهاجهم، فلا يكون الأمر كذلك ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾[1].

١ـ الرّوم/ ١٩.

قوله: «فيما رُقِّيَ» بالتّشديد، أي فيما رُفِع إليَّ، وأصله أن يكون الإنسان في موضعٍ عالٍ فيُرقَى إليه شيء، وكأنّ العلوّ هاهنا هو علوّ المرتبة بين الإمام والأمير، ونحوه قولهم: تَعَالَ، باعتبار علوّ رتبة الأمر على المأمور. واللّام في «لِهَوَاكَ» متعلّقة بمحذوفٍ دَلّ عليه انقيادًا، ولا يتعلّق بنفس «انقياد» لأنّ المتعلّق من حروف الجرّ بالمصدر لا يجوز أن يتقدّم على المصدر.

والعَتاد: العُدّة. قوله: «وتَصِلُ عشيرتَك»، كان فيما رُقِّيَ إليه عنه أنّه يقتطع المال ويُفيضه على رَهْطه وقومه، ويُخرج بعضه في لذّاته ومآربه. قوله: «لَجَمَلُ أَهْلِك»، العرب تَضرِب بالجمل المَثَل في الهوان، قال:

لقد عَظُم البعيرُ بغَير لُبٍّ ... ولمْ يَستغنِ بالعِظَم البعيرُ[1]

يُصرِّفه الصّبيّ بكلّ وجهٍ ... ويحبسه على الخَسْف الجَريرُ

وتَضربه الوَليدةُ بالهراوَى ... فلا غيرٌ لديه ولا نَكيرُ

فأمّا شِسْع النّعل، فضَرْب المثل بها في الإستهانة مشهورٌ، لابتذالها ووطئها الأقدام في التّراب.

ثمّ ذكَر أنّه مَن كان بصفته فليس بأهلٍ لكذا ولا كذا، إلى أن قال: «أو يُشْرَكَ في أمانةٍ»؛ وقد جعَل الله تعالى البلاد والرّعايا أمانةً في ذمّة الإمام، فإذا استعمل العمّال على البلاد والرّعايا فقد شرَكهم في تلك الأمانة.

قال: «أو يُؤْمَنَ علَى جِبايةٍ»، أي على استِجْباء الخراج وجمعه. وهذه الرّواية الّتي سمعناها، ومِن النّاس مَن يرويها «على خيانة»، وهكذا رواها الرّاونديّ ولمْ يروِ الرّواية الصّحيحة الّتي ذكرناها نحن، وقال يكون «على» متعلّقة بمحذوف أو بـ«يُؤْمَنَ» نفسها، وهو بعيدٌ ومتكلّفٌ. ثمّ أمره أن يُقبِل إليه، وهذه كنايةٌ عن العزل.

١ـ للعبّاس بن مِرداس السُّلَميّ، ديوان الحماسة ٤١٩ـ بشرح المرزوقيّ.

فأمّا الكلمات الّتي ذكرها الرّضيّ عنه عليه السلام في أمر المُنذِر فهي دالّةٌ على أنّه نسَبه إلى التّيه والعُجب، فقال: «نظّارٌ في عطفيْه»، أي جانبيْه، ينظر تارةً هكذا وتارةً هكذا، ينظُر لنفسه ويَستحسِن هيئتَه ولبْستَه، وينظر هل عنده نقصٌ في ذلك أو عيبٌ فيستدركه بإزالته، كما يفعل أربابُ الزّهْو ومَن يدّعي لنفسه الحسن والملاحة.

قال: «مُختالٌ في بُرديْه»، يمشي الخُيَلاء عُجبًا. قال محمّد بن واسع لابنٍ له وقد رآه يَختالُ في بُردٍ له: أُدْنُ، فدَنَا. فقال: مِن أين جاءتْك هذه الخيلاء ويلك! أمّا أُمّك فأمَةٌ ابتعتُها بمائتيْ درهمٍ، وأمّا أبوك فلا أكثَرَ الله في النّاس أمثالَه.

قوله: «تَقّالٌ في شِراكيْه»، الشِّراك: السّير الّذي يكون في النّعل على ظَهْر القدم. والتَّفْل بالسّكون: مصدر تَفَل أي بَصَق، والتَّفَل محرّكًا البُصاقُ نفسه، وإنّما يفعله المُعجِبُ والتّائِهُ في شِراكيْه ليذهب عنهما الغُبار والوسخ، يَتْفُل فيهما ويمسَحهما ليعودا كالجَديديْن. (١٨: ٥٥ـ٥٩)

(كتابه: ٧٦) ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العبّاس عند استخلافه إيّاه على البصرة:

سَعِ النّاس بِوَجْهِكَ ومَجْلِسِكَ وحُكْمِكَ، وإيّاكَ والْغَضَبَ، فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ. واعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ، ومَا بَاعَدَكَ مِنَ اللهِ يُقَرِّبُكَ مِن النَّارِ.

الشّرح: روى: «وحلمك». والقرب من الله، هو القرب من ثوابه؛ ولا شبهة أنّ ما قرّب من الثّواب باعَد من العقاب وبالعكس لتنافيهما. فأمّا وصيّته له أن يَسع النّاس بوجهه ومجلسه وحكمه، فقد تقدّم شرح مثلِه، وكذلك القول في الغضب. وطَيْرة من الشّيطان: بفتح الطّاء وسكون الياء، أي خفّة وطيش، قال الكميت:

وحِلْمُـك عِـزٌّ إذا مـا حَلُمَـتْ وطَيرتُـك الصّـابُ والحنظـلُ

(١٨: ٧٠)

(كتابه: ٧٩) ومن كتاب له عليه السلام لمّا استُخلِف إلى أُمراء الأجناد:

أَمَّا بَعْدُ، فإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ، وَأَخَذُوهُم بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ.

الشّرح: أي منعوا النّاسَ الحقَّ فاشترى النّاس الحقَّ منهم بالرّشاء والأموال، أي لم يضعوا الأمور مواضعها ولا ولّوا الولايات مستحقِّيها وكانت أمورهم الدّينيّة والدّنياويّة تجري على وفق الهوَى والغرض الفاسد، فاشترى النّاس منهم الميراث والحقوق كما تُشتَرى السّلع بالمال.

ثمّ قال: «وأخَذُوهم بالباطل فاقتدَوْه»، أي حملوهم على الباطل فجاء الخلَف من بعد السّلف، فاقتدوا بآبائهم وأسلافهم في ارتكاب ذلك الباطل ظنًّا أنّه حقٌّ لِما قد ألفوه ونشئوا وربّوا عليه.

ورُوي «فاستروْه» بالسّين المهملة، أي اختاروه. يقال استريتُ خيار المال، أي اخترتُه. ويكون الضّمير عائدًا إلى «الظّلَمة» لا إلى «النّاس»، أي منَعوا النّاس حقَّهم من المال واختاروه لأنفسهم واستأثروا به. (١٨: ٧٧)

[ولاية قيس بن سعد على مصر ثمّ عزله]

قال إبراهيم: حدّثنا محمّد بن عبد الله بن عثمان الثّقفيّ، قال: حدّثني عليّ بن محمّد بن أبي سيف، عن الكلبيّ: أنّ محمّد بن أبي حذيفة بن عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس، هو الّذي حرَّض المصريّين على قتل عثمان وندَبهم إليه، وكان حينئذ بمصر. فلمّا ساروا إلى عثمان وحصَروه، وثَب هو بمصر على عامل عثمان عليها، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرْح، أحد بني عامر بن لؤيّ، فطرده عنها وصلّى بالنّاس.

فخرج ابنُ أبي سرح من مصر ونزل على تَخوم أرضِها ممّا يَلي فلسطين وانتظر ما يكون من أمر عثمان. فطلَع عليه راكبٌ فقال له: يا عبد الله، ما وراءك؟ ما خبر النّاس بالمدينة؟ قال: قتَل المسلمون عثمانَ، فقال ابنُ أبي سرح: إنّا لله وإنّا إليه راجعون! ثمّ صنعوا ماذا يا عبد الله؟ قال: بايَعوا ابن عمّ رسول الله عليّ بن أبي طالب، فقال ثانيةً: إنّا لله وإنّا إليه راجعون! فقال الرّجل: أرَى أنّ ولايةَ عليٍّ عدلتْ عندك قتْل عثمان! قال: أجَلْ.

فنظر إليه متأمّلًا له فعرفه فقال: أظنّك عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أمير مصر! قال: أجَلْ. قال: إن كانتْ لك في الحياة حاجةٌ فالنَّجاءَ النَّجاءَ؛ فإنّ رأيَ عليٍّ فيك وفي أصحابك إنْ ظَفِر بكم قتَلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين.

وهذا أميرٌ تقدَّم بعدي عليكم. قال: ومَن الأمير؟ قال: قيس بن سعد بن عُبادة. فقال ابن أبي سرح: أبْعَد الله[1] ابن أبي حذيفة، فإنّه بغَى على ابن عمّه وسعَى عليه، وقد كان كفَله وربّاه وأحسن إليه وأمِنَ جواره، فجهّز الرّجال إليه حتّى قُتل و وثب على عامله. وخرج ابن أبي سرح حتّى قَدِم على معاوية بدمشق.

قال إبراهيم: وكان قيس بن سعد بن عُبادة من شيعة عليّ ومناصحيه. فلمّا وَلِي الخلافة قال له: سرْ إلى مصر فقد ولّيتُكها واخرجْ إلى ظاهر المدينة واجمَعْ ثقاتك ومَن أحببتَ أن يصحَبك حتّى تأتيَ مصر ومعك جندٌ، فإنّ ذلك أرعبُ لعدوّك وأعزُّ لوليّك. فإذا أنت قَدِمتَها إن شاء الله، فأحسِنْ إلى المحسن واشتدّ[2] على المريب وارفُقْ بالعامّة والخاصّة، فالرّفق يُمْنٌ.

فقال قيس: رحمَك الله يا أمير المؤمنين، قد فهمتُ ما ذكرتَ. فأمّا الجندُ فإنّي أدَعُه لك، فإذا احتجتَ إليهم كانوا قريبًا منك، وإن أردتَ بعثهم إلى وجهٍ من وجوهك كان لك عُدّة، ولكنّي أسيرُ إلى مصر بنفسي وأهل بيتي. وأمّا ما أوصيتَني به من الرِّفق والإحسان فالله تعالى هو المستعان على ذلك.

قال: فخرج قيسٌ في سبعة نفرٍ من أهله حتّى دخل مصر، فصعِد المنبر وأمر بكتاب معه يُقرَأ على النّاس، فيه: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى مَن بلَغه كتابي هذا من المسلمين. سلام عليكم، فإنّي أحمَد الله إليكم الّذي لا إله إلّا هو. أمّا بعد، فإنّ الله بحسنِ صنعه وقَدره وتدبيره اختار الإسلام دينًا لنفسه وملائكته ورسله، وبعث به أنبياءه إلى عباده. فكان ممّا أكرم الله عزّ وجلّ به هذه الأُمّة وخصّهم به من الفضل

١ـ ساقط من ب.

٢ـ ب: «واشدُدْ».

أنْ بعَث محمّدًا ﷺ إليهم، فعلَّمهم الكتاب والحكمة والسّنّة والفرائض، وأدَّبهم لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيلا يتفرّقوا، وزكّاهم لكيما يتطهَّروا. فلمّا قضى من ذلك ما عليه قبضه الله إليه، فعليه صلوات الله وسلامه ورحمته ورضوانه.

ثمّ إنّ المسلمين من بعده استخلفوا أميريْن منهم صالحيْن فعملَا بالكتاب والسّنّة وأحييَا السّيرة ولم يعدُوَا السّنّة. ثمّ تُوُفّيا رحمهما الله، فوُلّي بعدهما والٍ أحدَث أحداثًا فوجدتْ الأُمّة عليه مقالًا، فقالوا ثمّ نقَموا فغيّروا ثمّ جاءوني فبايعوني، وأنا أستهدي الله الهُدَى وأستعينه على التّقوى. ألَا وإنّ لكم علينا العمل بكتاب الله وسنّة رسوله والقيام بحقّه والنّصح لكم بالغيب، والله المستعان على ما تصفون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقد بعثتُ لكم قيسَ بن سعد الأنصاريّ أميرًا، فوازِروه وأعينوه على الحقّ، وقد أمرتُه بالإحسان إلى محسنكم، والشّدّة على مُريبكم، والرِّفق بعوامّكم وخواصّكم؛ وهو ممّن أرضَى هَدْيَه وأرجو صلاحه ونصحه. نسأل الله لنا ولكم عملًا زاكيًا وثوابًا جزيلًا ورحمةً واسعةً. والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتبه عبد الله بن أبي رافع في صفرسِنة ستّ وثلاثين.

قال إبراهيم: فلمّا فرغ من قراءة الكتاب، قام قيس خطيبًا فحمِد الله وأثنى عليه وقال: الحمد لله الّذي جاء بالحقّ وأمات الباطل وكَبَتَ الظّالمين. أيّها النّاس، إنّا بايعْنا خيرَ مَن نعلم مِن بعد نبيّنا محمّد ﷺ فقوموا فبايِعوا على كتاب الله وسنّة رسوله، فإنْ نحن لم نعمل بكتاب الله وسنّة رسوله فلا بيعة لنا عليكم.

فقام النّاس فبايعوا، واستقامتْ مصر وأعمالُها لقيس، وبعث عليها عمّاله إلّا أنّ قريةً منها قد أعظَمَ أهلُها قتْل عثمان، وبها رجلٌ من بني كنانة يقال له يزيد بن الحارث، فبعث إلى قيس: إنّا لا نأتيك فابعثْ عُمّالَك، فالأرض أرضك، ولكن أقِرَّنا على حالنا حتّى ننظر إلى ما يصير أمر النّاس.

و وثب محمّد بن مَسْلمة بن مَخْلد بن صامت الأنصاريّ فنعَى عثمان ودعا إلى الطّلب بدمه، فأرسل إليه قيس: ويحك! أ علَيَّ تَثِبُ! والله ما أُحِبُّ أنّ لي ملك

الشّام ومصر وأنّي قتلتُك! فاحقِنْ دمك. فأرسل إليه مَسلَمة: إنّي كافٌّ عنك ما دمتَ أنت والي مصر.

وكان قيس بن سعد ذا رأيٍ وحَزْم، فبعث إلى الّذين اعتزلوا: إنّي لا أُكرِهُكم على البيعة، ولكنّي أدَعُكم وأكفُّ عنكم. فهادَنَهم وهادَن مَسلمة بن مَخلد وجَبَى الخراجَ وليس أحدٌ ينازعه.

قال إبراهيم: وخرج عليّ عليه السلام إلى الجمل وقيسٌ على مصر، ورجع من البصرة إلى الكوفة وهو بمكانه، فكان أثقلَ خلق الله على معاوية لقُرْب مصر وأعمالِها من الشّام ومخافةَ أن يقبِلَ عليٌّ بأهل العراق ويقبِلَ إليه قيسٌ بأهل مصر فيقع بينهما.

فكتب معاوية إلى قيس، وعليٌّ يومئذ بالكوفة قبل أن يسيرَ إلى صِفّين: من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد. سلام عليك، فإنّي أحمدُ إليك الله الّذي لا إله إلّا هو. أمّا بعد، فإنّكم إن كنتم نقِمتم على عثمان في أثرةٍ رأيتموها أو ضربة سوطٍ ضربها أو في شتمه رجلًا أو تعييره واحدًا أو في استعماله الفتيانَ مِن أهله فإنّكم قد علمتم إنْ كنتم تعلمون أنّ دمه لم يحلّ لكم بذلك، فقد ركبتم عظيمًا من الأمر وجئتم شيئًا إدًّا، فتُبْ يا قيس إلى ربّك إن كنتَ من المجلبين على عثمان، إن كانت التّوبة قبل الموت تُغني شيئًا.

وأمّا صاحبك فقد استيقنّا أنّه أغرَى النّاس بقتله وحملهم على قتله حتّى قتلوه، وأنّه لم يَسلَم من دمِه عُظْم قومك. فإن استطعتَ يا قيس أن تكونَ ممّن يطلب بدم عثمان فافعلْ وتابعْنا علَى عليٍّ في أمرنا. هذا ولك سلطان العراقيْن إنْ أنا ظفرتُ ما بقيت، ولمَن أحببتَ من أهل بيتك سلطان الحجاز مادام لي سلطان، وسلْني عن غير هذا ممّا تحبّ، فإنّك لا تسألُني شيئًا إلّا أتيتُه، واكتبْ إليّ رأيك فيما كتبتُ إليك.

فلمّا جاء إليه كتاب معاوية أحبّ أن يدافعه ولا يُبدي له أمرَه ولا يعجّل له حربه، فكتب إليه: أمّا بعد، فقد وصل إليّ كتابك وفهمتُ الّذي ذكرتَ مِن أمر عثمان وذلك أمرٌ لم أقاربْه. وذكرتَ أنّ صاحبي هو الّذي أغرَى النّاس بعثمان ودسّهم إليه

حتّى قتلوه وهذا أمرٌ لم أطّلع عليه. وذكرتَ لي أنّ عُظْم عشيرتي لم تَسلَم مِن دم عثمان، فلعمري إنّ أوْلَى النّاس كان في أمره عشيرتي.

وأمّا ما سألتَني من مبايعتك على الطّلب بدمه وما عرضتَه عليَّ فقد فهمتُه، وهذا أمرٌ لي نظرٌ فيه وفكرٌ، وليس هذا ممّا يُعجَل إلى مثله، وأنا كافٌّ عنك، وليس يأتيك من قِبَلي شيء تَكرَهه حتّى ترى ونرى، إن شاء الله تعالى. والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: فلمّا قرأ معاوية كتابه لم يرهُ إلّا مقاربًا مباعدًا ولم يَأمَن أن يكون له في ذلك مخادعًا مكايدًا، فكتب إليه: أمّا بعد، فقد قرأتُ كتابك، فلم أرك تدنو فأعدَّك سلْمًا ولم أرَكَ تتباعد فأعدَّك حربًا، أراك كحبل الجرور، وليس مثلي يُصانَع بالخداع ولا يُخدَع بالمكايد ومعه عدد الرّجال وأعِنّة الخيل. فإن قبلتَ الّذي عرضتُ عليك فلك ما أعطيتُك، وإنْ أنت لم تفعل ملأتُ مصر عليك خَيْلًا ورَجْلًا. والسّلام.

فلمّا قرأ قيس كتابَه وعلم أنّه لا يَقبل منه المدافعة والمطاولة، أظهر له ما في نفسه فكتَب إليه: من قيس بن سعد إلى معاوية بن أبي سفيان. أمّا بعد، فالعجبُ مِن استسقاطك رأيي والطّمع في أنْ تَسومَني ـ لا أبَا لغيرك ـ الخروجَ من طاعة أوْلَى النّاس بالأمر وأقوَلِهم بالحقّ وأهداهم سبيلًا وأقرَبِهم من رسول الله وسيلةً، وتأمُرني بالدّخول في طاعتك وطاعة أبعد النّاس من هذا الأمر وأقوَلِهم بالزّور وأضلّهم سبيلًا، وأدناهم من رسول الله وسيلةً، ولديك قومٌ ضالّون مضِلّون، طواغيتُ مِن طواغيت إبليس. وأمّا قولك إنّك تملأ عليَّ مصرَ خَيْلًا ورَجْلًا، فلئن لم أشغلْك عن ذلك حتّى يكون منك، إنّك لذو جِدّ. والسّلام.

فلمّا أتى معاوية كتابُ قيس، أيِس وثقُل مكانه عليه، وكان أن يكون مكانه غيرُه أحبَّ إليه لِما يعلم مِن قوّته وتأبّيه[1] ونَجدته واشتداد أمره على معاوية. فأظهر للنّاس أنّ قيسًا قد بايعكم فادعوا الله له، وقرأ عليهم كتابه الّذي لان فيه وقاربه.

١ـ ج: «وبأسه».

واختلق كتابًا نسَبه إلى قيس فقرأه على أهل الشّام: للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد. أمّا بعد، إنّ قتْل عثمان كان حدَثًا في الإسلام عظيمًا، وقد نظرتُ لنفسي وديني، فلم أرَ يسعُني مظاهرة قومٍ قتلوا إمامهم مُسلمًا مُحرمًا بَرًّا تقيًّا، فنستغفر الله سبحانه لذنوبنا ونسأله العصمةَ لِديننا. ألَا وإنّي قد ألقيت إليكم بالسّلام وأجبتُك إلى قتال قتَلة إمام الهدى المظلوم، فاطلبْ منّي ما أحببتَ من الأموال والرّجال أُعجِّله إليك، إن شاء الله. والسّلام على الأمير ورحمة الله وبركاته.

قال: فشاع في الشّام كلّها أنّ قيسًا صالَح معاوية، وأتتْ عيونُ عليّ بن أبي طالب إليه بذلك، فأعظمه وأكبره وتعجّب له. ودعا ابنيْه حسنًا وحسينًا وابنه محمّدًا وعبد الله بن جعفر، فأعلمهم بذلك وقال: ما رأيكم؟ فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يريبك، اعزلْ قيسًا عن مصر. قال عليٌّ: والله إنّي غيرُ مصدِّق بهذا على قيس. فقال عبد الله: اعزِلْه يا أمير المؤمنين، فإن كان ما قد قيل حقًّا فلا يعتزلْ لك إن عزلتَه.

قال: وإنّهم لَكذلك إذ جاءهم كتابٌ من قيس بن سعد، فيه: أمّا بعد، فإنّي أُخبِرُك يا أمير المؤمنين، أكرَمك الله وأعزّك، إنّ قِبَلي رجالًا معتزلين سألوني أن أكُفَّ عنهم وأدعَهم على حالهم حتّى يستقيمَ أمرُ النّاس فنرى ويرَوْن. وقد رأيتُ أن أكُفَّ عنهم ولا أُعجِّل بحرْبهم وأنْ أتألّفهم فيما بين ذلك، لعلّ الله أن يقبل بقلوبهم ويفرّقهم عن ضلالتهم، إن شاء الله. والسّلام.

فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، إنّك إن أطعتَه في تركهم واعتزالهم استشرَى الأمرُ وتفاقمتْ الفتنة وقعد عن بيعتك كثيرٌ ممّن تريده على الدّخول فيها، ولكنْ مُرْه بقتالهم. فكتب إليه: أمّا بعد فسِرْ إلى القوم الّذين ذكرتَ، فإنْ دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلّا فناجزْهم. والسّلام.

قال: فلمّا أتى هذا الكتاب قيسًا فقرأه لم يَتمالَكْ أن كتب إلى عليّ: أمّا بعد يا أمير المؤمنين، تأمرني بقتال قومٍ كافّين عنك ولم يمُدّوا يدًا للفتنة ولا أرصَدوا لها، فأطعْني يا أمير المؤمنين وكُفّ عنهم، فإنّ الرّأي تركهم. والسّلام.

فلمّا أتاه هذا الكتاب قال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، ابعثْ محمّد بن أبي بكر إلى مصر يكفِك أمرها واعزلْ قيسًا، فوالله لبلغني أنّ قيسًا يقول: إنّ سلطانًا لا يتمّ إلّا بقتل مَسْلمة بن مَخْلد لسلطان سوء، والله ما أُحِبُّ أنّ لي سلطان الشّام مع سلطان مصر وأنّي قتلتُ ابن مَخلد.

وكان عبد الله بن جعفر أخا محمّد بن أبي بكر لأُمّه وكان يُحبّ أن يكون له إمْرةٌ وسلطانٌ، فاستعمل عليّ عليه السلام محمّد بن أبي بكر على مصر لمحبّةٍ له ولهوى عبد الله بن جعفر أخيه فيه، وكتب معه كتابًا إلى أهل مصر، فسار حتّى قَدِمها فقال له قيس: ما بالُ أمير المؤمنين! ما غيّره! أ دخَل أحدٌ بيني وبينه! قال: لا وهذا السّلطان سلطانك ـ وكان بينهما نسبٌ، كان تحت قيس قُرَيبة بنت أبي قحافة أُخت أبي بكر الصّدّيق، فكان قيس زوجَ عمّته ـ فقال قيس: لا والله لا أُقيم معك ساعةً واحدةً وغضب حين عزَله عليٌّ عنها وخرج منها مقبلًا إلى المدينة ولم يمضِ إلى عليٍّ بالكوفة.

قال إبراهيم: وكان قيسٌ مع شجاعته ونَجدته جوادًا مفضالاً، فحدّثني عليّ بن محمّد بن أبي سيف، عن هاشم، عن عروة، عن أبيه، قال: لمّا خرج قيس بن سعد من مصر، فمرّ بأهل بيت من بلقَيْن، فنزل بمائهم فنحر له صاحبُ المنزل جَزورًا وأتاه بها، فلمّا كان الغد نحر له أُخرى، ثمّ حبستْهم السّماء اليوم الثّالث فنحر لهم ثالثة، ثمّ إنّ السّماء أقلَعَتْ. فلمّا أراد قيسٌ أن يرتحِل، وضع عشرين ثوبًا من ثياب مصر وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرّجل وقال لها: إذا جاء صاحبك فادفعي هذه إليه، ثمّ رحل.

فما أتتْ عليه إلّا ساعةٌ حتّى لَحِقه الرّجل صاحب المنزل على فرسٍ ومعه رمحٌ، والثّياب والدّراهم بين يديه فقال: يا هؤلاء خذوا ثيابَكم ودراهمكم. فقال قيس: انصرفْ أيّها الرّجل، فإنّا لم نكنْ لنأخذَها. قال: والله لتأخذنّها. فقال قيس: لله أبوك! ألم تكرِمْنَا وتحسنْ ضيافتنا فكافأناك! فليس بهذا بأسٌ. فقال الرّجل: إنّا لا نأخذ

لِقِرَى الأضياف ثمنًا، والله لا آخذها أبدًا. فقال قيس: أمّا إذ أبى ألّا يأخذَها فخذوها[1]، فوالله ما فضلني رجلٌ من العرب غيره.

قال إبراهيم: وقال أبو المنذر مَرّ قيس في طريقه برجل مِن بَلِيّ، يقال له: الأسود ابن فلان، فأكرمه. فلمّا أراد قيس أن يرتحِل وضَع عند امرأته ثيابًا ودراهم. فلمّا جاء الرّجل دفعتْه إليه، فلحقه فقال: ما أنا بائعٌ ضيافتي، والله لتأخُذَنّ هذا أو لأنفِذَنّ الرّمح بين جنبيك! فقال قيس: ويحكم خذوه!

قال إبراهيم: ثمّ أقبل قيس حتّى قَدِم المدينة، فجاءه حَسّان بن ثابت شامتًا به وكان عثمانيًّا، فقال له: نزَعك عليّ بن أبي طالب وقد قتلتَ عثمان، فبقي عليك الإثم ولم يُحسِن لك الشّكر. فزجره قيس وقال: يا أعمَى القلب، يا أعمَى البصر، والله لولا ألقى بين رهطي ورهطك حربًا لضربتُ عنقك. ثمّ أخرجه من عنده.

قال إبراهيم: ثمّ إنّ قيسًا وسهل بن حنيف خرجَا حتّى قَدِما علَى عليٍّ الكوفة، فخبّره قيسٌ الخبر وما كان بمصر فصدّقه. وشهد مع عليّ صفّين هو وسهل بن حنيف.

قال إبراهيم: وكان قيس طُوالاً أطول النّاس وأمدّهم قامةً وكان[2] سِناطًا أصلع شيخًا شجاعًا مجرّبًا مناصحًا لعليٍّ ولولده، ولم يزل على ذلك إلى أن مات.

قال إبراهيم: حدّثني أبو غسّان، قال: أخبرني عليّ بن أبي سيف، قال: كان قيس ابن سعد مع أبي بكر وعمر في سفَرٍ في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان يُنفِق عليهما وعلى غيرهما ويفضِل. فقال له أبو بكر: إنّ هذا لا يقوم به مالُ أبيك، فأمسِكْ يدك. فلمّا قَدِموا من سفرهم قال سعد بن عُبادة لأبي بكر: أردتَ أن تُبخِّل ابني، إنّا لَقومٌ لا نستطيع البخل. قال: وكان قيس بن سعد يقول في دعائه: اللّهمّ ارزقني حَمْدًا ومجدًا وشكرًا، فإنّه لا حمدَ إلّا بفعال ولا مجدَ إلّا بمال. اللّهمّ وسّعْ عليّ فإنّ القليل لا يسعني ولا أسعه. (٦: ٥٧ـ٦٥)

١ـ ساقطة من ب.

٢ـ السِّناط: الّذي لا لحية له.

[ولاية محمّد بن أبي بكر على مصر وأخبار مقتله]

قال إبراهيم: وكان عَهِد عليٌّ إلى محمّد بن أبي بكر الّذي قرئ بمصر: هذا ما عهِد عبد الله عليٌّ أمير المؤمنين إلى محمّد بن أبي بكر حين ولّاه مصر؛ أمَره بتقوى الله في السّرّ والعلانية، وخوف الله تعالى في المَغِيب والمشهد. وأمَره باللِّين على المسلم، والغلظ على الفاجر، وبالعدل على أهل الذّمّة، وبالإنصاف للمظلوم، وبالشّدّة على الظّالم، وبالعفو عن النّاس، وبالإحسان ما استطاع، والله يجزي المحسنين.

وأمَره أن يدعُوَ مَن قِبَله إلى الطّاعة والجماعة، فإنّ لهم في ذلك من العاقبة وعِظَم المثوبة ما لا يُقدَر قدْره ولا يُعرَف كنْهه. وأمَره أن يَجبِيَ خَراج الأرض على ما كانت تُجبَى عليه مِن قَبْل، ولا ينتقص ولا يبتدع، ثمّ يَقسِمه بين أهله كما كانوا يَقسِمونه عليه من قبل، وإن تكُنْ لهم حاجةٌ، يواسِي بينهم في مجلسه و وجهه ليكونَ القريب والبعيد عنده علَى سواء. وأمَره أن يحكم بين النّاس بالحقّ وأن يقوم بالقِسط ولا يَتّبع الهوى ولا يخاف [في الله][1] لومةَ لائم، فإنّ الله مع مَن اتّقاه وآثَر طاعته على مَن سواه.

وكتبه عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله لغُرّة شهر رمضان سنة ستّ وثلاثين.

قال إبراهيم: ثمّ قام محمّد بن أبي بكر خطيبًا، فحَمِد الله وأثنى عليه وقال: أمّا بعد، فالحمد لله الّذي هدانا وإيّاكم لِما اختُلف فيه من الحقّ، وبصَّرنا وإيّاكم كثيرًا ممّا عَمِي عنه الجاهلون. ألَا وإنّ أمير المؤمنين ولّاني أُموركم وعَهِد إليّ بما سمعتم وأوصاني بكثير منه مشافهةً ولن آلوَكم خيرًا ما استطعتُ، وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أُنيب.

فإن يكن ما ترون آثاري وأعمالي طاعةً لله وتقوى، فاحمَدوا الله على ما كان مِن ذلك، فإنّه هو الهادي إليه. فإن رأيتم من ذلك عملًا بغير الحقّ، فارفعوه إليّ وعاتِبوني عليه، فإنّي بذلك أسعد وأنتم بذلك جديرون. وفّقنا الله وإيّاكم لصالح العمل.

١ـ من ا، ج.

قال إبراهيم: وحدّثني يحيى بن صالح، عن مالك بن خالد الأسديّ، عن الحسن ابن إبراهيم، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن، قال: كتَب عليّ عليه السلام إلى أهل مصر لمّا بعث محمّد بن أبي بكر إليهم كتابًا يخاطبهم به[1] ويخاطب محمّدًا أيضا فيه: أمّا بعد، فإنّي أُوصيكم بتقوى الله في سرّ أمركم وعلانيته وعلى أيّ حالٍ كنتم عليها، وليعلمْ المرء منكم أنّ الدّنيا دار بلاء وفناء، والآخرة دار جزاء وبقاء؛ فمَن استطاع أن يُؤثِر ما يبقى على ما يفنى فلْيفعل، فإنّ الآخرة تبقى والدّنيا تفنى. رزقنا الله وإيّاكم بصرًا لِما بصَّرنا وفهمًا لِما فهَّمَنا حتّى لا نقصِّر عمّا أمَرنا ولا نتعدّى إلى ما نهانا.

واعلمْ يا محمّد، أنّك وإن كنت محتاجًا إلى نصيبك من الدّنيا إلّا أنّك إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن عرَض لك أمران أحدهُما للآخرة والآخر للدّنيا، فابدأْ بأمر الآخرة. ولتَعظُمْ رغبتُك في الخير ولتَحسُنْ فيه نيّتك؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يعطي العبد على قَدْر نيّته، وإذا أحبّ الخير وأهله ولم يعمله، كان إن شاء الله كمَن عَمِله، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من تَبوك: إنّ بالمدينة لَأقوامًا ما سِرتُم من مسيرٍ ولا هبطتم من وادٍ إلّا كانوا معكم، ما حبَسهم إلّا المرض ـ يقول كانت لهم نيّةٌ ـ.

ثمّ اعلمْ يا محمّد، أنّي قد ولّيتُك أعظم أجنادي أهل مصر، و ولّيتُك ما ولّيتك من أمر النّاس، فأنت محقوقٌ أن تخافَ فيه على نفسك وتحذَر فيه على دينك، ولو كان ساعةً من نهارٍ. فإن استطعتَ أن لا تُسخِط ربّك لرضا أحدٍ من خلقه فافعلْ، فإنّ في الله خَلَفًا من غيره وليس في شيء خلفٌ منه، فاشتدَّ على الظّالم ولِنْ لأهل الخير وقرِّبْهم إليك واجعلْهم بطانتَك وإخوانك. والسّلام.

قال إبراهيم: حدّثني يحيى بن صالح، عن مالك بن خالد، عن الحسن بن إبراهيم، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن، قال: كتب عليٌّ إلى محمّد بن أبي بكر وأهل مصر: أمّا بعد، فإنّي أُوصيكم بتقوى الله والعمل بما أنتم عنه مسؤولون، فأنتم به رهنٌ

---

١ ـ ب: «فيه»، وما أثبته عن ا، ج.

وإليه صائرون، فإنّ الله عزّوجلّ يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[١] وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢] وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٣].

فاعلموا عبادَ الله أنّ الله سائِلكم عن الصّغير من أعمالكم والكبير؛ فإنْ يعذِّب فنحن الظّالمون وإنْ يغفر ويرحم فهو أرحم الرّاحمين. واعلموا أنّ أقربَ ما يكون العبد إلى الرّحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة الله ومناصحته في التّوبة. فعليكم بتقوى الله عزّوجلّ، فإنّها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها ويُدرَك بها من الخير ما لا يُدرَك بغيرها خير الدّنيا وخير الآخرة. يقول الله سبحانه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٤].

واعلموا عبادَ الله أنّ المؤمنين المتّقين قد ذهبوا بعاجل الخير وآجله، شرَكوا أهلَ الدّنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهلُ الدّنيا في آخرتهم. يقول الله عزّوجلّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٥]، سكنوا الدّنيا بأفضل ما سُكِنت وأكلوها بأفضل ما أُكِلت، شارَكوا أهل الدّنيا في دنياهم فأكلوا مِن أفضل ما يأكلون، وشربوا مِن أفضل ما يشربون، ويلبسون مِن أفضل ما يلبسون، ويسكنون مِن أفضل ما يسكنون. أصابوا لذّة أهل الدّنيا مع أهل الدّنيا مع أنّهم غدًا مِن جيران الله عزّوجلّ، يَتمنّوْن عليه، لا يُرَدّ لهم دعوةٌ ولا يُنقَص لهم لذّةٌ. أمَا في هذا ما يَشتاق إليه مَن كان له عقل!

١ـ المدّثر/ ٣٨.

٢ـ آل عمران/ ٢٨.

٣ـ الحجر/ ٩٢ـ ٩٣.

٤ـ النّحل/ ٣٠.

٥ـ الأعراف/ ٣٢.

واعلموا عبادَ الله أنّكم إذا اتّقيتم ربّكم وحفظتم نبيّكم في أهل بيته، فقد عبدتموه بأفضل ما عُبد، وذكرتموه بأفضل ما ذُكر، وشكرتموه بأفضل ما شُكر، وأخذتم بأفضل الصّبر، وجاهدتم بأفضل الجهاد وإن كان غيركم أطولَ صلاةٍ منكم وأكثرَ صيامًا، إذ كنتم أتقى لله وأنصحَ لأولياء الله من آل محمّد صلى الله عليه وآله وأخشع.

واحذَروا عبادَ الله الموتَ ونزولَه وخذولَه، فإنّه يدخل بأمرٍ عظيمٍ خيرٍ لا يكون معه شرٌّ أبدًا أو شرٍّ لا يكون معه خيرٌ أبدًا. وليس أحدٌ من النّاس يفارق روحُه جسدَه حتّى يعلم إلى أيّ المنزلتيْن يصير؛ إلى الجنّة أم إلى النّار! أ عدوٌّ هو لله أم وليٌّ له! فإن كان وليًّا فُتحتْ له أبواب الجنّة وشرع له طريقها ونظر إلى ما أعدّ الله عزّ وجلّ لأوليائه فيها، فرَغ مِن كلّ شغلٍ و وُضع عنه كلّ ثِقْلٍ. وإن كان عدوًّا فُتحتْ له أبواب النّار وسهل له طريقها ونظر إلى ما أعدّ الله فيها لأهلها واستقبل كلّ مكروهٍ وفارَق كلّ سرورٍ. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوًى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[1].

واعلموا عبادَ الله أنّ الموت ليس منه فَوْت، فاحذروه وأعِدُّوا له عُدّته، فإنّكم طُرَداء للموت[2]؛ إن قمتم أخذكم وإن هربتم أدرككم، وهو ألزم لكم من ظِلّكم، معقودٌ بنواصيكم، والدّنيا تُطوَى مِن خلفكم، فأكثِروا ذكرَ الموت عند ما تُنازِعكم إليه أنفسكم من الشّهوات، فإنّه كافٍ بالموت واعظًا. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أكثِروا ذكْر الموت فإنّه هاذِم اللّذّات».

واعلموا عبادَ الله أنّ ما بعد الموت أشدّ مِن الموت لِمَن لم يغفر الله له ويرحمه. واحذروا القَبر وضَمّته وضيقه وظلمته، فإنّه الّذي يتكلّم كلّ يوم: أنا بيت التُّراب وأنا بيت الغربة وأنا بيت الدّود. والقبرُ روضةٌ من رياض الجنّة أو حفرةٌ من حُفَر النّار؛ إنّ

١ـ النّحل/ ٢٨ـ ٢٩.

٢ـ ب: «الموت».

المسلم إذا مات قالت له الأرض: مرحبًا وأهلًا، قد كنتَ ممّن أُحِبُّ أن تمشي على ظهري، فإذْ وَليتُك فستعلم كيف صنعي بك! فيَتّسع له مدَّ بصرِه. وإذا دُفن الكافر قالت له الأرض: لا مرحبًا ولا أهلًا، قد كنتَ ممّن أُبغِضُ أن تمشي على ظهري، فإذْ وَليتُك فستعلم كيف صنعي بك! فتنضمّ عليه حتّى تلتقيَ أضلاعُه.

واعلموا أنّ المعيشة الضّنك الّتي قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1] هي عذاب القبر؛ فإنّه يُسلَّط على الكافر في قبره حيّاتٌ عظامٌ تَنهشُ لحمَه حتّى يُبعَث، لو أنّ تِنّينًا منها نفَخ الأرض ما أنبت الزّرع أبدًا.

واعلموا عبادَ الله أنّ أنفسكم وأجسادكم الرّقيقة النّاعمة الّتي يكفيها اليسير من العقاب ضعيفةٌ عن هذا، فإن استطعتم أن ترحموا أنفسكم وأجسادكم ممّا لا طاقة لكم به ولا صبر لكم عليه، فتعملوا بما أحبّ الله سبحانه وتتركوا ما كَرِه، فافعلوا، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله!

واعلموا عباد الله أنّ ما بعد القبر أشدّ من القبر؛ يومٌ يَشِيب فيه الصّغير ويَسكَر فيه الكبير وتَذهَل كلُّ مرضعةٍ عمّا أرضعتْ. واحذروا يومًا عبوسًا قمطريرًا، كان شرّه مستطيرًا. أمَا إنّ شرّ ذلك اليوم وفزَعَه استطار حتّى فَزِعت منه الملائكة، الّذين ليست لهم ذنوبٌ، والسّبعُ الشّداد والجبالُ الأوتاد والأرضون المهاد. وانشقّت السّماء فهي يومئذ واهيةٌ، وتغيّرتْ فكانت وَرْدةً كالدِّهان وكانت الجبال سرابًا بعد ما كانت صُمًّا صِلابًا. يقول الله سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[2]. فكيف بمَن يَعْصيه بالسّمع والبصر واللّسان واليد والفرج والبطن، إن لم يغفر الله ويرحم!

١ـ طه/ ١٢٤.

٢ـ الزّمر/ ٦٨.

واعلموا عباد الله أنّ ما بعد ذلك اليوم أشدّ وأدهَى؛ نارٌ قعرُها بعيدٌ وحَرّها شديدٌ وعذابها جديدٌ ومقامِعها حديدٌ وشرابها صديدٌ، لايَفترعذابها ولا يموت ساكِنها، دارٌ ليست لله سبحانه فيها رحمةٌ ولا يُسمَع فيها دعوةٌ.

ومع هذا رحمة الله الّتي وَسِعتْ كلّ شيء، لا تعجزعن العباد، وجَنّةٌ عَرْضها كعرْض السّماء والأرض، خيرٌ لا يكون بعده شرٌّ أبدًا، وشهوةٌ لا تنفد أبدًا، ولذّةٌ لا تفنى أبدًا، ومَجمعٌ لا يتفرّق أبدًا. قومٌ قد جاورُوا الرّحمن، وقام بين أيديهم الغِلْمان بصحافٍ مِن ذهبٍ فيها الفاكهة والرّيحان. وإنّ أهل الجنّة يزورون الجبّار سبحانه في كلّ جمعة، فيكون أقربُهم منه على منابرمِن نور، والّذين يلُونهم على منابرمِن ياقوت، والّذين يلونهم على منابرمن مِسْك، فبينا هم كذلك ينظرون الله جلّ جلاله وينظرالله في وجوههم، إذ أقبلتْ سحابةٌ تغشاهم فتمطِرُعليهم من النّعمة واللّذّة والسّرور والبهجة ما لا يعلمه إلّا الله سبحانه. ومع هذا ما هو أفضل منه، رضوان الله الأكبر.

أمَا إنّا لو لم نُخَوّف إلّا ببعض ما خُوّفنا به لَكُنّا محقوقِين أنْ يَشتدّ خوفُنا ممّا لا طاقةَ لنا به ولا صبرَلقوّتنا عليه، وأن يشتدّ شوقُنا إلى ما لا غنى لنا عنه ولا بدّ لنا منه. فإن استطعتم عباد الله أن يشتدّ خوفُكم من ربّكم فافعلوا، فإنّ العبد إنّما تكون طاعته على قَدْر خوفه، وإنّ أحسن النّاس لله طاعةً، أشدُّهم له خوفًا.

وانظرْيا محمّد صلاتَك كيف تصلّيها، فإنّما أنت إمامٌ ينبغي لك أن تتمّها وأنْ تخفّفها وأن تصلّيها لوقتها، فإنّه ليس مِن إمامٍ يصلّي بقوم فيكون في صلاته وصلاتهم نقصٌ إلّا كان إثمُ ذلك عليه، ولا ينقص من صلاتهم شيئًا. واعلمْ أنّ كلّ شيء مِن عملك يَتبَع صلاتَك، فمَن ضيَّع الصّلاة فهو لغيرها أشدُّ تضييعًا. و وضوءك من تمام الصّلاة، فأتِ به على وجهه، فالوضوء نصف الإيمان. أسألُ الله الّذي يَرَى ولا يُرَى وهو بالمنظرالأعلى، أن يجعلنا وإيّاك من المتّقين الّذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

فإن استطعتم يا أهل مصرأن تُصدِّق أقوالكم أفعالَكم وأن يتوافق سرُّكم وعلانيتكم ولا تُخالِف ألسنتكم قلوبَكم فافعلوا، عصَمَنا الله وإيّاكم بالهدى وسلك

بنا وبكم المحجّة الوسطى. وإيّاكم ودعوة الكذّاب ابن هند، وتأمّلوا واعلموا أنّه لا سوّى إمام الهدى وإمام الرّدى، و وصيّ النّبيّ وعدوّ النّبيّ، جعَلَنا الله وإيّاكم ممّن يحبّ ويرضى. ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّي لا أخاف على أُمّتي مؤمنًا ولا مشركًا؛ أمّا المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأمّا المشرك فيخزيه الله بشِرْكه. ولكنّي أخاف عليهم كلّ منافق اللّسان، يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون».

واعلمْ يا محمّد أنّ أفضل الفقهِ الورعُ في دين الله والعملُ بطاعته، فعليك بالتّقوى في سِرّ أمرِك وعلانيته. أُوصيك بسبعٍ هنّ جوامع الإسلام: اخْشَ الله ولا تخشَ النّاس في الله، وخيرُ القول ما صدَّقه العمل، ولا تقضِ في أمر واحدٍ بقضاءيْن مختلفين فيتناقضَ أمرُك وتزيغَ عن الحق، وأحِبَّ لعامّة رعيّتك ما تُحِبّه لنفسك واكرهْ لهم ما تكره لنفسك، وأصلِحْ أحوال رعيّتك، وخُض الغمراتِ إلى الحقّ ولا تخفْ لومة لائم، وانصحْ لمَن استشارَك، واجعلْ نفسَك أُسوةً لقريب المسلمين وبعيدهم. جعل الله خُلَّتنا و وُدَّنا خُلّة المتّقين و وُدّ المخلصين، وجمع بيننا وبينكم في دار الرّضوان إخوانًا على سُرُر متقابلين، إن شاء الله.

قال إبراهيم بن سعد الثّقفيّ: فحدّثني عبد الله بن محمّد بن عثمان، عن عليّ بن محمّد بن أبي سيف، عن أصحابه، أنّ عليًّا لمّا كتب إلى محمّد بن أبي بكر هذا الكتاب، كان ينظر فيه ويتأدّب بأدبه. فلمّا ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله، أخذ كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية، فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجّب منه.

فقال الوليد بن عُقْبة، وهو عند معاوية، وقد رأى إعجابه به: مُرْ بهذه الأحاديث أن تُحرَق، فقال معاوية: مَهْ، لا رأيَ لك! فقال الوليد: أ فمِن الرّأي أن يَعلم النّاس أنّ أحاديث أبي تراب عندك تتعلّم منها! قال معاوية: ويحك! أ تأمرني أن أُحرِق علمًا مثل هذا! والله ما سمعتُ بعلمٍ هو أجمَع منه ولا أحكَم. فقال الوليد: إنْ كنتَ تعجب مِن علمه وقضائه فعلامَ تقاتله! فقال: لولا أنّ أبا ترابٍ قتل عثمان ثمّ أفتانا لأخذنا عنه. ثمّ سكت هُنَيهةً ثمّ نظر إلى جلسائه فقال: إنّا لا نقول: إنّ هذه مِن كتب عليّ

ابن أبي طالب عليه السلام، ولكن نقول: هذه مِن كتب أبي بكر الصّدّيق، كانت عند ابنه محمّد فنحن ننظر فيها ونأخذ منها.

قال: فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أُميّة حتّى وَلي عمر بن عبد العزيز، فهو الّذي أظهر أنّها من أحاديث عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

قلت: الأليق أن يكون الكتاب الّذي كان معاوية ينظرُفيه ويعجب منه ويُفتي به ويقضي بقضاياه وأحكامه هو عهد عليّ عليه السلام إلى الأشتر، فإنّه نسيجُ وَحْدِه، ومنه تعلّم النّاس الآداب والقضايا والأحكام والسّياسة، وهذا العهد صار إلى معاوية لمّا سمّ الأشترَ ومات قبل وصوله إلى مصر، فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيقٌ مِن مثله أن يُقتنَى في خزائن الملوك.

قال إبراهيم: فلمّا بلغ عليًّا عليه السلام أنّ ذلك الكتاب صار إلى معاوية، اشتدّ عليه حزنًا.

وحدّثني بكر بن بكّار، عن قيس بن الرَّبيع، عن ميسرة بن حبيب، عن عمرو بن مُرَّة، عن عبد الله بن سلمة، قال: صلّى بنا عليّ عليه السلام، فلمّا انصرف قال:

لَقَدْ عثرتُ عَثْرةً لا أعتذِرْ سَوْفَ أكِيسُ بعدها وأَستَمِرْ

* وأجمعُ الأمر الشَّتِيتَ المنتشِرْ *

فقلنا: ما بالك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إنّي استعملتُ محمّد بن أبي بكر على مصر، فكتب إليّ أنّه لا علم لي بالسُّنّة، فكتبتُ إليه كتابًا فيه أدبٌ وسُنّة، فقُتل وأخذ الكتاب.

قال إبراهيم: فحدّثني عبد الله محمّد، عن ابن أبي سيف المدائنيّ، قال: فلم يلبث محمّد بن أبي بكر شهرًا كاملًا حتّى بعث إلى أُولئك المعتزلين الّذين كان قيس بن سعد موادعًا لهم، فقال: يا هؤلاء، إمّا أن تدخُلوا في طاعتنا، وإمّا أن تخرُجوا من بلادنا. فبعثوا إليه: إنّا لا نفعل، فدعْنا حتّى ننظر إلى ما يصير إليه أمرُ النّاس، فلا تعْجل علينا. فأبى عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حِذْرَهم. ثمّ كانت وقعه صِفّين وهم لمحمّد هائبون.

فلمّا أتاهم خبرُ معاوية وأهل الشّام، ثمّ صار الأمر إلى الحكومة وأنّ عليًّا وأهل العراق قد قفلوا عن معاوية والشّام إلى عراقهم اجترءوا على محمّد بن أبي بكر وأظهروا المنابذة له. فلمّا رأى محمّدٌ ذلك بعَث إليهم ابن جَمْهان البلويّ، ومعه يزيد بن الحارث الكنانيّ، فقاتَلاهم فقتلوهما. ثمّ بعث إليهم رجلًا من كَلْب فقتلوه أيضًا.

وخرج معاوية بن حُدَيجْ من السّكاسك يدعو إلى الطّلب بدم عثمان، فأجابه القوم وناسٌ كثير آخرون، وفسدت مصر على محمّد بن أبي بكر. فبلغ عليًّا توثُّبهم عليه، فقال: ما أرى لمصر إلّا أحد الرّجلين: صاحبنا الّذي عزلْنا بالأمس ـ يعني قيس ابن سعد بن عبادة ـ أو مالك بن الحارث الأشتر. وكان عليٌّ حين رجع عن صفّين، ردّ الأشتر إلى عمله بالجزيرة، وقال لقيس بن سعد: أقِمْ أنت معي على شُرْطتي حتّى نفرُغ من أمر هذه الحكومة، ثمّ اخرجْ إلى أذربيجان. فكان قيس مقيمًا على شرطته.

فلمّا أن انقضى أمر الحكومة كتب عليٌّ إلى الأشتر، وهو يومئذ بنصيبيْن: أمّا بعد، فإنّك ممّن أستظهِرُ به على إقامة الدّين، وأقمَعُ به نَخْوة الأثيم، وأسُدُّ به الثّغر المخوف. وقد كنتُ وليت محمّد بن أبي بكر مصر، فخرجتْ عليه خوارج، وهو غلامٌ حدثُ السّنّ، ليس بذي تجربَة للحروب، فأقدِمْ عليّ لننظر فيما ينبغي، واستخلِفْ على عملك أهلَ الثّقة والنّصيحة من أصحابك. والسّلام.

فأقبل الأشتر إلى عليّ واستخلف على عمله شبيبَ بن عامر الأزديّ ـ وهو جدّ الكرمانيّ الّذي كان بخراسان صاحب نصر بن سيّار ـ، فلمّا دخل الأشتر على عليّ حدّثه حديث مصر وخبّره خبر أهلها وقال له: ليس لها غيرُك، فاخرجْ إليها رحمك الله، فإنّي لا أُوصيك اكتفاءً برأيك، واستعنْ بالله على ما أهمّك واخلط الشّدّة باللّين وارفقْ ما كان الرّفق أبلغَ واعتزمْ على الشّدّة حين لا يغني عنك إلّا الشّدّة.

فخرج الأشتر مِن عنده فأتى برحله وأتتْ معاويةَ عيونُه فأخبروه بولاية الأشتر مصر، فعظُم ذلك عليه، وقد كان طمع في مصر. فعلم أنّ الأشتر إنْ قَدِم عليها كان أشدَّ عليه من محمّد بن أبي بكر، فبعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به، وقال له إنّ

الأشتر قد وَلي مصر، فإنْ كفيْتَنيه لم آخذْ منك خراجًا ما بقيتُ وبقيتَ؛ فاحتلْ في هلاكه ما قدرتَ عليه.

فخرج الأشتر حتّى انتهى إلى القُلزُم[1] حيث تركَب السّفن من مصر إلى الحجاز، فأقام به فقال له ذلك الرّجل، وكان ذلك المكان مكانه: أيّها الأمير، هذا منزل فيه طعامٌ وعَلَف، وأنا رجلٌ من أهل الخراج، فأقمْ واسترحْ، وأتاه بالطّعام حتّى إذا طَعم سقاه شَرْبة عسلٍ قد جعل فيها سمًّا، فلمّا شربها مات.

قال إبراهيم: وقد كان أمير المؤمنين كتب على يد الأشتر كتابًا إلى أهل مصر. روى ذلك الشّعبيّ عن صَعْصعة بن صوحان: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى مَن بمصر مِن المسلمين: سلام الله عليكم، فإنّي أحمدُ الله إليكم، الّذي لا إله إلّا هو. أمّا بعد، فإنّي قد بعثتُ إليكم عبدًا من عباد الله، لا ينام أيّام الخوف ولا ينكِلُ عن الأعداء حِذار الدّوائر. لا ناكِلٌ مِن قَدَمٍ ولا واهٍ في عزم، من أشدِّ عباد الله بأسًا وأكرمِهم حَسَبًا، أضرُّ على الفجّار مِن حريق النّار وأبعدُ النّاس من دنسٍ أو عارٍ، وهو مالك بن الحارث الأشتر. حُسامٌ صارمٌ، لا نَابي الضَّريبةِ ولا كليلُ الحدِّ، حليمٌ في السِّلم، رزينٌ في الحرب، ذو رأيٍ أصيل وصبرٍ جميل.

فاسمعوا له وأطيعوا أمره، فإنْ أمَركم بالنَّفْر فانفِروا، وإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، فإنّه لا يُقْدِم ولا يحجِم إلّا بأمري. وقد آثرتُكم به على نفسي، نصيحةً لكم وشدّةَ شكيمةٍ على عدوّكم. عصمكم الله بالهدى وثبّتكم بالتّقوى و وفّقنا وإيّاكم لِما يحبّ ويرضى. والسّلام عليكم ورحمة الله.

قال إبراهيم: وروى جابر عن الشّعبيّ، قال: هلك الأشتر حين أتى عقبة أَفِيق[2].

قال إبراهيم: وحدّثنا وطبة بن العلاء بن المنهال الغنويّ، عن أبيه، عن عاصم بن كليب، عن أبيه أنّ عليًّا لمّا بعث الأشتر إلى مصر واليًا عليها وبلغ معاويةَ خبرُه، بعث

١ـ القُلزُم: مدينةٌ بمصر على رأس الخليج المضاف إليها، وأطلالها الآن قرب مدينة السّويس.

٢ـ أفِيق، بالفتح ثمّ الكسر: قريةٌ من حوران.

رسولاً يَتبع الأشتر إلى مصر وأمَره باغتياله. فحمل معه مِزْوَدين فيهما شرابٌ، وصحب الأشتر، فاستسق الأشتر يومًا فسقاه من أحدهما، ثمّ استسق يومًا آخر منه فسقاه من الآخر وفيه سمٌّ فشربه، فمالت عنقه، وطُلب الرّجل ففاتهم.

قال إبراهيم: وحدّثنا مُحرِز بن هشام، عن جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة الضّبّيّ أنّ معاوية دسّ للأشتر مولًى لآل عمر. فلم يزل المولى يذكر للأشتر فضلَ عليّ وبني هاشم حتّى اطمأنّ إليه واستأنس به. فقدم الأشتر يومًا ثقله أو تقدّم ثقله، فاستسق ماءً، فقال له مولى عمر: وهل لك في شربة سَويق؟ فسقاه شربة سويق فيها سمٌّ فمات. وقد كان معاوية قال لأهل الشّام لمّا دسّ إليه مولى عمر: ادعُوا على الأشتر، فَدَعَوْا عليه، فلمّا بلغه موْته قال: ألا ترون كيف استجيبَ لكم.

قال إبراهيم: وقد رُوي من بعض الوجوه أنّ الأشتر قُتل بمصر بعد قتال شديد. والصّحيح أنّه سقي سمًّا فمات قبل أن يبلغ مصر.

قال إبراهيم: وحدّثنا محمّد بن عبد الله بن عثمان، عن عليّ بن محمّد بن أبي سيف المدائنيّ أنّ معاوية أقبل يقول لأهل الشّام: أيّها النّاس، إنّ عليًّا قد وجّه الأشتر إلى مصر، فادعُوا الله أنْ يكفيكموه. فكانوا يدعُون عليه في دُبُر كلّ صلاة. وأقبل الّذي سقاه السّمّ إلى معاوية، فأخبره بهلاك الأشتر. فقام معاوية في النّاس خطيبًا فقال: أمّا بعد، فإنّه كان لعليّ بن أبي طالب يدان يمينان، فقطعتْ إحداهما يوم صفّين وهو عمّار بن ياسر، وقد قطعت الأُخرى اليوم وهو مالك الأشتر.

قال إبراهيم: فلمّا بلغ عليًّا موتُ الأشتر قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون! والحمد لله ربّ العالمين! اللّهمّ إنّي أحتسبه عندك، فإنّ موته مِن مصائب الدّهر. ثمّ قال: رحم الله مالكًا، فلقد وَفّى بعهده وقضى نحبه ولقي ربّه، مع أنّا قد وطّنّا أنفسنا أن نصبِر على كلّ مصيبة بعد مصابنا برسول الله ﷺ فإنّها من أعظم المصيبات.

قال إبراهيم: وحدّثنا محمّد بن هشام المراديّ، عن جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة الضّبّيّ، قال: لم يزلْ أمرُ عليٍّ شديدًا حتّى مات الأشتر، وكان الأشتر بالكوفة أسوَدَ مِن الأحنف بالبصرة.

قال إبراهيم: وحدّثنا محمّد بن عبد الله، عن ابن أبي سيف المدائنيّ، عن جماعة من أشياخ النَّخَع، قالوا: دخلْنا على أمير المؤمنين حين بلغه موتُ الأشتر، فوجدناه يتلهّف ويتأسّف عليه، ثمّ قال: لله دَرّ مالك! وما مالك! لو كان من جبلٍ لكان فِنْدًا[1]، ولو كان من حجرٍ لكان صَلْدًا. أما والله لَيَهُدَّنّ موتُك عالمًا ولَيُفرِحنّ عالمًا. على مثل مالكٍ فلتَبكِ البواكي! وهل موجودٌ كمالك! قال علقمة بن قيس النّخعيّ: فما زال عليٌّ يتلهّف ويتأسّف، حتّى ظننّا أنّه المصاب به دونَنا، وعُرف ذلك في وجهه أيّامًا.

قال إبراهيم: وحدّثنا محمّد بن عبد الله، عن المدائنيّ، قال: حدّثنا مولًى للأشتر، قال: لمّا هلك الأشتر أُصيبَ في ثقله رسالةُ عليّ إلى أهل مصر: مِن عبد الله أمير المؤمنين إلى النَّفر من المسلمين الّذين غضبوا لله إذْ عُصي في الأرض، وضرَب الجَوْرُ برواقه على البرّ والفاجر، فلا حقٌّ يُستراح إليه، ولا منكَرٌ يُتناهى عنه. سلامٌ عليكم، فإنّي أحمدُ إليكم الله الّذي لا إله إلّا هو. أمّا بعد، فقد وجّهتُ إليكم عبدًا من عباد الله لا ينام في الخوف، ولا ينكلُ من الأعداء حذار الدّوائر، أشدّ على الكافرين من حريق النّار، وهو مالك بن الحارث الأشتر أخو مَذْحِج.

فاسمعوا له وأطيعوا، فإنّه سيفٌ من سيوف الله، لا نَابي الضّريبة ولا كليلُ الحدّ. فإنْ أمَركم أن تُقيموا فأقيموا، وإنْ أمَركم أن تَنفِروا فانفروا، وإنْ أمَركم أن تُحجِموا فأحجِموا، فإنّه لا يُقدِم ولا يُحجِم إلّا بأمري. وقد آثرتُكم به على نفسي لنصيحته وشدّةِ شكيمته على عدوّه. عصمكم الله بالحقّ، وثبّتكم بالتّقوى. والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: وحدّثنا محمّد بن عبد الله، عن المدائنيّ، عن رجاله أنّ محمّد بن أبي بكر لمّا بلغه أنّ عليًّا قد وجّه الأشتر إلى مصر، شَقّ عليه، فكتب عليه السلام إليه عند مهلك الأشتر: أمّا بعد، فقد بلَغني موجِدتُك مِن تسريح الأشتر إلى عملك، ولم أفعلْ ذلك استبطاءً لك عن الجهاد، ولا استزادةً لك منّي في الجدّ. ولو نزعتُ ما حوتْ يداك

١ـ الفِند: الجبل العظيم.

من سلطانك لولّيتُك ما هو أيسرُ مؤنةً عليك وأعجبُ ولايةً إليك؛ إلّا أنّ الرّجل الّذي ولّيتُه مصر، كان رجلًا لنا مناصحًا، وهو على عدوّنا شديدٌ، فرحمة الله عليه، فقد استكمل أيّامه ولاقَى حِمامه، ونحن عنه راضون فرضي الله عنه وضاعَف له الثّواب وأحسَن له المآب. فأصحِرْ[1] لعدوّك وشمِّر للحرب وادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثِرْ ذكر الله والاستعانة به والخوف منه، يَكْفِك ما هَمّك ويُعِنْك على ما ولّاك. أعاننا الله وإيّاك على ما لا ينال إلّا برحمته. والسّلام.

قال: فكتب محمّد بن أبي بكر إليه جوابه: إلى عبد الله أمير المؤمنين من محمّد بن أبي بكر: سلامٌ عليك، فإنّي أحمد إليك الله الّذي لا إله إلّا هو. أمّا بعد، فقد انتهى إليَّ كتابُ أمير المؤمنين وفهمتُه وعرفت ما فيه، وليس أحدٌ من النّاس أشدَّ على عدوّ أمير المؤمنين ولا أرأفَ وأرقَّ لوليّه منّي. وقد خرجتُ فعسكرت، وأمّنْتُ النّاس إلّا مَن نصَب لنا حربًا وأظهر لنا خلافًا، وأنا أتّبعُ أمر أمير المؤمنين وحافظٌ ولاجئٌ إليه وقائمٌ به، والله المستعان على كلّ حال. والسّلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: فحدّث محمّد بن عبد الله بن عثمان، عن ابن سيف المدائنيّ، عن أبي جَهضم الأزديّ أنّ أهل الشّام لمّا انصرفوا عن صفّين، كانوا ينتظرون ما يأتي به الحكَمان. فلمّا انصرفا وتفرّقا وبايَع أهل الشّام معاوية بالخلافة لم يزدد معاوية إلّا قوّة، واختلف أهل العراق على عليّ بن أبي طالب. فلم يكن همُّ معاوية إلّا مصر، وقد كان لأهلها هائبًا، لقربهم منه وشدّتهم على مَن كان على رأي عثمان، وقد كان علم أنّ بها قومًا قد ساءهم قتلُ عثمان وخالفوا عليًّا مع أنّه كان يرجو أن يكون له فيها معاونةً إذا ظهر عليها على حرب عليٍّ، لوفور خراجها.

فدعا معاوية مَن كان معه من قريش، وهم عمرو بن العاص السّهميّ، وحبيب ابن مسلمة الفهْريّ، وبُسر بن أرطاة العامريّ، والضّحاك بن قَيس الفهْريّ، وعبد الرّحمن بن خالد بن الوليد المخزوميّ. ودعا غير قريش نحو شُرَحْبيل بن السِّمط

١ـ أصحر لعدوّك، أي أبرز له في العراء.

الحميريّ، وأبي الأعور السُّلَميّ، وحمزة بن مالك الهمدانيّ، فقال: أتدرون لماذا دعوتُكم؟ قالوا: لا. قال: فإنّي دعوتكم لأمرٍ هو لي مهمٌّ وأرجو أن يكون الله عزّ وجلّ قد أعان عليه، فقال له القوم ـ أو من قال له منهم ـ: إنّ الله لم يُطْلع على غيبه أحدًا ولسنا ندري ما تريد!

فقال عمرو بن العاص: أرى والله أنّ أمر هذه البلاد المصريّة لكثرة خراجها وعدد أهلها قد أهمّك، فدعوتَنا تسألنا عن رأينا في ذلك. فإنْ كنتَ لذلك دعوتَنا وله جمعتَنا فاعزِمْ واصرمْ، ونعم الرّأي ما رأيت! إنّ في افتتاحها عزَّك وعزَّ أصحابك، وذلَّ عدوّك وكبتَ أهل الخلاف عليك.

قال معاوية: أهمّك ما أهمّك يا بن العاص! وذلك أنّ عمرًا كان بايَع معاوية على قتال عليٍّ وأنّ مصر له طعمةٌ ما بقي. فأقبل معاوية على أصحابه وقال: إنّ هذا ـ يعني ابن العاص ـ قد ظنّ وحقّق ظنّه. قالوا: ولكنّا لا ندري، ولعلّ أبا عبد الله قد أصاب. فقال عمرو: وأنا أبو عبد الله، إنّ أفضل الظّنون ما شابه اليقين.

ثمّ إنّ معاوية حمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد، فقد رأيتم كيف صنَع الله لكم في حربكم هذه على عدوّكم! ولقد جاءوكم وهم لا يشكّون أنّهم يستأصِلون بيضتَكم ويحوزون بلادكم، ما كانوا يرون إلّا أنّكم في أيديهم، فردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال وكفاكم مؤونتهم، وحاكمتموهم إلى الله فحكَم لكم عليهم. ثمّ جمَع كلمتَنا وأصلح ذات بيننا وجعلهم أعداءً متفرّقين، يشهد بعضهم على بعض بالكفر ويسفِك بعضهم دم بعض.

والله إنّي لأرجو أن يُتمّ الله لنا هذا الأمر، وقد رأيتُ أن أُحاوِل حرب مصر، فماذا ترون؟ فقال عمرو بن العاص: قد أخبرتُك عمّا سألتَ وأشرتُ عليك بما سمعتَ. فقال معاوية: ما ترون؟ فقالوا: نرى ما رأى عمرو بن العاص.

فقال معاوية: إنّ عمرًا قد عزم وصرم بما قال، ولم يفسِّر كيف ينبغي أن نصنع! قال عمرو: فإنّي مشيرٌ عليك بما تصنع، أرى أن تبعث جيشًا كثيفًا، عليهم رجلٌ صارم، تأمنُه وتثِق به، فيأتي مصر فيدخلها فإنّه سيأتينا مَن كان على مثلِ رأينا من أهلها،

فنظاهره على مَن كان مِن عدوّنا. فإن اجتمع بها جندك ومَن كان بها مِن شيعتك على مَن بها مِن أهل حربك، رجوتُ الله أن يُعزّ نصرَك ويظهر فَلَجَك.

فقال معاوية: هل عندك شيء غير هذا نعمله فيما بيننا وبينهم قبل هذا؟ قال: ما أعلمه. قال معاوية: فإنّ رأيي غيرُ هذا؛ أرى أن نكاتب مَن كان بها مِن شيعتنا ومَن كان بها مِن عدوّنا؛ فأمّا شيعتنا فنأمُرهم بالتّبات على أمرِهم نُمنّيهم قدومَنا عليهم، وأمّا مَن كان بها مِن عدوّنا فندعوهم إلى صلْحنا ونمنّيهم شكرَنا ونخوّفهم حربنا. فإنْ صلح لنا ما قبلهم مِن غير حربٍ ولا قتال فذلك ما أحببْنا، وإلّا فحربُهم مِن وراء ذلك. إنّك يا بن العاص لامرُؤٌ[1] بورك لك في العجلة وبورك لي في التُّؤَدة.

قال عمرو: فاعملْ بما أراك الله، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصيرُ إلّا إلى الحرب. قال: فكتب معاوية عند ذلك إلى مَسْلمة بن مَخْلد الأنصاريّ وإلى معاوية بن حُدَيج الكِنْديّ، وكانا قد خالفَا عليًّا: أمّا بعد، فإنّ الله عزّ وجلّ قد ابتعثكما لأمرٍ عظيمٍ أعظَم به أجرَكما ورفَع درجتَكما ومرتبتكما في المسلمين. طلبتما بدم الخليفة المظلوم وغضبتما لله إذ تُرِك حكم الكتاب، وجاهدتما أهلَ الظّلم والعدوان، فأبشِروا برضوان الله وعاجِل نصرة أولياء الله والمواساة لكما في دار الدّنيا وسلطاننا، حتّى ينتهيَ ذلك إلى ما يرضيكما ويؤدّيَ[2] به حقّكما. فالزِما أمرَكما وجاهِدا عدوّكما وادعُوَا المدبرين منكما إلى هداكما فكأنّ الجيش قد أظلّ عليكما، فاندفع كلُّ ما تكرهان ودام كلُّ ما تهويان. والسّلام عليكما ورحمة الله.

وبعث بالكتاب مع مولًى له يقال له سُبَيع، فخرج بكتابه حتّى قَدِم به عليهما بمصر، ومحمّد بن أبي بكر يومئذ أميرُها قد ناصَبه هؤلاء النَّفر الحرب، وهم هائبون الإقدام عليه، فدفع الكتاب إلى مَسلمة بن مَخلد، فقرأه فقال: الْقَ به معاوية بن حُدَيج، ثمّ القَنِي به حتّى أُجيبَ عنّي وعنه.

١ـ ساقطة من ا، ب.

٢ـ ا، ج: «ويوفّي».

فانطلق الرّسول بكتاب معاوية فأقرأه إيّاه، ثمّ قال له: إنّ مَسلمة قد أمرني أن أردّ الكتاب إليه لكي يُجيبَ عنك وعنه. قال: قلْ له فليفعل. فأتى مَسلمة بالكتاب فكتب الجواب عنه وعن معاوية بن حُدَيج: أمّا بعد، فإنّ هذا الأمر الّذي قد ندبْنا له أنفسنا وابتغينا الله به على عدوّنا أمرٌ نرجو به ثوابَ ربّنا والنّصرَ على مَن خالفَنا وتعجيل النّقمة على مَن سعى على إمامنا وطأطأ الرّكض في مهادنا.

ونحن بهذه الأرض قد نفينا مَن كان بها من أهل البَغي، وأنهضنا مَن كان بها من أهل القسط والعدل. وقد ذكرتَ موازرتَك في سلطانك وذات يدك، وبالله إنّه لا من أجْل مالٍ نهضْنا ولا إيّاه أردْنا؛ فإنْ يجمَع الله لنا ما نريد ونطلب أو يرينا ما تمنّينا، فإنّ الدّنيا والآخرة لله ربّ العالمين، وقد يثوبهما الله جميعًا عالمًا من خَلْقه، كما قال في كتابه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

عجّلْ لنا بخَيلك ورَجْلك، فإنّ عدوّنا قد كان علينا جريئًا[2] وكنّا فيهم قليلًا، وقد أصبحوا لنا هائبين وأصبحنا لهم منابذين. فإن يأتِنا مددٌ مَن قِبَلك يفتح الله عليك، ولا قوّة إلّا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قال: فجاء هذا الكتاب معاويةَ وهو يومئذ بفلسطين، فدعا النّفر الّذين سمّيناهم من قريش وغيرهم، وأقرأهم الكتاب وقال لهم: ماذا ترون؟ قالوا: نرى أن تبعثَ إليهم جيشًا مِن قِبَلك فأنت مفتحها إن شاء الله بإذن الله.

قال معاوية: فتجهَّزْ إليها يا أبا عبد الله ـ يعني عمرو بن العاص ـ فبعثه في ستّة آلاف فخرج يسيرُ. وخرج معه معاوية يودّعه، فقال له معاوية عند وَداعه إيّاه: أُوصيك بتقوى الله يا عمرو، وبالرّفق فإنّه يُمْنٌ، وبالتُّؤَدة فإنّ العجلة من الشّيطان، وبأن تقبَل مَن أقبل وتعفُو عمّن أدبر؛ أنظِرْه فإن تاب وأناب قبلتَ منه، وإن أبى فإنّ السّطوة بعد المعرفة أبلغُ في الحجّة. وأحسنْ في العاقبة وادعُ النّاس إلى الصّلح

١ـ آل عمران/ ١٤٨.

٢ـ كذا في ج، وفي ا، ب: «حربًا».

والجماعة، فإنْ أنت ظَفِرت فليكنْ أنصارُك أبرّ النّاس عندك، وكلّ النّاس فأوْلِ حُسْنًا.

قال: فسار عمرو في الجيش حتّى دنا من مصر، فاجتمعت إليه العثمانيّة، فأقام وكتب إلى محمّد بن أبي بكر: أمّا بعد، فتنحَّ عنّي بدمك يا بن أبي بكر، فإنّي لا أُحبُّ أن يصيبَك منّي ظُفرٌ، وإنّ النّاس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفْض أمرك، وندِموا على اتّباعك، وهم مُسلِّموك لو قد التقت حَلْقَتا البِطان. فاخرجْ منها فإنّي لك من النّاصحين. والسّلام.

قال: وبعث عمرو إلى محمّد مع هذا الكتاب كتابَ معاوية إليه، وهو: أمّا بعد، فإنّ غِبَّ الظُّلم والبغي عظيمُ الوبال، وإنّ سفكَ الدّم الحرام لا يَسلَم صاحبه مِن النّقمة في الدّنيا والتَّبِعة الموبقة في الآخرة، وما نعلم أحدًا كان أعظمَ على عثمان بغيًا، ولا أَسْوَأ له عيبًا، ولا أشدَّ عليه خلافًا منك؛ سعيتَ عليه في السّاعين، وساعدت عليه مع المساعدين، وسفكتَ دمَه مع السّافكين. ثمّ تظنّ أنّي نائمٌ عنك، فتأتي بلدةً فتأمن فيها وجُلّ أهلها أنصاري، يرون رأيي ويرفُضون قولك ويستصرخونني عليك.

وقد بعثتُ إليك قومًا حِناقًا عليك، يسفِكُون دمك، يتقرّبون إلى الله عزّوجلّ بجهادك، وقد أعطوا الله عهدًا ليقتُلنّك. ولو لم يكن منهم إليك ما قالوا لقتلك الله بأيديهم أو بأيدي غيرهم من أوليائه. وأنا أُحذِّرك وأُنذِرك، فإنّ الله مُقِيدٌ منك ومقتصٌّ لوليّه وخليفته، بظلمك له وبغيك عليه و وقيعتك فيه وعداوتك يوم الدّار عليه. تَطعُن بمَشاقِصك[1] فيما بين أحشائه وأوْداجه، ومع هذا فإنّي أكره قتلَك ولا أُحبُّ أن أتولّى ذلك منك، ولن يسلمَك الله من النّقمة أين كنت أبدًا، فتنحَّ وانجُ بنفسك. والسّلام.

قال: فطَوى محمّد بن أبي بكر كتابيهما وبعث بهما إلى عليّ عليه السلام وكتب إليه: أمّا بعد يا أمير المؤمنين، فإنّ العاصي ابن العاص قد نزل أدانِيَ مصر، واجتمع إليه مِن أهل

١ـ المَشاقِص: جمع مِشقَص؛ وهو النّصل العريض.

البلد مَن كان يرى رأيَهم، وهو في جيشٍ جَرّار، وقد رأيتُ ممّن قِبَلي بعضَ الفشل؛ فإنْ كان لك في أرض مصر حاجة فامددني بالأموال والرّجال. والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال: فكتب إليه عليٌّ: أمّا بعد، فقد أتاني رسولك بكتابك تَذكُر أنّ ابنَ العاص قد نزل في جيشٍ جرّار، وأنّ مَن كان على مثل رأيه قد خرج إليه، وخروجُ مَن كان يرى رأيَه خيرٌ لك من إقامته عندك. وذكرتَ أنّك قد رأيتَ ممّن قِبَلك فَشَلًا، فلا تفشل وإن فشلوا؛ حصِّنْ قريتك، واضمُمْ إليك شيعتك، وأذكِ الحرَس في عسكرك، واندبْ إلى القوم كِنانة بن بِشر، المعروف بالنّصيحة والتّجربة والبأس، وأنا نادبٌ إليك النّاس على الصَّعْب والذَّلول. فاصبِرْ لعدوّك، وامضِ على بصيرتك، وقاتلْهم على نيّتك، وجاهدْهم محتسبًا لله سبحانه، وإن كانت فئتُك أقلّ الفئتين، فإنّ الله تعالى يُعين القليل ويخذُل الكثير.

وقد قرأتُ كتابَي الفاجريْن المتحابّيْن على المعصية، والمتلائمَيْن على الضّلالة، والمرتَشِيَيْن على الحكومة، والمتكبّريْن على أهل الدِّين، الّذين استمتعوا بخَلاقهم كما استمتع الّذين مِن قبلهم بخلاقهم. فلا يضرّنّك إرعادهما وإبراقهما، وأجبْهما إن كنت لم تجبهما بما هما أهله فإنّك تجد مقالًا ما شئت. والسّلام.

قال: فكتب محمّد بن أبي بكر إلى معاوية جواب كتابه: أمّا بعد، فقد أتاني كتابُك تذكُر مِن أمر عثمان أمرًا لا أعتذر إليك منه، وتأمُرني بالتّنحّي عنك كأنّك لي ناصحٌ، وتخوّفني بالحرب كأنّك عليَّ شفيقٌ. وأنا أرجو أن تكون الدّائرة عليكم وأنْ يُهلِككم الله في الوقعة وأن ينزل بكم الذّلّ وأن تولّوا الدُّبُر. فإن يكن لكم الأمر في الدّنيا فكَمْ وكم لعمري مِن ظالمٍ قد نصرتم! وكم مِن مؤمنٍ قد قتلتم ومثّلتم به! وإلى الله المصير، وإليه تردّ الأُمور، وهو أرحم الرّاحمين، والله المستعان على ما تصفون.

قال: وكتب محمّد بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص جوابَ كتابه: أمّا بعد، فهمتُ كتابَك وعلمتُ ما ذكرتَ. زعمتَ أنّك تكره أن يصيبني منك ظُفْرٌ، فأشهدُ بالله أنّك لَمِن المبطلين، وزعمتَ أنّك ناصحٌ لي وأُقسمُ أنّك عندي ظنين. وقد زعمتَ أنّ أهل

البلد قد رفضوني ونـدِموا على اتّباعي، فأُولئك حزبك وحزب الشّيطان الرّجيم، وحسبنا الله ربّ العالمين ونعم الوكيل، وتوكّلتُ على الله العزيز الرّحيم، ربّ العرش العظيم.

قال إبراهيم: فحدّثنا محمّد بن عبد الله، عن المدائنيّ، قال: فأقبل عمرو بن العاص يقصد قصْد مصر، فقام محمّد بن أبي بكر في النّاس، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد، يا معاشر المؤمنين، فإنّ القوم الّذين كانوا ينتهكون الحرمة، ويغشَوْن[1] الضّلالة، ويستطيلون بالجبريّة، قد نصبوا لكم العداوة، وساروا إليكم بالجنود. فمن أراد الجنّة والمغفرة فليخرُجْ إلى هؤلاء القوم فليجاهدْهم في الله. انتدِبوا[2] رحمكم الله مع كِنانة بن بِشر.

ثمّ ندب معه نحو ألفي رجل، وتخلّف محمّد في ألفيْن، واستقبل عمرو بن العاص كِنانة وهو على مقدّمة محمّد. فلمّا دنا عمرو مِن كنانة سرّح إليه الكتائب، كتيبة بعد كتيبة، فلم تأته من كتائب الشّام كتيبة إلّا شدّ عليها بمَن معه فيضربها حتّى يُلحقها بعمرو، ففعل ذلك مرارًا.

فلمّا رأى عمرو ذلك بعث إلى معاوية بن حُدَيج الكنديّ، فأتاه في مثل الدَّهْم[3]. فلمّا رأى كِنانة ذلك الجيش، نزل عن فرسه ونزل معه أصحابه فضارَبهم بسيفه، وهو يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[4]. فلم يزل يضاربهم بالسّيف حتّى استشهد رحمه الله.

قال إبراهيم: حدّثنا محمّد بن عبد الله، عن المدائنيّ، عن محمّد بن يوسف، أنّ عمرو بن العاص لمّا قتَل كنانةَ أقبل نحو محمّد بن أبي بكر، وقد تفرّق عنه أصحابه،

١ـ ب: «أرض الضّلالة».

٢ـ انتدِبوا: حفّوا.

٣ـ الدَّهم: العدد الكثير.

٤ـ آل عمران/ ١٤٥.

فخرج محمّد متمهّلًا، فمضى في طريقه حتّى انتهى إلى خَربة[١]، فآوى إليها. وجاء عمرو ابن العاص حتّى دخل الفُسطاط، وخرج معاوية بن حُدَيج في طلب محمّد، حتّى انتهى إلى عُلُوج على قارعة الطّريق، فسألهم: هل مرَّ بهم أحدٌ ينكرونه؟ قالوا: لا. قال أحدهم: إنّي دخلت تلك الخَربة، فإذا أنا برجل جالس. قال ابن حُدَيج: هو هو وربّ الكعبة. فانطلقوا يركضون، حتّى دخلوا على محمّد، فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشًا، فأقبلوا به نحو الفُسْطاط.

قال: و وثب أخوه عبد الرّحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص وكان في جُنده، فقال: لا والله لا يُقتَل أخي صبرًا، ابعثْ إلى معاوية بن حُدَيج فائتِه. فأرسل عمرو ابن العاص: أن ائتني بمحمّد، فقال معاوية: أ قتلتم كنانة بن بشر، ابن عمّي وأُخلّي عن محمّد! هيهات! ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾[٢].

فقال محمّد: اسقوني قطرةً من الماء، فقال له معاوية بن حديج: لا سقاني الله إن سقيتُك قطرةً أبدًا؛ إنّكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتّى قتلتموه صائمًا محرمًا، فسقاه الله من الرّحيق المختوم. والله لأقتلنّك يا بن أبي بكر وأنت ظمآن، ويسقيك الله من الحميم والغِسْلين.

فقال له محمّد: يابن اليهوديّة النّسّاجة، ليس ذلك اليوم إليك ولا إلى عثمان، إنّما ذلك إلى الله يسقي أولياءه ويظمئ أعداءه، وهم أنت وقرناؤك ومَن تولّاك وتولّيته. والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم منّي ما بلغتم.

فقال له معاوية بن حديج: أ تدري ما أصنع بك؟ أدخلك جوْفَ هذا الحمار الميّت ثمّ أُحرقه عليك بالنّار. قال: إن فعلتم ذاك بي فطالما فعلتم ذاك بأولياء الله، وايمُ الله إنّي لأرجو أن يجعل الله هذه النّار الّتي تخوّفني بها بردًا وسلامًا كما جعلها الله على إبراهيم خليله، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأوليائه، وإنّي

١ـ الخَربة: موضع الخراب.

٢ـ القمر/ ٤٣.

لأرجو أن يُحرِقك الله وإمامك معاوية وهذا ـ وأشار إلى عمرو بن العاص ـ بنارٍ تلظّى، كلّما خَبَتْ زادها الله عليكم سعيرًا.

فقال له معاوية بن حديج: إنّي لا أقتلك ظلمًا، إنّما أقتلك بعثمان بن عفّان. قال محمّد: وما أنت وعثمان! رجلٌ عَمل بالجوْر وبدّل حكم الله والقرآن، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[3]، فنقِمْنا[4] عليه أشياء عَملها، فأردنا أن يُخْلع من الخلافة عَلَنًا، فلم يفعل، فقتله مَن قتله مِن النّاس.

فغضب معاوية بن حُدَيج، فقدّمه فضرب عنقه ثمّ ألقاه في جَوْف حمار وأحرقه بالنّار. فلمّا بلغ ذلك عائشة جَزِعت عليه جزعًا شديدًا وقنتَتْ في دُبُر كلّ صلاةٍ تدعو على معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج، وقبضت عيالَ محمّد أخيها و ولده إليها، فكان القاسم بن محمّد من عيالها. قال: وكان ابن حديج ملعونًا خبيثًا يسبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

قال إبراهيم: وحدّثني عمرو بن حمّاد بن طلحة القنّاد، عن عليّ بن هاشم، عن أبيه، عن داود بن أبي عوف، قال: دخَل معاوية بن حديج علَى الحسن بن عليّ في مسجد المدينة، فقال له الحسن: ويلك يا معاوية! أنت الّذي تسبّ أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام! أما والله لئن رأيتَه يوم القيامة ـ وما أظنّك تراه ـ لترينّه كاشفًا عن ساقٍ، يضرب وجوه أمثالك عن الحوض ضَرْبَ غرائب الإبل.

١ـ المائدة/ ٤٤.

٢ـ المائدة/ ٤٥.

٣ـ المائدة/ ٤٧.

٤ـ نقم عليه، بكسر القاف: أنكره أمره.

قال إبراهيم: وحدّثني محمّد بن عبد الله بن عثمان، عن المدائنيّ، عن عبد الملك ابن عُمير، عن عبد الله بن شدّاد، قال: حلفتْ عائشة لا تأكل شِواءً[1] أبدًا بعد قتْل محمّد، فلم تأكُلْ شواءً حتّى لحِقت بالله، وما عثرت قطّ إلّا قالت: تعِسَ معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج!

قال إبراهيم: وقد روى هاشم أنّ أسماء بنت عُمَيس، لمّا جاءها نعيُ محمّد ابنها وما صُنِع به، قامت إلى مسجدها وكظَمت غيظها حتّى تشخّبت دمًا.

قال إبراهيم: وروى ابنُ عائشة التّيميّ عن رجاله عن كثير النَّوّاء أنّ أبا بكر خرَج في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله في غَزاةٍ، فرأتْ أسماء بنت عميس وهي تحته، كأنّ أبا بكر مخضّبٌ بالحِناء رأسَه ولحيته، وعليه ثيابٌ بيض. فجاءت إلى عائشة فأخبرتها فقالت: إنْ صدقت رؤياك فقد قُتل أبو بكر، إنّ خضابه الدّم وإنّ ثيابه أكفانه، ثمّ بكت.

فدخل النّبيّ صلى الله عليه وآله وهي كذلك، فقال: ما أبكاها؟ فقالوا: يا رسول الله، ما أبكاها أحدٌ، ولكنّ أسماء ذكرتْ رؤيا رأتْها لأبي بكر، فأخبرَ النّبيّ صلى الله عليه وآله، فقال: «ليس كما عبَّرت عائشة، ولكن يرجع أبو بكر صالحًا فيلقى أسماء، فتحمل منه بغلام فتسمّيه محمّدًا، يجعله الله غيظًا على الكافرين والمنافقين». قال: فكان كما أخبر صلى الله عليه وآله.

قال إبراهيم: حدّثنا محمّد بن عبد الله، عن المدائنيّ، قال: فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبي سفيان عند قتل محمّد بن أبي بكر وكِنانة بن بِشر: أمّا بعد، فإنّا لقينا محمّد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في جموعٍ مِن أهل مصر، فدعوناهم إلى الكتاب والسّنّة، فعصوا الحقّ فتَهوَّلوا[2] في الضّلال، فجاهدناهم واستنصرَنا الله جلّ وعزّ

١ـ الشّواء، بالكسر والضّمّ: ما شوَى من اللّحم وغيره.

٢ـ المتهوّل: المتحيّر، وفي ب: «فهوّلوا».

عليهم، فضرب الله وجوهَهم وأدبارهم ومنحَنا[1] أكتافهم، فقتل محمّد بن أبي بكر وكنانة بن بشر، والحمد لله ربّ العالمين.

قال إبراهيم: وحدّثني محمّد بن عبد الله، عن المدائنيّ، عن الحارث بن كعب بن عبد الله بن قعين، عن حبيب بن عبد الله، قال: والله إنّي لعند عليٍّ جالسٌ إذ جاءه عبد الله بن معين وكعب بن عبد الله مِن قِبَل محمّد بن أبي بكر يستصرِخانه قبل الوقعة، فقام عليٌّ فنادى في النّاس: الصّلاة جامعةً. فاجتمع النّاس فصعِد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه وذكر رسول الله ﷺ فصلّى عليه.

ثمّ قال: أمّا بعد، فهذا صريخُ[2] محمّد بن أبي بكر وإخوانكم من أهل مصر، قد سار إليهم ابنُ النّابغة عدوّ الله وعدوّ مَن والاه و وليّ مَن عادى الله، فلا يكونَنّ أهلُ الضّلال إلى باطلهم والرّكون إلى سبيل الطّاغوت أشدّ اجتماعًا على باطلهم وضلالتهم منكم على حقّكم. فكأنّكم بهم وقد بدءوكم وإخوانكم بالغَزْو، فاعجِلوا إليهم بالمواساة والنّصر عبادَ الله. إنّ مصر أعظم من الشّام وخيرٌ أهلًا، فلا تُغلَبوا على مصر. فإنّ بقاء مصر في أيديكم عِزٌّ لكم وكبتٌ لعدوّكم، اخرُجوا إلى الجرَعة ـ قال: والجرَعة[3] بين الحيرة والكوفة ـ لنَتَوافى هناك كلّنا غدًا إن شاء الله.

قال: فلمّا كان الغد، خرج يمشي، فنزلها بُكْرةً فأقام بها حتّى انتصف النّهارُ، فلم يوافِه مائة رجلٍ، فرجع. فلمّا كان العشيّ بعث إلى الأشراف فجمعهم، فدخلوا عليه القصر، وهو كئيبٌ حزين، فقال: الحمد لله على ما قضَى من أمرٍ وقدَّر من فعلٍ، وابتلاني بكم أيّها الفرقة الّتي لا تطيع إذا أمرتُها ولا تجيب إذا دعوتُها. لا أبَا لغيركم! ماذا تنتظرون بنصركم والجهاد على حقّكم! الموت خيرٌ من الذّلّ في هذه الدّنيا لغير الحقّ. والله إن جاءني الموت ـ وليأتيَنّي ـ لتجدُنّني لصحبتكم جِدَّ قالٍ.

---

١ ـ ج: «وأثخنا أكتافهم».

٢ ـ الصّريخ هنا: المستغيث.

٣ ـ في الأُصول: «الجزعة»، تصحيف.

أ لا دين يجمعُكم! أ لا حميَّة تغضبكم! أ لا تسمعون بعدوّكم ينتقص بلادَكم ويشنّ الغارة عليكم! أ وليس عجبًا أنّ معاوية يدعو الجُفاة الطَّغام الظّلَمة، فيتّبعونه على غير عطاء ولا معونة ويجيبونه في السّنة المرّة والمرّتين والثّلاث، إلى أيّ وجه شاء. ثمّ أنا أدعوكم ـ وأنتم أُولُوا النُّهى وبقيّة النّاس ـ تختلفون وتفترقون عنّي وتعصونني وتخالفون عليّ!

فقام إليه مالك بن كعب الأرحبيّ فقال: يا أمير المؤمنين، اندُبْ النّاس معي، فإنّه لا عِطْر بعد عَروس[1]، وإنّ الأجْر لا يأتي إلّا بالكُرْه. ثمّ التفت إلى النّاس وقال: اتّقوا الله وأجيبوا دعوة إمامكم وانصروا دعوته وقاتلوا عدوّكم، إنّا نَسير إليهم يا أمير المؤمنين.

فأمر عليٌّ سعدًا مولاه أن ينادِي: ألا سيرُوا مع مالك بن كعب إلى مصر. وكان وجهًا مكروهًا، فلم يجتمعوا إليه شهرًا. فلمّا اجتمع له منهم ما اجتمع، خرج بهم مالك بن كعب، فعسكَر بظاهر الكوفة وخرج معه عليٌّ، فنظر فإذا جميع مَن خرج نحوٌ من ألفيْن، فقال عليٌّ: سيرُوا، والله ما أنتم! ما إخالُكم تُدرِكون القوم حتّى ينقضي أمرهم.

فخرج مالكٌ بهم وسار خمس ليال، وقَدِم الحَجّاج بن غُزيّة الأنصاريّ على عليّ، وقَدِم عليه عبد الرّحمن بن المسيّب الفزاريّ من الشّام؛ فأمّا الفزاريّ فكان عينًا لعليّ عليه السلام لا ينام، وأمّا الأنصاريّ فكان مع محمّد بن أبي بكر.

فحدّثه الأنصاريّ بما عاين وشاهد، وأخبره بهلاك محمّد. وأخبره الفزاريّ أنّه لم يخرج من الشّام حتّى قُدمت البُشرى من قِبَل عمرو بن العاص، يَتْبع بعضُها بعضًا بفتح مصر وقتل محمّد بن أبي بكر وحتّى أذّن معاوية بقتله على المنْبر. وقال: يا أمير المؤمنين، ما رأيت يومًا قطُّ سرورًا مثل سرورٍ رأيتُه بالشّام حين أتاهم قتلُ محمّد بن أبي بكر. فقال عليٌّ: أمَا إنّ حزننا على قتله، على قدر سرورهم به، لا بل يزيدُ أضعافًا.

١ـ «لا عِطرَ بعد عروس» مثلٌ يُضرب في ذمّ ادّخار الشّيء وقت الحاجة.

قال: فسرّح عليٌّ عبد الرّحمن بن شريح إلى مالك بن كعب، فردّه[1] من الطّريق. قال: وحَزِن عليٌّ على محمّد بن أبي بكر حتّى رُئِي ذلك فيه وتَبيّن في وجهه. وقام في النّاس خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: ألَا وإنّ مصر قد افتتحها الفَجَرة أولياءُ الجَوْر والظّلم، الّذين صَدّوا عن سبيل الله وبغوْا الإسلام عِوَجًا. ألا وإنّ محمّد بن أبي بكر قد استُشهد رحمة الله عليه، وعند الله نحتسبه.

أما والله لقد كان ما علمتُ ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويُبغِض شَكْلَ الفاجر ويُحِبُّ سَمْتَ المؤمن. إنّي والله لا ألومُ نفسي على تقصير ولا عجز، وإنّي بمقاساة الحرب لجِدُّ بَصير، إنّي لأقدِم على الحرب وأعرِف وجْه الحزم وأقوم بالرّأي المصيب، فأستصرِخكم مُعلنًا وأُناديكم مستغيثًا، فلا تسمعون لي قولًا ولا تُطيعون لي أمرًا، حتّى تصيرَ الأُمور إلى عواقب المساءة.

وأنتم القوم لا يدرَك بكم الثَّأرُ ولا تنقضُ بكم الأوتار، دعوتُكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة، فجَرجَرتُم[2] عليّ جَرْجرة الجمل الأسرّ[3] وتثاقلتم إلى الأرض تثاقُلَ مَن لا نيّة له في الجهاد ولا رأيَ له في الاكتساب للأجر، ثمّ خرج إليّ منكم جنيْدٌ متذائبٌ ضعيفٌ، كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. فأُفٍّ لكم! ثمّ نزل فدخل رَحْله.

قال إبراهيم: فحدّثنا محمّد بن عبد الله، عن المدائنيّ، قال: كتب عليٌّ إلى عبد الله ابن عبّاس وهو على البصرة: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى عبد الله ابن عباس: سلامٌ عليك ورحمة الله وبركاته. أمّا بعد، فإنّ مصر قد افتُتحت وقد استُشهد محمّد بن أبي بكر، فعند الله عزّ وجلّ نحتسبه. وقد كنت كتبتُ إلى النّاس وتقدّمتُ إليهم في بدء الأمر وأمرتُهم بإغاثته قبل الوقعة ودعوتُهم سرًّا وجهرًا وعوْدًا

١ـ ب: «فطرده».

٢ـ ب: «خرجتم»، صوابه في ج.

٣ـ الجمل الأسَرّ: السَّرَر: وجعٌ يأخذ البعير في كِركِرته.

وبدءًا؛ فمنهم الآتي كارهًا، ومنهم المتعلّل كاذبًا، ومنهم القاعد خاذلًا. أسأل الله أن يجعل لي منهم فَرَجًا وأن يريحني منهم عاجلًا.

فو الله لولا طمعي عند لقاء عدوّي في الشّهادة وتوطيني نفسي عند ذلك، لأحببتُ ألّا أبقى مع هؤلاء يومًا واحدًا. عزَم الله لنا ولك على تقواه وهُداه، إنّه على كلّ شيء قدير. والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال: فكتب إليه عبد الله بن عبّاس: لعبد الله عليّ أمير المؤمنين من عبد الله ابن عبّاس. سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. أمّا بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه افتتاحَ مصر وهلاكَ محمّد بن أبي بكر، وأتّك سألتَ الله ربّك أن يجعلَ لك من رعيّتك الّتي ابتُلِيت بها فرجًا ومخرجًا، وأنا أسأل الله أن يُعلِي كلمتك وأن يغشّيك بالملائكة عاجلًا.

واعلمْ أنّ الله صانعٌ لك ومعزٌّ دعوتك وكابتٌ عدوّك. وأُخبِرُك يا أمير المؤمنين، أنّ النّاس ربّما تباطئوا ثمّ نشطوا فارفقْ بهم يا أمير المؤمنين ودارِهم ومَنِّهم واستعنْ بالله عليهم. كفاك الله الهمّ! والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: ورُوي عن المدائنيّ أنّ عبد الله بن عبّاس قَدِم من البصرة على عليّ فعزّاه عن محمّد بن أبي بكر. وروى المدائنيّ أنّ عليًّا قال: رَحِم الله محمّدًا، كان غلامًا حَدَثًا، لقد كنتُ أردت أن أُوَلِّي المِرْقالَ[1] هاشمَ بن عُتبة مصر، فإنّه والله لو وليها لَما خلّى لابن العاص وأعوانه العَرْصة، ولا قُتل إلّا وسيفه في يده، بلا ذَمٍّ لمحمّد، فلقد أجهدَ نفسه فقضَى ما عليه.

قال المدائنيّ: وقيل لعليّ عليه السلام: لقد جزعتَ على محمّد بن أبي بكر يا أمير المؤمنين! فقال: وما يمنعني! إنّه كان لي ربيبًا وكان لبَنيّ أخًا، وكنت له والدًا، أعدُّه ولدًا.

(٦: ٦٥ـ٩٤)

١ـ الإرقال: ضربٌ من العدْو. يقال: أرقلت النّاقة فهي مرقلٌ ومرقالٌ. قال في اللّسان: «والمرقال: لقب هاشم بن عُتبة الزّهريّ؛ لأنّ عليًّا عليه السلام دفع إليه الراية يوم صفّين، فكان يُرقل بها إرقالاً».

(كتابه: ٢٧) ومن عهدٍ له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر رضي الله عنه حين قلّده مصر:

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، حَتَّى لا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ، وَلا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ. فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ.

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ، أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ؛ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَدًا فِي آخِرَتِهِمْ، لا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ.

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَخَطْبٍ جَلِيلٍ؛ بِخَيْرٍ لا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَدًا، أَوْ شَرٍّ لا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَدًا، فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا! وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ؛ إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ. الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ، وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ.

فَاحْذَرُوا نَارًا قَعْرُهَا بَعِيدٌ وَحَرُّهَا شَدِيدٌ وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ؛ دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ، وَلا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ. وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنًّا بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفًا لله.

وَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ بْنَ أَبِي بَكْرٍ أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلا تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفًا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ.

صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ.

الشّرح: آسِ بينهم: اجعَلْهم أُسوةً لا تفضِّل بعضهم على بعض في اللّحظة والنّظرة، ونبّهْ بذلك على وجوب أن يَجعلهم أُسوةً في جميع ما عدا ذلك، من العطاء والإنعام والتّقريب، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[1] ... .

قوله : «فإن يعذِّبْ فأنتم أظلم» أفعل هاهنا بمعنى الصّفة لا بمعنى التّفضيل، وإنّما يراد فأنتم الظّالمون، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[2] وكقولهم: الله أكبر.

ثمّ ذكر حال الزّهّاد فقال: أخذوا مِن الدّنيا بنصيبٍ قويّ، وجعلت لهم الآخرة. ويُروى أنّ الفُضَيل بن عِياض كان هو ورفيقٌ له في بعض الصّحاري، فأَكَلا كسرةً يابسةً واغترفا بأيديهما ماءً من بعض الغُدْران، وقام الفُضيل فحطّ رجليْه في الماء فوجد بَرْده فالتذّ به وبالحال الّتي هو فيها، فقال لرفيقه: لو علم الملوكُ وأبناءُ الملوك ما نحن فيه من العيش واللّذّة لحسَدونا... .

قوله: «جيرانُ الله غدًا في آخرتهم»، ظاهر اللّفظ غير مرادٍ، لأنّ البارئ تعالى ليس في مكانٍ وجهةٍ ليكونوا جيرانه، ولكن لمّا كان الجار يُكرِم جاره سمّاهم جيران الله لإكرامه إيّاهم، وأيضًا فإنّ الجنّة إذا كانت في السّماء والعرش هو السّماء العليا، كان في الكلام محذوفٌ مقدّر، أي جيرانُ عرش الله غدًا.

قوله: «فإنّه يأتي بأمرٍ عظيمٍ وخطبٍ جليلٍ، بخيْرٍ لا يكون معه شرٌّ أبدًا وشرٍّ لا يكون معه خيرٌ أبدًا»، نصٌّ صريح في مذهب أصحابنا في الوعيد، وأنّ مَن دخل النّار مِن جميع المكلّفين فليس بخارج، لأنّه لو خرج منها لكان الموتُ قد جاءه بشرٍّ معه خيرٌ، وقد نَفى نفيًا عامًّا أن يكون مع الشّرّ المعقّب للموت خيرٌ ألبتّة ... .

١ـ الإسراء/ ٢٣.

٢ـ الرّوم/ ٢٧.

ثمّ أمره عليه السلام بأن يَجمع بين حُسن الظّن بالله وبين الخوف منه، وهذا مقامٌ جليل لا يصل إليه إلّا كلُّ ضامرٍ مهزول، وقد تقدّم كلامنا فيه. وقال عليّ بن الحسين عليه السلام: لو أنزل الله عزّوجلّ كتابًا أنّه معذِّبٌ رجلًا واحدًا لَرجوتُ أن أكونه، وأنّه راحمٌ رجلًا واحدًا لرجوت أن أكونه، أو أنّه معذِّبي لا محالة ما ازددتُ إلّا اجتهادًا لئلّا أرجع إلى نفسي بلائمةٍ ... .

قوله: «ولو لم يكن إلّا ساعة من الدّهر»، المراد تأكيد الوصاة عليه أن يخالِف على نفسه وألّا يَتّبع هَواها وأن يُخاصِم عن دِينه، وأنّ ذلك لازمٌ له و واجبٌ عليه، ويلزم أن يفعله دائمًا فإن لم يستطع فليَفعلْه ولو ساعةً من النّهار.

وينبغي أن يكون هذا التّقييد مصروفًا إلى المنافحة عن الدِّين، لأنّ الخصام في الدّين قد يَمنعه عند مانع، فأمّا أمرُه إيّاه أن يخالف على نفسه فلا يجوز صرفُ التّقييد إليه، لأنّه يُشعِر بأنّه مفسوحٌ له أن يتّبع هَوى نفسه في بعض الحالات، وذلك غيرُ جائز، بخلاف المخاصمة والنِّضال عن المعتقَد.

قال: «ولا تُسخِط اللهَ برضَا أحدٍ مِن خلقه، فإنّ في الله خَلَفًا مِن غيره، وليس من الله خلفٌ في غيره». أخذه الحسن البصريّ فقال لعمر بن هُبَيرة أمير العراق: إنّ الله مانِعُك من يزيدَ، ولم يَمنعْك يزيدُ من الله ـ يعني يزيدَ بن عبد الملك.

ثمّ أمَره بأن يصلّي الصّلاة لوقتها، أي في وقتها، ونهاه أن يَحمِله الفراغ مِن الشّغل على أن يعجّلها قبل وقتها، فإنّها تكون غيرَ مقبولة، أو أن يحمله الشّغل على تأخيرها عن وقتها فيأثم[1].

ومن كلام هشام بن عُقبة أخي ذي الرُّمّة ـ وكان من عقلاء الرّجال ـ قال المبرّد في الكامل: حدّثني العبّاس بن الفَرَج الرِّياشيّ بإسناده، قال هشام لرجل أراد سفرًا: اعلمْ أنّ لكلّ رُفْقةٍ كَلْبًا يَشرَكهم في فضل الزّاد ويَهرّ دونَهم، فإن قدرتَ ألّا تكون كلبَ

---

١ ـ الكامل: «بإسناد له».

الرِّفْقة فافعلْ. وإيّاك وتأخيرَ الصّلاة عن وقتها، فإنّك مُصَلّيها لا محالة، فصَلِّها وهي تُقبَل منك[١].

قوله: «واعلمْ أنّ كلّ شيء مِن عملك تَبَعٌ لصلاتك»، فيه شَبَهٌ من قول رسول الله ﷺ: «الصّلاة عِماد الإيمان، ومَن تركها فقد هدَم الإيمان». وقال ﷺ: «أوّل ما يُحاسَب به العبدُ صلاته، فإن سُهّل عليه كان ما بعده أسهَل، وإن اشتدّ عليه كان ما بعده أشدّ».

ومثل قوله: «ولا تُسخِط اللهَ برضا أحدٍ مِن خلقه» ما رواه المبرّد في «الكامل» عن عائشة قالت: مَن أَرضَى اللهَ بإسخاط النّاس كفاه الله ما بينه وبين النّاس، ومَن أرضَى النّاس بإسخاط الله وَكَله الله إلى النّاس.

ومثل هذا ما رواه المبرّد أيضًا قال: لمّا وُلِّي الحسن بن زيد بن الحسن المدينة قال لابن هَرْمة: إنّي لستُ كمَن باعَ لك دينَه رجاءَ مدحِك أو خوفَ ذَمّك، فقد رزقني[٢] الله عزّوجلّ بولادة نبيّه ﷺ المَمادِح وجنّبني المَقابح، وإنّ من حقّه عليَّ ألّا أُغضِيَ على تقصير في حقّ الله. وأنا أُقسم بالله لئن أتيتُ بك سكرانَ لأضربنّك حدًّا للخمر وحدًّا للسُّكر، ولأزيدنّ لموضع حُرْمتك بي، فليكن تركُك لها لله عزّوجلّ تُعَنْ[٣] عليه، ولا تدعها للنّاس فتُوكَل إليهم. فقال ابن هَرمة[٤]:

نهاني ابنُ الرَّسولِ عن المُدام ... وأدّبني بآدابِ الكرام

وقال ليَ اصطبِرْ عنها ودَعْها ... لخوفِ اللهِ لا خوفِ الأنام

وكيف تَصبُّري عنها وحُبّي ... لها حُبٌّ تَمَكَّن في عِظامِي!

١ـ الكامل ١: ٢٦٢.

٢ـ الكامل: «قد أفادني الله بولادة نبيّه المُمادِح».

٣ـ كذا في ا والكامل، وفي ب: «تعز».

٤ـ الكامل: «فنهض ابن هرمة وهو يقول».

أَرَى طِيبَ الحلال عليَّ خُبْثًا وطِيبَ النّفس في خُبث الحرام[1]

(١٥: ١٦٣ـ ١٦٩)

(كتابه: ٣٤) ومن كتاب له عليه السلام إلى محمّد بن أبي بكر، لمّا بلَغه تَوجُّده مِن عزله بالأشتر عن مصر، ثمّ تُوُفّي الأشتر في تَوجُّهه إلى هناك قبل وصوله إليها:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذلِكَ اسْتِبْطَاءً لَكَ فِي الجَهْدِ وَلَا ازْدِيادًا لَكَ فِي الْجِدِّ، وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ، لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلَايَةً.

إِنَّ الرَّجُلَ الّذي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيدًا نَاقِمًا، فَرَحِمَهُ اللهُ! فَلَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ وَلَاقَى حِمَامَهُ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضونَ، أَوْلَاهُ اللهُ رِضْوَانَهُ وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ!

فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ، وَامْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ، وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرْ الِاسْتِعَانَةَ بِاللهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِنْكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

... ثمّ طيّب عليه السلام نفسه بأن قال له: لو تمّ الأمر الّذي شرعت فيه من ولاية الأشتر مصر لعوّضتُك بما هو أخفّ عليك مؤونةً وثقلًا، وأقلّ نصبًا من ولاية مصر، لأنّه كان في مصر بإزاء معاوية من الشّام وهو مدفوعٌ إلى حربه. ثمّ أكّد عليه السلام ترغيبه بقوله: «وأعجَبُ اليك ولايةً».

فإن قلت: ما الّذي بيده ممّا هو أخفّ على محمّد مؤونةً وأعجب إليه من ولاية مصر؟

قلت: ملْك الإسلام كلّه كان بيد عليّ عليه السلام إلّا الشّام، فيجوز أن يكون قد كان في عزمه أن يولّيه اليمن أو خراسان أو أرمينيّة أو فارس.

ثمّ أخذ في الثّناء علي الأشتر وكان عليّ عليه السلام شديد الاعتضاد به، كما كان هو شديد التّحقّق بولايته وطاعته.

١ـ الكامل ١: ٢٤٢ـ ٢٤٣.

وناقمًا، مِن نقمت على فلان كذا، إذا أنكرته عليه وكرهته منه. ثمّ دعا له بالرّضوان؛ ولستُ أشكّ بأنّ الأشتر بهذه الدّعوة يغفر الله له ويكفّر ذنوبه ويُدخِله الجنّة، ولا فرق عندي بينها وبين دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويا طُوبى لمَن حصل له مِن عليّ عليه السلام بعض هذا!

قوله: «وأَصْحِر لعدوّك»، أي أبرِزْ له ولا تستتر عنه بالمدينة الّتي أنت فيها. أصحَر الأسدُ مِن خِيسه، إذا خرج إلى الصّحراء. وشمّر فلانٌ للحرب، إذا أخذ لها أُهبتَها.

(١٦: ١٤٤)

[خطبة عليّ عليه السلام بعد مقتل محمّد بن أبي بكر]

وروى إبراهيم، عن رجاله، عن عبد الرّحمن بن جندب، عن أبيه، قال: خطب عليّ عليه السلام بعد فتح مصر وقتْل محمّد بن أبي بكر، فقال:

أمّا بعد، فإنّ الله بعَث محمّدًا نذيرًا للعالمين وأمينًا على التّنزيل وشهيدًا على هذه الأُمّة. وأنتم معاشرَ العرب يومئذٍ على شرّ دِينٍ وفي شرّ دارٍ، مُنيخُون عَلَى حجارةٍ خُشُنٍ وحيّاتٍ صُمٍّ وشَوْكٍ مَبثُوثٍ في البلاد. تَشرَبون الماءَ الخَبيثَ وتأكلون الطّعامَ الخبيثَ، تَسفِكُون دِماءَكم وتَقتُلون أَولادَكم وتُقطِّعون أَرحامَكم وتَأكلُون أموالَكم بَينَكم بالبَاطِل. سُبُلُكم خائفةٌ، والأصنَامُ فيكم مَنْصُوبةٌ، ولا يؤمِنُ أكثرُهم بالله إلّا وهمْ مُشْرِكون.

فمَنَّ اللهُ عزّوجلّ عَلَيكم بمحمّدٍ، فبَعَثَه إلَيْكُمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، فَعَلَّمَكُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ والْفَرَائِضَ وَالسُّنَنَ، وأمرَكُمْ بِصِلةِ أرحامِكُمْ وَحَقْنِ دِمَائِكُمْ وصَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وأنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أهْلِها، وأنْ تُوفُوا بالْعَهْدِ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وأنْ تَعَاطَفُوا وتَبارّوا وتَرَاحَمُوا. ونَهَاكُمْ عنِ التَّنَاهُب والتَّظَالُم وَالتَّحَاسُد والتّبَاغِي والتَّقاذُف، وعن شُرْب الخمرِ وبَخْس الْمِكْيَالِ وَنَقْص المِيزانِ.

وتَقَدَّمَ إليكم فيما يُتْلَى عليكم ألّا تَزْنُوا ولا تُرْبُوا ولا تَأْكُلُوا أمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا، وأنْ تُؤَدُّوا الأمَانَاتِ إلَى أهْلِهَا، وَلا تَعْثَوْا في الأَرْض مُفْسِدِينَ، وَلا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ

لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وكُلُّ خيرٍ يُدْنِي إلى الجَنّةِ ويُبَاعِدُ عَنِ النّارِ أَمَرَكُمْ بهِ، وَكُلُّ شَرٍّ يُدْنِي إلى النَّارِ وَيُبَاعِدُ عنِ الْجَنّةِ نَهَاكُم عنه.

فلمّا استكْمَلَ مُدَّته، تَوَفّاهُ الله إلَيْه سَعِيدًا حَمِيدًا. فيَا لَهَا مُصِيبةً خَصَّتْ الأَقْرِبِينَ وَعَمَّتْ المسْلِمينَ! ما أُصِيبُوا قبلَها بمثلِها، ولَنْ يُعابِنُوا بعدَها أُختَها. فلمّا مَضَى لسبيله ﷺ تَنازَعَ المُسلِمون الأمْرَ بَعْدَهُ، فوالله ما كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي ولاَ يَخْطُرُ عَلَى بَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تَعْدِلُ هَذَا الأمرَ بَعْدَ محمّدٍ عن أهلِ بَيْتِهِ، ولا أَنَّهُم مُنَحُّوهُ عَنّي مِن بَعدِه.

فَمَا رَاعَنِي إلّا انْثِيَالُ النّاسِ عَلَى أبي بكرٍ وإجْفَالُهُم[1] إليْهِ لِيُبَايِعُوهُ، فأمْسَكْتُ يَدِي، ورَأيتُ أنّي أحَقُّ بمَقَامِ محمّدٍ صَلَّى الله عليه في النّاس مِمَّن تَوَلّى الأمرَ مِن بَعْدِهِ، فلبثْتُ بذَاكَ ما شَاءَ اللهُ. حَتَّى رَأيتُ راجِعةً مِن النّاسِ رَجَعَتْ عن الإسلامِ يَدْعُونَ إلى مَحْقِ دين اللهِ ومِلّةِ محمّد صَلَّى الله عليه، فخَشِيتُ إنْ لم أَنْصُرْ الإسلامَ وأَهْلَهُ أنْ أرَى فيه ثَلْمًا وهَدْمًا يكونُ المُصَابُ بهِمَا عَلَيَّ أعْظَم مِن فَوَاتِ وِلاَيَةِ أُمورِكُمْ، الّتي إنَّما هي مَتَاعُ أَيّامٍ قَلائِلَ، ثمّ يَزُولُ ما كانَ منها كما يَزُولُ السَّرَابُ وكما يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ. فَمَشَيْتُ عند ذلك إلى أبي بكرٍ فبايعتُهُ، ونَهَضْتُ في تلك الأحْداثِ حتّى زَاغَ الباطلُ وزَهَقَ وكانتْ كلمةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، ولَوْ كَرِهَ الكافرونَ.

فتَوَلَّى أبو بكرٍ تلك الأُمورَ، فيَسَّرَ وسَدَّدَ وقَارَبَ واقْتَصَدَ، وصَحِبْتُه مُنَاصِحًا، وأَطَعْتُه فيما أطاعَ اللهَ فيه جَاهِدًا، ومَا طَمِعْتُ ـ أنْ لَوْ حَدَثَ به حَادِثٌ وأنَا حَيٌّ أنْ يُرَدّ إلَيَّ الأمرُ الّذي نَازَعْتُه فيه ـ طَمَعَ مُسْتَيْقِنٍ، ولا يَئِسْتُ مِنْه يَأسَ مَنْ لا يَرْجُوهُ. ولولا خَاصَّةُ ما كان بَيْنَه وبَيْنَ عُمَرَ، لَظَنَنْتُ أنّه لا يَدْفَعُهَا عَنّي. فلَمَّا احْتُضِرَ بَعَثَ إلى عُمَرَ فوَلّاه فسَمِعْنَا وأَطَعْنَا ونَاصَحْنَا.

١ـ أجفَل النّاس وانجَفلوا، أي ذهَبوا مُسرِعين.

وتَوَلّى عُمَر الأمرَ، فكان مَرْضِيَّ السِّيرةِ مَيمُونَ النَّقِيبةِ[1]، حتّى إذا احْتُضِر قلتُ في نفسي: لنْ يَعْدِلَها عَنّي ليس يُدافِعُها عَنّي[2]، فجَعَلَني سادِسَ سِتّة. فما كانوا لولايةِ أحَدٍ منهم أشدَّ كَراهةً لولايتي عليهم؛ كانوا يَسْمَعونَ عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله لَجَاج أبي بكر، وأقول: يا معشرَ قريش، إنّا أهلَ البيت أحقُّ بهذا الأمر منكم ما كان فينا مَن يَقرأ القرآنَ ويَعرِف السُّنّةَ ويَدينُ بدِين الحقّ.

فخَشِي القومُ إنْ أنا وَليتُ عليهم ألّا يكونَ لهم مِن الأمرِ نصيبٌ ما بَقُوا، فأجمَعوا إجْمَاعًا واحدًا، فصَرَفُوا الولاية إلى عثمان وأخرَجوني منها رَجاءَ أنْ يَنالُوها ويَتداوَلُوها إذ يَئِسوا أن يَنالُوا بها مِن قِبَلي. ثمّ قالوا: هُلمَّ فَبايِعْ وإلّا جاهَدْناك، فبايعتُ مستكرَهًا وصبرتُ محتَسِبًا.

فقال قائلُهم: يا بن أبي طالب، إنّك علَى هذا الأمر لَحَريصٌ، فقلتُ: أنتم أحرصُ منّي وأبعد. أيُّنا أحرَصُ؟ أنا الّذي طَلبتُ ميراثي وحقّي الّذي جعَلني الله ورسوله أوْلَى به، أم أنتم إذْ تضرِبُونَ وَجْهي دُونه وتَحولون بيني وبينه! فبُهِتُوا، والله لا يَهدي القومَ الظّالمين.

اللّهمّ إنّي أستعديك على قريش فإنّهم قطَعوا رَحِمي وأضَاعوا إيّاي وصغَّروا عظيمَ منزلتي وأجمَعوا علَى منازعتي حقًّا كنتُ أوْلَى به منهم، فسلَبونيه ثمّ قالوا: ألَا إنّ في الحقّ أن تأخذَه، وفي الحقّ أن تمنعَه؛ فاصبرْ كَمَدًا أو مُتْ أسِفًا حَنِقًا.

فنظَرتُ فإذَا ليس معي رافِدٌ ولا ذابٌّ ولا ناصرٌ ولا ساعِدٌ إلّا أهلُ بيتي، فضَنَنْتُ بهم عن المنيّة وأغضيتُ على القَذَى وتجرّعتُ ريقي على الشَّجَى وصبرتُ مِن كَظْمِ الغيظ علَى أمرَّ مِن العَلقَم وآلَمَ للقلبِ مِن حَزِّ الشَّفَار.

---

(١) هذا مخالِف لِما نقَل عنه عليه السلام في الخطبة الشِّقْشِقيّة: «فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا وَالِاعْتِذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ؛ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ. فَمُنِيَ النَّاس لَعَمْرُاللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ، فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ ...».

٢ ـ ب: «ليس بدافِعي عنها».

حتّى إذا نَقِمتم على عثمان، أتيتموه فقتلتموه، ثمّ جئتموني لتُبايِعوني، فأبَيْتُ عليكم وأمسكتُ يدي، فنازَعتموني ودافعتموني، وبسَطتم يدي فكففتُها، ومدَدتموها فقبَضتُها، وازدَحمتم عليَّ حتّى ظننتُ أنّ بعضَكم قاتلُ بعضِكم أو أنّكم قاتِلي، فقلتم: بايِعْنا لا نجدُ غيرَك ولا نَرضَى إلّا بك، بايِعْنا لا نَفترِق ولا تَختلِف كلمتُنا. فبايَعتُكم ودعوتُ النّاس إلى بيعتي، فمَن بايَع طوعًا قَبِلتُه ومَن أبَى لم أُكْرِهْهُ وتركتُه.

فبايَعني فيمن بايَعني طلحةُ والزّبير، ولو أبَيَا ما أكرَهْتُهما كما لم أُكْرِهْ غيرَهما فما لَبِثَا إلّا يسيرًا حتّى بلَغني أنّهما خَرَجَا مِن مكّة متوجّهَيْن إلى البصرة في جيشٍ ما منهم رجلٌ إلّا قد أعطاني الطّاعةَ وسَمَحَ لي بالبيعة. فقَدِمَا على عامِلي وخُزّانِ بيت مالي وعلى أهل مِصري الّذين كُلُّهم على بيعتي وفي طاعتي، فشتّتوا كلمتَهم وأفسَدوا جماعتَهم.

ثمّ وثَبوا على شيعتي مِن المسلمين فقتَلوا طائفةً منهم غَدْرًا وطائفةً صَبْرًا[1]. ومنهم طائفةٌ غَضِبوا لله و لي، فشهَّروا سيوفَهم وضرَبوا بها حتّى لَقُوا الله عزّ وجلّ صادقِين. فوالله لو لم يُصيبوا منهم إلّا رجلًا واحدًا مُتعمّدين لِقتْله لحَلَّ لي به قتلُ ذلك الجيش بأسْره، فدَعْ ما أنّهم قد قتَلوا مِن المسلمين أكثرَ مِن العِدّة الّتي دخَلوا بها عليهم، وقد أدَالَ الله منهم، فبعدًا للقوم الظّالمين!

ثمّ إنّي نظرتُ في أمر أهل الشّام؛ فإذا أعرابٌ أحزابٌ وأهلُ طمعٍ جفاةٌ طغاةٌ، يجتمعُون مِن كلِّ أوْبٍ، مَن كان ينبغي أن يؤدَّب وأن يُولَّى عليه ويُؤخَذ على يده، ليسوا مِن الأنصار ولا المهاجرين ولا التّابعين بإحسان.

فسِرْتُ إليهم فدعَوتُهم إلى الطّاعة والجماعة، فأبوْا إلّا شقاقًا وفراقًا، ونهَضوا في وجوه المسلمين يَنضَحونهم بالنَّبْل ويَشْجُرونهم[2] بالرِّماح. فهنالك نَهدتُ[1] إليهم بالمسلمين فقاتلتُهم.

١ـ صَبْرًا، أي حبسًا.

٢ـ يَشْجُرونهم بالرّمح: يطعنونهم.

فلمّا عَضّهم السّلاح و وجَدوا أَلَم الجَراح، رفعوا المصاحف يَدعونكم إلى ما فيها، فأنبأتُكم أنّهم ليسوا بأهل دينٍ ولا قرآنٍ وأنّهم رفَعوها مكيدةً وخديعةً و وهْنًا وضعفًا، فامْضُوا علَى حقّكم وقتالكم، فأبيتُم علَيَّ وقلتم: اقبَلْ منهم، فإنْ أجابوا إلى ما في الكتاب جامَعونا على ما نحن عليه مِن الحقّ، وإنْ أبَوْا كان أعظمَ لحُجّتنا عليهم.

فقبلتُ منهم وكففتُ عنهم إذْ وَنَيْتم وأَبَيْتم. فكان الصُّلح بينكم وبينهم على رجلَيْن يُحييان ما أحيَا القرآن ويُميتان ما أمات القرآن، فاختَلف رأيُهما وتفرّق حكمهما ونبَذَا ما في القرآن وخالَفَا ما في الكتاب، فجنّبهما الله السَّداد ودَلّاهما في الضّلالة.

فانحرفتْ فرقةٌ منّا فتركْناهم ما تركونا، حتّى إذا عثَوْا في الأرض يَقتلون ويُفسِدون، أتيناهم فقلنا: ادْفَعوا إلينا قتَلةَ إخوانِنا، ثمّ كتابُ الله بيننا وبينكم. قالوا: كُلُّنا قتَلهم وكُلُّنا استحلّ دماءَهم، وشَدّتْ علينا خيلُهم ورجالُهم، فصرَعهم الله مصارعَ الظّالمين.

فلمّا كان ذلك مِن شأنهم أمرتُكم أن تَمْضوا مِن فَوْرِكم ذلك إلى عدوّكم، فقلتم: كَلَّتْ سيوفُنا ونَفِدَتْ نبالُنا ونَصَلَتْ أسِنّةُ رماحِنا وعادَ أكثرُها قِصَدًا[٢]، فارجِعْ بنا إلى مصرنا لنستعدّ بأحسنِ عُدّتنا، فإذا رجعتَ زِدْتَ في مُقاتِلتنا عِدَّةَ مَن هلَك منّا وفارَقَنا، فإنّ ذلك أقوى لنا على عدوّنا.

فأقبلتُ بكم حتّى إذا أطلَلْتم على الكوفة، أمرتُكم أن تَنزِلوا بالنُّخَيلة وأن تَلزَموا مُعَسكرَكم وأن تَضُمّوا قَواصيَكم وأن توطِّنوا علَى الجهاد أنفسَكم ولا تُكثِروا زيارةَ أبنائكم ونسائكم، فإنّ أهلَ الحرب المُصابِرُوها وأهلَ التَّشمير فيها الّذين لا يَنقادون مِن سَهَرٍ لِيلِهم ولا ظَمَإِ نهارِهم ولا خَمْصِ بطونِهم ولا نَصَبِ أبدانِهم. فنزلتْ طائفةٌ منكم معي مُعذِرَةً ودخلتْ طائفةٌ منكم المصرَ عاصيةً؛ فلا مَن بَقِي منكم صبَر وثبَت، ولا مَن دخَل المصر عاد ورجَع.

١ـ نهَد للقتال: نهَض.

٢ـ القِصَد جمع قِصْدَة؛ وهي القطعة المتكسرة.

فنظرتُ إلى مُعَسكري وليس فيه خمسون رجلًا. فلمّا رأيتُ ما أتيتم، دخلتُ إليكم فلم أقْدِرْ على أن تَخرُجوا معي إلى يومنا هذا. فما تنتظرون! أ ما تَرَوْن أطرافَكم قد انتُقصتْ، وإلى مصر قد فُتحتْ، وإلى شيعتي بها قد قُتلتْ، وإلى مَسالِحكم تَعْرَى، وإلى بلادكم تُغْزَى! وأنتم ذَوُو عددٍ كثير وشَوْكةٍ وبأسٍ شديد. فما بالُكم! لله أنتم مِن أين تُؤتَون! وما لكم تُؤفَكون! وأنّى تُسحَرون!

ولو أنّكم عزَمتم وأجمَعتم لم تُراموا، إلّا أنّ القوم تَراجَعوا وتَناشَبوا وتَناصَحوا، وأنتم قد وَنيتم وتَغاششتم وافترقتم. ما إن أنتم إن ألمَمتُم عندي على هذا بسُعَداء[1]، فانتَهوا بأجمعكم وأجمِعوا على حقّكم وتَجرَّدوا لحرب عدوّكم، وقد أبدتْ الرَّغْوةُ عن الصَّريح وبيَّن الصّبحُ لِذي عينيْن؛ إنّما تُقاتِلون الطُّلقاء وأبناء الطُّلقاء وأولي الجَفاء ومَن أسلَم كرهًا. وكان لرسول الله صلى الله عليه أنْفَ[2] الإسلام كلّه حربًا؛ أعداء الله والسُّنّة والقرآن، وأهل البِدَع والأحداث، ومَن كان بَوائقُه تُتَّقَى وكان عن الإسلام منحرفًا، أكَلَة الرِّشَا وعَبَدة الدّنيا.

لقد أُنهِيَ إليَّ أنّ ابنَ النّابغة لم يبايعْ معاويةَ حتّى أعطاه وشرَط له أن يؤتيَه ما هي أعظم ممّا في يده مِن سلطانه. ألا صَفِرتْ يدُ هذا البائع دينَه بالدّنيا وخَزِيتْ أمانة هذا المشتري نَصْرةَ فَاسِقٍ غادِرٍ بأموال المسلمين، وإنّ فيهم مَن قد شَرِب فيكم الخمرَ وجُلِد الحدَّ، يُعرَف بالفساد في الدّين والفعل السّيّئ، وإنّ فيهم مَن لم يُسلِم حتّى رُضِخ له رَضِيخةٌ[3]. فهؤلاء قادة القوم، ومَن تركتُ ذكرَ مَساويه مِن قادتِهم مثلُ مَن ذكرتُ منهم، بل هو شرٌّ.

ويَوَدُّ هؤلاء الّذين ذكرتُ لو وُلُّوا عليكم فأظهَروا فيكم الكفر والفساد والفجور والتّسلُّط بجبريّة، واتّبعوا الهوى وحَكموا بغير الحقّ. ولَأنتم على ما كان فيكم مِن تواكلٍ

١ـ كذا في ب، وهي ساقطة من ا،ج.

٢ـ أنف كلّ شيء: أوّله.

٣ـ الرّضيخة: العطيّة القليلة.

وتخاذلٍ خيرٌ منهم وأهدى سبيلًا؛ فيكم العلماء والفقهاء والنّجباء والحكماء وحملة الكتاب والمتهجّدون بالأسحار وعُمّار المساجد بتلاوة القرآن. أفلا تَسخَطون وتَهتمّون أن يُنازِعكم الولاية عليكم سفهاؤُكم والأشرارُ الأراذلُ منكم!

فاسْمَعوا قولي وأطيعوا أمري. فوالله لَئن أطعتموني لا تَغْوون، وإن عَصيتموني لا تَرشُدون. خُذوا للحرب أُهْبَتَها وأعِدّوا لها عُدَّتها، فقد شُبَّتْ نارُها وعلا سنانها وتجرَّد لكم فيها الفاسقون، كَي يعذِّبوا عبادَ الله ويُطفِئوا نورَ الله.

ألا إنّه ليس أولياء الشّيطان مِن أهل الطّمع والمكر والجفاء بأوْلى في الجِدّ في غَيّهم وضلالتهم، مِن أهل البِرّ والزّهادة والإخبات في حقّهم وطاعة ربّهم. إنّي والله لو لقيتُهم فردًا وهم مِلْأ الأرض، ما باليتُ ولا استوحشتُ، وإنّي من ضلالتهم الّتي هم فيها والهدى الّذي نحن عليه، لعلَى ثقةٍ وبيّنة ويقين وبصيرة، وإنّي إلى لقاء ربّي لَمشتاقٌ ولِحسن ثوابه لَمنتظِرٌ، ولكنّ أسَفًا يَعتريني وحزنًا يُخامِرني، أن يلي أمر هذه الأُمّة سفهاؤها وفجّارها، فيتّخذوا مالَ الله دُوَلًا وعبادَه خَوَلًا والفاسقين حِزْبًا.

وايم الله لولا ذلك لَما أكثرتُ تأنيبَكم وتحريضَكم، ولَتركتُكم إذ وَنَيْتم وأَبَيْتم حتّى ألقاهم بنفسي متى حُمَّ لي لقاؤُهم. فوالله إنّي لعَلَى الحقّ وإنّي لِلشّهادة لَحبٌّ، فانفِروا خفافًا وثقالًا وجاهِدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون. ولا تَثّاقَلوا إلى الأرض فتَقِرّوا بالخسف وتَبُوءوا بالذّلّ ويكنْ نصيبُكم الخسران. [إنّ] أخا الحرب اليقظان، ومَن ضَعُف أوْدَى، ومَن ترَكَ الجهاد كان كالمَغبون المَهين.

اللّهمّ اجمعْنا وإيّاهم على الهدى، وزهِّدْنا وإيّاهم في الدّنيا، واجعَل الآخرة خيرًا لنا ولهم مِن الأُولى. (٦: ٩٤ـ١٠٠)

(كتابه: ٣٥) ومن كتاب له عليه السلام إلى عبدالله بن العبّاس بعد مقتل محمّد بن أبي بكر:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتُتِحَتْ وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رحمه الله قَدِ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَدًا نَاصِحًا وَعَامِلًا كَادِحًا وَسَيْفًا قَاطِعًا وَرُكْنًا دَافِعًا.

وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النّاس عَلَى لَحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا

وَعَوْدًا وَبَدْءًا؛ فَمِنْهُمُ الْآتِي كَارِهًا، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِبًا، وَمِنْهُمُ الْقَاعِدُ خَاذِلًا. أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجًا عَاجِلًا. فَوَاللهِ لَوْلَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ وَتَوْطِينِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ، لأَحْبَبْتُ أَلَّا أَبْقَى مَعَ هؤُلَاءِ يَوْمًا وَاحِدًا، وَلا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَدًا.

الشّرح: انظرْ إلى الفصاحة كيف تُعطِي هذا الرّجلَ قيادَها وتُملّكه زمامَها، واعجبْ لهذه الألفاظ المنصوبة يتلو بعضها بعضًا كيف تواتيه وتطاوعه، سَلِسةٌ سهلةٌ تَتدفّقُ مِن غير تعسّفٍ ولا تكلّفٍ، حتّى انتهى إلى آخر الفصل فقال: «يومًا واحدًا، ولا ألتقي بهم أبدًا»، وأنت وغيرك مِن الفصحاء إذا شرعوا في كتابٍ أو خطبة، جاءت القرائن والفواصل تارةً مرفوعةً وتارةً مجرورةً وتارةً منصوبةً. فإن أرادوا قَسْرها بإعرابٍ واحد ظهر منها في التّكلّف أثرٌ بيّن وعلامةٌ واضحة.

وهذا الصّنف من البيان أحدُ أنواع الإعجاز في القرآن، ذكره عبد القاهر، قال: انظرْ إلى سورة النّساء وبعدها سورة المائدة، الأُولى منصوبة الفواصل والثّانية ليس فيها منصوبٌ أصلًا. ولو مزجتَ إحدى السّورتيْن بالأُخرى لم تمتزجا، وظهر أثر التّركيب والتّأليف بينهما. ثمّ إنّ فواصل كلّ واحد منهما تَنساقُ سياقة بمقتضى البيان الطّبيعيّ لا الصّناعة التّكلّفيّة.

ثم انظرْ إلى الصّفات والموصوفات في هذا الفصل، كيف قال: «ولدًا ناصحًا»، «وعاملًا كادحًا»، «وسيفًا قاطعًا»، «وركنًا دافعًا». لو قال: «ولدًا كادحًا» و «عاملًا ناصحًا» وكذلك ما بعده، لَما كان صوابًا ولا في الموقع واقعًا.

فسبحان الله مَن منَح هذا الرّجلَ هذه المزايا النّفيسةَ والخصائص الشّريفةَ! أن يكون غلامٌ مِن أبناء عرب مكّة، ينشأ بين أهله، لم يخالطْ الحكماء، وخرج أعرف بالحكمة ودقائق العلوم الإلهيّة مِن أفلاطون وأرسطو!

ولم يعاشرْ أرباب الحِكَم الخُلقيّة والآداب النّفسانيّة، لأنّ قريش لم يكن أحدٌ منهم مشهورًا بمثل ذلك. وخرَج أعرفَ بهذا الباب مِن سقراط!

ولم يُرَبّ بين الشّجعان، لأنّ أهل مكّة كانوا ذوي تجارةٍ ولم يكونوا ذوي حربٍ، وخرَج أشجعَ مِن كلّ بشرٍ مشَى على الأرض. قيل لخلف الأحمر: أيّما أشجع عنبسة

وبِسطام أم عليّ بن أبي طالب؟ فقال: إنّما يذكر عنبسة وبسطام مع البشر والنّاس، لا مع مَن يرتفع عن هذه الطّبقة، فقيل له: فعلَى كلّ حالٍ. قال: والله لو صاح في وجوههما لَماتا قبل أن يحمل عليهما.

وخرج أفصحَ مِن سَحْبان وقُسّ، ولم تكن قريش بأفصح العرب، كان غيرها أفصح منها. قالوا: أفصح العرب جُرْهُم وإن لم تكن لهم نَباهة.

وخرج أزهدَ النّاس في الدّنيا وأعفَّهم، مع أنّ قريشًا ذوو حرصٍ ومحبّةٍ للدّنيا. ولا غَرْوَ فيمن كان محمّد صلى الله عليه وآله مربّيه ومخرِجه، والعناية الإلهيّة تمدّه وترفده أن يكون منه ما كان!

يقال: احتَسبَ ولدَه، إذا مات كبيرًا، وافترَطَ ولدَه، إذا مات صغيرًا. قوله: «فمنهم الآتي ...»، قسَّم جندَه أقسامًا؛ فمنهم مَن أجابه وخرَج كارهًا للخروج، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[1]، ومنهم مَن قعَد واعتَلّ بعلّةٍ كاذبة، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[2]، ومنهم مَن تأخَّر وصرَّح بالقعود والخذلان، كما قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3]. والمعنى أنّ حالَه كانت مناسبة لحال النّبيّ صلى الله عليه وآله، ومَن تذكَّر أحوالهما وسيرتهما وما جرى لهما إلى أن قُبِضا، علم تحقيقَ ذلك.

ثمّ أقسم أنّه لولا طمعه في الشّهادة لَما أقام مع أهل العراق ولا صَحِبهم. فإن قلت: فهلّا خرَج إلى معاويه وحده مِن غير جيش إن كان يريد الشّهادة؟ قلت: ذلك لا يجوز، لأنّه إلقاء النّفس إلى التّهلكة، وللشّهادة شروطٌ، متى فقدتْ فلا يجوز أن تحمل إحدى الحالتيْن على الأُخرى. (١٦: ١٤٥ـ ١٤٧)

١ـ الأنفال/ ٦.

٢ـ الأحزاب/ ١٣.

٣ـ التّوبة/ ٨١.

[ومن كتاب له عليه السلام للأشتر النخعيّ]

(كتابه: ٥٣) ومن كتابٍ له عليه السلام كتبه للأشتر النّخعيّ رضي الله عنه لمّا ولّاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمرُ أميرها محمّد بن أبي بكر، وهو أطولُ عهدٍ كتبه وأجمعُه للمحاسن:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ جِبَايَةَ خَرَاجِهَا وَجِهَادَ عَدُوِّهَا وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا. أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ. وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ نَفْسِهِ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ وَيَنْزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ اللهُ.

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ؛ فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ. فَامْلِكْ هَوَاكَ وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ.

الشّرح: نصرة الله باليد: الجهاد بالسّيف، وبالقلب: الاعتقاد للحقّ، وباللّسان: قول الحقّ والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وقد تكفّل الله بنُصرة مَن نصَره، لأنّه تعالى قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[1].

والجَمَحات: منازعه النّفْس إلى شهواتها ومآربها، ونزْعها بكفّها. ثمّ قال له: قد كنتَ تسمع أخبار الولاة، وتعيب قومًا وتمدح قومًا، وسيقول النّاس في إمارتك الآن نحو

١ـ الحجّ/ ٤٠.

ما كنتَ تقول في الأُمراء؛ فاحذرْ أن تعاب وتُذَمّ كما كنت تعيب وتذُمّ مَن يستحقّ الذّمّ.

ثمّ قال: إنّما يُستَدلّ على الصّالحين بما يكثر سماعُه مِن ألسنة النّاس بمدحهم والثّناء عليهم، وكذلك يُستدَلّ على الفاسقين بمثل ذلك. وكان يقال: ألسنة الرّعيّة أقلام الحقّ سبحانه إلى الملوك.

ثمّ أمره أن يشحّ بنفسه، وفسَّر له الشّحّ ما هو؟ فقال: أن تنتصف منها فيما أحبّتْ وكرهتْ، أي لا تمكنها من الاسترسال في الشّهوات، وكنْ أميرًا عليها ومسيطرًا وقامعًا لها من التّهوّر والانهماك.

فإن قلت: هذا معنى قوله: «فيما أحبّتْ»، فما معنى قوله: «وكرهتْ»؟ قلت: لأنّها تكره الصّلاة والصّوم وغيرهما من العبادات الشّرعيّة ومن الواجبات العقليّة، وكما يجب أن يكون الإنسان مهيمنًا عليها في طرف الفعل يجب أن يكون مهيمنًا عليها في طرف التّرك.

الأصل:

وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ والْمَحَبَّةَ لَهُمْ واللُّطْفَ بِهِمْ، ولَاتَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ وتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ ويُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَ الْخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَ صَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ووَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ واللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ، وقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ وابْتَلَاكَ بِهِمْ. ولَاتَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدَيْ لَكَ بِنَقِمَتِهِ ولَاغِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ ورَحْمَتِهِ.

ولَاتَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، ولَاتَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، ولَاتُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ عَنْهَا مَنْدُوحَةً، ولَاتَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ ومَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ وتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ.

وإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ وقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ

طِمَاحِكَ ويَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ ويُفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ.

إِيَّاكَ ومُسَامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ، والتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ!

الشّرح: أشعِرْ قلبَك الرّحمةَ، أي اجعَلْها كالشِّعار له، وهو الثّوب المُلاصق للجسد؛ قال: لأنّ الرّعيّة إمّا أخوك في الدّين أو إنسانٌ مثلك تقتضي رقّة الجنسيّة وطبع البشريّةِ الرّحمةَ له.

قوله: «ويُؤتَى على أيديهم» مثل قولك: «ويؤخَذ على أيديهم»، أي يهذِّبون ويثقِّفون، يقال: خذْ على يد هذا السّفيه، وقد حجَر الحاكم على فلانٍ، وأخذ على يده. ثمّ قال: فنِسبتُهم إليك كنسبتك إلى الله تعالى، وكما تحبّ أن يصفح الله عنك ينبغي أن تصفح أنت عنهم.

قوله: «لا تَنصِبنّ نفسَك لحرب الله»، أي لا تبارزْه بالمعاصي. فإنّه لا يديْ لك بنقمته، اللّام مُقحَمةٌ، والمراد الإضافة، ونحوه قولهم: لا أبَا لك. قوله: «ولا تَقولنَّ إنّي مُؤمَّرٌ»، أي لا تقلْ إنّي أميرٌ ووَالٍ آمُر بالشّيء فأُطاع.

والإدغال: الإفساد. ومَنْهكةٌ للدّين: ضعفٌ وسقمٌ. ثمّ أمره عند حدوث الأُبّهة والعظمة عنده لأجل الرّئاسة والإمْرة، أن يذكر عظمةَ الله تعالى وقدرتَه على إعدامه وإيجاده وإماتته وإحيائه؛ فإنّ تذكُّر ذلك يُطامِنُ مِن غُلَوائه، أي يغضّ مِن تعظّمه وتكبّره، ويطأطئ منه.

والغَرْب: حدّ السّيف، ويستعار للسّطوة والسّرعة في البطْش والفتْك. قوله: «ويُفِيء»، أي يرجع إليك بما بعُد عنك من عقلك، وحرْف المضارعة مضمومٌ لأنّه مِن «أفاء». ومساماة الله تعالى: مباراته في السّموّ وهو العلوّ.

الأصل:

أَنْصِفِ اللهَ وأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ومِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ومَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلْ تَظْلِمْ، ومَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، ومَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وكَانَ للهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ ويَتُوبَ.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وتَعْجِيلِ نَقِمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِينَ، وهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ وأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ وأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَا الْخَاصَّةِ وإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا الْعَامَّةِ.

وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَئُونَةً فِي الرَّخَاءِ وأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ وأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ وأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ وأَقَلَّ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ وأَبْطَأَ عُذْرًا عَنِ الْمَنْعِ وأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ، مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ. وإِنَّمَا عَمُودُ الدِّينِ وجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ والْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ؛ فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ ومَيْلُكَ مَعَهُم.

الشّرح: قال له: أنصِف الله، أي قمْ له بما فرض عليك من العبادة والواجبات العقليّة و السّمعيّة. ثمّ قال: وأنصِف النّاس مِن نفسك ومن ولْدك وخاصّة أهلك ومَن تحبّه وتميل إليه من رعيّتك، فمتى لم تفعلْ ذلك كنتَ ظالمًا. ثمّ نهاه عن الظّلم وأكّد الوصاية عليه في ذلك.

ثمّ عرّفه أنّ قانون الإمارة الاجتهادُ في رضا العامّة؛ فإنّه لا مبالاة بسُخْط خاصّةِ الأمير مع رضا العامّة، فأمّا إذا سخِطَت العامّة لم ينفعه رضا الخاصّة. وذلك مثل أن يكون في البلد عشرةٌ أو عشرون مِن أغنيائه وذوي الثّروة من أهله، يلازمون الوالي ويخدمونه ويسامرونه، وقد صار كالصّديق لهم. فإنّ هؤلاء ومَن ضارَعَهم مِن حواشي الوالي وأرباب الشّفاعات والقُرُبات عنده لا يُغنُون عنه شيئًا عند تنكّر العامّة له، وكذاك لا يضرّ سُخْط هؤلاء إذا رضيت العامّة. وذلك لأنّ هؤلاء عنهم غنًى ولهم بدلٌ، والعامّة لا غنًى عنهم ولا بدلٌ منهم، ولأنّهم إذا شَغَبوا عليه كانوا كالبحر إذا هاج واضطرب فلا يقاومه أحدٌ، وليس الخاصّة كذلك.

ثمّ قال عليه السلام ـ ونِعم ما قال: ليس شيءٌ أقلَّ نفعًا ولا أكثرَ ضررًا على الوالي مِن خواصّه أيّام الولاية، لأنّهم يثقّلون عليه بالحاجات والمسائل والشّفاعات، فإذا عُزل هجَروه ورفَضوه حتّى لو لَقُوه في الطّريق لم يسلّموا عليه.

الأصل:

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ. فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ، يَسْتُرِ اللهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ[1] رَعِيَّتِكَ.

أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضِحُ لَكَ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ.

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ؛ فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ.

الشّرح: أشنأُهم عندك، أبغضُهم اليك. وتَغابَ: تَغافلْ، يقال: تَغابَى فلانٌ عن كذا. ويَضِحُ: يظهر، والماضي وَضَحَ.

[فصل في النّهي عن ذكر عيوب النّاس وما ورد في ذلك من الآثار]

عاب رجلٌ رجلًا عند بعض الأشراف فقال له: لقد استدللتُ على كثرة عيوبك بما تُكثِر فيه من عيوب النّاس، لأنّ طالب العيوب إنّما يطلبها بقدر ما فيه منها. وقال الشّاعر:

وأجــرأُ مَــن رأيــتَ بظهــر غيــبٍ ... عــلى عَيــب الرِّجــال أُولُــو العيــوبِ

وقال آخرُ:

يــا مــن يَعيــب وعيبُــه مُتشــعِّبٌ ... كــم فيــك مِــن عيــبٍ وأنــت تَعيــبُ!

وفي الخبر المرفوع: «دَعُوا النّاس بغَفَلاتهم يعيش بعضُهم مع بعض». وقال الوليد ابن عُتبة بن أبي سفيان: كنتُ أُسايِرُ أبي ورجلٌ معنا يقع في رجلٍ. فالتفت أبي إليّ

١ـ في د: «عن».

فقال: يا بنيّ، نزّهْ سمعَك عن استماع الخَنَا كما تنزّهِ لسانك عن الكلام به، فإنّ المستمعَ شريكُ القائل، إنّما نظَر إلى أخبث ما في وعائه فأفرَغَه في وعائك، ولو ردّتْ كلمة جاهلٍ في فيه لسعد رادّها كما شقِيَ قائلُها.

وقال ابن عباس: الحَدَث حدثان: حدثٌ مِن فيك، وحدثٌ مِن فرجك. وعاب رجلٌ رجلًا عند قُتَيبة بن مسلم، فقال له قتيبة: أمسِكْ ويحك! فقد تلمّظتَ بمُضغةٍ طالما لَفِظها الكرام.

ومرّ رجلٌ بجاريْن له ومعه ريبةٌ، فقال أحدهما لصاحبه: أ فهمتَ ما معه مِن الرّيبة؟ قال: وما معه؟ قال: كذا. قال: عبدي حرٌّ لوجه الله شكرًا له تعالى إذ لم يعرّفني مِن الشّرّ ما عرّفك.

وقال الفُضَيل بن عِياض: إنّ الفاحشه لَتَشيع في كثير من المسلمين حتّى إذا صارت إلى الصالحين كانوا لها خُزّانًا. وقيل لبُزُرجمهر: هل مِن أحدٍ لا عيب فيه؟ فقال: الّذي لا عيبَ فيه لا يموت.

وقال الشّاعر:

ولستُ بذي نَيْرَبٍ في الرّجا ... ل مَنّاعَ خيرٍ وسبّابَها[1]

ولا مَن إذا كان في جانبٍ ... أضاعَ العشيرةَ واغتابَها

ولكن أُطاوعُ ساداتِها ... ولا أتَعلّم ألقابَها

وقال آخرُ:

لا تَلتمس مِن مَساوي النّاس ما سَتَروا ... فيكشف الله سِتْرًا مِن مَساويكَا

واذكرْ محاسنَ ما فيهم إذا ذُكِروا ... ولا تَعِب أحدًا منهم بما فيكَا

وقال آخرُ:

١ـ النَّيرَب: الشّر وحمل العداوة.

ابـدَأْ بنفسـك فانْهَهـا عـن غيّهـا فـإذا انتهـتْ عنـه، فأنـت حَكـيمُ[1]
فهنـاك تُعـذر إنْ وعظـتَ ويُقتـدَى بـالقول منـك ويُقبَـل التّعلـيمُ

فأمّا قوله عليه السلام: «أطلِقْ عن النّاس عُقْدةَ كلّ حِقدٍ»، فقد استوفَى هذا المعنى زيادٌ في خطبته البتْراء فقال: وقد كانت بيني وبين أقوام إحَنٌ[2]، وقد جعلتُ ذلك دَبْر أذُني وتحت قدمي؛ فمَن كان منكم محسنًا فليزددْ إحسانًا، ومَن كان منكم مسيئًا فلينزعْ عن إساءته. إنّي لو علمتُ أنّ أحدكم قد قتله السُّلال[3] مِن بُغْضي، لم أكشفْ عنه قناعًا ولم أهتكْ له سترًا، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل لم أُناظره. ألا فليشملْ كلّ امرئٍ منكم على ما في صدره، ولا يكونَنّ لسانُه شفرةً تجري على وَدَجِه.

[فصل في النّهي عن سماع السّعاية وما ورد في ذلك من الآثار]

فأمّا قوله عليه السلام: «ولا تَعجَلَنّ إلى تصديقِ ساعٍ»، فقد ورد في هذا المعنى كلامٌ حسن. قال ذو الرّياستيْن: قبول السّعاية شرٌّ من السّعاية، لأنّ السّعاية دلالةٌ والقبول إجازةٌ. وليس مَن دلّ على شيءٍ كمَن قَبِله وأجازه، فامْقُت السّاعيَ على سعايته، فإنّه لو كان صادقًا كان لئيمًا إذ هتك العَوْرة وأضاع الحُرْمة.

وعاتب مصعبُ بن الزّبير الأحنفَ على أمرٍ بلغه عنه فأنكره، فقال مصعب: أخبَرني به الثّقة. قال: كلّا أيّها الأمير، إنّ الثّقة لا يبلِّغ. وكان يقال: لو لم يكن مِن عيْب السّاعي إلّا أنّه أصدق ما يكون أضرّ ما يكون على النّاس، لَكان كافيًا.

١ـ لأبي الأسود الدّؤليّ، خزانة الأدب ٣: ٦١٧؛ والرّواية هناك: «عن غيّها».

٢ـ الإحَن: جمع إحنة، وهي العداوة.

٣ـ السُّلال والسّلّ بمعنًى.

كانت الأكاسرة لا تأذن لأحدٍ أن يطبخ السِّكْباج[1]، وكان ذلك ممّا يختصّ به المِلك، فرفع ساعٍ إلى أنوشروان: إنّ فلانًا دعانا ونحن جماعة إلى طعام له وفيه سِكْباج، فوقّع أنو شروان على رَقْعته: قد حمدْنا نصيحتَك وذممْنا صديقَك على سوء اختياره للإخوان.

جاء رجل إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة عبد الملك على دمشق، فقال: أيّها الأمير، إنّ عندي نصيحة. قال: اذكرْها. قال: جارٌ لي رجع مِن بعْثه سرًّا، فقال: أمّا أنت فقد أخبرتَنا أنّك جارُ سوءٍ؛ فإن شئت أرسلنا معك، فإن كنتَ كاذبًا عاقبناك، وإن كنتَ صادقًا مقتناك، وإن تركتَنا تركناك. قال: بل أتركك أيّها الأمير. قال: فانصرف.

ومثل هذا يُحكَى عن عبد الملك أنّ إنسانًا سأله الخلوة، فقال لجلسائه: إذا شئتم! فانصرفوا. فلمّا تهيّأ الرّجل للكلام قال له: اسمعْ ما أقول، إيّاك أن تمدَحَني فأنا أعرَفُ بنفسي منك، أو تَكذِبني فإنّه لا رأي لمكذوبٍ، أو تسعى بأحدٍ إليّ فإنّي لا أُحبّ السّعاية. قال: أ فيأذن أمير المؤمنين بالانصراف! قال: إذا شئت.

وقال بعض الشّعراء:

لَعمْرُك ما سبّ الأميرَ عدوُّهُ ... ولكنّما سبَّ الأميرَ المبلِّغُ

وقال آخر:

حُرمتُ مُنائي منكَ إنْ كان ذا الّذي[2] ... أتاكَ به الواشون عنّي كما قالوا

ولكنّهم لمّا رأوك شريعةً[3] ... إليّ تواصوْا بالنّميمة واحْتالوا

فقد صِرتَ أُذْنًا للوُشاه سميعةً ... ينالون مِن عِرضي ولو شئتَ ما نالوا

وقال عبد الملك بن صالح لجعفر بن يحيى وقد خرج يودّعه لمّا شخَص إلى

١ـ السِّكْباج: مرَقٌ يُعمَل من اللّحم والخلّ، معرَّبٌ.

٢ـ في د: «إن يكن الّذي»، وهو مستقيم الوزن والمعنى أيضًا.

٣ـ الشّريعة: مورد الشّاربة.

خراسان: أيّها الأمير، أُحِبّ أن تكون لي كما قال الشّاعر:

فكوني على الواشين لَدّاءَ شَغْبَةً ... كما أنا للواشي ألَدُّ شَغُوبُ[1]

قال: بل أكون كما قال القائل:

وإذا الواشي وَشَى يومًا بها ... نفع الواشي بما جاء يضُرّ

وقال العبّاس بن الأحنف:

ما حَطّك الواشون من رُتْبةٍ ... عندي ولا ضَرّك مُغتابُ

كأنّهم أثنَوْا ولم يعلموا ... عليكَ عندي بالّذي عابُوا

قوله عليه السلام: «ولا تُدخِلنّ في مشورتك بخيلًا، يَعدِل بك عن الفضل ويَعِدك الفقر» مأخوذٌ من قول الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾[2]. قال المفسّرون: الفحشاء هاهنا البخل، ومعنى «يعدكم الفقر» يخيّل إليكم أنّكم إن سمحتم بأموالكم افتقرتم، فيخوّفكم فتخافون فتبخلون.

قوله عليه السلام: «فإنّ البخل والجبن والحرص غرائزُ شَتّى يجمعها سوء الظّنّ بالله»، كلامٌ شريف عالٍ على كلام الحكماء. يقول: إنّ بينها قدْرًا مشتركًا وإن كانت غرائز وطبائع مختلفة، وذلك القدر المشترك هو سُوء الظّنّ بالله؛ لأنّ الجَبَانَ يقول في نفسه: إنْ أقدمتُ قُتلتُ، والبخيلَ يقول: إن سمحتُ وأنفقتُ افتقرت، والحريصَ يقول: إن لم أجدَّ وأجتهد وأدأب فَاتَني ما أروم، وكلّ هذه الأُمور ترجع إلى سوء الظّنّ بالله. ولو أحسن الظّنّ الإنسان بالله وكان يقينه صادقًا لَعلم أنّ الأجل مقدّر وأنّ الرّزق مقدّر وأنّ الغنى والفقر مقدّران وأنّه لا يكون مِن ذلك إلّا ما قضى الله تعالى كونه.

الأصل:

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ لِلْأَشْرَارِ وَزِيرًا، ومَنْ شَرَكَهُمْ فِي الْآثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ

١ـ اللَّدّاء: الشّديدة الخصومة.

٢ـ البقرة/ ٢٦٨.

بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَئِمَّةِ وإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ. وأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ ونَفَاذِهِمْ، ولَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وأَوْزَارِهِمْ وآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ ولَا آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ، أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَئُونَةً وأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً وأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا وأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفًا.

فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعًا ذَاكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَع.

الشّرح: نهاه عليه السلام ألّا يتّخذ بِطانةً قد كانوا مِن قبلُ بطانةً للظّلَمة، وذلك لأنّ الظّلم وتحسينَه قد صار ملَكةً ثابتة في أنفسهم، فبعيدٌ أن يمكنهم الخلوّ منها، إذ قد صارت كالخُلُق الغريزيّ اللّازم، لتكرارها وصيرورتها عادةً.

فقد جاءت النّصوص في الكتاب والسُّنّة بتحريم معاونة الظّلَمة ومساعَدتهم وتحريم الاستعانة بهم، فإنّ مَن استعان بهم كان معينًا لهم. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1] وقال: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[2]، وجاء في الخبر المرفوع: «يُنادَى يوم القيامة: أين مَن بَرَى[3] لهم ـ أي الظّالمين ـ قَلَمًا».

أُتِي الوليد بن عبد الملك برجلٍ من الخوارج، فقال له: ما تقول في الحجّاج؟ قال: وما عَسَيت أن أقول فيه! هل هو إلّا خطيئةٌ مِن خطاياك وشَرَرٌ مِن نارك؟ فلعنك الله ولعن الحجّاج معك! وأقبل يشتُمهما. فالتفت الوليد إلى عمر بن عبد العزيز فقال: ما تقول في هذا؟ قال: ما أقول فيه! هذا رجلٌ يشتمكم؛ فإمّا أن تشتموه كما شتمكم، وإمّا أن تعفوا عنه. فغضب الوليد وقال لعمر: ما أظنّك إلّا خارجيًّا! فقال عمر: وما أظنّك إلّا مجنونًا، وقام فخرج مغضبًا. ولحقه خالدُ بنُ الرّيّان صاحب شُرْطة الوليد

---

١ ـ الكهف / ٥١.

٢ ـ المجادلة / ٢٢.

٣ ـ ب: «يرى»، تحريفٌ، صوابه في ا، د.

فقال له: ما دعاك إلى ما كلّمتَ به أمير المؤمنين! لقد ضربتُ بيدي إلى قائمِ سيفي أنتظر متى يأمرني بضرب عنقك. قال أ وكنتَ فاعلًا لو أمرك؟ قال: نعم.

فلمّا استخلف عمر جاء خالد بن الرّيّان فوقف على رأسه متقلّدًا سيفه، فنظر إليه وقال: يا خالد، ضَعْ سيفك، فإنّك مطيعنا في كلّ أمرٍ نأمرك به، وكان بين يديْه كاتبٌ للوليد، فقال له: ضعْ أنت قلمك، فإنّك كنت تضرّبه وتنفع، اللّهمّ إنّي قد وضعتُهما فلا ترفعهما. قال: فوالله ما زَالَا وَضيعيْن مَهينيْن حتّى مَاتَا.

وروى الغزّاليّ في كتاب «إحياء علوم الدّين»، قال: لمّا خالط الزّهريّ السّلطان كتب أخٌ له في الدّين إليه: عافانا الله وإيّاك أبا بكر مِن الفتن، فقد أصبحتَ بحالٍ ينبغي لِمَن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك، أصبحتَ شيخًا كبيرًا، وقد اثقلتْك نِعم الله عليك بما فهّمك من كتابه وعلّمك من سُنّة نبيّه، وليس كذلك أخذ الله الميثاقَ على العلماء، فإنّه تعالى قال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[1].

واعلمْ أنّ أيسر ما ارتكبتَ، وأخفّ ما احتملتَ أنّك آنستَ وحشة الظّالم، وسهلتَ سبيل الغيّ، بدُنُوّك إلى مَن لم يؤدّ حقًّا ولم يترك باطلًا حين أدناك. اتّخذوك أبا بكر قطبًا تدور عليه رَحَا ظلمِهم، وجسرًا يعبرون عليه إلى بلائهم ومعاصيهم، وسُلّمًا يصعدون فيه إلى ضلالتهم.

يُدخِلون بك الشّكّ على العلماء، ويقتادون بك قلوبَ الجهلاء، فما أيسر ما عمّروا لك في جنب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا مِن حالك ودينك! وما يؤمّنك أن تكون ممّن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[2].

١ـ آل عمران/ ١٨٧.

٢ـ مريم/ ٥٩.

يا أبا بكر، إنّك تُعامِل مَن لا يجهل، ويحفظ عليك مَن لا يغفل، فداوِ دِينَك فقد دخله سَقَمٌ، وهيّئْ زادَك فقد حضر سفرٌ بعيد ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1]. والسّلام.

الأصل:

والْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ والصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلّا يُطْرُوكَ ولَا يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ وتُدْنِي مِنَ الْغِرَّةِ. ولَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ والْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيدًا لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ وتَدْرِيبًا لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ، وأَلْزِمْ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَه.

الشّرح: قوله: «والْصَقْ بأهل الورع»، كلمةٌ فصيحة، يقول: اجعلْهم خاصّتك وخلصاءك. قال: ثمّ رُضْهم على ألّا يُطْرُوك، أي عوِّدْهم ألّا يمدحوك في وجهك. ولا يُبَجِّحوك بباطل: لا يجعلوك ممّن يَبْجَح أي يفخر بباطل لم يفعله كما يُبجِّح أصحابُ الأُمراءِ الأُمراءَ بأن يقولوا لهم: ما رأينا أعدلَ منكم ولا أسمحَ، ولا حَمَى هذا الثّغرَ أميرٌ أشدّ بأسًا منكم! ونحو ذلك. وقد جاء في الخبر: «أحْثُوا في وجوه المدّاحين التّراب».

وقال عبد الملك لِمَن قام يسارّه: ما تريد! أ تريد أن تَمْدَحني وتَصِفني، أنا أعلم بنفسي منك. وقام خالد بن عبد الله القَسْريّ إلى عمر بن عبد العزيز يوم بيْعته فقال: يا أمير المؤمنين، مَن كانت الخلافة زائِنَتَه فقد زيَّنَتَها، ومَن كانت شرّفته فقد شرّفَتَها، فإنّك لَكَما قال القائل:

وإذا الـدُّرُّ زانَ حُسْـنَ وُجـوهٍ ... كـان للـدّرّ حُسـنُ وجهـك زَيْنًـا

فقال عمر بن عبد العزيز: لقد أُعطِي صاحبُكم هذا مِقْوَلًا وحُرم معقولًا. وأمَره أن يجلس.

ولمّا عقَد معاوية البيعة لابنه يزيد قام النّاس يخطبون، فقال معاوية لعمرو بن سعيد الأشدق: قمْ فاخطبْ يا أبا أُميّة، فقام فقال: أمّا بعد، فإنّ يزيدَ ابنَ

١ـ ابراهيم/ ٣٨.

أمير المؤمنين أملٌ تأمُلونه وأجلٌ تأمَنونه، إن افتَقرتم إلى حِلْمه وَسِعكم، وإن احتَجتم إلى رأيه أرشَدكم، وإن اجتَديتم ذاتَ يده أغناكم وشَمِلكم؛ جِذْعٌ قارحٌ، سُوبِق فسبَق ومُوجِدَ فمُجد وقُورِعَ فقرَع، وهو خلَف أمير المؤمنين، ولا خلَفَ منه. فقال معاوية: أوسعتَ يا أبا أُميّة فاجلسْ، فإنّما أردنا بعض هذا.

وأثنى رجل على عليّ عليه السلام في وجهه ثناءً أوسع فيه ـ وكان عنده متّهمًا ـ فقال له: أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك. وقال ابن عباس لعُتبة بن أبي سفيان وقد أثنى عليه فأكثر: رويدًا فقد أمهيتَ يا أبا الوليد ـ يعني بالغتَ. يقال: أمهَى حافرُ البئر، إذا استقصَى حفرَها.

فأمّا قوله عليه السلام: «ولا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلةٍ سواء»، فقد أخذه الصّابي فقال: «وإذا لم يكن للمحسن ما يرفعه وللمسيء ما يضعه، زَهِد المحسن في الإحسان واستمرّ المسيء على الطّغيان»، وقال أبو الطّيّب:

شرّ البلاد بلادٌ لا صديقَ بها ... وشرّ ما يكسب الإنسان ما يصمُ[1]

وشرّ ما قبضته راحتي قَنَصٌ ... شُهْبُ البُزاة سواءٌ فيه والرَّخَمُ

وكان يقال: قضاء حقّ المحسن أدبٌ للمسيء وعقوبة المسيء جزاءٌ للمحسن.

الأصل:

واعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ وَالٍ بِرَعِيَّتِهِ، مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ وتَخْفِيفِهِ الْمَئُونَاتِ عَنْهُمْ وتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ؛ فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَبًا طَوِيلًا، وإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَه، وإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ.

ولَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ واجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَة وصَلَحَتْ

١ـ ديوانه ٣: ٣٧٣.

عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ. وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا والْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا. وأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ ومُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ وإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَك.

الشّرح: خلاصةُ صدرِ هذا الفصل، أنّ مَن أحسن إليك حسُن ظنّه فيك، ومَن أساء إليك استوحش منك، وذلك لأنّك إذا أحسنتَ إلى إنسان وتكرَّر منك ذلك الإحسان تبع ذلك اعتقادك أنّه قد أحبّك. ثمّ يتبع ذلك الإعتقاد أمرٌ آخر، وهو أنّك تحبّه، لأنّ الإنسان مجبولٌ على أن يحبّ مَن يحبّه، وإذا أحببتَه سكنتَ إليه وحسُن ظنّك فيه.

وبالعكس مِن ذلك إذا أسأتَ إلى زيدٍ، لأنّك إذا أسأتَ إليه وتكرّرتْ الإساءة تبع ذلك اعتقادك أنّه قد أبغضك. ثمّ يتبع ذلك الإعتقاد أمرٌ آخر، وهو أن تُبغِضه أنت، وإذا أبغضتَه انقبضتَ منه واستوحشتَ، وساء ظنّك به.

قال المنصور للرّبيع: سَلْني لنفسك. قال: يا أمير المؤمنين، ملأتَ يدي فلم يبقَ عندي موضعٌ للمسألة. قال: فسلْني لولدك. قال: أسألك أن تحبّه، فقال المنصور: يا ربيع، إنّ الحبّ لا يُسأَل، وإنّما هو أمرٌ تقتضيه الأسباب. قال: يا أمير المؤمنين، وإنّما أسألك أن تزيد مِن إحسانك، فإذا تكرَّر أحبَّك، وإذا أحبَّك أحببتَه. فاستحسن المنصور ذلك.

ثمّ نهاه عن نقض السّنن الصّالحة الّتي قد عمل بها مَن قَبله مِن صالحي الأُمّة، فيكون الوزر عليه بما نقَض والأجر لأُولئك بما أسّسوا. ثمّ أمَره بمطارحة العلماء والحكماء في مصالح عمله، فإنّ المشورة بركةٌ، ومَن استشار فقد أضاف عقلًا إلى عقله.

وممّا جاء في معنى الأوّل: قال رجلٌ لإياس بن معاوية: مَن أحبّ النّاس إليك؟ قال الّذين يُعطوني. قال: ثمّ مَن؟ قال: الّذين أُعطيهم. وقال رجلٌ لهشام بن عبد الملك: إنّ الله جعل العطاء محبّةً والمنع مَبغضةً، فأعِنّي على حبّك ولا تُعِنّي في بغضك.

الأصل:

واعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ، لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، ولَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ؛ فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ، ومِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَ الْخَاصَّةِ، ومِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، ومِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ والرِّفْقِ، ومِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ والْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ومُسْلِمَةِ النَّاسِ، ومِنْهَا التُّجَّارُ وأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، ومِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ والْمَسْكَنَةِ، وكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ لَهُ سَهْمَهُ ووَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا.

فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ اللهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ وزَيْنُ الْوُلَاةِ وعِزُّ الدِّينِ وسُبُلُ الْأَمْنِ، ولَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ. ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، ويَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ، ويَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ.

ثُمَّ لَا قِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ والْعُمَّالِ والْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ، ويَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، ويُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وعَوَامِّهَا.

ولَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بِالتُّجَّارِ وذَوِي الصِّنَاعَاتِ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، ويُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، ويَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مِمَّا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ. ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَ الْمَسْكَنَةِ، الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ ومَعُونَتُهُمْ.

وفِي اللهِ لِكُلِّ سَعَةٌ ولِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ. ولَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالِاهْتِمَامِ والِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ وتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ والصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ.

الشّرح: قالت الحكماء: الإنسان مدنيٌّ بالطّبع. ومعناه أنّه خُلِق خِلقةً لا بدّ معها مِن أن يكون منضمًّا إلى أشخاصٍ مِن بني جنسه، ومتمدّنًا في مكانٍ بعينه. وليس المراد بالمتمدّن ساكنَ المدينة ذات السّور والسّوق، بل لا بدّ أن يُقيم في موضعٍ ما مع قومٍ من البشر.

وذلك لأنّ الإنسان مضطرٌّ إلى ما يأكله ويشربه ليقيمَ صورته، ومضطرٌّ إلى ما يلبسه ليدفعَ عنه أذى الحرّ والبرد، وإلى مسكنٍ يسكُنه ليردّ عنه عاديةَ غيره من الحيوانات وليكونَ منزلًا له ليتمكّنَ من التّصرّف والحركة عليه.

ومعلومٌ أنّ الإنسان وحدَه لا يستقلّ بالأُمور الّتي عددناها، بل لا بدّ من جماعة يحرُث بعضهم لغيره الحرْث، وذلك الغير يَحوك للحرّاث الثّوب، وذلك الحائك يبني له غيره المَسْكن، وذلك البَنّاء يحمل له غيره[1] الماء، وذلك السّقّاء يكفيه غيرُه أمر تحصيل الآلة الّتي يطحن بها الحبّ ويعجن بها الدّقيق، ويَخبز بها العجين، وذلك المحصّل لهذه الأشياء يكفيه غيرُه الاهتمام بتحصيل الزّوجة الّتي تدعو إليها داعية الشَّبَق، فيَحصُل مساعدة بعض النّاس لبعضٍ، لولا ذلك لَما قامت الدّنيا. فهذا معنى قوله عليه السلام: «إنّهم طبقات لا يصلُح بعضُها إلّا ببعض، ولا غناءَ ببعضها عن بعض».

ثمّ فصّلهم وقسّمهم فقال: منهم الجند، ومنهم الكتّاب، ومنهم القُضاة، ومنهم العمّال[2]، ومنهم أرباب الجزية مِن أهل الذّمّة، ومنهم أرباب الخراج مِن المسلمين، ومنهم التّجّار، ومنهم أرباب الصّناعات، ومنهم ذوو الحاجات والمسكنة، وهم أدون الطّبقات.

ثمّ ذكر أعمال هذه الطّبقات فقال: الجند للحماية، والخراج يُصرَف إلى الجند والقضاة والعمّال والكتّاب لما يُحكِمونه من المعاقد ويجمعونه من المنافع. ولا بدّ لهؤلاء جميعًا مِن التّجّار لأجل البيع والشّراء الّذي لا غَناء عنه. ولا بدّ لكلٍّ مِن أرباب الصّناعات كالحدّاد والنّجّار والبنّاء وأمثالهم. ثمّ تلي هؤلاء الطّبقة السّفلى، وهم أهل الفقر والحاجة الّذين تجب معونتُهم والإحسان إليهم.

١ـ ب: «غير»، تحريف.

٢ـ ساقط من ب، وأثبته من ا، د.

وإنّما قسّمهم في هذا الفصل هذا التّقسيم تمهيدًا لما يذكره فيما بعدُ، فإنّه قد شرع بعد هذا الفصل فذكر طبقةً طبقةً وصنفًا صنفًا، وأوصاه في كلّ طبقة وفي كلّ صنف منهم بما يليق بحاله، وكأنّه[1] مهّد هذا التّمهيد، كالفهرست لما يأتي بعده من التّفصيل.

الأصل:

فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لله ولِرَسُولِهِ ولِإِمَامِكَ وأَطْهَرَهُمْ جَيْبًا وأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ ويَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ ويَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ ويَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، ومِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ ولَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ.

ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ والْأَحْسَابِ وأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ والسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ والشَّجَاعَةِ والسَّخَاءِ والسَّمَاحَةِ، فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ وشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ.

ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، ولَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، ولَا تُحَقِّرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وإِنْ قَلَّ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ وحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ.

ولَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، ولِلْجَسِيمِ مَوْقِعًا لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ. ولْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ ويَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ. ولَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ[2] عَلَى وُلَاةِ أُمُورِهِمْ وقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ وتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ.

فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ ووَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ فِعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ وتُحَرِّضُ النَّاكِلَ، إِنْ شَاءَ اللهُ. ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، ولَا تَضُمَّنَّ بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، ولَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ. ولَا

١ـ ا: «فكأنّه».

٢ـ مخطوطة النّهج: «بحيطتهم» بالياء المشدّدة المكسورة.

يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعَظِّمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا، وَلَا ضَعَةُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا.

وَارْدُدْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يُظْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1]، فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ.

الشّرح: هذا الفصل مختصٌّ بالوصاة فيما يتعلّق بأُمراء الجيش. أمَره أن يُولّيَ أمْر الجيش مِن جنوده مَن كان أنصَحَهم لله في ظنّه وأطهَرَهم جيبًا، أي عفيفًا أمينًا. ويُكنَى عن العفّة والأمانة بطهارة الجَيْب، لأنّ الّذي يَسرق يَجعل المسروق في جيبه.

فإن قلت: وأيّ تعلّقٍ لهذا بوُلاة الجيش؟ إنّما ينبغي أن تكون هذه الوصيّة في وُلاة الخراج! قلت: لا بدّ منها في أُمراء الجيش لأجل الغنائم.

ثمّ وصف ذلك الأمير فقال: «ممّن يُبطِئ عن الغضب ويستريح إلى العذر»، أي يقبل أدنى عذرٍ ويستريح إليه ويسكن عنده. ويَرؤُفُ[2] على الضّعفاء، يرفق بهم ويرحمهم. والرّأفة: الرّحمة. ويَنبو عن الأقوياء: يَتجافى عنهم ويبعد، أي يُمكِّنهم مِن الظّلم والتّعدي على الضّعفاء. ولا يُثيره العُنْف: لا يهيج غضبَه عنفٌ وقسوةٌ. ولا يَقعُد به الضّعف، أي ليس عاجزًا.

ثمّ أمره أن يَلصق بذوي الأحساب وأهل البُيوتات، أي يكرمهم ويجعل مُعوّله في ذلك عليهم ولا يتعدّاهم إلى غيرهم. وكان يقال: عليكم بذوي الأحساب، فإنْ هم لم يتكرّموا استحيوْا[3].

١ـ النّساء/ ٥٩.

٢ـ د: «يرأف»، تحريفٌ.

٣ـ د: «استحسبوا»، ب: «استحبّوا»، وأثبت ما في ا.

ثمّ ذكر بعدهم أهلَ الشّجاعة والسّخاء، ثمّ قال: «إنّها جِمَاعٌ مِن الكرَم وشُعَبٌ من العُرْف». مِن هاهنا زائدة، وإن كانت في الإيجاب على مذهب أبي الحسن الأخفش، أي جِماع الكرم، أي يجمعه كقول النّبيّ ﷺ: «الخمر جِمَاع الإثم». والعُرْف: المعروف.

وكذلك مِن في قوله: «وشُعَبٌ مِن العُرْف»، أي وشعب العرف، أي هي أقسامه وأجزاؤه. ويجوز أن تكون مِن على حقيقتها للتّبعيض، أي هذه الخلال جملةٌ مِن الكرم وأقسام المعروف، وذلك لأنّ غيرها أيضًا من الكرم والمعروف، ونحو العدل والعفّة.

قوله: «ثمّ تفقّدْ مِن أُمورهم»، الضّمير هاهنا يرجع إلى الأجناد لا إلى الأُمراء لِما سنذكره ممّا يدلّ الكلام عليه.

فإن قلت: إنّه لم يَجْرِ للأجناد ذكرٌ فيما سبق، وإنّما المذكور الأُمراء! قلت: كلّا بل سبق ذكر الأجناد، وهو قوله: «الضّعفاء والأقوياء».

وأمره عليه السلام أن يتفقّد من أُمور الجيش ما يتفقّد الوالدان من حال الوَلد، وأمره ألّا يعظِّم عنده ما يقوّيهم به وإن عظم، وألّا يستحقِر شيئًا تعهّدهم به وإن قلّ، وألّا يمنعه تفقّدُ جسيم أُمورهم عن تفقّد صغيرها.

وأمره أن يكون آثَرُ رءوس جنوده عنده وأحظاهم عنده وأقربهم إليه، مَن واساهم في معونته؛ هذا هو الضّمير الدّالّ على أنّ الضّمير المذكور أوّلًا للجند لا لأُمراء الجند، لولا ذلك لَما انتظم الكلام.

قوله: «مِن خُلُوف أهليهم»، أي ممّن يخلفونه مِن أولادهم وأهليهم. ثمّ قال: لا يصحّ نصيحة الجند لك إلّا بحيطتهم على ولاتهم، أي بتعطّفهم عليهم وتحنّنهم، وهي الحِيطَة على وزن الشِّيمَة، مصدر حاطه يحوطه حوطًا وحياطًا وحِيطَةً، أي كلأه ورعاه. وأكثر النّاس يروونها «إلّا بحيِّطتهم» بتشديد الياء وكسرها، والصّحيح ما ذكرناه.

قوله: «وقلّة استثقال دُوَلهم»، أي لا تصحّ نصيحة الجند لك إلّا إذا أحبّوا أُمراءهم ثمّ لم يستثقلوا دولهم، ولم يتمنّوا زوالها. ثمّ أمره أن يذكر في المجالس والمحافل بلاءَ ذوي البلاء منهم، فإنّ ذلك ممّا يُرهِف عزْم الشُّجاع ويحرِّك الجَبَان.

قوله: «ولا تَضُمَّنَّ بلاء امرئٍ إلى غيره»، أي اذكرْ كلّ مَن أبلى منهم مفردًا غير مضموم ذكرُ بلائه إلى غيره، كيْ لا يكون مغمورًا في جنب ذكر غيره. ثمّ قال له: لا تعظِّمْ بلاء ذوي الشّرَف لأجل شرفهم، ولا تحقِّر بلاء ذوي الضّعة لضعة أنسابهم، بل اذكرْ الأُمور على حقائقها. ثمّ أمره أن يردّ إلى الله ورسوله ما يُضلِعه مِن الخطوب، أي ما يئوده ويُميله لثقله، وهذه الرّواية أصحُّ مِن رواية مَن رواها بالظّاء، وإن كان لتلك وجهٌ.

الأصل:

ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلَا يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ، وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ، وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّمًا بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ إِتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ.

ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيحُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ. فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَرًا بَلِيغًا، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا.

الشّرح: تُمَحِّكه الخُصومُ: تجعله ماحِكًا، أي لجوجًا. محك الرّجل، أي لجّ، وماحَك زيدٌ عمرًا، أي لاجّه. قوله: «ولا يَتمادَى في الزَّلّة»، أي إن زلّ رجع وأناب، والرّجوع إلى الحقّ خيرٌ من التّمادي في الباطل.

قوله: «ولا يَحصَر مِن الفيء» هو المعنى الأوّل بعينه، والفيء: الرّجوع، إلّا أنّ هاهنا زيادة، وهو أنّه لا يحصر، أي لا يعيا في المنطق، لأنّ مِن النّاس مَن إذا زلّ حصر عن أن يرجع وأصابه كالفَهَاهة والعيّ خجلًا.

قوله: «ولا تُشرِف نفسه»، أي لا تُشفِق. والإشراف: الإشفاق والخوف، وأنشد اللّيث:

ومِن مُضَر الحمراء إسراف أنفسٍ علينا وحيّاها علينا تمضرا

وقال عروه بن أُذَيْنة:

لقد عَلِمتُ وما الإشرافُ من خُلقي أنّ الّذي هو رزقي سوف يأتيني[1]

والمعنى: ولا تُشفِقْ نفسُه وتخاف من فوت المنافع والمرافق. ثمّ قال: «ولا يَكتفي بأدنَى فهمٍ»، أي لا يكون قانعًا بما يخطر له بادئ الرّأي مِن أمر الخصوم، بل يستقصي ويبحث أشدّ البحث.

قوله: «وأقلّهم تبرّمًا بمراجعة الخصم»، أي تضجّرًا، وهذه الخصلة من محاسن ما شرطه عليه السلام، فإنّ القلق والضّجر والتّبرّم قبيحٌ وأقبح ما يكون مِن القاضي. قوله: «وأصرَمَهم»، أي أقطعهم وأمضاهم. وازدهاه كذا، أي استخفّه. والإطْراء: المدح. والإغراء: التّحريض.

ثمّ أمره أن يتطلّع على أحكامه وأقضيته، وأن يفرض له عطاءً واسعًا يملأ عينه، ويتعفّف به عن المرافق والرّشوات، وأن يكون قريب المكان منه، كثير الاختصاص به ليمنع قرْبه مِن سعاية الرّجال به وتقبيحهم ذكره عنده.

ثمّ قال: «إنّ هذا الدّين قد كان أسيرًا»، هذه إشارةٌ إلى قضاة عثمان وحكّامه، وأنّهم لم يكونوا يقضون بالحقّ عنده، بل بالهوى لطلب الدّنيا. وأمّا أصحابنا فيقولون: رحم الله عثمان! فإنّه كان ضعيفًا، واستولى عليه أهله، قطعوا الأُمور دونه، فإثْمهم عليهم وعثمان بريءٌ منهم.

الأصل:

ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ، فَاسْتَعْمِلْهُمْ اخْتِيَارًا، وَلَا تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ. وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا، وَأَصَحُّ أَعْرَاضًا، وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ

١ـ اللّسان (شرف).

إِشْرَافًا، وأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَرًا.

ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلاحِ أَنْفُسِهِمْ، وغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ. ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ والْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ والرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ.

وتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِدًا، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، و وَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ وقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ.

الشّرح: لمّا فرغ عليه السلام من أمر القضاء، شرع في أمر العمّال، وهم عمّال السّواد والصّدقات والوقوف والمصالح وغيرها. فأمَره أن يستعملهم بعد اختبارهم وتجربتهم، وألّا يولّيهم محاباةً لهم ولِمَن يشفع فيهم، ولا أثرةً ولا إنعامًا عليهم.

كان أبو الحسن بن الفُرات يقول: الأعمال للكُفاةِ مِن أصحابنا، وقَضاءُ الحقوق علَى خواصّ أموالنا. وكان يحيى بن خالد يقول: مَن تسبّب إلينا بشفاعة في عمل فقد حلّ عندنا محلّ مَن ينهض بغيره، ومَن لم ينهض بنفسه لم يكن للعمل أهلًا.

و ووقّع جعفر بن يحيى في رُقعَة متحرّم به: هذا فتًى له حُرْمة الأمل، فامتحنْه بالعمل؛ فإنْ كان كافيًا فالسّلطان له دوننا، وإن لم يكن كافيًا فنحن له دون السّلطان.

ثمّ قال عليه السلام: «فإنّهما ـ يعني استعمالهم للمحاباة والأثرة ـ جِمَاعٌ مِن شُعَب الجوْر والخيانة». وقد تقدّم شرح مثل هذه اللّفظة. والمعنى أنّ ذلك يجمع ضروبًا من الجوْر والخيانة. أمّا الجور فإنّه يكون قد عدل عن المستحقّ إلى غير المستحقّ، ففي ذلك جورٌ على المستحقّ. وأمّا الخيانة فلأنّ الأمانة تقتضي تقليد الأعمال الأكفاء؛ فمَن لم يعتمد ذلك فقد خان مَن ولّاه.

ثمّ أمره بتخيّر مَن قد جرّب، ومَن هو مِن أهل البُيوتات والأشراف لشدّة الحرص على الشّيء والخوف من فواته. ثمّ أمره بإسباغ الأرزاق عليهم؛ فإنّ الجائع لا أمانةَ له،

ولأنّ الحجّة تكون لازمةً لهم إن خانوا، لأنّهم قد كُفُوا مؤنة أنفسِهم وأهليهم بما فرض لهم من الأرزاق[1].

ثمّ أمره بالتّطلّع عليهم وإذكاء[2] العيون والإرصاد على حركاتهم. وحَدْوَةٌ باعثٌ، يقال: حداني هذا الأمر حَدوةً على كذا؛ وأصله سَوْق الإبل، ويقال للشَّمْأل حَدْواء، لأنّها تسوق السّحاب.

ثمّ أمره بمؤاخذة مَن ثبتتْ خيانته واستعادة المال منه، وقد صنع عمر كثيرًا من ذلك، وذكرناه فيما تقدّم. قال بعض الأكاسرة لعاملٍ مِن عمّاله: كيف نومك باللّيل؟ قال: أنامُه كلّه. قال: أحسنت! لو سرقتَ ما نمتَ هذا النّوم.

الأصل:

وتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ، ولَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وأَهْلِهِ.

ولْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ، ومَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ وأَهْلَكَ الْعِبَادَ، ولَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا؛ فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً أَوِ انْقِطَاعَ شُرْبٍ أَوْ بَالَّةٍ أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ.

ولَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَئُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ وتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ، مَعَ اسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ، والثِّقَةِ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَ رِفْقِكَ بِهِمْ.

فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ، طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ؛ وإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا، وإِنَّمَا يُعْوِزُ

١ـ في د: «الرزق».

٢ـ في أ، د: «وبعث».

أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلاةِ عَلَى الْجَمْعِ، وسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ.

الشّرح: انتقل عليه السلام من ذكر العمّال إلى ذكر أرباب الخراج ودَهاقين السّواد، فقال: تفقَّدْ أمرَهم، فإنّ النّاس عيالٌ عليهم؛ وكان يقال: استوصُوا بأهل الخراج، فإنّكم لا تزالون سمانًا ما سَمِنُوا.

ورُفع إلى أنوشروان أنّ عامل الأهواز قد حمل من مال الخراج ما يزيد على العادة، وربما يكون ذلك قد أجْحف بالرّعيّة، فوقّع: يُرَدّ هذا المال على مَن قد استوفى منه، فإنّ تكثير المَلِك ماله بأموال رعيّته بمنزلة مَن يحصّن سطوحه بما يقتلعه مِن قواعد بنيانه. وكان على خاتم انوشروان: لا يكون عُمرانٌ، حيث يجور السّلطان.

ورُوي: «استحلاب الخراج» بالحاء. ثمّ قال: «فإنْ شَكَوْا ثِقَلًا»، أي ثقل طَسْق[1] الخراج المضروب عليهم، أو ثِقل وطأة العامل. قال: «أو علّةً» نحو أن يصيب الغلّةَ آفةٌ كالجراد والبرق أو البرد.

قال: «أو انقطاع شِرْب»[2] بأن يَنقُص الماء في النّهر، أو تتعلّق أرض الشّرب عنه لفقد الحَفْر. قال: «أو بَالّةٍ»، يعني المطر. قال: «أو إحالة أرضٍ اغتمرها غَرَقٌ»، يعني أو كوْن الأرض قد حالت، ولم يحصل منها ارتفاع، لأنّ الغرق غمرها وأفسد زرعها. قال: «أو أجْحَفَ بها عطشٌ»، أي أتلفها.

فإن قلت: فهذا هو انقطاع الشّرب؟

قلت: لا، قد يكون الشِّرب غير منقطع، ومع ذلك يُجحِف بها العطش، بأن لا يكفيها الماء الموجود في الشّرب.

ثمّ أمره أن يخفّف عنهم مَتَى لحقهم شيءٌ مِن ذلك؛ فإنّ التّخفيف يُصلِح أُمورهم، وهو وإن كان يُدخِل على المال نقصًا في العاجل إلّا أنّه يقتضي[3] توفير زيادةٍ في

١ـ في اللّسان عن التّهذيب: «الطَّسْق شبه الخراج له مقدارٌ معلوم، وليس بعربيّ خالص».

٢ـ الشِّرب بالكسر: النّصيب مِن الماء.

٣ـ في د: «يُفضي إلى».

الآجل، فهو بمنزلة التّجارة الّتي لا بدّ فيها من إخراج رأس المال وانتظار عوده وعود ربحه.

قال: ومع ذلك فإنّه يُفضي إلى تزيين بلادك بعمارتها، وإلى أنّك تَبْجح بين الولاة بإفاضة العدل في رعيّتك معتمدًا فضْلَ قوّتهم؛ و «معتمدًا» منصوبٌ على الحال مِن الضّمير في «خَفّفتَ» الأُولى، أي خفّفتَ عنهم معتمدًا بالتّخفيف فضْل قوّتهم. والإجمام: التّرفيه.

ثمّ قال له: وربما احتجتَ فيما بعدُ إلى تكلّفهم بحادثٍ يحدث عندك المساعدة بمالٍ يقسطونه عليهم قرضًا أو معونةً محضةً؛ فإذا كانتْ لهم ثروةٌ نهضوا بمثل ذلك، طيّبة قلوبُهم[1] به. ثمّ قال عليه السلام: فإنّ العُمْران محتمِلٌ ما حمّلتَه.

سمعتُ أبا محمّد بن خُليد ـ وكان صاحب ديوان الخراج في أيّام النّاصر لدين الله ـ يقول لمن قال له: قد قيل عنك: إنّ واسط والبصرة قد خربت لشدّة العُنف بأهلها في تحصيل الأموال! فقال أبو محمّد: ما دام هذا الشّطّ بحاله والنّخل نابتًا في منابته بحاله، ما تخرب واسط والبصره أبدًا.

ثمّ قال عليه السلام: إنّما تُؤتَى الأرض، أي إنّما تُدهَى مِن إعواز أهلها، أي مِن فقرهم. قال: والموجب لإعوازهم طمعُ ولاتهم في الجباية وجمع الأموال لأنفسهم ولسلطانهم. وسوء ظنّهم بالبقاء، يحتمل أن يريد به أنّهم يظنّون طول البقاء وينسوْن الموت والزّوال. ويحتمل أن يريد به أنّهم يتخيّلون العزْل والصّرف، فينتهزون الفُرَص ويقتطعون الأموال ولا ينظرون في عمارة البلاد.

الأصل:

ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ، فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، واخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَايِدَكَ وأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُودِ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَإٍ.

١ـ في د: «نفوسهم».

وَلَا تُقَصِّرْ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ، وفِيمَا يَأْخُذُ لَكَ ويُعْطِي مِنْكَ، وَلَا يُضْعِفُ عَقْدًا اعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ، وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ.

ثُمَّ لَا يَكُنْ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ واسْتِنَامَتِكَ وحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وحُسْنِ حَدِيثِهِمْ، ولَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ والْأَمَانَةِ شَيْءٌ؛ ولٰكِن اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَرًا، وأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهًا، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لله ولِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ.

واجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ، لَا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، ولَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا، ومَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ.

[فصل فيما يجب على مصاحب الملك]

الشّرح: لمّا فرغ من أمر الخراج، شرع في أمر[1] الكتّاب الّذين يلُون أمر الحضرة، ويترسّلون عنه إلى عمّاله وأمرائه، وإليهم معاقد التّدبير وأمر الدّيوان، فأمره أن يتخيّر الصّالح منهم ومَن يوثق على الاطّلاع على الأسرار والمكايد والحِيَل والتّدبيرات، ومَن لا يُبطِره الإكرام والتّقريب، فيطمع فيجترئ على مخالفته في مَلَإٍ من النّاس والرّدّ عليه، ففي ذلك من الوَهَن للأمير وسوء الأدب الّذي انكشف الكاتب عنه ما لا خفاء به.

قال الرّشيد للكِسائيّ: يا عليّ بن حمزة، قد أحللْناك المحلّ الّذي لم تكن تبلغه همّتك، فروِّنا من الأشعار أعفّها ومن الأحاديث أجمعَها لمحاسن الأخلاق وذاكِرْنا بآداب الفُرْس والهند، ولا تُسرِعْ علينا الرّدّ في ملَإٍ، ولا تتركْ تثقيفنا في خلَإٍ.

وفي آداب ابن المقفّع: لا تكوننّ صحبتك للسّلطان إلّا بعد رياضةٍ منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك، وموافقتهم فيما خالفك، وتقدير الأُمور على أهوائهم

١ـ في د: «ذكر».

دون هواك. فإن كنتَ حافظًا إذا ولّوْك، حذِرًا إذا قرّبوك، أمينًا إذا ائتمنوك، تعلّمهم وكأنّك تتعلّم منهم، وتؤدّبهم وكأنّك تتأدّب بهم، وتَشكُرهم ولا تكلّفهم الشّكر.

ذليلًا إن صرَموك، راضيًا إن أسخطوك، وإلّا فالبُعد منهم كلّ البعد، والحذَر منهم كلّ الحذر. وإن وجدتَ عن السّلطان وصحبته غنًى فاستغنِ عنه، فإنّه مَن يخدُم السّلطان حقّ خدمته يخلّى بينه وبين لذّة الدّنيا وعمل الآخرة، ومَن يخدمه غير حقّ الخدمة فقد احتَمل وزْر الآخرة وعرّض نفسه للهلكة والفضيحة في الدّنيا.

فإذا صحبتَ السّلطان فعليك بطول الملازمة من غير إملال، وإذا نزلتَ منه بمنزلة الثّقة فاعزِلْ عنه كلام المَلَق، ولا تُكثِرْ له من الدّعاء، ولا تردّنّ عليه كلامًا في حفْلٍ وإن أخطأ، فإذا خلوتَ به فبصّرْه في رفْقٍ.

ولا يكونَنّ طلبُك ما عنده بالمسألة، ولا تستبطئه وإن أبطأ، ولا تخبرنّه أنّ لك عليه حقًّا، وأنّك تعتدّ عليه ببلاء. وإن استطعت ألّا تنسى حقّك وبلاءك بتجديد النّصح والإجتهاد فافعلْ، ولا تعطينّه المجهود كلّه من نفسك في أوّل صحبتك له، وأعدّ موضعًا للمزيد. وإذا سأل غيرَك عن شيء فلا تكن المجيبَ.

واعلمْ أنّ استلابك الكلامَ خفّةٌ فيك واستخفافٌ منك بالسّائل والمسئول، فما أنت قائلٌ إنْ قال لك السّائل: ما إيّاك سألت، أو قال المسئول: أجبْ بمجالسته ومحادثته أيّها المُعجب بنفسه والمستخفّ بسلطانه.

وقال عبد الملك بن صالح لمؤدّبِ ولده بعد أن اختصّه بمجالسته ومحادثته: يا عبد الله، كنْ علَى التماس الحظّ فيك بالسّكوت أحرصَ منك على التماسه بالكلام، فإنّهم قالوا: إذا أعجَبك الكلامُ فاصمُتْ وإذا أعجبك الصّمت فتكلّم.

واعلمْ أنّ أصعب الملوك معاملةً الجبّار الفَظِن المتفقّد؛ فإنْ ابتُليتَ بصحبته فاحترِسْ، وإن عوفيتَ فاشكرْ الله على السّلامة، فإنّ السّلامة أصل كلّ نعمة.

لا تساعدْني على ما يَقبُح بي، ولا تردّنّ علَيَّ خطأً في مجلس، ولا تكلّفْني جواب التّشميت والتّهنئة، ودعْ عنك: كيف أصبح الأمير وكيف أمسى! وكلِّمْني بقدر ما أستنطِقُك.

واجعلْ بدل التّقريظ لي صوابَ الاستماع منّي، واعلمْ أنّ صواب الاستماع أحسنُ مِن صواب القول. فإذا سمعتَني أتحدّث فلا يفوتنّك منه شيء، وأرني فهمَك إيّاه في طَرْفك ووجهك. فما ظنّك بالمِلك وقد أحلّك محلّ المعجب بما يسمعك إيّاه، وأحللتَه محلّ من لا يسمع منه! وكلٌّ مِن هذا يُحبِط إحسانك، ويُسقِط حقّ حرمتك.

ولا تستدعِ الزّيادة من كلامي بما تُظهر من استحسان ما يكون منّي، فمَن أسوأ حالًا ممّن يستكدّ الملوك بالباطل، وذلك يدلّ على تهاونه بقدر ما أوجَب الله تعالى من حقِّهم.

واعلمْ أنّي جعلتُك مؤدّبًا بعد أن كنتَ معلِّمًا، وجعلتك جليسًا مقرَّبًا بعد أن كنتَ مع الصّبيان مباعدًا. فمتى لم تَعرفْ نقصان ما خرجتَ منه، لم تعرف رجحان ما دخلتَ فيه، وقد قالوا: من لم يعرف سوءَ ما أوْلَى، لم يعرف حسنَ ما أبلى.

ثمّ قال ﷺ: وليكنْ كاتبُك غيرَ مقصّر عن عرض مكتوبات عمّالك عليك، والإجابة عنها حسن الوكالة والنّيابة عنك فيما يحتجّ به لك عليهم من مكتوباتهم، وما يُصدِره عنك إليهم من الأجوبة، فإن عقَد لك عقدًا قوّاه وأحكمه، وإن عقد عليك عقدًا اجتهد في نقضه وحلّه. قال: وأن يكون عارفًا بنفسه، فمن لم يعرف قدر نفسه لم يعرف قدر غيره.

ثمّ نهاه أن يكون مستندَ اختياره لهؤلاء فِراستُه فيهم وغلبةُ ظنّه بأحوالهم، فإنّ التّدليس ينمّ في ذلك كثيرًا، وما زال الكتّاب يتصنّعون للأُمراء بحُسن الظّاهر، وليس وراء ذلك كثير طائل في النّصيحة والمعرفة، ولكن ينبغي أن يرجع في ذلك إلى ما حكمتْ به التّجربةُ لهم، وما وُلّوه مِن قبل، فإن كانت ولايتُهم وكتابتُهم حسنةً مشكورةً فهم هم، وإلّا فلا، ويتعرّفون لفراسات الوُلاة، يجعلون أنفسهم بحيث يعرف بضُروبٍ مِن التّصنّع، ورُوي: «يتعرّضون».

ثمّ أمَره أن يقسِّم فنونَ الكتابة وضروبها بينهم نحو أن يكون أحدهم للرّسائل إلى الأطراف والأعداء، والآخر لأجوبة عمّال السّواد، والآخر بحضرة الأمير في خاصّته وداره وحاشيته وثقاته. ثمّ ذكر له أنّه مأخوذٌ مع الله تعالى بما يتغابَى عنه ويتغافل من عيوب

كتّابه، فإنّ الدّين لا يبيح الإغضاءَ والغفلة عن الأعوان والخَوَل، ويوجب التّطلّع عليهم.

الأصل:

ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وذَوِي الصِّنَاعَاتِ، وأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا، الْمُقِيمِ مِنْهُمْ والْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ والْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ؛ فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ وأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ وجُلَّابُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ والْمَطَارِحِ، فِي بَرِّكَ وبَحْرِكَ وسَهْلِكَ وجَبَلِكَ، وحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا ولَا يَجْتَرِءُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ وصُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ.

وتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ. واعْلَمْ ـ مَعَ ذَلِكَ ـ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقًا فَاحِشًا وشُحًّا قَبِيحًا واحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ وتَحَكُّمًا فِي الْبِيَاعَاتِ، وذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وعَيْبٌ عَلَى الْوُلَاةِ.

فَامْنَعْ مِنَ الِاحْتِكَارِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ. ولْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعًا سَمْحًا بِمَوَازِينِ عَدْلٍ، وأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ والْمُبْتَاعِ. فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ وعَاقِبْ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ.

الشّرح: خرج عليه السلام الآن الى ذكر التّجّار وذوي الصّناعات، وأمره[1] بأن يعمل معهم الخير، وأن يوصي غيره من أُمرائه وعمّاله أن يعملوا معهم الخير. واستوصِ بمعنى «أوصِ» نحو قَرَّ في المكان واستقرّ، وعلا قرْنَه واستعلاه.

وقوله: «استوصِ بالتّجّار خيرًا»، أي أوصِ نفسك بذلك، ومنه قول النّبيّ صلى الله عليه وآله: «استوْصوا بالنّساء خيرًا». ومفعولَا «استوص» و«أوص» هاهنا محذوفان للعلم بهما، ويجوز أن يكون «استوص» أي اقبلْ الوصيّة منّي بهم وأوص بهم أنت غيرك.

ثمّ قسّم عليه السلام الموصّى بهم ثلاثة أقسام: اثنان منها للتّجّار[1]، وهما المقيم والمضطرب، يعني المسافر. والضّرب: السّير في الأرض، قال تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2]، وواحدٌ لأرباب الصّناعات، وهو قوله: «والمترفّق ببدنه»، ورُوي «بيديه»، تثنية يد.

---

١ ـ ا، ب: «أمره»، بدون واو.

والمطارح: الأماكن البعيدة. وحيث لا يلتئم النّاس: لا يجتمعون، ورُوي «حيث لا يلتئم» بحذف الواو. ثمّ قال: «فإنّهم أولو سِلْمٍ»، يعني التّجّار والصّنّاع، استعطفه عليهم واستماله إليهم.

وقال: ليسوا كعمّال الخراج وأُمراء الأجناد، فجانبُهم ينبغي أن يراعى، وحالهم يجب أن يحاط ويحمى، إذ لا يتخوّف منهم بائقةٌ لا في مال يخونون فيه، ولا في دولة يفسدونها. وحواشي البلاد: أطرافها.

ثمّ قال له: قد يكون في كثير منهم نوعٌ من الشّحّ والبخل فيدعوهم ذلك إلى الاحتكار في الأقوات، والحيف في البياعات. والاحتكار[٣]: ابتياع الغلّات في أيّام رخصها، وادّخارها في المخازن[٤] إلى أيّام الغَلاء والقحط. والحيف: تطفيفٌ في الوزن والكيل، وزيادةٌ في السّعر[٥]، وهو الّذي عبّر عنه بالتّحكّم، وقد نهى رسولُ الله صلى الله عليه وآله عن الاحتكار. وأمّا التّطفيف وزيادة التّسعير فنهيٌ عنهما في نصّ الكتاب[٦].

وقارَفَ حُكْرةً: واقَعها، والحاء مضمومةٌ، وأمره أن يؤدّب فاعل ذلك من غير إسراف، وذلك أنّه دون المعاصي الّتي توجب الحدود، فغاية أمره من التّعزير الإهانة والمنع.

الأصل:

ثُمَّ اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ، مِنَ الْمَسَاكِينِ والْمُحْتَاجِينَ وأَهْلِ الْبُؤْسَى والزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعًا وَ مُعْتَرًّا. واحْفَظْ للهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ

١ـ د: «التّجّار».

٢ـ النّساء/ ١٠١.

٣ـ د: «فالاحتكار».

٤ـ د: «المحارز».

٥ـ د: «التّسعير».

٦ـ وهو قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

حَقِّهِ فِيهِمْ، واجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا مِنْ بَيْتِ مَالِكِ وقِسْمًا مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى، وكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ.

ولَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّافِهِ لِأَخْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْمُهِمِّ، فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ ولَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ. وتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ، مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ وتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ، فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ والتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ. ثُمَّ اعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ يَوْمَ تَلْقَاهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ.

وتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ وذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ، مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ ولَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وذَلِكَ عَلَى الْوُلَاةِ ثَقِيلٌ، والْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، ووَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ.

الشّرح: انتقل من التّجّار وأرباب الصّناعات إلى ذكر فقراء الرّعيّة ومَغْموريها، فقال: وأهل البُؤْسَى، وهي البؤس، كالنُّعْمى للنّعيم. والزَّمْنَى: أولو الزَّمانة. والقانع: السّائل. والمعترّ: الّذي يَعرِض لك ولا يسألك، وهما من ألفاظ الكتاب العزيز[1].

وأمره أن يُعطِيهم من بيت مال المسلمين لأنّهم من الأصناف المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2]، وأن يعطيهم من غلّات صوافي الإسلام ـ وهي الأرَضون الّتي لم يُوجَف عليها بخيلٍ ولا ركاب ـ وكانت صافيةً لرسول الله ﷺ، فلمّا قُبض صارت لفقراء المسلمين ولِما يراه الإمام من مصالح الإسلام.

ثمّ قال له: «فإنّ للأقصى منهم مثل الّذي للأدنى»، أي كلّ فقراء المسلمين سواءٌ في سهامهم، ليس فيها أقصى وأدنى، أي لا تُؤثِرمَن هو قريبٌ إليك أو إلى أحدٍ من خاصّتك على مَن هو بعيدٌ ليس له سببٌ إليك، ولا علْقة بينه وبينك. ويمكن أن

١ـ وهو قوله تعالى في سورة الحجّ ٣٦: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾.

٢ـ الأنفال / ٤١.

يريد به: لا تَصرِف غلّات ما كان مِن الصّوافي في بعض البلاد إلى مساكين ذلك البلد خاصّةً، فإنّ حقّ البعيد عن ذلك البلد فيها كمثل حقّ المقيم في ذلك البلد.

والتّافِه: الحقير. وأشخصتُ زيدًا من موضع كذا: أخرجتُه عنه. وفلانٌ يصعِّر خدَّه للنّاس، أي يتكبّر عليهم. وتقتَحِمه العيون: تزدريه وتحتقره. والإعذار إلى الله: الاجتهاد والمبالغة في تأدية حقّه والقيام بفرائضه.

كان بعض الأكاسرة يجلس للمظالم بنفسه، ولا يثق إلى غيره، ويقعد بحيث يسمع الصّوت، فإذا سمعه أدخل المتظلّم، فأصيب بصَمَمٍ في سمْعه، فنادَى مناديه: إنّ المِلك يقول: أيّها الرّعيّة إنّي إن أُصبتُ بصَمَم في سمعي فلم أُصَب في بصري، كلّ ذي ظلامة فليَلبسْ ثوبًا أحمر. ثمّ جلس لهم في مستشرَفٍ له.

وكان لأمير المؤمنين عليه السلام بيتٌ سمّاه بيت القِصَص، يُلقِي النّاسُ فيه رقاعَهم، وكذلك كان فعل المهديّ محمّد بن هارون الواثق، من خلفاء بني العبّاس.

الأصل:

وَاجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِسًا عَامًّا، فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلّٰهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّٰهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ».

ثُمَّ احْتَمِلْ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ، وَنَحِّ عَنْكَ الضِّيقَ وَ الْأَنَفَ، يَبْسُطِ اللّٰهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ. وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئًا، وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ. ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا؛ مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرُجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ. وَامْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ.

الشّرح: هذا الفصل مِن تتمّة ما قبله، وقد رُوي: «حتّى يكلّمك مكلّمهم»، فاعلٌ مِن «كلّم»، والرّواية الأُولى أحسن.

وغير متتعتِع: غير مزعِج ولا مقلِق. والمتتعتِع في الخبر النّبويّ: المتردّد المضطرب في كلامه عِيًّا مِن خوفٍ لَحِقه، وهو راجعٌ إلى المعنى الأوّل. والخُرق: الجهل. ورُوي: «ثمّ احتمل الخُرق منهم والغَيّ». والغيّ، وهو الجهل أيضًا، والرّواية الأُولى أحسن.

ثمّ بيّن له عليه السلام أنّه لا بدّ له من هذا المجلس لأمرٍ آخر غير ما قدّمه عليه السلام وذلك لأنّه لا بدّ من أن يكون في حاجات النّاس ما يضيق به صدور أعوانه والنّوّاب عنه، فيتعيّن عليه أن يباشرها بنفسه؛ ولا بدّ من أن يكون في كتب عمّاله الواردة عليه ما يَعيَا كتّابه عن جوابه، فيجيب عنه بعلْمه. ويدخل في ذلك أن يكون فيها ما لا يجوز في حُكْم السّياسة ومصلحة الولاية أن يُطلِع الكتّابَ عليه، فيجيب أيضًا عن ذلك بعلمه.

ثمّ قال له: لا تدخِلْ عمل يوم في عمل يوم آخر فيُتعِبك ويُكدِّرك، فإنّ لكلّ يوم ما فيه من العمل.

الأصل:

واجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ وأَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ، وإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلّٰهِ، إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ وسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ.

ولْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ لِلّٰهِ بِهِ دِينَكَ إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً، فَأَعْطِ اللهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ ونَهَارِكَ، ووَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ كَامِلًا غَيْرَ مَثْلُومٍ ولَا مَنْقُوصٍ، بَالِغًا مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ.

وإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ فَلَا تَكُونَنَّ مُنَفِّرًا ولَا مُضَيِّعًا، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ ولَهُ الْحَاجَةُ، وقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ: كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ، فَقَالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ، وكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا».

الشّرح: لمّا فرغ عليه السلام من وصيّته بأُمور رعيّته، شرع في وصيّته بأداء الفرائض الّتي افترضها الله عليه مِن عبادته، ولقد أحسن عليه السلام في قوله: «وإن كانت كلّها لله»، أي أنّ النّظر في أُمور الرّعيّة مع صحّة النّيّة وسلامة النّاس من الظّلم من جملة العبادات والفرائض أيضًا.

ثمّ قال له: «كاملًا غير مَثلوم»، أي لا يحملنّك شُغْل السّلطان على أن تختصر الصّلاة اختصارًا، بل صلِّها بفرائضها وسننها وشعائرها في نهارك وليلك، وإن أتعبك ذلك ونال من بدنك وقوّتك.

ثمّ أمره إذا صلّى بالنّاس جماعةً ألّا يطيل فينفِّرهم عنها، وألّا يَخدِج الصّلاة وينقُصها فيضيِّعها[1]. ثمّ روى خبرًا عن النّبيّ صلى الله عليه وآله، وهو قوله عليه السلام له: «صلِّ بِهِم كصلاة أضعفهم»، وقوله: «وكنْ بالمؤمنين رحيمًا» يحتمل أن يكون من تتمّة الخبر النّبويّ، ويحتمل أن يكون من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، والظّاهر أنّه من كلام أمير المؤمنين من الوصيّة للأشتر، لأنّ اللّفظة الأُولى عند أرباب الحديث هي المشهور في الخبر.

الأصل:

وأَمَّا بَعْدَ هَذَا، فَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ وقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ. والِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ، فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ ويَعْظُمُ الصَّغِيرُ ويَقْبُحُ الْحَسَنُ ويَحْسُنُ الْقَبِيحُ ويُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ؛ وإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ، ولَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ.

وإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ! أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ، إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ. مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مَا لَا مَئُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ.

الشّرح: نهاه عن الاحتجاب فإنّه مَظِنّة انطواء الأُمور عنه، وإذا رُفع الحجاب دخل عليه كلّ أحدٍ فعرَف الأخبار، ولم يَخْفَ عليه شيء مِن أحوال عمَله.

ثمّ قال: لمْ تحتجب، فإنّ أكثر النّاس يحتجبون كيلا يُطلَب منهم الرّفد! وأنت فإن كنتَ جوادًا سَمْحًا لم يكن لك إلى الحجاب داعٍ، وإن كنت ممسكًا فسيعلم النّاس

---

١ ـ د: «فيضعّفها».

ذلك منك، فلا يسألك أحدٌ شيئًا. ثمّ قال: على أنّ أكثر ما يُسأل منك ما لا مؤونة عليه في ماله، كردّ ظُلامةٍ أو إنصافٍ من خصمٍ.

الأصل:

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وبِطَانَةً فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وتَطَاوُلٌ وقِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولَئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ، ولَا تَقْطَعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وحَامَّتِكَ قَطِيعَةً، ولَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِي شِرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ، يَحْمِلُونَ مَئُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ، وعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ.

وأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ والْبَعِيدِ، وكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، وَاقِعًا ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ.

وإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفًا، فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، واعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ، ورِفْقًا بِرَعِيَّتِكَ وإِعْذَارًا تَبْلُغُ فِيهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ.

الشّرح: نهاه عليه السلام عن أن يَحمِل أقاربه وحاشيته وخواصّه على رقاب النّاس، وأن يمكنهم مِن الاستئثار عليهم والتّطاول والإذلال، ونهاه مِن أن يقطع أحدًا منهم قطيعةً، أو يملّكه ضَيْعةً تضرّ بمَن يجاورها مِن السّادة والدَّهاقين[1] في شِرْب يتغلّبون على الماء منه، أو ضياعٍ يُضيفونها إلى ما ملّكهم إيّاه، وإعفاءٍ لهم من مؤونةٍ أو حفرٍ وغيره، فيُعفيهم الوُلاة منه مراقبةً لهم، فيكون مؤونة ذلك الواجب عليهم قد أسقطت عنهم، وحِمْل ثقلها على غيرهم.

ثمّ قال عليه السلام: لأنّ منفعة ذلك في الدّنيا تكون لهم دونك، والوزر في الآخرة عليك، والعيب والذّمّ في الدّنيا أيضًا لاحقان بك. ثمّ قال له: إن اتّهمتْك الرّعيّة بحيفٍ

١ـ الدّهاقين: جمع دهقان، وهو من ألقاب الرؤساء في الأعاجم.

عليهم، أو ظنّتْ بك جورًا، فاذكرْهم عذرك في ذلك، وما عندك ظاهرًا غير مستور، فإنّه الأولى والأقرب إلى استقامتهم لك على الحقّ.

وأصحرتُ بكذا، أي كشفته، مأخوذٌ من الإصحار، وهو الخروج إلى الصّحراء. وحامّة الرّجل: أقاربه وبطانته. واعتقدت عقدةً، أي ادّخرت ذخيرةً. والمَهنأ مصدر هنأه كذا. ومغبّة الشّيء: عاقبته. واعدِلْ عنك ظنونهم: نحّها. والإغدار: إقامة العذر.

الأصل:

وَلَا تَدْفَعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لِلّٰهِ فِيهِ رِضًا، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ وَأَمْنًا لِبِلَادِكَ. وَلٰكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ، فَخُذْ بِالْحَزْمِ وَاتَّهِمْ فِي ذٰلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ. وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوٍّ لَكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ.

وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ سُبْحَانَهُ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ، وَقَدْ لَزِمَ ذٰلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ، لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ.

فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلَا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ، وَلَا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرِيمًا يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ، فَلَا إِدْغَالَ وَلَا مُدَالَسَةَ وَلَا خِدَاعَ فِيهِ.

وَلَا تَعْقِدْ عَقْداً تُجَوِّزُ فِيهِ الْعِلَلَ، وَلَا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللهِ إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ فِيهِ طِلْبَةٌ لَا تَسْتَقِيلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ.

الشّرح: أمره أن يقبل السّلم والصّلح إذا دُعي إليه، لما فيه من دَعَة الجنود، والرّاحة من الهمّ، والأمن للبلاد. ولكن ينبغي أن يحذّر بعد الصّلح من غائلة العدوّ وكيده، فإنّه ربّما قارَبَ بالصّلح ليتغفّل، أي يطلب غفلتك، فخذْ بالحزم واتّهمْ حسن

ظنّك، لا تثقْ ولا تسكنْ إلى حسن ظنّك بالعدوّ، وكنْ كالطّائر الحَذِر. ثمّ أمره بالوفاء بالعهود، قال: واجعلْ نفسك جُنّةً دون ما أعطيت، أي ولو ذهبت نفسُك فلا تَغدِر.

وقال الرّاونديّ: «النّاس» مبتدأٌ، و«أشدّ» مبتدأ ثانٍ، و«مِن تعظيم الوفاء» خبرُه، وهذا المبتدأ الثّاني مع خبره خبرُ المبتدأ الأوّل، ومحلّ الجملة نَصْبٌ لأنّها خبر ليس، ومحلّ ليس مع اسمه وخبره رَفْعٌ، لأنّه خبرٌ، فإنّه وشيءٌ اسم ليس، و«من فرائضِ الله» حالٌ، ولو تأخّر لكان صفةً لشيء.

والصّواب أنّ «شيء» اسم ليس، وجاز ذلك وإن كان نكرةً لاعتماده على النّفي، ولأنّ الجارّ والمجرور قبله في موضع الحال كالصّفة، فتخصّص بذلك وقَرُب من المعرفة. والنّاس: مبتدأ، وأشدّ: خبره، وهذه الجملة المركّبة من مبتدأٍ وخبرٍ في موضع رَفْع، لأنّها صفة «شيء»، وأمّا خبر المبتدأ الّذي هو «شيء» فمحذوفٌ، وتقديره «في الوجود» كما حذف الخبر في قولنا: لا إله إلّا الله، أي في الوجود.

وليس يصحّ ما قال الرّاونديّ من أنّ «أشدّ» مبتدأ ثانٍ و«من تعظيم الوفاء» خبرُه، لأنّ حرف الجرّ إذا كان خبرًا لمبتدأ تَعلّق بمحذوف، وهاهنا هو متعلّقٌ بأشدّ نفسه، فكيف يكون خبرًا عنه! وأيضًا فإنّه لا يجوز أن يكون «أشدّ من تعظيم الوفاء» خبرًا عن النّاس، كما زعم الرّاونديّ، لأنّ ذلك كلامٌ غير مفيد. ألا ترى أنّك إذا أردت أن تُخبِر بهذا الكلام عن المبتدأ الّذي هو« النّاس» لم يَقُم من ذلك صورةٌ محصّلة تفيدك شيئًا، بل يكون كلامًا مضطربًا!

ويمكن أيضًا أن يكون «من فرائض الله» في موضع رَفْع، لأنّه خبر المبتدأ، وقد قُدّم عليه، ويكون موضع «النّاس» وما بعده رفعًا، لأنّه خبر المبتدأ الّذي هو «شيء» كما قلناه أوّلًا، وليس يمتنع أيضًا أن يكون «من فرائض الله» منصوبَ الموضع، لأنّه حالٌ، ويكون موضع «النّاس أشدّ» رفعًا، لأنّه خبر المبتدأ الّذي هو «شيء».

ثمّ قال له عليه السلام: وقد لزم المشركون مع شِرْكهم الوفاء بالعهود، وصار ذلك لهم شريعةً وبينهم سُنّةً، فالإسلام أولى باللّزوم والوفاء. واستَوْبلوا: وجدوه وبيلًا، أي ثقيلًا.

استوبلتُ البلدَ، أي استَوْخمته واستثقَلْته، ولم يوافق مِزاجَك. ولا تَخيسنّ بعهدك، أي لا تَغدِرنّ، خاسَ فلانٌ بذمّته، أي غَدَر ونَكَث.

قوله: «ولا تَختِلنّ عدوّك»، أي لا تمكُرنّ به، ختَلته، أي خدَعته. وقوله: «أفضاه بين عباده»، جعله مشتركًا بينهم، لا يختصّ به فريقٌ دون فريق. قال: «ويستفيضون إلى جِواره»، أي ينتشرون في طلب حاجاتهم ومآربهم، ساكنين إلى جواره. فإلى هاهنا متعلّقةٌ بمحذوف مقدّر، كقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[1]، أي مرسلًا.

قال: «فلا إدغال»، أي لا إفساد، والدّغَل: الفساد. ولا مُدالسة، أي لا خديعة، يقال: فلانٌ لا يوالس ولا يدالس، أي لا يخادع ولا يخون، وأصل الدّلس الظّلمة، والتّدليس في البيع: كتمان عيب السِّلعة عن المشتري.

ثمّ نهاه عن أن يَعقِد عقدًا يمكن فيه التّأويلات والعلل وطلب المخارج. ونهاه إذا عقد العقد بينه وبين العدوّ أن ينقضه معوّلًا على تأويلٍ خفيّ أو فحوى قولٍ، أو يقول: إنّما عنيت كذا ولم أعن ظاهر اللّفظة، فإنّ العقود إنّما تُعقد على ما هو ظاهرٌ في الاستعمال متداولٌ في الاصطلاح والعرف لا على ما في الباطن. ورُوي «انفساحه» بالحاء المهملة، أي سعته.

الأصل:

إِيَّاكَ والدِّمَاءَ وسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنَقِمَةٍ وَلَا أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ وَلَا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ وانْقِطَاعِ مُدَّةٍ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، واللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَلَا تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ ويُوهِنُهُ بَلْ يُزِيلُهُ وَ يَنْقُلُهُ.

ولَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ ولَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ، لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ، وإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ، وأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ ويَدُكَ بِالْعُقُوبَةِ، فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً، فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُم.

١ـ النمل/ ١٢.

الشّرح: قد ذكرنا في وصيّة قيس بن زهير آنفًا النّهي عن الإسراف في الدّماء، وتلك وصيّةٌ مبنيّةٌ على شريعة الجاهليّة مع حميّتها وتَهالُكها على القتل والقتال، ووصيّة أمير المؤمنين عليه السلام مبنيّةٌ على الشّريعة الإسلاميّة، والنّهي عن القتل والعدوان الّذي لا يُسيغه الدّين، وقد ورد في الخبر المرفوع: «إنّ أوّل ما يقضي اللهُ به يوم القيامة بين العباد أمر الدّماء».

قال: إنّه ليس شيءٌ أدعى إلى حلول النّقم وزوال النّعم وانتقال الدُّول، مِن سفك الدّم الحرام، وإنّك إن ظننتَ أنّك تُقوّي سلطانك بذلك، فليس الأمر كما ظننتَ، بل تُضعِفه، بل تُعدِمه بالكليّة.

ثمّ عرّفه أنّ قتل العمد يوجب القَوَد، وقال له: «قَوَد البَدَن» أي يجب عليك هدم صورتك كما هدمتَ صورة المقتول، والمراد إرهابه بهذه اللّفظة أنّها أبلغ من أن يقول له: «فإنّ فيه القَوَد».

ثمّ قال: إنْ قتلتَ خطأً أو شِبه عمدٍ كالضّرب بالسّوْط فعليك الدّية. وقد اختلف الفقهاء في هذه المسألة؛ فقال أبو حنيفة وأصحابه: القتل على خمسة أوجه: عمْد، وشبه عمد، وخطأ، وما أُجرِي مجرى الخطأ، وقتْل بسبب.

فالعمد: ما تعمّد به ضرب الإنسان بسلاح، أو ما يجري مجرى السّلاح، كالمحدّد من الخشب وليطة[1] القَصَب، والمَرْوة[2] المحدّدة، والنّار؛ وموجب ذلك المأثم والقَوَد إلّا أن يعفو الأولياء، ولا كفّارة فيه.

وشبه العمد أن يتعمّد الضّرب بما ليس بسلاح ولا أُجرِي مجرى السّلاح، كالحجَر العظيم والخشبة العظيمة، وموجب ذلك المأثم والكفّارة، ولا قَوَد فيه، وفيه الدّية مغلّظة على العاقلة.

١ـ اللِّيط: قِشْر القَصَب اللّازق به.

٢ـ المَرْوة: حجَرٌ أبيض برّاق، وفي الحديث: قال له عديّ بن حاتم: إذا أصاب أحدنا صيدًا وليس معه سكّين، أ يذبح بالمَرْوة وشقّة العصا؟

والخطأ على وجهين: خطأٌ في القصد، وهو أن يَرمِي شخصًا يظنّه صيدًا، فإذا هو آدميٌّ. وخطأٌ في الفعل، وهو أن يرمي غرضًا فيصيب آدميًّا. وموجب النّوعيْن جميعًا الكفّارة والدّية على العاقلة، ولا مأثم فيه.

وما أُجرِي مجرى الخطأ، مثل النّائم يتقلّب على رجلٍ فيقتله، فحكمه حكم الخطأ.

وأمّا القتل بسببٍ، فحافر البئر وواضع الحجَر في غير مِلكه، وموجبه إذا تلف فيه إنسانٌ الدّية على العاقلة، ولا كفّارة فيه.

فهذا قول أبي حنيفة ومَن تابعه، وقد خالفه صاحباه أبو يوسف ومحمّد في شِبه العمد وقالا: إذا ضرَبه بحجَرٍ عظيم أو خشبةٍ غليظة فهو عمدٌ؛ قال: وشبه العمد أن يتعمّد ضربه بما لا يقتل به غالبًا، كالعصا الصّغيرة والسّوط، وبهذا القول قال الشّافعي.

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنّ المؤدّب من الوُلاة إذا تَلِف تحت يده إنسانٌ في التّأديب فعليه الدّية، وقال لي قومٌ من فقهاء الإماميّة: إنّ مذهبنا أنْ لا دية عليه، وهو خلاف ما يقتضيه كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

الأصل:

وإيَّاكَ والْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ والثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا وحُبَّ الْإِطْرَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ.

وإيَّاكَ والْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ؛ فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ، والتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، والْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ والنَّاسِ. قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

إيَّاكَ والْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ؛ فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ وأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ

١ـ الصّف/ ٣.

مَوقِعَهُ.

وإيّاكَ والاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ، والتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ، ويُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ.

امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ وسَوْرَةَ حَدِّكَ وسَطْوَةَ يَدِكَ وغَرْبَ لِسَانِكَ، واحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ وتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الِاخْتِيَارَ. ولَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ، حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ.

والْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ، مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا، وتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا، واسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ، لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا.

الشّرح: قد اشتمل هذا الفصل على وصايا نحن شارِحوها، منها قوله عليه السلام: إيّاك وما يُعجِبك من نفسك والثّقةَ بما يعجبك منها. قد ورد في الخبر: «ثلاثٌ مُهلِكات: شُحٌّ مُطاع، وهوًى متّبَع، وإعجاب المرء بنفسه». وفي الخبر أيضًا: «لا وحشةَ أشدُّ من العُجْب». وفي الخبر: «النّاس لآدم، وآدم من تراب، فما لابن آدم والفخر والعجب!». وفي الخبر: «الجارّ ثوبَه خُيَلاء لا ينظُر الله إليه يوم القيامة». وفي الخبر ــ وقد رأى أبا دُجانَة يَتبختَر: «إنّها لمِشيةٌ يُبغِضها الله إلّا بين الصفّيْن».

ومنها قوله: «وحُبَّ الإطْراء»، ناظَرَ المأمون محمّد بن القاسم النّوشَجانيّ المتكلّم، فجعل يُصدِّقه ويُطريه ويستحسن قولَه، فقال المأمون: يا محمّد، أراك تنقاد إلى ما تظنّ أنّه يسرّني قبل وجوب الحجّة لي عليك، وتُطريني بما لستُ أُحبّ أن أُطري به، وتَستخذي لي في المقام الّذي ينبغي أن تكون فيه مقاوِمًا لي ومحتجًّا عليَّ. ولو شئتُ أن أقسر الأُمور بفضل بيانٍ وطول لسانٍ، وأغتصِب الحجّة بقوّة الخلافة وأُبّهة الرّياسة، لَصُدِّقتُ وإن كنتُ كاذبًا، وعدَلتُ وإن كنتُ جائرًا، وصُوِّبتُ وإن كنتُ

مخطئًا. لكنّي لا أرضَى إلّا بغلبة الحجّة ودفع الشّبهة، وإنّ أنقَصَ الملوك عقلًا وأسخَفَهم رأيًا، مَن رَضي بقولهم: صدَق الأمير.

وأثنى رجلٌ على رجل، فقال: الحمد لله الّذي سترني عنك، وكان بعض الصّالحين يقول أذا أطراه انسانٌ: ليسألكَ[1] اللهُ عن حُسن ظنّك.

ومنها قوله: «وإيّاك والمنّ»، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[2]. وكان يقال: المَنّ محبّةٌ للنّفس، مفسدةٌ للصّنع.

ومنها نهيُه إيّاه عن التّزيّد في فعله، قال عليه السلام: إنّه يَذهَب بنور الحقّ، وذلك لأنّه محض الكذب، مِثل أن يُسدي ثلاثة أجزاء مِن الجميل، فيدّعي في المجالس والمحافل أنّه أسدى عشرةً، وإذا خالط الحقُّ الكذبَ أذهب نوره.

ومنها نهيُه إيّاه عن خُلف الوعد. قد مدح الله نبيًّا من الأنبياء وهو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام بصِدق الوعد. وكان يقال: وعْد الكريم نقدٌ وتعجيلٌ، ووعد اللّئيم مَطْلٌ وتعطيلٌ. وكتب بعضُ الكتّاب: وحقٌّ لِمَن أزهر بقولٍ أن يُثمِر بفعل.

وقال أبو مقاتل الضّرير: قلت لأعرابيّ: قد أكثر النّاس في المواعيد، فما قولك فيها؟ فقال: بئس الشّيء! الوعد مَشغلةٌ للقلب الفارغ، مَتعبةٌ للبدن الخافض، خيره غائبٌ، وشرّه حاضرٌ. وفي الحديث المرفوع: «عِدَة المؤمن كأخذٍ باليد»، فأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «إنّه يُوجب المقت»، واستَشهد عليه بالآية. والمقت: البُغض.

ومنها نهيُه عن العَجَلة، وكان يقال: أصاب متثبّتٌ أو كاد، وأخطأ عجلٌ أو كاد. وفي المثل: «رُبّ عجلةٍ تَهَبُ رَيْثًا»، وذَمّها الله تعالى فقال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[3].

ومنها نهيُه عن التّساقط في الشّيء الممكن عند حضوره، وهذا عبارةٌ عن النّهي

١ـ في د: «لِأساءَك».

٢ـ البقرة/ ٢٦٤.

٣ـ الأنبياء/ ٣٧.

عن الحرص والجَشَع، قال الشَّنْفَرَى:

وإنْ مُدّت الأيدي إلى الزّاد لم أكنْ بأعجَلِهم إذْ أجْشَعُ القومِ أعْجَلُ

ومنها نهيُه عن اللّجاجة في الحاجة إذا تعذّرتْ. كان يقال: مَن لاجّ الله فقد جعَله خصمًا، ومَن كان الله خصمَه فهو مخصومٌ، قال الغَزيّ:

دعْها سماويّة تجري على قَدَرٍ لا تُفْسِدَنْها برأيٍ منك مَعكوسِ

ومنها نهيُه له عن الوَهْن فيها إذا استوضحتْ، أي وَضَحَتْ وانكشفت، ويُروَى: «واستُوضِحَتْ» فِعْلُ ما لمْ يسمَّ فاعله، والوهن فيها إهمالُها وترك انتهاز الفرصة فيها، قال الشّاعر:

فإذا أمكنتْ فبادرْ إليها حذَرًا مِن تعذُّرِ الإمكانِ

ومنها نهيُه عن الاستئثار، وهذا هو الخُلُق النّبويّ؛ غنَم رسول الله ﷺ غنائم خيبر، وكانت مِلءَ الأرض نعمًا. فلمّا ركب راحلتَه وسار، تَبِعه النّاس يطلبون الغنائم وقَسْمَها، وهو ساكتٌ لا يكلّمهم، وقد أكثروا عليه إلحاحًا وسؤالًا. فمرّ بشجرة فخطفتْ[1] رداءه، فالتفت فقال: ردّوا عليَّ ردائي، فلو ملكتُ بعدد رمل تهامة مغنمًا لقسّمتُه بينكم عن آخره ثمّ لا تجدونني بخيلًا ولا جَبَانًا. ونزل وقسّم ذلك المال عن آخره عليهم كلّه، لم ياخذ لنفسه منه وَبْرَةً.

ومنها نهيُه له عن التّغابي. وصورة ذلك أنّ الأمير يُومَى إليه أنّ فلانًا من خاصّته يَفعل كذا ويفعل كذا من الأمور المنكرة ويرتكبها سرًّا، فيتغابَى عنه ويتغافل. نهاه عليه السلام عن ذلك وقال: إنّك مأخوذٌ منك لغيرك، أي معاقَبٌ، تقول: اللّهمّ خُذْ لي مِن فلان بحقّي، أي اللّهمّ انتقِمْ لي منه.

ومنها نهيُه إيّاه عن الغضب، وعن الحُكْم بما تقتضيه قوّته الغضبيّة حتّى يسكن غضبُه. قد جاء في الخبر المرفوع: «لا يقضي القاضي وهو غَضْبانُ»، فإذا كان قد نُهِي

١ـ د: «فاختطفتْ».

أن يقضي القاضي وهو غضبان على غير صاحب الخصومة، فبالأوْلى أن يُنهَى الأمير عن أنْ يَسطوَ على إنسان وهو غضبان عليه.

وكان لكسرى أنوشروان صاحبٌ قد رتّبه ونصّبه لهذا المعنى، يقف على رأس الملِك يوم جلوسه، فإذا غضب على إنسان وأمر به، قرَع سلسلة تاجِه بقضيبٍ في يده وقال له: إنّما أنت بشرٌ، فارحمْ مَن في الأرض يَرْحَمْك مَن في السّماء.

الأصل:

ومِنْ هَذَا الْعَهْدِ وهُوَ آخِرُهُ:

وأَنَا أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ، أَنْ يُوَفِّقَنِي وإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ، مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وإِلَى خَلْقِهِ، مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ، وجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ، وتَمَامِ النِّعْمَةِ، وتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ، وأَنْ يَخْتِمَ لِي ولَكَ بِالسَّعَادَةِ والشَّهَادَةِ، إِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ[1]. والسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و[عَلَى[2]] آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

الشّرح: رُوي: «كلّ رَغِيبة»، والرّغيبة ما يُرغَب فيه، فأمّا الرّغبة فمصدرُ رَغِب في كذا، كأنّه قال: القادر على إعطاء كلّ سؤال، أي إعطاء كلّ سائلٍ ما سأله.

ومعنى قوله: «مِن الإقامة على العذر»، أي أسألُ الله أن يوفّقني للإقامة على الإجتهاد وبذْل الوُسْع في الطّاعة، وذلك [لأنّه[3]] إذا بذل جهدَه فقد أعذَر. ثمّ فسّر اجتهاده في ذلك في رضا الخَلْق، ولم يفسّر اجتهاده في رضا الخالق، لأنّه معلوم، فقال: هو حُسن الثّناء في العباد وجميل الأثر في البلاد.

فإن قلت: فقوله «وتمام النّعمة» على ما ذا تعطفه؟ قلت: هو معطوفٌ على «ما» من قوله «لِمَا فيه»، كأنّه قال: أسألُ الله توفيقي لِذا ولِتمام النّعمة، أي ولتمام نعمته

١ـ في د: «وإنا إليه داغبون».

٢ـ من «د».

٣ـ من «د».

عـلَيَّ وتضـاعُف كرامتـه لـديَّ. وتوفيقـه لهمـا هـو توفيقـه للأعمـال الصّـالحة الّـتي يستوجبهما بها. (١٧: ٣٠ ـ ١١٨)

[فصل فيما قيل مِن سبق عليّ عليه السلام إلى الإسلام]

(الخطبة: ٥٦) ومن كلام له عليه السلام لأصحابه:

أَمَا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ ... فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ.

[قال بعد ذكر خمس مسائل حول كلمات الخطبة ٥٦:]

المسألة السّادسة: أن يقال: كيف قال: «وسبقتُ إلى الإيمان» وقد قال قوم[1] من النّاس: إنّ أبا بكر سبَقه وقال قوم: إنّ زيد بن حارثه سبَقه؟

والجواب: أنّ أكثر أهل الحديث وأكثر المحقّقين من أهل السّيرة روَوْا أنّه عليه السلام أوّل من أسلم. ونحن نذكر كلام أبي عمر يوسف بن عبد البرّ المحدِّث في كتابه المعروف «بالاستيعاب».

قال أبو عمر في ترجمة[2] عليّ عليه السلام: المرويّ عن سلْمان وأبي ذرّ والمقداد وخَبّاب وأبي سعيد الخدريّ وزيد بن أسلم أنّ عليًّا عليه السلام أوّل مَن أسلم، وفضّله هؤلاء على غيره.

قال أبو عمر: وقال ابن إسحاق: أوّل من آمن بالله وبمحمّد رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو قول ابن شِهاب إلّا أنّه قال: «من الرّجال بعد خديجة».

قال أبو عمر: و حدّثنا أحمد بن محمّد، قال: حدّثنا أحمد بن الفضل، قال: حدّثنا محمّد بن جرير، قال: حدّثنا عليّ بن عبد الله الدِّهقان، قال: حدّثنا محمّد بن صالح، عن سِماك بن حرب، عن عِكْرمة، عن ابن عبّاس، قال: لعليّ عليه السلام أربع خصال ليست

---

١ ـ ب: «كثير»، وما أثبته من ج.

٢ ـ الاستيعاب: ١٠٨٩ وما بعدها.

لأحد غيره: هو أوّل عربيّ وعجميّ صلّى مع رسول الله ﷺ، وهو الّذي كان معه لواؤه في كلّ زَحْف، وهو الّذي صبر معه يوم فَرّ عنه غيره، وهو الّذي غسّله وأدخله قبره.

قال أبو عمر: ورُوي عن سلمان الفارسيّ أنّه قال: أوّل هذه الأُمّة وُرودًا على نبيّها ﷺ الحوضَ أوّلها إسلامًا، عليّ بن أبي طالب. وقد رُوي هذا الحديث مرفوعًا عن سلمان عن النّبيّ ﷺ، أنّه قال: «أوّل هذه الأُمّة وُرودًا علَيّ الحوض أوّلُها إسلامًا، عليّ ابن أبي طالب».

قال أبو عمر: ورفعه أوْلى، لأنّ مثله لا يُدرَك بالرّأي. قال أبو عمر: فأمّا إسناد المرفوع، فإنّ أحمد بن قاسم قال: حدّثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدّثنا الحارث بن أبي أُسامة، قال: حدّثني يحيى بن هاشم، قال: حدّثنا سفيان الثّوريّ، عن سلمة بن كُهَيل، عن أبي صادق، عن حَنش بن المعتمِر، عن عُلَيم[1] الكِنديّ، عن سلمان الفارسيّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أوّلكم واردًا علَيّ الحوض أوّلكم إسلامًا، عليّ بن أبي طالب».

قال أبو عمر: وروى أبو داود الطّيالسيّ، قال: حدّثنا أبو عوانة، عن أبي بَلْج، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عبّاس أنّه قال: أوّل مَن صلّى مع النّبيّ ﷺ بعدَ خديجة عليّ بن أبي طالب.

قال أبو عمر: وحدّثنا عبد الوارث بن سفيان، قال: حدّثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدّثنا أحمد بن زهير بن حرب، قال: حدّثنا الحسن بن حماد، قال: حدّثنا أبو عوانة، عن أبي بَلْج، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عبّاس، قال: كان عليٌّ أوّل مَن آمن مِن النّاس بعد خديجة. قال أبو عمر: هذا الإسناد لا مطعن فيه لأحد، لصحّته وثقة نَقَلَتِه؛ وقد عارض[2] ما ذكرنا في باب أبي بكر الصّدّيق، عن ابن عبّاس. والصّحيح في أمر أبي بكر أنّه أوّل مَن أظهر إسلامه كذلك. قاله مجاهد وغيره، قالوا: ومنعه قومه.

١ـ في الأُصول: «عكيم»، وما أثبته عن الاستيعاب.

٢ـ ج: «عورِض»، والاستيعاب: «وهو يعارض».

قال أبو عمر: اتّفق ابن شهاب، وعبد الله بن محمّد بن عَقيل، وقتادة، وابن إسحاق علَى أنّ أوّل مَن أسلم [1] مِن الرّجال عليٌّ. واتّفقوا على أنّ خديجة أوّل من آمن بالله ورسوله وصدّقه فيما جاء به، ثمّ عليٌّ بعدها. ورُوي عن أبي رافع مثل ذلك.

قال أبو عمر: وحدّثنا عبد الوارث، قال: حدّثنا قاسم، قال: حدّثنا أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عبد السّلام بن صالح، قال: حدّثنا عبد العزيز بن محمّد الدّراورديّ، قال: حدّثنا عُمر مولى غُفْرة، قال: سُئل محمّد بن كعب القرظيّ عن أوّل مَن أسلم: عليٌّ أم أبي بكر؟ فقال: سبحان الله! عليٌّ أوّلهما إسلامًا، وإنّما شُبّه علَى النّاس لأنّ عليًّا أخفَى إسلامه من أبي طالب، وأسلم أبو بكر فأظهر إسلامه.

قال أبو عمر: ولا شكّ عندنا أنّ عليًّا أوّلهما إسلامًا. ذكر عبد الرّزّاق في جامعه عن مَعْمر، عن قتادة، عن الحسن وغيره، قالوا: أوّل مَن أسلم بعد خديجة عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وروى مَعْمر، عن عثمان الجزريّ، عن مِقْسَم، عن ابن عبّاس، قال: أوّل مَن أسلم عليّ بن أبي طالب. قال أبو عمر: روى ابنُ فضيل عن الأجْلح، عن حَبّة ابن جوين العُرنيّ، قال: سمعت عليًّا عليه السلام يقول: لقد عبدتُ الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأُمّة خمس سنين.

قال أبو عمر: وروى شُعبة، عن سلَمة بن كُهَيل، عن حَبّة العرنيّ، قال: سمعت عليًّا يقول: أنا أوّل مَن صلّى مع رسول الله صلّى الله عليه. قال أبو عمر: وقد روى سالم ابن أبي الجعْد، قال: قلت لابن الحنفيّة: أبو بكر كان أوّلهما إسلامًا؟ قال: لا.

قال أبو عمر: وروى مسلم الملائيّ، عن أنس بن مالك، قال: استُنبِئ النّبيّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين، وصلّى عليٌّ يوم الثّلاثاء. قال أبو عمر: وقال زيد بن أرقم: أوّل مَن آمن بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب.

قال: وقد رُوي حديث زيد بن أرقم من وجوه، ذكرها النّسائيّ وأسلم بن موسى وغيرهما؛ منها ما حدّثنا به عبد الوارث، قال: حدّثنا قاسم، قال: حدّثنا أحمد بن

١ـ ج: «آمن».

زهير، قال: حدّثنا على بن الجَعْد، قال: حدّثنا شعبة، قال: أخبرني عمرو بن مرّة، قال: سمعت أبا حمزة الأنصاريّ قال: سمعت زيد بن أرقم يقول: أوّل مَن صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب.

قال أبو عمر: [وحدّثنا عبد الوارث، حدّثنا قاسم، حدّثنا أحمد بن زهير بن حرب[1]، حدّثنا أبي، قال: حدّثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، قال: حدّثنا ابن إسحاق، قال: حدّثنا يحيى بن أبي الأشعث، عن إسماعيل بن إياس بن عفيف الكنديّ، عن أبيه، عن جَدّه، قال: كنتُ امرأً تاجرًا، فقَدِمتُ الحجّ، فأتيتُ العبّاس ابن عبد المطّلب لِأبْتَاع منه بعض التّجارة، وكان امرأً تاجرًا. فوالله إنّي لعنده بِمِنى، إذ خرج رجلٌ من خِباء قريب منه، فنظر إلى الشّمس. فلمّا رآها قد مالتْ قام يصلّي. ثمّ خرجت امرأةٌ من ذلك الخِباء الّذي خرج منه ذلك الرّجل، فقامتْ خلْفه تصلّي. ثمّ خرج غلامٌ حين راهقَ الحلمُ من ذلك الخباء، فقام معه يصلّي.

فقلتُ للعبّاس: ما هذا يا عبّاس؟ قال: هذا محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب، ابن أخي. قلتُ: مَن هذه المرأة؟ قال: امرأته خديجة بنت خويلد. قلت: ما هذا الفتى؟ قال: عليّ بن أبي طالب ابن عمّه. قلت: ما هذا الّذي يصنع؟ قال: يصلّي، وهو يزعم أنّه نبيّ، ولم يتبعه على أمره إلّا امرأتُه وابن عمّه هذا الغلام، وهو يزعم أنّه سيَفتح على أُمّته كنوزَ كسرى وقيصر. قال: فكان عفيف الكنديّ يقول ـ وقد أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه: لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ كنتُ أكون ثانيًا مع عليٍّ.

قال أبو عمر: وقد ذكرنا هذا الحديث من طرُق في باب عفيف الكنديّ من هذا الكتاب. قال أبو عمر: ولقد قال عليّ عليه السلام: صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله كذا وكذا، لا يصلّي معه غيري إلّا خديجة. فهذه الرّوايات والأخبار كلّها ذكرها أبو عمر يوسف بن عبد البرّ في الكتاب المذكور، وهي كما تراها تكاد تكون إجماعًا.

---

١ ـ من الاستيعاب.

قال أبو عمر: وإنّما الاختلاف في كميّة سِنّه عليه السلام يوم أسلَم. ذكر الحسن بن عليّ الحلوانيّ في كتاب «المعرفة» له، قال: حدّثنا عبد الله بن صالح، قال: حدّثنا اللّيث ابن سعد، عن أبي الأسود محمّد بن عبد الرّحمن، أنّه بلغه أنّ عليًّا والزّبير أسلما وهما ابنا ثماني سنين.

كذا يقول أبو الأسود يتيم عروة، وذكره أيضًا ابن أبي خيثمة عن قُتيبة بن سعيد، عن اللّيث بن سعد، عن أبي الأسود؛ وذكره معمّر بن شَبّة، عن الحراميّ، عن أبي وهب، عن اللّيث، عن أبي الأسود، قال اللّيث: وهاجَرا وهما ابنا ثماني عشرة سنة. قال أبو عمر: ولا أعلم أحدًا قال بقول أبي الأسود هذا.

قال أبو عمر: وروى الحسن بن على الحلوانيّ، قال: حدّثنا عبد الرّزّاق، قال: حدّثنا مَعْمر، عن قتادة، عن الحسن، قال: أسلم عليٌّ وهو ابن خمس عشرة سنة.

قال أبو عمر: وأخبرَنا أبو القاسم خلَف بن قاسم بن سهل، قال: حدّثنا أبو الحسن عليّ بن محمّد بن إسماعيل الطّوسيّ، قال: أخبرنا أبو العبّاس محمّد بن إسحاق بن إبراهيم السّرّاج، قال: حدّثنا محمّد بن مسعود، قال: أخبرنا عبد الرّزّاق، قال: أخبرنا مَعْمر، عن قَتادة، عن الحسن، قال: أسلم عليٌّ، وهو أوّل مَن أسلم، وهو ابن خمس عشرة سنة أو ستّ عشرة سنة. قال أبو عمر: قال ابن وَضّاح: وما رأيت أحدًا قطّ أعلم بالحديث من محمّد بن مسعود، ولا بالرّأي من سُحنون.

قال أبو عمر: قال ابن إسحاق: أوّل ذكَرٍ آمن[1] بالله ورسوله عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو يومئذ ابن عشر سنين. قال أبو عمر: والرّوايات في مَبْلغ سِنّه عليه السلام مختلفة؛ قيل: أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: ابن اثنتيْ عشرة سنة، وقيل: ابن خمس عشرة سنة، وقيل: ابن ستّ عشرة سنة، وقيل: ابن عشر. وقيل: ابن ثمان.

قال أبو عمر: وذكر عُمر بن شَبّة، عن المدائنيّ، عن ابن جَعْدة، عن نافع، عن ابن عمر قال: أسلم عليٌّ وهو ابن ثلاث عشرة سنة. قال: وأخبرنا إبراهيم بن المنذر

١ـ ج: «أسلم».

الحراميّ، قال: حدّثنا محمّد بن طلحة، قال: حدّثني جدّي إسحاق بن يحيى، عن طلحة، قال: كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام والزّبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقّاص أعمارًا واحدة.

قال: وأخبرنا عبد الله بن محمّد بن عبد المؤمن، قال: حدّثنا إسماعيل بن عليّ الخطبيّ، قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثنا حُجَيْن أبو عمر، قال: حدّثنا حِبّان، عن معروف، عن أبي معشر، قال: كان عليّ عليه السلام وطلحة والزّبير في سنٍّ واحدة.

قال: وروى عبد الرّزّاق، عن الحسن وغيره: أنّ أوّل مَن أسلم بعد خديجة عليّ ابن أبي طالب عليه السلام وهو ابن خمس عشرة سنة أو ستّ عشرة. قال أبو عمر: وروى أبو زيد عمر بن شَبّة، قال: حدّثنا شريح بن النّعمان، قال: حدّثنا الفُرات بن السّائب، عن ميمون بن مِهران، عن ابن عمر، قال: أسلم عليٌّ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وتُوُفّي وهو ابن ثلاث وستّين سنة.

قال أبو عمر: هذا أصحّ ما قيل في ذلك، والله أعلم. انتهى حكاية كلام أبي عمر في كتاب «الاستيعاب».

واعلم أنّ شيوخنا المتكلّمين لا يكادُون يختلفون في أنّ أوّل النّاس إسلامًا عليّ ابن أبي طالب عليه السلام، إلّا مَن عساه خالف في ذلك من أوائل البصريّين. فأمّا الّذي تقرّرتْ المقالةُ عليه الآن فهو القول بأنّه أسبقُ النّاس إلى الإيمان، لا تكاد تجد اليوم في تصانيفهم وعند متكلّميهم والمحقّقين منهم خلافًا في ذلك.

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ما زال يدّعي ذلك لنفسه ويفتخر به ويجعله في أفضليّته علَى غيره ويصرّح بذلك. وقد قال غير مرّةٍ: أنا الصّدّيق الأكبر والفاروق الأوّل، أسلمت قبل إسلام أبي بكر، وصلّيت قبل صلاته. ورَوى عنه هذا الكلام بعينه أبو محمّد بن قتيبة في كتاب «المعارف» وهو غير متّهم في أمره.

ومن الشّعر المرويّ عنه عليه السلام في هذا المعنى، الأبيات الّتي أوّلها:

محمّد النّبيّ أخي وصِهْرِي ... وحمزة سيّدُ الشُّهداء عَمّي

ومن جملتها:

سبقتُكم إلى الإسلام طُرًّا غلامًا ما بلغتُ أوَانَ حلمي

والأخبار الواردة في هذا الباب كثيرة جدًّا لا يتّسع هذا الكتاب لذكرها، فلتُطلب من مظانّها. ومَن تأمّل كتب السّيَر والتّواريخ عرف مِن ذلك ما قلناه.

فأمّا الذّاهبون إلى أنّ أبا بكر أقدَمهما إسلامًا فنفرٌ قليلون. ونحن نذكر ما أورده ابن عبد البرّ أيضًا في كتاب «الاستيعاب» في ترجمة أبي بكر[1].

قال أبو عمر: حدّثني خالد بن القاسم، قال: حدّثنا أحمد بن محبوب، قال: حدّثنا محمّد بن عَبدُوس، قال: حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال: حدّثنا شيخ لنا، قال: أخبرنا مجالد، عن الشّعبيّ، قال: سألت ابن عباس ـ أو سئل ـ: أيّ النّاس كان أوّل إسلامًا؟ فقال: أما سمعتَ قول حسّان بن ثابت[2]:

إذا تذكّرتَ شَجْوًا مِنْ أخِي ثقةٍ فاذكُرْ أخاكَ أبا بكرٍ بما فَعَلا

خَيرُ البريّة أتقاها وأعدلُها بعدَ النّبيّ وأوفاها بما حَمَلا

والثّانيَ التّاليَ المحمودَ مَشْهَدُه وأوّلُ النّاس منهم صَدَّقَ الرُّسُلا

ويُروَى أنّ النّبيّ ﷺ قال لحسّان: «هل قلت في أبي بكر شيئًا؟» قال: نعم، وأنشده هذه الأبيات، وفيها بيت رابع:

وثانيَ اثنين في الغار المنيفِ وَقَدْ طاف العدوُّ به إذ صَعَّدُوا الجَبَلا

فسُرّ بذلك رسول الله ﷺ وقال: «أحسنتَ يا حسّان»، وقد رُوي فيها بيت خامس:

وَكَانَ حِبَّ رسولِ الله قد علِمُوا من البريَّةِ لم يَعْدِلْ بِهِ رَجُلا

١ـ الاستيعاب: ٣٣٠.

٢ـ ديوانه: ٢٩٩ـ٣٠٠ مع اختلاف في الرّواية و ترتيب الأبيات.

وقال أبو عمر: وروى شُعبة، عن عمرو بن مرّة، عن إبراهيم النَّخعِيّ، قال: أوّل مَن أسلم أبو بكر. قال: ورَوى الجريريّ، عن أبي نصر، قال: قال أبو بكر لعليّ عليه السلام: أنا أسلمت قبلك، في حديث ذكره فلم ينكِرْه عليه. قال أبو عمر: وقال فيه أبو مِحْجَن الثّقفيّ:

وَسُمِّيـــتَ صِـــدِّيقًا وكـــلُّ مهـــاجر ... ســـواك يســـمَّى باسمـــه غيـــرُ مُنكَـــرِ
ســـبقتَ إلى الإســـلام واللهُ شـــاهدٌ ... وكنـــتَ جليسًـــا بـــالعريشِ المُشَـــهَّرِ
وبالغـــارِ إذ سُمِّيـــتَ خِـــلًّا و صـــاحبًا ... وكنـــتَ رفيقًـــا للنّـــبيّ المُطَهَّـــرِ

قال أبو عمر: وروينا من وجوه، عن أبي أمامة الباهليّ، قال: حدّثني عمرو بن عَبْسة، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بعُكَاظ، فقلت: يا رسول الله، مَن اتَّبعَك علَى هذا الأمر؟ فقال: حرٌّ وعبدٌ: أبو بكر وبلال. قال: فأسلمت عند ذلك، وذكر الحديث.

هذا مجموع ما ذكره أبو عمر بن عبد البرّ في هذا الباب في ترجمة أبي بكر، ومعلوم أنّه لا نسبة لهذه الرّوايات إلى الرّوايات الّتي ذكَرها في ترجمة عليّ عليه السلام الدّالّة علَى سبْقه ولا ريب أنّ الصّحيح ما ذكره أبو عمر أنّ عليًّا عليه السلام كان هو السّابق، وأنّ أبا بكر هو أوّل من أظهر إسلامَه، فظنّ أنّ السّبْق له. وأمّا زيد بن حارثة، فإنّ أبا عمر بن عبد البرّ رضي الله تعالى عنه ذكر في كتاب «الاستيعاب» أيضًا في ترجمة زيد بن حارثة، قال: ذكر معمَّر بن شَبّة في جامعه عن الزّهريّ أنّه قال: ما علمنا أحدًا أسلم قبل زيد بن حارثة[1]. قال عبد الرّزّاق: وما أعلم أحدًا ذكَره غير الزّهريّ. ولم يذكر صاحب «الاستيعاب» ما يدلّ على سبْق زيد إلّا هذه الرّواية واستَغْربها. فدلّ مجموع ما ذكرناه أنّ عليًّا عليه السلام أوّل النّاس إسلامًا، وأنّ المخالف في ذلك شاذٌّ، والشّاذّ لا يعتدّ به.

(٤: ١١٦ـ ١٢٥)

١ـ الاستيعاب: ١٨٧.

[القول في إسلام أبي بكر وعليّ عليه السلام وخصائص كلٍّ منهما]

(الخطبة: ٢٣٨) ... وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ ﷺ لَمّا أَتَاهُ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ ... فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذّابٌ، عَجِيبُ السِّحْرِ، خَفِيفٌ فِيهِ. وَ هَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلّا مِثْلُ هَذَا! يَعْنُونَنِي. وَ إِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ... .

... وينبغي أن نذكر في هذا الموضع ملخَّص ما ذكره الشّيخ أبو عثمان الجاحظ في كتابه المعروف بكتاب «العثمانيّة» في تفضيل إسلام أبي بكر على إسلام عليّ عليه السلام، لأنّ هذا الموضع يقتضيه، لقوله عليه السلام حكايةً عن قريش لمّا صدَّق رسول الله ﷺ: «وهل يصدِّقك في أمرك إلّا مثل هذا!» لأنّهم استصغروا سنّه، فاستحقروا أمر محمّد رسول الله ﷺ حيث لم يصدِّقه في دعواه إلّا غلامٌ صغير السّنّ.

وشبهة العثمانيّة الّتي قرّرها الجاحظ من هذه الشّبهة نشأتْ، ومن هذه الكلمة تفرّعتْ، لأنّ خلاصتها أنّ أبا بكر أسلم وهو ابن أربعين سنة وعليًّا أسلم ولم يبلغ الحُلم، فكان إسلام أبي بكر أفضل.

ثمّ نذكر ما اعترض به شيخنا أبو جعفر الإسكافيّ على الجاحظ في كتابه المعروف بـ«نقض العثمانيّة»، ويتشعّب الكلام بينهما حتّى يخرج عن البحث في الإسلامَيْن إلى البحث في أفضليّة الرّجلَيْن وخصائصهما. فإنّ ذلك لا يخلو عن فائدة جليلة ونكتة لطيفة، لا يليق أن يخلو كتابُنا هذا عنها، ولأنّ كلامهما بالرّسائل والخطابة أشبه، وفي الكتابة أقصد وأدخل، وكتابنا هذا موضوعٌ لذكر ذلك أمثاله.

قال أبو عثمان: قالت العثمانيّة: أفضل الأُمّة وأوْلاها بالإمامة أبو بكر بن أبي قُحافة عليه ما عليه، لإسلامه على الوجه الّذي لم يُسلِم عليه أحدٌ في عصره. وذلك أنّ النّاس اختلفوا في أوّل النّاس إسلامًا؛ فقال قوم: أبو بكر، وقال قوم: زيد بن حارثة، وقال قوم: خبّاب بن الأرتّ.

وإذا تفقّدنا أخبارهم وأحصينا أحاديثهم وعددنا رجالهم ونظرنا في صحّة أسانيدهم، كان الخبر في تقدّم إسلام أبي بكر أعمّ ورجاله أكثر وأسانيده أصحّ، وهو

بذاك أشهر واللّفظ فيه أظهر، مع الأشعار الصّحيحة والأخبار المستفيضة في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعد وفاته. وليس بين الأشعار والأخبار فرْق إذا امتنع في مجيئها وأصل مخرجها، التّباعد والاتّفاق والتّواطؤ.

ولكن نَدَع هذا المذهب جانبًا ونضرب عنه صفْحًا، اقتدارًا على الحجّة و وثوقًا بالفَلج والقوّة، ونقتصر على أدنى نازل في أبي بكر وننزل على حكم الخصم فنقول: إنّا وجدْنا مَن يزعم أنّه أسلم قبل زيد وخبّاب، و وجدنا من يزعم أنّهما أسلما قبله. وأوسط الأُمور أعدلُها، وأقربها من محبّة الجميع ورضا المخالف أن نجعل إسلامهم كان معًا؛ إذ الأخبار متكافئة والآثار متساوية على ما تزعمون، وليستْ إحدى القضيّتين أوْلى في صحّة العقل من الأُخرى. ثمّ نستدّل على إمامة أبي بكر بما ورد فيه من الحديث وبما أبانه به الرّسول صلى الله عليه وآله من غيره.

قالوا: فِمّا رُوي مِن تقدّم إسلامه ما حدّث به أبو داود وابن مهديّ عن شعبة، وابن عُيَيْنة عن الجريريّ، عن أبي هريرة، قال أبو بكر: أنا أحقّكم بهذا الأمر ـ يعني الخلافة ـ أ لستُ أوّل مَن صلّى!

روى عباد بن صُهَيب، عن يحيى بن عمير، عن محمّد بن المنكدِر، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الله بعثني بالهدى ودين الحقّ إلى النّاس كافّةً، فقالوا: كذبتَ، وقال أبو بكر: صدقتَ».

وروى يعلَى بن عُبَيد، قال: جاء رجل إلى ابن عبّاس فسأله: مَن كان أوّل النّاس إسلامًا؟ فقال: أما سمعتَ قول حسّان بن ثابت!

إذا تـذكّرتَ شَـجْوًا مـن أخـي ثقـةٍ فـاذْكُر أخـاك أبـا بكـرٍ بـما فَعَـلا[1]

---

١ ـ ديوانه: ٢٩٩، والعثمانيّة: ١١١.

والثّـانيَ التّـاليَ المحمـودَ مشـهدُه وأوّلَ النّاس منهمْ صدَّق الرُّسُلا[1]

وقال أبو مِحْجَن:

سـبقتَ إلى الإسـلام والله شـاهدُ وكنـتَ حبيبًـا بـالعريش المشـهّرِ[2]

وقال كعب بن مالك:

سـبقتَ أخـا تَـيْمٍ إلى ديـن أحمـدٍ وكنتَ لدى الغيرانِ في الكهف صاحِبا[3]

وروى ابن أبي شَيْبَة، عن عبد الله بن إدريس و وكيع، عن شعبة، عن عمرو بن مرّة، قال: قال النّخعيّ: أبو بكر أوّل مَن أسلم.

وروى هيثم عن يعلَى بن عطاء، عن عمرو بن عَنبِسة، قال: أتيتُ النّبيّ ﷺ وهو بعُكاظ، فقلت: مَن بايعك على هذا الأمر؟ فقال: بايعني حرٌّ وعبدٌ، فلقد رأيتُني يومئذ وأنا رابعُ الإسلام. قال بعضُ أصحاب الحديث: يعني بالحرّ أبا بكر وبالعبد بلالًا.

وروى اللّيث بن سعد، عن معاوية بن صالح، عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة، قال: حدّثني عمرو بن عَنبِسة، أنّه سأل النّبيّ ﷺ وهو بعُكاظ فقال له: مَن تَبِعك؟ قال: تبعني حرٌّ وعبدٌ: أبو بكر وبلال.

وروى عمرو بن ابراهيم الهاشميّ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن أسيد بن صَفْوان صاحب النّبيّ ﷺ قال: لمّا قُبض أبو بكر جاء عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال: رحمك الله أبا بكر! كنتَ أوّل النّاس إسلامًا.

١ـ بعده في الدّيوان والعثمانيّة:

وثـانِيَ اثنـينِ في الغـار المنيـف وقَـد طـافَ العـداةُ بـه إذْ صـعّد الجَـبَلا
خيـرَ البريّـةِ أتقاهـا وأطهرَهـا إلّا النّـبيَّ وأوفاهـا بمـا حَمَـلا

٢ـ في الأُصول: «المشهّرا»، وأثبت ما في العثمانيّة، من أبيات ثلاثة أوردها على قافية الرّاء المكسورة.

١ـ العثمانيّة: ١١١.

وروى عبّادٌ، عن الحسن بن دينار، عن بشر بن أبي زينب، عن عِكرمة مولى ابن عبّاس، قال: إذا لقيتُ الهاشميّين قالوا: عليّ بن أبي طالب أوّل مَن أسلم، وإذا لقيتُ الّذين يعلمون، قالوا: أبو بكر أوّل مَن أسلم.

قال أبو عثمان الجاحظ: قالت العثمانيّة: فإن قال قائلٌ: فما بالُكم لم تذكُروا عليّ ابن أبي طالب في هذه الطّبقة، وقد تعلمون كثرة مقدِّميه والرّواية فيه؟

قلنا: قدعلمْنا الرّواية الصّحيحة والشّهادة القائمة أنّه أسلم وهو حَدَثٌ غرير وطفلٌ صغير، فلم نكذِّب النّاقلين ولم نستطع أن نلحق إسلامه بإسلام البالغين؛ لأنّ المقلِّل زعم أنّه أسلم وهو ابن خمس سنين، والمكثِّر زعم أنّه أسلم وهو ابن تسع سنين. فالقياسُ أنْ يؤخذ بالأوسط بين الرّوايتيْن وبالأمر بين الأمريْن.

وإنّما يُعرَف حقّ ذلك من باطله بأنْ نحصي سِنِيه الّتي وَلي فيها الخلافة، وسني عمر وسني عثمان وسني أبي بكر، ومقام النّبيّ صلى الله عليه وآله بالمدينة ومقامه بمكّة عند إظهار الدّعوة. فإذا فعلنا ذلك صحّ أنّه أسلم وهو ابن سبع سنين. فالتّاريخ المجمَع عليه أنّه قُتِل عليه السلام في شهر رمضان سنة أربعين.

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافيّ[1]: لولا ما غلب على النّاس من الجهل وحبّ التّقليد، لم نحتجْ إلى نقض ما احتجّتْ به العثمانيّة. فقد عَلم النّاس كافّةً أنّ الدوّلة والسّلطان لأرباب مقالتهم، وعَرف كلّ أحدٍ علوّ أقدار شيوخهم وعلمائهم وأُمرائهم، وظهور كلمتهم وقهر سلطانهم وارتفاع التّقيّة عنهم والكرامة، والجائزة لمَن رَوى الأخبار والأحاديث في فضل أبي بكر، وما كان من تأكيد بني أُميّة لذلك، وما ولّده المحدّثون من الأحاديث طلبًا لِما في أيديهم.

١ـ هو محمّد بن عبد الله أبو جعفر المعروف بالإسكافيّ، ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ٥: ٤١٦، وقال عنه: «أحد المتكلّمين من معتزلة البغداديّين، وله تصانيف معروفة ... وبلغني أنّه مات في سنة أربعين ومائتين».

فكانوا لا يألون جَهدًا في طول ما ملكوا أن يُخمِلوا ذكرَ عليّ عليه السلام و ولده، ويطفئوا نورهم، ويكتموا فضائلهم ومناقبهم وسوابقهم، ويحملوا على شتمهم وسبّهم ولعنهم على المنابر. فلم يزل السّيف يقطُرمن دمائهم، مع قلّة عددهم وكثرة عدوّهم؛ فكانوا بين قتيلٍ وأسيروشريد وهارب ومستخفٍ ذليل وخائفٍ مترقّب.

حتّى إنّ الفقيه والمحدّث والقاضي والمتكلّم لَيتقدّم إليه ويتوعّد بغاية الإيعاد وأشدّ العقوبة أنْ لا يذكروا شيئًا من فضائلهم ولا يرخّصوا لأحدٍ أن يُطيف بهم، وحتّى بلغ مِن تقيّة المحدّث أنّه إذا ذكرحديثًا عن علي عليه السلام كَنى عن ذكره فقال: قال رجلٌ من قريش، وفعل رجلٌ من قريش، ولا يذكرعليًّا عليه السلام ولا يتفوّه باسمه.

ثمّ رأينا جميعَ المختلفين قد حاولوا نقضَ فضائله و وجّهوا الحِيل والتّأويلات نحوها؛ مِن خارجيٍّ مارق وناصبٍ حَنِق وثابتٍ مستبهم وناشئٍ معاند ومنافقٍ مكذّب وعثمانيّ حسود يعترض فيها ويطعن، ومعتزليّ قد نقض في الكلام وأبصرعلم الاختلاف وعرف الشّبه ومواضع الطّعن وضروب التّأويل، قد التمس الحِيل في إبطال مناقبه وتأوّل مشهور فضائله؛ فمرّةً يتأوّلها بما لا يحتمل، ومرّةً يقصد أن يضع مِن قدرها بقياس منتقضٍ، ولا يزداد مع ذلك إلّا قوّةً ورفعةً و وضوحًا واستنارةً.

وقد علمت أنّ معاوية ويزيد ومَن كان بعدهما من بني مروان أيّام ملْكهم ـ وذلك نحو ثمانين سنة ـ لم يدَعُوا جهدًا في حَمْل النّاس على شتمه ولعنه وإخفاء فضائله وستر مناقبه وسوابقه.

روى خالد بن عبد الله الواسطيّ، عن حصين بن عبد الرّحمن، عن هلال بن يساف، عن عبد الله بن ظالم قال: لمّا بُويع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباءَ يلعنون عليًّا عليه السلام. فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل: ألا ترَوْن إلى هذا الرّجل الظّالم يأمربلعْن رجلٍ من أهل الجنّة!

روى سليمان بن داود، عن شُعبة، عن الحرّبن الصّبّاح، قال: سمعتُ عبد الرّحمن ابن الأخنس، يقول: شهدتُ المغيرة بن شُعبة خطب فذكرعليًّا عليه السلام فنال منه.

روى أبو كُريب، قال: حدّثنا أبو أُسامة، قال: حدّثنا صدقة بن المثنّى النّخعيّ عن رياح بن الحارث، قال: بينما المغيرة بن شعبة بالمسجد الأكبر وعنده ناسٌ، إذ جاءه رجل يقال له قيس بن علقمة، فاستقبل المغيرة فسبّ عليًّا عليه السلام.

روى محمّد بن سعيد الأصفهانيّ، عن شريك، عن محمّد بن إسحاق، عن عمرو ابن عليّ بن الحسين، عن أبيه عليّ بن الحسين عليه السلام، قال: قال لي مروان: ما كان في القوم أدفع عن صاحبنا مِن صاحبكم. قلت: فما بالكم تسُبّونه على المنابر؟ قال: إنّه لا يستقيم لنا الأمر إلّا بذلك.

روى مالك بن إسماعيل أبو غسّان النّهديّ، عن ابن أبي سيف، قال: خطب مروان، والحسن عليه السلام جالسٌ، فنال من عليٍّ عليه السلام، فقال الحسن: ويلك يا مروان! أ هذا الّذي تشتم شرّ النّاس! قال: لا، ولكنّه خيرُ النّاس.

وروى أبو غَسّان أيضًا، قال: قال عمر بن عبد العزيز: كان أبي يخطُب فلا يزال مستمرًّا في خطبته حتّى إذا صار إلى ذكر عليٍّ وسبّه، تقطّع لسانه واصفرّ وجهه وتغيّرت حاله. فقلت له في ذلك، فقال: أ وقد فطِنتَ لذلك؟ إنّ هؤلاء لو يعلمون من عليٍّ ما يعلمه أبوك ما تبعَنا منهم رجلٌ.

وروى أبو عثمان، قال: حدّثنا أبو اليقظان، قال: قام رجلٌ من ولد عثمان إلى هشام بن عبد الملك يوم عَرفة، فقال: إنّ هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبي تراب.

وروى عمرو بن القَنّاد، عن محمّد بن فُضيل، عن أشعث بن سَوّار، قال: سَبّ عديّ بن أرطاة عليًّا عليه السلام على المنبر، فبكى الحسن البصريّ وقال: لقد سُبّ هذا اليوم رجلٌ إنّه لَأخو رسولِ الله صلى الله عليه وآله في الدّنيا والآخرة.

وروى عديّ بن ثابت، عن إسماعيل بن إبراهيم، قال: كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسيْن في الجمعة ممّا يلي أبواب كنْدة، فخرج المغيرة فخطب فحمِد الله، ثمّ ذكر ما شاء أن يذكُر، ثمّ وقع في عليّ عليه السلام. فضرب إبراهيم على فخذي أو ركبتي ثمّ قال: أقبلْ علَيّ فحدّثْني، فإنّا لسنا في جمعة، ألا تسمع ما يقول هذا!

وروى عبد الله بن عثمان الثّقفيّ، قال: حدّثنا ابن أبي سيف، قال: قال ابنٌ لعامر ابن عبد الله بن الزّبير لولده: لا تذكريا بُنيّ عليًّا إلّا بخير؛ فإن بني أُميّة لعنوه على منابرهم ثمانين سنة، فلم يزده الله بذلك إلّا رفعة. إنّ الدّنيا لم تبْنِ شيئًا قطّ إلّا رجعت على ما بَنَتْ فهدمتْه، وإنّ الدّين لم يبْنِ شيئًا قطّ وهدَمه.

وروى عثمان بن سعيد، قال: حدّثنا مطّلب بن زياد، عن أبي بكر بن عبد الله الأصبهانيّ، قال: كان دَعيٌّ لبني أُميّة يقال له خالد بن عبد الله، لا يزال يشتُم عليًّا عليه السلام. فلمّا كان يوم جمعة وهو يخطب النّاس، قال: والله إن كان رسول الله ليستعمله، وإنّه لَيعلم ما هو! ولكنّه كان ختَنه. وقد نعس سعيد بن المسيّب ففتح عينيه ثمّ قال: ويحكم! ما قال هذا الخبيث، رأيتُ القبر انصدَع ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول: كذبتَ يا عدوّ الله.

وروى القَنّاد، قال: حدّثنا أسباط بن نصر الهمدانيّ، عن السّديّ، قال: بينما أنا بالمدينة عند أحجار الزّيت، إذ أقبل راكبٌ على بعير. فوقف فسبّ عليًّا عليه السلام، فحفّ به النّاس ينظرُون إليه. فبينما هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبي وقّاص، فقال: اللّهمّ إن كان سَبّ عبدًا لك صالحًا، فأَرِ المسلمين خزْيه! فما لبث أن نفَر به بعيرُه فسقط فاندقّت عنقه.

وروى عثمان بن أبي شيبة، عن عبد الله بن موسى، عن فطْر بن خليفة، عن أبي عبد الله الجَدَليّ، قال: دخلتُ على أُمّ سلمة رحمها الله فقالت لي: أ يُسَبّ رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم وأنتم أحياء؟ قلت: وأنّى يكون هذا؟ قالت: أ ليس يُسَبّ عليّ عليه السلام ومَن يحبّه.

وروى العبّاس بن بَكّار الضّبّيّ، قال: حدّثني أبو بكر الهُذَليّ، عن الزّهريّ، قال: قال ابن عبّاس لمعاوية: أ لا تكفّ عن شتم هذا الرّجل؟ قال: ما كنتُ لأفعل حتّى يربوَ عليه الصّغير ويهرَم فيه الكبير. فلمّا ولّى عمر بن عبد العزيز كفّ عن شتمه، فقال النّاس: ترك السّنّة.

قال: وقد رُوي عن ابن مسعود إمّا موقوفًا عليه أو مرفوعًا: كيف أنتم إذا شملتْكم فتنةٌ يربو عليها الصّغير ويهرَم فيها الكبير، يجري عليها النّاس فيتخذونها سنّة، فإذا غيّر منها شيء قيل: غيّرت السّنّة.

قال أبو جعفر: وقد تعلمون أنّ بعض الملوك ربّما أحدثوا قولًا أو دينًا لِهوًى، فيحملون النّاس على ذلك حتّى لا يعرفون غيره، كنحو ما أخذ النّاسَ الحجّاجُ بن يوسف بقراءة عثمان وترك قراءة ابن مسعود وأُبيّ بن كعب، وتوعّد على ذلك بدون ما صنع هو وجبابرة بني أُميّة وطغاة بني مروان بولد عليّ عليه السلام وشيعته.

وإنّما كان سلطانه نحو عشرين سنة، فما مات الحجّاج حتّى اجتمع أهلُ العراق على قراءة عثمان ونشأ أبناؤهم ولا يعرفون غيرها، لإمساك الآباء عنها وكفّ المعلِّمين عن تعليمها. حتّى لو قرأت عليهم قراءة عبد الله وأُبيّ ما عرفوها ولظنّوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان، لإلْف العادة وطول الجهالة. لأنّه إذا استؤلت على الرّعيّة الغلَبة وطالت عليهم أيّام التّسلّط وشاعت فيهم المخافة وشملتهم التّقيّة، اتّفقوا على التّخاذل والتّساكت. فلا تزال الأيّام تأخذ من بصائرهم وتنقص من ضمائرهم وتنقض من مرائرهم، حتّى تصير البدْعة الّتي أحدثوها غامرةً للسّنّة الّتي كانوا يعرفونها.

ولقد كان الحجّاج ومَن ولّاه كعبد الملك والوليد ومَن كان قبلهما وبعدهما من فراعنة بني أُميّة على إخفاء محاسن عليّ عليه السلام وفضائله وفضائل ولده وشيعته وإسقاط أقدارهم، أحرصَ منهم على إسقاط قراءة عبد الله وأُبيّ؛ لأنّ تلك القراءات لا تكون سببًا لزوال ملكهم وفساد أمرهم وانكشاف حالهم، وفي اشتهار فضل عليّ عليه السلام و ولده وإظهار محاسنهم، بوارُهم وتسليط حكم الكتاب المنبوذ عليهم؛ فحرصوا واجتهدوا في إخفاء فضائله وحملوا النّاس على كتمانها وسترها.

وأبى الله أن يزيد أمرُه وأمر ولده إلّا استنارةً وإشراقًا، وحبُّهم إلّا شغَفًا وشدّةً، وذكرُهم إلّا انتشارًا وكثرةً، وحجّتُهم إلّا وضوحًا وقوّةً، وفضلُهم إلّا ظهورًا، وشأنُهم إلّا

عُلوًّا، وأقدارُهم إلّا إعظامًا، حتّى أصبحوا بإهانتهم إيّاهم أعزّاء وبإماتتهم ذكْرهم أحياء، وما أرادوا به وبهم مِن الشّرّ تحوّل خيرًا.

فانتهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ومزاياه وسوابقه ما لم يتقدّمه السّابقون ولا ساواه فيه القاصدون ولا يلحقه الطّالبون. ولولا أنّها كانت كالقِبلة المنصوبة في الشُّهرة وكالسُّنن المحفوظة في الكثرة، لم يصلْ إلينا منها في دهرنا حرفٌ واحد، إذ كان الأمر كما وصفناه.

قال: فأمّا ما احتجّ به الجاحظ بإمامة أبي بكر بكوْنه أوّل النّاس إسلامًا، فلو كان هذا احتجاجًا صحيحًا، لَاحتجّ به أبو بكر يوم السّقيفة، وما رأيناه صنَع ذلك لأنّه أخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجرّاح، وقال للنّاس: قد رضيتُ لكم أحد هذيْن الرّجلين، فبايِعوا منهما مَن شئتم.

ولو كان هذا احتجاجًا صحيحًا لَما قال عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتةً وقَى الله شرَّها. ولو كان احتجاجًا صحيحًا لَادّعى واحدٌ من النّاس لأبي بكر الإمامة في عصره أو بعد عصره بكونه سبَق إلى الإسلام، وما عرفنا أحدًا ادّعى له ذلك.

على أنّ جمهور المحدّثين لم يذكروا أنّ أبا بكر أسلم إلّا بعد عدّة من الرّجال؛ منهم عليّ بن أبي طالب، وجعفر أخوه، وزيد بن حارثة، وأبو ذرّ الغِفاريّ، وعمرو بن عَنْبسة السلميّ، وخالد بن سعيد بن العاص، وخبّاب بن الأرتّ. وإذا تأمّلنا الرّوايات الصّحيحة والأسانيد القويّة والوثيقة، وجدناها كلّها ناطقةً بأنّ عليًّا عليه السلام أوّل مَن أسلم.

فأمّا الرّواية عن ابن عبّاس أنّ أبا بكر أوّلهم إسلامًا، فقد رُوي عن ابن عبّاس خلاف ذلك بأكثر ممّا روَوْا وأشهر؛ فمِن ذلك ما رواه يحيى بن حمّاد، عن أبي عوانة وسعيد بن عيسى، عن أبي داود الطّيالسيّ، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عبّاس، أنّه قال: أوّل مَن صلّى من الرّجال عليٌّ عليه السلام.

وروى الحسن البصريّ، قال: حدّثنا عيسى بن راشد، عن أبي بصير، عن عِكرمة، عن ابن عبّاس، قال: فرض الله تعالى الاستغفار لعليّ عليه السلام في القرآن على كلّ مسلم

بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1]؛ فكلّ مَن أسلم بعد عليٍّ فهو يستغفر لعليّ عليه السلام.

وروى سفيان بن عُيينة، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عبّاس، قال: السُّبّاق ثلاثة: سبَق يوشع بن نون إلى موسى، وسبق صاحب «يس» إلى عيسى، وسبق عليّ بن أبي طالب إلى محمّد عليه وعليهم السّلام.

فهذا قول ابن عبّاس في سبْق عليّ عليه السلام إلى الإسلام، وهو أثبت مِن حديث الشّعبيّ وأشهر. على أنّه قد رُوي عن الشّعبيّ خلاف ذلك من حديث أبي بكر الهذليّ وداود بن أبي هند عن الشّعبيّ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «هذا أوّل مَن آمن بي وصدّقني وصلّى معي».

قال: فأمّا الأخبار الواردة بسبقه إلى الإسلام، المذكورة في الكتب الصّحاح والأسانيد الموثوق بها، فمنها ما روى شَريك بن عبد الله، عن سليمان بن المغيرة، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود، أنّه قال: أوّل شيء عَلِمتُه من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أنّي قَدِمتُ مكّة مع عمومةٍ لي وناسٍ من قومي، وكان من أنفسنا شراء عِطْر.

فأُرشِدْنا[2] إلى العبّاس بن عبد المطّلب، فانتهينا إليه، وهو جالس إلى زمزم. فبينا نحن عنده جلوسًا، إذ أقبل رجلٌ من باب الصَّفا، وعليه ثوبان أبيضان، وله وفْرةٌ إلى أنصاف أُذُنيْه، جَعدةٌ، أشمُّ، أقنى، أدعَجُ العينين، كَثُّ اللّحية، برّاق الثّنايا، أبيضُ تعلوه حمرةٌ، كأنّه القمر ليلة البدر، وعلى يمينه غلامٌ مُراهِقٌ أو محتلمٌ، حسن الوجه، تَقْفوهم امرأةٌ قد سترتْ محاسنَها.

حتّى قصدوا نحو الحِجْر، فاستلمه واستلمه الغلام ثمّ استلمته المرأة. ثمّ طاف بالبيت سبعًا، والغلام والمرأة يطوفان معه. ثمّ استقبل الحِجْر، فقام ورفع يديْه وكبّر،

١ـ الحشر/ ١٠.

٢ـ «فأرشَدونا».

وقام الغلام إلى جانبه، وقامت المرأة خلْفهما، فرفعت يديها وكبّرت. فأطال القنوت، ثمّ ركع وركع الغلام والمرأة، ثمّ رفع رأسه فأطال، ورفع الغلام والمراة معه يصنعان مثل ما يصنع.

فلمّا رأينا شيئًا ننكره لا نعرفه بمكّة، أقبلنا على العبّاس فقلنا: يا أبا الفضل، إنّ هذا الدّين ما كنّا نعرفه فيكم. قال: أجلْ والله. قلنا: فمِن هذا؟ قال: هذا ابنُ أخي، هذا محمّد بن عبد الله. وهذا الغلام ابن أخي أيضًا، هذا عليّ بن أبي طالب. وهذه المرأة زوجة محمّد، هذه خديجة بنت خويلد. والله ما علَى وجه الأرض أحدٌ يَدِين بهذا الدّين إلّا هؤلاء الثّلاثة.

ومِن حديث موسى بن داود، عن خالد بن نافع، عن عُفَيف بن قيس الكِنديّ، وقد رواه عن عُفَيف أيضًا مالك بن اسماعيل النّهديّ والحسن بن عَنْبسة الورّاق وإبراهيم بن محمّد بن ميمونة، قالوا جميعًا: حدّثنا سعيد بن جُشم، عن أسَد بن عبد الله البَجَليّ، عن يحيى بن عُفَيف بن قيس، عن أبيه، قال: كنتُ في الجاهليّة عطّارًا، فقَدِمتُ مكّة، فنزلتُ على العبّاس بن عبد المطّلب.

فبينا أنا جالسٌ عنده أنظُر إلى الكعبة وقد تحلّقتْ الشّمس في السّماء، أقبَل شابٌّ كأنّ في وجهه القمر، حتّى رمَى ببصره إلى السّماء، فنظر إلى الشّمس ساعةً. ثمّ أقبل حتّى دنَا من الكعبة، فصفّ قدميْه يصلّي. فخرج على أثره فتًى كأنّ وجهه صفيحةٌ يمانيّة، فقام عن يمينه. فجاءت امرأةٌ متلفّفة في ثيابها، فقامت خلفهما. فأهوى الشّاب راكعًا، فركَعا معه. ثمّ أهوى إلى الأرض ساجدًا، فسجَدا معه.

فقلت للعبّاس: يا أبا الفضْل، أمرٌ عظيم! فقال: أمرٌ والله عظيم! أ تدري مَن هذا الشّاب؟ قلت: لا. قال هذا ابن أخي، هذا محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب. أ تدري مَن هذا الفتى؟ قلت: لا. قال هذا ابن أخي عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب. أ تدري مَن المرأة؟ قلت: لا. قال: هذه ابنة خُويلِد بن أسَد بن عبد

العُزّى، هذه خديجة زوج محمّد هذا[1]. وإنّ محمّدًا هذا يذكر أنّ إلهه إله السّماء والأرض وأمَره بهذا الدّين، فهو عليه كما ترى. ويزعم أنّه نبيٌّ، وقد صدّقه علَى قوله عليٌّ ابن عمّه هذا الفتى، وزوجته خديجة هذه المرأة. والله ما أعلمُ على وجه الأرض كلّها أحدًا على هذا الدِّين غير هؤلاء الثّلاثة. قال عُفَيف: فقلت له: فما تقولون أنتم؟ قال: ننتظر الشّيخ ما يصنع! يعني أبا طالب أخاه.

وروى عُبيد الله بن موسى، والفضل بن دُكَين، والحسن بن عَطيّة، قالوا: حدّثنا خالد بن طَهْمان، عن نافع بن أبي نافع، عن مَعقِل بن يسار، قال: كنتُ أوصَى النّبيّ صلى الله عليه وآله فقال لي: هل لك أن نَعود فاطمة؟ قلت: نعم يا رسول الله. فقام يمشي متوكّئًا عليّ وقال: أما إنّه سيحمل ثقلها غيرُك ويكون أجرُها لك. قال: فوالله كأنّه لم يكن عليّ من ثقل النّبيّ صلى الله عليه وآله شيء. فدخلنا على فاطمة عليها السلام، فقال لها صلى الله عليه وآله: كيف تجدينك؟ قالت: لقد طال أسفي واشتدّ حزني وقال لي النّساء: زوّجك أبوك فقيرًا لا مال له! فقال لها: أما ترضَيْنَ أنّي زوّجتك أقدَم أُمّتي سِلمًا وأكثرهم علمًا وأفضلهم حلمًا! قالت: بلى، رضيتُ يا رسول الله.

وقد روى هذا الخبر يحيى بن عبد الحميد، وعبد السّلام بن صالح، عن قيس بن الرّبيع، عن أبي أيّوب الأنصاريّ، بألفاظه أو نحوها.

وروى عبد السّلام بن صالح، عن إسحاق الأزرق، عن جعفر بن محمّد، عن آبائه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا زوّج فاطمة، دخل النّساء عليها فقلن: يا بنت رسول الله، خطَبك فلانٌ وفلان، فردّهم عنك وزوّجك فقيرًا لا مال له. فلمّا دخل عليها أبُوها صلى الله عليه وآله رأى ذلك في وجهها فسألها، فذكَرتْ له ذلك. فقال: يا فاطمة، إنّ الله أمرني فأنكحتُك أقدَمهم سِلمًا وأكثرهم علمًا وأعظمهم حلمًا؛ وما زوّجتك إلّا بأمرٍ من السّماء. أ ما علمتِ أنّه أخي في الدّنيا والآخرة!

١ـ ا: «زوج هذا».

وروى عثمان بن سعيد، عن الحكَم بن ظُهَير، عن السّديّ، أنّ أبا بكر وعمر خطبا فاطمةَ عليها السلام، فردّهما رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: لم أُومَرْ بذلك. فخطبها عليّ عليه السلام، فزوّجه إيّاها وقال لها: زوّجتك أقدَم الأُمّة إسلامًا ... وذكر تمام الحديث.

قال: وقد روى هذا الخبر جماعةٌ من الصّحابة، منهم أسماء بنت عُميس، وأُمّ أيْمن، وابنُ عبّاس وجابر بن عبد الله.

قال: وقد روى محمّد بن عبد الله بن أبي رافع، عن أبيه، عن جدّه أبي رافع، قال: أتيتُ أبا ذرّ بالرّبَذة أودّعُه. فلمّا أردتُ الانصراف قال لي ولأُناسٍ معي: ستكون فتنةٌ، فاتّقوا الله. وعليكم بالشّيخ عليّ بن أبي طالب فاتّبعوه؛ فإنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له: «أنت أوّل مَن آمن بي وأوّل مَن يصافحني يوم القيامة، وأنت الصّدّيق الأكبر، وأنت الفاروق الّذي يفرِق بين الحقّ والباطل، وأنت يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكافرين، وأنت أخي و وزيري وخير مَن أترك بعدي، تقضي دَيني وتنجِز موعدي».

قال: وقد روى ابن أبي شيبة، عن عبد الله بن نُمَير، عن العَلاء بن صالح، عن المِنْهال بن عمرو، عن عبّاد بن عبد الله الأسديّ، قال: سمعتُ عليّ بن أبي طالب يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصّدّيق الأكبر، لا يقولها غيري إلّا كذّاب، ولقد صلّيت قبل النّاس سبع سنين.

وروت معاذة بنت عبد الله العَدَويّة، قالت: سمعتُ عليًّا عليه السلام يخطب على منبر البصرة ويقول: أنا الصّدّيق الأكبر، آمنتُ قبل أن يؤمن أبو بكر وأسلمتُ قبل أن يسلم.

وروى حَبّة بن جُوَين العُرَنِيّ أنّه سمع عليًّا عليه السلام يقول: أنا أوّل رجلٍ أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وآله. رواه أبو داود الطّيالسيّ، عن شعبة، عن سفيان الثّوريّ، عن سلمة بن كُهَيل، عن حبّة بن جُوَين.

وروى عثمان بن سعيد الخزّاز[1]، عن عليّ بن حرّار، عن عليّ بن عامر، عن أبي الحجّاف، عن حكيم مولى زاذان، قال: سمعت عليًّا عليه السلام يقول: صلّيتُ قبل النّاس سبع سنين، وكنّا نسجُد ولا نركع. وأوّل صلاةٍ ركعنا فيها صلاةُ العصر، فقلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: أُمِرتُ به.

وروى إسماعيل بن عمرو، عن قيس بن الرّبيع، عن عبد الله بن محمّد بن عَقيل، عن جابر بن عبد الله، قال: صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الاثنين وصلّى عليٌّ يوم الثّلاثاء بعده.

وفي الرّواية الأُخرى عن أنس بن مالك: استُنبِئ النّبيّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين وأسلم عليٌّ يوم الثّلاثاء بعده. وروى أبو رافع أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى أوّل صلاة صلّاها غداة الاثنين، وصلّت خديجة آخر نهار يومها ذلك، وصلّى عليّ عليه السلام يوم الثّلاثاء غدا ذلك اليوم.

قال: وقد رُوي بروايات مختلفة كثيرة متعددة عن زيد بن أرقم وسلمان الفارسيّ وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك، أنّ عليًّا عليه السلام أوّل مَن أسلم، وذكر الرّوايات والرّجال بأسمائهم.

وروى سلمة بن كُهَيل، عن رجاله الّذين ذكرهم أبو جعفر في الكتاب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أوّلكم وروداً عليّ الحوض، أوّلكم إسلامًا عليّ بن أبي طالب».

وروى ياسين بن محمّد بن أيمن، عن أبي حازم مولى ابن عبّاس، عن ابن عبّاس، قال: «سمعتُ عمر بن الخطّاب وهو يقول: كفُّوا عن عليّ بن أبي طالب. فإنّي سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وآله يقول[2] فيه خصالًا، لو أنّ خصلةً منها في جميع آل الخطّاب كان أحبّ لي ممّا طلعت عليه الشّمس؛ كنت ذات يوم وأبو بكر وعثمان وعبد الرّحمن ابن عوف وأبو عبيدة مع نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله نطلبه، فانتهينا إلى باب

١ـ ب: «الحرار».

٢ـ ساقطة من ا.

أُمّ سلمة، فوجدنا عليًّا متّكئًا على نِجاف[١] الباب. فقلنا: أردنا رسول الله ﷺ، فقال: هو في البيت، رويدكم! فخرج رسول الله ﷺ فسِرْنا حوله، فاتّكأ على عليّ عليه السلام وضرب بيده على منكبه فقال: أبشرْيا عليّ بن أبي طالب، إنّك مخاصَمٌ وإنّك تخصم[٢] النّاس بسبعٍ لا يجاريك أحدٌ في واحدة منهنّ: أنت أوّل النّاس إسلامًا، وأعلمهم بأيّام الله ... » وذكر الحديث. قال: وقد روى أبو سعيد الخُدريّ، عن النّبيّ ﷺ مثل هذا الحديث.

قال: روى أبو أيّوب الأنصاريّ، عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ عليه السلام سبع سنين، وذلك أنّه لم يصلِّ معي رجل فيها غيره».

قال أبو جعفر: فأمّا ما رواه الجاحظ من قوله ﷺ: «إنّما تبعني حرٌّ وعبدٌ»، فإنّه لم يسمِّ في هذا الحديث أبا بكر وبلالًا. وكيف وأبو بكر لم يشترِ بلالًا إلّا بعد ظهور الإسلام بمكّة، فلمّا أظهر بلال إسلامه عذّبه أُميّة بن خَلف! ولم يكن ذلك حال إخفاء رسول الله ﷺ الدّعوة ولا في ابتداء أمر الإسلام. وقد قيل: إنّه عليه السلام إنّما عنَى بالحرّ عليّ بن أبي طالب، وبالعبد زيد بن حارثة.

وروى ذلك محمّد بن إسحاق، قال: وقد روى إسماعيل بن نصر الصّفّار، عن محمّد ابن ذَكْوان، عن الشّعبيّ، قال: قال الحجّاج للحسن وعنده جماعةٌ من التّابعين وذكر عليّ بن أبي طالب: ما تقول أنت يا حسن؟ فقال: ما أقول! هو أوّل مَن صلّى إلى القبلة وأجاب دعوة رسول الله ﷺ، وإنّ لعليٍّ منزلةً من ربّه وقرابةً من رسوله، وقد سبقتْ له سوابق لا يستطيع ردّها أحدٌ. فغضب الحجّاج غضبًا شديدًا وقام عن سريره فدخل بعض البيوت وأمر بصرفنا.

قال الشّعبيّ: وكنّا جماعةً ما منّا إلّا مَن نال من عليّ عليه السلام مقاربةً للحجّاج، غير الحسن بن أبي الحسن رحمه الله.

١ـ النِّجاف: هو ما بني ناتئًا فوق الباب.

٢ـ تخصم النّاس: تغلبهم في الخصومة.

وروى محرز بن هشام، عن إبراهيم بن سلمة، عن محمّد بن عبيد الله، قال: قال رجلٌ للحسن: ما لنا لا نراك تُثني على عليّ وتقرّظه! قال: كيف وسيفُ الحجاج يقطر دمًا! إنّه لأوّل مَن أسلم، وحسبُكم بذلك!

قال: فهذه الأخبار. وأمّا الأشعار المرويّة فمعروفةٌ كثيرة منتشرة، فمنها قول عبد الله ابن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب مجيبًا للوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط:

وإنّ وليّ الأمر بعد محمّدٍ ... عليٌّ وفي كلّ المواطن صاحبُهْ

وصيُّ رسول الله حقًّا وصنْوُه ... وأوّل مَن صلّى ومَن لان جانبُهْ

وقال خزيمة بن ثابت في هذا:

وصيُّ رسول الله مِن دون أهلِه ... و فارسُه مُذْ كان في سالف الزَّمَنْ

وأوّلُ مَنْ صلّى مِن النّاس كلّهِمْ ... سوى خيرة النّسوان واللهُ ذو مَنّ

وقال أبو سفيان بن حرب بن أُميّة بن عبد شمس، حين بويع أبو بكر:

ما كنت أحسب أنّ الأمر منصرفٌ ... عن هاشمٍ ثمّ منها عن أبي حَسَنِ

أليس أوّلَ مَن صلّى لقبلتهمْ ... وأعلمَ النّاس بالأحكام والسُّنَنِ!

وقال أبو الأسود الدّؤَليّ يهدّد طلحة والزّبير:

وإنّ عليًّا لكم مُصْحِرٌ ... يماثله الأسد الأسودُ

أما إنّه أوّلُ العابدين ... بمكّة والله لا يُعبَدُ!

وقال سعيد بن قيس الهَمْدانيّ يرتجز بصِفّين:

هذا عليٌّ وابنُ عمّ المصطفى ... أوّل مَنْ أجابه فيما رَوَى

هو الإمام لا يبالِي مَنْ غَوَى

وقال زفر بن يزيد بن حذيفة الأسديّ:

فحُوطُوا عليًّا وانصروه فإنّه ... وصيٌّ وفِي الإسلام أوّل أوّلُ

وإن تخذلوه والحوادث جمّةٌ ... فليس لكم عن أرضكم متحوّلُ

قال: والأشعار كالأخبار، إذا امتنع في مجيء القبيلتين التّواطؤُ والاتّفاقُ، كان ورودهما حجّةً.

فأمّا قول الجاحظ: «فأوسط الأُمور أن نجعل إسلامهما معًا»، فقد أبطل بهذا ما احتجّ به لإمامة أبي بكر، لأنّه احتجّ بالسّبْق، وقد عدل الآن عنه.

قال أبو جعفر: ويقال لهم لسْنا نحتاج مِن ذكر سبْق عليّ عليه السلام إلّا مجامعتكم إيّانا على أنّه أسلم قبل النّاس. ودعواكم أنّه أسلم وهو طفلٌ، دعوى غير مقبولة لا بحجّة.

فإن قلتم: ودعْوتكم أنّه أسلم وهو بالغٌ، دعوى غير مقبوله إلّا بحجّة!

قلنا: قد ثبت إسلامه بحكم إقراركم؛ ولو كان طفلًا لكان في الحقيقة غير مسلم، لأنّ اسم الإيمان والإسلام والكفر والطّاعة والمعصية إنّما يقع على البالغين دون الأطفال والمجانين. وإذا أطلقتم وأطلقنا عليه اسم الإسلام، فالأصل في الإطلاق الحقيقة. كيف وقد قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «أنت أوّل مَن آمن بي، وأنت أوّل مَن صدَّقني»، وقال لفاطمة: «زوّجتُك أقدَمهم سِلمًا ـ أو قال: إسلامًا ـ».

فإن قالوا: إنّما دعاه النّبيّ صلى الله عليه وآله إلى الإسلام على جهة العَرْض لا التّكليف.

قلنا: قد وافقتمونا على الدّعاء، وحكم الدّعاء حكم الأمر والتّكليف. ثمّ ادّعيتم أنّ ذلك كان على وجه العَرض، وليس لكم أن تقبلوا معنى الدّعاء [عن وجهه[1]] إلّا لحجّة.

فإن قالوا: لعلّه كان على وجه التّأديب والتّعليم، كما يُعتمد مثل ذلك مع الأطفال!

قلنا: إنّ ذلك إنّما يكون إذا تمكّن الإسلام بأهله، أو عند النّشوء عليه والولادة فيه، فأمّا في دار الشّرك فلا يقع مثل ذلك لا سيّما إذا كان الإسلام غير معروف ولا معتاد بينهم. على أنّه ليس من سنّة النّبيّ صلى الله عليه وآله دعاء أطفال المشركين إلى الإسلام والتّفريق بينهم وبين آبائهم، قبل أن يبلغوا الحُلم. وأيضًا فمِن شأن الطّفل، اتّباع أهله وتقليد أبيه والمضيّ على منشئه ومولده، وقد كانتْ منزلة النّبيّ صلى الله عليه وآله حينئذ منزلة ضيق وشدّة

١ـ تكملة من ا.

و وحدة، وهذه منازل لا ينتقل إليها إلّا مَن ثبت الإسلام عنده بحجّة، ودخل اليقين قلبه بعلم ومعرفة.

فإن قالوا: إنّ عليًّا عليه السلام كان يألف النّبيّ صلى الله عليه وآله فوافقه على طريق المساعدة له.

قلنا: إنّه وإن كان يألفه أكثرَ من أبويْه وإخوته وعمومته وأهل بيته، ولم يكن الإلف ليخرجَه عمّا نشأ عليه، ولم يكن الإسلام ممّا غُذّي[1] به وكُرّر على سمعه لأنّ الإسلام هو خلْع الأنداد والبراءة ممّن أشرك بالله، وهذا لا يجتمع في اعتقاد طفل.

ومن العجب قول العبّاس لِعُفيف بن قيس: «ننتظر الشّيخ وما يصنع!» فإذا كان العبّاس وحمزة ينتظران أبا طالب ويصدُران عن رأيه، فكيف يخالفه ابنُه ويؤثر القلّة على الكثرة ويفارق المحبوبَ إلى المكروه والعزّ إلى الذلّ، والأمْن إلى الخوف، عن غير معرفة ولا علم بما فيه!

فأمّا قوله: «إنّ المقلِّل يزعم أنّه أسلم وهو ابن خمس سنين، والمكثِّر يزعم أنّه أسلم وهو ابن تسع سنين»، فأوّل ما يقال في ذلك: إنّ الأخبار جاءت في سِنّه عليه السلام يوم أسلم على خمسة أقسام، فجعلناه في قسمين:

القسم الأوّل: الّذين قالوا أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة. حدّثنا بذلك أحمد بن سعيد الأسَديّ، عن إسحاق بن بشر القرشيّ، عن الأوزاعيّ، عن زمرة بن حبيب، عن شدّاد بن أوس، قال: سألتُ خبّاب بن الأرتّ عن إسلام عليّ، فقال: أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، ولقد رأيتُه يصلّي قبل النّاس مع النّبيّ صلى الله عليه وآله وهو يومئذ بالغٌ مستحكم البلوغ. وروى عبد الرزّاق، عن مَعْمر، عن قتادة، عن الحسن، أنّ أوّل مَن أسلم عليّ بن أبي طالب وهو ابن خمس عشرة سنة.

القسم الثّاني: الّذين قالوا إنّه أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة. رواه أبو قتادة الحرّانيّ، عن أبي حازم الأعرج، عن حُذَيفة بن اليمان، قال: كنّا نعبد الحجارة ونشربُ الخمر، وعليٌّ من أبناء أربع عشرة سنة قائم يصلّي مع النّبيّ صلى الله عليه وآله ليلًا ونهارًا.

١ـ ب: «عدى»، تصحيف، وأثبت ما في ا.

وقريش يومئذ تُسافِه رسولَ الله ﷺ، ما يذُبّ عنه إلّا عليّ عليه السلام. وروى ابن أبي شَيْبة عن جَرير بن عبد الحميد، قال: أسلم عليّ وهو ابن أربع عشرة سنة.

القسم الثّالث: الّذين قالوا أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة. رواه إسماعيل بن عبد الله الرَّقِّيّ، عن محمّد بن عمر، عن عبد الله بن سمعان، عن جعفر بن محمّد عليه السلام، عن أبيه، عن محمّد بن عليّ عليه السلام، أنّ عليًّا حين أسلم كان ابن إحدى عشرة سنة. وروى عبد الله بن زياد المدنيّ، عن محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام، قال: أوّل مَن آمن بالله عليّ بن أبي طالب وهو ابن إحدى عشرة سنة، وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربعة وعشرين سنة.

القسم الرّابع: الّذين قالوا إنّه أسلم وهو ابن عشر سنين. رواه نوح بن درّاج، عن محمّد بن إسحاق، قال: أوّل ذكرٍ آمن وصدّق بالنّبوّة عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو ابن عشر سنين، ثمّ أسلم زيد بن حارثة، ثمّ أسلم أبو بكر وهو ابن ستّ وثلاثين سنة فيما بلغَنا.

القسم الخامس: الّذين قالوا إنّه أسلم وهو ابن تسع سنين. رواه الحسن بن عنْبسة الورّاق، عن سليم مولى الشّعبيّ، عن الشّعبيّ، قال: أوّل مَن أسلم من الرّجال عليّ بن أبي طالب وهو ابن تسع سنين، وكان له يومٌ قُبض رسول الله ﷺ تسع وعشرون سنة.

قال شيخنا أبو جعفر: فهذه الأخبار كما تراها، فإمّا أن يكون الجاحظ جَهِلها أو قصَد العناد.

فأمّا قوله: «فالقياسُ أن نأخذ بأوسط الأمرين من الرّوايتين»، فنقول: إنّه أسلم وهو ابن سبع سنين. فإنّ هذا تحكّمٌ منه، ويلزمه مثله في رجلٍ ادّعى قِبَل رجلٍ عشرة دراهم، فأنكر ذلك وقال: إنّما يستحقّ قِبَلي أربعة دراهم، فينبغي أن نأخذ الأمر المتوسّط ويلزمه سبعة دراهم. ويلزمه في أبي بكر حيث قال قوم: كان كافرًا، وقال قوم:

كان إمامًا عادلًا، أن نقول: أعدلُ الأقاويل أوسطُها وهو منزلةٌ[1] بين المنزلتيْن فنقول:كان فاسقًا ظالمًا، وكذلك في جميع الأُمور المختلَف فيها.

فأمّا قوله: «وإنّما يُعرَف حقّ ذلك من باطله، بأن نحصي سِني ولاية عثمان وعمر وأبي بكر وسِني الهجرة ومُقام النّبيّ صلى الله عليه وآله بمكّة بعد الرّسالة إلى أن هاجر»، فيقال له: لو كانت الرّوايات متّفقةً على هذه التّاريخات لَكان لِهذا القول مساغٌ، لكنّ النّاس قد اختلفوا في ذلك؛ فقيل: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أقام بمكّة بعد الرّسالة خمس عشرة سنة، رواه ابن عبّاس. وقيل: ثلاث عشرة سنة، ورُوي عن ابن عبّاس أيضًا، وأكثر النّاس يروونه. وقيل: عشرة سنين، رواه عروة بن الزّبير، وهو قول الحسن البصريّ وسعيد بن المسيّب.

واختلفوا في سنّ رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فقال: قوم كان ابن خمس وستّين. وقيل كان ابن ثلاث وستّين. وقيل: كان ابن ستّين. واختلفوا في سنّ عليّ عليه السلام؛ فقيل: كان ابن سبع وستّين. وقيل: كان ابن خمس وستّين. وقيل ابن ثلاث وستّين. وقيل: ابن ستّين. وقيل ابن تسع وخمسين.

فكيف يمكن مع هذه الاختلافات تحقيقُ هذه الحال! وإنّما الواجب أن يرجع إلى إطلاق قولهم «أسلم عليٌّ»، فإن هذا الإسم لا يكون مطلقًا إلّا على البالغ، كما لا يُطلَق اسم الكافر إلّا على البالغ.

على أنّ ابن إحدى عشرة سنة يكون بالغًا ويولَد له الأولاد؛ فقد روَت الرّواة أنّ عمرو بن العاص لم يكن أسنّ من ابنه عبد الله إلّا باثنتي عشرة سنة، وهذا يوجب أنّه احتَلم وبلَغ في أقلّ من إحدى عشرة سنة. ورُوي أيضًا أنّ محمّد بن عبد الله بن العبّاس، كان أصغرَ من أبيه عليّ بن عبد الله بن العبّاس، بإحدى عشرة سنة. فيلزم الجاحظ أن يكون عبد الله بن العبّاس حين مات رسول الله صلى الله عليه وآله غير مسلمٍ على

---

١ ـ ا: «أن ننزله».

الحقيقة ولا مثابٍ ولا مطيعٍ بالإسلام، لأنّه كان يومئذ ابن عشر سنين. رواه هشيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس، قال: تُوُفِّي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين.

قال الجاحظ: فإن قالوا: فلعلّه وهو ابن سبع سنين أو ثماني سنين[١]، قد بلغ مِن فطنته وذكائه وصحة لُبّه وصدق حدْسه[٢] وانكشاف العواقب له وإن لم يكن جرَّب الأُمور، ولا فاتَح الرّجال، ولا نازَع الخصُوم، ما يعرف به جميع ما يجب على البالغ معرفتُه والإقرار به!

قيل لهم[٣]: إنّما نتكلّم على ظواهر الأحوال، وما شاهدْنا عليه طبائع الأطفال فإنّا وجدْنا حكْم ابن سبع سنين أو ثمان ـ ما لم يعلم باطن أمره وخاصّة طبعه ـ حكْم الأطفال، وليس لنا أن نُزيل ظاهرَ حكمه والّذي نعرف من حال أبناء جنسه بِلعلّ وعسى، لأنّا وإن كنّا لا ندري لعلّه قد كان ذا فضيلة في الفطنة، فلعلّه قد كان ذا نقص فيها!

هذا على تجويز أن يكون عليّ عليه السلام في الغيب[٤] قد أسلم وهو ابن سبع أو ثمان إسلامَ البالغ، غير أنّ الحكم على مجرى أمثاله وأشكاله الّذين أسلموا وهم في مثل سنّه إذ كان إسلام هؤلاء عن تربية الحاضن وتلقين القيّم ورياضة السّائس.

فأمّا عند التّحقيق، فإنّه لا تجويز لمثل ذلك لأنّه لو كان أسلم وهو ابن سبع أو ثمان، وعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة، وفرّق ما بين الرّسل والسّحرة، وفرّق ما بين خبر النّبيّ والمنجّم، وحتّى عرف كيد الأريب[٥] وموضع الحجّة، و(وبعد غور المتنبّئ[٦])،

١ـ ساقط من ا.

٢ـ العثمانيّة: «حسّه».

٣ـ العثمانيّة: «قيل».

٤ـ العثمانيّة: «المَغيب».

٥ـ العثمانيّة: «المُريب».

٦ـ في الأُصول: «وفَقْد التّمييز»، وأثبت ما في العثمانيّة.

كيف يلبّس على العقلاء وتستمال عقول الدَّهْماء، وعرف الممكن في الطّبع من الممتنع وما يحدث بالاتّفاق ممّا يحدث بالأسباب، وعرف قدر القُوى وغاية الحيلة ومنتهى التّمويه والخديعة، وما لا يحتمل أن يحدثه إلّا الخالق سبحانه، وما يجوز على الله في حكمته ممّا لا يجوز، وكيف التّحفّظ من الهوى والاحتراس من الخِداع؛ لكان كونُه على هذه الحال، وهذه مع فرط الصِّبا و الحداثة وقلّة التّجارب والممارسة خروجًا من العادة.

ومن المعروف ممّا عليه تركيب هذه الخلقة، وليس يصلُ أحدٌ إلى معرفة نبيّ وكذّب متنبّئ حتّى يجتمع فيه هذه المعارف الّتي ذكرناها والأسباب الّتي وصفناها وفصّلناها. ولو كان عليّ عليه السلام على هذه الصّفة ومعه هذه الخاصّيّة لكان حجّةً على العامّة وآيةً تدلّ على النّبوّة، ولم يكن الله عزّوجلّ ليخصّه بمثل هذه الأُعجوبة إلّا وهو يريد أن يحتجّ بها ويجعلها قاطعةً لعذر الشّاهد وحجّةً على الغائب.

ولولا أنّ الله أخبر عن يحيى بن زكريّا أنّه أتاه الحكْم صبيًّا، وأنّه أنطق عيسى في المهد، ما كانا في الحكْم [ولا في المغيّب][1]، إلّا كسائر الرّسل وما عليه جميع البشر. فإذا لم ينطق لعليّ عليه السلام بذلك قرآن ولا جاء الخبر به مجيءَ الحجّة القاطعة والمشاهدة القائمة، فالمعلوم عندنا في الحكْم أنّ طباعه كطباع عمّيْه حمزة والعبّاس وهما أمسّ بمعدن جماع الخير منه، أو كطباع جعفر وعقيل مِن رجال قومه وسادة رهطه. ولو أنّ إنسانًا ادّعى مثل ذلك لأخيه جعفر أو لعمّيْه حمزة والعبّاس، ما كان عندنا في أمره إلّا مثل ما عندنا فيه[2].

أجاب شيخُنا أبو جعفر رحمه الله، فقال: هذا كلّه مبنيٌّ على أنّه أسلم وهو ابن سبع أو ثمان، ونحن قد بيّنا أنّه أسلم بالغًا ابن خمس عشره سنة أو ابن أربع عشرة سنة. على أنّا لو نزلنا على حكْم الخصوم وقلنا ما هو الأشهر والأكثر من الرّواية وهو أنّه أسلم وهو

١ـ من العثمانيّة.

٢ـ العثمانيّة: ٦ـ ٨ .

ابن عشر، لم يلزم ما قاله الجاحظ لأنّ ابن عشر قد يستجمع عقله ويعلم من مبادئ المعارف ما يستخرج به كثيرًا من الأُمور المعقولة؛ ومتى كان الصّبيّ عاقلًا مميّزًا كان مكلّفًا بالعقليّات، وإن كان تكليفه بالشّرعيّات موقوفًا على حدٍّ آخر وغايةٍ أُخرى. فليس بمنكَرٍ أن يكون عليّ عليه السلام وهو ابن عشر قد عقل المعجزة، فلزمه الإقرار بالنّبوّة وأسلم إسلام عالمٍ عارف لا إسلام مقلّدٍ تابع.

وإن كان ما نسّقه الجاحظ وعدّده من معرفة السّحر والنّجوم والفصل بينهما وبين النّبوّة ومعرفة ما يجوز في الحكمة ممّا لا يجوز وما لا يُحدِثه إلّا الخالق والفرق بينه وبين ما يقدر عليه القادرون بالقدرة ومعرفة التّمويه والخديعة والتّلبيس والمماكرة، شرطًا في صحّة الإسلام لَما صحّ إسلام أبي بكر ولا عمر ولا غيرهما من العرب. وإنّما التّكليف لهؤلاء بالجمل ومبادئ المعارف لا بدقائقها والغامض منها.

وليس يفتقر الإسلام إلى أن يكون المسلم قد فاتَح الرّجال وجرّب الأُمور ونازَع الخصوم، وإنّما يفتقر إلى صحّة الغريزة وكمال العقل وسلامة الفطرة. ألا ترى أنّ طفلًا لو نشأ في دارٍ لم يعاشر النّاس بها ولا فاتَح الرّجال ولا نازَع الخصوم، ثمّ كَمل عقله وحصلت العلوم البديهيّة عنده، لكان مكلّفًا بالعقليّات.

فأمّا توهّمه أنّ عليًّا عليه السلام أسلم عن تربية الحاضن وتلقين القيّم ورياضة السّائس، فلَعمري إنّ محمّدًا صلى الله عليه وآله كان حاضِنَه وقيّمه وسائسه، ولكن لم يكن منقطعًا عن أبيه أبي طالب ولا عن إخوته طالب وعقيل وجعفر ولا عن عمومته وأهل بيته، وما زال مخالطًا لهم ممتزجًا بهم، مع خدمته لمحمّد صلى الله عليه وآله. فما باله لم يمِلْ إلى الشّرك وعبادة الأصنام لمخالطته إخوته وأباه وعمومته وأهله، وهم كثيرٌ ومحمّد صلى الله عليه وآله واحدٌ! وأنت تعلم أنّ الصّبيّ إذا كان له أهلٌ ذوو كثرة وفيهم واحدٌ يذهب إلى رأي مفرد لا يوافقُه عليه غيره منهم، فإنّه إلى ذَوي الكثرة أميَلُ وعن ذي الرّأي الشّاذّ المنفرد أبعَدُ.

وعلَى أنّ عليًّا عليه السلام لم يولَد في دار الإسلام وإنّما وُلد في دار الشّرك ورُبّي بين المشركين وشاهَد الأصنام وعايَن بعينه أهلَه ورهطه يعبدونها؛ فلو كان في دار الإسلام لكان في القول مجالٌ، ولَقيل إنّه وُلد بين المسلمين فإسلامه عن تلقين الظِّئْر وعن

سماع كلمة الإسلام ومشاهدة شعاره لأنّه لم يسمع غيرَه ولا خطر بباله سواه. فلمّا لم يكن وُلد كذلك، ثبت أنّ إسلامه إسلام المميّز العارف بما دخل عليه.

ولولا أنّه كذلك لَما مدحه رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك ولا أرضى ابنته فاطمة، لِما وَجدتْ من تزويجه، بقوله لها: «زوّجتُك أقدمَهم سِلمًا» ولا قرن إلى قوله: «وأكثرَهم علمًا وأعظمَهم حلمًا»، والحِلم: العقل. وهذان الأمران غاية الفضل، فلولا أنّه أسلم إسلامَ عارف عالم مميّز لَما ضمّ إسلامه إلى العلم والحلم اللّذيْن وصفه بهما! وكيف يجوز أن يمدحه بأمر لم يكن مُثابًا عليه ولا معاقبًا به لو تركه.

ولو كان إسلامه عن تلقين وتربية لَما افتخر هو عليه السلام [به][1] على رءوس الأشهاد ولا خطب علَى المنبر، وهوَ بين عدوٍّ ومحارب وخاذل منافق، فقال: «أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصّدّيق الأكبر والفاروق الأعظم. صلّيتُ قبل النّاس سبع سنين وأسلمت قبل إسلام أبي بكر وآمنت قبل إيمانه!». فهلْ بلَغكم أنّ أحدًا من أهل ذلك العصر أنكر ذلك أو عابه أو ادّعاه لغيره أو قال له: إنّما كنتَ طفلًا أسلمتَ على[2] تربية محمّد صلى الله عليه وآله ذلك وتلقينه إيّاك، كما يعلَّم الطّفل الفارسيّة والتّركيّة منذ يكون رضيعًا! فلا فخر له في تعلّم ذلك، وخصوصًا في عصرٍ قد حارب فيه أهلَ البصرة والشّام والنّهروان، وقد اعتورتْه الأعداء وهَجَتْه الشّعراء. فقال فيه النّعمان بن بشير:

لقد طلَب الخلافة من بعيدٍ ... وسارَع في الضَّلال أبو تُرابِ
معاوية الإمامُ وأنت مِنْها ... على وَتْح بمنقَطع السّرابِ[3]

وقال فيه أيضًا بعض الخوارج:

دَسَسْنا له تحتَ الظّلام ابنَ مُلْجَمٍ ... جزاء إذا ما جاء نفسًا كتابُها

١ـ تكملة من ا.

٢ـ «عن».

٣ـ الوَتْح: القليل.

أبا حسن خذها على الرّأس ضَرْبَةً بكـفّ كـريمٍ؛ بعـد مـوتٍ ثوابُهـا

وقال عِمران بن حِطّان يمدح قاتله:

يـا ضـربةً مِـن تـقيّ مـا أراد بهـا إلّا ليبلُـغَ مـن ذِي العـرش رضـوانَا

إنّي لأذْكُـــره حينًـــا فأحسِـــبُه أوْفَى البريّـــة عنـــد الله ميزانَـــا

فلو وجد هؤلاء سبيلًا إلى دَحْض حجّة فيما كان يفخر به مَن تقدّم إسلامه، لَبدءوا بذلك وتركوا ما لا معنى له.

وقدأوردنا ما مدحه الشّعراء به مِن سبقه إلى الإسلام، فكيف لم يرُدّ على هؤلاء الّذين مدحوه بالسّبق شاعرٌ واحد من أهل حرْبه، ولقد قال في أُمّهات الأولاد قولًا خالَف فيه عمر، فذكروه بذلك وعابوه. فكيف تركوا أن يعيبوه بما كان يفتخر به ممّا لا فخر فيه عندهم، وعابوه بقوله في أُمّهات الأولاد.

ثمّ يقال له: خَبِّرنا عن عبد الله بن عمر، وقد أجازه النّبيّ ﷺ يوم الخندق ولم يُجزه يوم أُحُد، هل كان يُميِّز ما ذكرتَه؟ وهل كان يعلم فرق ما بين النّبيّ والمتنبّئ ويفصل بين السّحر والمعجزة، إلى غيره ممّا عدّدتَ وفصّلت!

فإن قال نعم وتجاسَر على ذلك، قيل له: فعليّ عليه السلام بذلك أوْلى من ابن عمر، لأنّه أذكى وأفطن بلا خلاف بين العقلاء. وأنّى يُشَكّ في ذلك، وقد رويتم أنّه لم يميّز بين الميزان والعُود بعد طول السّنّ وكثرة التّجارب، ولم يميّز أيضًا بين إمام الرّشد وإمام الغيّ؛ فإنّه امتنع من بيعة عليّ عليه السلام وطرَق على الحَجّاج بابه ليلًا ليبايع لعبد الملك كيلا يبيتَ تلك اللّيلة بلا إمام، زعم. لأنّه روى عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «من مات ولا إمام له مات ميتةً جاهليّة»، وحتّى بلغ من احتقار الحجّاج له واسترذاله حاله، أن أخرج رجله من الفراش فقال: أصفقُ بيدك عليها. فذلك تمييزه بين الميزان والعود وهذا اختياره في الأئمّة، وحال عليٍّ عليه السلام في ذكائه وفطنته وتوقُّد حسّه وصدق حدْسه، معلومة مشهورة.

فإذا جاز أن يصحّ إسلام ابن عمر، ويقال عنه إنّه عرف تلك الأُمور الّتي سردها الجاحظ ونسّقها وأظهر فصاحتَه وتشدُّقَه فيها، فعليٌّ بمعرفة ذلك أحقّ وبصحّة إسلامه أوْلى.

وإن قال: لم يكن ابن عمر يعلم ويعرف ذلك، فقد أبطل إسلامه وطعن في رسول الله صلى الله عليه وآله حيث حكم بصحّة إسلامه وأجازه يوم الخندق، لأنّه عليه السلام كان قال: لا أُجيز إلّا البالغ العاقل، ولذلك لم يُجِزه يوم أُحُد.

ثمّ يقال له: إنّ ما نقوله في بلوغ عليٍّ عليه السلام الحدّ الّذي يحسن فيه التّكليف العقليّ بل يجب ـ وهو ابن عشر سنين ـ ليس بأعجب من مجيء الولد لستّة أشهر، وقد صحّح ذلك أهل العلم واستنبطوه من الكتاب، وإن كان خارجًا من التّعارف والتّجارب والعادة. وكذلك مجيء الولد لسنتيْن خارجٌ أيضًا عن التّعارف والعادة، وقد صحّحه الفقهاء والنّاس.

ويُروَى أنّ معاذًا لمّا نهى عمر عن رَجم الحامل، تركها حتّى ولدتْ غلامًا قد نبتت ثَنيّتاه، فقال أبوه: ابني وربّ الكعبة! فثبت ذلك سنّةً يعمل بها الفقهاء، وقد وجدنا العادة تقضي بأنّ الجارية تحيض لاثنتيْ عشرة سنة وأنّه أقلّ سنٍّ تحيض فيه المرأة. وقد يكون في الأقلّ نساء يحِضْن لعشر ولتسع، وقد ذكر ذلك الفقهاء وقد قال الشّافعيّ في اللّعان: لو جاءت المرأة بحمْل وزوجها صبيّ له دون عشر سنين، لم يكن ولدًا له لأنّ من لم يبلغ عشر سنين من الصّبيان لا يولد له، وإن كان له عشر سنين جاز أن يكون الولد له وكان بينهما لِعانٌ إذا لم يقرّ به.

وقال الفقهاء أيضًا: إنّ نساء تهامة يحِضْن لتسع سنين لشدّة الحرّ ببلادهنّ.

قال الجاحظ: ولو لم يعرف باطل هذه الدّعوى مَن آثر التّقوى وتحفَّظ من الهوى، إلّا بترك عليّ عليه السلام ذكْر ذلك لنفسه والاحتجاجَ به على خصمه، وقد نازَع الرّجال وناوَى الأكفاء وجامَع أهل الشّورى، لكان كافيًا. ومَتى لم تصحّ لعليّ عليه السلام هذه الدّعوى في أيّامه ولم يذكرْها أهل عصره، فهي عن ولده أعجز ومنهم أضعف!

ولم يُنقَل أنّ عليًّا عليه السلام احتجّ بذلك في موقفٍ ولا ذكره في مجلسٍ ولا قام به خطيبًا ولا أدْلَى به واثقًا، لا سيّما وقد رَضيه الرّسول صلى الله عليه وآله عندكم مفزعًا ومعلّمًا وجعله للنّاس إمامًا. ولا ادّعى له أحدٌ ذلك في عصره كما لم يدّعه لنفسه، حتّى يقول إنسان واحد: الدّليل علَى إمامته أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام أو كلّفه التّصديق قبل بلوغه، ليكون ذلك آيةً للنّاس في عصره وحجّةً له ولولده من بعده؛ فهذا كان أشدّ على طلحة والزّبير وعائشة من كلّ ما ادّعاه من فضائله وسوابقه وذكر قرابته[1].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: إنّ مثل الجاحظ مع فضله وعلمه لا يخفى عليه كذب هذه الدّعوى وفسادها، ولكنّه يقول ما يقوله تعصُّبًا وعنادًا، وقد روى النّاس كافّة افتخارَ عليّ عليه السلام بالسّبْق إلى الإسلام وأنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله استُنبِئ يوم الإثنين وأسلم عليٌّ يوم الثّلاثاء، وأنّه كان يقول: صلّيتُ قبل النّاس سبع سنين، وأنّه ما زال يقول: أنا أوّل مَن أسلم، ويفتخر بذلك ويفتخر له به أولياؤه ومادِحوه وشيعته في عصره وبعد وفاته.

والأمر في ذلك أشهرُ من كلّ شهير، وقد قدّمنا منه طَرَفًا، وما علمنا أحدًا من النّاس فيما خلا استخفّ بإسلام عليّ عليه السلام ولا تهاوَن به ولا زعم أنّه أسلم إسلام حدَثٍ غرير وطفلٍ صغير. ومن العجَب أن يكون مثل العبّاس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله، ليُصدِرا عن رأيه ثمّ يخالفه عليٌّ ابنه لغير رغبة ولا رهبة، يؤثر القلّة على الكثرة والذّلّ على العزّة، من غير علْم ولا معرفة بالعاقبة.

وكيف ينكر الجاحظ والعثمانيّة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام وكلّفه التّصديق! وقد رُوي في الخبر الصّحيح أنّه كلّفه في مبدأ الدّعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكّة أن يصنَع له طعامًا وأن يدعوَ له بني عبد المطّلب، فصنع له الطّعام ودعاهم له، فخرجوا ذلك اليوم ولم ينذرهم صلى الله عليه وآله لكلمةٍ قالها عمّه أبو لهب.

فكلّفه في اليوم الثّاني أن يصنع مثل ذلك الطّعام وأن يدعوهم ثانيةً، فصنعه ودعاهم فأكلوا، ثمّ كلّمهم صلى الله عليه وآله فدعاهم إلى الدّين ودعاه معهم لأنّه من بني

١ـ العثمانيّة: ٩ـ١٢، مع تصرّف واختصار.

عبد المطّلب، ثمّ ضَمِن لمن يوازره منهم وينصره على قوله أن يجعله أخاه في الدّين و وصيّه بعد موته وخليفته من بعده، فأمسكوا كلّهم وأجابه هو وحده وقال: أنا أنصرك على ما جئتَ به وأُوازرك وأُبايعك.

فقال لهم لمّا رأى منهم الخذلان ومنه النّصر، وشاهد منهم المعصية ومنه الطّاعة، وعاين منهم الإباء ومنه الإجابة: هذا أخي و وصيّي وخليفتي من بعدي. فقاموا يسخرون ويضحكون ويقولون لأبي طالب: أطِعْ ابنَك، فقد أمَّره عليك.

فهل يُكلَّف عمل الطّعام ودعاء القوم صغيرٌ مميّز وغِرٌّ غير عاقل! وهل يُؤتَمن على سرّ النّبوّة طفلٌ ابن خمس سنين أو ابن سبع! وهل يُدعَى في جملة الشّيوخ والكهول إلّا عاقلٌ لبيب! وهل يضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده في يده، ويعطيه صَفقَة يمينه بالأُخُوّة والوصيّة والخلافة إلّا وهو أهلٌ لذلك، بالغٌ حدّ التكليف، محتملٌ لولاية الله وعداوة أعدائه! وما بالُ هذا الطِّفل لم يُأنَس بأقرانه ولم يُلصَق بأشكاله ولم يُرَ مع الصِّبيان في ملاعبهم بعد إسلامه، وهو كأحدهم في طبقته، كبعضهم في معرفته!

وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته فيقال: دعاه داعي الصِّبا وخاطرٌ من خواطر الدّنيا، وحملته الغِرّة والحداثة على حضور لَهْوهم والدّخول في حالهم. بل ما رأيناه إلّا ماضيًا على إسلامه، مُصمّمًا في أمره، محقّقًا لقوله بفعله، قد صدَّق إسلامه بعفافه وزهده، ولَصِق برسول الله صلى الله عليه وآله مِن بين جميع مَن بحضرته. فهو أمينه وأليفه في دنياه وآخرته، وقد قهر شهوته، وجاذب خواطره، صابرًا على ذلك نفسَه لِما يرجو من فوز العاقبة وثواب الآخرة.

وقد ذكر هو عليه السلام في كلامه وخُطبه بدءَ حاله وافتتاحَ أمره، حيث أسلم لمّا دعا رسول الله صلى الله عليه وآله الشّجرة، فأقبلتْ تخُدّ الأرض، فقالت قريش: ساحرٌ خفيف السّحر! فقال عليّ عليه السلام: يا رسول الله، أنا أوّل مَن يؤمن بك، آمنتُ بالله ورسوله وصدَّقتُك فيما جئتَ به. وأنا أشهد أنّ الشّجرة فعلتْ ما فعلتْ بأمر الله تصديقًا لنبوّتك وبرهانًا على صحّة دعوتك. فهل يكون إيمانٌ قطّ أصحَّ من هذا الإيمان وأوثقَ عُقْدةً، وأحكمَ مِرّةً! ولكن حَنَقُ العثمانيّة وغيظُهم وعصبيّة الجاحظ وانحرافه ممّا لا حيلة فيه.

ثمّ لينظرْ المنصف وليدَعْ الهوَى جانبًا، ليعلمَ نعمة الله علَى عليّ عليه السلام بالإسلام حيث أسلم على الوضع الّذي أسلم عليه. فإنّه لولا الألطاف الّتي خُصّ بها، والهداية الّتي مُنِحها، لَما كان إلّا كبعض أقارب محمّد صلّى الله عليه وأهله، فقد كان ممازجًا له كممازجته ومخالطًا له كمخالطة كثير من أهله ورهطه، ولم يستجبْ منهم أحدٌ له إلّا بعد حين. ومنهم من لم يستجِبْ له أصلًا؛ فإنّ جعفرًا عليه السلام كان ملتصقًا به ولم يُسلم حينئذٍ. وكان عُتْبة بن أبي لهب ابن عمّه وصِهره زوج ابنته ولم يصدّقه، بل كان شديدًا عليه. وكان لخديجة بنون من غيره ولم يسلّموا حينئذ، وهم ربائبه[1] ومعه في دار واحدة. وكان أبو طالب أباه في الحقيقة وكافله وناصره والمحاميَ عنه، ومَن لولاه لم تقم له قائمةٌ، ومع ذلك لم يُسلم في أغلب الرّوايات. وكان العبّاس عمّه وصنو أبيه وكالقرين له في الولادة والمنشأ والتّربية، ولم يستجبْ له إلّا بعد حين طويل. وكان أبو لهب عمّه وكدمِه ولحمه، ولم يسلم وكان شديدًا عليه.

فكيف يُنسَب إسلام عليّ عليه السلام إلى الإلف والتّربية والقرابة واللّحمة والتّلقين والحَضانة والدّار الجامعة وطول العشرة والأُنس والخلوة! وقد كان كلّ ذلك حاصلًا لهؤلاء أو لكثير منهم، ولم يهتد أحدٌ منهم إذ ذاك، بل كانوا بين [مَن][2] جحَد وكفَر ومات على كفره، ومَن أبطأ وتأخّر وسُبق بالإسلام وجاء سُكَيْتًا[3] وقد فاز بالمنزلة غيرُه.

وهل يدلّ تأمّل حال عليّ عليه السلام مع الإنصاف إلّا علَى أنّه أسلم لأنّه شاهد الأعلام ورأى المعجزات وشمّ ريح النّبوّة ورأى نور الرّسالة وثبت اليقين في قلبه بمعرفة وعلم ونظر صحيح، لا بتقليدٍ ولا حَمِيّة ولا رغبة ولا رهبة إلّا فيما يتعلّق بأُمور الآخرة.

١ـ الرّبائب: أولاد الزّوج.

٢ـ من ا.

٣ـ السُّكَيت: آخر الحَلْبة.

قال الجاحظ: فلو أنّ عليًّا عليه السلام كان بالغًا حيث أسلم، لكان إسلام أبي بكر وزيد بن حارثة وخبّاب بن الأرتّ أفضلَ من إسلامه، لأنّ إسلام المقتضب[1] الّذي لم يُعتدّ به ولم يُعوَّده ولم يُمرَّن عليه، أفضلُ من إسلام النّاشئ الّذي رُبِّي فيه ونشأ وحبّب إليه. وذلك لأنّ صاحب التّربية يبلُغ حيث يبلغ وقد أسقط إلفه عنه مؤنةَ الرّويّة والخاطر، وكفاه علاج القلب واضطراب النَّفس. وزيد وخبّاب وأبو بكر يعانون من كُلْفة النّظر ومؤنة التّأمّل ومشقّة الانتقال من الدّين الّذي قد طال إلفهم له ما هو غير خافٍ.

ولو كان عليٌّ حيث أسلم بالغًا مقتضبًا كغيره ممّن عددنا، كان إسلامُهم أفضلَ من إسلامه، لأنّ مَن أسلم وهو يعلم أنّ له ظهرًا كأبي طالب وردءًا كبني هاشم وموضعًا في بني عبد المطّلب، ليس كالحليف والمولَى والتّابع والعَسِيف[2] وكالرّجل من عُرْض قريش[3]. أ ولستَ تعلم أنّ قريشًا خاصّةً وأهل مكّة عامّةً لم يقدروا على أذى النّبيّ صلى الله عليه وآله ما كان أبو طالب حيًّا! وأيضًا فإنّ أُولئك اجتمع عليهم مع فراق الإلف مشقّةُ الخواطر، وعليّ عليه السلام كان بحضرة الرّسول صلى الله عليه وآله يشاهد الأعلام في كلّ وقت ويحضر منزل الوحي؛ فالبراهين له أشدُّ انكشافًا والخواطر على قلبه أقلُّ اعتلاجًا، وعلى قَدْر الكُلْفة والمشقّة يعظُم الفضل ويكثر الأجر[4].

قال أبو جعفر رحمه الله: ينبغي أن ينظر أهل الإنصاف هذا الفصل ويقفوا على قول الجاحظ والأصمّ في نصرة العثمانيّة واجتهادهما في القصد إلى فضائل هذا الرّجل وتهجينها، فمرّةً يُبطِلان معناها ومرّةً يتوصّلان إلى حطّ قدرها. فلينظر في كلّ بابٍ اعترضا فيه، أين بلغت حيلتهما وما صنعا في احتيالهما في قصصهما وسجعهما! أ ليس إذا تأمّلتَها علمتَ أنّها ألفاظٌ ملقّقة بلا معنى، وأنّها عليها شجًى وبلاء! وإلّا فما

١ـ المقتضب: غير المستعدّ للشيء.

٢ـ العسيف: الأجير.

٣ـ من عُرْض قريش، أي من دهمائهم.

٤ـ العثمانيّة: ٢٢ـ٢٤، مع تصرّف واختصار كبير.

عسى أن تبلغ حيلةُ الحاسد ويغني كيد الكائد الشّانئ[1] لمَن قد جلّ قدره عن النّقص، وأضاءت فضائله إضاءة الشّمس!

وأين قول الجاحظ من دلائل السّماء وبراهين الأنبياء، وقد علم الصّغير والكبير والعالم والجاهل ممّن بلغه ذكرُ عليّ عليه السلام وعلم مبعثَ النّبيّ صلى الله عليه وآله، أنّ عليًّا عليه السلام لم يولد في دار الإسلام ولا غُذّي في حِجْر الإيمان، وإنّما استضافه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى نفسه سَنَة القحط والمَجاعة، وعمْره يومئذٍ ثماني سنين، فمكث معه سبع سنين حتّى أتاه جبرائيل بالرّسالة، فدعاه وهو بالغٌ كامل العقل إلى الإسلام، فأسلم بعد مشاهدة المعجزة وبعد إعمال النّظر والفكرة.

وإن كان قد ورد في كلامه أنّه صلّى سبع سنين قبل النّاس كلّهم، فإنّما يعني ما بين الثّمان والخمس عشرة، ولم يكن حينئذ دعوة ولا رسالة، ولا ادّعاء نبوّة؛ وإنّما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتعبّد على ملّة إبراهيم ودين الحنيفيّة ويتحنّث ويجانب النّاس ويعتزل ويطلب الخلْوة وينقطع في جبل حراء، وكان عليّ عليه السلام معه كالتّابع والتّلميذ. فلمّا بلغ الحُلم وجاءت النّبيّ صلى الله عليه وآله الملائكةُ وبشّرته بالرّسالة، دعاه فأجابه عن نظرٍ ومعرفة بالأعلام المعجزة. فكيف يقول الجاحظ إنّ إسلامه لم يكن مقتضبًا!

وإن كان إسلامه ينقص عن إسلام غيره في الفضيلة لِمَا كان يُمرَّنُ عليه من التّعبّد مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الدّعوة، لَتكونَنّ طاعة كثيرٍ من المكلّفين أفضلَ من طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وأمثاله من المعصومين، لأنّ العصمة عند أهل العدْل لطفٌ يَمنع مَن اختصّ به من إرتكاب القبيح. فمَن اختصّ بذلك اللّطف كانت الطّاعة عليه أسهل، فوجب أن يكون ثوابه أنقصَ من ثواب مَن أطاع مع تلك الألطاف!

وكيف يقول الجاحظ إن إسلامه ناقصٌ عن إسلام غيره، وقد جاء في الخبر أنّه أسلم يوم الثّلاثاء، واستُنبِئ النّبيّ صلى الله عليه وآله يوم الإثنين. فمَن هذه حاله، لم تكثر حجج الرّسالة على سمعه ولا تواترت أعلام النّبوّة على مشاهدته ولا تطاول الوقت عليه

١ـ ب: «الثّاني»، تحريف و صوابه من ا.

لتخفّ محنته ويسقط ثقل تكليفه، بل بان فضلُه وظهر حسنُ اختياره لنفسه إذ أسلم في حال بلوغه، وعانى نوازعَ طبعه ولم يؤخّر ذلك بعد سماعه.

وقد غمَر الجاحظ في كتابه هذا أنّ أبا بكر كان قبل إسلامه مذكورًا ورئيسًا معروفًا، يجتمع إليه كثير من أهل مكّة فينشدون الأشعار ويتذاكرون الأخبار ويشربون الخمر، وقد كان سمع دلائل النّبوّة وحُجج الرّسل وسافر إلى البلدان و وصلت إليه الأخبار وعرف دعوَى الكهنة وحِيَل السّحرة. ومَن كان كذلك كان انكشافُ الأُمور له أظهَر والإسلامُ عليه أسهَل والخواطر على قلبه أقلَّ اعتلاجًا، وكلُّ ذلك عَونٌ لأبي بكر على الإسلام ومسهِّلٌ إليه سبيله، ولذلك لمّا قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «أتيتُ بيتَ المقدّس» سأله أبو بكر عن المسجد ومواضعه، فصدّقه وبان له أمرُه وخفّت مؤونته لِما تقدّم من معرفته بالبيت. فخرج إذًا إسلام أبي بكر على قول الجاحظ من معنى المقتضب.

وفي ذلك رويتم عَنْهُ صلى الله عليه وآله أنّه قال: ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلام إلّا وكان له تردّدٌ ونَبْوَةٌ إلّا ما كان من أبي بكر، فإنّه لم يَتلعثَم حتّى هجَم به اليقين إلى المعرفة والإسلام.

فأين هذا وإسلام من خُلّي وعقله، وأُلجئ إلى نظره مع صغَر سنّه واعتلاج الخواطر على قلبه ونشأته في ضدّ ما دخل فيه، والغالب على أمثاله وأقرانه حبُّ اللّعب واللّهو، فلجأ إلى ما ظهر له من دلائل الدّعوة، ولم يتأخّر إسلامه فيلزمه التّقصير بالمعصية، فقهَر شهوتَه وغالَب خواطرَه وخرج من عادته وما كان غُذِّي به، لصحّة نظره ولطافة فكِره وغامض فهمه. فعظُم استنباطُه ورجح فضلُه وشرُف قدر إسلامه ولم يأخذ من الدّنيا بنصيب ولا تنعَّم فيها بنعيم حَدَثًا ولا كبيرًا، وحمى نفسَه عن الهوى وكسر شِرّة حداثته بالتّقوى واشتغل بهمّ الدّين عن نعيم الدّنيا وأشغل همّ الآخرة قلبَه و وجّه إليه رغبته.

فإسلامه هو السّبيل الّذي لم يُسلِم عليه أحدٌ غيره، وما سبيله في ذلك إلّا كسبيل الأنبياء، ليعلم أنّ منزلته من النّبيّ صلى الله عليه وآله كمنزلة هارون من موسى، وأنّه وإن لم يكن نبيًّا فقد كان في سبيل الأنبياء سالكًا ولمنهاجهم متّبِعًا، وكانت حاله كحال إبراهيم عليه السلام.

فإنّ أهل العلم ذكروا أنّه لمّا كان صغيرًا جعلتْه أُمّه في سَرَب لم يطّلع عليه أحد، فلمّا نشأ ودرَج وعقَل قال لأُمّه: مَن ربّي؟ قالت: أبوك. قال: فمَن ربّ أبي؟ فزبَرته ونهرتْه، إلى أن طلع من شقّ السَّرَب، فرأى كوكبًا فقال: هذا ربّي. فلمّا أفل قال: لا أُحبّ الآفلين. فلمّا رأى القمر بازغًا قال: هذا ربّي. فلمّا أفل قال: لئن لم يهدِني ربّي لأكوننّ من القوم الضالّين. فلمّا رأى الشّمس بازغةً قال: هذا ربّي، هذا أكبر. فلمّا أفلتْ قال: يا قوم إنّي بريءٌ ممّا تشركون، إنّي وجّهت وجهي للّذي فطر السّموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين. وفي ذلك يقول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[1]. وعلى هذا كان إسلام الصّدّيق الأكبر عليه السلام، لسنا نقول إنّه كان مساويًا له في الفضيلة ولكن كان مقتديًا بطريقه على ما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

وأمّا اعتلال الجاحظ بأنّ له ظهرًا كأبي طالب وردءًا كبني هاشم، فإنّه يوجب عليه أن تكون محنة أبي بكر وبلالٍ ثوابهما وفضل إسلامهما أعظم ممّا لرسول الله صلى الله عليه وآله، لأنّ أبا طالب ظهره وبني هاشم ردؤه. وحسبك جهلًا مِن معاندٍ لم يستطع حطّ قدر عليّ عليه السلام إلّا بحطّه مِن قدر رسول الله صلى الله عليه وآله!

ولم يكن أحدٌ أشدّ على رسول الله صلى الله عليه وآله من قراباته، الأدنى منهم فالأدنى، كأبي لهب عمّه وامرأة أبي لهب، وهي أُمّ جميل بنت حَرْب بن أُميّة وإحدى أولاد عبد مناف، ثمّ ما كان من عُقْبة بن أبي مُعَيط، وهو ابن عمّه، وما كان من النّضْر بن الحارث، وهو من بني عبد الدّار بن قُصَيّ، وهو ابن عمّه أيضًا، وغير هؤلاء ممّن يطول تعداده وكلّهم كان يطرحُ الأذى في طريقه وينقل أخباره ويرميه بالحجارة ويرمي الكَرِش والفَرْث

١ـ الأنعام/ ٧٥.

٢ـ آل عمران/ ٦٨.

عليه. وكانوا يؤذُون عليًّا عليه السلام كأذاه ويجتهدون في غمّه ويستهزئون به. وما كان لأبي بكر قرابةٌ تؤذيه كقرابة عليّ.

ولمّا كان بين عليّ وبين النّبيّ صلى الله عليه وآله من الاتّحاد والإلف والإتّفاق، أحجم المنافقون بالمدينة عن أذَى رسول الله صلى الله عليه وآله خوفًا من سيفه ولأنّه صاحب الدّار والجيش وأمرُه مطاع وقوله نافذ، فخافوا على دمائهم منه، فاتّقَوْه وأمسكوا عن إظهار بغْضه وأظهروا بغْض عَليّ عليه السلام وشنآنه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله في حقّه في الخبر الّذي رُوي في جميع الصّحاح: «لا يُحِبّك إلّا مؤمن ولا يُبغِضك إلّا منافق». وقال كثيرٌ من أعلام الصّحابة ـ كما رُوي في الخبر المشهور بين المحدّثين: «ما كنّا نَعرف المنافقين إلّا ببغْض عليّ بن أبي طالب». وأين كان ظهْر أبي طالب عن جعفر، وقد أزعجه الأذى عن وطنه حتّى هاجر إلى بلاد الحبشة وركب البحر. أ يتوهمّ الجاحظ أنّ أبا طالب نصر عليًّا وخذل جعفرًا!

قال الجاحظ: ولأبي بكر فضيلة في إسلامه أنّه كان قبل إسلامه كثير الصّديق عريض الجاه، ذا يسارٍ وغِنًى، يعظَّم لماله ويستفاد من رأيه، فخرج من عزّ الغِنَى وكثرة الصّديق إلى ذُلّ الفاقة وعجز الوحدة. وهذا غير إسلام مَن لا حَراك به ولا عزّله، تابع غير متبوع، لأنّ مِن أشدّ ما يُبتلَى الكريم به، السّبّ بعد التّحيّة والضّرب بعد الهيبة والعُسر بعد اليُسر. ثمّ كان أبو بكر داعيةً من دعاة الرّسول وكان يتلوه في جميع أحواله، فكان الخوف إليه أشدّ، والمكروه نحوه أسرع، وكان مِمّن تحسُن مطالبته، ولا يستحيي من إدراك الثّأر عنده، لنباهته وبُعْد ذكره، والحدَث الصّغير يزدري ويحتقر لصِغَر سنّه وخمول ذكره[1].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا ما ذُكر من كثرة المال والصّديق، واستفاضة الذّكْر وبُعْد الصِّيت وكِبَر السّنّ، فكلُّه عليه لا له؛ وذلك لأنّه قد عُلم أنّ من سيرة العرب وأخلاقها حفْظ الصّديق والوفاء بالذّمام والتّهيّب لذي الثَّرْوة واحترام ذي السّنّ العالية. وفي

١ـ العثمانيّة: ٢٥ـ ٢٦، مع تصرّف واختصار.

كلّ هذا ظَهْرٌ شديد وسندٌ وثقةٌ يعتمد عليها عند المحن، ولذلك كان المرء منهم إذا تمكّن من صديقه أبقى عليه واستحيا منه، وكان ذلك سببًا لنجاته والعفو عنه.

علَى أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام إن لم يكن شهره سنُّه، فقد شهَره نسبُه وموضعه من بني هاشم. وإن لم يستفِضْ ذكره بلقاء الرّجال وكثرة الأسفار، استفاض بأبي طالب. فأنتم تعلمون أنّه ليس تَيْم في بُعْد الصِّيت كهاشم، ولا أبو قحافة كأبي طالب. وعلى حَسَب ذلك يعلو ذكر الفتى على ذي السّنّ ويبعد صيت الحدَث على الشّيخ.

ومعلومٌ أيضًا أنّ عليًّا على أعناق المشركين أثقلُ إذ كان هاشميًّا، وإن كان أبوه حاميَ رسول الله صلى الله عليه وآله والمانعَ لحوزته. وعليٌّ هو الّذي فتح علَى العرب باب الخلاف واستهان بهم بما أظهر من الإسلام والصّلاة وخالف رهطه وعشيرته وأطاع ابن عمّه فيما لم يُعرَف من قبل ولا عهد له نظيرٌ، كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[1]. ثمّ كان بعدُ صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وآله ومشتكَى حَزَنه وأنيسه في خلوته وجليسَه وأليفه في أيّامه كلّها. وكلّ هذا يوجب التّحريض عليه ومعاداة العرب له.

ثمّ أنتم معاشرَ العثمانيّة، تُثبِتون لأبي بكر فضيلةً بصحبة الرّسول صلى الله عليه وآله من مكّة إلى يثرب ودخوله معه في الغار، فقلتم: مرتبةٌ شريفة وحالةٌ جليلة، إذ كان شريكَه في الهجرة وأنيسَه في الوحشة. فأين هذه من صحبة عليّ عليه السلام له في خلوته وحيث لا يجد أنيسًا غيره، ليلَه ونهاره. أيّام مُقامِه بمكّة يعبد الله معه سرًّا ويتكلّف له الحاجة جَهْرًا ويخدمه كالعبد يخدم مولاه ويُشفِق عليه ويحوطه، وكالولد يبرّ والده ويعطف عليه. ولمّا سئلت عائشة مَن كان أحبّ النّاس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، قالت: أمّا مِن الرّجال فعليٌّ وأمّا من النّساء ففاطمة.

قال الجاحظ: وكان أبو بكر من المفتونين المعذَّبين بمكّة قبل الهجرة، فضربه نوفل ابن خويلد المعروف بابن العَدَوِيّة مرّتين حتّى أدماه. وشَدّه مع طلحة بن عبيد الله في قَرَن وجعلهما في الهاجرة عمير بن عثمان بن مرّة بن كعب بن سعد بن تَيم بن مرّة،

١ـ يس/ ٦.

ولذلك كانا يُدعيان القرينيْن. ولو لم يكن له غير ذلك لكان لحاقُه عسيرًا وبلوغ منزلته شديدًا، ولو كان يومًا واحدًا لكانَ عظيمًا. وعليّ بن أبي طالب رافهٌ وادعٌ، ليس بمطلوب ولا طالب. وليس أنّه لم يكن في طبعه الشّهامة والنَّجْدة، وفي غريزته البَسالة في الشّجاعة، لكنّه لم يكن قد تمّت أداته ولا استكملت آلته، ورجال الطّلب وأصحاب الثّأر يُغمصون ذا الحَداثة ويزدرون بذي الصِّبا والغرارة، إلى أن يلحق بالرّجال ويخرج من طبع الأطفال[1].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا القول فممكنٌ والدّعوى سهلةٌ، سيّما على مثل الجاحظ؛ فإنّه ليس على لسانه من دينه وعقله رقيبٌ، وهو من دعوى الباطل غير بعيد، فمعناه نزرٌ وقوله لغوٌ ومطلبه سجعٌ وكلامه لعبٌ ولهوٌ. يقول الشّيء وخلافه ويَحسِن القول وضدّه. ليس له من نفسه واعظٌ ولا لدعواه حدٌّ قائم، وإلّا فكيف تجاسَر على القول بأنّ عليًّا حينئذ لم يكن مطلوبًا ولا طالبًا، وقد بيّنا بالأخبار الصّحيحة والحديث المرفوع المسنَد أنّه كان يوم أسلم بالغًا كاملًا منابذًا بلسانه وقلبه لمشركي قريش، ثقيلًا على قلوبهم. وهو المخصوص دون أبي بكر بالحِصار في الشِّعْب، وصاحب الخلوات برسول الله صلى الله عليه وآله في تلك الظّلمات، المتجرّع لغُصص المرار من أبي لهب وأبي جهل وغيرهما، والمصطلِي لكلّ مكروه والشّريك لنبيّه في كلّ أذى. قد نهض بالحِمْل الثّقيل وبان بالأمر الجليل.

ومَن الّذي كان يخرج ليلًا من الشِّعب على هيئة السّارق، يخفي نفسه ويضائل شخصه حتّى يأتي إلى مَن يبعثه إليه أبو طالب من كُبَراء قريش كمطعِم بن عديّ وغيره، فيحمل لبني هاشم على ظهره أعدال الدّقيق والقمح، وهو على أشدّ خوف من أعدائهم كأبي جهل وغيره، لو ظفروا به لأراقوا دَمه. أ عليٌّ كان يفعل ذلك أيّام الحصار في الشِّعب أم أبو بكر؟

١ـ العثمانيّة: ٢٧ـ ٢٨.

وقد ذكر هو عليه السلام حاله يومئذ، فقال في خطبة له مشهورة: فتعاقدوا ألّا يعاملونا ولا يناكحونا، وأوقدت الحرب علينا نيرانَها، واضطرّونا إلى جبل وَعْر. مؤمنُنا يرجُو الثّواب وكافرُنا يحامي عن الأصل. ولقد كانت القبائل كلّها اجتمعت عليهم وقطعوا عنهم المادّة والميرة، فكانوا يتوقّعُون الموت جوعًا، صباحًا ومساءً. لا يرون وجهًا ولا فَرَجًا. قد اضمحلّ عزمهم، وانقطع رجاؤهم.

فمَن الّذي خلص إليه مكروه تلك المحَن بعد محمّد صلى الله عليه وآله إلّا عليٌّ عليه السلام وحدَه! وما عسى أن يقول الواصف والمُطنِب في هذه الفضيلة، مِن تقصّي معانيها وبلوغ غاية كُنْهها وفضيلة الصّابر عندها! ودامت هذه المحنة عليهم ثلاث سنين حتّى انفرجت عنهم بقصّة الصّحيفة والقصّه مشهورة.

وكيف يستحسن الجاحظ لنفسه أن يقول في عليّ عليه السلام: إنّه قبل الهجرة كان وادعًا رافهًا، لم يكن مطلوبًا ولا طالبًا، وهو صاحب الفراش الّذي فدَى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه، و وقاه بمهجته، واحتمل السّيوف ورضْح الحجارة دونه. وهل ينتهي الواصف وإن أطنب، والمادح وإن أسهب، إلى الإبانة عن مقدار هذه الفضيلة والإيضاح بمزيّة هذه الخصيصة!

فأمّا قوله: «إنّ أبا بكرٍ عُذِّب بمكّة»، فإنّا لا نعلم أنّ العذاب كان واقعًا إلّا بعبدٍ أو عسيفٍ[1] أو لمَن لا عشيرة له تمنعه. فأنتم في أبي بكر بين أمرين: تارةً تجعلونه دخيلًا ساقطًا وهجينًا رذيلًا مستضعَفًا ذليلًا، وتارةً تجعلونه رئيسًا متَّبَعًا وكبيرًا مطاعًا. فاعتمِدوا على أحد القولين لنكلّمكم بحسب ما تختارونه لأنفسكم.

ولو كان الفضل في الفتنه والعذاب، لكان عمّار وخَبّاب وبلال وكلّ معذَّبٍ بمكّة أفضلَ من أبي بكر، لأنّهم كانوا من العذاب في أكثر ممّا كان فيه، ونزل فيهم من القرآن ما لم ينزل فيه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾[2]، قالوا: نزلت

١ـ العسيف: الأجير.

٢ـ النّحل/ ٤١.

في خبّاب وبلال. ونزل في عمّار قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَـٰنِ﴾[1]. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ على عمّار وأبيه وأُمّه، وهم يعذَّبون؛ يعذّبهم بنو مخزوم لأنّهم كانوا حلفاءهم، فيقول: «صبرًا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة». وكان بلال يقلَّب على الرَّمْضاء وهو يقول: أحد أحد!

وما سمعنا لأبي بكر في شيء من ذلك ذكرًا، ولقد كان لعليّ عليه السلام عنده يد غرّاء، إن صحّ ما رويتموه في تعذيبه، لأنّه قتل نوفل بن خويلد وعميربن عثمان يوم بَدر؛ ضرب نوفلًا فقطع ساقه، فقال: أُذكِّرك الله والرَّحِم! فقال: قد قطع الله كلّ رحِم وصِهر إلّا مَن كان تابعًا لمحمّد، ثمّ ضربه أُخرى ففاضت نفسُه. وصمد لعميربن عثمان التّميميّ، فوجده يروم الهَرب، وقد ارتجّ عليه المسلك، فضربه على شراسيفِ صدره، فصار نصفُه الأعلى بين رجليه. وليس أنّ أبا بكر لم يطلب بثأره منهما ويجتهد، لكنّه لم يقدر علَى أن يفعل فعْل عليّ عليه السلام، فبان عليٌّ عليه السلام بفعله دونه.

قال الجاحظ: ولأبي بكر مراتبُ لا يشركه فيها عليٌّ ولا غيره، وذلك قبلَ الهجرة. فقد علم النّاس أنّ عليًّا عليه السلام إنّما ظهر فضلُه وانتشر صيتُه وامتُحِن ولَقِي المشاقّ منذ يوم بدر. وأنّه إنّما قاتَل في الزّمان الّذي استوفَى فيه أهل الإسلام وأهل الشّرك، وطمعوا في أن يكون الحرب بينهم سِجالًا، وأعلمهم الله تعالى أنّ العاقبَة للمتّقين. وأبو بكر كان قبل الهجرة معذَّبًا ومطرودًا مشرَّدًا، في الزّمان الّذي ليس بالإسلام وأهله نهوضٌ ولا حركةٌ. ولذلك قال أبو بكر في خلافته: طوبى لمن مات في فأفأة الإسلام! يقول: في ضعفه[2].

قال أبو جعفر رحمه الله: لا أشُكّ أنّ الباطل خانَ أبا عثمان والخطأ أقعده والخذلان أصاره إلى الحَيرة، فما علم وعرف حتّى قال ما قال. فزعم أنّ عليًّا عليه السلام قبل الهجرة لم يمتحن ولم يكابد المشاقّ؛ وأنّه إنّما قاسَى مشاقّ التّكليف ومحن الابتلاء منذ يوم بَدر.

١ـ النّحل/ ١٠٦.

٢ـ العثمانيّة: ٣٩ـ٤٠، مع تصرّف واختصار.

ونسي الحصار في الشِّعب وما مُني به منه، وأبو بكر وادعٌ رافهٌ، يأكل ما يريد، ويجلس مع من يحبّ، مخلًّى سِربُه، طيّبةً نفسه، ساكنًا قلبه، وعليٌّ يقاسي الغَمَرات، ويكابد الأهوال، ويجوع ويظمأ، ويتوقّع القتل صباحًا ومساءً، لأنّه كان هو المتوصّل المحتال في إحضار قوتٍ زَهيد من شيوخ قريش وعقلائها سرًّا، ليقيم به رمَق رسول الله ﷺ وبني هاشم، وهم في الحِصار.

ولا يأمن في كلّ وقت مفاجأة أعداء رسول الله ﷺ له بالقتل، كأبي جهل بن هشام وعُقْبة بن أبي مُعَيط، والوليد بن المغيرة، وعُتْبة بن ربيعة وغيرهم من فراعنة قريش وجبابرتها.

ولقد كان يُجِيع نفسَه ويُطعِم رسولَ الله ﷺ زاده ويظمِّئ نفسَه ويُسقيه ماءه. وهو كان المعلِّل له إذا مرض، والمؤنس له إذا استوحش، وأبو بكر بنجْوةٍ عن ذلك؛ لا يمسّه ممّا يمسّهم ألمٌ، ولم يلحقه ممّا يلحقهم مشقّةٌ، ولا يعلم بشيء من أخبارهم وأحوالهم إلّا على سبيل الإجمال دون التّفصيل؛ ثلاث سنين، محرّمة معاملتهم ومناكحتهم ومجالستهم، محبوسين محصورين ممنوعين من الخروج والتّصرّف في أنفسهم. فكيف أهمل الجاحظ هذه الفضيلة ونسي هذه الخصيصة، ولا نظير لها! ولكن لا يبالي الجاحظ بعد أن يُسوّغ له لفظُه وتنسق له خطابته، ما ضيَّع من المعنى ورجع عليه من الخطأ.

فأمّا قوله: «واعلموا أنّ العاقبة للمتّقين»، ففيه إشارة إلى معنى غامضٍ قصده الجاحظ ـ يعني أن لا فضيلة لعليٍّ عليه السلام في الجهاد، لأنّ الرّسول كان أعلمه أنّه منصورٌ وأنّ العاقبة له ـ وهذا من دسائس الجاحظ وهمزاته ولمزاته، وليس بحقٍّ ما قاله، لأنّ رسول الله ﷺ أعلم أصحابه جملةً أنّ العاقبة لهم، ولم يُعلِم واحدًا منهم بعينه أنّه لا يُقتل، لا عليًّا ولا غيره. وإن صحّ أنّه كان أعلمه أنّه لا يقتل، فلم يعلمه أنّه لا يقطع عضو من أعضائه، ولم يعلمه أنّه لا يمسّه ألم جراح في جسده، ولم يعلمه أنّه لا يناله الضّرب الشّديد.

وعلى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر ـ وهو يومئذ بمكّة ـ أنّ العاقبة لهم، كما أعلم أصحابه بعد الهجرة ذلك، فإن لم يكن لعليٍّ والمجاهدين فضيلةٌ في الجهاد بعد الهجرة لإعلامه إيّاهم ذلك، فلا فضيلة لأبي بكر وغيره في احتمال المشاقّ قبل الهجرة لإعلامه إيّاهم بذلك. فقد جاء في الخبر أنّه وعد أبا بكر قبل الهجرة بالنّصر وأنّه قال له: أُرسِلتُ إلى هؤلاء بالذّبح، وإنّ الله تعالى سيُغنِمُنا أموالَهم ويُمَلِّكُنا ديارهم. فالقول في الموضعين متساوٍ ومتّفق.

قال الجاحظ: وإنّ بين المحنة في الدّهر الّذي صار فيه أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وآله مقرّنين لأهل مكّة ومشركي قريش، ومعهم أهل يثرب أصحاب النّخيل والآطام و الشّجاعة والصّبر والمواساة والإيثار والمحاماة والعدد الدَّثْر والفعل الجَزْل، وبين الدّهر الّذي كانوا فيه بمكّة يُفتَنون ويُشتمون ويُضربون ويُشرّدون ويجوعون ويعطشون، مقهورين لا حَراك بهم، وأذلاء لا عزّ لهم، وفقراء لا مالَ عندهم، ومستخفّين لا يمكنهم إظهار دعوتهم، لَفرْقًا واضحًا.

ولقد كانوا في حالٍ أحوجت لوطًا وهو نبيٌّ إلى أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1]. وقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «عجبت من أخي لوط كيف قال: أو آوي إلى ركنٍ شديد، وهو يأوي إلى الله تعالى!» ثمّ لم يكن ذلك يومًا ولا يومين ولا شهرًا ولا شهرين، ولا عامًا ولا عامين، ولكنّ السّنين بعد السّنين. وكان أغلظَ القوم وأشدَّهم محنةً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر، لأنّه أقام بمكّة ما أقام رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث عشرة سنة، وهو أوسط ما قالوا في مُقام النّبيّ صلى الله عليه وآله[2].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: ما نَرى الجاحظ احتجّ لكون أبي بكر أغلظهم وأشدّهم محنةً إلّا بقوله: لأنّه أقام بمكّة مدّة مُقام الرّسول صلى الله عليه وآله بها. وهذه الحجّة لا تخصّ أبا بكر وحده، لأنّ عليًّا عليه السلام أقام معه هذه المدّة وكذلك طلحة وزيد وعبد الرّحمن وبلال

١ـ هود/ ٨٠.

٢ـ العثمانيّة: ٤١.

وخَبّاب وغيرهم. وقد كان الواجب عليه أن يخصّ أبا بكر وحدَه بحجّةٍ تدلّ على أنّه كان أغلظ الجماعة وأشدّهم محنةً بعد رسول الله ﷺ، فالاحتجاج في نفسه فاسد.

ثمّ يقال له: ما بالك أهملتَ أمر مَبيت عليّ عليه السلام على الفراش بمكّة ليلة الهجرة! هل نسيتَه أم تناسيتَه! فإنّها المحنة العظيمة والفضيلة الشّريفة الّتي متى امتحنها النّاظر وأجال فكره فيها، رأى تحتها فضائل متفرّقة ومناقب متغايرة.

وذلك أنّه لمّا استقرّ الخبر عند المشركين أنّ رسول الله ﷺ مُجمِع على الخروج من بينهم للهجرة إلى غيرهم، قصدوا إلى معاجلته وتعاقدوا على أن يبيّتوه في فراشه وأن يضربوه بأسياف كثيرة، بيد كلّ صاحب قبيلة من قريش سيفٌ منها، ليضيع دمُه بين الشّعوب ويتفرّق بين القبائل، ولا يطلب بنو هاشم بدمه قبيلةً واحدة بعينها من بطون قريش، وتحالفوا على تلك اللّيلة واجتمعوا عليها.

فلمّا علم رسول الله ﷺ ذلك من أمرهم، دعا أوثقَ النّاس عنده، أمثلَهم في نفسه، وأبذلَهم في ذات الإله لمهجته، وأسرعَهم إجابةً إلى طاعته، فقال له: إنّ قريشًا قد تحالفتْ على أن تبيّتني هذه اللّيلة، فامضِ إلى فراشي، ونُمْ في مضجعي، والتفّ في بُردي الحضْرميّ ليروا أنّي لم أخرج، وإنّي خارجٌ إن شاء الله. فمنعه أوّلًا من التّحرّز وإعمال الحيلة، وصدّه عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المكايد والجهات الّتي يحتاط بها النّاس لنفوسهم، وألجأه إلى أن يعرِّض نفسه لظُبات السّيوف الشّحيذة من أيدي أرباب الحنَق والغيظة.

فأجاب إلى ذلك سامعًا مطيعًا طيّبة بها نفسُه، ونام على فراشه صابرًا محتسبًا واقيًا له بمهجته، ينتظر القتل. ولا نعلم فوق بذْل النّفس درجةً يلتمسها صابرٌ ولا يبلغها طالبٌ؛ «والجود بالنّفس أقصى غاية الجود».

ولولا أنّ رسول الله ﷺ علم أنّه أهلٌ لذلك، لَما أهّله. ولو كان عنده نقصٌ في صبره أو في شجاعته أو في مناصحته لابن عمّه، واختير لذلك، لكان من اختاره ﷺ منقوضًا في رأيه، مضِرًّا في اختياره. ولا يجوز أن يقول هذا أحدٌ من أهل الإسلام، وكلُّهم مجمعون على أنّ الرّسول ﷺ عمل الصّواب وأحسن في الاختيار.

ثمّ في ذلك ـ إذا تأمّله المتأمّل ـ وجوهٌ من الفضل:

منها: أنّه وإن كان عنده في موضع الثّقة، فإنّه غير مأمونٍ عليه ألّا يضبط السّرّ فيفسد التّدبير بإفشائه تلك اللّيله إلى مَن يلقيه إلى الأعداء.

ومنها: أنّه وإن كان ضابطًا للسّرّ وثقةً عند من اختاره، فغيرُ مأمونٍ عليه الجُبن عند مفاجأة المكروه ومباشرة الأهوال، فيفرّ من الفراش فيفطُن لموضع الحيلة ويطلب رسولَ الله صلى الله عليه وآله فيظفر به.

ومنها: أنّه وإن كان ضابطًا للسّرّ شجاعًا نَجْدًا، فلعلّه غير محتملٍ للمبيت على الفراش، لأنّ هذا أمرٌ خارج عن الشّجاعة إن كان قد قامه مقام المكتوف الممنوع؛ بل هو أشدُّ مشقّةً من المكتوف الممنوع، لأنّ المكتوف الممنوع يعلم من نفسه أنّه لا سبيل له إلى الهرب، وهذا يجدُ السّبيل إلى الهرب وإلى الدّفع عن نفسه، ولا يهرُب ولا يدافع.

ومنها: أنّه وإن كان ثقةً عنده ضابطًا للسّرّ شجاعًا محتملًا للمبيت على الفراش، فإنّه غير مأمونٍ أن يذهب صبرُه عند العقوبة الواقعة والعذاب النّازل بساحته، حتّى يبوح بما عنده ويصير إلى الإقرار بما يعلمه، وهو أنّه أخذ طريق كذا فيطلب فيؤخذ.

فلهذا قال علماء المسلمين: إنّ فضيلة عليٍّ عليه السلام تلك اللّيلة لا نعلم أحدًا من البشر نال مثلها إلّا ما كان من إسحاق وإبراهيم عند استسلامه للذّبح. ولولا أنّ الأنبياء لا يفضلُهم غيرهم، لقلنا: إنّ محنة عليٍّ أعظم، لأنّه قد رُوي أنّ إسحاق تلكّأ لمّا أمره أن يضطجع وبكى علَى نفسه، وقد كان أبوه يعلم أنّ عنده في ذلك وقفة، ولذلك قال له: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[1]. وحال عليٍّ عليه السلام بخلاف ذلك، لأنّه ما تلكّأ ولا تَتَعتع، ولا تغيّر لونُه، ولا اضطربت أعضاؤه.

ولقد كان أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وآله يُشيرون عليه بالرّأي المخالف لِما كان أمر به وتقدّم فيه، فيتركه ويعمل بما أشاروا به، كما جرى يوم الخندق في مصانعته الأحزاب بثلث

١ـ الصّافّات/ ١٠٢.

تَمْر المدينة، فإنّهم أشاروا عليه بترك ذلك، فتركه. وهذه كانت قاعدتُه معهم وعادته بينهم.

وقد كان لعليٍّ عليه السلام أن يعتلّ بعلّة وأن يقِفَ ويقول: يا رسول الله، أكون معك أحمِيك من العدوّ وأذبّ بسيفي عنك، فلستَ مستغنيًا في خروجك عن مثلي، ونجعلُ عبدًا من عبيدنا في فراشك قائمًا مقامك، يتوهّم القوم ـ برؤيته نائمًا في بُرْدِك ـ أنّك لم تخرج ولم تفارق مركزَك، فلم يقل ذلك ولا تحبّس ولا توقّف ولا تَلَعثم. وذلك لعلم كلِّ واحدٍ منهما صلى الله عليه وآله أنّ أحدًا لا يصبر على ثِقَل هذه المحنة، ولا يتورّط هذه الهَلكة إلّا مَن خَصّه الله تعالى بالصّبر على مشقّتها والفوزِ بفضيلتها.

وله مِن جِنس ذلك أفعالٌ كثيرة، كيومِ دعا عمرو بن عبد وُدّ المسلمين إلى المبارزة، فأحجم النّاس كلُّهم عنه لِما علموا من بأسه وشدّته، ثمّ كرّر النّداء، فقام عليٌّ عليه السلام فقال: أنا أبرزُ إليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّه عمرو! قال: نعم وأنا عليٌّ! فأمره بالخروج إليه. فلمّا خرج قال صلى الله عليه وآله: «برز الإيمانُ كلّه إلى الشّرك كلّه»، وكيوم أُحُد حيث حَمَى رسولَ الله صلى الله عليه وآله من أبطال قريش وهم يقصدون قتله، فقتلهم دونه حتّى قال جبرئيل عليه السلام: «يا محمّد إنّ هذه هي المواساة»، فقال: «إنّه منّي وأنا منه»، فقال جبريل: «وأنا منكما». ولو عددنا أيّامه ومقاماته الّتي شرَى فيها نفسَه لله تعالى لأطلْنا وأسهبنا.

قال الجاحظ: فإن احتجّ محتجٌّ لعليٍّ عليه السلام بالمبيت على الفراش، فبيْن الغار والفراش فرقٌ واضح، لأنّ الغار وصحبة أبي بكرٍ للنّبيّ صلى الله عليه وآله قد نطَق به القرآن، فصار كالصّلاة والزّكاة وغيرهما ممّا نطق به الكتاب. وأمْر عليٍّ عليه السلام ونومُه على الفراش وإن كان ثابتًا صحيحًا إلّا أنّه لم يُذكَر في القرآن، وإنّما جاء مجيء الرّوايات والسّيَر. وهذا لا يوازن هذا ولا يكايله[1].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا فرقٌ غير مؤثّر، لأنّه قد ثبت بالتّواتر حديث الفراش، فلا فرق بينه وبين ما ذكر في نصّ الكتاب ولا يجحَده إلّا مجنونٌ أو غير مخالِطٍ لأهل

---

١ ـ العثمانيّة: ٤٤.

الملّة. أ رأيت كونَ الصّلوات خمسًا وكون زكاة الذّهب ربعَ العشروكون خروج الرّيح ناقضًا للطّهارة وأمثال ذلك ممّا هو معلومٌ بالتّواتر حكمُه، هل هو مخالفٌ لِما نصّ في الكتاب عليه من الأحكام! هذا ممّا لا يقوله رشيدٌ ولا عاقلٌ. علَى أنّ الله تعالى لم يذكر إسم أبي بكر في الكتاب وإنّما قال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِ﴾[1]، وإنّما علمنا أنّه أبو بكر بالخبر وما ورد في السّيرة، وقد قال أهل التّفسير: إنّ قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[2] كنايةٌ عن عليّ عليه السلام لأنّه مكّر بهم. وأوّل الآية: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أُنزلتْ في ليلة الهجرة، ومكرُهم كان توزيعَ السّيوف على بطون قريش، ومكر الله تعالى هو منامُ عليّ عليه السلام علَى الفراش. فلا فرق بين الموضعين في أنّهما مذكوران كنايةً لا تصريحًا. وقد روى المفسّرون كلّهم أنّ قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[3] أُنزلتْ في عليّ عليه السلام ليلة المبيت على الفراش، فهذه مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِ﴾، لا فرق بينهما.

قال الجاحظ: وفرقٌ آخر وهو أنّه لو كان مبيت عليّ عليه السلام على الفراش جاء مجيء كون أبي بكر في الغار، لم يكن له في ذلك كبير طاعةٍ، لأنّ النّاقلين نقلوا أنّه صلى الله عليه وآله قال له: «ثُمْ فلَن يخلُصَ إليك شيء تكرهه»، ولم ينقُل ناقلٌ أنّه قال لأبي بكر في صحبته إيّاه وكونه معه في الغار مثل ذلك ولا قال له: أنفِقْ وأعتِقْ فإنّك لن تفتقرَ ولن يصلَ إليك مكروه[4].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا هو الكذب الصُّراح والتّحريف والإدخال في الرّواية ما ليس منها. والمعروف المنقول أنّه صلى الله عليه وآله قال له: اذْهَبْ فاضطجعْ في مضجعي وتغَشّ

١ـ التّوبة/ ٤٠.

٢ـ الأنفال/ ٣٠.

٣ـ البقرة/ ٢٠٧.

٤ـ العثمانيّة: ٤٥.

بِبُردي الحضرميّ، فإنّ القوم سيفقدونني ولا يشهدون مضجعي. فلعلّهم إذا رأوك يسكنهم ذلك حتّى يصبحوا. فإذا أصبحت فاغدُ في أداء أمانتي.

ولم ينقل ما ذكره الجاحظ، وإنّما ولّده أبو بكر الأصمّ وأخذه الجاحظ، ولا أصل له. ولو كان هذا صحيحًا لم يصلْ إليه منهم مكروه، وقد وقع الاتّفاق على أنّه ضُرب ورُمي بالحجارة قبل أن يعلموا مَن هو حتّى تضوَّر، وأنّهم قالوا له: رأينا تضوُّرك، فإنّا كنّا نرمي محمّدًا ولا يتضوّر، ولأنّ لفظة المكروه إن كان قالها إنّما يراد بها القتل، فهب أنّه أمِن القتل كيف يأمن من الضّرب والهوان ومن أن ينقطع بعض أعضائه وبأن سلمت نفسه! أ ليس الله تعالى قال لنبيّه: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] ومع ذلك فقد كسرتْ رَباعِيَتُه وشجّ وجهه، وأُدمِيتْ ساقه، وذلك لأنّها عصمةٌ من القتل خاصّةً. وكذلك المكروه الّذي أُومن عليٌّ عليه السلام منه ـ وإن كان صحّ ذلك في الحديث ـ إنّما هو مكروه القتل.

ثمّ يقال له: وأبو بكر لا فضيلة له أيضًا في كونه في الغار، لأنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله قال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[2] ومَن يكن الله معه فهو آمنٌ لا محالة من كلّ سوء. فكيف قلت: ولم ينقل ناقلٌ أنّه قال لأبي بكر في الغار مثل ذلك! فكلّ ما يجيب به عن هذا فهو جوابنا عمّا أورده، فنقول له: هذا ينقلبُ عليك في النّبيّ صلى الله عليه وآله لأنّ الله تعالى وعده بظهور دينه وعاقبة أمره، فيجب على قولك ألّا يكون مثابًا عند الله تعالى على ما يحتمله من المكروه، ولا ما يصيبه من الأذى، إذ كان قد أيقَن بالسّلامة والفتح في عِدَته.

قال الجاحظ: ومَن جحد كون أبي بكر صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وآله فقد كفَر لأنّه جحَد نصّ الكتاب. ثمّ انظرْ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ من الفضيلة لأبي بكر، لأنّه شريك رسول الله صلى الله عليه وآله في كون الله تعالى معه وإنزال السّكينة. قال كثيرٌ من النّاس:

١ـ المائدة/ ٦٧.

٢ـ التّوبة/ ٤٠.

إنّه في الآية مخصوصٌ بأبي بكر، لأنّه كان محتاجًا إلى السّكينة لِما تداخَله من رقّة الطّبع البشريّ، والنّبيّ صلى الله عليه وآله كان غير محتاج إليها لأنّه يعلم أنّه محروسٌ من الله تعالى، فلا معنى لنزول السّكينة عليه، وهذه فضيلةٌ ثالثة لأبي بكر.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: إنّ أبا عثمان يجرّ على نفسه ما لا طاقة له به من مطاعن الشّيعة، ولقد كان في غُنْيه عن التّعلّق بما تعلّق به، لأنّ الشّيعة تزعم أنّ هذه الآية بأن تكون طعنًا وعيبًا على أبي بكر أولى من أن تكون فضيلةً ومنقبةً له، لأنّه لمّا قال له: ﴿لاَ تَحْزَنْ﴾ دلّ على أنّه قد كان حزن وقنِط وأشفق على نفسه، وليس هذا من صفات المؤمنين الصّابرين. ولا يجوز أن يكون حزنه طاعةً لأنّ الله تعالى لا ينهى عن الطّاعة، فلو لم يكن ذنبًا لم ينهَ عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ أي إنّ الله عالمٌ بحالنا وما نضمره من اليقين أو الشّكّ، كما يقول الرّجل لصاحبه: لا تضمرَنّ سوءًا ولا تنويَنّ قبيحًا، فإنّ الله تعالى يعلم ما نُسِرّه وما نُعلِنه. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[1] أي هو عالمٌ بهم.

وأمّا السّكينة فكيف يقول إنّها ليست راجعةً إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وبعدها قوله: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾، أ ترى المؤيَّد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله صلى الله عليه وآله!

وقوله: «إنّه مستغنٍ عنها» ليس بصحيح ولا يستغني أحد عن ألطاف الله وتوفيقه وتأييده وتثبيت قلبه. وقد قال الله تعالى في قصّة حُنين: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾[2] صلى الله عليه وآله.

وأمّا الصّحبة فلا تدلّ إلّا على المرافقة والاصطحاب لا غير، وقد يكون حيث لا إيمان، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾، ونحن وإنْ كنّا نعتقد إخلاص أبي بكر وإيمانه الصّحيح السّليم وفضيلته التّامّة، إلّا أنّا لا نحتجّ له

١ـ المجادلة / ٧.

٢ـ التّوبة / ٢٥ـ٢٦.

بمثل ما احتجّ به الجاحظ من الحجج الواهية، ولا نتعلّق بما يجرّ علينا دواهي الشّيعة ومطاعنها.

قال الجاحظ: وإن كان المبيت على الفراش فضيلةً، فأين هي من فضائل أبي بكر أيّام مكّة مِن عثْق المعذَّبين وإنفاق المال وكثرة المستجيبين. مع فرْق ما بين الطّاعتيْن، لأنّ طاعة الشّابّ الغرير والحدَث الصّغير الّذي في عزِّ صاحبه عزُّه، ليست كطاعة الحليم الكبير الّذي لا يرجع تسويدُ صاحبه إلى رهطه وعشيرته.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا كثرة المستجيبين، فالفضل فيها راجعٌ إلى المجيب لا إلى المجاب. على أنّا قد علمنا أنّ مَن استجاب لموسى عليه السلام أكثر ممّن استجاب لنوح عليه السلام، وثواب نوح أكثر، لصبْره على الأعداء ومقاساة خلافهم وعَنَتهم.

وأمّا إنفاق المال، فأين مِحنَة الغَنيّ من محنة الفقير! وأين يعتدل إسلام مَن أسلم وهو غنيٌّ؛ إن جاع أكل وإن أعيا ركب وإن عري لبس، قد وثق بيساره واستغنى بماله واستعان على نوائب الدّنيا بثروته، ممّن لا يجد قوتَ يومه، وإن وجد لم يستأثر به، فكان الفقرُ شعاره.

وفي ذلك قيل: الفقر شعار المؤمن، وقال الله تعالى لموسى: «يا موسى، إذا رأيت الفقر مقبلًا، فقل: مرحبًا بشعار الصّالحين»، وفي الحديث: «إنّ الفقراء يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»، وكان النّبيّ صلى الله عليه وآله يقول: «اللّهمّ احشرني في زمرة الفقراء»، ولذلك أرسل الله محمّدًا صلى الله عليه وآله فقيرًا، وكان بالفقر سعيدًا، فقاسَى محنة الفقر ومكابدة الجوع حتّى شدّ الحجر على بطنه. وحسبك بالفقر فضيلةً في دين الله لمَن صبَر عليه، فإنّك لا تجد صاحبَ الدّنيا يتمنّاه، لأنّه منافٍ لحال الدّنيا وأهلها، وإنّما هو شعار أهل الآخرة.

وأمّا طاعة عليّ عليه السلام وكون الجاحظ زعَم أنّها كانت لأنّ في عزّ محمّد عزّه وعزُّ رهطه بخلاف طاعة أبي بكر، فهذا يفتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك وجهاد عُبيدة بن الحارث وهجرة جعفر إلى الحبشة، بل لعلّ محاماة المهاجرين من قريش على

رسول الله صلى الله عليه وآله كانتْ لأنّ في دولته دولتَهم وفي نصرته استجدادَ ملكٍ لهم، وهذا يجرّ إلى الإلحاد ويفتح باب الزّندقة ويُفضي إلى الطّعن في الإسلام والنّبوّة.

قال الجاحظ: وعلى أنّا لو نزلنا إلى ما يريدونه، جعلنا الفراش كالغار وخلصت فضائل أبي بكر في غير ذلك عن معارض.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: قد بيّنّا فضيلة المبيت على الفراش على فضيلة الصّحبة في الغار، بما هو واضحٌ لمَن أنصف. ونزيد هاهنا تأكيدًا بما لم نذكره فيما تقدّم، فنقول: إنّ فضيلة المبيت على الفراش على الصّحبة في الغار لوجهين:

أحدهما: أنّ عليًّا عليه السلام قد كان أنِس بالنّبيّ صلى الله عليه وآله وحصل له بمصاحبته قديمًا أُنسٌ عظيم وإلفٌ شديد. فلمّا فارقه عُدِم ذلك الأُنس وحصل به أبو بكر، فكان ما يجده عليّ عليه السلام من الوحشة وألَم الفرقة موجبًا زيادة ثوابه، لأنّ الثّواب على قدر المشقّة.

وثانيهما: أنّ أبا بكر كان يؤثر الخروجَ من مكّة، وقد كان خرج من قبل فرْدًا، فازداد كراهيّةً للمقام. فلمّا خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وافق ذلك هوى قلبه ومحبوبَ نفسه، فلم يكن له من الفضيلة ما يوازي فضيلة مَن احتمل المشقّة العظيمة، وعرَّض نفسه لوقْع السُّيوف، ورأسَه لرضْخ الحجارة، لأنّه على قدر سهولة العبادة يكون نقصان الثّواب.

قال الجاحظ: ثمّ الّذي لقي أبو بكر في مسجده الّذي بناه على بابه في بني جُمَح؛ فقد كان بنَى مسجدًا يصلّي فيه ويدعو النّاس إلى الإسلام، وكان له صوتٌ رقيق و وجهٌ عتيق، وكان إذا قرأ بكى، فيقف عليه المارّة من الرّجال والنّساء والصّبيان والعبيد. فلمّا أُوذِي في الله ومُنع من ذلك المسجد، استأذَن رسولَ الله صلى الله عليه وآله في الهجرة، فأذِن له، فأقبل يريد المدينة، فتلقّاه الكنانيّ[1] فعقد له جوارًا وقال: والله لا أدَعُ مثلك يخرج من مكّة. فرجع إليها وعاد لصنيعه في المسجد فمشتْ قريش إلى جاره الكنانيّ وأجلبوا عليه، فقال له: دَع المسجد وادخلْ بيتَك واصنعْ فيه ما بدا لك[2].

١ـ الكنانيّ: هو مالك بن الدُّغُنَّة، أحد بني الحارث بن بكر بن عبد مناة.

٢ـ العثمانيّة: ٢٨ـ ٢٩، مع تصرّف واختصار.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: كيف كانت بنو جُمَح تؤذي عثمان بن مظعون وتضربه وهو فيهم ذو سَطْوة وقَدْر، وتترك أبا بكر يبني مسجدًا يفعل فيه ما ذكرتم. وأنتم الّذين رويتم عن ابن مسعود أنّه قال: «ما صلّينا ظاهرين حتّى أسلم عمر بن الخطّاب»، والّذي تذكرونه من بناء المسجد كان قبل إسلام عمر، فكيف هذا!

وأمّا ما ذكرتم من رقّة صوته وعَتاق وجهه، فكيف يكون ذلك وقد روى الواقديّ وغيره أنّ عائشة رأتْ رجلًا من العرب خفيفَ العارضيْن، معروقَ الخدّيْن، غائر العينيْن، أجْنأ[1] لا يمسك إزاره، فقالت: ما رايتُ أشبَه بأبي بكر من هذا؟ فلا نراها دلّتْ على شيء من الجمال في صفته!

قال الجاحظ: وحيث ردّ أبو بكر جوارَ الكنانيّ وقال: لا أُريد جارًا سوى الله، لقي من الأذى والذّلّ والاستخفاف والضّرب ما بلغكم، وهذا موجود في جميع السّيَر. وكان آخر ما لقي هو وأهله في أمر الغار، وقد طلبتْه قريش وجعلتْ فيه مائة بعير، كما جعلتْ في النّبيّ صلى الله عليه وآله، فلقي أبو جهل أسماء بنت بكر، فسألها فكتمتْه، فلطَمها حتّى رَمَتْ قُرْطًا كان في أذنها[2].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا الكلام وهُجْر السّكران سواء في تقارب المخرَج واضطراب المعنى. وذلك أنّ قريشًا لم تقدِر على أذى النّبيّ صلى الله عليه وآله، وأبو طالب حيٌّ يمنعه. فلمّا مات طلبتْه لتقتله، فخرج تارةً إلى بني عامر وتارةً إلى ثقيف وتارةً إلى بني شيبان، ولم يكن يتجاسر على المقام بمكّة إلّا مستترًا حتّى أجاره مطعِم بن عديّ، ثمّ خرج إلى المدينة فبذلتْ فيه مائة بعير لشدّة حَنَقِها عليه حين فاتَها، فلم تقدر عليه. فما بالها بذلتْ في أبي بكر مائة بعير أُخرى، وقد كان ردّ الجوار وبقي بينهم فرْدًا لا ناصر له ولا دافع عنده، يصنعون به ما يريدون! إمّا أن يكونوا أجهلَ البريّة كلّها أو يكون العثمانيّة أكذبَ جيلٍ في الأرض وأوقحَه وجهًا! فهذا ممّا لم يذكر في سيرة ولا رُوي في

١ـ الأجناء، من الجنأ؛ وهو ميل الظّهر.

٢ـ العثمانيّة: ٢٩، مع تصرّف واختصار.

أثرٍ ولا سمع به بشرٌ ولا سبق الجاحظَ به أحدٌ!

قال الجاحظ: ثمّ الّذي كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجاجه حتّى أسلم على يديْه طلحة والزّبير وسعد وعثمان وعبد الرّحمن، لأنّه ساعة أسلَم دعا إلى الله وإلى رسوله[1].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: ما أعجب هذا القول، إذ تَدّعي العثمانيّة لأبي بكر الرّفق في الدّعاء وحسن الاحتجاج، وقد أسلم ومعه في منزله ابنُه عبد الرّحمن؛ فما قدر أن يُدخِله في الإسلام طوعًا برفقة ولطف احتجاجه ولا كرهًا بقطع النّفقة عنه وإدخال المكروه عليه، ولا كان لأبي بكر عند ابنه عبد الرّحمن من القدْر ما يطيعه فيما يأمره به ويدعوه إليه. كما رُوي أنّ أبا طالب فَقَد النّبيّ صلى الله عليه وآله يومًا، وكان يخاف عليه من قريش أن يغتالوه، فخرج ومعه ابنه جعفر يطلُبان النّبيّ صلى الله عليه وآله، فوجده قائمًا في بعض شِعاب مكّة يصلّي، وعليٌّ عليه السلام معه عن يمينه. فلمّا رآهما أبو طالب قال لجعفر: تقدّم و صِلْ جناح ابن عمّك. فقام جعفر عن يسار محمّد صلى الله عليه وآله، فلمّا صاروا ثلاثة تقدّم رسول الله صلى الله عليه وآله وتأخّر الأَخَوان، فبكى أبو طالب وقال:

لا تخذلا وانصرا ابن عمّكما ... أخي لأُمّي من بينهم و أبي

إنّ عليًّا وجعفرًا ثقتي ... عند مُلِمَّ الخطوب والنُّوَبِ

والله لا أخذل النّبيّ ولا ... يخذله من بنيّ ذو حَسَبِ

فتذكُر الرّواة أنّ جعفرًا أسلم منذ ذلك اليوم لأنّ أباه أمره بذلك وأطاع أمره. وأبو بكر لم يقدر على إدخال ابنه عبد الرّحمن في الإسلام حتّى أقام بمكّة على كفره ثلاث عشرة سنة وخرج يوم أُحُد في عسكر المشركين ينادي: أنا عبد الرّحمن بن عَتيق، هل من مبارز؟ ثمّ مكث بعد ذلك على كفره حتّى أسلم عام الفتح، وهو اليوم الّذي دخلتْ فيه قريش في الإسلام طوعًا وكرهًا ولم يجد أحدٌ منها إلى ترك ذلك سبيلًا!

١ـ العثمانيّة: ٣١، مع تصرّف واختصار.

وأين كان رفْق أبي بكر وحسْن احتجاجه عند أبيه أبي قحافة وهما في دارٍ واحدة! هلّا رفَق به ودعاه إلى الإسلام فأسلم! وقد علمتم أنّه بقي على الكفر إلى يوم الفتح، فأحضره ابنُه عند النّبيّ ﷺ وهو شيخٌ كبيرٌ رأسه كالثَّغامة[1]، فنفر رسول الله ﷺ منه وقال: غيّرُوا هذا. فخضبوه، ثمّ جاءوا به مرّةً أُخرى، فأسلم. وكان أبو قحافة فقيرًا مدقِعًا سَيّئ الحال، وأبو بكر عندهم كان مثريًا فائض المال، فلم يمكنه استمالتَه إلى الإسلام بالنّفقة والإحسان، وقد كانت امرأة أبي بكر أُمّ عبد الله ابنه ـ واسمها نُمْلة بنت عبد العُزّى بن أسعد بن عبد بن ودّ العامريّة ـ لم تسلِم، وأقامت على شركها بمكّة، وهاجر أبو بكر وهي كافرةٌ، فلمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[2]، فطلّقها أبو بكر.

فمن عجز عن ابنه وأبيه وامرأته، فهو عن غيرهم من الغُرَماء أعجز. ومن لم يقبل منه أبوه وابنه وامرأته لا برفق واحتجاج ولا خوفًا من قطع النّفقة عنهم وإدخال المكروه عليهم، فغيرهم أقلُّ قبولًا منه وأكثر خلافًا عليه!

قال الجاحظ: وقالت أسماء بنت أبي بكر: ما عرفتُ أبي إلّا وهو يَدِين بالدِّين. ولقد رجع إلينا يوم أسلَم فدعانا إلى الإسلام، فما رِمْنا حتّى أسلمْنا وأسلم أكثرُ جلسائه. ولذلك قالوا: مَن أسلم بدعاء أبي بكر أكثرُ ممّن أسلم بالسّيف، ولم يذهبوا في ذلك إلى العدد بل عَنوْا الكثرة في القَدْر لأنّه أسلم على يديه خمسةٌ من أهل الشُّورى، كلّهم يصلُح للخلافة، وهم أكْفاء عليّ عليه السلام ومنازعوه الرّياسة والإمامة، فهؤلاء أكثرُ من جميع النّاس[3].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أخبِرونا مَن هذا الّذي أسلم ذلك اليوم من أهل بيت أبي بكر؟ إذا كانت امرأته لم تُسلِم، وابنُه عبد الرّحمن لم يسلم، وأبو قحافة لم يسلم،

١ـ الثّغام، كسحاب: ضرْب من النّبات أبيض.

٢ـ الممتحنة/ ١٠.

٣ـ العثمانيّة: ٣١ـ٣٢، مع تصرّف واختصار.

وأُخته أُمّ فَرْوة لم تسلم، وعائشة لم تكن قد وُلدتْ في ذلك الوقت لأنّها ولدت بعد مبعث النّبيّ ﷺ بخمس سنين، ومحمّد بن أبي بكر ولد بعد مبعث رسول الله ﷺ بثلاث وعشرين سنة لأنّه ولد في حَجّة الوداع، وأسماء بنت أبي بكر الّتي قد روَى الجاحظ هذا الخبرَ عنها كانت يوم بُعث رسول الله ﷺ بنتَ أربع سنين ـ وفي روايةٍ مَن يقول: بنت سنتيْن ـ فمَن الّذي أسلم من أهل بيته يوم أسلم! نعوذ بالله من الجهل والكذب والمكابرة!

وكيف أسلم سعدٌ والزّبير وعبد الرّحمن بدعاء أبي بكر وليسوا من رهطه ولا من أترابه ولا من جُلسائه، ولا كانت بينهم قبل ذلك صداقةٌ متقدّمة ولا أُنسٌ وَكيد! وكيف ترك أبو بكر عُتْبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، لم يدخلهما في الإسلام برفقه وحسْن دعائه، وقد زعمتم أنّهما كانا يجلسان إليه لعلمه وطريف حديثه!

وما باله لم يُدخِل جُبير بن مطعِم في الإسلام وقد ذكرتم أنّه أدّبه وخرّجه ومنه أخذ جبير العلم بأنساب قريش ومآثرها! فكيف عجَز عن هؤلاء الّذين عَدَدْناهم، وهم منه بالحال الّتي وصفنا، ودعا من لم يكن بينه وبينه أُنس ولا معرفة إلّا معرفة عيان! وكيف لم يقبل منه عمر بن الخطّاب، وقد كان شكْلَه وأقربَ النّاس شبهًا به في أغلب أخلاقه! ولئن رجعتم إلى الإنصاف لتعلمنّ أنّ هؤلاء لم يكن إسلامُهم إلّا بدعاء الرّسول ﷺ لهم، وعلى يديه أسلموا.

ولو فكّرتم في حسن التّأتّي في الدّعاء، لَيصحَّنّ لأبي طالب في ذلك على شِرْكه، أضعاف ما ذكرتموه لأبي بكر؛ لأنّكم رويتم أنّ أبا طالب قال لعليّ عليه السلام: يا بنيّ الزمْه فإنّه لن يدعوَك إلّا إلى خير، وقال لجعفر: صِلْ جناحَ ابن عمّك، فأسلم بقوله. ولأجله أصفق بنو عبد مناف على نُصرة رسول الله ﷺ بمكّة من بني مخزوم وبني سَهْم وبني جُمَح، ولأجله صبَر بنو هاشم على الحصار في الشّعب، وبدعائه وإقباله على محمّد ﷺ أسلمتْ امرأته فاطمة بنت أسد.

فهو أحسنُ رفقًا وأيمنُ نَقيبةً من أبي بكر وغيره، وإنّما منعه عن الإسلام أنْ ثبت أنّه لم يُسلِم إلّا تقيّة، وأبو بكر لم يكن له إلّا ابنٌ واحد، وهو عبد الرّحمن، فلم يمكنْه أن

يُدخِله في الإسلام، ولا أمكنه إذ لم يقبل منه الإسلام أن يجعله كبعض مشركي قريش في قلّة الأذى لرسول الله ﷺ، وفيه أُنزل: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

وإنّما يُعرَف حسن رفْق الرّجل وتأتّيه بأن يصلح أوّلًا أمرَ بيته وأهله، ثمّ يدعو الأقرب فالأقرب، فإنّ رسول الله ﷺ لمّا بُعث كان أوّلُ من دعا زوجتَه خديجة ثمّ مكفوله وابن عمّه عليًّا عليه السلام ثمّ مولاه زيدًا ثمّ أُمّ أيمن خادمته. فهل رأيتم أحدًا ممّن كان يأوي إلى رسول الله ﷺ لم يسارعْ! وهل الْتَاثَ عليه أحدٌ من هؤلاء! فهكذا يكون حسن التّأتّي والرّفق في الدّعاء! هذا ورسول الله مُقِلٌّ، وهو من جُملة عيال خديجة حين بعثه الله تعالى، وأبو بكر عندكم كان مُوسِرًا وكان أبوه مقتّرًا وكذلك ابنه وامرأته أُمّ عبد الله، والموسر في فِطرة العقول أوْلى أن يتّبع من المقتّر.

وإنّما حسُن التّأتّي والرّفق في الدّعاء ما صنعه مُصْعب بن عمير لسعد بن مُعاذ لمّا دعاه، وما صنع سعد بن مُعاذ ببني عبد الأشهل لمّا دعاهم، وما صنع بُريدة بن الحصيب بأسلم لمّا دعاهم، قالوا: أسلم بدعائه ثمانون بيتًا من قومه وأسلم بنو عبد الأشهل بدعاء سَعْدٍ في يوم واحد. وأمّا من لم يسلم ابنه ولا امرأته ولا أبوه ولا أُخته بدعائه، فهيهات أن يوصَف ويذكَر بالرّفق في الدّعاء وحسْن التّأتّي والأناة!

قال الجاحظ: ثمّ أعتق أبو بكر بعد ذلك جماعةً من المعذَّبين في الله، وهم ستّ رقاب، منهم بلال وعامر بن فُهيرة وزبيرة النَّهْديّة وابنتها. ومرّ بجارية يعذّبها عمر بن الخطّاب فابتاعها منه وأعتقها، وأعتق أبا عيسى، فأنزل الله فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[2]، إلى آخر السّورة.

١ـ الأحقاف/ ١٧.

٢ـ اللّيل/ ٥-٧.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا بلال وعامر بن فُهَيرة، فإنّما أعتقهما رسول الله صلى الله عليه وآله، روى ذلك الواقديّ وابن إسحاق وغيرهما. وأمّا باقي مواليهم الأربعة، فإنْ سامحْناكم في دعواكم، لم يبلغ ثمنهم في تلك الحال لشدّة بغض مواليهم لهم إلّا مائة درهم أو نحوها. فأيّ فخرٍ في هذا! وأمّا الآية فإنّ ابن عبّاس قال في تفسيرها: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾، أي لأن يعود. وقال غيره: نزلت في مُصْعب بن عمير.

قال الجاحظ: وقد علمتم ما صنَع أبو بكر في ماله، وكان ماله أربعين ألف درهم فأنفقه في نوائب الإسلام وحقوقه، ولم يكن خفيفَ الظَّهر، قليل العيال والنّسْل، فيكون فاقد جميع اليساريْن. بل كان ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم، ويعول والديه وما ولدَا، ولم يكن النّبيّ صلى الله عليه وآله قبل ذلك عنده مشهورًا، فيَخاف العارَ في ترك مواساته، فكان إنفاقه على الوجْه الّذي لا نجد في غاية الفضل مثلَه، ولقد قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «ما نفعني مالٌ كما نفعني مال أبي بكر».

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أخبِرونا علَى أيّ نوائب الإسلام أنفق هذا المال، وفي أيّ وجه وضعه؟ فإنّه ليس بجائز أن يُخفَى ذلك ويدرُس حتّى يفوت حِفظه ويُنسَى ذكره. وأنتم فلم تقفُوا على شيء أكثر من عِتْقه بزعمكم ستّ رقاب لعلّها لا يبلغ ثمنها في ذلك العصر مائة درهم.

وكيف يُدّعى له الإنفاق الجليل، وقد باع من رسول الله صلى الله عليه وآله بعيريْن عند خروجه إلى يثرب وأخذ منه الثّمَن في مثل تلك الحال، وروَى ذلك جميع المحدّثين. وقد رويتم أيضا أنّه كان حيث كان بالمدينة غنيًّا موسِرًا، ورويتم عن عائشة أنّها قالت: هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف درهم، وقلتم إنّ الله تعالى أنزل فيه: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]، قلتم: هي في أبي بكر ومِسْطح بن أُثاثة.

١ـ النّور/ ٢٢.

فأين الفقر الّذي زعمتم أنّه أنفق حتّى تخلّل بالعَباءة! ورويتم أنّ لله تعالى في سمائه ملائكة قد تخلّلوا بالعباءة. وأنّ النّبيّ ﷺ رآهم ليلة الإسراء، فسأل جبرائيل عنهم فقال: هؤلاء ملائكة تأسّوْا بأبي بكر بن أبي قُحافة صديقك في الأرض، فإنّه سينفق عليك ماله حتّى يخلّل عباءه في عنقه.

وأنتم أيضًا رويتم أنّ الله تعالى لمّا أنزل آية النّجوى، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1] الآية لم يعمل بها إلّا عليّ بن أبي طالب وحدَه، مع إقراركم بفقره وقلّة ذات يده، وأبو بكر في الحال الّتي ذكرنا من السّعة أمسك عن مناجاته، فعاتب الله المؤمنين في ذلك، فقال: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ[2]﴾، فجعله سبحانه ذنبًا يتوب عليهم منه، وهو إمساكهم عن تقديم الصّدقة. فكيف سخَتْ نفسُه بإنفاق أربعين ألفًا وأمسك عن مناجاة الرّسول، وإنّما كان يحتاج فيها إلى إخراج درهمَيْن!

وأمّا ما ذُكر من كثرة عياله ونفقته عليهم، فليس في ذلك دليلٌ على تفضيله، لأنّ نفقته على عياله واجبةٌ. مع أنّ ارباب السّيرة ذكروا أنّه لم يكن يُنفِق على أبيه شيئًا وأنّه كان أجيرًا لابن جُدْعان على مائدته يطرد عنها الذِّبّان.

قال الجاحظ: وقد تعلمون ما كان يَلقى أصحاب النّبيّ ﷺ ببطْن مكّة من المشركين وحسن صنيع كثيرٍ منهم؛ كصنيع حمزة حين ضرب أبا جهل بقوسِه ففَلق هامَته، وأبو جهل يومئذ سيّد البطحاء ورئيس الكفر وأمنع أهل مكّة. وقد عرفتم أنّ الزّبير سلّ سيفَه واستقبل به المشركين، لمّا أُرجِفَ أنّ محمّدًا ﷺ قد قُتل. وأنّ عمر بن الخطّاب قال حين أسلم: لا يُعبَد الله سرًّا بعد اليوم. وأنّ سعدًا ضرب بعض المشركين بلحْيِ جمل، فأراق دمَه. فكلّ هذه الفضائل لم يكن لعليّ بن أبي طالب فيها ناقة ولا جمل،

١ـ المجادلة/ ١٢.

٢ـ المجادلة/ ١٣.

وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ﴾[1]. فإذا كان الله تعالى قد فضّل مَن أنفق قبل الفتح لأنّه لا هجرة بعد الفتح، على مَن أنفق بعد الفتح، فما ظنُّكم بمَن أنفق من قبل الهجرة ومن لَدُنْ مبعث النّبيّ صلى الله عليه وآله إلى الهجرة وإلى بعد الهجرة[2].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: إنّنا لا نُنكِر فضل الصّحابة وسوابقهم ولسنا كالإماميّة الّذين يحملهم الهوى على جَحد الأُمور المعلومة، ولكنّنا ننكر تفضيل أحدٍ من الصّحابة على عليّ بن أبي طالب، ولسنا ننكر غير ذلك. وننكر تعصّبَ الجاحظ للعثمانيّة وقصدَه إلى فضائل هذا الرّجل ومناقبه بالرّدّ والإبطال.

وأمّا حمزة فهو عندنا ذو فضلٍ عظيم ومقامٍ جليل، وهو سيّد الشهداء الّذين استشهدوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله. وأمّا فضل عُمر فغير منكر، وكذلك الزّبير وسعد. وليس فيما ذكر ما يقتضي كونَ عليّ عليه السلام مفضولًا لهم أو لغيرهم إلّا قوله: «وكلّ هذه الفضائل لم يكن لعليّ عليه السلام فيها ناقةٌ ولا جملٌ»، فإنّ هذا من التّعصّب البارد والحَيْف الفاحش، وقد قدّمنا من آثار عليّ عليه السلام قبل الهجرة وما له إذ ذاك من المناقب والخصائص، ما هو أفضلُ وأعظم وأشرف من جميع ما ذكر لهؤلاء.

على أنّ أرباب السّيرة يقولون: إنّ الشّجّة الّتي شجَّها سعد وإنّ السّيف الّذي سلّه الزّبير، هو الّذي جلب الحِصار في الشّعب على النّبيّ صلى الله عليه وآله وبني هاشم، وهو الّذي سيَّر جعفرًا وأصحابه إلى الحبشة، وسلُّ السّيف في الوقت الّذى لم يؤمر المسلمون فيه بسلّ السّيف غير جائز. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ

١ـ الحديد/ ١٠.

٢ـ العثمانيّة: ٣٧، مع تصرّف واختصار.

﴿ٱللَّهِ﴾[١]، فتبيّن أنّ التّكليف له أوقات، فمنها وقتٌ لا يصلح فيه سلّ السّيف ومنها وقتٌ يصلح فيه ويجب.

فأمّا قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ﴾، فقد ذكرنا ما عندنا من دعواهم لأبي بكر إنفاقَ المال. وأيضًا فإنّ الله تعالى لم يذكر إنفاق المال مفردًا وإنّما قرن به القتال، ولم يكن أبو بكر صاحب قتال وحرْب فلا تشمله الآية.

وكان عليّ عليه السلام صاحبَ قتال وإنفاق قبل الفتح؛ أمّا قتاله فمعلومٌ بالضّرورة، وأمّا إنفاقه فقد كان على حَسَب حاله وفقره. وهو الّذي أطعم الطّعام على حبّه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا، وأُنزلت فيه وفي زوجته وابنيْه سورةٌ[٢] كاملةٌ من القرآن. وهو الّذي ملك أربعة دراهم فأخرج منها درهمًا سرًّا ودرهمًا علانيةً ليلًا ثمّ أخرج منها في النّهار درهمًا سرًّا ودرهمًا علانيةً، فأُنزل فيه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[٣]. وهو الّذي قدّم بين يديْ نجواه صدقةً دون المسلمين كافّة، وهو الّذي تصدّق بخاتمه وهو راكع، فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[٤].

قال الجاحظ: والحجّة العظمى للقائلين بتفضيل عليّ عليه السلام قتْله الأقرانَ وخوْضه الحربَ، وليس له في ذلك كبير فضيلةٍ؛ لأنّ كثرة القتل والمشْي بالسّيف إلى الأقران، لو كان مِن أشدّ المحن وأعظم الفضائل وكان دليلًا على الرّياسة والتّقدّم، لوجب أن يكون للزّبير وأبي دُجانة ومحمّد بن مسلمة وابن عَفْراء والبَرَاء بن مالك، من الفضل

١ـ النّساء/ ٧٧.

٢ـ زعم بعض غلاة الشّيعة أنّه أُنزلت فيهم سورة مختلفة، وانظر فصل الخطاب لحسين بن محمّد الطّبرسيّ ١٥٦، وحواشي ملحق العثمانيّة: ٣١٩.

٣ـ البقرة/ ٢٤٧.

٤ـ المائدة/ ٥٥.

ما ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله، لأنّه لم يُقتل بيده إلّا رجلًا واحدًا ولم يحضر الحرب يوم بدْر ولا خالط الصّفوف، وإنّما كان معتزلًا عنهم في العَريش ومعه أبو بكر.

وأنت ترى الرّجل الشّجاع قد يَقتل الأقران ويُجندِل الأبطال، وفوقه من العسكر مَن لا يقتل ولا يبارز، وهو الرّئيس أو ذوي الرّأي والمستشير في الحرب، لأنّ للرّؤساء من الاكْتِراث والاهتمام وشَغْل البال والعناية والتّفقّد ما ليس لغيرهم، ولأنّ الرّئيس هو المخصوص بالمطالبة، وعليه مدار الأُمور، وبه يستبصر المقاتِل ويستنصر، وباسمه ينهزم العدوّ. ولو لم يكن له إلّا أنّ الجيش لو ثبت وفرّهُو، لم يُغنِ ثبوت الجيش كلّه وكانت الدّبْرة عليه، ولو ضيّع القوم جميعًا وحفظ هو، لانتصر وكانت الدّولة له، ولهذا لا يضاف النّصر والهزيمة إلّا إليه. ففضْل أبي بكر بمقامه في العريش مع رسول الله يوم بدر أعظمُ من جهاد عليّ عليه السلام ذلك اليوم وقتْله أبطال قريش.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: لقد أُعطي أبو عثمان مقولًا وحُرم معقولًا إن كان يقول هذا على اعتقاد وجدٍّ ولم يذهب به مذهب اللّعب والهزل، أو على طريق التّفاصح والتّشادق وإظهار القوّة والسّلاطة وذلاقة اللّسان و حدّة الخاطر والقوّة على جدال الخصوم.

ألم يعلم أبو عثمان أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أشجَع البشر، وأنّه خاضَ الحروب وثبت في المواقف الّتي طاشتْ فيها الألباب وبلغتْ القلوبُ الحناجرَ؛ فمنها يوم أُحُد و وقوفه بعد أن فرّ المسلمون بأجمعهم ولم يبق معه إلّا أربعة: عليٌّ والزّبير وطلحة وأبو دُجانة، فقاتَل ورمَى بالنَّبْل حتّى فَنيتْ نبلُه وانكسرتْ سِيةُ قوسه وانقطع وَتَره، فأمر عُكّاشة ابن مِحْصن أن يوتِرَها، فقال: يا رسول الله، لا يبلغ الوَتَر، فقال: أوترْ ما بلغ. قال عُكّاشة: فو الّذي بعثه بالحقّ لقد أوترتُ حتّى بلغ وطويتُ منه شبرًا على سِيَة القوس، ثمّ أخذها فما زال يرمِيهم حتّى نظرتُ إلى قوسه قد تحطّمتْ.

وبارز أُبيّ بن خلف، فقال له أصحابه: إن شئتَ عطَف عليه بعضُنا! فأبَى وتناوَل الحربة من الحارث بن الصِّمّة ثمّ انتقض بأصحابه كما ينتقِض البعير، قالوا: فتطايرنا

عنه تطايُر الشَّعارير[١]، فطعنه بالحرْبة فجعل يخورُ كما يخور الثّور. ولو لم يدلّ على ثباته حين انهزم أصحابه وتركوه إلّا قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[٢]، فكونُه عليه السلام في أُخراهم وهم يصعدون ولا يلوون هاربين، دليلٌ على أنّه ثبت ولم يفرّ.

وثبت يوم حُنين في تسعة من أهله ورهطه الأدنين وقد فرّ المسلمون كلّهم. والنّفر التّسعة محدِقون به: العبّاس آخذ بحَكَمة بغلته، وعليٌّ بين يديه مصلِتٌ سيفه، والباقون حول بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله يَمْنةً ويَسْرةً، وقد انهزم المهاجرون والأنصار. وكلّما فرُّوا أقدم هُوَ صلى الله عليه وآله وصمّم مستقدمًا، يَلقَى السّيوف والنّبال بنحره وصدره، ثمّ أخذ كفًّا من البَطْحاء وحَصب المشركين وقال: شاهتْ الوجوه!

والخبر المشهور عن عليّ عليه السلام، وهو أشجع البشَر: «كنّا إذا اشتدّ البأس وحَمِي الوطيسُ، اتّقيْنا برسول الله صلى الله عليه وآله ولُذْنا به». فكيف يقول الجاحظ: إنّه ما خاضَ الحرب ولا خالطَ الصّفوف! وأيّ فِرْية أعظمُ من فِرْية مَن نسب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإحجام واعتزال الحرب!

ثمّ أيّ مناسبة بين أبي بكر ورسول الله صلى الله عليه وآله في هذا المعنى ليقيسَه وينسُبَه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب الجيش والدّعوة، ورئيس الإسلام والملّة، والملحوظ بين أصحابه وأعدائه بالسّيادة، وإليه الإيماء والإشارة، وهو الّذي أحنَق قريشًا والعرب، وروى أكبادهم بالبراءة من آلهتهم وعيب دينهم وتضليل أسلافهم، ثمّ وترهم فيما بعدُ بقتل رؤسائهم وأكابرهم! وحقٌّ لمثله إذا تنحّى عن الحرب واعتزلها أن يتنحّى ويعتزل، لأنّ ذلك شأن الملوك والرّؤساء، إذا كان الجيش منوطًا بهم وببقائهم. فمتى هلك الملك هلك الجيش، ومتى سلم الملك أمكن أن يبقى عليه ملكُه، وإن عَطِب جيشُه فإنّه يستجدّ جيشًا آخر. ولذلك نهى الحكماء أن يباشر الملك الحرب بنفسه، وخطّئوا

١ـ الشّعارير: ما يجتمع على دبرة البعير من الذِّبّان، فإذا هيجتْ تطايرتْ عنها.

٢ـ آل عمران/ ١٥٣.

الإسكندر لمّا بارز قوسرًا ملك الهند، ونسبوه إلى مجانبة الحِكْمة ومفارقة الصّواب والحزْم.

فليقلْ لنا الجاحظ: أيُّ مدخل لأبي بكر في هذا المعنى؟ ومَن الّذي كان يعرفه من أعداء الإسلام ليقصده بالقتل؟ وهل هو إلّا واحدٌ من عُرْض المهاجرين، حُكْمه حكم عبد الرّحمن بن عوف وعثمان بن عفّان وغيرهما! بل كان عثمان أكثرَ منه صيتًا وأشرفَ منه مركبًا، والعيون إليه أطمح والعدوّ إليه أحنَق وأكلَب.

ولو قتِل أبو بكر في بعض تلك المعارك، هل كان يؤثر قتله في الإسلام ضعفًا أو يحدث فيه وهنًا! أو يخاف على الملّة لو قتل أبو بكر في بعض تلك الحروب أن تندرس وتعفَّى آثارُها وينطمس منارها! ليقول الجاحظ إنّ أبا بكر كان حكْمه حكم رسول الله صلى الله عليه وآله في مجانبة الحروب واعتزالها، نعوذ بالله من الخذلان!

وقد علم العقلاء كلّهم ممّن له بالسِّير معرفةٌ وبالآثار والأخبار ممارسةٌ، حالَ حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كيف كانت، وحاله عليه السلام فيها كيف كان، و وقوفه حيث وقف وحربه حيث حارب وجلوسه في العريش يوم جلَس، وانّ وقوفه صلى الله عليه وآله وقوف رياسةٍ وتدبير، و وقوف ظهرٍ وسَنَد، يتعرّف أُمور أصحابه ويحرس صغيرَهم وكبيرهم بوقوفه من ورائهم وتخلّفه عن التّقدّم في أوائلهم، لأنّهم متى علموا أنّه في أُخراهم اطمأنّتْ قلوبهم، ولم تتعلّق بأمره نفوسهم فيشتغلوا بالاهتمام به عن عدوّهم، ولا يكون لهم فئةٌ يلجئون إليها وظهْرٌ يرجعون إليه ويعلمون أنّه متى كان خلْفهم تفقّد أُمورهم وعلم مواقفهم، وآوى كلّ إنسان مكانه في الحماية والنّكاية وعند المنازلة في الكرّ والحملة، فكان وقوفُه حيث وقف، أصلَح لأمرهم وأحمَى وأحرَس لبيْضتهم. ولأنّه المطلوب من بينهم إذ هو مدبّر أُمورهم و والي جماعتهم؛ ألا ترون أنّ موقف صاحب اللّواء موقفٌ شريف، وأنّ صلاح الحرب في وقوفه، وأنّ فضيلته في ترك التّقدّم في أكثر حالاته. فللرّئيس حالات:

الأُولى: حالةٌ يتخلّف ويقف آخرًا ليكون سندًا وقوّةً وردءًا و عدّةً وليتولّى تدبير الحرب ويعرف مواضع الخلل.

والحالة الثّانية: يتقدّم فيها في وسط الصّفّ ليقوّي الضّعيف ويشجّع النّاكص[١].

وحالة ثالثة: وهي إذا اصطدم الفيْلقان وتَكافح السّيْفان، اعتمد ما تقتضيه الحال من الوقوف حيث يستصلح، أو من مباشرة الحرب بنفسه. فإنّها آخر المنَازل وفيها تظهر شجاعة الشُّجاع النَّجْد وفَسَالَة الجَبان المموّه.

فأين مقام الرّئاسة العظمى لرسول الله ﷺ! وأين منزلة أبي بكر ليسوّي بين المنزلتين ويناسب بين الحالتين!

ولو كان أبو بكر شريكًا لرسول الله ﷺ في الرّسالة وممنوحًا من الله بفضيلة النّبوّة وكانت قريش والعرب تطلبه كما تطلب محمّدًا ﷺ وكان يدبّر من أمر الإسلام وتسريب العساكر وتجهيز السّرايا وقتل الأعداء ما يدبّره محمّد ﷺ، لَكان للجاحظ أن يقول ذلك. فأمّا وحالُه حاله، وهو أضعف المسلمين جنانًا، وأقلّهم عند العرب ترةً، لم يَرْمِ قطُّ بسَهْمٍ ولا سلّ سيفًا ولا أراق دمًا، وهو أحد الأتباع، غير مشهور ولا معروف ولا طَالب ولا مطلوب.

فكيف يجوز أن يجعل مقامه ومنزلته مقام رسول الله ﷺ ومنزلته! ولقد خرج ابنُه عبد الرّحمن مع المشركين يوم أُحُد فرآه أبو بكر فقام مغيظًا عليه فسلّ من السّيف مقدار أصبع يريد البُروز إليه، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، شِمْ سيفك[٢] وأمْتِعْنا بنفسك» ولم يقل له: «وأمتعنا بنفسك» إلّا لعلْمه بأنّه ليس أهلًا للحرب وملاقاة الرّجال، وأنّه لو بارز لقُتل.

وكيف يقول الجاحظ: لا فضيلة لمباشرة الحرب ولقاء الأقران وقتْل أبطال الشّرك! وهل قامت عُمُد الإسلام إلّا على ذلك؟ وهل ثبت الدّين واستقرّ إلّا بذلك؟ أ تراه لم يسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ

١ـ ب: «النّاكس».

٢ـ شِمْ سيفك، أي أغمِدْه؛ وهو من الأضداد.

مَّرْصُوصٌ﴾[1] والمحبّة من الله تعالى هي إرادة الثّواب، فكلّ مَن كان أشدّ ثبوتًا في هذا الصّفّ وأعظم قتالًا، كان أحبّ إلى الله. ومعنى الأفضل هو الأكثر ثوابًا، فعليٌّ عليه السلام إذًا هو أحبُّ المسلمين إلى الله لأنّه أثبتُهم قدمًا في الصّفّ المرصوص، لم يفرّ قطُّ بإجماع الأُمّة ولا بارَزه قرْنٌ إلّا قتَله.

أ تراه لم يسمع قول الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾[3]، ثمّ قال سبحانه مؤكّدًا لهذا البيع والشّراء: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾[4].

فمواقف النّاس في الجهاد على أحوال وبعضهم في ذلك أفضلُ من بعض؛ فمَن دلَف إلى الأقران واستقبل السّيوف والأسِنّة، كان أثقلَ على أكتاف الأعداء لشدّة نِكايته فيهم ممّن وقف في المعركة وأعان ولم يُقدِم. وكذلك مَن وقف في المعركة وأعان ولم يُقدِم إلّا أنّه بحيث تناله السّهام والنَّبل أعظم غَناءً وأفضل ممّن وقف حيث لا يناله ذلك.

ولو كان الضّعيف والجبان يستحقّان الرّياسة بقلّة بَسْط الكفّ وترك الحرب، وأنّ ذلك يشاكل فعلَ النّبيّ صلى الله عليه وآله، لَكان أوفرَ النّاس حظًّا في الرّياسة وأشدَّهم لها استحقاقًا حسّانُ بن ثابت. وإن بطَل فضلُ عليٍّ عليه السلام في الجهاد لأنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله كان أقلَّهم قتالًا،

١ـ الصّفّ/ ٤.

٢ـ النّساء/ ٩٥.

٣ـ التّوبة/ ١١١.

٤ـ التّوبة/ ١٢٠.

كما زعم الجاحظ، ليبطلنّ على هذا القياس فضل أبي بكر في الإنفاق لأنّ رسول الله ﷺ كان أقلّهم مالًا!

وأنت إذا تأمّلتَ أمر العرب وقريش ونظرت السِّيَر وقرأت الأخبار، عرفت أنّها كانت تطلب محمّدًا ﷺ وتقصِد قصدَه وتروم قتلَه، فإن أعجزها وفاتها طلبتْ عليًّا عليه السلام وأرادت قتله، لأنّه كان أشبَههم بالرّسول حالًا وأقربَهم منه قربًا وأشدَّهم عنه دفعًا، وأنّهم متى قصدُوا عليًّا فقتلوه أضعفوا أمرَ محمّد ﷺ وكسروا شوكته، إذْ كان أعلى مَن ينصره في البأس والقوّة والشّجاعة والنّجدة والإقدام والبَسالة.

ألا ترى إلى قول عُتْبة بن ربيعة يوم بدر، وقد خرج هو وأخوه شَيْبة وابنه الوليد ابن عُتبة، فأخرج إليه الرّسولُ نفرًا من الأنصار، فاستنسبوهم فانتسبوا لهم، فقالوا: ارجعوا إلى قومكم، ثمّ نادوْا: يا محمّد أخرجْ إلينا أكفاءنا من قومِنا، فقال النّبيّ ﷺ لأهله الأدنين: قومُوا يا بني هاشم، فانصرُوا حقّكم الّذي آتاكم الله على باطل هؤلاء. قُمْ يا عليّ، قم يا حمزة، قم يا عبيدة، ألا ترى ما جعلتْ هند بنت عُتْبة لمن قتله يوم أُحُد، لأنّه اشترك هو وحمزة في قتل أبيها يوم بدر، ألم تسمع قول هند ترثي أهلها:

مَا كانَ عن عُتْبة لِي مِنْ صَبْرِ ... أبي وعمّي وشقِيق صَدْرِي

أخي الّذي كان كضوء البدرِ ... بهِمْ كسرتَ يا عليُّ ظَهْرِي

وذلك لأنّه قتل أخاها الوليد بن عُتبة وشرك في قتل أبيها عُتبة، وأمّا عمّها شيبة فإنّ حمزة تفرّد بقتله.

وقال جُبير بن مطعِم لوحشيٍّ مولاه يوم أُحُد: إن قتلْتَ محمّدًا فأنت حرٌّ، وإن قتلت عليًّا فأنت حُرّ، وإن قتلت حمزة فأنت حرّ. فقال: أمّا محمّد فسيمنعه أصحابه، وأمّا عليٌّ فرجلٌ حذِر كثير الالتفات في الحرب، ولكنّي سأقتل حمزة. فقعد له وزَرَقه بالحرْبة فقتله.

ولمّا قلنا من مقاربة حال عليّ عليه السلام في هذا الباب لِحال رسول الله ﷺ ومناسبتها إيّاها ما وجدناه في السِّيَر والأخبار من إشفاق رسول الله ﷺ وحذرِه عليه ودعائه له بالحفظ والسّلامة، قال ﷺ يوم الخندق، وقد برز عليٌّ إلى عمرو، ورفع يديه إلى

السّماء بمحضرٍ من أصحابه: «اللّهمّ إنّك أخذتَ منّي حمزة يوم أُحُد، وعُبيدة يوم بدر، فاحفظْ اليوم عليَّ عليًّا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[1]»، ولذلك ضنّ به عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو النّاس إلى نفسه مرارًا، في كلّها يحجمون ويقدم عليٌّ فيسأل الإذن له في البِراز، حتّى قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّه عمرو!»، فقال: «وأنا عليّ»، فأدناه وقبّله وعمّمه بعمامته، وخرج معه خطواتٍ كالمودّع له، القلِق لحاله، المنتظرِ لما يكون منه، ثمّ لم يزل صلى الله عليه وآله رافعًا يديه إلى السّماء، مستقبلًا لها بوجهه، والمسلمون صُموتٌ حوله كأنّما على رءوسهم الطّير، حتّى ثارت الغَبَرة وسمعوا التّكبير من تحتها، فعلموا أنّ عليًّا قتل عمرًا. فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وكبّر المسلمون تكبيرةً سمعها من وراء الخندق من عساكر المشركين. ولذلك قال حُذيفة بن اليمان: لو قُسمتْ فضيلة عليّ عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لَوسعتهم، وقال ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، قال: بعليّ بن أبي طالب[2].

قال الجاحظ: علَى أنّ مشْي الشّجاع بالسّيف إلى الأقران ليس على ما توهَّمه مَن لا يعلم باطن الأمر، لأنّ معه في حال مشيه إلى الأقران بالسّيف أُمورًا أُخرى لا يبصرها النّاس وإنّما يقضون على ظاهر ما يرون من إقدامه وشجاعته. فربّما كان سبب ذلك الهَوَج، وربّما كان الغرارة والحَداثة، وربّما كان الإحراج والحميّة، وربّما كان لمحبّة النّفخ والأُحدوثة، وربّما كان طباعًا كطباع القاسي والرّحيم والسّخيّ والبخيل[3].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: فيقال للجاحظ: فعلَى أيّها كان مشْى عليّ بن أبي طالب إلى الأقران بالسّيف؟ فأيّما قلتَ من ذلك بانتْ عداوتك لله تعالى ولرسوله. وإن كان مشْيه ليس على وجهٍ ممّا ذكرت وإنّما كان على وجه النّصرة والقصد إلى المسابقة إلى

١ـ الأنبياء/ ٨٩.

٢ـ الأحزاب/ ٢٥.

٣ـ العثمانيّة: ٤٧، مع تصرّف واختصار.

ثواب الآخرة والجهاد في سبيل الله وإعزاز الدّين، كنتَ بجميع ما قلت معاندًا وعن سبيل الإنصاف خارجًا وفي إمام المسلمين طاعنًا.

وإن تطرّق مثلُ هذا الوهم على عليّ عليه السلام ليتطرّقنّ مثله على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال، الّذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وآله بأنفسهم و وقوْه بمُهَجِهم وفدوْه بأبنائهم وآبائهم؛ فلعلّ ذلك كان لعلّةٍ من العلل المذكورة، وفي ذلك، الطّعن في الدّين وفي جماعة المسلمين.

ولو جاز أن يتوهّم هذا في عليّ عليه السلام وفي غيره، لَما قال رسول الله صلى الله عليه وآله حكايةً عن الله تعالى لأهل بدر: «اعمَلُوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»، ولا قال لعليّ عليه السلام: «برز الإيمان كلّه إلى الشّرك كلّه»، ولا قال: «أوجَب طلحة»[1].

وقد علمنا ضرورةً من دين الرّسول صلى الله عليه وآله تعظيمه لعليّ عليه السلام تعظيمًا دينيًّا لأجل جهاده ونصرته، فالطّاعن فيه طاعنٌ في رسول الله صلى الله عليه وآله إذ زعم أنّه قد يمكن أن يكون جهاده لا لوجه الله تعالى بل لأمرٍ آخر من الأُمور الّتي عدّدها، وبعثه على التّفوّه بها اغواءُ الشّيطان وكيدُه، والإفراط في عداوةٍ من أمر الله بمحبّته، ونهَى عن بغضه وعداوته.

أ ترى رسول الله صلى الله عليه وآله خَفِي عليه من أمر عليٍّ عليه السلام ما لاح للجاحظ والعثمانيّة، فمدحه وهو غير مُستحقٍّ للمدح! قال الجاحظ: فصاحب النّفس المختارة المعتدِلة يكون قتاله طاعةً وفراره معصيةً، لأنّ نفسه معتدلةٌ كالميزان في استقامة لسانه وكفّتيْه، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامه طباعًا وفراره طباعًا[2].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: فيقال له: فلعلّ إنفاق أبي بكر على ما تزعم أربعين ألف درهم لا ثوابَ له، لأنّ نفسه ربّما تكون غير معتدلة، لأنّه يكون مطبوعًا على الجود والسّخاء. ولعلّ خروجه مع النّبيّ صلى الله عليه وآله يوم الهجرة إلى الغار لا ثوابَ له فيه، لأنّ أسبابه كانتْ له مهيّجة ودواعيه غالبة، محبّة الخروج وبغض المقام. ولعلّ رسول الله صلى الله عليه وآله في

١ـ أوجَب طلحة، أي عمل عملًا يدخله الجنّة.

٢ـ انظر العثمانيّة: ٤٧ـ ٤٨.

دعائه إلى الإسلام وإكبابه على الصّلوات الخمس في جوف اللّيل، وتدبيره أمرَ الأُمّة لا ثواب له فيه، لأنّه قد تكون نفسه غير معتدلة، بل يكون في طباعه الرّياسة وحبّها والعبادة والالتذاذ بها.

ولقد كنّا نعجَب من مذهب أبي عثمان أنّ المعارف ضرورة، وأنّها تقع طباعًا، وفي قوله بالتّولّد وحركة الحجَر بالطّبع! حتّى رأينا من قوله ما هو أعجب منه، فزعم أنّه ربما يكون جهادُ عليّ عليه السلام وقتلُه المشركين لا ثوابَ له فيه؛ لأنّه فعله طبعًا، وهذا أطرف من قوله في المعرفة وفي التّولّد.

قال الجاحظ: و وجهٌ آخر أنّ عليًّا لو كان كما يزعم شيعتُه، ما كان له بقتل الأقران كبير فضيلة ولا عظيم طاعة، لأنّه قد رُوي عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال له: «ستقاتِل بعدي النّاكثين والقاسطين والمارقين»، فإذا كان قد وعَده بالبقاء بعده فقد وَثق بالسّلامة من الأقران وعَلم أنّه منصورٌ عليهم وقاتلهم. فعلَى هذا يكون جهاد طلحة والزّبير أعظمَ طاعةً منه[1].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا راجعٌ على الجاحظ في النّبيّ صلى الله عليه وآله، لأنّ الله تعالى قال له: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[2]، فلم يكن له في جهاده كبير طاعةٍ وكثير طاعةٍ. وكثيرٌ من النّاس يَروي عنه صلى الله عليه وآله: «اقتدوا باللّذيْن من بعدي أبي بكر وعمر»، فوجب أن يبطل جهادهما. وقد قال للزّبير: «ستقاتل عليًّا وأنت ظالمٌ له»، فأشعره بذلك أنّه لا يموت في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله. وقال في الكتاب العزيز لطلحة: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾، قالوا: نزلت في طلحة، فأعلمه بذلك أنّه يبقى بعده، فوجب ألّا يكون لهما كبير ثوابٍ في الجهاد.

١ـ انظر العثمانية: ٤٩ـ٥٠.

٢ـ المائدة/ ٦٧.

والّذي صحّ عندنا من الخبر وهو قوله: «ستقاتِل بعدي النّاكثين»، أنّه قاله لمّا وضعت الحرب أوزارَها ودخل النّاس في دين الله أفواجًا و وضعت الجزية ودانت العرب قاطبةً.

قال الجاحظ: ثمّ قصد النّاصرون لعليّ والقائلون بتفضيله إلى الأقران الّذين قتلهم، فأطروهم وغلوْا فيهم، وليسوا هناك! فمنهم عمرو بن عبد وَدّ، تركتموه أشجع من عامر بن الطّفيل وعتبة بن الحارث وبسطام بن قيس، وقد سمعنا بأحاديث حُروب الفجّار وما كان بين قريش ودَوْس وحِلْف الفُضول، فما سمعتُ لعمرو بن عبد ودّ ذكرًا في ذلك[1].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمرُ عمرو بن عبد ودّ أشهر وأكثر من أن يُحتجّ له. فلتتلمّحْ كتب المغازي والسِّيَر ولينظرْ ما رثتْه به شعراء قريش لمّا قتل. فمِن ذلك ما ذكره محمّد ابن إسحاق في مغازيه، قال: وقال مُسافع بن عبد مناف بن زهره بن حُذَافة بن جُمَح يبكي عمرو بن عبد الله بن عبد ودّ حين قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام مبارزة لمّا جزع المذاد[2] أي قطع الخندق.

عمرو بن عبدٍ كان أوّل فارسٍ ... جَزَعَ المذاد وكان فارس مَلْيَلِ[3]

سمحُ الخلائِق ماجِدٌ ذو مِرَّةٍ ... يبغي القتالَ بشكّة لم يَنْكُلِ[4]

ولقد علمتم حينَ ولّوْا عنكُمُ ... أنّ ابن عبدٍ منهمُ لم يَعْجَلِ[5]

١ـ انظر العثمانيّة: ٤٩ـ٥٠.

٢ـ المذاد، بالذّال المعجمة: موضع بالمدينة حيث حفر الخندق، وفي ط: «المزار» تصحيف. وجزع، أي قطع.

٣ـ مَلْيَل: وادٍ ببدر.

٤ـ المِرّة: القوّة، والشّكّة: السّلاح.

٥ـ ابن هشام: «فيهم».

حتّى تكنَّفَهُ الكُماة وكلُّهُمْ ... يبغي القتال له وليس بمؤتَلِ[١]
ولقد تكنّفت الفوارسُ فارسًا ... بجنوبِ سَلْع غيرِ نِكْسٍ أمْيَلِ[٢]
سال النّزال هناك فارس غالبٍ ... بجنوب سَلْع ليته لم ينْزَلِ
فاذهب عليٌّ ما ظفرتَ بمثلِها ... فخرًا ولو لاقيت مثل المعْضَلِ[٣]
نفسي الفداء لفارسٍ من غالب ... لاقَى حمام الموت لم يتَحلْحَلِ[٤]
أعنِي الّذي جَزَع المذاد ولم يكن ... فَشِلًا وليس لَدَى الحروب بزُمَّلِ[٥]

وقال هُبيرة بن أبي وهب المخزوميّ، يعتذر من فراره عن عليّ بن أبي طالب، وتركه عمرًا يوم الخندق ويبكيه:

لعمُرك ما ولّيت ظهري محمّدًا ... وأصحابه جُبْنًا ولا خيفةَ القتلِ[٦]
ولكنّني قلّبت أمري فلم أجِدْ ... لسيفي غَنَاء إن وقفتُ ولا نَبْلِي

١ـ تكنَّفه الكُماة: أحاطوا به والتفوا حوله. وليس بمؤتَل، أي ليس بمقصر.

٢ـ سَلْع: جبلٌ بالمدينة. والنِّكس: الدّنيء من الرّجال. والأميَل: الّذي لا رمح معه.

٣ـ المُعضَل: الأمر الشّديد.

٤ـ لم يَتَحَلحلْ: لم يبرح مكانه.

٥ـ الزُّمَّل: الضّعيف الجبان.

٦ـ سيرة ابن هشام ٣: ٣٠١ـ٣٠٢.

وقفتُ فلمّا لم أجد لي مقدِّمًا ... صدرتُ كضَرغام هزبرٍ إلى شِبْلِ[١]

ثَنَى عِطفَه عَنْ قِرْنِهِ حين لم يَجِد ... مجالًا[٢] وكان الحزم والرّأي من فِعْلِي

فَلا تَبْعَدَنْ يَا عَمْرُو حيًّا وهالكًا ... فقد مِتّ محمودَ الثّنا ماجدَ الفعْلِ[٣]

ولا تَبْعَدَنْ يا عمرو حيًّا وهالكًا ... فقد كنتَ في حرب العِدَا مُرهَف النَّصْلِ

فمن لِطرادِ الخيل تُقْدَعُ بالقَنَا ... وللبذل يومًا عند قَرقَرة البُزْلِ[٤]

هنالك لو كان ابن عمرٍو لزارها ... وَفَرّجَهَا عنهم فتًى غيرما وغْلِ

كفتك عليٌّ لن ترى مثل موقفٍ ... وقفتَ على شِلْو المقدّم كالفحْلِ[٥]

فما ظفرتَ كفّاك يومًا بمثلها ... أمنتَ بها ما عشتَ من زلّةِ النّعْلِ

وقال هُبيرة بن أبي وهب أيضًا، يرثي عَمرًا ويبكيه:

لقد علمتْ عُلْيا لؤيّ بنِ غالبٍ ... لفارسها عمرٌو، إذا ناب نائبُ[٦]

وفارسها عمرٌو إذا ما يسوقه ... عليٌّ، وإنّ الموت لا شكّ طالبُ[٧]

عشيّة يدعوه عليٌّ و إنّه ... لفارسُها إذ خام عنه الكتائبُ[٨]

١ـ مقدِّمًا، أي لم أجد من يقدّمني. وصدرتُ: رجعتُ. الضّرغام: الأسد. الهزبر: الشّديد. والشّبْل: ابن الأسد.

٢ـ ابن هشام: « لم يجد مكرًا».

٣ـ الثّنا: الذّكر الطّيّب. والماجد: الشّريف.

٤ـ تقدع: تكفّ. والقَرقَرة: أصوات فحول الإبل. والبُزل: جمع بازل، وهو في الأصل البعير الّذي فطر نابُه، وذلك زمان اكتمال قوته.

٥ـ ابن هشام: «فعنك عليٌّ».

٦ـ إذا ناب نائب، أي إذا عرض أمر مكروه.

٧ـ ابن هشام: «لفارسها عمرو إذا ما يَسُومُه».

٨ـ خام: جبن ورجع هيبةً وخوفًا.

فيا لهف نفسي، إنّ عَمْرًا لكائنٌ بيثرب، لا زالتْ هناك المصائبُ
لقد أحرَزَ العَلْيا عليٌّ بقتله وللخير يومًا لا محالة جالبُ

وقال حسّان بن ثابت الأنصاري يذكر عمرًا:

أمسى الفتى عمرو بن عبدٍ ناظرًا كيف العُبُور وليتَه لم ينظُرِ[1]
ولقد وجدتَ سيوفنا مشهورةً ولقد وجدتَ جيادنا لم تُقْصَرِ[2]
ولقد لقيتَ غداة بدرٍ عُصْبةً ضَرَبوك ضَرْبًا غير ضرب الحسَّرِ
أصبحتَ لا تُدْعَى ليوم عظيمةٍ يا عَمْرُو أو لجسيم أمرٍ مُنْكَرِ[3]

وقال حسّان أيضًا:

لقد شقيَتْ بنو جُمَح بنِ عمرو ومخزوم وتَيْمٌ ما نُقِيلُ
وعمرو كالحسام فتى قريش كأنَّ جبينَه سيف صقيلُ
فتًى من نسل عامر أريحيٌّ تطاوله الأسنَّةُ والنُّصُولُ
دعاه الفارس المقدام لمّا تكشَّفَتِ المقانِبُ والخُيُولُ
أبو حسنٍ فقنّعه حُسّامًا جُرازًا لا أفلُّ ولا نَكُولُ
فغادره مكبًّا مُسْلَحِبًّا على عَفْراءَ، لا بَعِدَ القتيلُ

فهذه الأشعار فيه بل بعض[4] ما قيل فيه.

١ـ رواية البيت في ابن هشام:

أمْسَى الفتَى عمرو بن عبدٍ يبتغِي بجنوبِ يثربَ ثأرَهُ لم يَنْظُر

٢ـ مشهورة، أي قد شهرها أصحابها. ولم تقصر: لم تكفّ ولم تحبس عن التّجوال.

٣ـ قال ابن هشام: «وبعض أهل العلم بالشّعر ينكرها لحسّان».

٤ـ سيرة ابن هشام ٣: ٢٩٨ـ٣٠٤ (نشرة المكتبة التّجاريّة).

وأمّا الآثار والأخبار، فموجودة في كتب السّيَر وأيّام الفرسان و وقائعهم. وليس أحدٌ من أرباب هذا العلم يذكر عمرًا إلّا قال: كان فارسَ قريش وشُجاعها، وإنّما قال له حسّان:

* ولقد لقيتَ غداةَ بدرٍ عصبة *

لأنّه شهد مع المشركين بدْرًا، وقتل قومًا من المسلمين، ثمّ فرّمع مَن فرّ ولحق بمكّة.

وهو الّذي كان قال وعاهَد الله عند الكعبة ألّا يدعوَه أحدٌ إلى واحدة من ثلاث إلّا أجابه. وآثاره في أيّام الفِجار مشهورة تنطِق بها كتب الأيّام والوقائع، ولكنّه لم يذكر مع الفرسان الثّلاثة وهم: عُتْبة وبِسْطام وعامر،لأنّهم كانوا أصحابَ غاراتٍ ونَهْب وأهلَ بادية، وقريش أهل مدينة وساكنوا مَدَر وحجر، لايروْن الغارات، ولا ينهبون غيرَهم من العرب، وهم مقتصرون على المقام ببلدتهم وحماية حَرَمهم، فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء.

ويقال له: إذا كان عمرو كما تذكُر ليس هناك، فما باله لمّا جزَع الخندق في ستّة فرسان هو أحدُهم، فصار مع أصحاب النّبيّ ﷺ على أرْض واحدة وهم ثلاثة آلاف، ودعاهم إلى البِراز مرارًا لم ينتدب أحدٌ منهم للخروج إليه، ولا سمح منهم أحدٌ بنفسه، حتّى وبّخهم وقرّعهم وناداهم: أ لستم تزعمون أنّه مَن قُتل مِنّا فإلى النّار، ومَن قُتل منكم فإلى الجنّة! أ فلا يشتاقُ أحدكم إلى أنْ يذهب إلى الجنّة أو يقدِّم عدوّه إلى النّار! فجَبنوا كلُّهم ونَكلوا ومَلكهم الرّعب والوَهَل؛ فإمّا أن يكون هذا أشجع النّاس كما قد قيل عنه، أو يكون المسلمون كلّهم أجبنَ العرب وأذلَّهم وأفشَلهم!

وقد روى النّاس كلّهم الشّعر الّذي أنشده لمّا نكل القوم بجمعهم عنه، وأنّه جالَ بفرسه واستدار وذهب يَمْنةً ثمّ ذهب يَسْرةً ثمّ وقف تُجاه القوم فقال:

ولقد بُحِحتُ من النِّدا ء بجَمْعِهِمْ: هل من مبارِزْ!
و وقفتُ إذْ جَبُن المشيّـ ـع وقْفة القِرْن المناجِزْ
وكذاك أنّي لم أزلْ متسرّعًا نحو الهزاهِزْ

إنَّ الشّـــــجاعة في الفَـــــتَى والجـــودَ مـــن الخيـــرِ الغرائِـــزْ

فلمّا برز إليه عليٌّ أجابه، فقال له:

لا تعجلـــنّ فقـــدْ أتـــا كَ مجيـب صـوتِك غيـرَ عـاجِزْ
ذُو نيَّـــــةٍ وبصـــــيرةٍ يرجُـــو الغـــداةَ نجـــاةَ فـــائِزْ
إنّي لأرجـــــو أن أُقـــــِـ ـــيَم عليـــك نائحـــةَ الجنـــائِزْ
مـــن ضـــربةٍ تفـــنَى ويَبْـــ ـــقَى ذكرُهـــا عنـــدَ الهزائِـــزْ

ولعمري لقد سبق الجاحظ بما قاله بعضُ جُهّال الأنصاريّ لمّا رجع رسول الله من بدْر، وقال فتًى من الأنصار شهد معه بدرًا: إن قتلْنا إلّا عجائز صُلْعًا! فقال له النّبيّ صلى الله عليه وآله: «لا تقل ذلك يا بن أخ، أُولئك الملأ!».

قال الجاحظ: وقد أكثروا في الوليد بن عُتْبة بن ربيعة قتيله يوم بدر، وما علمنا الوليد حضَر حرْبًا قطّ قبْلها، ولا ذكر فيها[1].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: كلّ مَن دوَّن أخبارَ قريش وآثار رجالها، وصف الوليد بالشّجاعة والبَسالة، وكان مع شجاعته أنّه يصارع الفتيان فيصرعُهم، وليس لأنّه لم يشهد حربًا قبلها ما يجب أن يكون بطلًا شجاعًا، فإنّ عليًّا عليه السلام لم يشهدْ قبل بدرٍ حربًا، وقد رأى النّاس آثاره فيها.

قال الجاحظ: وقد ثبت أبو بكر مع النّبيّ صلى الله عليه وآله يوم أُحُد كما ثبت عليٌّ، فلا فخرَ لأحدهما على صاحبه في ذلك اليوم[2].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا ثباته يوم أُحُد فأكثر المؤرّخين وأربابُ السِّيَر ينكِرُونه، وجمهورهم يَروي أنّه لم يبقَ مع النّبيّ صلى الله عليه وآله إلّا عليٌّ وطلحة والزّبير وأبو دُجانة. وقد رُوي عن ابن عبّاس أنّه قال: ولهم خامسٌ وهو عبد الله بن مسعود، ومنهم مَن أثبت

١ـ العثمانيّة: ٥٩.

٢ـ العثمانيّة: ٦٢.

سادسًا وهو المقْداد بن عمرو. وروى يحيى بن سلمة بن كُهَيل قال: قلت لأبي: كم ثبَت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد؟ فقال: اثنان. قلت: مَن هما؟ قال: عليٌّ وأبو دُجانة.

وهب أنّ أبا بكر ثبت يوم أُحُد كما يدّعيه الجاحظ، أ يجوز له أن يقول ثبت كما ثبت عليٌّ، فلا فخر لأحدِهما على الآخر! وهو يعلم آثار عليٍّ عليه السلام ذلك اليوم وأنّه قَتل أصحاب الألوية من بني عبد الدّار؛ منهم طلحة بن أبي طلحة، الّذي رأى رسولَ الله ﷺ في منامه أنّه مردِفٌ كبشًا، فأوّلَه وقال: كبش الكتيبة نقتُله. فلمّا قتله عليّ عليه السلام مبارزةً ـ وهو أوّل قتيلٍ قُتل من المشركين ذلك اليوم ـ كبّر رسول الله ﷺ وقال: «هذا كبش الكتيبة».

وما كان منه من المحاماة عن رسول الله ﷺ وقد فرّ النّاس وأسلموه، فتصمد له كتيبة من قريش، فيقول: «يا عليّ، اكفني هذه» فيحمل عليها فيهزمها ويقتل عميدَها، حتّى سمع المسلمون والمشركون صوتًا من قِبَل السّماء.

لا سَيْفَ إلّا ذو الفقا رِ ولا فتًى إلّا عليّ

وحتّى قال النّبيّ ﷺ عن جبرائيل ما قال.

أ تكون هذه آثاره وأفعاله، ثمّ يقول الجاحظ: لا فخر لأحدهما على صاحبه! ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[1].

قال الجاحظ: ولأبي بكر في ذلك اليوم مقامٌ مشهور، خرج ابنه عبد الرّحمن فارسًا مكفَّرًا[2] في الحديد، يسأل المبارزة ويقول: أنا عبد الرّحمن بن عتيق! فنهض إليه أبو بكر يَسعَى بسيفه، فقال له النّبيّ ﷺ: «شِمْ سيفَك وارجعْ إلى مكانك ومتِّعنا بنفسك»[3].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: ما كان أغناك يا أبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبي بكر، فإنّه لو تسمعه الإماميّة لأضافته إلى ما عندها من المثالب، لأنّ قول

١ـ الأعراف/ ٨٩.

٢ـ أي مستترًا.

٣ـ العثمانيّة: ٦٢.

النّبيّ صلى الله عليه وآله: «ارجعْ» دليلٌ على أنّه لا يَحتمل مبارزة أحدٍ لأنّه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه، وأنت تعلم حنو الابن على الأب وتبجيله له وإشفاقه عليه وكفّه عنه لم يحتمل مبارزة الغريب الأجنبيّ.

وقوله له: «ومتّعْنا بنفسك» إيذانٌ له بأنّه كان يُقتَل لو خرج، ورسول الله كان أعرفَ به من الجاحظ، فأين حال هذا الرّجل من حال الرّجل الّذي صَلِي بالحرب ومشى إلى السّيف بالسّيف فقَتل السّادة والقادة والفُرسان والرّجّالة!

قال الجاحظ: على أنّ أبا بكر ـ وإن لم تكن آثاره في الحرب كآثار غيره ـ فقد بذل الجَهد وفعل ما يستطيعه وتبلغه قوّته، وإذا بذل المجهودَ فلا حال أشرف من حاله[1].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا قوله إنّه بذل الجهد فقد صدق، وأمّا قوله «لا حال أشرف من حاله» فخطأٌ، لأنّ حال مَن بلغتْ قوّته فأعملها في قتل المشركين أشرفُ مِن حال مَن نَقصتْ قوّته عن بلوغ الغاية. أ لا ترى أنّ حال الرّجل أشرفُ في الجهاد من حال المرأة، وحال البالغ الأيِّد أشرفُ من حال الصّبيّ الضّعيف!

فهذه جملة ما ذكره الشّيخ أبو جعفر محمّد بن عبد الله الإسكافيّ رحمه الله في نقض العثمانيّة، اقتصرنا عليها هاهنا وسنعود فيما بعد إلى ذكر جملة أُخرى من كلامه، إذا اقتضتْ الحال ذكره[2]. (١٣: ٢١٥ ـ ٢٩٥)

[ذكر ما كان من صلة عليّ عليه السلام برسول الله صلى الله عليه وآله في صغره]

(الخطبة: ٢٣٨) ... أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغَرِ بِكَلاَكِلِ الْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ؛ وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ، وَأَنَا وَلَيدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي

١ـ نفس المصدر.

٢ـ قام الأُستاذ عبد السّلام هارون بطبع كتاب العثمانيّة، طبعة علميّة محقّقة، وألحق بها ما عثر عليه من نقضها للاسكافيّ، وطبعت في دار الكتاب العربيّ سنة ١٩٥٥.

جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ. وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ.

وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاقِهِ عَلَمًا، وَيَأْمُرُنِي بِالاِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النبوّةِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هذَا الشَّيْطَانُ، قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلكِنَّكَ لَوَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ.

... والقرابة القريبة بينه وبين رسول الله ﷺ دون غيره من الأعمام، كونه ربّاه في حِجْره، ثمّ حامَى عنه ونصَره عند إظهار الدّعوة دون غيره من بني هاشم، ثمّ ما كان بينهما من المُصاهرة الّتي أفضتْ الى النّسل الأطْهر دون غيره من الأصهار. ونحن نذكر ما ذكره أرباب السِّيَر من معاني هذا الفصل.

روى الطّبريّ في تاريخه، قال حدّثنا ابن حميد، قال حدّثنا سلَمة، قال حدّثني محمّد بن إسحاق قال: حدّثني عبدُ الله بن نَجيح، عن مجاهد، قال: كان من نعمة الله عزّوجلّ علَى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وما صنع الله له وأراده به من الخيْر، أنّ قريشًا أصابتْهم أزْمةٌ شديدةٌ، وكان أبو طالب ذا عيالٍ كثير، فقال رسولُ الله ﷺ للعبّاس ـ وكان من أيسر بني هاشم ـ يا عبّاس، إنّ أخاك أبا طالب كثيرُ العيال، وقد تَرى ما أصاب النّاس من هذه الأزْمة. فانطَلِق بنا فلنخَفِّف عنه من عياله، آخذُ من بيته واحدًا، وتأخذُ واحدًا، فنكفِيهما عنه. فقال العبّاس: نعم.

فانطلقا حتّى أتَيا أبا طالب فقالا له: إنّا نريد أن نخفِّف عنك من عيالك حتّى ينكشفَ عن النّاس ما هم فيه. فقال لهما: إنْ تركتما لى عَقِيلًا فاصنَعا ما شئتما.

فأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وآله عليًّا فضمّه إليه، وأخذ العبّاس جعفرًا رضي الله عنه فضمّه إليه. فلم يزل عليّ بن أبي طالب عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى بعثه الله نبيًّا، فاتّبعه عليٌّ عليه السلام فأقرّ به وصدّقه، ولم يزل جعفرٌ عند العبّاس حتّى أسلم واستغنى عنه[1].

قال الطّبريّ: وحدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة، قال: حدّثنا محمّد بن اسحاق، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا حضرت الصّلاة خرَج إلى شعاب مكّة، وخرج معه عليّ بن أبي طالب عليه السلام مستخفيًا من عمّه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصلّيان الصّلوات فيها، فإذا أمسَيا رجَعا، فمكَثا كذلك ما شاء الله أن يمكُثا.

ثمّ إنّ أبا طالب عثر عليهما وهُما يصلّيان، فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله يا بن أخي، ما هذا الّذي أراك تدين به؟ قال: يا عمّ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ـ أو كما قال ـ بعثني الله به رسولًا إلى العباد، وأنت يا عمّ أحقّ مَن بذلتُ له النّصيحة ودعوتُه إلى الهدى، وأحقّ مَن أجابني إليه وأعانني عليه ـ أو كما قال ـ فقال أبو طالب: يا بن أخي، إنّي لا أستطيع أن أُفارقَ ديني ودين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلُص إليك شيء تكرهُه ما بقيتُ.

قال الطّبريّ: وقد رَوى هؤلاء المذكورون أنّ أبا طالب قال لعليّ عليه السلام: يا بنيّ، ما هذا الّذي أنت عليه؟ فقال: يا أبتِ، إنّي آمنتُ بالله وبرسوله وصدّقته بما جاء به وصلّيت لله معه. قال: فزعموا أنّه قال له: أما إنّه لا يدعُو إلّا إلى خير، فالزمْه[2].

وروى الطّبريّ في تاريخه أيضًا، قال: حدّثنا أحمد بن الحسين التِّرمذيّ، قال: حدّثنا عبد الله بن موسى، قال: أخبرنا العَلاء، عن المِنهال بن عمر، وعن عبد الله بن عبد الله، قال: سمعتُ عليًّا عليه السلام يقول: أنا عبدُ الله وأخو رسوله، وأنا الصِّدّيق الأكبر، لا يقولُها بعدي إلّا كاذبٌ مُفْتَرٍ، صَلَّيتُ قبل النّاس بسبع سنين[3]. وفي غير رواية الطّبريّ:

١ـ تاريخ الطّبريّ ٢: ٣١٣ (طبعة المعارف).

٢ـ تاريخ الطّبريّ ٢: ٣١٤ (طبعة المعارف).

٣ـ تاريخ الطّبريّ ٢: ٣١٠ (طبعة المعارف).

أنا الصِّدّيق الأكبر وأنا الفاروق الأوّل، أسلمت قبل إسلام أبي بكر، وصلّيت قبل صلاته بسبع سنين. كأنّه عليه السلام لم يرتَضِ أنْ يذكر عمر ولا رآه أهلًا للمقايسة بينه وبينه، وذلك لأنّ إسلام عمر كان متأخّرًا.

وروى الفضل بن عبّاس رضي الله عنه قال: سألتُ أبي عن ولد رسول الله صلى الله عليه وآله الذُّكور، أيّهم كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله له أشدُّ حبًّا؟ فقال: عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقلت له: سألتُك عن بَنِيه، فقال: إنّه كان أحبَّ عليه من بنيه جميعًا وأرأفَ، ما رأيناه زايَله يومًا من الدّهر منذ كان طفلًا، إلّا أن يكون في سفر لخديجة، وما رأينا أبًا أبرَّ بابنٍ منه لعليّ، ولا ابنًا أطوعَ لأبٍ من عليٍّ له.

وروى الحسين بن زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام، قال: سمعتُ زيدًا أبي عليه السلام يقول: كان رسول الله يمضغ اللَّحْمة والتّمرة حتّى تلِين، ويجعلهما في فم عليّ عليه السلام وهو صغير في حِجْره. وكذلك كان أبي عليّ بن الحسين عليه السلام يفعل بي، ولقد كان يأخذ الشّيء مِن الورك وهو شديد الحرارة، فيبرّده في الهواء أو ينفخ عليه حتّى يبرد ثمّ يُلقِمُنيه. أ فيشفقُ عليّ من حرارة لقمة ولا يشفق عليّ من النّار! لو كان أخي إمامًا بالوصيّة كما يزعم هؤلاء، لكان أبي أفضَى بذلك إليّ و وَقاني من حرّ جهنّم.

وروى جبير بن مُطْعِم، قال: قال أبي مُطعم بن عديّ لنا ونحن صبيان بمكّة: ألَا ترَوْن حبّ هذا الغلام ـ يعني عليًّا ـ لمحمّد واتّباعه له دون أبيه! واللّات والعُزّى، لوددتُ أنّ ابني بفتيان بني نوفل جميعًا!

وروى سعيد بن جبير، قال: سألت أنس بن مالك، فقلت: أرأيتَ قولَ عمر عن السّتّة: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو عنهم راضٍ؟ ألم يكن راضيًا عن غيرهم من أصحابه؟ فقال: بلَى، مات رسولُ الله صلى الله عليه وآله وهو راضٍ عن كثير من المسلمين، ولكن كان عن هؤلاء أكثر رضًا. فقلت له: فأيّ الصّحابة كان رسول الله صلى الله عليه وآله له أحمَد؟ أو كما قال ـ قال: ما فيهم أحدٌ إلّا وقد سخط منه فعلًا وأنكر عليه أمرًا، إلّا اثنان: عليّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قُحافة، فإنّهما لم يقترفا منذ أتى الله بالإسلام أمرًا أسخَطا فيه رسول الله صلى الله عليه وآله. (١٣: ١٩٨ـ٢٠١)

[فصل فيما ذكر من سبق عليّ عليه السلام إلى الهجرة]

(الخطبة: ٥٦) ومن كلام له عليه السلام لأصحابه: ... فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ.

[قال بعد ذكر ستّ مسائل حول كلمات الخطبة ٥٦:]

المسألة السّابعة:

أن يقال: كيف قال: «إنّه سبَق إلى الهجرة» ومعلوم أنّ جماعة من المسلمين هاجروا قبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره. وقد هاجر أبو بكر قبله، لأنّه هاجر في صحبة النّبيّ صلى الله عليه وآله وتخلّف عليّ عليه السلام عنهما[1] فبات على فراش رسول الله عليه السلام ومكث أيّامًا يردّ الودائع الّتي كانتْ عنده، ثمّ هاجر بعد ذلك؟

والجواب أنّه عليه السلام لم يقل: «وسبقتُ كلّ النّاس إلى الهجرة» وإنّما قال: «وسبقتُ» فقط، ولا يدلّ ذلك على سبْقه للنّاس كافةً، ولا شبهة أنّه سبق مُعظم المهاجرين إلى الهجرة، ولم يهاجر قبلَه أحدٌ إلّا نفرٌ يسيرٌ جدًّا.

وأيضًا فقد قلنا إنّه علّل أفضليّتَه وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أُمور: منها ولادته على الفِطْرة، ومنها سبْقه إلى الإيمان، ومنها سبْقه إلى الهجرة؛ وهذه الأُمور الثّلاثة لم تجتمع لأحدٍ غيره فكان بمجموعها متميّزًا عن كلّ أحدٍ من النّاس.

وأيضًا فإنّ اللّام في «الهجرة» يجوز ألّا تكون للمعهود السّابق، بل تكون للجنس، وأمير المؤمنين عليه السلام سبق أبا بكر وغيره إلى الهجرة الّتي قبل هجرة المدينة؛ فإنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله هاجر عن مكّة مرارًا، يطوف على أحياء العرب وينتقل من أرض قوم إلى غيرها، وكان عليّ عليه السلام معه دون غيره.

١ـ ج: «عنه».

أمّا هجرته إلى بني شيبان، فما اختلف أحدٌ من أهل السّيرة أنّ عليًّا عليه السلام كان معه هو وأبو بكر، وأنّهم غابوا عن مكّة ثلاثة عشر يومًا وعادوا إليها لمّا لم يجدوا عند بني شيبان ما أرادوه من النُّصرة.

وروى المدائنيّ في كتاب «الأمثال» عن المفضّل الضّبّيّ[1] أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا خرج عن مكّة يعرِض نفسه على قبائل العرب، خرج إلى ربيعة ومعه عليّ عليه السلام وأبو بكر. فدفعوا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدّم أبو بكر ـ وكان نَسّابة ـ فسلّم فردُّوا عليه السّلام. فقال: ممّن القوم؟ قالوا: من ربيعة. قال: أ مِن هَامِتها أم من لَهَازمها؟[2] قالوا: من هَامتها العظمى. فقال: مِن أيّ هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: من ذُهْل الأكبر. قال: أ فمنكم عوف الّذي يقال له: لا حُرّ بوادي عوف؟ قالوا: لا. قال: أ فمنكم بِسطام ذو اللّواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: أ فمنكم جَسّاس حامِي الذّمار ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: أ فمنكم الحوْفَزان، قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا. قال: أ فمنكم المزدَلِف صاحب العمامة الفَرْدة؟ قالوا: لا. قال: أ فأنتم أخوال الملوك من كِنْدة؟ قالوا: لا. قال: فلستم إذنْ ذُهْلًا الأكبر، أنتم ذُهْل الأصغر.

فقام إليه غلام قد بقَل[3] وجهه، اسمه دَغْفِل، فقال:

إنّ عـــلى ســـائِلِنا أنْ نَسْـــأَلَه والعِـــبْء لا تعرِفُـــه أو تحمِلَـــهْ

يا هذا، إنّك قد سألتَنا فأجبناك ولم نكتمك شيئًا، فمِمّن الرّجل؟ قال: من قريش. قال: بخٍ بخٍ! أهل الشّرف والرّياسة. فمِن أيّ قريش أنت؟ قال: من تَيْم بن مُرّة. قال: أمكنتَ والله الرّامي من الثُّغْرة[4]. أ مِنكم قصيّ بن كِلاب الّذي جمَع القبائل من فِهْر

١ـ الخبر في مجمع الأمثال: ١٧ـ ١٨.

٢ـ فسّره صاحب اللّسان، فقال: «وفي حديث أبي بكر والنّسابة: «أ من هامَتها أو لَهازمها»، أي من أشرافها أنت أو من أوساطها. واللّهازم أُصول الحنكين، واحدتها لهزمة بالكسر، فاستعارها لوسط النّسب والقبيلة».

٣ـ بقَل وجهه، أي خرج شعره.

٤ـ في مجمع الأمثال: «من صفاء الثُّغْرة».

فكان يُدعى مجمّعًا؟ قال: لا. قال: أ فمنكم هاشم الّذي هَشم لقومه الثّريدُ؟[1] قال: لا. قال: أ فمنكم شيبةُ الحمد، مُطعِم طير السّماء؟[2] قال: لا. قال: أ فمِن المفيضين بالنّاس أنت؟ قال: لا. قال: أ فمِن أهل النَّدْوة أنت؟ قال: لا. قال: أ فمِن أهل الرِّفادة[3] أنت؟ قال: لا. قال: أ فمِن أهل الحِجابة أنت؟ قال: لا. قال: أ فمِن أهل السّقاية؟ قال: لا.

قال: فاجتذب أبو بكر زِمام ناقته ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله هاربًا من الغلام. فقال دَغْفل:

* صَادَفَ دَرْءَ السّيل دَرءٌ يصدعه[4] *

أما والله لو ثبتَّ لأخبرتُك أنّك من زَمَعات قريش. فتبسَّم رسول الله صلى الله عليه وآله. وقال عليّ عليه السلام لأبي بكر: لقد وقعتَ يا أبا بكر من الأعرابيّ على باقِعة. قال: أجلْ، إنّ لكلّ طامّة طامّة، والبلاء موكّلٌ بالمنطق. فذهبتْ مثلًا.

وأمّا هجرته صلى الله عليه وآله إلى الطّائف، فكان معه عليّ عليه السلام وزيد بن حارثة في رواية أبي الحسن المدائنيّ، ولم يكن معهم أبو بكر. وأمّا رواية محمّد بن إسحاق، فإنّه قال: كان معه زيد بن حارثة وحدَه، وغاب رسول الله صلى الله عليه وآله عن مكّة في هذه الهجرة أربعين يومًا ودخل إليها في جوار مُطْعِم بن عديّ.

١ـ بعده في مجمع الأمثال: «ورجال مكّة مُسنِتُون عِجاف».

٢ـ بعده في مجمع الأمثال: «الّذي كان في وجهه قمَريضيء ليل الظّلام الدّاجي».

٣ـ في اللّسان: «الرّفادة شيء كانت قريش تترافد به في الجاهليّة؛ فيخرج كلّ إنسان مالًا بقدر طاقته، فيجمعون من ذلك مالًا عظيمًا أيّام الموسم، فيشترون به للحاجّ الجزر والطّعام والزّبيب فلا يزالون يطعمون النّاس حتّى تنقضي أيّام الموسم، وكانت الرِّفادة والسّقاية لبني هاشم والسّدانة و اللّواء لبني عبد الدّار؛ وكان أوّل من قام بالرّفادة هاشم بن عبد مناف».

٤ـ درأ الوادي بالسّيل: دفعه، وأورد المثل صاحب اللّسان وفسّره بقوله: «يقال للسّيل إذا أتاك من حيث لا تحتسبه: سيل دَرْء؛ أي يدفع هذا ذاك وذاك هذا».

وأمّا هجرته ﷺ إلى بني عامربن صعصعة وإخوانهم من قَيْس عيلان، فإنّه لم يكن معه إلّا عليّ عليه السلام وحدَه. وذلك عَقيب وفاة أبي طالب، أُوحِي إليه ﷺ: اخرجْ منها فقد مات ناصرُك. فخرج إلى بني عامربن صعصعة ومعه عليّ عليه السلام وحدَه، فعرض نفسَه عليهم وسألهم النّصروتلا عليهم القرآن فلم يجيبوه، فعاد عليه السلام إلى مكّة. وكانت مدّة غيبته في هذه الهجرة عشرة أيّام، وهى أوّل هجرة هاجرها ﷺ بنفسه.

فأمّا أوّل هجرة هاجرها أصحابه ولم يهاجربنفسه، فهجرةُ الحبشة. هاجرفيها كثيرٌ من أصحابه عليه السلام إلى بلاد الحبشة في البحر، منهم جعفربن أبي طالب عليه السلام. فغابوا عنه سنين ثمّ قَدِم عليه منهم مَن سلم وطالت أيّامه[1]. وكان قدوم جعفرعليه عامَ فتح خَيبر، فقال ﷺ: «ما أدري بأيّهما أنا أُسَرّ؛ أ بقدوم جعفرأم بفتح خيبر»! (٤: ١٢٥ـ ١٢٨)

[موضع الإمام عليه السلام للنّبيّ ﷺ]

(الخطبة: ١٩٠) وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنِّي لَمْ أُرِدّ عَلَى اللهِ وَلا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ، وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الّتي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُالْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا ....

... والظّاهرأنّه يرمزفي قوله عليه السلام: «لم أرُدّ على الله ولا على رسوله ساعةً قطّ» إلى أُمور وقعتْ من غيره، كما جرى يوم الحديبيّة عند سَطْركتاب الصّلح.

فإنّ بعض الصّحابة[2] أنكرذلك وقال: يا رسول الله، ألسنا المسلمين؟ قال: بلى. قال: أ وَليسُوا الكافرين؟ قال: بلى. قال: فكيف نعطي الدّنيّة في ديننا! فقال ﷺ: «إنّما أعمل بما أومَربه».

١ـ ج: «مدّته».

٢ـ هو عمربن الخطّاب، وانظرسيرة ابن هشام ٣: ٣٣١ (طبعة الحلبيّ).

فقام فقال لقوم من الصّحابة: ألم يكن قد وعدنا بدخول مكّة! وها نحن قد صُدِدنا عنها ثمّ ننصرف بعد أن أعطينا الدّنيّة في ديننا. والله لو أجد أعوانًا لم أعط الدّنيّة أبدًا.

فقال أبو بكر لهذا القائل: ويحك! الزَمْ غَرْزه[1]، فوالله إنّه لرسول الله صلى الله عليه وآله وإنّ الله لا يضيّعه. ثمّ قال له: أ قال لك: إنّه سيدخُلها هذا العام؟ قال: لا. قال: فسيدخلها. فلمّا فتح النّبيّ صلى الله عليه وآله مكّة وأخذ مفاتيح الكعبة، دعاه فقال: هذا الّذي وُعدتم به.

واعلم أنّ هذا الخبر صحيحٌ لا ريب فيه، والنّاس كلّهم روَوْه، وليس عندي بقبيح ولا مستهجَنٍ أن يكون سؤال هذا الشّخص لرسول الله صلى الله عليه وآله عمّا سأله عنه على سبيل الاسترشاد والتماسًا لطمأنينة النّفس، فقد قال الله تعالى لخليله إبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2].

وقد كانت الصّحابة تراجِع رسول الله صلى الله عليه وآله في الأُمور وتسأله عمّا يَستبهِمُ عليها وتقول له: أ هذا منك أم من الله؟ وقال له السَّعْدان[3] رضي الله عنهما يوم الخندق وقد عزم على مصالحة الأحزاب ببعضِ تمْر المدينة: أ هذا مِن الله أم رأيٌ رأيتَه من نفسك؟ قال: بل من نفسي. قالا: لا، والله لا نعطيهم منها تمرةً واحدة وأيدينا في مقابض سيوفنا!

وقالت الأنصار له يوم بدر وقد نزل بمنزل لم يستصلحوه: أ نزلتَ هذا المنزل عن رأيٍ رأيتَ أم بوحيٍ أُوحِي إليك؟ قال: بل عن رأيٍ رأيتُه. قالوا: إنّه ليس لنا بمنزل، ارحلْ عنه فانزلْ بموضع كذا.

وأمّا قول أبي بكر له: «الزمْ غَرْزه، فو الله إنّه لرسول الله صلى الله عليه وآله» فإنّما هو تأكيد وتثبيت على عقيدته الّتي في قلبه، ولا يدلّ ذلك على الشّكّ، فقد قال الله تعالى لنبيّه: ﴿وَلَوْلَآ

١ـ الغَرْز في الأصل: ركاب كور الجمل، والكلام هنا على المجاز، أي أتْبعْ قوله وفعله.

٢ـ البقرة/ ٢٦٠.

٣ـ هما سعد بن معاذ وسعد بن عبادة الأنصاريّان.

أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[1]. وكلّ أحدٍ لا يستغني عن زيادة اليقين والطّمأنينة.

وقد كانت وقعت من هذا القائل أُمورٌ دون هذه القصّة، كقوله: دعْني أضرب عُنُق أبي سفيان، وقوله: دعْني أضرب عُنُق عبد الله بن أُبيّ، وقوله: دعْني أضرب عُنق حاطب بن أبي بَلْتعة، ونهْي النّبيّ ﷺ عن التّسرّع إلى ذلك وجذْبه ثوب رسول الله ﷺ حين قام على جنازة ابن سَلُول يصلّي، وقوله: كيف تستغفر لرأس المنافقين!

وليس في ذلك جميعه ما يدلّ على وقوع القبيح منه، وإنّما الرّجل كان مطبوعًا على الشّدّة والشّراسة والخشونة، وكان يقول ما يقول على مقتضى السّجيّة الّتي طُبع عليها. وعلَى أيّ حال كان، فلقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيرًا كثيرًا.

قوله عليه السلام: «ولقد واسيتُه بنفسي»، يقال: واسيته وآسيته، وبالهمزة أفصح، وهذا ممّا اختصّ عليه السلام بفضيلته غير مدافَع، ثبت معه يوم أحُد وفرّ النّاس، وثبت معه يوم حُنين وفرّ النّاس، وثبت تحت رايته يوم خَيبر حتّى فتحها، وفرّ مَن كان بعث بها من قبله.

وروى المحدّثون أنّ رسول الله ﷺ لمّا ارْتُثَّ[2] يوم أُحُد قال النّاس: قُتل محمّد. رأته كَتيبةٌ من المشركين وهو صريعٌ بين القتلَى، إلّا أنّه حيٌّ، فصمَدتْ له، فقال لعليّ عليه السلام: اكفني هذه، فحمل عليها عليه السلام وقتل رئيسها.

ثمّ صمَدتْ له كتيبةٌ أُخرى، فقال: يا عليّ اكفني هذه، فحمل عليها فهزمها وقتل رئيسها. ثمّ صمَدتْ له كتيبةٌ ثالثة، فكذلك. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يقول: قال لي جبريل: يا محمّد إنّ هذه لَلْمواساة. فقلت: وما يمنعه وهو منّي وأنا منه! فقال جبريل: وأنا منكما.

١ـ الإسراء/ ٧٤.

٢ـ ارتُثَّ: حُمل من المعركة جريحًا وفيه رمقٌ.

وروى المحدّثون أيضًا أنّ المسلمين سَمعوا ذلك اليوم صائحًا من جهة السّماء ينادي: «لا سيف إلّا ذو الفَقار، ولا فتى إلّا عليّ»، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لمن حضره: «أ لا تسمعون! هذا صوتُ جبريل». وأمّا يوم حُنين فثبت معه في نفرٍ يسيرٍ من بني هاشم، بعد أن ولّى المسلمون الأدبار، وحامَى عنه، وقتَل قومًا من هوازن بين يديه، حتّى ثابت إليه الأنصار وانهزمت هوازن وغنمت أموالها. وأمّا يوم خَيبر فقصّته مشهورة.

قوله عليه السلام: «نجدةً أكرمني الله سبحانه بها»، النّجْدة: الشّجاعة، وانتصابها هاهنا على أنّها مصدر، والعامل فيه محذوف. ثمّ ذكر عليه السلام وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «لقد قُبض وإنّ رأسه لعلَى صدري، ولقد سالتْ نفسه في كفّي، فأمررتُها على وجهي». يقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قاءَ دمًا يسيرًا وقت موته، وإنّ عليًّا عليه السلام مسَح بذلك الدّم وجهه. وقد رُوي أنّ أبا طيبة الحجّام شرب دمَه عليه السلام وهو حيّ، فقال له: إذنْ لا يجمْ بطنك.

(١٠: ١٨٠ ـ ١٨٣)

قلت: سألتُ النّقيب أبا جعفر رحمه الله ـ وكان منصفًا بعيدًا عن الهوى والعصبيّة عن هذا الموضع ـ فقلت له: وقد وقفت على كلام الصّحابة وخُطَبهم فلم أر فيهم مَن يعظِّم رسول الله صلى الله عليه وآله تعظيمَ هذا الرّجل ولا يدعو كدعائه.

فإنّا قد وقفنا من «نهج البلاغة» ومن غيره على فصولٍ كثيرة مناسبة لهذا الفصل، تدلّ على إجلال عظيم وتبجيل شديد منه لرسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال: ومن أين لغيره من الصّحابة كلامٌ مدوّن يتعلّم منه كيفيّة ذكرهم للنّبيّ صلى الله عليه وآله؟ وهل وُجد لهم إلّا كلماتٌ مبتدرة، لا طائل تحتها! ثمّ قال: إنّ عليًّا عليه السلام كان قويّ الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله والتّصديق له، ثابت اليقين، قاطعًا بالأمر، متحقّقًا له، وكان مع ذلك يحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله لنسبته منه، وتربيته له، واختصاصه به من دون أصحابه.

وبعد، فشرفُه له، لأنّهما نفسٌ واحدة في جسمَيْن، الأب واحد، والدّار واحدة، والأخلاق متناسبة. فإذا عظّمه فقد عظّم نفسه، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه.

ولقد كان يودّ أنْ تطبّق دعوةُ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها، لأنّ جمال ذلك لاحقٌ به وعائد عليه، فكيف لا يعظّمه ويبجّله ويجتهد في إعلاء كلمته!

فقلت له: قد كنت اليوم أنا وجعفر بن مكّيّ الشّاعر نتجاذب هذا الحديث، فقال جعفر: لم ينصر رسولَ الله ﷺ أحَدٌ نُصرة أبي طالب وبنيه له؛ أمّا أبو طالب فكفَله وربّاه ثمّ حمَاه من قريش عند إظهار الدّعوة بعد إصفاقهم وإطباقهم على قتله. وأمّا ابنه جعفر فهاجَر بجماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة فنشَر دعوته بها. وأمّا عليّ فإنّه أقام عماد الملّة بالمدينة.

ثمّ لم يُمْنَ أحدٌ من القتل والهوان والتّشريد بما مُني به بنو أبي طالب؛ أمّا جعفر فقُتل يوم مؤتة. وأمّا عليّ فقُتل بالكوفة بعد أن شرب نقيع الحنظل وتمنّى الموت، ولو تأخّر قتلُ ابن ملجم له لَمات أسفًا وكَمدًا. ثمّ قُتل ابناه بالسّمّ والسّيف وقُتل بنوه الباقون مع أخيهم بالطّفّ وحُملت نساؤهم على الأقتاب سَبَايَا إلى الشّام ولقيتْ ذرّيتهم وأخلافهم بعد ذلك من القتل والصّلب والتّشريد في البلاد والهوان والحبس والضّرب ما لا يحيط الوصف بكنهه. فأيّ خير أصاب هذا البيت من نصرته ومحبّته وتعظيمه بالقول والفعل!

فقال ﷺ ـ وأصاب فيما قال ـ: فهلّا قلت: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[1]. ثمّ قال: وهلّا قلت له: فقد نصرتُه الأنصار، وبذلتْ مُهَجَها دونه، وقُتلتْ بين يديه في مواطن كثيرة وخصوصًا يوم أُحُد، ثمّ اهتُضِموا بعده، واستُؤثِر عليهم، ولقوا من المشاقّ والشّدائد ما يطول شرحه. ولو لم يكن إلّا يوم الحرّة، فإنّه اليوم الّذي لم يكن في العرب مثله، ولا أُصيب قوم قطّ بمثل ما أُصيب به الأنصار ذلك اليوم!

١ـ الحجرات/ ١٧.

ثمّ قال: إنّ الله تعالى زَوى الدّنيا عن صالحي عباده وأهل الإخلاص له، لأنّه لم يرَها ثمنًا لعبادتهم ولا كفؤًا لإخلاصهم، وأرجأ جزاءهم إلى دار أُخرى غير هذه الدّار، في مثلها يتنافس المتنافسون! (٧: ١٧٤ـ١٧٦)

(الخطبة: ٢٠٧) الأصل: و من خطبة له عليه السلام:

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ، وَحَكَمٌ فَصَلَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَسَيِّدُ عِبَادِهِ، كُلَّمَا نَسَخَ اللهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا ....

... قوله: «وسيّد عباده»، هذا كالمُجمع عليه بين المسلمين، وإن كان قد خالف فيه شذوذٌ منهم.

واحتجّ الجمهور بقوله: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»، وبقوله: «ادْعُوا لي سيّدَ العرب عليًّا» فقالت عائشة: أ لستَ سيّد العرب! فقال: «أنا سيّد البشر، وعليٌّ سيّد العرب»، وبقوله: «آدم ومَن دونه تحت لوائي».

واحتجّ المخالف بقوله عليه السلام: «لا تفضِّلوني على أخي يونس بن متّى». وأجاب الأوّلون تارةً بالطّعن في إسناد الخبر وتارةً بأنّه حكاية كلام حكاه صلى الله عليه وآله عن عيسى بن مريم وتارةً بأنّ النّهي إنّما كان عن الغلوّ فيه كما غَلَتْ الأُمم في أنبيائها، فهو كما ينهى الطّبيب المريض فيقول: لا تأكلْ من الخبز ولا درهمًا، وليس مراده تحريم أكل الدّرهم والدّرهمين بل تحريم ما يستضرّ بأكله منه.

قوله عليه السلام: «كُلّما نسَخ الله الخلْق فرقتيْن جعله في خيرهما»، النّسْخ: النّقل، ومنه نسخ الكتاب، ومنه نسَخت الرّيحُ آثار القوم، ونسَخت الشّمسُ الظلّ.

يقول: كلّما قسَم الله تعالى الأب الواحد إلى ابنين، جعَل خيرهما وأفضلهما لولادة محمّد عليه السلام، وسمّى ذلك نسخًا، لأنّ البطن الأوّل يزول ويخلُفه البطن الثّاني، ومنه مسائل المناسخات في الفرائض.

وهذا المعنى قد وُرد مرفوعًا في عدّة أحاديث، نحو قوله صلى الله عليه وآله: «ما افترقتْ فرقتان منذُ نسَل آدم ولدَه إلّا كنتُ في خيرهما». ونحو قوله: «إنّ الله اصطَفى من ولد إبراهيم

إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل مُضَر، واصطفى من مُضَر كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش هاشمًا، واصطفاني من بني هاشم». (١١: ٦٦ ـ ٦٧)

(كتابه: ٤٥) ... وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ ....

... فشبّه عليه السلام نفسه بالنّسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالذّراع الّذي العضد أصله وأُسّه. والمراد من هذا التّشبيه الإبانة عن شدّة الامتزاج والاتّحاد والقرب بينهما، فإنّ الضّوء الثّاني شبيه بالضّوء الأوّل، والذّراع متّصل بالعضد اتّصالًا بيّنًا.

وهذه المنزلة قد أعطاه إيّاها رسول الله صلى الله عليه وآله في مقامات كثيرة نحو قوله في قصّة براءة: «قد أُمِرتُ ألّا يؤدّيَ عنّي إلّا أنا أو رجل منّي»، وقوله: «لتنتهُنّ يا بني وَلِيعة أو لأبعثنّ إليكم رجلًا منّي»، أو قال: «عديل نفسي». وقد سمّاه الكتاب العزيز «نفسَه» فقال: ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُم وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[1]، وقد قال له: «لحمك مختلطٌ بلحمي ودمك مسُوطٌ بدمي وشبرك وشبري واحدٌ». (١٦: ٢٩١)

[ذكر الأحاديث والأخبار الواردة في فضائل عليّ عليه السلام]

(الخطبة: ١٥٤) ... نَحْنُ الشِّعارُ وَالأَصْحَابُ وَالخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ، وَلاتُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا.

... ثم قال: «نحن الشِّعار و الأصحاب»، يشير إلى نفسه وهو أبدًا يأتي بلفظ الجمع و مراده الواحد. و الشّعار: ما يلي الجسد من الثّياب، فهو أقرب من سائرها إليه، و مراده الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وآله.

«و الخَزَنَة و الأبواب»: يمكن أن يعني به خزنة العلم و أبواب العلم، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد الحكمة فلْيأتِ الباب»، وقوله فيه: «خازن علمي»، وقال تارةً أُخرى: «عَيْبة عِلْمي». ويمكن أن يريد خزنة الجنّة و أبواب

١ـ آل عمران / ٦١.

الجنّة، أي لا يدخل الجنّة إلّا مَن وافَى بولايتنا. فقد جاء في حقّه الخبر الشّائع المستفيض: إنّه قسيم النّار و الجنّة.

و ذكر أبو عبيد الهرويّ في «الجمع بين الغريبيْن» أنّ قومًا من أئمّة العربيّة فسّروه فقالوا: لأنّه لمّا كان محبّه من أهل الجنّة و مُبغضه من أهل النّار، كأنّه بهذا الاعتبار قسيم النّار و الجنّة. قال أبو عبيد: و قال غير هؤلاء: بل هو قسيمها بنفسه في الحقيقة، يُدخِل قومًا إلى الجنّة و قومًا إلى النّار. و هذا الّذي ذكره أبو عبيد أخيرًا هو ما يطابق الأخبار الواردة فيه، يقول للنّار: هذا لي فدَعيه و هذا لك فخُذيه ... .

واعلم! أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لو فخَر بنفسه وبالغ في تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته الّتي آتاه الله تعالى إيّاها واختصّه بها وساعده على ذلك فُصحاء العرب كافّةً، لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرّسول الصّادق صلوات الله عليه في أمره.

ولستُ أعني بذلك الأخبارَ العامّة الشّائعة الّتي يحتجّ بها الإماميّة على إمامته كخبر الغدير والمنزلة وقصّة براءة وخبر المناجاة وقصّة خيبر وخبر الدّار بمكّة في ابتداء الدّعوة ونحو ذلك، بل الأخبار الخاصّة الّتي رواها فيه أئمّة الحديث الّتي لم يحصل أقلّ القليل منها لغيره. وأنا أذكر من ذلك شيئًا يسيرًا ممّا رواه علماء الحديث الّذين لا يُتّهمون فيه، وجُلّهم قائلون بتفضيل غيره عليه، فروايتهم فضائلَه توجب سكونَ النّفس ما لا يوجبه رواية غيرهم.

الخبر الأوّل: «يا عليّ، إنّ الله قد زيّنك بزينةٍ لم يزيّن العباد بزينة أحبّ إليه منها؛ هي زينة الأبرار عند الله تعالى، الزّهد في الدّنيا، جعلك لا ترزأ من الدّنيا شيئًا[1]، ولا ترزأ الدّنيا منك شيئًا. و وهب لك حبّ المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعًا ويرضوْن بك إمامًا».

١ـ ترزأ: تأخذ.

رواه أبو نعيم الحافظ في كتابه المعروف ب «حلية الأولياء» وزاد فيه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في «المسند»: «فطوبى لمن أحبّك وصدق فيك، و ويلٌ لمن أبغضك وكذّب فيك!».

الخبر الثّاني: قال لوفْد ثَقيف: لَتُسْلِمُنّ أو لأبعثَنّ إليكم رجلًا منّي ـ أو قال: عديل نفسي ـ فلَيضرِبنّ أعناقكم ولَيسبِينّ ذراريّكم ولَيأخذنّ أموالكم». قال عُمر: فما تمنّيتُ الإمارة إلّا يومئذ، وجعلتُ أنصِب له صدري رجاء أن يقول: هو هذا. فالتفت فأخذ بيد عليّ وقال: «هو هذا!» مرّتين.

رواه أحمد في «المسند» ورواه في كتاب فضائل عليّ عليه السلام أنّه قال: «لتنتهُنّ يا بَني وليعة[1] أو لأبعثنّ إليكم رجلًا كنفسي، يُمضِي فيكم أمري، يقتل المقاتلة ويسبي الذّرّيّة». قال أبو ذرّ: فما راعني إلّا برْد كفّ عمر في حُجْزتي[2] مِن خَلْفي، يقول: مَن تراه يعني؟ فقلت: إنّه لا يَعْنيك، وإنّما يعني خاصفَ النّعل، وإنّه قال: «هو هذا».

الخبر الثّالث: «إنّ الله عَهِد إليّ في عليٍّ عهدًا، فقلت: يا ربّ بيّنْه لي. قال: اسمعْ، إنّ عليًّا راية الهدى وإمام أوليائي ونور مَن أطاعني، وهو الكلمة الّتي ألزمتُها المتّقين. مَن أحبّه فقد أحبّني ومن أطاعه فقد أطاعني، فبشّرْه بذلك. فقلت: قد بشّرته يا ربّ. فقال: أنا عبد الله وفي قبضته، فإن يعذّبني فبذنوبي لم يظلم شيئًا، وإن يتمّ لي ما وعدني فهو أولى. وقد دعوتُ له فقلت: اللّهمّ اجْلُ قلبَه واجعلْ ربيعه الإيمان بك. قال: قد فعلت ذلك، غير أنّي مختصُّهُ بشيءٍ من البلاء لم أختصّ به أحدًا من أوليائي، فقلت: ربّ، أخي وصاحبي! قال: إنّه سبق في علمي أنّه لمُبتلٍ ومبتلًى».

ذكره أبو نعيم الحافظ في «حلية الأولياء» عن أبي بَرْزة الأسلميّ، ثمّ رواه بإسناد آخر بلفظ آخر عن أنس بن مالك: «إنّ ربّ العالمين عَهِد في عليٍّ إليّ عهدًا أنّه راية الهدى

---

١ ـ بنو وليعة: حيٌّ في كندة.

٣ ـ الحُجزة: موضع الإزار.

ومنار الإيمان وإمام أوليائي ونور جميع مَن أطاعني. إنّ عليًّا أميني غدًا في القيامة وصاحب رايتي، بيد عليّ مفاتيح خزائن رحمة ربّي».

الخبر الرّابع: «مَن أرادَ أن ينظر إلى نوح في عَزْمه وإلى آدم في عِلْمه وإلى إبراهيم في حِلْمه وإلى موسى في فِطْنته وإلى عيسى في زهده، فلينظرْ إلى عليّ بن أبي طالب». رواه أحمد بن حنبل في «المسند» ورواه أحمد البيهقيّ في صحيحه.

الخبر الخامس: «مَن سرّه أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويتمسّك بالقضيب مِن الياقوتة الّتي خلقها الله تعالى بيده ثمّ قال لها: كوني فكانت، فليتمسّكْ بولاء عليّ بن أبي طالب».

ذكره أبو نعيم الحافظ في كتاب «حلية الأولياء»، ورواه أبو عبد الله بن حنبل في «المسند» وفي كتاب فضائل عليّ بن أبي طالب. وحكاية لفظ أحمد رضي الله عنه: «مَن أحبّ أن يتمسّك بالقضيب الأحمر الّذي غرسه الله في جَنّة عدنٍ بيمينه، فليتمسّكْ بحبّ عليّ بن أبي طالب».

الخبر السّادس: «والّذي نفسي بيده، لولا أن تقول طوائف مِن أُمّتي فيك ما قالت النّصارى في ابن مريم، لقلتُ اليوم فيك مقالًا لا تمرّ بملأٍ من المسلمين إلّا أخذوا التّراب من تحت قدميك للبركة». ذكره أبو عبد الله أحمد بن حنبل في «المسند».

الخبر السّابع: خرج صلى الله عليه وآله على الحجيج عشيّة عَرَفة فقال لهم: إنّ الله قد باهَى بكم الملائكة عامّةً وغفر لكم عامّةً، وباهَى بعليٍّ خاصّةً وغفر له خاصّةً. إنّي قائلٌ لكم قولًا غير محابٍ فيه لقرابتي: إنّ السَّعيد كلّ السّعيد حقّ السّعيد مَن أحبّ عليًّا في حياته وبعد موته». رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائل عليّ عليه السلام، وفي «المسند» أيضًا.

الخبر الثّامن: رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في الكتابيْن المذكورين: «أنا أوّل مَن يُدعَى به يوم القيامة، فأقوم عن يمين العرش في ظلّه ثمّ أُكسَى حُلّةً. ثمّ يُدعى بالنّبيّين بعضهم على أثر بعض، فيقومون عن يمين العرش ويُكسَون حُلَلًا. ثمّ يُدعى بعليّ بن أبي طالب لقرابته منّي ومنزلته عندي، ويُدفَع إليه لوائي لواء الحمد، آدم ومَن

دونه تحت ذلك اللّواء». ثمّ قال لعليّ: «فتسير به حتّى تقف بيني وبين إبراهيم الخليل ثمّ تُكسَى حُلّةً، ويُنادِي منادٍ من العرش: نعْم العبد أبوك إبراهيم! ونعْم الأخ أخوك عليّ! أبشرْ فإنّك تُدعى إذا دعيتُ وتُكسى إذا كسيتُ، وتُحيا إذا حييتُ».

الخبر التّاسع: «يا أنَس، اسكُبْ لي وضوءًا»، ثمّ قام فصلّى ركعتين، ثمّ قال: «أوّل مَن يدخل عليك من هذا الباب إمام المتّقين وسيّد المسلمين ويعسوب الدّين وخاتم الوصيّين وقائد الغرّ المحجّلين». قال أنس: فقلت: اللّهمّ اجعله رجلًا من الأنصار، وكتبت دعوتي، فجاء عليٌّ فقال ﷺ: «مَن جاء يا أنس؟» فقلت: عليٌّ. فقام إليه مُستبشرًا، فاعتنقه ثمّ جعل يمسح عرق وجهه. فقال عليٌّ: يا رسول الله، صلّى الله عليك وآلك، لقد رأيتُ منك اليوم تصنع بي شيئًا ما صنعتَه بي قبل! قال: «وما يمنعني وأنت تؤدّي عنّي وتسمعهم صوتي وتبيّن لهم ما اختلفوا فيه بعدي!». رواه أبو نعيم الحافظ في «حلية الأولياء».

الخبر العاشر: «ادعُوا لي سيّد العرب عليًّا»، فقالت عائشة: أ لستَ سيّد العرب؟ فقال: «أنا سيّد ولد آدم، وعليٌّ سيّد العرب». فلمّا جاء أرسل إلى الأنصار، فأتوْه فقال لهم: «يا معشر الأنصار، أ لا أدلّكم على ما إن تمسّكْتم به لن تضلّوا أبدًا؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هذا عليٌّ، فأحِبّوه بحبّي وأكرِموه بكرامتي؛ فإنّ جبرائيل أمرني بالّذي قلت لكم عن الله عزّ وجلّ». رواه الحافظ أبو نعيم في «حلية الأولياء».

الخبر الحادي عشر: «مرحبًا بسيّد المؤمنين وإمام المتّقين!» فقيل لعليّ عليه السلام: كيف شكرُك؟ فقال: أحمدُ الله على ما آتاني وأسأله الشّكر على ما أولاني وأن يزيدَني ممّا أعطاني». ذكره صاحب «الحلية» أيضًا.

الخبر الثّاني عشر: «مَن سرّه أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنّة عدنٍ الّتي غرسها ربّي، فليوالِ عليًّا من بعدي وليوال وليّه وليقتدِ بالأئمّة من بعدي، فإنّهم عترتي، خُلقوا من طينتي ورُزقوا فهمًا وعلمًا. فويلٌ للمكذّبين من أمّتي، القاطعين فيهم صلتي! لا أنالهَم الله شفاعتي». ذكره صاحب «الحلية» أيضًا.

الخبر الثّالث عشر: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد في سريّةٍ وبعث عليًّا عليه السلام في سريّةٍ[1] أُخرى، وكلاهما إلى اليمن، وقال: «إن اجتمعتما فعليٌّ على النّاس، وإن افترقتما فكلّ واحدٍ منكما على جُنده». فاجتمعا وأغارا وسبَيا نساءً وأخَذا أموالًا وقتَلا ناسًا. وأخذ عليٌّ جاريةً فاختصّها لنفسه، فقال خالد لأربعة من المسلمين، منهم بُريدة الأسلميّ: اسبقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فاذكروا له كذا، واذكروا له كذا، لأُمورٍ عدّدها على عليّ. فسبقوا إليه فجاء واحدٌ من جانبه فقال: إنّ عليًّا فعَل كذا، فأعرض عنه. فجاء الآخر من الجانب الآخر فقال: إنّ عليًّا فعل كذا، فأعرض عنه. فجاء بُريدة الأسلميّ فقال: يارسول الله، إنّ عليًّا فعل ذلك فأخذ جاريةً لنفسه. فغضب صلى الله عليه وآله حتّى احمرّ وجهه وقال: «دَعوا لي عليًّا!»، يكرّرها، «إنّ عليًّا منّي وأنا مِن عليّ، وإنّ حظّه في الخُمس أكثر ممّا أخذ. وهو وليّ كلّ مؤمنٍ من بعدي». رواه أبو عبد الله أحمد في «المسند» غير مرّةٍ، ورواه في كتاب فضائل عليّ، ورواه أكثر المحدّثين.

الخبر الرّابع عشر: «كنت أنا وعليٌّ نورًا بين يدي الله عزّ وجلّ قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام. فلمّا خلَق آدم قسَّم ذلك فيه وجعله جزأين، فجزءٌ أنا وجزء عليٌّ». رواه أحمد في «المسند» وفي كتاب فضائل عليّ عليه السلام، وذكره صاحب كتاب الفردوس وزاد فيه: «ثمّ انتقلنا حتّى صرنا في عبد المطّلب، فكان لي النّبوّة ولعليٍّ الوصيّة».

الخبر الخامس عشر: «النّظر إلى وجهك يا عليّ عبادة. أنت سيّدٌ في الدّنيا وسيّد في الآخرة. مَن أحبّك أحبّني، وحبيبي حبيب الله، وعدوّك عدوّي، وعدوّي عدوّ الله. الويل لمَن أبغضك!». رواه أحمد في «المسند»، قال: وكان ابن عبّاس يفسّره ويقول: إنّ مَن ينظر إليه يقول: سبحان الله، ما أعلمَ هذا الفتى! سبحان الله، ما أشجعَ هذا الفتى! سبحان الله، ما أفصحَ هذا الفتى!

١ـ السّريّة: قطعةٌ من الجيش.

الحديث السّادس عشر: لمّا كانت ليلة بدر، قال رسول الله ﷺ: «مَن يستقي لنا ماءً؟». فأحجم النّاس، فقام عليٌّ فاحتضن قربةً ثمّ أتى بئرًا بعيدة القَعْر مُظلِمةً، فانحدر فيها. فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل أن تأهَّبوا لنصْر محمّد وأخيه وحزبه، فهبطوا من السّماء. لهم لَغَطٌ يَذعَرُ مَن يسمعه، فلمّا حاذوا البئر سلّموا عليه مِن عند آخرهم إكرامًا له وإجلالًا. رواه أحمد في كتاب فضائل عليّ عليه السلام، وزاد فيه في طريق أُخرى عن أنس بن مالك: «لتؤتَيَنّ يا عليّ يوم القيامة بناقةٍ من نُوق الجَنّة فتركبها وركْبتك مع ركْبتي وفَخِذك مع فخذي حتّى تدخل الجنّة».

الحديث السّابع عشر: خطَب ﷺ النّاس يوم جمعة فقال: «أيّها النّاس، قدِّموا قريشًا ولا تقدّموها، وتعلّموا منها ولا تعلِّموها، قوّة رجلٍ من قريش تعدِل قوّة رجلَيْن من غيرهم، وأمانة رجل من قريش تعدل أمانة رجلَيْن من غيرهم. أيّها النّاس، أُوصيكم بحبّ ذي قرباها أخي وابن عمّي عليّ بن أبي طالب. لا يحبّه إلّا مؤمن ولا يبغضه إلّا منافق. مَن أحبّه فقد أحبّني، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني عذّبه الله بالنّار». رواه أحمد رضي الله عنه في كتاب فضائل عليّ عليه السلام.

الحديث الثّامن عشر: الصِّدّيقون ثلاثة: «حبيب النّجّار الّذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ومؤمن آل فرعون الّذي كان يكتم إيمانَه، وعليّ بن أبي طالب وهو أفضلهم». رواه أحمد في كتاب فضائل عليّ عليه السلام.

الحديث التّاسع عشر: «أُعطيتُ في عليٍّ خمسًا هُنَّ أحبُّ إليّ من الدّنيا وما فيها؛ أمّا واحدة: فهو كابٍ[1] بين يدي الله عزّوجلّ حتّى يفرغ من حساب الخلائق. وأمّا الثّانية: فلواء الحمد بيده، آدم ومَن ولد تحته. وأمّا الثّالثة: فواقف على عَقْر[2] حوضي، يسقي مَن عرف من أُمّتي. وأمّا الرّابعة: فساتر عورتي ومسلمي إلى ربّي. وأمّا الخامسة:

---

١ ـ أي منكبّ على وجهه أي خاضع خاشع.

٢ ـ العَقر: مؤخّر الحوض حيث تقف الإبل.

فإنّي لستُ أخشى عليه أن يعود كافرًا بعد إيمان ولا زانيًا بعد إحصان». رواه أحمد في كتاب الفضائل.

الحديث العشرون: كانت لجماعةٍ من الصّحابة أبواب شارعة في مسجد الرّسول صلى الله عليه وآله، فقال عليه الصّلاة والسّلام يومًا: «سدّوا كلّ باب في المسجد إلّا باب عليّ». فسدّت، فقال في ذلك قومٌ حتّى بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله فقام فيهم فقال: «إنّ قومًا قالوا في سدّ الأبواب وتركي باب عليّ. إنّي ما سددتُ ولا فتحت، ولكنّي أُمِرتُ بأمرٍ فاتّبعتُه». رواه أحمد في «المسند» مرارًا وفي كتاب الفضائل.

الحديث الحادي والعشرون: دعا صلى الله عليه وآله عليًّا في غزاة الطّائف فانتجاه وأطال نجواه حتّى كَرِه قوم من الصّحابة ذلك، فقال قائل منهم: لقد أطال اليوم نجوى ابن عمّه. فبلغه عليه الصّلاة والسّلام ذلك فجمع منهم قومًا ثمّ قال: «إنّ قائلًا قال: لقد أطال اليوم نجوى ابن عمّه. أما إنّي ما انتجيتُه، ولكنّ الله انتجاه». رواه أحمد رحمه الله في «المسند».

الحديث الثّاني والعشرون: «أخصِمك[1] يا عليّ بالنّبوّة فلا نبوّة بعدي، وتخصِم النّاس بسبعٍ لا يجاحد فيها أحدٌ من قريش: أنت أوّلهم إيمانًا بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسّويّة، وأعدلهم في الرّعيّة، وأبصرهم بالقضيّة، وأعظمهم عند الله مزيّة». رواه أبو نعيم الحافظ في «حلية الأولياء».

الخبر الثّالث والعشرون: قالت فاطمة: إنّك زوّجتَني فقيرًا لا مال له، فقال: زوّجتُك أقدمهم سِلمًا، وأعظمهم حِلمًا، وأكثرهم عِلمًا! ألا تعلمين أنّ الله اطّلع إلى الأرض اطّلاعةً فاختار منها أباكِ، ثمّ اطّلع إليها ثانيةً فاختار منها بعلكِ». رواه أحمد في «المسند».

الحديث الرّابع والعشرون: لمّا أنزل ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ بعد انصرافه عليه السلام من غزاة حُنين، جعل يكثر من «سبحان الله! أستغفر الله»، ثمّ قال: «يا عليّ، إنّه قد جاء

١ـ أخصمك: أغلبك.

ما وعدتُ به؛ جاء الفتح ودخل النّاس في دين الله أفواجًا، وإنّه ليس أحدٌ أحقّ منك بمقامي لِقدَمك في الإسلام وقربك منّي وصهرِك وعندك سيّدة نساء العالمين. وقبل ذلك ما كان من بلاء أبي طالب عندي حين نزل القرآن، فأنا حريصٌ علَى أن أُراعي ذلك لولده». رواه أبو إسحاق الثّعلبيّ في «تفسير القرآن».

واعلمْ أنّا إنّما ذكرنا هذه الأخبار هاهنا، لأنّ كثيرًا من المنحرفين عنه ﷺ إذا مَرّوا علَى كلامه في «نهج البلاغة» وغيره، المتضمّن التّحدّث بنعمة الله عليه مِن اختصاص الرّسول له ﷺ وتميّزه إيّاه عن غيره، ينسبونه إلى التّيه والزّهْو والفخر. ولقد سبقهم بذلك قومٌ من الصّحابة، قيل لعمر: وَلّ عليًّا أمر الجيش والحرب، فقال: هو أتْيَهُ من ذلك! وقال زيد بن ثابت: ما رأينا أزهَى من عليٍّ وأُسامة!

فأردنا بإيراد هذه الأخبار هاهنا عند تفسير قوله: «نحن الشِّعار والأصحاب ونحن الخزنة والأبواب» أن ننبّه علَى عِظَم منزلته عند الرّسول ﷺ، وأنّ مَن قيل في حقّه ما قيل، لَوْ رَقِي إلى السّماء وعَرج في الهواء وفَخر على الملائكة والأنبياء تعظّمًا وتبجّحًا، لم يكن ملومًا بل كان بذلك جديرًا.

فكيف وهو ﷺ لم يسلك قطّ مسلك التّعظّم والتّكبّر في شيء من أقواله ولا من أفعاله، وكان ألطف البشر خُلقًا وأكرمهم طبعًا وأشدّهم تواضعًا وأكثرهم احتمالًا وأحسنهم بِشْرًا وأطلقهم وجهًا، حتّى نسبه مَن نسبه إلى الدّعابة والمزاح، وهما خُلقان ينافيان التّكبّر والاستطالة.

وإنّما كان يذكر أحيانًا ما يذكره من هذا النّوع، نَفْثَة مصدُورٍ وشكوى مكروبٍ وتنفّس مهمومٍ، ولا يقصِد به إذا ذكره إلّا شكر النّعمة وتنبيه الغافل علَى ما خصّه الله به من الفضيلة، فإنّ ذلك من باب الأمر بالمعروف، والحضّ على اعتقاد الحقّ والصّواب في أمره والنّهي عن المنكر الّذي هو تقديم غيره عليه في الفضل. فقد نهى

الله سبحانه عن ذلك فقال: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]. (٩: ١٦٤ـ ١٧٥)

(الخطبة: ٢٤٠) ومن كلام له عليه السلام اقتصّ فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النّبيّ صلى الله عليه وآله ثمّ لحاقه به:

فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَأْخَذَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، فَأَطَأُ ذِكْرَهُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرْجِ.

الشّرح: .... قال محمّد بن إسحاق في كتاب «المغازي»: قال لم يُعلِم رسولُ الله صلى الله عليه وآله أحدًا من المسلمين ما كان عزم عليه من الهجرة إلّا عليّ بن أبي طالب وأبا بكر بن أبي قحافة. أمّا عليٌّ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بخروجه وأمره أن يبيت على فراشه، يخادِع المشركين عنه ليَرَوْا أنّه لم يبرحْ فلا يطلبوه، حتّى تبعُد المسافة بينهم وبينه، وأن يتخلّف بعده بمكّة حتّى يؤدّي عن رسول الله صلى الله عليه وآله الودائع الّتي عنده للنّاس، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله استودَعه رجالٌ من مكّة ودائعَ لهم لِما يعرفونه من أمانته. وأمّا أبو بكر فخرج معه.

وسألتُ النّقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد الحسنيّ رحمه الله فقلت: إذا كانت قريش قد محصتْ رأيها وألقى إليها إبليس ـ كما رُوي ـ ذلك الرّأي، وهو أن يضربوه بأسيافٍ من أيدي جماعة من بطونٍ مختلفة، ليضيع دمُه في بطون قريش فلا تطلبه بنو عبد مناف، فلماذا انتظروا به تلك اللّيلة الصّبح؟ فإنّ الرّواية جاءت بأنّهم كانوا تسوّروا الدّار، فعاينوا فيها شخصًا مسجًّى بالبُرْد الحضْرميّ الأخضر، فلم يشكّوا أنّه هو، فرصدوه إلى أن أصبحوا، فوجدوه عليًّا. وهذا طريفٌ، لأنّهم كانوا قد أجمعوا على قتله تلك اللّيلة، فما بالهم لم يقتلوا ذلك الشّخص المسجّى، وانتظارهم به النّهار دليلٌ على أنّهم لم يكونوا أرادوا قتله تلك اللّيلة؟

فقال في الجواب: لقد كانوا همُّوا من النّهار بقتله تلك اللّيلة، وكان إجماعهم على ذلك وعزمهم في حَقْنه من بني عبد مناف، لأنّ الّذين محصوا هذا الرّأي واتّفقوا عليه:

١ـ المائدة/ ٥٤.

النّضْر بن الحارث من بني عبد الدّار، وأبو البخْتريّ بن هشام، وحكيم بن حزام، وزَمْعة بن الأسود بن المطّلب؛ هؤلاء الثّلاثة من بني أسد بن عبد العُزّى، وأبو جهل ابن هشام، وأخوه الحارث، وخالد بن الوليد بن المغيرة، هؤلاء الثّلاثة من بني مخزوم، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج، وعمرو بن العاص؛ هؤلاء الثّلاثة من بني سَهْم، وأميّة بن خلَف وأخوه أُبيّ بن خلَف، هذان من بني جُمَح.

فنَما هذا الخبرُ من اللّيل إلى عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس، فلقي منهم قومًا فنهاهم عنه وقال: إنّ بني عبد مناف لا تمسِك عن دمه، ولكن صَفِّدوه في الحديد واحبسوه في دارٍ من دوركم وتربَّصوا به أن يصيبه من الموت ما أصاب أمثاله من الشّعراء. وكان عتْبة بن ربيعة سيّد بني عبد شمس ورئيسهم، وهم من بني عبد مناف، وبنو عمّ الرّجل ورهطُه.

فأحجم أبو جهل وأصحابُه تلك اللّيلة عن قتلها إحجامًا، ثمّ تسوّروا عليه وهم يظنّونه في الدّار. فلمّا رأوا إنسانًا مسجًّى بالبُرْد الأخضر الحضرميّ لم يشكّوا أنّه هو، وائتمروا في قتله، فكان أبو جهل يذمُرهم[1] عليه فيهمّون ثمّ يحجمون. ثمّ قال بعضهم لبعض: ارمُوه بالحجارة، فرموْه، فجعل عليٌّ يتضوّر منها ويتقلّب ويتأوّه تأوُّهًا خفيفًا.

فلم يزالوا كذلك في إقدام عليه وإحجام عنه، لِما يريده الله تعالى من سلامته ونجاته، حتّى أصبح وهو وقيذٌ[2] مِن رمي الحجارة. ولو لم يخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة وأقام بينهم بمكّة ولم يقتلوه تلك اللّيلة، لقَتلوه في اللّيلة الّتي تلِيها، وإنْ شبّت الحرب بينهم وبين عبد مناف، فإنّ أبا جهل لم يكن بالّذي ليمسِك عن قتله، وكان فاقدَ البصيرة، شديدَ العزم على الولوغ في دمه!

قلت للنّقيب: أ فعَلم رسول الله ﷺ وعليٌّ عليه السلام بما كان مِن نهي عُتْبة لهم؟ قال: لا، إنّهما لم يَعلما ذلك تلك اللّيلة، وإنّما عرفاه من بعد. ولقد قال رسول الله ﷺ يوم بدر

١ـ يذمُرهم: يحضّهم.

٢ـ الوَقيذ: المُشرف على الهلاك.

لمّا رأى عتبةَ وما كان منه: «إن يكن في القوم خيرٌ ففي صاحب الجمل الأحمر». ولو قدّرنا أنّ عليًّا عليه السلام علم ما قال لهم عتبة لم يسقط ذلك فضيلتَه في المبيت، لأنّه لم يكن على ثقةٍ من أنّهم يقبلون قول عتبة، بل كان ظنُّ الهلاك والقتل أغلبَ.

وأمّا حال عليّ عليه السلام، فلمّا أدّى الودائع خرج بعد ثلاثٍ من هجرة النّبيّ صلى الله عليه وآله فجاء إلى المدينة راجلًا قد تورّمتْ قَدَماه، فصادف رسولَ الله صلى الله عليه وآله نازلًا بقُباء على كُلثوم بن الهدْم، فنزل معه في منزله. وكان أبو بكر نازلًا بقباء أيضًا في منزل حبيب بن يساف، ثمّ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهما معه من قباء، حتّى نزل بالمدينة على أبي أيّوب خالد بن يزيد الأنصاريّ، وابتنى المسجد. (١٣: ٣٠٣ـ٣٠٦)

(الخطبة: ١٩٠) وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، أَنِّي لَمْ أُرِدَّ عَلَى اللهِ وَلا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ، وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ الأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا ... .

الشّرح: ... والظّاهر أنّه يرمز في قوله عليه السلام: «لم أرُدّ على الله ولا على رسوله ساعةً قطّ» إلى أمور وقعتْ من غيره، كما جرى يوم الحديبيّة عند سطْر كتاب الصّلح؛ فإنّ بعض الصّحابة[1] أنكر ذلك وقال: يا رسول الله، ألسنا المسلمين؟ قال: بلى. قال: أ وليسوا الكافرين؟ قال: بلى. قال: فكيف نعطي الدّنيّة في ديننا! فقال صلى الله عليه وآله: «إنّما أعمل بما أُومَر به». فقام فقال لقوم من الصّحابة: ألم يكن قد وعدَنا بدخول مكّة! وها نحن قد صُدِدنا عنها ثمّ ننصرف بعد أن أعطينا الدّنيّة في ديننا. والله لو أجد أعوانًا لم أعط الدّنيّة أبدًا.

فقال أبو بكر لهذا القائل: ويحك! الزَمْ غَرْزه[2]، فوالله إنّه لرَسول الله صلى الله عليه وآله وإنّ الله لا يضيّعه. ثمّ قال له: أ قال لك إنّه سيدخلها هذا العام؟ قال: لا. قال: فسيدخلها. فلمّا فتح النّبيّ صلى الله عليه وآله مكّة وأخذ مفاتيح الكعبة، دعاه فقال: هذا الّذي وُعدتم به.

١ـ هو عمر بن الخطّاب. وانظر سيرة ابن هشام ٣: ٣٣١ (طبعة الحلبيّ).

٢ـ الغرْز في الأصل: ركاب كور الجمل، والكلام هنا على المجاز، أي أتبعْ قوله وفعله.

واعلم أنّ هذا الخبر صحيحٌ لا ريب فيه والنّاس كلّهم رووْه، وليس عندي بقبيح ولا مستهجَنٍ أن يكون سؤال هذا الشّخص لرسول الله ﷺ عمّا سأله عنه على سبيل الاسترشاد والتماسًا لطُمأنينة النّفس. فقد قال الله تعالى لخليله إبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1].

وقد كانت الصّحابة تراجِع رسول الله ﷺ في الأُمور وتسأله عمّا يستبهِمُ عليها وتقول له: أ هذا منك أم من الله؟ وقال له السَّعْدان[2] رضي الله عنهما يوم الخندق، وقد عزم على مصالحة الأحزاب ببعْض تمْر المدينة: أ هذا مِن الله أم رأيٌ رأيتَه من نفسك؟ قال: بل من نفسي. قالا: لا، واللهِ لا نعطيهم منها تمرةً واحدة وأيدينا في مقابض سيوفنا! وقالت الأنصار له يوم بدر، وقد نزل بمنزلٍ لم يستصلحوه: أ نزلتَ هذا المنزل عن رأيٍ رأيتَ أم بوحيٍ أُوحِي إليك؟ قال: بل عن رأيٍ رأيتُه. قالوا: إنّه ليس لنا بمنزلٍ، ارحلْ عنه فانزلْ بموضع كذا.

وأمّا قول أبي بكر له: «الزَمْ غَرْزه، فو الله إنّه لرسول الله ﷺ» فإنّما هو تأكيد وتثبيت على عقيدته الّتي في قلبه ولا يدلّ ذلك على الشّكّ. فقد قال الله تعالى لنبيّه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[3]. وكلّ أحدٍ لا يستغني عن زيادة اليقين والطّمأنينة.

وقد كانت وقعت من هذا القائل أُمورٌ دون هذه القصّة كقوله: دعْني أضرب عُنق أبي سفيان، وقوله: دَعْني أضرب عُنق عبد الله بن أُبيّ، وقوله: دَعْني أضرب عُنق حاطب بن أبي بَلْتعة ونَهْي النّبيّ ﷺ عن التّسرّع إلى ذلك، وجذبه ثوب رسول الله ﷺ حين قام على جنازة ابن سَلُول يصلّي وقوله: كيف تستغفر لرأس المنافقين! وليس في ذلك جميعه ما يدلّ على وقوع القبيح منه، وإنّما الرّجل كان مطبوعًا على

١ـ البقرة/ ٢٦١.

٢ـ هما سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة الأنصاريّان.

٣ـ الإسراء/ ٧٤.

السّدّة والشّراسة والخشونة، وكان يقول ما يقول على مقتضى السّجيّة الّتي طبع عليها. وعلى أيّ حال كان، فلقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيرًا كثيرًا.

قوله عليه السلام: «ولقد واسيتُه بنفسي»، يقال: واسيته وآسيته، وبالهمزة أفصح، وهذا ممّا اختصّ عليه السلام بفضيلته غير مدافَع؛ ثبت معه يوم أُحُد وفرّ النّاس، وثبت معه يوم حُنين وفرّ النّاس، وثبت تحت رايته يوم خَيبر حتّى فتحها وفرّ مَن كان بعث بها من قبله.

وروى المحدّثون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا ارْثُثَّ[1] يوم أُحُد، قال النّاس: قُتل محمّد. رأته كَتيبةٌ من المشركين وهو صريعٌ بين القتلى إلّا أنّه حيٌّ، فصمَدتْ له. فقال لعليّ عليه السلام: اكفني هذه. فحمل عليها وقتل رئيسها. ثمّ صمَدتْ له كتيبةٌ أُخرى، فقال: يا عليّ اكفني هذه، فحمل عليها فهزمها وقتل رئيسها. ثمّ صمَدت له كتيبةٌ ثالثة، فكذلك. فكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك يقول: قال لي جبريل: يا محمّد، إنّ هذه لَلْمواساة، فقلت: وما يمنعه وهو منّي وأنا منه! فقال جبريل: وأنا منكما.

وروى المحدّثون أيضًا أنّ المسلمين سمعوا ذلك اليوم صائحًا من جهة السّماء ينادي: «لا سيف إلّا ذو الفَقار، ولا فتى إلّا عليّ»، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لمَن حضره: «ألا تسمعون! هذا صوت جبريل».

وأمّا يوم حُنين فثبت معه في نفرٍ يسيرٍ من بني هاشم، بعد أن ولّى المسلمون الأدبار، وحامَى عنه وقتَل قومًا من هوازن بين يديه حتّى ثابَت إليه الأنصار وانهزمتْ هوازن وغنمتْ أموالها. وأمّا يوم خَيبر فقصّته مشهورة. (١٠: ١٨٠ ـ ١٨٢)

(كتابه: ٢٨) ... أَلا تَرَى ـ غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أُحَدِّثُ ـ أَنَّ قَوْمًا اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ! أَوَلا تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا كَمَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ، قِيلَ: الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ!

---

١ ـ ارثُثَّ: حمل من المعركة جريحًا وفيه رمق.

... قوله عليه السلام: «إنّ قومًا استُشهدوا في سبيل الله»، المراد هاهنا سيّد الشّهداء حمزة رضي الله عنه. وينبغي أن يُحمَل قول النّبيّ صلى الله عليه وآله فيه إنّه سيّد الشّهداء على أنّه سيّد الشّهداء في حياة النّبيّ صلى الله عليه وآله لأنّ عليًّا عليه السلام مات شهيدًا. ولا يجوز أن يقال: حمزة سيّده، بل هو سيّد المسلمين كلّهم. ولا خلاف بين أصحابنا رحمهم الله أنّه أفضل من حمزة وجعفر رضي الله عنهما، وقد تقدّم ذكر التّكبير الّذي كبّره رسول الله صلى الله عليه وآله على حمزة في قصّة أُحُد.

قوله عليه السلام: «ولكلٍّ فضْلٌ»، أي ولكلّ واحدٍ من هؤلاء فضلٌ لا يُجحَد. قوله: «أ ولا ترى أنّ قومًا قُطّعت أيديهم»، هذا إشارة إلى جعفر، وقد تقدّم ذلك في قصّة مُؤْتة. (١٥: ١٩٣)

(الحكمة: ٣٢٢) أَنَا يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَ الْمَالُ يَعْسُوبُ الْفُجَّارِ.

وقال [الرّضيّ]: مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ المؤمِنِينَ يَتْبَعُونَنِي والْفُجَّار يَتْبَعُونَ المَالَ؛ كما تَتْبَعُ النَّحْلُ يَعْسُوبَها، وَهُوَ رَئِيسُها.

الشّرح: هذه كلمةٌ قالها رسول الله صلى الله عليه وآله بلفظيْن مختلفين؛ تارةً: «أنت يعسوب الدّين» وتارةً: «أنت يعسوب المؤمنين»، والكلّ راجعٌ إلى معنًى واحد، كأنّه جعله رئيس المؤمنين وسيّدهم، أو جعل الدّين يتبعه ويَقفو أثرَه حيث سلك كما يتبع النّحلُ اليعسوبَ. وهذا نحو قوله: «وأدِر الحقَّ معه كيف دارَ». (١٩: ٢٢٤)

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان مخصوصًا من دون الصّحابة رضوان الله عليهم بخلواتٍ كان يخلو بها مع رسول الله صلى الله عليه وآله لا يطّلع أحدٌ من النّاس على ما يدور بينهما، وكان كثيرَ السّؤال للنّبيّ صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن وعن معاني كلامه صلى الله عليه وآله، وإذا لم يسأَل ابتدأه النّبيّ صلى الله عليه وآله بالتّعليم والتّثقيف.

ولم يكن أحدٌ من أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وآله كذلك، بل كانوا أقسامًا: فمنهم مَن يهابه أن يسأله وهم الّذين يحبّون أن يجيء الأعرابيّ أو الطّارئ فيسأله وهم يسمعون، ومنهم مَن كان بليدًا بعيد الفهم قليل الهمّة في النّظر والبحث، ومنهم مَن كان مشغولًا عن طلب العلم وفهم المعاني إمّا بعبادةٍ أو دنيا، ومنهم المقلّد الّذي يرى أنّ فرضه

السّكوت وترك السّؤال، ومنهم المبغض الشّانئ الّذي ليس للدّين عنده من الموقع ما يضيّع وقته وزمانه بالسّؤال عن دقائقه وغوامضه.

وانضاف إلى الأمر الخاصّ بعليّ عليه السلام ذكاؤه وفطنته وطهارة طينته وإشراق نفسه وضوءها، وإذا كان المحلّ قابلًا متهيّئًا وكان الفاعل المؤثّر موجودًا والموانع مرتفعةً حصل الأثر على أتمّ ما يمكن؛ فلذلك كان عليٌّ عليه السلام ـ كما قال الحسن البصريّ ـ ربّانيّ هذه الأُمّة وذا فضلها، ولذا تسمّيه الفلاسفة إمام الأئمّة وحكيم العرب. (١١: ٤٨)

ولم تحصل العدالة الكاملة لأحدٍ من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا لهذا الرّجل، ومَن أنصف عَلِم صحّة ذلك، فإنّ شجاعته وجوده وعفّته وقناعته وزهده يُضرب بها الأمثال.

وأمّا الحكمة والبحث في الأُمور الإلهيّة فلم يكن من فنّ أحد من العرب ولا نُقل في جهاد أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلًا. وهذا فنٌّ كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به.

وأوّل مَن خاض فيه من العرب عليّ عليه السلام، ولهذا تجدُ المباحث الدّقيقة في التّوحيد والعدل، مبثوثةً عنه في فرش كلامه وخطبه، ولا تجد في كلام أحدٍ من الصّحابة والتّابعين كلمةً واحدة من ذلك ولا يتصوّرونه. ولو فُهّموه لم يفهموه وأنّى للعرب ذلك!

ولهذا انتسب المتكلّمون الّذين لججوا في بحار المعقولات، إليه خاصّةً دون غيره وسمَّوْه أُستاذَهم ورئيسهم، واجتذبتْه كلُّ فرقةٍ من الفرق إلى نفسها.

ألا تَرى أنّ أصحابنا يَنتَمون إلى واصل بن عطاء، وواصل تلميذ أبي هاشم بن محمّد بن الحنفيّة، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمّد، ومحمّد تلميذ أبيه عليّ عليه السلام.

فأمّا الشّيعة من الإماميّة والزّيديّة والكيسانيّة فانتماؤهم إليه ظاهر. وأمّا الأشعريّة فإنّهم بأخَرَةٍ ينتمون إليه أيضًا لأنّ أبا الحسن الأشعريّ تلميذ شيخنا أبي عليّ رحمه الله تعالى، وأبو عليّ تلميذ أبي يعقوب الشّحّام، وأبو يعقوب تلميذ أبي الهذيل، وأبو الهذيل تلميذ أبي عثمان الطّويل، وأبو عثمان الطّويل تلميذ واصل بن عطاء، فعاد الأمر إلى أنّ الأشعريّة إلى عليّ عليه السلام.

وأمّا الكَرّاميّة فإنّ ابن الهيصم ذكر في كتاب «المقالات» أنّ أصل مقالتهم وعقيدتهم تنتهي إلى عليّ عليه السلام من طريقيْن:

أحدهما: بأنّهم يُسنِدون اعتقادهم عن شيخٍ بعد شيخ، إلى أن ينتهي إلى سفيان الثّوريّ، ثمّ قال: وسفيان الثّوريّ من الزّيديّة، ثمّ سأل نفسه فقال: إذا كان شيخكم الأكبر الّذي تنتمون إليه كان زيديًّا، فما بالكم لا تكونون زيديّة؟

وأجاب بأنّ سفيان الثّوريّ رحمه الله تعالى، وإن اشتهر عنه الزّيديّة إلّا أنّ تزيُّده إنّما كان عبارةً عن موالاة أهل البيت وإنكار ما كان بنو أُميّة عليه من الظّلم، وإجلال زيد بن عليّ وتعظيمه، وتصوينه في أحكامه وأحواله، ولم ينقل عن سفيان الثّوريّ أنّه طعن في أحد من الصّحابة.

الطّريق الثّاني: أنّه عدّ مشايخهم واحدًا فواحدًا حتّى انتهى إلى علماء الكوفة من أصحاب عليّ، كسلمة بن كهيل، وحُبّة العُرنيّ، وسالم بن أبي الجعْد، والفضل بن دُكَين، وشعبة، والأعمش، وعلقمة، وهبيرة بن مريم، وأبي إسحاق الشّعبيّ، وغيرهم، ثمّ قال: وهؤلاء أخذوا العلم من عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فهو رئيس الجماعة ـ يعني أصحابه ـ وأقوالهم منقولة عنه ومأخوذة منه.

وأمّا الخوارج فانتماؤهم إليه ظاهرٌ أيضًا مع طعنهم فيه، لأنّهم كانوا أصحابه وعنه مَرَقوا بعد أن تعلّموا عنه واقتبسوا منه، وهم شيعته وأنصاره بالجمل وصفّين، ولكنّ الشّيطان ران على قلوبهم وأعمى بصائرهم. (٦: ٣٧٠ـ٣٧٢)

[مناقب عليّ عليه السلام و ذكر طُرَف من أخباره في عدله و زهده]

روى عليّ بن محمّد بن أبي يوسف المدائنيّ عن فضيل بن الجَعْد، قال: آكدُ الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمْر المال؛ فإنّه لم يكن يُفضِّل شريفًا على مشروف، ولا عربيًّا على عجميّ، ولا يُصانع الرّؤساء وأُمراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحدًا إلى نفسه. وكان معاوية بخلاف ذلك، فترك النّاس عليًّا والتحقوا بمعاوية.

فشكى عليّ عليه السلام إلى الأشتر تخاذُلَ أصحابه وفرار بعضهم إلى معاوية، فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين، إنّا قاتلْنا أهل البصرة بأهلِ البصرة وأهل الكوفة، ورأيُ النّاس واحدٌ، وقد اختلفوا بعد وتعادَوْا وضعفت النّيّة وقلّ العدد.

وأنت تأخُذُهم بالعدل وتعمل فيهم بالحقّ وتُنصِف الوضيع من الشّريف، فليس للشّريف عندك فضلُ منزلةٍ على الوضيع، فضجّت طائفةٌ ممّن معك من الحقّ إذ عُمُّوا به، واغتمُّوا من العدل إذ صاروا فيه.

ورأوا صنائعَ معاوية عند أهل الغَناء والشّرف، فتاقَتْ أنفُس النّاس إلى الدّنيا، وقَلّ مَن ليس للدّنيا بصاحب، وأكثرهم يَحتوي الحقّ ويشتري الباطل ويؤثر الدّنيا.

فإن تَبذُل المال يا أمير المؤمنين تَمِلْ إليك أعناقُ الرّجال، وتَصْف نصيحتُهم لك، وتَستخلِصْ وُدّهم؛ صنع الله لك يا أمير المؤمنين! وكبَت أعداءك وفضّ جمعهم وأوهن كيدَهم وشَتّت أُمورَهم، إنّه بما يعملون خبير.

فقال عليّ عليه السلام: أمّا ما ذكرتَ مِن عملنا وسيرتنا بالعدل، فإنّ الله عزّوجلّ يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1]؛ وأنا من أن أكون مُقصِّرًا فيما ذكرتَ أخْوَفُ.

وأمّا ما ذكرتَ مِن أنّ الحقّ ثقُل عليهم ففارَقونا لذلك، فقد علم الله أنّهم لم يُفارِقونا من جورٍ، ولا لجأوا إذ فارَقونا إلى عدلٍ، ولم يلتمسوا إلّا دنيا زائلة عنهم كان قد فارَقوها، ولَيُسأَلُنّ يوم القيامة: أ للدّنيا أرادوا أم لله عملوا؟

وأمّا ما ذكرتَ مِن بذل الأموال واصطناع الرّجال، فإنّه لا يَسعُنا أن نؤتي امْرَأً من الفيْء أكثر مِن حقّه، وقد قال الله سبحانه وتعالى وقوله الحق: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

١ـ فصّلت/ ٤٦.

٢ـ البقرة/ ٢٤٩.

وقد بعث الله محمّدًا صلّى الله عليه وحده، فكثّره بعد القلّة، وأعزّ فئته بعد الذّلّة. وإن يُرِد الله أن يولِيَنا هذا الأمرَ يُذلِّل لنا صَعْبه ويُسهّل لنا حَزْنه. وأنا قابلٌ مِن رأيك ما كان لله عزّوجلّ رضا، وأنت مِن آمَنِ النّاس عندي، وأنصَحِهم لي، وأوثَقِهم في نفسي إن شاء الله.

وذكر الشّعبيّ، قال: دخلت الرّحبة بالكوفة ـ وأنا غلام ـ في غلمان، فإذا أنا بعليّ عليه السلام قائمًا على صُبرتين[1] من ذهب وفضّة، ومعه مِخْفَقَة، وهو يطرد النّاس بِمِخْفَقته ثمّ يرجع إلى المال فيقسّمه بين النّاس حتّى لم يبق منه شيء.

ثمّ انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلًا ولا كثيرًا. فرجعتُ إلى أبي فقلت له: لقد رأيتُ اليوم خيرالنّاس أو أحمق النّاس. قال: مَن هو يا بنيّ؟ قلت: عليّ بن أبي طالب أميرالمؤمنين، رأيتُه يصنع كذا، فقصصتُ عليه فبكَى وقال: يا بنيّ، بل رأيتَ خير النّاس.

وروى محمّد بن فُضَيل عن هارون بن عنترة، عن زاذان، قال: انطلقتُ مع قَنبر غلام عليّ عليه السلام، فإذا هو يقول: قم يا أميرالمؤمنين، فقد خَبَأتُ لك خبيئًا. قال: وما هو، ويحك!

قال: قم معي. فانطلق به إلى بيته، وإذا بغرَارة مملوءة من جَامَاتٍ ذهبًا وفضّة. فقال: يا أميرالمؤمنين، رأيتُك لا تترك شيئًا إلا قسَمتَه، فادّخرتُ لك هذا من بيت المال. فقال عليّ عليه السلام: ويحك يا قنبر! لقد أحببتَ أن تُدخِل بيتي نارًا عظيمة.

ثمّ سلّ سيفَه وضربه ضرَبات كثيرة. فانتثرتْ من بين إناء مقطوع نصفه وآخر ثلثه ونحو ذلك، ثمّ دعا بالنّاس فقال: اقسِموه بالحصَص.

ثمّ قام إلى بيت المال فقسّم ما وَجد فيه، ثمّ رأى في البيت إبَرًا ومَسالّ فقال: وَلْتَقسِموا هذا. فقالوا: لا حاجة لنا فيه، وقد كان عليّ عليه السلام يأخُذُ من كلّ عامل ممّا يَعمل، فضحك وقال: لَيُؤخَذنّ شَرُّه مع خيره.

١ـ الصُّبرة، بالضّمّ: ما جمع من الطّعام بلا كيل ولا وزن.

وروى عبد الرّحمن بن عَجْلان، قال: كانَ عليّ عليه السلام يَقسِم بين النّاس الأبزارَ والحُرْف[1] والكمُّون وكذا وكذا.

وروى مجمع التّيميّ، قال: كان عليّ عليه السلام يكنُس بيتَ المال كلّ جُمعة، ويصلّي فيه ركعتين ويقول: ليشهَدْ لي يوم القيامة.

وروى بكر بن عيسى عن عاصم بن كُلَيب الجَرْميّ، عن أبيه، قال: شهدتُ عليًّا عليه السلام وقد جاءه مال من الجبل. فقام وقمنا معه وجاء النّاس يزدحمون، فأخذ حِبالًا فوصلها بيده وعقَد بعضها إلى بعض ثمّ أدارَها حول المال وقال: لا أحِلّ لأحدٍ أن يجاوز هذا الحبْل.

قال: فقعد النّاس كلّهم من وراء الحبل، ودخل هو فقال: أين رءوس الأسباع؟ وكانت الكوفة يومئذ أسباعًا ـ فجعلوا يحمِلون هذه الجُوالق إلى هذه الجُوالق، وهذا إلى هذا، حتّى استوت القِسمة سبعة أجزاء، و وجد مع المتاع رغيف، فقال: اكسروه سبْع كِسَر و ضعوا على كلّ جزءٍ كِسْرة، ثمّ قال:

هَـذَا جَنَـايَ وَخِيَـارُهُ فِيـه إذْ كُـلّ جَـانٍ يَـدُه إلَى فِيـه[2]

ثمّ أقرع عليها ودفعها إلى رءوس الأسباع، فجعل كلّ رجل منهم يدعو قومَه فيحملون الجَواليق.

وروى مُجَمِّع، عن أبي رَجاء، قال: أخرج عليّ عليه السلام سيفًا إلى السُّوق، فقال: مَن يشتري منّي هذا؟ فوالّذي نفسُ عليّ بيده، لو كان عندي ثمن إزار ما بعتُه.

فقلت له: أنا أبِيعُك إزارًا وأُنسؤُكَ ثمنَه إلى عطائك، فدفعت إليه إزارًا إلى عطائه، فلمّا قبض عطاءه دفع إليّ ثمن الإزار.

١ـ الحُرف، بالضّم: الخردل.

٢ـ البيت أنشده عمرو بن عديّ حينما كان غلامًا، وكان يخرج مع الخدم يجتنون للملك (جذيمة الأبرش) الكمأة؛ فكانوا إذا وجدوا كمأة خيارًا أكلوها وأتوا بالباقي إلى الملك، وكان عمرو لا يأكل منه، ويأتي به كما هو وينشد البيت. وانظر القاموس ٣: ٢٥٩ـ٢٦٠؛ وحديث عليّ ورد مفصّلًا في حلية الأولياء ١: ٨١.

وروى هارون بن سعيد، قال: قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لعليّ عليه السلام: يا أمير المؤمنين، لو أمرتَ لي بمعونةٍ أو نفقة! فوالله ما لي نفقة إلّا أن أبيعَ دابّتي. فقال: لا والله ما أجدُ لك شيئًا إلّا أن تأمُرَ عمّك أن يسرقَ فيعطيَك.

وروى بكر بن عيسى، قال: كان عليّ عليه السلام يقول: يا أهل الكوفة، إذا أنا خرجتُ من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فلان، فأنا خائنٌ.

فكانت نفقتُه تأتيه من غَلّته بالمدينة بينبُع، وكان يُطعم النّاس منها الخبز واللّحم، ويأكل هو التّريد بالزّيت.

وروى أبو إسحاق الهَمْدانيّ أنّ امرأتين أتَتا عليًّا عليه السلام، إحداهما من العرب والأُخرى من الموالي، فسألتاه فدفع إليهما دراهم وطعامًا بالسّواء.

فقالت إحداهما: إنّي امرأةٌ من العرب وهذه من العجم. فقال: إنّي والله لا أجدُ لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلًا على بني إسحاق.

وروى معاوية بن عمّار عن جعفر بن محمّد عليهما السلام، قال: ما اعتَلج على عليّ عليه السلام أمران في ذات الله، إلّا أخذ بأشدّهما، ولقد علمتم أنّه كان يأكل ـ يا أهل الكوفة ـ عندكم من ماله بالمدينة وأنْ كان ليأخذُ السَّويق فيجعلُه في جِرابٍ، ويختم عليه مخافة أن يُزاد عليه من غيره. ومَن كان أزهد في الدّنيا من عليّ عليه السلام!

وروى النَّضْر بن منصور، عن عُقْبة بن علقمة، قال: دخلتُ على عليّ عليه السلام، فإذا بين يديه لبنٌ حامض، آذتْني حُموضته، وكِسَرٌ يابسة.

فقلت: يا أمير المؤمنين، أ تأكلُ مثل هذا! فقال لي: يا أبا الجَنُوب، كان رسول الله يأكل أيْبَس من هذا، ويلبَس أخشن من هذا، وأشار إلى ثيابه، فإنْ أنا لم آخُذ بما آخَذ به خفتُ ألّا ألحق به.

وروى عمران بن مسلمة، عن سُوَيْد بن عَلقمة، قال: دخلت على عليّ عليه السلام بالكوفة، فإذا بين يديه قَعْب لبنٍ أجدُ ريحه من شدّة حموضته، وفي يده رغيف، ترى قُشار الشَّعير على وجهه، وهو يكسره، ويستعين أحيانًا برُكْبته، وإذا جاريتُه فِضّة قائمةٌ على رأسه.

فقلت: يا فضّة، أ ما تتّقون الله في هذا الشّيخ! ألا نخلْتُم دقيقه؟ فقالت: إنّا نكره أن نُؤْجَر ويأثم، نحن قد أخذ علينا ألّا ننخُل له دقيقًا ما صَحِبْناه ـ قال: وعليّ عليه السلام لا يسمع ما تقول. فالتفت إليها فقال: ما تقولين؟ قالت: سَلْه.

فقال لى: ما قلتَ لها؟ قال: فقلتُ إنّي قلت لها: لو نَخلْتُم دقيقه! فبكى ثمّ قال: بأبي وأُمّي مَن لم يشبع ثلاثًا متوالية [مِن] خبزبرّ حتّى فارَق الدّنيا ولم يَنْخُل دقيقه. قال: يعني رسول الله صلى الله عليه وآله.

وروى يوسف بن يعقوب، عن صالح بيّاع الأكسية، أنّ جَدَّته لقيتْ عليًّا عليه السلام بالكوفة، ومعه تمْرٌ يحمِله، فسلّمت عليه وقالت له: أعطِني يا أمير المؤمنين هذا التّمر أحمِلْه عنك إلى بيتك، فقال: أبو العيال أحقُّ بحمْله.

قالت: ثمّ قال لي: ألا تأكلين منه؟ فقلت: لا أُريد. قالت: فانطَلق به إلى منزله ثمّ رجع مُرتَديًا بتلك الشَّملة، وفيها قشور التّمر؛ فصلّى بالنّاس فيها الجمعة.

وروى محمّد بن فُضَيْل بن غَزْوَان، قال: قيل لعليّ عليه السلام: كم تتصدَّق! كم تُخْرِج مالك! ألا تُمسِك! قال: إنّي والله لو أعلم أنّ الله تعالى قَبِل منّي فرضًا واحدًا لأمسكت؛ ولكنّي والله ما أدري أ قبل منّي سبحانه شيئًا أم لا!

روى عَنبَسة العابد، عن عبد الله بن الحسين بن الحسن، قال: أعتق عليّ عليه السلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ألفَ مملوك ممّا مَجَلت[1] يداه وعرق جبينه، ولقد وَلِي الخلافةَ وأتته الأموال، فما كان حَلْواه إلّا التّمر، ولا ثيابه إلّا الكَرابيس.

وروى العوام بن حَوْشب، عن أبي صادق، قال: تزوّج عليّ عليه السلام ليلَى بنت مسعود النَّهشَليّة، فضربت له في داره حَجَلة، فجاء فهتكها وقال: حَسْبُ أهل عليٍّ ما هم فيه!

١ـ مَجَلت يده: عملت.

وروى حاتم بن إسمعيل المدنيّ، عن جعفر بن محمّد عليه السلام، قال: ابتاعَ عليّ عليه السلام في خلافته قميصًا سَمِلًا[1] بأربعة دراهم، ثمّ دعا الخيّاط، فمدَّ كُمَّ القميص، وأمره بقطع ما جاوز الأصابع.

وإنّما ذكرنا هذه الأخبار والرّوايات ـ وإن كانت خارجة عن مقصد الفصل ـ لأنّ الحال اقتضى ذكرها، من حيث أردنا أن نبيّن أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يكنْ يذهب في خلافته مذهَب الملوك الّذين يُصانعون بالأموال ويصرّفونها في مصالح ملكهم وملاذّ أنفسهم، وأنّه لم يكن من أهل الدّنيا وإنّما كان رجلًا متألّهًا صاحب حَقّ، لا يريد بالله ورسوله بدلًا.

وروى عليّ بن أبي سيف المدائنيّ أنّ طائفةً من أصحاب عليّ عليه السلام مَشوْا إليه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أعْطِ هذه الأموال وفضِّلْ هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستملْ مَن تخاف خلافَه من النّاس وفِراره، وإنّما قالوا له ذلك لمّا كان معاوية يَصنَع في المال.

فقال لهم: أ تأمُرونني أن أطلبَ النّصر بالجوْر. لا والله لا أفعلُ ما طلعت شمسٌ وما لاح في السّماء نجمٌ. والله لو كان المال لي لواسيتُ بينهم، فكيف وإنّما هي أموالهم. ثمّ سكت طويلًا واجمًا ثمّ قال: الأمر أسرعُ من ذلك. قالها ثلاثًا. (٢: ١٩٧ـ ٢٠٣)

(الخطبة: ١٦٣) ومن كلام له عليه السلام لبعض أصحابه، وقد سأله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به؟ فقال عليه السلام:

يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِينِ؛ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصِّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدِ اسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ ... .

... وإنّما قال عليه السلام له: «ولك بعد ذِمامة الصّهْر» لأنّ زينب بنت جَحش زوْج رسول الله صلى الله عليه وآله كانت أسديّة؛ وهي زينب بنت جحش بن رَباب بن يَعمَر بن صَبِرة بن مُرّة ابن كثير بن غَنْم بن دودان بن أسد بن خزيمة.

١ـ السَّمِل: الخَلَق من الثّياب.

وأُمّها أُميّة بنت عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف، فهي بنت عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله، والمصاهرة المشار إليها هي هذه.

ولم يفهم القطب الراونديّ ذلك، فقال في الشّرح: «كان أمير المؤمنين عليه السلام قد تزوّج في بنى أسد»، ولم يصِبْ، فإنّ عليًّا عليه السلام لم يتزوّج في بني أسد البتّة.

ونحن نذكر أولاده: أمّا الحسن والحسين وزينب الكبرى وأُمّ كلثوم الكُبرى، فأُمّهم فاطمة بنت سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

وأمّا محمّد فأُمّه خَوْلة بنت إياس[2] بن جعفر، من بني حَنيفة. وأمّا أبو بكر وعبد الله، فأُمّهما ليلى بنت مسعود النّهشليّة، من تميم.

وأمّا عمر ورقيّة فأُمّهما سَبِيَّة من بني تَغْلِب، يقال لها: الصَّهْباء، سُبِيت في خلافة أبي بكر وإمارة خالد بن الوليد بعيْن التَّمْر.

وأمّا يحيى وعون فأُمّهما أسماء بنت عُمَيس الخَثْعَمِيّة[3]. وأمّا جعفر والعبّاس وعبد الله وعبد الرّحمن[4] فأُمّهم أُمّ البنين بنت حِزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد من بني كِلاب.

وأمّا رملة وأُمّ الحسن فأُمّهما أُمّ سعيد بنت عروة بن مسعود الثّقفيّ، وأمّا أُمّ كلثوم الصّغرى وزينب الصّغرى وجُمانة وميمونة وخديجة وفاطمة وأُمّ الكرام ونفيسة وأُمّ سلَمة وأُمّ أبيها[5] وأمامة بنت عليّ عليه السلام فهنّ لأُمّهات أولاد شتّى.

فهؤلاء أولاده، وليس فيهم أحدٌ من أسديّة، ولا بلَغنا أنّه تزوَّج في بني أسد، ولم يولد له. ولكنّ الرّاونديّ يقول ما يخطر له ولا يحقّق. (٩: ٢٤٢ ـ ٢٤٣)

١ـ في التّاريخ الطّبريّ: «ويذكر أنّه كان لها منه ابن آخر يسمّى محسنًا، تُوُفّي صغيرًا».

٢ـ في نسب قريش: «خولة بنت جعفر بن قيس».

٣ـ في إحدى روايات الطّبريّ أنّه أعقب منها يحيى ومحمّدًا الأصغر.

٤ـ في الطّبريّ ونسب قريش: «وعثمان».

٥ـ كذا في الأُصول، ولم تذكر في الطّبريّ، وزاد: «أُمّ هانئ ورملة الصّغرى».

[علم الإمام عليه السلام]

(من كتابه: ٣١) ... أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِيما تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ وَالاهْتِمامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النّاس هَمُّ نَفْسِي ... .

... فإن قلت: أ فهذا الهمّ حدَث لأمير المؤمنين عليه السلام الآن، أو من قبل لم يكن عالمًا بأنّ الدّنيا مُدْبرةٌ، والآخرة مقبلةٌ؟

قلت: كلّا، بل لم يزل عالمًا عارفًا بذلك، ولكنّه الآن تأكّد وقوي بطريق علوّ السّنّ وضعْف القُوى، وهذا أمرٌ يحصل للإنسان على سبيل الإيجاب، لا بدّ من حصوله لكلّ أحدٍ، وإن كان عالمًا بالحال من قبل، ولكن ليس العِيان كالخبر. (١٦: ٥٨)

[كلامه عليه السلام في السّلف الصّالح من آبائه و كيفيّة علمهم]

(كتابه: ٣١) ... وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللهِ، وَالاِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَالأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ.

فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذلِكَ إِلَى الأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، والإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا، فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذلِكَ بَتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وَعُلَقِ الْخُصُومَاتِ ... .

الشّرح: أمَره أن يقتصر على القيام بالفرائض، وأن يأخذ بسُنّة السّلَف الصّالح من آبائه وأهل بيته؛ فإنّهم لم يقتصروا على التّقليد بل نظروا لأنفسهم وتأمّلوا الأدلّة، ثمّ رجعوا آخر الأمر إلى الأخذ بما عرفوا والإمساك عمّا لم يكلّفوا.

فإن قلت: مَن سلَفه هؤلاء الّذين أشار إليهم؟

قلت: المهاجرون الأوّلون من بني هاشم وبني المطّلب كحمزة وجعفر والعبّاس

وعُبَيدة بن الحارث، وكأبي طالب في قول الشّيعة وكثير من أصحابنا، وكعبد المطّلب في قول الشّيعة خاصّة.

فإن قلت: فهل يكون أمير المؤمنين عليه السلام نفسه معدودًا من جملة هؤلاء؟

قلت: لا، فإنّه لم يكن من أهل المبادئ والجمل المقتصر بهم في تكليفهم العقليّات على أوائل الأدلّة، بل كان سيّد أهل النّظر كافّةً وإمامهم.

فإن قلت: ما معنى قوله: «لم يَدَعُوا أن نَظَروا لأنفسهم»؟

قلت: لأنّهم إذا تأمّلوا الأدلّة وفكّروا فيها فقد نظروا لأنفسهم كما ينظر الإنسان لنفسه ليخلّصها من مضرّةٍ عظيمةٍ، سبيلها أن تقع به إن لم ينظر في الخلاص منها. وهذا هو الوجه في وجوب النّظر في طريق معرفة الله، والخوف من إهمال النّظر.

فإن قلت: ما معنى قوله: «إلى الأخذ بما عَرَفوا والإمساك عمّا لم يكلَّفوا»؟ قلت: «الأخذ بما عرفوا» مثل أدلّة[1] حدوث الأجسام وتوحيد البارئ وعدله. «والإمساك عمّا لم يكلّفوا» مثل النّظر في إثبات الجزء الّذي لا يتجزّأ و نفيه، ومثل الكلام في الخلإ والملإ، والكلام في أنّ هل بين كلّ حركتيْن مستقيمتيْن سُكونٌ أم لا؟ وأمثال ذلك ممّا لا يتوقّف أُصول التّوحيد والعدل عليه. فإنّه لا يلزم أصحاب الجَمَل والمبادئ أن يخوضوا في ذلك لأنّهم لم يكلَّفوا الخوض فيه، وهو من وظيفه قوم آخرين.

قوله عليه السلام: «فإن أَبَتْ نفْسُك أن تَقبَل ذلك دون أن تَعلَم كما عَلِموا»، هذا الموضع فيه نظر، لأنّا قد قلنا إنّهم لم يعلموا التّفاصيل الدّقيقة، فكيف يجعلهم عالمين بها؟ ويقول: «أن تَعلم كما عَلموا» وينبغي أن يقال: إنّ الكاف وما عملت فيه في موضع نصب، لأنّه صفة مصدر محذوف، وتقديره: فإن أَبَتْ نَفْسُكَ أن تَقبَل ذلك عِلمًا كما عَلِمُوا دون أن تعلم التّفاصيل الدّقيقة.

وجاز انتصاب «علمًا» والعامل فيه «تقبَل» لأنّ القبول من جنس العلم، لأنّ القبول اعتقاد والعلم اعتقاد. وليس لقائل أن يقول: فإذنْ يكون قد فصل بين الصّفة

١ـ ا: «الأدلّة»، تحريف.

والموصوف بأَجنبيّ، لأنّ الفصل بينهما قد جاء كثيرًا ... .

ويجوز أن يقال: كما علموا الآن بعد موتهم، فإنّهم بعد الموت يكونون عالمين بجميع ما يشتبه علمه على النّاس في الحياة الدّنيا، لأنّ المعارف ضروريّة بعد الموت، والنّفوس باقية على قول كثير من المسلمين وغيرهم.

واعلم! أنّ الّذي يدعو إلى تكلّف هذه التّأويلات أنّ ظاهر الكلام كونه يأمر بتقليد النّبيّ ﷺ والأخذ بما في القرآن وترك النّظر العقليّ، هذا هو ظاهر الكلام؛ ألا تراه كيف يقول له: الاقتصار على ما فرضه الله عليك، والأخذ بما مضى عليه أهل بيتك وسلَفك؛ فإنّهم لمّا حاولوا النّظر رجعوا بآخره إلى السّمعيّات وتركوا العقليّات، لأنّها أفضتْ بهم إلى ما لا يعرفونه ولا هو من تكليفهم.

ثمّ قال له: فإن كرهتَ التّقليد المحض، وأحببتَ أن تسلك مسلكهم في النّظر، وإن أفضى بك الأمر بأَخَرة إلى تركه والعود إلى المعروف من الشّرعيّات وما ورد به الكتاب والسّنّة، فينبغي أن تنظر وأنت مجتمع الهمّ خالٍ من الشّبهة، وتكون طالبًا للحقّ، غير قاصدٍ إلى الجدل والمِراء. فلمّا وجدنا ظاهر اللّفظ يقتضي هذه المعاني، ولم يجز عندنا أنْ يأمر أمير المؤمنين عليه السلام ولده[1] مع حكمته وأهليّة ولده بالتّقليد وترك النّظر، رجعنا إلى تأويل كلامه على وجه يخرج به عليه السلام من أن يأمر بما لا يجوز لمثله أن يأمر به.

واعلم أنّه قد أوصاه إذا همّ بالشّروع في النّظر بمحض ما ذكره المتكلّمون، وذلك أُمور:

منها: أن يرغب إلى الله في توفيقه وتسديده.

ومنها: أن يطلب المطلوب النّظريّ بتفهّمٍ وتعلّمٍ، لا بجدالٍ ومغالبةٍ ومِراءٍ ومخاصمةٍ.

ومنها: اطّراح العصبيّة لمذهب بعينه، والتّورّط في الشّبهات الّتي يحاول بها نصرة ذلك المذهب.

ومنها: ترك الإلْف والعادة، ونصرة أمر يطلب به الرّياسة؛ وهو المعنيّ بالشّوائب الّتي

١ـ ساقطة من ا.

تولج في الضّلال.

ومنها: أن يكون صافي القلب مجتمع الفكر، غير مشغول السّرّ بأمرٍ من جوع [أو شِبع][1] أو شَبَقٍ أو غضبٍ، ولا يكون ذا هموم كثيرة وأفكار موزّعة مقسّمة، بل يكون فكره وهمّه همًّا واحدًا.

قال: فإذا اجتمع لك كلّ ذلك فانظرْ. وإن لم يجتمع لك ذلك ونظرت، كنت كالنّاقة العَشْواء الخابطة لا تهتدي، وكمن يتورّط في الظّلماء لا يعلم أين يضع قدمه! وليس طالب الدّين مَن كان خابطًا أو خالطًا، والإمساك عن ذلك أمثل وأفضل.

(١٦: ٧٠ ـ ٧٤)

[الأخبار الواردة عن معرفة الإمام عليّ عليه السلام بالأُمور الغيبيّة]

روى ابن هلال الثّقفيّ في كتاب «الغارات» عن زكريّا بن يحيى العطّار، عن فُضَيل، عن محمّد بن عليّ قال: لمّا قال عليّ عليه السلام: «سَلوني قبل أن تفقِدوني، فوالله لا تسألونني عن فئةٍ تُضِلّ مائةً وتَهدي مائةً إلّا أنبأتُكم بناعقتها وسائقتها»، قام إليه رجل فقال: أخبِرني بما في رأسي ولحيتي مِن طاقة شَعر. فقال له عليّ عليه السلام: والله لقد حدّثني خليلي أنّ على كلّ طاقة شَعر من رأسك مَلَكًا يلعنُك، وإنّ على كلّ طاقة شَعر مِن لحيتك شيطانًا يُغويك، وإنّ في بيتك سَخْلًا يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وكان ابنُه قاتل الحسين عليه السلام يومئذٍ طفلًا يحبو، وهو سنان بن أنس النّخَعيّ.

وروى الحسن بن محبوب، عن ثابت الثّماليّ، عن سويد بن غفلة أنّ عليًّا عليه السلام خطب ذات يوم، فقام رجل من تحت منبره فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي مررتُ بوادي القُرى فوجدت خالد بن عُرْفطة قد مات فاستغفرْ له. فقال عليه السلام: والله ما مات ولا يموت حتّى يقود جيش ضلالة، صاحب لوائه حبيب بن حِمار. فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال: يا أمير المؤمنين، أنا حبيب بن حمار وإنّي لك شيعة ومحبّ. فقال: أنت حبيب بن حمار؟ قال: نعم. فقال له ثانيةً: والله إنّك لحبيب بن حمار؟ فقال: إي

---

١ ـ من «د».

والله! قال: أما والله إنّك لحامِلُها ولتحمِلنّها ولتدخُلَنّ بها من هذا الباب. وأشار بها إلى باب الفيل بمسجد الكوفة.

قال ثابت: فوالله ما مِتُّ حتّى رأيت ابنَ زياد، وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين ابن عليٍّ عليه السلام وجعل خالد بن عُرْفطة على مقدّمته وحبيب بن حمار صاحبَ رايته، فدخل بها من باب الفيل.

وروى محمّد بن إسماعيل بن عمرو البَجَليّ، قال: أخبرنا عمرو بن موسى الوجيهيّ، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث، قال: قال عليّ عليه السلام على المنبر: ما أحدٌ جرت عليه المواسي إلّا وقد أنزل الله فيه قرآنًا. فقام إليه رجلٌ من مبغضيه فقال له: فما أنزل الله تعالى فيك؟ فقام النّاس إليه يضربونه، فقال: دعوه، أ تقرأ سورة هود؟ قال: نعم. قال: فقرأ عليه السلام: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[1] ثمّ قال: الّذي كان على بيّنة من ربّه محمّد صلى الله عليه وآله والشّاهد الّذي يتلوه أنا.

وروى عثمان بن سعيد، عن عبد الله بن بكير، عن حكيم بن جُبير، قال: خطب عليّ عليه السلام فقال في أثناء خطبته: «أنا عبدُ الله وأخو رسوله، لا يقولها أحدٌ قبلي ولا بعدي إلّا كذب. ورِثتُ نبيَّ الرّحمة ونكَحتُ سيّدة نساء هذه الأُمّة، وأنا خاتم الوصيّين». فقال رجلٌ من عَبْس: ومَن لا يحسِنُ أن يقول مثل هذا! فلم يرجع إلى أهله حتّى جُنّ وصُرِع. فسألوهم: هل رأيتم به عَرَضًا قبل هذا؟ قالوا: ما رأينا به قبل هذا عرضًا.

وروى محمّد بن جبلة الخيّاط، عن عِكرمة، عن يزيد الأحمسِيّ أنّ عليًّا عليه السلام كان جالسًا في مسجد الكوفة وبين يديه قومٌ منهم عمرو بن حُرَيس، إذ أقبلت امرأةٌ مختمِرةٌ لا تُعرف، فوقفت فقالت لعليّ عليه السلام: يامَن قتل الرّجال وسفك الدّماء، وأيتمَ الصّبيان وأرمل النّساء! فقال عليه السلام: وإنّها لهي هذه السَّلَقْلَقة الجَلِعة المَجِعة، وإنّها لهي هذه، شبيهة الرّجال والنّساء، الّتي ما رأتْ دمًا قطّ. قال: فولّتْ هاربةً منكِّسةً رأسَها.

١ـ هود/ ١٧.

فتبعها عمرو بن حريث، فلمّا صارت بالرَّحبة قال لها: والله لقد سررتُ بما كان منك اليوم إلى هذا الرّجل، فادخلي منزلي حتّى أهبَ لك وأكسوَك. فلمّا دخلتْ منزله أمَر جواريَه بتفتيشها وكشْفها ونزْع ثيابها لينظر صدْقه فيما قاله عنها. فبكتْ وسألتْه ألّا يكشِفها وقالت: أنا والله كما قال، لي رَكَبُ النّساء وأُنثيانِ كأُنثى الرّجال، وما رأيتُ دمًا قَطّ. فتركها وأخرجها، ثمّ جاء إلى عليّ عليه السلام فأخبره. فقال: إنّ خليلي رسولَ الله صلى الله عليه وآله أخبَرني بالمتمرِّدين عليّ من الرّجال والمتمرّدات من النّساء إلى أن تقوم السّاعة.

قلت: السَّلْقَلقَة: السَّليطة، وأصله من السِّلْق وهو الذّئب، والسِّلْقه: الذّئبة. والجَلِعة المَجِعة: البذيّة اللّسان. والرَّكَب: مَنبِت العانة.

وروى عثمان بن سعيد، عن شريك بن عبد الله، قال: لمّا بلغ عليًّا عليه السلام أنّ النّاس يتّهمونه فيما يذكره من تقديم النّبيّ صلى الله عليه وآله وتفضيله على النّاس، قال: أنشُد الله مَن بَقِي ممَّن لَقِي رسول الله صلى الله عليه وآله وسمع مقاله في يوم غَدير خُمّ[1] إلّا قام فشهد بما سمع. فقام ستّةٌ ممّن عن يمينه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وستّةٌ ممّن على شماله من الصّحابة أيضًا فشهدو أنّهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك اليوم، وهو رافعٌ بيديْ عليّ عليه السلام: «مَن كنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه؛ اللّهمّ والِ مَن والاه وعادِ من عاداه وانصُرْ مَن نصره واخذُلْ مَن خذله، وأحِبّ مَن أحبّه وابغَضْ مَن أبغضه»[2].

وروى عثمان بن سعيد عن يحيى التّيميّ، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، قال: قام أعشَى باهلة[3] ـ وهو غلام يومئذٍ حَدَث ـ إلى عليّ عليه السلام وهو يخطُب ويذكُر الملاحم، فقال: يا أمير المؤمنين، ما أشبه هذا الحديث بحديث خُرافة! فقال على عليه السلام: إنْ كنتَ آثمًا فيما قلتَ يا غلام، فرماك الله بغلام ثَقيف. ثمّ سكت. فقام رجالٌ فقالوا: ومَن غلام ثَقيف يا أمير المؤمنين؟ قال: غلامٌ يملِك بلدتَكم هذه لا يترك لله حرمةً إلّا

١ـ خُمّ: وادٍ بين مكّة والمدينة عند الجحفة، به غدير عُرف به.

٢ـ نقله المحبّ الطّبريّ في الرّياض النّضرة ٢: ١٦٩، وتحدّث عن طرقه هناك.

٣ـ أعشَى باهلة، اسمه عامر بن الحارث، صاحب المرثيّة المشهورة في أخيه لأُمّه المنتشر.

انتَهكها، يضرب عُنُق هذا الغلام بسيفه. فقالوا: كم يملكُ يا أمير المؤمنين؟ قال: عشرين إن بلغها. قالوا: فيُقتَل قتلًا أم يموت موتًا؟ قال: بل يموتُ حَتْف أنفه بداء البطن، يثقب سريره لكثرة ما يخرج من جوفه.

قال إسماعيل بن رجاء: فوالله لقد رأيتُ بعيني أعْشَى باهلة وقد أُحضِر في جملة الأسرى الّذين أسِروا من جيش عبد الرّحمن بن محمّد بن الأشعث بين يدي الحجّاج، فقرّعه و وبّخه واستنشده شِعْرَه الّذي يحرِّض فيه عبد الرّحمن على الحرب، ثمّ ضرب عنقه في ذلك المجلس.

وروى محمّد بن عليّ الصّوّاف، عن الحسين بن سفيان، عن أبيه، عن شَمِير بن سَدِير الأزديّ، قال: قال عليّ عليه السلام لعمرو بن الحمِق الخُزاعيّ: أين نزلتَ يا عمرو؟ قال: في قومي. قال: لا تنزلنّ فيهم. قال: فأنزل في بني كِنانة جيراننا؟ قال: لا. قال: فأنزل في ثَقيف؟ قال: فما تصنع بالمَعرّة والمَجرّة؟ قال وما هما؟ قال عُنُقان من نارٍ يخرجان من ظهر الكوفة، يأتي أحدهما على تميم وبكر بن وائل، فقلّما يُفلِت منه أحدٌ. ويأتي العنق الآخر فيأخذ على الجانب الآخر من الكوفة، فقلّ مَن يصيبُ منهم، إنّما يدخل الدّارَ فيحرِق البيتَ والبيتين. قال: فأين أنزِلُ؟ قال: انزِلْ في بني عمرو بن عامر، مِن الأزد. قال: فقال قومٌ حضروا هذا الكلام: ما نراه إلّا كاهنًا يتحدّث بحديث الكَهَنَة. فقال: يا عمرو، إنّك المقتول بعدي وإنّ رأسَك لمنقولٌ، وهو أوّل رأسٍ يُنقَل في الإسلام، والويل لقاتِلك! أمَا إنّك لا تنزِل بقوم إلّا أسلموك برُمّتك إلّا هذا الحيّ من بني عمرو بن عامر من الأزد، فإنّهم لن يُسلموك ولن يَخْذُلوك. قال: فوالله ما مضت الأيّام حتّى تنقل عمرو بن الحمِق في خلافة معاوية في بعض أحياء العرب خائفًا مذعورًا، حتّى نزل في قومه من بني خُزاعة، فأسلموه فقُتل وحُمل رأسه من العراق إلى معاوية بالشّام، وهو أوّل رأسٍ حُمل في الإسلام من بلد إلى بلد.

وروى إبراهيم بن ميمون الأزديّ عن حَبّة العُرنيّ، قال: كان جويرية بن مِسهر العبديّ صالحًا وكان لعليّ بن أبي طالب صديقًا وكان عليٌّ يحبّه، ونظر يومًا إليه وهو يسيرُ، فناداه: يا جويرية، الحَقْ بي فإنّي إذا رأيتُك هَوَيْتُك. قال إسماعيل بن أبان:

فحدّثني الصَّباح، عن مسلم عن حَبّة العُرنيّ، قال: سرنا مع عليّ عليه السلام يومًا فالتفت فإذا جويرية خلْفه بعيدًا، فناداه: يا جويرية، الحَقْ بي لا أبا لك! ألا تعلم أنّي أهواك وأُحبّك!

قال: فركض نحوه فقال له: إنّي محدِّثك بأُمور فاحفظْها، ثمّ اشتركا في الحديث سرًّا، فقال له جويرية: يا أمير المؤمنين، إنّي رجلٌ نَسِيّ[1]، فقال له: إنّي أُعيدُ عليك الحديثَ لتحفظه، ثمّ قال له في آخر ما حدّثه إيّاه: يا جويرية، أحبِبْ حبيبنَا ما أحبَّنا فإذا أبغضَنا فابغضْه، وابغضْ بغيضَنا ما أبغضَنا فإذا أحبّنا فأحبّه.

قال: فكان ناسٌ ممّن يشكّ في أمر عليّ عليه السلام يقولون: أتراه جعل جويرية وصيَّه كما يدّعي هو من وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: يقولون ذلك لشدّة اختصاصه له، حتّى دخل علَى عليّ عليه السلام يومًا، وهو مضطجعٌ وعنده قومٌ من أصحابه، فناداه جويرية: أيّها النّائم، استيقظْ، فلْتُضْرَبنّ علَى رأسك ضربة تخضب منها لحيتك.

قال: فتبسّم أمير المؤمنين عليه السلام، قال: وأُحدِّثك يا جويرية بأمرك: أمَا والّذي نفسي بيده لتُعتَلَنَّ[2] إلى العُتُلّ الزّنيم، فليقطعنّ يدَك ورجلَك وليصلبنّك تحت جِذع كافر. قال: فوالله ما مضت الأيّام على ذلك حتّى أخذ زياد جويرية، فقطع يدَه ورجلَه وصَلبه إلى جانب جذع ابن مكعبر، وكان جذعًا طويلًا، فصلبه على جذع قصير إلى جانبه.

وروى إبراهيم في كتاب «الغارات» عن أحمد بن الحسن الميثميّ، قال: كان ميثم التّمار مولى عليّ بن أبي طالب عليه السلام عبدًا لامرأةٍ من بني أسد، فاشتراه عليّ عليه السلام منها وأعتقه وقال له: ما اسمك؟ فقال: سالم. فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرني أنّ اسمَك الّذي سمّاك به أبوك في العجم «مِيثَم». فقال: صدَق الله ورسوله وصدقتَ يا

١ـ النّسيّ: الكثير النّسيان.

٢ـ يقال: عتَله عتلًا، إذا أخذه بمجامعه وجرّه جرًّا عنيفًا.

أمير المؤمنين، فهو والله اسمي. قال: فارجعْ إلى اسمك ودَعْ سالمًا، فنحن نَكنيك به، فكنّاه أبا سالم.

قال: وقد كان قد أطلعه عليّ عليه السلام على علمٍ كثير وأسرارٍ خفية من أسرار الوصيّة. فكان ميثم يحدّث ببعض ذلك، فيشكّ فيه قومٌ من أهل الكوفة وينسُبون عليًّا عليه السلام في ذلك إلى المَخرَقة[1] والإيهام والتّدليس.

حتّى قال له يومًا بمحضَرٍ من خلْقٍ كثير من أصحابه، وفيهم الشّاكّ والمخلِص: يا ميثَم، إنّك تُؤخَذ بعدي وتُصلَب، فإذا كان اليوم الثّاني ابتدر مُنْخُراك وفمك دمًا حتّى تُخضَب لحيتُك، فإذا كان اليوم الثّالث طُعنتَ بحربة يُقضى عليك، فانتظرْ ذلك. والموضع الّذي تُصلَب فيه على باب دار عمرو بن حريث. إنّك لَعاشِر عشرة أنت أقصرُهم خشبةً وأقربُهم من المطهّرة- يعني الأرض- ولأُرِينّك النّخلة الّتي تُصلَب على جذعها.

ثمّ أراه إيّاها بعد ذلك بيومَيْن وكان ميثم يأتيها فيصلّي عندها ويقول: بوركت مِن نخلة، لك خُلِقتُ ولي نبتِّ. فلم يزل يتعاهدها بعد قتل عليّ عليه السلام حتّى قُطِعت، فكان يَرصُد جذعها ويتعاهده ويتردّد إليه ويبصره وكان يَلقَى عمرو بن حريث فيقول له: إنّي مجاورُك فأحسِنْ جواري. فلا يعلم عمرو ما يريد، فيقول له: أ تريد أن تشتري دار ابن مسعود أم دار ابن حكيم؟

قال: وحجّ في السّنة الّتي قتل فيها، فدخل على أُمّ سلمة رضي الله عنها، فقالت له: مَن أنت؟ قال: عراقيٌّ. فاستنسبَتْه، فذكر لها أنّه مولى عليّ بن أبي طالب. فقالت: أنت هيثم. قال: بل أنا مِيثَم. فقالت: سبحان الله! والله لربّما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يوصي بك عليًّا في جوف اللّيل. فسألها عن الحسين بن عليّ، فقالت: هو في حائط[2] له. قال: أخبِريه أنّي قد أحببتُ السّلام عليه ونحن ملتقُون عند ربّ العالمين،

١ـ المخرقة: اختلاق الكذب.

٢ـ الحائط: البستان.

إن شاء الله، ولا أقدر اليوم على لقائه وأُريد الرّجوع، فدعتْ بطِيبٍ فطيَّبتْ لحيته، فقال لها: أمَا إنّها ستُخضَب بدمٍ. فقالت: مَن أنبأك هذا؟ قال: أنبأني سيّدي. فبكتْ أُمّ سلمة وقالت له: إنّه ليس بسيّدك وحدَك، هو سيّدي وسيّد المسلمين، ثمّ ودّعتْه.

فقدم الكوفة، فأُخذ وأُدخل على عبيد الله بن زياد وقيل له: هذا كان مِن آثر النّاس عند أبي تراب. قال: ويْحكم هذا الأعجميّ! قالوا: نعم. فقال له عبيد الله: أين ربّك؟ قال: بالمرصاد. قال: قد بلغني اختصاصُ أبي تراب لك. قال: قد كان بعضُ ذلك، فما تريد؟ قال: وإنّه ليقال إنّه قد أخبرك بما سيَلقاك. قال: نعم، إنّه أخبرني. (قال: ما الّذي أخبرك أنّي صانعٌ بك؟[1]) قال: أخبرني أنّك تصلُبني عاشر عشرة وأنا أقصرُهم خشبةً وأقربُهم من المطهّرة. قال: لأُخالفنّه. قال: ويحك! كيف تخالفه، إنّما أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأخبر رسول الله عن جبرائيل وأخبر جبرائيل عن الله، فكيف تخالف هؤلاء! أما والله لقد عرفتُ الموضع الّذي أُصلَب فيه أين هو من الكوفة؟ وإنّي لأوّل خلْق الله أُلجِم في الإسلام بلجامٍ كما يُلجَم الخيل.

فحبسه وحبس معه المختار بن أبي عبيدة الثّقفيّ. فقال ميثم للمختار وهما في حبس ابن زياد: إنّك تُفْلِت وتخرج ثائرًا بدم الحسين عليه السلام فتقتل هذا الجبّار الّذي نحن في سجنه[2] وتطأ بقدمك هذا على جَبْهته وخَدّيه. فلمّا دعا عبيد الله بن زياد بالمختار ليقتله، طلع البَريد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد، يأمره بتخلية سبيله. وذاك أنّ أُخته كانت تحت عبد الله بن عمر بن الخطّاب، فسألتْ بعْلها أنْ يشفع فيه إلى يزيد، فشفَع فأمضى شفاعته وكتب بتخلية سبيل المختار على البريد، فوافَى البريد وقد أخرج ليضرب عنقه فأطلق.

وأمّا ميثم فأخرج بعده لِيُصلَب. وقال عبيد الله: لأُمْضِيَنّ حكْم أبي تراب فيه، فلقيه رجل فقال له: ما كان أغناك عن هذا يا ميثم؟ فتبسّم وقال: لها خُلقتُ ولي

١ـ ساقط من ا.

٢ـ كذا في ا، ج، وفي ب: «حبسه».

غُذيتْ. فلمّا رُفع على الخشبة اجتمع النّاس حوله على باب عمرو بن حريث، فقال عمرو: لقد كان يقول لي: إنّي مجاورك، فكان يأمر جاريته كلّ عشيّة أن تكنُس تحت خشبته وترشّه وتجمّر بالمجمر تحته.

فجعل ميثم يحدّث بفضائل بني هاشم ومخازي بني أُميّة، وهو مصلوبٌ على الخشبة. فقيل لابن زياد: قد فضحكم هذا العبد. فقال: ألجِموه، فأُلجِم فكان أوّل خلْق الله أُلجم في الإسلام. فلمّا كان في اليوم الثّاني فاضتْ مُنخراه وفمه دمًا. فلمّا كان في اليوم الثّالث طُعِن بحربة فمات. وكان قتْل ميثم قبل قدوم الحسين عليه السلام العراق بعشرة أيّام.

قال إبراهيم: وحدّثني إبراهيم بن العبّاس التَّهْديّ، حدّثني مبارك البَجَليّ، عن أبي بكر بن عيّاش، قال: حدّثني المجالد، عن الشّعبيّ، عن زياد بن النّضر الحارثيّ، قال: كنتُ عند زياد وقد أُتي برشيد الهجَريّ، وكان من خواصّ أصحاب عليّ عليه السلام. فقال له زياد: ما قال خليلُك لك إنّا فاعلون بك؟ قال: تَقطعون يدي ورِجلي وتصلُبونني. فقال زياد: أمَا والله لأُكَذِّبنّ حديثه، خلّوا سبيلَه.

فلمّا أراد أن يخرُج قال: ردُّوه لا نجد شيئًا أصلحَ ممّا قال لك صاحبُك، إنّك لا تزال تبغي لنا سوءًا إن بقيت، اقطعوا يديْه ورجْليه، فقطعوا يديه ورجليه وهو يتكلّم. فقال: اصلُبوه خَنْقًا في عُنُقه. فقال رشيد: قد بقي لي عندكم شيءٌ ما أراكم فعلتموه، فقال زياد: اقطعوا لسانَه، فلمّا أخرجوا لسانه ليُقطع قال: نَفِّسُوا عَنّي أتكلّم كلمةً واحدة. فنفّسوا عنه فقال: هذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين، أخبرني بقطع لساني. فقطعوا لسانه وصلبوه.

وروى أبو داود الطّيالسيّ، عن سليمان بن رُزَيق، عن عبد العزيز بن صُهيب، قال: حدّثني أبو العالية، قال: حدّثني مزرع صاحبُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: لَيُقبِلنّ جيشٌ حتّى إذا كانوا بالبيداء خُسِف بهم. قال أبو العالية: فقلت له: إنّك لَتُحدِّثني بالغيب! فقال: احفَظْ ما أقوله لك، فإنّما حدّثني به الثّقة عليّ بن أبي طالب وحدّثني أيضا شيئًا آخر: لَيُؤخَذنّ رجلٌ فليُقتَلنّ وليُصلَبنّ بين شُرْفتيْن من شُرَف

المسجد. فقلت له: إنّك لتُحدِّثني بالغيب! فقال: احفَظْ ما أقول لك: قال أبو العالية: فوالله ما أتَتْ علينا جُمعة حتّى أُخذ مزرع فقُتل وصُلب بين شُرفتيْن من شُرَف المسجد.

قلت: حديث الخَسْف بالجيش قد خرّجه البخاريّ ومسلم في الصّحيحين، عن أُمّ سلمة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يَعوذ قومٌ بالبيت حتّى إذا كانوا بالبيداء[1] خُسِف بهم». فقلت: يا رسول الله، لعلّ فيهم المكرَه أو الكاره. فقال: «يُخسَف بهم ولكن يحشرون» ـ أو قال: «يُبعَثون على نيّاتهم[2] يوم القيامة».

قال: فسُئل أبو جعفر محمّد بن عليّ: أ هي بيداء من الأرض؟ فقال: كلّا والله، إنّها بيداء المدينة. أخرج البخاريّ بعضه وأخرج مسلم[3] الباقي.

وروى محمّد بن موسى العَنَزِيّ، قال: كان مالك بن ضَمْرة الرّؤاسيّ من أصحاب عليّ عليه السلام وممّن استبطن من جهته علمًا كثيرًا، وكان أيضًا قد صَحِب أبا ذَرّ فأخذ من علمه، وكان يقول في أيّام بني أُميّة: اللّهمّ لا تجعلني أشْقَى الثّلاثة. فيقال له: وما الثّلاثة؟! فيقول: رجلٌ يُرمَى من فوق طَمارٍ[4] ورجلٌ تُقطَع يداه ورجلاه ولسانه ويُصلب، ورجلٌ يموت على فراشه. فكان من النّاس مَن يهزأ به ويقول: هذا من أكاذيب أبي تراب. قال: وكان الّذي رُمِي به من طَمار هانئ بن عُروة، والّذي قُطِع وصُلب رشيد الهجريّ، ومات مالك على فراشه. (٢: ٢٨٦ ـ ٢٩٥)

[فصل في ذكر أُمور غيبيّة، أخبر بها الإمام عليه السلام ثمّ تحقّقت]

(الخطبة: ٩٢) أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ وَ الثَّنَاءِ عَلَيْه؛ أَيُّهَا النّاس، فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ

١ـ البيداء: كلّ أرض ملساء لا شيء فيها.

٢ـ لفظ مسلم: «ولكنّه يبعث يوم القيامة على نيّته».

٣ـ صحيح مسلم ٤: ٢٢٠٩.

٤ـ ظمار، كقطام: المكان المرتفع.

يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا وَاشْتَدَّ كَلَبُهَا.

فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَالّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَسْأَلُونني عَنْ شَيْءٍ فِيما بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مائةً وَتُضِلُّ مائةً إِلّا أَنْبَأْتُكُمْ[1] بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا وَمُنَاخِ رِكَابِهَا وَمَحَطِّ رِحَالِهَا وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلًا وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً.

وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَنَزَلَتْ كَرَائِهُ الأُمُورِ وَحَوَازِبُ الْخُطُوبِ، لأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ المَسْؤُولِينَ؛ وَذلِكَ إِذَا قَلَّصَتْ حَرْبُكُمْ وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ، وَكَانَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقًا، تَسْتَطِيلُونَ أَيَّامَ الْبَلَاءِ عَلَيْكُمْ، حَتَّي يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الأَبْرَارِ مِنْكُمْ.

إِنّ الْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَ إِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ؛ يُنْكَرْنَ مُقْبِلَاتٍ وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاحِ يُصِبْنَ بَلَدًا وَيُخْطِئْنَ بَلَدًا.

أَلَا وَ إِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ؛ فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ عَمَّتْ خُطَّتُهَا وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا.

وَايْمُ اللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي كَالنَّابِ الضَّرُوسِ، تَعْذِمُ بِفِيهَا وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا وتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا وَتَمْنَعُ دَرَّهَا، لا يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّي لا يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلّا نَافِعًا لَهُمْ أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ.

وَلا يَزَالُ بَلَاؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّي لا يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلّا كَانْتِصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدىً وَلا عَلَمٌ يُرَى. نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاةٍ وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الأَدِيمِ، بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفًا وَيَسُوقُهُمْ عُنْفًا وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لا يُعْطِيهِمْ إِلّا السَّيْفَ وَلا يُحْلِسُهُمْ إِلّا الْخَوْفَ. فَعِنْدَ ذلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَامًا وَاحِدًا، وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ، لأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلا يُعْطُونَنِيهِ!

... واعلم أنّه عليه السلام قد أقسم في هذا الفصل بالله الّذي نفسه بيده، أنّهم لا يسألونه

١ـ مخطوطة النّهج: «نبّأتكم».

عن أمرٍ يحدث بينهم وبين القيامة إلّا أخبرهم به، وأنّه ما صحّ من طائفةٍ من النّاس يهتدي بها مائةٌ وتضلّ بها مائةٌ إلّا وهو مخبرٌ لهم ـ إن سألوه ـ برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها، ومَن يقتل منها قتلًا ومَن يموت منها موتًا.

وهذه الدّعوى ليست منه عليه السلام ادّعاء الرّبوبية ولا ادّعاء النّبوّة، ولكنّه كان يقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك، ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقًا فاستدلَلْنا بذلك على صدق الدّعوى المذكورة، كإخباره عن الضّربة الّتي يُضرب بها في رأسه فتخضِب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام وما قاله في كربلاء حيث مرّ بها، وإخباره بملك معاوية الأمرَ من بعده، وإخباره عن الحجّاج وعن يوسف بن عمر، وما أخبر به من أمر الخوارج بالنّهروان، وما قدّمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم وصَلْب مَن يُصلَب، وإخباره بقتال النّاكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدّة الجيش الوارد إليه من الكوفة لمّا شخَص عليه السلام إلى البصرة لحرْب أهلها، وإخباره عن عبد الله بن الزّبير، وقوله فيه: «خَبٌّ ضَبٌّ، يروم أمرًا ولا يدركه، ينصِب حبالة الدِّين لاصطياد الدّنيا، وهو بعد مصلوب قريش».

وكإخباره عن هلاك البصرة بالغرق وهلاكها تارةً أُخرى بالزَّنج، وهو الّذي صحّفه قومٌ فقالوا: بالرّيح، وكإخباره عن ظهور الرّايات السّود من خُراسان، وتنصيصه على قومٍ من أهلها يعرفون ببني رزيق، بتقديم المهملة، وهم آل مصعب الّذين منهم طاهر ابن الحسين و ولده وإسحاق بن إبراهيم، وكانوا هم وسَلَفهم دعاة الدّولة العبّاسيّة.

وكإخباره عن الأئمّة الّذين ظهروا من وَلده بطَبرِستان، كالنّاصر والدّاعي وغيرهما، في قوله عليه السلام: «وإنّ لآل محمّد بالطّالقان لكنزًا سيظهره الله إذا شاء، دعاؤه حقّ، يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله»، وكإخباره عن مقتل النّفس الزّكيّة بالمدينة، وقوله: «إنّه يقتل عند أحجار الزّيت»، وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة: «يقتل بعد أن يظهر، ويُقهَر بعد أن يُقهِر»، وقوله فيه أيضًا: «يأتيه سهم غَرْب[1] يكون فيه

١ـ سهمٌ غرْبٌ، أي لا يُدرَى راميه.

منيّته، فيا بؤسًا للرّامي! شَلّت يده و وهَن عَضُده»؛ وكإخباره عن قتلى وَجّ وقوله فيهم: «هم خير أهل الأرض».

وكإخباره عن المملكة العَلويّة بالغرب وتصريحه بذكر كتامة، وهم الّذين نصروا أبا عبد الله الدّاعي المعلّم. وكقوله وهو يشير إلى أبي عبد الله المهديّ: وهو أوّلهم ثمّ يظهرُ صاحب القَيْروان الغضّ البَضّ، ذو النّسب المحض، المنتجَب من سلالة ذي البداء، المسجّى بالرِّداء، وكان عبيد الله المهديّ أبيض[1] مترفًا مشربًا بحُمرة، رخْص البدن، تارّ[2] الأطراف. وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمّد عليهم السلام وهو المسجّى بالرّداء، لأنّ أباه أبا عبد الله جعفرًا سجّاه بردائه لمّا مات، وأدخل إليه وجوه الشّيعة يشاهدونه ليعلموا موته وتزول عنهم الشّبهة في أمره.

وكإخباره عن بني بويه وقوله فيهم: «ويخرج من دَيْلمان بنو الصّيّاد» إشارة إليهم. وكان أبوهم صيّاد السّمك يصيد منه بيده ما يتقوّت هو وعياله بثمنه، فأخرج الله تعالى من ولده لصلْبه ملوكًا ثلاثة ونشر ذرّيّتهم حتّى ضربت الأمثال بملكهم.

وكقوله عليه السلام فيهم: «ثمّ يستشري أمرُهم حتّى يملكوا الزّوراء ويخلعوا الخلفاء»، فقال له قائلٌ: فكَمْ مدّتُهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: «مائة أو تزيد قليلًا». وكقوله فيهم: «و المترفُ ابن الأجذم، يقتله ابنُ عمّه على دَجْلة»، وهو إشارة إلى عزّ الدّولة بختيار ابن معزّ الدّولة أبي الحسين، وكان معزّ الدّولة أقْطَع اليد، قطعت يده للنّكوص في الحرب، وكان ابنه عزّ الدولة بختيار مترفًا، صاحب لهوٍ وشربٍ، وقتَله عَضُد الدّولة فنّاخسرو، ابن عمّه بقصر الجُصّ على دجلة في الحرب، وسلَبه ملكه. فأمّا خلعهم للخلفاء فإنّ معزّ الدّولة خلع المستكفي ورتّب عِوضه المطيع، وبهاء الدّولة أبا نصر بن عضد الدّولة خلَع الطّائع ورتّب عوضه القادر، وكانت مدّة ملكهم كما أخبر به عليه السلام.

١ـ ساقطة من ب.

٣ـ التّارّ: الممتلئ جسمه وعَظمه رِيًّا.

وكإخباره عليه السلام لعبد الله بن العبّاس رحمه الله تعالى عن انتقال الأمر إلى أولاده. فإنّ عليّ بن عبد الله لمّا ولد، أخرجه أبوه عبد الله إلى عليّ عليه السلام فأخذه وتفَل في فيه وحنَّكه بتمرة قد لاكها ودفعه إليه وقال: خذْ إليك أبا الأملاك. هكذا الرّواية الصّحيحة، وهى الّتي ذكرها أبو العبّاس المبرّد في «الكتاب الكامل»[1]، وليست الرّواية الّتي يُذكر فيها العدد بصحيحة ولا منقولة من كتابٍ معتمَدٍ عليه.

وكم له من الإخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى ممّا لو أردنا استقصاءه لكسرنا له كراريس كثيرةً، وكتب السّيَر تشتمل عليها مشروحةً.

فإن قلت: لماذا غَلا النّاس في أمير المؤمنين عليه السلام، فادّعوا فيه الإلهيّة لإخباره عن الغيوب الّتي شاهدوا صدقها عِيانًا، ولم يَغْلوا في رسول الله صلى الله عليه وآله فيدّعوا له الإلهيّة، وأخباره عن الغيوب الصّادقة قد سمعوها وعلموها يقينًا، وهو كان أوْلى بذلك لأنّه الأصل المتبوع ومعجزاته أعظم وأخباره عن الغيوب أكثر؟

قلت: إنّ الّذين صحبوا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وشاهدوا معجزاتِه وسمعوا إخباره عن الغيوب الصّادقة عِيانًا، كانوا أشدّ آراءً وأعظم أحلامًا وأوفر عقولًا. من تلك الطّائفة الضّعيفة العقول، السّخيفة الأحلام، الّذين رأوا أمير المؤمنين عليه السلام في آخر أيّامه كعبد الله بن سبأ وأصحابه، فإنّهم كانوا من رَكاكة البصائر وضعفها على حال مشهورة، فلا عجب عن مثلهم أن تستخفّهم المعجزات فيعتقدوا في صاحبها أنّ الجوهر الإلهيّ قد حلّه، لاعتقادهم أنّه لا يصحّ من البشر هذا إلّا بالحلول. وقد قيل: إنّ جماعة من هؤلاء كانوا من نَسْل النّصارى واليهود، وقد كانوا سمعوا من آبائهم وسلَفهم القول بالحلول في أنبيائهم ورؤسائهم، فاعتقدوا فيه عليه السلام مثل ذلك.

ويجوز أن يكون أصل هذه المقالة من قوم مُلْحدين أرادوا إدخال الإلحاد في دين الإسلام فذهبوا إلى ذلك، ولو كانوا في أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله لقالوا فيه مثل هذه المقالة

١ـ الكامل ٢: ٢١٧.

إضلالًا لأهل الإسلام وقصدًا لإيقاع الشّبهة في قلوبهم، ولم يكن في الصّحابة[1] مثل هؤلاء، ولكن قد كان فيهم منافقون وزنادقة ولم يهتدوا إلى هذه الفتنة ولا خطرلهم مثل هذه المكيدة.

وممّا ينقدح لي من الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الّذين عاصروا رسول الله ﷺ أنّ هؤلاء من العراق وساكني الكوفة، وطينة العراق ما زالت تنبت أربابَ الأهواء وأصحاب النِّحَل العجيبة والمذاهب البديعة، وأهل هذا الإقليم أهل بصروتدقيق ونظر وبحث عن الآراء والعقائد وشُبَه معترضة في المذاهب، وقد كان منهم في أيّام الأكاسرة مثل ماني وديصان ومَزْدك وغيرهم. وليست طينة الحجاز هذه الطّينة، ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان.

والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعَجْرفيّة وخشونة الطّبع، ومَن سكن المدن منهم كأهل مكّة والمدينة والطّائف فطباعُهم قريبةٌ من طباع أهل البادية بالمجاورة. ولم يكن فيهم من قبلُ حكيمٌ ولا فيلسوف ولا صاحب نظروجدل ولا موقع شبهة ولا مبتدع نِحلة؛ ولهذا نجد مقالة الغلاة طارئةً وناشئةً من حيث سكن عليّ عليه السلام بالعراق والكوفة، لا في أيّام مقامه بالمدينة وهي أكثرعمره.

فهذا ما لاح لي من الفرق بين الرَّجلين في المعنى المقدّم ذكره.

فإن قلت: لماذا قال عن فئةٍ تهدي مائةً؟ وما فائدة التّقييد بهذا العدد؟

قلت: لأنّ ما دون المائة حقيرٌ تافهٌ لايعتدّ به ليذكَرويخبَرعنه، فكأنّه قال: مائة فصاعدًا.

فإن قلت: أمّا فشل المسئول فمعلوم، فما الوجه في إطراق السّائل؟

قلت: لشدّة الأمروصعوبته حتّى إنّ السّائل ليبهت ويدهش فيطرِق ولا يستطيع السّؤال ... .

[إلى أن قال بعد قوله عليه السلام «لقد تودّ قريش ...»]

١ـ كذا في ا، ب، ج، وفي د: «أصحابه».

وهذا الكلام إخبار عن ظهور المسوَّدة وانقراض ملك بنى أُميّة. و وقع الأمر بموجب إخباره صلوات الله عليه حتّى لقد صدق قوله: «لقد تودّ قريش ...» الكلام إلى آخره. فإنّ أرباب السّيَر كلّهم نقلوا أنّ مروان بن محمّد قال يوم الزّاب لمّا شاهد عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس بإزائه في صفّ خراسان: لوددتُ أنّ عليّ ابن أبي طالب تحت هذه الرّاية بدلًا من هذا الفتى، والقصّة طويلة وهى مشهورة[1].

وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السّيَر، وهى متداولةٌ منقولة مستفيضة. خطب بها عليّ عليه السلام بعد نقضاء أمر النّهروان، وفيها ألفاظ لم يوردها الرّضي رحمه الله؛ من ذلك قوله رحمه الله: «ولم يكن ليجترئ عليها غيري، ولو لم أكُ فيكم ما قوتل أصحاب الجمل والنّهروان. وأيمُ الله لولا أن تتّكلوا فتَدَعوا العمل، لحدّثتُكم بما قضى الله عزّوجلّ على لسان نبيّكم صلى الله عليه وآله، لمَن قاتلهم مبصرًا لضلالتهم عارفًا للهدى الّذي نحن عليه. سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّى ميّتٌ عن قريب أو مقتولٌ، بل قتلًا ما ينتظر أشقاها أن يخضَب هذه بدم». وضرب بيده إلى لحيته.

ومنها في ذكر بني أُميّة: «يظهر أهلُ باطلها على أهل حقّها، حتّى تُملأ الأرض عدوانًا وظلمًا وبِدعًا إلى أن يضع الله عزّوجلّ جبروتها ويكسر عَمَدها وينزع أوتادها. ألا وإنّكم مدركوها، فانصرُوا قومًا كانوا أصحاب رايات بدر وحُنين تؤجروا، ولا تمالئوا عليهم عدوّهم فتصرعكم البَليّة وتحُلّ بكم النّقمة».

ومنها: «ألّا مثل انتصار العبد من مولاه إذا رآه أطاعه وإن توارى عنه شتَمه. وأيمُ الله لو فرّقوكم تحت كلّ حجرٍ لجمعكم الله لشرّ يوم لهم»

ومنها: «فانظروا أهل بيت نبيّكم، فإنْ لَبَدُوا فالْبُدوا، وإن استنصروكم فانصروهم، فليفرجَنّ الله الفتنة برجلٍ منّا أهلَ البيت. بأبي ابن خيرة الإماء، لا يعطيهم إلّا السّيف هَرْجًا هرجًا، موضوعًا على عاتقه ثمانية أشهر حتّى تقول قريش: لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا. يغريه الله ببني أُميّة حتّى يجعلهم حُطامًا ورفاتًا، ﴿مَّلْعُونِينَ

١ـ تفصيل حوادثها في الكامل لابن الأثير ٤: ٣٢٧ـ٣٣٤.

أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1].

فإن قيل: لماذا قال: «ولو لم أك فيكم لَما قوتل أهل الجمل وأهل النّهروان» ولم يذكر صِفّين؟

قيل: لأنّ الشّبهة كانت في أهل الجمل وأهل النّهروان ظاهرة الالتباس؛ لأنّ الزّبير وطلحة مَوْعودان بالجنّة، وعائشة موعودة أن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الآخرة كما هي زوجته في الدّنيا، وحال طلحة والزّبير في السّبق والجهاد والهجرة معلومة، وحال عائشة في محبّة الرّسول ﷺ لها وثنائه عليها ونزول القرآن فيها معلومة. وأمّا أهل النّهروان فكانوا أهلَ قرآنٍ وعبادة وإجتهاد وعزوف عن الدّنيا وإقبال على أُمور الآخرة، وهم كانوا قُرّاء أهل العراق وزهّادها. وأمّا معاوية فكان فاسقًا مشهورًا بقلّة الدّين والانحراف عن الإسلام وكذلك ناصره ومظاهره على أمره عمرو بن العاص ومن أتبعهما من طَغام أهل الشّام و أجلافهم وجهّال الأعراب. فلم يكن أمرهم خافيًا في جواز محاربتهم واستحلال قتالهم، بخلاف حال من تقدّم ذكره ... .

فإن قيل: فإنّكم قلتم فيما تقدّم: إنّ الوعد إنّما هو بالسّفّاح وبعمّه عبد الله بن عليّ، والمسوَّدة وما قلتموه الآن مختلف لذلك!

قيل: إن ذلك التّفسير هو تفسير ما ذكره الرّضيّ رحمه الله تعالى من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في «نهج البلاغة» وهذا التّفسير هو تفسير الزّيادة الّتي لم يذكرها الرّضيّ، وهي قوله بأبي ابن خيرة الإماء. وقوله : «لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا»، فلا مناقضةَ بين التّفسيرين. (٧ : ٤٧ـ٦٠)

(الخطبة: ٢٣٣) ومن خطبة له عليه السلام تختصّ بذكر الملاحم:

أَلا بِأَبِي وَأُمِّي هُمْ مِنْ عِدَّةٍ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّماءِ مَعْرُوفَةٌ وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ. أَلا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ وَانْقِطَاعِ وُصَلِكُمْ وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ.

١ـ الأحزاب / ٦١ـ ٦٢.

ذاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ، ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ المُعْطَى أَعْظَمَ أَجْرًا مِنَ الْمُعْطِي، ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِنَ النَّعْمَةِ والنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ، ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمُ الْبَلاءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ. مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ!

أَيُّهَا النّاس، أَلْقُوا هذِهِ الْأَزِمَّةَ الّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَلا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعَالِكُمْ، وَلا تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ الْفِتْنَةِ، وأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا؛ فَقد لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ. إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا. فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النّاس وَعُوا، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

الشّرح: الإمامية تقول هذه العدّة هم الأئمّة الأحد عشر من ولده عليه السلام. وغيرهم يقول إنّه عنَى الأبدال الّذين هم أولياء الله في الأرض، وقد تقدّم منّا ذكر القطب والأبدال وأوضحنا ذلك إيضاحًا جليًّا.

قوله عليه السلام: «أسماؤهم في السّماء معروفة»، أي تعرفها الملائكة المعصومون، أعلمهم الله تعالى بأسمائهم. «وفي الأرض مجهولة»، أي عند الأكثرين لاستيلاء الضّلال على أكثر البشر.

ثمّ خرج إلى مخاطبة أصحابه على عادته في ذكر الملاحم والفتن الكائنة في آخر زمان الدّنيا، فقال لهم: توقّعوا ما يكون من إدبار أُموركم وانقطاع وُصَلكم- جمع وُصْلة- واستعمال صغاركم، أي يتقدّم الصّغار على الكبار، وهو من علامات السّاعة.

قال: ذاك حيث يكون احتمال ضربة السّيف على المؤمن أقلّ مشقّةً من احتمال المشقّة في اكتساب درهم حلال، وذلك لأنّ المكاسب تكون قد فسدت واختلطت وغلب الحرام الحلالَ فيها.

قوله: «ذاك حيث يكون المعطَى أعظم أجرًا من المعطِي»، معناه أنّ اكثرمَن يعطي ويتصدّق في ذلك الزّمان يكون ماله حرامًا فلا أجرَ له في التّصدّق به، ثمّ أكثرهم يقصد الرّياء والسُّمعة بالصّدقة أو لهوَى نفسه أو لخطرة من خطراته، ولا يفعل

الحسن لأنّه حَسَن ولا الواجب لوجوبه فتكون اليدُ السُّفلى خيرًا من اليد العليا، عكس ما ورد في الأثر. وأمّا المعطَى فإنّه يكون فقيرًا ذا عيال لا يلزمه أن يبحث عن المال أ حرام هو أم حلال! فإذا أخذه ليسدّ به خلّته ويصرفه في قوت عياله، كان أعظم أجرًا ممّن أعطاه.

وقد خطر لي فيه معنى آخر، وهو أنّ صاحب المال الحرام إنّما يصرفه في أكثر الأحوال وأغلبها في الفساد وارتكاب المحظور كما قال: «مَن اكتسب مالًا مِن نَهاوِش أذهبه الله في نَهابِر»[1]، فإذا أخذه الفقير منه على وجه الصّدقة فقد فوّت عليه صرْفه في تلك القبائح والمحضورات الّتي كان بعرضته صرْف ذلك القدر فيها لو لم يأخذه الفقير. فإذًا قد أحسن الفقير إليه بكفّه عن ارتكاب القبيح، ومن العصمة ألّا يقدر فكان المعطَى أعظمُ أجرًا من المعطِي.

قوله عليه السلام: «ذاك حيث تَسكَرون من غير شراب، بل من النّعمة»، بفتح النّون، وهي غضارة العيش. وقد قيل في المثَل: سُكْر الهوى أشدّ من سُكْر الخمر.

قال: «تحلفون من غير اضطرار»، أي تتهاونون باليمين وبذكر الله عزّ وجلّ. قال: «وتكذبون من غير إحراج»، أي يصير الكذب لكم عادةً ودُرْبةً، لا تفعلونه لأنّ آخر منكم قد أحرجكم واضطرّكم بالغيظ إلى الحلف. ورُوي من غير «إحواج» بالواو، أي من غير أن يُحوِجكم إليه أحدٌ. قال: ذلك إذا عَضّكم البلاء كما يعضّ القتبُ غاربَ البعير.

هذا الكلام غير متّصل بما قبله، وهذه عادة الرّضيّ رحمه الله يلتقط الكلام التقاطًا ولا يتلو بعضه بعضًا، وقد ذكرنا هذه الخطبة أو أكثرها فيما تقدّم من الأجزاء الأُول. وقبل هذا الكلام ذكر ما ينالُه شيعتُه من البؤس والقُنوط ومشقّة انتظار الفرج.

قوله عليه السلام: «ما أطول هذا العناء وأبعد هذا الرّجاء!» هذا حكاية كلام شيعته وأصحابه. ثمّ قال مخاطِبًا أصحابَه الموجودين حوله: «أيّها النّاس، أَلْقُوا هذه الأزمّة

١ـ النَّهاوِش: المظالم، والنَّهابِر: المهالك. وانظر النّهاية لابن الأثير ٤: ١٨٦.

الّتي تَحمل ظهورُها الأثقال عن أيديكم». هذه كناية عن النّهي عن ارتكاب القبيح وما يوجب الإثم والعقاب ... . (١٣: ٩٥ـ ٩٨)

(الخطبة: ١٢٨) ومن كلام له عليه السلام فيما يخبربه عن الملاحم بالبصرة:

يَا أَحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَبِالْجَيْشِ الّذي لا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌوَلا لَجَبٌ وَلا قَعْقَعَةُ لُجُمٍ وَلا حَمْحَمَةُ خَيْلٍ، يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ.

قال السّريف الرّضيّ أبو الحسن رحمه الله تعالى: يومِئُ بذلك إلى صاحِب الزّنج ... [ثمّ ذكر أخبار صاحب الزّنج وفتنته وما انتحله من عقائد، كما سيجيء في باب «الخوارج»]. (٨: ١٢٥)

(الخطبة: ١٣٨) ومن خطبة له عليه السلام يومِئُ فيها إلى ذكر الملاحم:

يَعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهُدَى إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ.

منها: حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ، بَادِيًا نَوَاجِذُهَا، مُمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا، حُلْوًا رَضَاعُهَا، عَلْقَمًا عَاقِبَتُهَا.

أَلَا وَفِي غَدٍ ـ وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لا تَعْرِفُونَ ـ يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْمًا مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ، وَ يُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَ السُّنَّةِ.

الشّرح: هذا إشارةٌ إلى إمام يخلقه الله تعالى في آخر الزّمان، وهو الموعود به في الأخبار والآثار، ومعنى «يعطف الهوى» يقهره ويثنيه عن جانب الإيثار والإرادة، عاملًا عمل الهدى، فيجعل الهدى قاهرًا له وظاهرًا عليه. وكذلك قوله: «ويعطف الرّأي على القرآن»، أي يقهر حكم الرّأي والقياس والعمل بغلبة الظّنّ عاملًا عمل القرآن.

وقوله: «إذا عطفوا الهدى» و «إذا عطفوا القرآن» إشارة إلى الفِرَق المخالفين لهذا الإمام، المشاقّين له، الّذين لا يعملون بالهدى بل بالهوى، ولا يحكمون بالقرآن بل بالرّأي ... . (٩: ٤٠)

ومنها: كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ، فَعَطَفَ إِلَيْهَا

عَطْفَ الضَّـرُوسِ وَفَـرَشَ الْأَرْضَ بِـالرُّؤُوسِ. قَـدْ فَغَـرَتْ فَاغِرَتُـهُ وَتَقُلَـتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُـهُ بَعِيدَ الْجَوْلَةِ عَظِيمَ الصَّوْلَةِ.

وَاللهِ لَيُشَـرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْـرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لاَ يَـبْقَى مِـنْكُمْ إِلّا قَلِيـلٌ كَالْكُحْـلِ فِي الْعَيْنِ، فَلَا تَـزَالُونَ كَذلِكَ حَتَّى تَؤُوبَ إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا.

فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ وَالْآثَارَ الْبَيِّنَةَ وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الّذي عَلَيْهِ بَاقِي النّبوّةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ.

الشّرح: هذا إخبار عن عبد الملك بن مروان وظهوره بالشّام وملْكه بعد ذلك العراق وما قَتل من العرب فيها أيّامَ عبد الرّحمن بن الأشعث وقتله أيّام مصعب بن الزّبير... .

فإن قلت: فإنّ قوله: «حتّى تؤوب» يدلّ على أنّ غاية ملكه أن تؤوب إلى العرب عوازب أحلامها، وعبد الملك مات في ملكه ولم يزل الملْك عنه بأوْبَةِ أحلام العرب إليها، فإنّ فائدة «حتّى» إلى وهي موضوعةٌ للغاية.

قلت: إنّ ملْك أولاده ملْكه أيضًا، وما زال الملك عن بني مروان حتّى آبت إلى العرب عوازب أحلامها. والعرب هاهنا: بنو العبّاس ومَن اتّبعهم من العرب أيّام ظهور الدّولة، كقحطبة بن شبيب الطّائيّ وابنيْه حُميد والحسن، وكبني رزتني، بتقديم الرّاء المهملة، الّذين منهم طاهر بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم المصعبيّ وعدادهم في خُزاعة وغيرهم من العرب من شيعة بني العبّاس.

وقد قيل: إنّ أبا مسلم أيضًا عربيّ أصله، وكلّ هؤلاء وآبائهم كانوا مستضعَفين مقهورين مغمورين في دولة بني أُميّة، لم ينهض منهم ناهضٌ، ولا وثب إلى الملك واثبٌ، إلى أن أفاء الله تعالى إلى هؤلاء ما كان عزَب عنهم من إبائهم وحميّتهم، فغاروا للدّين والمسلمين من جوْر بني مروان وظلمهم، وقاموا بالأمر، وأزالوا تلك الدّولة الّتي كرهها الله تعالى، وأذِنَ في انتقالها.

ثمّ أمرهم عليه السلام بأن يلزموا بعد زوال تلك الدّولة الكتابَ والسّنّة، والعهد القريب الّذي عليه باقي النّبوّة ـ يعني عهده وأيّامه عليه السلام ـ وكأنّه خاف من أن يكون بإخباره لهم

بأنّ دولة هذا الجبّار ستنقضي إذا آبت إلى العرب عوازب أحلامها، كالأمر لهم باتّباع ولاة الدّولة الجديدة في كلّ ما تفعله، فاستَظهر عليهم بهذه الوصيّة وقال لهم: إذا ابتذلت الدّولة، فالْزَموا الكتاب والسّنّة والعهد الّذي فارقتُكم عليه. (٩: ٤٧ـ ٤٨)

(الحكمة: ٤٧٣) وَقَالَ عليه السلام: إِنَّ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِرْوَدًا يَجْرُونَ فِيهِ، وَ لَوْ قَدِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ لو كَادَتْهُمُ الضِّبَاعُ لَغَلَبَتْهُمْ.

الشّرح: هذا إخبارٌ عن غَيبٍ صريح، لأنّ بني أُميّة لم يزل مُلكُهم منتظِمًا لمّا لم يكن بينهم اختلاف، وإنّما كانت حروبهم مع غيرهم كحرْب معاوية في صفّين، وحرب يزيد أهلَ المدينة وابن الزبير بمكّة، وحرب مروان الضّحّاك، وحرب عبد الملك ابنَ الأشعث وابن الزّبير، وحرب يزيد ابنه بني المهلّب، وحرب هشام زيد بن عليّ.

فلمّا ولي الوليد بن يزيد وخرج عليه ابنُ عمّه يزيد بن الوليد وقتَله، اختلفتْ بنو أُميّة فيما بينهما وجاء الوعدُ ـ وصدَق من وعد به ـ فإنّه منذ قُتل الوليد دَعَت دعاةُ بني العبّاس بخُراسان وأقبَل مروانُ بن محمّد من الجزيرة يطلُب الخلافة، فخلع إبراهيم ابن الوليد وقتَل قومًا من بني أُميّة، واضطَرب أمرُ الملك وانتَشر وأقبَلت الدّولةُ الهاشميّة ونَمَتْ، وزال ملْك بني أُميّة. وكان زوال ملْكهم على يد أبي مُسلِم، وكان في بدايته أَضعفَ خلْق الله وأَعظمَهم فقرًا ومسكنةً، وفي ذلك تصديق قوله عليه السلام: «ثمّ لو كادَتْهم الضِّباع لغلَبتهم». (٢٠: ١٨٢ـ ١٨٣)

[جملة من أخبار عليّ عليه السلام بالأُمور الغيبيّة]

وقد ذكرنا فيما تقدّم من أخباره عليه السلام عن الغيوب طرفًا صالحًا، ومن عجيب ما وقفتُ عليه من ذلك قولُه في الخطبة الّتي يذكر فيها الملاحم، وهو يشير إلى القَرامطة[1]:

١ـ يرجع مذهب القرامطة إلي كبيرهم الحسن بن بهرام الجنابيّ أبو سعيد؛ كان دقّاقًا من أهل جنابة بفارس ونفى فيها، فأقام في البحرين تاجرًا وجعل يدعو العرب إلى نحلته، فعظم أمره، فحاربه الخليفة مظفّر الحسن وصافاه المقتدر العبّاسيّ. وكان أصحابه يسمّونه السّيّد. استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد

«ينتحلون لنا الحُبّ والهوى ويُضمِرون لنا البغض والقِلَى؛ وآية ذلك قتْلهم ورَاثنا، وهجْرهم أحداثنا».

وصحّ ما أخبر به، لأنّ القرامطة قتلتْ مِن آل أبي طالب عليهم السلام خلْقًا كثيرًا، وأسماؤهم مذكورة في كتاب «مقاتل الطّالبيّين» لأبي الفرج الأصفهانيّ. ومرّ أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابيّ في جيشه بالغَرِيّ[1] وبالحاير[2]؛ فلم يعرّج على واحد منهما ولا دخل ولا وقف.

وفي هذه الخطبة قال وهو يُشير إلى السّارية الّتي كان يستند إليها في مسجد الكوفة: «كأنّي بالحجر الأسود منصوبًا هاهنا. ويْحَهم! إنّ فضيلته ليست في نفسه، بل في موضعه وأسّه. يمكث هاهنا برهةً، ثمّ هاهنا برهةً ـ وأشار إلى البحرين ـ ثمّ يعود إلى مأواه وأُمّ مثواه».

و وقع الأمر في الحجر الأسود بموجب ما أخبر به عليه السلام.

وقد وقفت له على خطب مختلفة فيها ذكر الملاحم، فوجدتها تشتمل على ما يجوز أن ينسب إليه وما لا يجوز أن ينسب إليه، و وجدت في كثير منها اختلالا ظاهرًا، وهذه المواضع الّتي أنقلها ليست من تلك الخطب المضطربة، بل من كلامٍ له وجدتُه متفرّقًا في كتب مختلفة.

ومن ذلك أن تميم بن أُسامة بن زهير بن دريد التّميميّ اعترضه، وهو يخطب على المنبر ويقول: «سلوني قبل أن تفقدوني؛ فوالله لا تسألوني عن فئة تضلّ مائةً أو تهدي مائةً إلّا نبّأتكم بناعقها وسائقها. ولو شئتُ لأخبرت كلّ واحدٍ منكم بمخرجه ومدخله وجميع شأنه». فقال: فكمْ في رأسي طاقة شَعر؟ فقال له: «أما والله، إنّي لأعلم ذلك

البحرين. وكان شجاعًا داهية، قتله خادم له صقلبيّ في الحمّام بهجر، مات سنة ٣٠١. وانظر تاريخ ابن الأثير.

١ـ الغريّ، واحد الغريّيْن؛ وهما بناءان كالصّومعتين كانا بظهر الكوفة، قرْب قبر عليّ عليه السلام (مراصد الاطّلاع).

٢ـ الحاير، بعد الألف ياء مكسورة: موضع قبر الحسين عليه السلام. ذكره ياقوت.

ولكن أين برهانه لو أخبرتك به! ولقد أخبرتك بقيامك ومقالك. وقيل لي إنّ على كلّ شَعرة مِن شعر رأسك ملكًا يلعنك وشيطانًا يستفزّك، وآيةُ ذلك أنّ في بيتك سخلًا يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ويحضّ على قتله»[1].

فكان الأمر بموجب ما أخبر به عليه السلام كان ابنه حصين ـ بالصّاد المهملة ـ يومئذ طفلًا صغيرًا يرضع اللّبن. ثمّ عاش إلى أن صار على شُرطة عبيد الله بن زياد وأخرجه عبيد الله إلى عمر بن سعد يأمره بمناجزة الحسين عليه السلام ويتوعّده على لسانه إن أرجأ ذلك، فقُتل عليه السلام صبيحة اليوم الّذي ورد فيه الحصين بالرّسالة في ليلته.

ومن ذلك قوله عليه السلام للبَراء بن عازب يومًا: «يا براء، أ يقتل الحسين وأنت حيٌّ فلا تنصره!» فقال البَرَاء: لا كان ذلك يا أمير المؤمنين! فلمّا قُتل الحسين عليه السلام كان البراء يذكر ذلك ويقول: أعظِمْ بها حَسْرةً! إذْ لم أشهده وأقتل دونه!

وسنذكر من هذا النَّمَط ـ فيما بعد إذا مررنا بما يقتضي ذكره ـ ما يحضرنا إن شاء الله. (١٠: ١٣ـ١٥)

(الحكمة: ٩٨) يَأْتِي عَلَى النّاس زَمَانٌ لَا يُقَرَّبُ فِيهِ إِلَّا الْمَاحِلُ وَلَا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلَّا الْفَاجِرُ وَلَا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلَّا الْمُنْصِفُ. يَعُدُّونَ الصَّدَقَةَ فِيهِ غُرْماً وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنًّا وَالعِبادَةَ اسْتِطالَةً عَلَى النّاس؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ السُّلْطَانُ بِمَشُورَةِ الإِماءِ وَإِمارَةِ الصِّبْيَانِ وَتَدْبِيرِ الْخِصْيَانِ.

... وهو من باب الإخبار عن الغيوب وهي إحدى[2] آياته والمعجزات المختصّ بها دون الصّحابة. (١٨: ٢٦١)

١ـ ب: «قتاله».

٢ـ د: «وهي إحدى».

[في شجاعته عليه السلام]

(الحكمة: ٢٣٠) وَ قَالَ عليه السلام لِابْنِهِ الْحَسَنِ: لاتَدْعُوَنَّ إِلَى مُبَارَزَةٍ، فَإِنْ دُعِيتَ إِلَيْهَا فَأَجِبْ؛ فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِلَيْهَا بَاغٍ، وَ الْبَاغِيَ مَصْرُوعٌ.

قد ذكر عليه السلام الحكمة، ثمّ ذكر العلّة، وما سَمعنا أنّه عليه السلام دعا إلى مُبارزةٍ قَطّ، وإنّما كان يُدعَى هو بعينه أو يدعو مَن يبارز، فيخرج إليه فيقتله. دعا بنو ربيعة بن عبد بن شمس بني هاشم إلى البَراز يوم بَدْر، فخرج عليه السلام فقتل الوليد واشترك هو وحمزة عليه السلام في قتل عُتْبة. ودعا طلحة بن أبي طلحة إلى البراز يوم أُحُد، فخرج إليه فقتله. ودعا مَرْحب إلى البراز يوم خَيْبر فخرج إليه فقتله.

فأمّا الخَرْجة الّتي خرَجَها يوم الخَنْدق إلى عمرو بن عبد وُدّ فإنّها أجلّ من أن يقال جليلة، وأعظم من أن يقال عظيمة، وما هي إلّا كما قال شيخنا أبو الهذيل وقد سأله سائلٌ: أيّما أعظم منزلةً عند الله، عليٌّ أم أبو بكر؟ فقال: يا بن أخي، والله لمبارَزة عليٍّ عَمْرًا يوم الخندق تَعدِل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتهم كلّها وتُربِي عليها فضلًا عن أبي بكر وحدَه.

وقد رُوي عن حُذيفة بن اليمان ما يُناسِب هذا، بل ما هو أبلغ منه؛ رَوى قيس ابن الرّبيع عن أبي هارون العبْديّ، عن ربيعة بن مالك السّعديّ، قال: أتيتُ حذيفة ابن اليمان فقلت: يا أبا عبد الله، إنّ النّاس يتحدّثون[1] عن عليّ بن أبي طالب ومناقبه فيقول لهم أهل البصيرة: إنّكم لتُفرِطون في تقريظ هذا الرّجل. فهل أنت محدِّثي بحديثٍ عنه أذكرُهُ للنّاس؟

فقال: يا ربيعة، وما الّذي تسألني عن عليّ، وما الّذي أُحدّثك عنه! والّذي نفْس حذيفة بيده، لو وُضع جميع أعمال أمّة محمّد صلى الله عليه وآله في كِفّة الميزان مُنذ بعث الله تعالى

---

١ ـ ب: «يستحدثون»، تحريف.

محمّدًا إلى يوم النّاس هذا، و وُضع عملٌ واحدٌ من أعمال عليّ في الكِفّة الأُخرى لرَجح على أعمالهم كلّها.

فقال ربيعة: هذا المَدْح الّذي لا يقام له ولا يُقعد ولا يُحمل، إنّي لأظنّه إسرافًا يا أبا عبد الله! فقال حذيفة: يا لُكَع، وكيف لا يُحمل! وأين كان المسلمون يوم الخَنْدق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه فملكهم الهلع والجزع، ودعا إلى المبارزة فأحجَموا عنه حتّى برز إليه عليٌّ فقتله! والّذي نفْس حذيفة بيده، لَعملُه ذلك اليوم أعظم أجرًا من أعمال أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله إلى هذا اليوم وإلى أن تقوم القيامة.

وجاء في الحديث المرفوع: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال ذلك اليوم حين برز إليه: «برَز الإيمانُ كلّه إلى الشّرك كلّه».

وقال أبو بكر بن عيّاش: لقد ضرَب عليّ بن أبي طالب عليه السلام ضربةً ما كان في الإسلام أيْمَنَ منها، ضَرْبتُه عَمْرًا يوم الخندق، ولقد ضُرب عليٌّ ضربةً ما كان في الإسلام أشْأَمَ منها ـ يعني ضربة ابن مُلجَم لعَنه الله.

وفي الحديث المرفوع أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا بارَز عليٌّ عَمْرًا ما زال رافعًا يديْه، مُقْمِحًا[1] رأسَه نحوَ السّماء، داعيًا ربّه قائلاً: اللّهمّ إنّك أخذتَ منّي عُبيدة يوم بَدْر، وحمزة يوم أُحُد، فاحفظْ عليّ اليوم عليًّا، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[2].

وقال جابر بن عبد الله الأنصاريّ: والله ما شبَّهتُ يوم الأحزاب قتلَ عليّ عمْرًا وتخاذُل المُشركين بعدَه، إلّا بما قَصّه الله تعالى من قصّة طالوت وجالوت في قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾[3].

ورَوى عمرو بن أَزْهر، عن عمرو بن عُبيد، عن الحسن أنّ عليًّا عليه السلام لمّا قتَل عَمْرًا احتزّ رأسَه وحمَله فألقاه بين يديْ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقام أبو بكر وعُمَر فقبّلا رأسه،

١ـ أقمَح رأسه: كشَفها.

٢ـ الأنبياء/ ٨٩.

٣ـ البقرة/ ٢٥١.

و وَجْهُ رسولِ الله ﷺ يتهلّل، فقال: هذا النّصر! أو قال: هذا أوّل النّصر.

وفي الحديث المرفوع: إنّ رسولَ الله ﷺ قال يوم قُتل عمرو: «ذهبت ريحُهم، ولا يَغْزوننا بعد اليوم، ونحن نَغْزُوهم إن شاء الله». (١٩: ٦٠ـ٦٢)

[حبّه عليه السلام للشّهادة]

(كتابه: ٣٥) ومن كتاب له عليه السلام إلى عبدالله بن العبّاس بعد مقتل محمّد بن أبي بكر:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رحمه الله قَدِ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَداً نَاصِحًا، وَعَامِلًا كَادِحًا، وَسَيْفًا قَاطِعًا، وَرُكْنًا دَافِعًا.

وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النّاس عَلَى لَحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا وَعَوْدًا وَبَدْءًا، فَمِنْهُمُ الْآتِي كَارِهًا، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِبًا، وَمِنْهُمُ الْقَاعِدُ خَاذِلًا... .

... قوله: «فمنهم الآتي ...»، قسّم جنده أقسامًا؛ فمنهم مَن أجابه وخرج كارهًا للخروج، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[1]. ومنهم مَن قعد واعتلّ بعلّة كاذبة، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[2]. ومنهم مَن تأخّر وصرّح بالقعود والخذلان، كما قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3].

والمعنى أنّ حاله كانت مناسبة لحال النّبيّ ﷺ، ومَن تذكر تدبّر أحوالهما وسيرتهما وما جرى لهما إلى أن قُبضا، علم تحقيق ذلك. ثمّ أقسم أنّه لولا طمعه في الشّهادة لما أقام مع أهل العراق ولا صحبهم.

فإن قلت: فهلّا خرج إلى معاويه وحده من غير جيش إن كان يريد الشّهادة؟

١ـ الأنفال / ٦.

٢ـ الأحزاب / ١٣.

٣ـ التّوبة / ٨١.

قلت: ذلك لا يجوز لأنّه إلقاء النّفس إلى التّهلكة، وللشّهادة شروطٌ متى فقدت، فلا يجوز أن تحمل إحدى الحالتيْن على الأُخرى. (١٦: ١٤٧)

[في حبّ عليّ عليه السلام]

(الحكمة: ١٠٨) وَ قَالَ عليه السلام، وَ قَدْ تُوُفِّيَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ الْأَنْصَارِيُّ بِالْكُوفَةِ بَعْدَ مَرْجِعِهِ مِنْ صِفِّينَ مَعَهُ، وَكَانَ أَحَبَّ النّاس إِلَيْهِ: لَوْ أَحَبَّنِي جَبَلٌ لَتَهَافَتَ.

الشّرح: قد ثبَت أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله قال له: «لا يُحبّك إلّا مؤمن ولا يُبغِضك إلّا مُنافق». وقد ثبَت أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله قال: «إنّ البَلوَى أسرَعُ إلى المؤمن من الماء إلى الحدُور». وفي حديثٍ آخَر: «المؤمنُ مُلَقًّى والكافرُ مُوَقًّى». وفي حديثٍ آخر: «خيرُكم عند الله أعظمُكم مصائبَ في نفسه وماله و ولده».

وهاتان المقدّمتان يَلزمهما نتيجة صادقة، وهى أنّه عليه السلام لو أحبّه جبلٌ لتَهافَت. ولعلّ هذا هو مرادُ الرّضيّ بقوله: «وقد يؤوّل ذلك على معنًى آخَر ليس هذا موضع ذِكره». (١٨: ٢٧٥)

(الحكمة:٤٣) وقال عليه السلام: لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي، وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي، وَ ذَلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النّبيّ الأُمّيّ صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: «يَا عَلِيُّ، لايُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ، وَلايُحِبُّكَ مُنَافِقٌ».

... ومرادُه عليه السلام من هذا الفصل إذكار النّاس ما قاله فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو: «لا يُبغِضك مؤمنٌ، ولايحبّك منافقٌ»، وهي كلمة حقٍّ؛ وذلك لأنّ الإيمان وبغضَه عليه السلام لا يَجتمعان، لأنّ بغضه كبيرةٌ، وصاحب الكبيرة عندنا لا يسمّى مؤمنًا، وأمّا المنافق فهو الّذي يُظهِر الإسلام ويُبطِن الكفر، والكافرُ بعقيدته لا يحبّ عليًّا عليه السلام، لأنّ المراد من الخبر المحبّة الدّينيّة، ومن لا يعتقد الإسلام لايحبّ أحدًا من أهل الإسلام، لإسلامه

وجهاده في الدّين. فقد بان أنّ الكلمة حقّ وهذا الخبر مرويٌّ في الصّحاح بغير هذا اللّفظ: «لا يحبّك إلّا مؤمنٌ، ولا يبغضك إلّا منافقٌ»، وقد فسّرناه فيما سبق. (١٨: ١٧٣)

[كلام أبي جعفر الحسنيّ في الأسباب الّتي أوجبت محبّة النّاس لعليّ عليه السلام]

وكان أبو جعفر رحمه الله لا يجحد الفاضل فضله، والحديث شُجونٌ. قلت له مرّةً: ما سبب حبّ النّاس لعليّ بن أبي طالب عليه السلام وعشقهم له وتهالكهم في هواه؟ ودعْني في الجواب من حديث الشّجاعة والعلم والفصاحة وغير ذلك من الخصائص الّتي رزقه الله سبحانه الكثير الطّيّب منها!

فضحك وقال لي: كم تجمع جراميزك عليّ! ثمّ قال: هاهنا مقدّمةٌ ينبغي أن تُعلَم: وهي أنّ أكثر النّاس موتورون من الدّنيا؛ أمّا المستحقّون فلا ريب في أنّ أكثرهم محرومون؛ نحو عالمٍ يرى أنّه لا حظّ له في الدّنيا ويرى جاهلًا غيره مرزوقًا وموسّعًا عليه؛ وشجاعٍ قد أبلَى في الحرب وانتُفِع بموضعه، ليس له عطاءٌ يكفيه ويقوم بضروراته ويرى غيره وهو جبانٌ فشِل، يفرقُ من ظلّه مالكًا لقُطْرٍ عظيم من الدّنيا وقطعةٍ وافرة من المال والرّزق؛ وعاقلٍ سديد التّدبير صحيح العقل، قد قُدِر[1] عليه رزقه وهو يرى غيره أحمق مائقًا تدرّ عليه الخيرات وتتحلّب عليه أخلاف الرّزق؛ وذي دينٍ قويم وعبادةٍ حَسَنة وإخلاص وتوحيد، وهو محرومٌ ضيّق الرّزق ويرى غيره يهوديًّا أو نصرانيًّا أو زنديقًا كثيرَ المال حَسَن الحال.

حتّى إنّ هذه الطّبقات المستحقّة يحتاجون في أكثر الوقت إلى الطّبقات الّتي لا استحقاق لها، وتدعوهم الضّرورة إلى الذّلّ لهم والخضوع بين أيديهم، إمّا لدفع ضررٍ أو لاستجلاب نفعٍ.

١ـ قُدر عليه رزقه: ضيق.

ودون هذه الطّبقات مِن ذوي الاستحقاق أيضًا ما نشاهده عيانًا من نجّارٍ حاذق أو بنّاءٍ عالم أو نقّاشٍ بارع أو مصوّرٍ لطيف، على غاية ما يكون مِن ضيق رزقهم وقعود الوقت بهم وقلّة الحيلة لهم، ويُرى غيرُهم ممّن ليس يجري مجراهم ولا يلحق طبقتهم مرزوقًا مرغوبًا فيه كثيرَ المكْسب طيّبَ العيش واسعَ الرّزق.

فهذا حال ذوي الاستحقاق والاستعداد، وأمّا الّذين ليسوا من أهل الفضائل كحشْو العامّة، فإنّهم أيضًا لا يخلُون من الحقْد على الدّنيا والذّمّ لها والحنَق والغيظ منها لِما يلحقهم من حسد أمثالهم وجيرانهم. ولا يُرى أحدٌ منهم قانعًا بعيشه ولا راضيًا بحاله، بل يستزيد ويطلب حالًا فوق حاله.

قال: فإذا عرفت هذه المقدّمة فمعلومٌ أنّ عليًّا عليه السلام كان مستحقًّا محرومًا، بل هو أمير المستحقّين المحرومين وسيّدهم وكبيرهم. ومعلومٌ أنّ الّذين ينالهم الضّيمُ وتلحقهم المذلّة والهضِيمة، يتعصّب بعضهم لبعض ويكونون إلْبًا ويدًا واحدة على المرزوقين الّذين ظفروا بالدّنيا ونالوا مآربهم منها، لاشتراكهم في الأمر الّذي آلمهم وساءهم وعضّهم ومضّهم، واشتراكهم في الأنفة والحميّة والغضب والمنافسة لمَن علا عليهم وقهَرهم وبلغ من الدّنيا ما لم يبلغوه.

فإذا كان هؤلاء ـ أعني المحرومين ـ متساوين في المنزلة والمرتبة، وتعصَّب بعضهم لبعض، فما ظنّك بما إذا كان منهم رجلٌ عظيمُ القدْر جليلُ الخطر كاملُ الشّرف جامعٌ للفضائل محتوٍ على الخصائص والمناقب، وهو مع ذلك محرومٌ محدود، وقد جرَّعتْه الدّنيا علاقمَها وعلّتْه عَلَلًا بعد نَهَلٍ مِن صابها وصَبِرها، ولقي منها بَرْحًا بارحًا وجهدًا جهيدًا، وعلا عليه مَن هو دونه، وحُكِّم فيه وفي بنيه وأهله ورهطه مَن لم يكن ما ناله مِن الإمرة والسّلطان في حسابه ولا دائرًا في خَلَده ولا خاطرًا بباله، ولا كان أحدٌ من النّاس يرتقب ذلك له ولا يراه له.

ثمّ كان في آخر الأمر أن قُتل هذا الرّجل الجليل في محرابه وقُتل بنوه بعده وسُبِي حريمه ونساؤه وتُتُبِّع أهله وبنو عمّه بالقتل والطّرد والتّشريد والسّجون، مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم وانتفاع الخلْق بهم. فهل يمكن ألّا يتعصّبَ البشرُ كلّهم

مع هذا الشّخص! وهل تستطيع القلوب ألّا تحبّه وتهواه وتذوبَ فيه وتفنى في عشقه، انتصارًا له وحَمِيّةً من أجله وأنفَةً ممّا ناله وامتعاضًا ممّا جرى عليه!

وهذا أمرٌ مركوز في الطّبائع ومخلوقٌ في الغرائز، كما يشاهد النّاس على الجُرُف إنسانًا قد وقع في الماء العميق وهو لا يحسن السِّباحة فإنّهم بالطّبع البشريّ يرقّون عليه رقّةً شديدةً، وقد يُلقي قوم منهم أنفسَهم في الماء نحوه، يطلبون تخليصَه، لا يتوقّعون على ذلك مجازاةً منه بمالٍ أو شكرٍ ولا ثوابًا في الآخرة؛ فقد يكون منهم مَن لا يعتقد أمرَ الآخرة ولكنّها رقّةٌ بشَريّة. وكأنّ الواحدَ منهم يتخيّل في نفسه أنّه ذلك الغريق، فكما يطلب خلاصَ نفسه لو كان هذا الغريق كذلك يطلب تخليصَ مَن هو في تلك الحال الصّعبة للمشاركه الجنسيّة.

وكذلك لو أنّ ملكًا ظلم أهلَ بلدٍ من بلاده ظلمًا عنيفًا، لكان أهلُ ذلك البلد يتعصّب بعضهم لبعض في الانتصار من ذلك الملك والاستعداء عليه. فلو كان مِن جملتهم رجلٌ عظيم القدر جليل الشّأن، قد ظلمه الملك أكثَر من ظلْمه إيّاهم وأخَذ أموالَه وضياعه وقتَل أولاده وأهله، كان لِياذُهُم به وانضواؤُهُم إليه واجتماعهم والتفافهم به أعظمَ وأعظم، لأنّ الطّبيعة البشريّة تدعو إلى ذلك على سبيل الإيجاب الاضطراريّ، ولا يستطيع الإنسان منه امتناعًا.

هذا محصول قولِ النّقيب أبي جعفر رحمه الله، قد حكيته والألفاظ لي والمعنى له، لأنّي لا أحفظ الآن ألفاظه بعينها إلّا أنّ هذا هو كان معنى قوله وفحواه رحمه الله. وكان لا يعتقد في الصّحابة ما يعتقده أكثر الإماميّة فيهم، ويُسفِّه رأيَ مَن يذهب فيهم إلى التّفاق والتّكفير، وكان يقول: حكْمهم حكْم مسلمٍ مؤمن عصَى في بعض الأفعال وخالف الأمر، فحكْمه إلى الله؛ إن شاء آخذه وإن شاء غفر له.

قلت له مرّةً: أ فتقول إنّهما من أهل الجنّة؟ فقال: إي والله! أعتقد ذلك لأنّهما إمّا أن يعفوَ الله تعالى عنهما ابتداءً أو بشفاعة الرّسول صلى الله عليه وآله أو بشفاعة عليّ عليه السلام، أو يؤاخذهما بعقاب أو عتاب ثمّ ينقلهما إلى الجنّة، لا أستريب في ذلك أصلًا ولا أشكُّ في إيمانهما برسول الله صلى الله عليه وآله وصحّة عقيدتهما. فقلت له: فعثمان؟ قال: وكذلك عثمان.

ثمّ قال: رحم الله عثمان! وهل كان إلّا واحدًا منّا وغصنًا من شجرة عبد مناف! ولكنّ أهلَه كدّروه علينا وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا.

قلت له: فيلزمُك[1] على ما تراه في أمرِ هؤلاء أن تجوّز دخولَ معاوية الجنّة، لأنّه لم تكن منه إلّا المخالفة وترك امتثال الأمر النّبويّ! فقال: كلّا، إنّ معاوية من أهل النّار لا لمخالفته عليًّا ولا بمحاربته إيّاه، ولكنّ عقيدتَه لم تكن صحيحةً ولا إيمانَه حقًّا، وكان من رءوس المنافقين هو وأبوه، ولم يُسلِمْ قلبُه قطّ وإنّما أسلم لسانه. وكان يذكُر مِن حديث معاوية ومن فلَتات قوله وما حُفظ عنه من كلامٍ يقتضي فساد العقيدة شيئًا كثيرًا، ليس هذا موضعَه فأذكره.

وقال لي مرّةً: حاش لله أن يُثبِت معاوية في جَريدة الشّيخيْن الفاضلين أبي بكر وعمر! والله ما هما إلّا كالذّهب الإبريز، ولا معاوية إلّا كالدّرهم الزّائف ـ أو قال: كالدّرهم القَسّيّ[2] ـ ثمّ قال لي: فما يقول أصحابكم فيهما؟

قلت: أمّا الّذي استقرّ عليه رأيُ المعتزلة بعد اختلافٍ كثير بين قدمائهم في التّفضيل وغيره، أنّ عليًّا عليه السلام أفضل الجماعة، وأنّهم تركُوا الأفضلَ لمصلحةٍ رأوْها وأنّه لم يكن هناك نصٌّ يقطع العُذر[3]، وإنّما كانت إشارة وإيماء لا يتضمّن شيء منها صريحَ النّصّ، وإنّ عليًّا عليه السلام نازَع ثمّ بايع، وجمَح ثمّ استجاب. ولو أقام على الامتناع لم نقلْ بصحّة البيعة ولا بلزومها، ولو جرّد السّيف كما جرّده في آخِر الأمر لقلنا بفسق كلّ مَن خالفه على الإطلاق، كائنًا مَن كان، ولكنّه رَضي بالبيعة أخيرًا ودخل في الطّاعة.

وبالجملة، أصحابنا يقولون: إنّ الأمر كان له وكان هو المستحقّ والمتعيّن، فإن شاء أخذه لنفسه وإن شاء ولّاه غيرَه. فلمّا رأيناه قد وافَق على ولاية غيره، اتبّعناه ورضِينا بما رَضي. فقال: قد بَقي بيني وبينكم قليل، أنا أذهب إلى النّصّ وأنتم لا تذهبون إليه!

---

١ ـ ب: «فليزم لك».

٢ ـ درهمٌ قسّيّ، وتخفّف سينه، أي رديء.

(٣) هذا خلاف ما ذهب اليه الإماميّة، وقد ناقشناه في هذه الإدّعاء في المجلّد الثّالث، الصّفحة ٤٨١، فلاحظ.

فقلت له: إنّه لم يثبت النّصّ عندنا بطريق يوجب العلم. وما تذكرونه أنتم صريحًا فأنتم تنفردون بنقله، وما عدَا ذلك من الأخبار الّتي نشارككم فيها، فلها تأويلات معلومة.

فقال لي وهو ضَجِرٌ: يا فلان، لو فتحنا باب التّأويلات لجاز أن يَتناول قولنا: «لا إله إلّا الله محمّدٌ رسول الله». دعني من التّأويلات الباردة الّتي تعلم القلوب والنّفوس أنّها غيرُ مرادة، وأنّ المتكلّمين تكلّفوها وتعسّفوها. فإنّما أنا وأنت في الدّار ولا ثالث لنا، فيستحيي أحدُنا من صاحبه ويخافه. فلمّا بلغنا إلى هذا الموضع، دخل قوم ممّن كان يخشاه فتركنا ذلك الأُسلوب من الحديث وخُضنا في غيره. (١٠: ٢٢٣ـ ٢٢٧)

[خطبة منسوبة للإمام عليّ عليه السلام خالية من حرف الألف]

وأنا الآن أذكرُ من كلامه الغريب ما لم يُورِدْه أبو عُبيد وابن قُتيبة في كلامهما وأشرحُه أيضًا، وهي خطبة رواها كثيرٌ من النّاس له عليه السلام خاليةٌ من حَرْف الألف؛ قالوا: تذاكر[1] قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: أيّ حروف الهجاء أَدخَل في الكلام؟ فأجمعوا على الألف، فقال عليٌّ عليه السلام:

حَمِدْتُ مَن عظُمتْ مِنّتُه، وسبَغتْ نعمتُه، وسبقَتْ غضبَه رحمتُه، وتمّتْ كلمتُه، ونفذتْ مشيئتُه، وبلغتْ قضيّتُه. حَمِدتُه حمد مُقِرٍّ بربُوبيّته، متخضِّعٍ لعبوديّته، متنصِّلٍ مِن خطيئته، متفرّدٍ بتوحيده، مؤمّلٍ منه مغفرةً تُنْجيه يومَ يُشغَل عن فصيلته وبنيه. ونستعينُه ونسترشدُه ونستهديه ونُؤمِن به ونتوكّل عليه. وشهدْتُ له شهودَ مُخلِصٍ موقِنٍ، وفَرَدْتُه تفريدَ مُؤمِنٍ مُتيقِّنٍ، و وحَّدْتُهُ توحيدَ عبدٍ مذعِنٍ، ليس له شريكٌ في مُلكِه، ولم يكن له وليٌّ في صنعِه، جَلَّ عن مُشيرٍ و وزيرٍ وعن عوْنِ مُعِينٍ ونصيرٍ ونظيرٍ.

١ـ في الأصل: «بذاكر»، تصحيف.

عَلِم فستر، وبطَن فخبر، وملك فقهر، وعُصي فغفر، وحكَم فعدل. لم يزلْ ولن يزولَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]، وهو بعد كلّ شيءٍ، ربٌّ متعزّزٌ بعزّته، متمكّنٌ بقُوّته، متقدّسٌ بعُلُوّه، متكبّرٌ بسُمُوّه، ليس يدركُهُ بصرٌ، ولم يُحِطْ به نظرٌ، قويٌّ منيعٌ، بصيرٌ سميعٌ، رَءُوفٌ رحيمٌ. عجَز عن وصفِه مَن يصفُه، وضلّ عن نعتِه مَن يعرفه. قرُب فبعُد، وبعُد فقرُب، يُجيب دعوةَ مَن يدعوه، ويرزقُه ويحبُّوه، ذو لطف خَفِيٍّ، وبطْشٍ قويٍّ، ورحمة مُوسَعةٍ، وعقوبةٍ موجِعةٍ. رحْمته جنّةٌ عريضةٌ مونقةٌ، وعقوبته جحيمٌ ممدودةٌ موبقةٌ.

وشهِدتُ ببعث محمّدٍ رسولِه وعبدِه وصفيّه ونبيّه ونَجيّه وحبيبِه وخليلِه. بعَثه في خيرِ عصرٍ وحين فترةٍ وكفرٍ، رحمةً لعبيده ومنّةً لمزيده. ختم به نبوّته وشيَّد به حجّته، فوعظ ونصح وبلغ وكدح، رءوفٌ بكلّ مُؤمنٍ، رحيمٌ سخيٌّ رضيٌّ وليٌّ زكيٌّ، عليه رحْمةٌ وتسليمٌ وبركةٌ وتكريمٌ مِن رَبٍّ غفورٍ رحيمٍ قريبٍ مُجيبٍ.

وَصَّيْتُكم معشرَ مَن حضَرني بوصيّةِ ربّكم، وذكّرْتُكم بسُنّة نبيّكم، فعليكم برَهْبةٍ تَسكُن قلوبَكم وخشيةٍ تُذْري دُموعَكم وتقيَّةٍ تنجيكُمْ قبل يومٍ نُبليكم وتُذهِلكم، يوْمَ يفوزُ فيه مَن ثقُل وزْنُ حَسنتِه وخفَّ وزْنُ سيّئتِه. ولتكُنْ مسألتُكم وتملّقُكم مسألة ذلٍّ وخضوعٍ وشكرٍ وخشوعٍ، بتوْبةٍ وتَوَرّعٍ وندمٍ ورجوعٍ.

وليغتنمْ كلُّ مُغتَنِمٍ منكُم صحّتَه قبل سقْمه، وشبيبتَه قبل هَرَمِه، وسعتَه قبل فَقْره، وفرْغَتَه قبل شُغله، وحضَرَه قبل سفره، قبلَ تكبُّرٍ وتَهَرُّمٍ وتسقُّمٍ، يَملُّه طبيبُهُ، ويعْرِضُ عنه حبيبُه، وينقطع غمْدُه، ويتغيَّر عقلُه، ثمّ قِيل: هو موعُوكٌ، وجسمُهُ منْهُوكٌ. ثمّ جُدَّ في نزعٍ شديدٍ، وحضَره كلُّ قريبٍ وبعيدٍ، فشَخص بصرُهُ، وطمِح نظرُهُ، ورشَح جبينُهُ، وعَطف عَرينُه، وسكَن حَنِينُه، وحزَنتْه نفسه، وبكتْه عِرْسُه، وحُفِر رَمْسهُ، ويُتِّم منه ولَدُه، وتفرَّق منه عدَدُه، وقُسِم جَمْعُه، وذهَب بصرُه وسمعُه، ومُدِّد وجُرِّد وعُرِّي وغُسِل ونُشِّف وَسُجِّي وبُسِط لَهُ وهُيِّئَ ونُشِر عليه كَفنُه، وشُدَّ منه ذَقنُه، وقُمِّص وعُمِّم وَ وُدِع وسُلِّم وحُمِل فوق سَرِيرٍ، وصُلِّي عليه بتكبيرٍ.

١ـ الشّورى / ١١.

ونُقِل مِن دُورٍ مُزَخْرَفَةٍ وقُصُور مُشيَّدَةٍ وحُجَر مُنحَّدَةٍ، وجُعِل في ضريحٍ ملْحُودٍ وضِيقٍ مَرْصُودٍ، بلَبِنٍ مَنضُودٍ، مُسقَّفٍ بجُلْمُودٍ، وهيلَ عليه حفْرُه، وحُثِي عليه مَدَرُه، وتحقَّق حِذْرُه، ونُسِي خبرُه، ورَجَع عنه وليُّه وصفيُّه وندِيمُه ونَسِيبُه، وتبدَّل به قرينُه وحبيبُه، فهو حشْوُ قبرٍ، ورهينُ قفرٍ، يَسعَى بجسمه دُودُ قبرِه، ويسيل صدِيده مِن مَنخِرِه، يَسحَق تُرْبُه لحمَه، ويَنشَفُ دَمَه، ويَرُمّ عظمَه حتّى يوْم حشْره، فنُشِر مِن قَبْرِه حِين يُنفخ في صُورٍ، ويُدْعَى بحشْرٍ ونُشُورٍ.

فثَمَّ بُعثِرتْ قُبُورٌ، وحُصِّلتْ سرِيرَةُ صُدُورٍ، وجِيءَ بكلّ نبيٍّ وصدِّيقٍ وشهيدٍ، وتوحَّد لِلفَصْل قديرٌ بعبدِه خبيرٌ بصير. فكَمْ مِن زَفْرة تُضْنيه، وحسرةٍ تُنْضيه، في مَوْقفٍ مَهُولٍ، ومشْهدٍ جَليلٍ، بين يَدَيْ ملكٍ عظيمٍ، وبكلّ صَغيرٍ وكَبيرٍ عَليمٍ، فحينئذٍ يُلْجِمُهُ عرَقُه، ويُحصِرُه قلَقُه، عبْرتُه غير مرحومةٍ، وصرْختُه غيرُ مسموعةٍ، وحجّتُه غير مقولةٍ. زَالتْ جريدته، ونشرَتْ صحيفته؛ نظَر في سوءِ عمله، وشهدتْ عليْه عيْنه بنظره، ويدُه ببَطشه، ورجلُه بخطْوه، وفرْجه بلمسه، وجلدُه بمسّه. فسُلسِلَ جيدُه، وغُلَّتْ يده، وسيقَ فسُحِب وحْدَه، فوَرَد جهنَّمَ بكرْبٍ وشدَّةٍ، فظلّ يعذَّبُ في جحيمٍ، ويُسْقَى شَرْبةً مِن حَمِيمٍ تَشْوي وجْهَهُ وتسلخُ جلْدَهُ، وتضْربُه زِبْنِيَةٌ بمقْمَع مِن حَدِيدٍ، ويعودُ جلْده بَعْدَ نُضْجه كجلْدٍ جَديدٍ، يستغيثُ فتَعرَّض عنْه خزنةُ جهنَّم، ويستصْرِخُ فيَلبَثُ حقْبةً يَنْدَمُ. نعوذُ برَبٍّ قَدِيرٍ، مِن شَرِّ كلّ مصيرٍ، ونَسْأله عفْو مَن رَضِي عنْه، ومغفرة مَن قَبِله، فهوَ وليُّ مسأَلَتي، ومُنجِح طلبتي.

فمَنْ زُحْزِحَ عَن تعذيب رَبّه جُعِل في جَنَّته بقُرْبِه، وخُلِّد في قصورٍ مُشيَّدة ومُلْكٍ بحورِ عينٍ وحفدةٍ، وطيفَ عليْهِ بكُئُوسٍ، أُسْكِنَ في حَظِيرَة قُدُّوس، وتَقلَّبَ في نعيمٍ، وسُقي مِن تسنيمٍ، وشَرب مِن عيْنٍ سَلْسَبيلٍ، ومُزِج له بزنْجبيلٍ مُخَتَّمٍ بمسكٍ وعبيرٍ مُستدِيمٍ للملكِ، مُستشعرٍ لِلسُّرُر، يَشربُ مِن خُمُورٍ في رَوْضٍ مُغدِقٍ، لَيْسَ يُصَدَّعُ مَن شَرِبَه، ولَيْسَ يُنزَف.ذِه منْزلةُ مَن خَشي ربَّهُ، وحذَّر نفسَه معصيتَه، وتلك عقُوبةُ مَن جَحَد مشيئتَه، وسوَّلتْ له نفسُه معصيتَه، فهو قَوْلٌ فصلٌ، وحُكمٌ عدْلٌ، وخبرٌ

قصصٌ قصٌّ، و وَعْظٌ نَصٌّ، ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] نَزَلَ به رُوحُ قُدُسٍ مُبينٍ، علَى علَى قَلْب نبيّ مُهْتدٍ رَشيدٍ، صَلَّتْ عليه رُسُلٌ سفَرَةٌ، مُكَرَّمُونَ بَرَرَةٌ. عُذتُ بربٍّ عَليمٍ رَحيمٍ كَريمٍ مِن شَرِّ كلّ عدُوٍّ لَعِينٍ رَجِيمٍ. فلْيَتضرَّعْ مُتَضرِّعكم، ولْيَبْتَهِلْ مُبْتَهِلُكم، ولْيَستَغْفِرْ كلُّ مرْبوبٍ منكم لي ولكم، وحَسْبي رَبّي وحدَه. (١٩: ١٤٠ـ ١٤٣)

وسيأتي بقيّة هذا الباب في المجلّد الخامس إن شاء الله تعالى.

١ـ فصّلت / ٤٢.

فهرس الموضوعات

الباب الثّاني عشر: في الخلفاء ٥

الفصل الأوّل: [في خلافة أبي بكر بن أبي قُحافة] ٧

[نسب أبي بكر و نبذة من أخبار أبيه] ٧

[أمر المهاجرين و الأنصار بعد بيعة أبي بكر] ١١

[ما روي من أمر فاطمة عليها السلام مع أبي بكر] ١٢

[رسالة أبي بكر لعليّ عليه السلام في شأن الخلافة، رواية أبي حامد المَرْوَرّوذيّ] ١٩

[استدلال قاضي القضاة على إمامة أبي بكر و ردّ المرتضى عليه] ٣٦

[عهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطّاب] ٤٧

الفصل الثّاني: [في خلافة عمر بن الخطّاب] ٥٣

[طرف من أخبار عمر بن الخطّاب] ٥٣

[ذكر ما ورد من الخبر عن إسلام عمر] ٦٢

[خبر عمر مع عمرو بن معديكرب] ٦٥

[في غزواته] ٦٧

[يوم القادسية] ٦٧

[يوم نهاوند] ٧١
[غزوة فلسطين و فتح بيت المقدس] ٧٣
[تاريخ موت عمر و الأخبار الواردة في ذلك] ٧٧
[قصّة الشّورى] ٨٧
[من أخبار يوم الشّورى و تولية عثمان] ٩٨
[من كلام له عليه السلام في وقت الشّورى] ١٠٦

الفصل الثّالث: [في خلافة عثمان بن عفّان] ١٠٩
[نُتَف من أخبار عثمان بن عفّان] ١٠٩
[الإمام عليّ عليه السلام و بيعة عثمان] ١١١
[كلام لعليّ عليه السلام قبل المبايعة لعثمان] ١١٢
[كلام الإمام عليه السلام لعثمان] ١١٣
[ذكر ما كان من أمر طلحة مع عثمان] ١١٩
[ذكر ما أورده القاضي عبد الجبّار من دفع ما تعلّق به النّاس على عثمان من الأحداث] ١٢٣
[ردّ المرتضى على ما أورده القاضي عبد الجبّار من الدّفاع عن عثمان] ١٢٧
[بقيّة ردّ المرتضى على ما أورده القاضي عبد الجبّار من الدّفاع عن عثمان] ١٣٢
[إضطراب الأمر على عثمان ثمّ أخبار مقتله] ١٣٩

الفصل الرّابع: في خلافة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ١٦٩

[بيعة عليّ عليه السلام وأمر المتخلّفين عنها] ١٦٩
[فصل في أنّ جعفرًا وحمزة لو كان حَيّين لبايعا عليًّا عليه السلام] ١٧٣
[من أخبار طلحة والزّبير] ١٧٨
[فصل فيما كان من أمر طلحة والزّبير عند قسم المال في ذلك] ١٩٢
[أمر طلحة والزّبير مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعد بيعتهما له] ١٩٩
[بيعة جَرير بن عبد الله البَجَليّ لعليّ عليه السلام] ٢٠١
[مفارقة جرير بن عبد الله البجليّ لعليّ عليه السلام] ٢٠٥
[دعوة عليّ عليه السلام معاويةَ إلى البيعة والطّاعة، وردّ معاوية عليه] ٢٠٧
[خُطَبه عليه السلام في أوّل خلافته وبعدها] ٢٢٣
[كُتُب الإمام عليه السلام و وصاياه إلى الولاة و الأُمراء و القضاة] ٢٤٢
[ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف] ٢٥٩
[ولاية قيس بن سعد على مصر ثمّ عزله] ٢٨٨
[ولاية محمّد بن أبي بكر على مصر وأخبار مقتله] ٢٩٦
[خطبة عليّ عليه السلام بعد مقتل محمّد بن أبي بكر] ٣٢٧
[ومن كتاب له عليه السلام للأشتر النخعيّ] ٣٣٦
[فصل فيما قيل مِن سبق عليّ عليه السلام إلى الإسلام] ٣٨٠
[القول في إسلام أبي بكر وعليّ عليه السلام وخصائص كلٍّ منهما] ٣٨٨
[ذكر ما كان من صلة عليّ عليه السلام برسول الله صلى الله عليه وآله في صغره] ٤٦١

[فصل فيما ذكر من سبق عليّ عليه السلام إلى الهجرة] ٤٦٥
[موضع الإمام عليه السلام للنّبيّ صلى الله عليه وآله] ٤٦٨
[ذكر الأحاديث والأخبار الواردة في فضائل عليّ عليه السلام] ٤٧٤
[مناقب عليّ عليه السلام و ذكر طُرَف من أخباره في عدله و زهده] ٤٩٠
[علم الإمام عليه السلام] ٤٩٨
[كلامه عليه السلام في السّلف الصّالح من آبائه و كيفيّة علمهم] ٤٩٨
[الأخبار الواردة عن معرفة الإمام عليّ عليه السلام بالأُمور الغيبيّة] ٥٠١
[فصل في ذكر أُمور غيبيّة، أخبر بها الإمام عليه السلام ثمّ تحقّقت] ٥٠٩
[جملة من أخبار عليّ عليه السلام بالأُمور الغيبيّة] ٥٢١
[في شجاعته عليه السلام] ٥٢٤
[حبّه عليه السلام للشّهادة] ٥٢٦
[في حبّ عليّ عليه السلام] ٥٢٧
[كلام أبي جعفر الحسنيّ في الأسباب الّتي أوجبت محبّة النّاس لعليّ عليه السلام] ٥٢٨
[خطبة منسوبة للإمام عليّ عليه السلام خالية من حرف الألف] ٥٣٢
فهرس الموضوعات ٥٣٧